الأمثل

في تفسير كتاب الله المُنزَل

مع تهذيب جديد

تأليف العلامة المفسّر

آية الله الشّيخ

ناصِر مَكارِم الشّيرازي

المجلد الثالث عشر

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

الأمثل

٢٥/٢٦

الفتح

الحديد

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

٢٥ - ٢٦

بسم الله الرحمن الرحيم

شبكة الفكر
alfeker.net

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

مع تهذيب جديد

تأليف

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

الجزء الخامس والعشرون

منشورات

مؤسسة الأعلى للمطبوعات

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى المصححة

جميع الحقوق محفوظة و مسجلة للناشر

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣م

يحظر نسخ أو تصوير أو ترجمة أو إعادة التنضيد بشكل كامل أو جزئي أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على إسطوانات ضوئية إلا بموافقة خطيّة من الناشر.

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة
مفرق سنتر زعرور - ص ب : ١١/٧١٢٠
هاتف: ٤٥٠٤٢٦ - ٠١/٤٥٠٤٢٧ - فاكس: ٠١/٤٥٠٤٢٧

Published by Alaalami Library
Beirut- Lebanon po. Box 7120
Tel - Fax: 450427
E-mail: alaalami@yahoo.com.

يطلب في العراق : كربلاء - شارع السدرة - تلفون : ٠٧٨٠١٥٦١٩٨٠

سُورَةُ الفَتْح

مدنيّة وعدد آياتـها تسعٌ وعشرون

محتوى السورة

هذه السورة كما هو ظاهر من اسمها تحمل رسالة الفتح والنصر! الفتح والنصر على أعداء الإسلام، الفتح المبين والأكيد «سواءً كان هذا الفتح متعلقاً بفتح مكّة أو بصلح الحديبيّة أو فتح خيبر أو كان هذا الفتح بشكل مطلق».

ومن أجل أن نفهم محتوى هذه السورة فينبغي أن نعرف - قبل كلّ شيء - أنّ هذه السورة نزلت في السنة السادسة للهجرة بعد قضيّة «صلح الحديبية».

وبيان ذلك. . أنّ النّبي الكريم ﷺ صمّم في السنّة السادسة للهجرة مع أصحابه من المهاجرين والأنصار وباقي المسلمين أن يتحرّكوا نحو مكّة للعُمرة، وكان من قبلُ قد أخبر المسلمين بأنّه رأى رؤيا في منامه وكأنّه مشغول بأداء مناسكه مع أصحابه في المسجد الحرام معتمرين فعقد المسلمون إحرامهم عند «ذي الحليفة» «المنطقة التي تقرب من المدينة المنوّرة» وتحرّكوا نحو مكّة المكرّمة في إبل كثيرة لتُنحر «يوم الهدي» هناك.

وكانت الحالة التي يتحرك النّبي ﷺ عليها توحي بصورة جيدة أنّه لا هدف لديه سوى هذه العبادة الكبرى. . إلى أن وصل النّبي منطقة الحديبيّة «وهي قرية على مقربة من مكّة ولا تبعد عنها أكثر من عشرين كيلو متراً».

إلاّ أنّ قريشاً علمت بوصول النّبي إلى الحديبيّة فأوصدت بوجهه الطريق ومنعته من الدخول إلى مكّة المكرمة.

وبهذا ألغت قريش جميع السنن التي ترتبط بأمن المسجد الحرام وضيوف الله والشهر الحرام ووضعتها تحت أقدامها. . إذ كانت تعتقد بحرمة الأشهر الحرم «ومن ضمنها شهر ذي القعدة الذي عزم النّبي ﷺ فيه على العمرة» وخاصّةً إذا كان الناس حال الإحرام فلا ينبغي التعرّض لهم حتى لو كان المحرم قاتل واحد من رجالهم، ورُئي محرماً في مناسكه فلا يُمس بسوء أبداً».

وفي هذا المكان أي «الحديبية» جرى ما جرى بين رسول الله والمشركين من الكلام حتى انتهى إلى عقد معاهدة الصلح بين المسلمين وبين المشركين من أهل مكّة وقد سُمّي هذا الصلح بصلح الحديبيّة وسنتحدث عنه في الصفحات المقبلة بإذن الله.

وعلى كلّ حال فقد مُنع النّبي أن يدخل مكّة ويؤدّي مناسك العمرة.. فاضطُر النّبي ﷺ أن يأمر أصحابه بأن ينحروا إبلهم ويحلقوا رؤوسهم ويُحلّوا من إحرامهم! وأن يعودوا نحو المدينة!

وهنا غمرَ المسلمين طوفانٌ من الحزن والغمّ وربّما تغلّبَ الشك والترديد على قلوب بعض الأفراد ضعيفي الإيمان!

وعن عبد الله بن مسعود قال: أقبل رسول الله من الحديبيّة فجعلت ناقته تثقل فتقدّمنا فأنزل الله عليه ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ فأدركنا رسول الله وبه من السرور ما شاء الله. فأخبر أنّها نزلت عليه(١).

ومن هنا فإنّه يبدو واضحاً هذا الجو الخاص الحاكم على هذه السورة وبمراجعة إجمالية للسورة يمكن القول إنّها تتألف من سبعة أقسام!..

١ - تبدأ السورة بموضوع البشرى بالفتح كما أنّ آياتها الأخيرة لها علاقة بهذا الموضوع أيضاً، وفيها تأكيد على تحقق رؤيا النّبي التي تدور حول دخوله وأصحابه مكّة وأداء مناسك العمرة.

٢ - يتحدّث قسمٌ آخر من هذه السورة عن الحوادث المتعلّقة بصلح الحديبية ونزول السكينة على قلوب المؤمنين و«بيعة الرضوان» وما إلى ذلك!..

٣ - ويتحدّث قسم ثالث منها عن مقام النّبي ﷺ وهدفه الأسمى.

٤ - ويكشف القسم الرابع الستار عن غَدر المنافقين ونقضهم العهد ونكثهم له ويعطي أمثلةً من أعذارهم الواهية في مسألة عدم مشاركتهم النّبي جهاده المشركين والكفّار.

٥ - وفي قسم آخر يقع الكلام على طلبات «المنافقين» في غير محلّها.

٦ - والقسم السادس يوضح من هم المعذورون الذين لا حرج عليهم!

٧ - وأخيراً.. فإنّ القسم السابع يتحدّث عن خصائص أصحاب النّبي وأتباعه في

(١) تلخيص من تفسير مجمع البيان، تفسير القمي وتفسير في ظلال القرآن.

طريقته وسنّته وصفاتهم التي يتميّزون بها. . وبشكل عام فإنّ آيات هذه السورة حسّاسة للغاية كما أنّها مصيريّة وخاصّة لمسلمي اليوم الذين يواجهون الحوادث المختلفة في مجتمعاتهم الإسلامية ففيها إلهام كبير لهم!. .

فضل تلاوة سورة الفتح

تلاحظ روايات عجيبة في فضل هذه السورة في المصادر الإسلامية، ففي حديث عن أنس أنّه قال: حين كنّا نعود من الحديبيّة وكان المشركون قد منعونا من الدخول الى مكّة وأداء مناسك العمرة فكنّا في حزن وغمٍّ شديدين فأنزل الله آيته: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

فقال النّبي ﷺ: «لقد أنزلت عليَّ آية هي أحبُّ إليَّ من الدنيا كلّها» وفي بعض الروايات: «لقد أُنزلت عليَّ سورة هي أحبُّ من الدنيا كلّها»(١).

ويقول عبد الله بن مسعود حين كنّا نرجع من الحديبيّة ونزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ على النّبي سُرَّ سروراً لا يعلم مداه إلاّ الله(٢).

ونقرأ في حديث آخر عن النّبي ﷺ قوله: «من قرأها فكأنّما شهد مع محمّد فتح مكّة». وفي رواية «فكأنّما كان مع من بايع محمّداً تحت الشجرة»(٣).

وأخيراً نقرأ حديثاً للإمام الصادق عليه السلام يقول فيه: «حصّنوا أموالكم ونساءكم وما ملكت أيمانكم من التلف بقراءة: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ فإنّه إذا كان ممّن يدمن قراءتها نادى مناد يوم القيامة حتى يسمع الخلائق أنت من عبادي المخلصين، الحقوه بالصالحين من عبادي وادخلوه جنّات النعيم واسقوه من رحيق مختوم بمزاج الكافور»(٤).

ومن الواضح أنّ كلّ هذه الفضيلة والفخر لا يحصل بتلاوة خالية من التفكّر، بل الهدف الأصلي من تلاوة هذه السورة هو تطبيق أعمال القارئ وخلقه وطبعه على مفاد هذه السورة ومضامينها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ١٠٨. (٢) المصدر السابق، ص ١٠٩.
(٣) المصدر السابق.
(٤) ثواب الأعمال طبقاً لما ورد في تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٤٦.

التّفسير

الفتح المبين

في الآية الأولى من هذه السورة بشرى عظيمة للنبيّ ﷺ بشرى هي عند النّبي طبقاً لبعض الرّوايات أحبُّ إليه من الدنيا وما فيها إذ تقول الآية: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

﴿... فَتْحًا مُّبِينًا﴾ تظهرُ آثاره في حياة المسلمين في فترة وجيزة، وفي فترة مديدة أيضاً.. وذلك في انتشار الإسلام.. فتحاً يقل نظيرهُ أو ينعدم نظيره في طول تاريخ الإسلام وعلى امتداده.

وهنا كلام عريض وبحث طويل بين المفسّرين.. حول المراد من هذا الفتح أيُّ فتح هو؟!

فأكثر المفسّرين يرون أنّه إشارة إلى ما كان من نصيب للمسلمين من الفتح الكبير على أثر «صلح الحديبية»(١).

وبعض ذهبوا إلى أنّه «فتح مكّة».

وآخرون قالوا بأنّه «فتح خيبر».

وآخرون أنّه إشارة إلى انفتاح أسرار العلوم على النّبي ﷺ.

غير أنّ قرائن كثيرة لدينا ترجح أنّ هذا الفتح هو ما يتعلّق بموضوع صلح الحديبية.

ومن الأفضل وقبل الولوج في تفسير الآيات أن نعرض ولو بشكل مضغوط قصة صُلْح الحديبيّة ليتّضح «المقام» وليكون هذا العرض الموجز بمثابة شأن نزول الآيات أيضاً.

قصّة «صلح الحديبية»

في السنة السادسة للهجرة وفي شهر ذي القعدة منها تحرّك النّبي نحو مكّة لأداء مناسك العُمرة ورغب المسلمين جميعاً في هذا الأمر.. غير أنّ قسماً منهم امتنع عن

---

(١) اختار هذا التّفسير جماعة منهم أبو الفتوح الرازي في تفسيره، والآلوسي في روح المعاني، والفيض الكاشاني في تفسير الصافي والعلاّمة الطباطبائي في الميزان.. في حين أنّ بعض المفسّرين يرجحون أنّ المراد من هذا الفتح هو فتح مكّة كما هو في تفسير التبيان للطوسي، والكشاف للزمخشري وتفسير الفخر الرازي وغيرهم.. أمّا العلاّمة الطبرسي فقد جمع بين القولين في مجمع البيان مع أقوال أُخرى إلاّ أنّه يميل إلى تفسير الطائفة الثانية..

ذلك، في حين أنّ معظم المهاجرين والأنصار وجماعة من أهل البادية عزموا على الاعتمار[١] مع النّبي فساروا نحو مكّة!...

فأحرم هؤلاء المسلمون الذين كانوا مع النّبي وكان عددهم في حدود «الألف والأربعمائة» ولم يحملوا من أسلحة الحرب شيئاً سوى السيوف التي كانت تعدّ أسلحةً للسفر فحسب!.

ولمّا وصل النّبي إلى «عسفان» التي لا تبعد عن مكّة كثيراً أُخبر أنّ قريشاً تهيّأت لصدّه وصمّمت على منعه من الدخول إلى مكّة. ولمّا بلغ النّبي الحديبيّة [وهي قرية على مسافة عشرين كيلو متراً من مكّة وسمّيت بذلك لوجود بئر فيها أو شجرة] أمر أصحابه أن يحطّوا رحالهم فيها. فقالوا: يا رسول الله ليس هنا ماء ولا كلأ، فهيّأ النّبي عن طريق الإعجاز لهم ماءً من البئر الموجودة في تلك المنطقة.. وبدأ التزاور بين سفراء النّبي وممثليه وسفراء قريش وممثليها لتُحلّ المشكلة على أي نحو كان، وأخيراً جاء عروة بن مسعود الثقفي الذي كان رجلاً حازماً عند النّبي فقال له النّبي: «إنّا لم نجىء لقتال أحد ولكن جئنا معتمرين...». هذا وقد لاحظ عروة الثقفي، ضمناً حالة الأصحاب وهم يكتنفون نبيّهم عند وضوئه فلا يَدَعُون قطرةً تهوي إلى الأرض منه.

وحين رجع عروة إلى قريش قال: لقد ذهبت إلى قصور كسرى وقيصر والنجاشي فلم أرَ قائداً في قومه في عظمته كعظمة محمّد بين أصحابه.. وقال عروة لرجال قريش أيضاً إذا كُنتم تتصورون أنّ أصحاب محمّد يتركونه فأنتم في خطأ كبير.. فأنتم في مواجهة أمثال هؤلاء الرجال الذين يؤثرون على أنفسهم فاعرفوا كيف تواجهونهم!؟

ثمّ إنّ النّبي أمرَ عمرَ أن يمضي إلى مكّة ليطلع أشراف قريش على الهدف من سفر النّبي فاعتذر عمر وقال إنّ بينه وبين قريش عداوة شديدة وهو منها على حذر فالأفضل أن يرسل عثمان بن عفان ليبادر إلى هذا العمل، فمضى عثمان إلى مكّة ولم تمضِ فترة حتى شاع بين المسلمين خبر مفاده أنّ عثمان قُتل، فاستعد النّبي لأن يواجه قريشاً بشدّة! فطلب بتجديد البيعة من أصحابه فبايعوه تحت الشجرة بيعة سُمّيت «بيعة الرضوان» وتعاهدوا على مواصلة الجهاد حتى آخر نفس؛ إلاّ أنّه لم يمضِ زمن يسير حتى عاد

---

(١) الاعتمار مصدر من: اعتمر والعمرة أو اسم مصدر من عمر وكلا المصدرين بمعنى واحد وهو الزيارة مطلقاً (لغةً) غير أنّه اصطلح عليهما في زيارة بيت الله خاصّة.

عثمان سالماً وأرسلت قريش على أثره سهيل بن عمرو للمصالحة مع النّبي غير أنّها أكّدت على النّبي أنّه لا يدخل مكّة في عامه هذا أبداً.

وبعد كلام طويل تمّ عقد الصلح بين الطرفين وكان من موادّه ما بيّناه آنفاً وهو أن يغض المسلمون النظر عن موضوع العمرة لذلك العام وأن يأتوا في العام القابل الى مكّة شريطة أن لا يمكثوا في مكّة أكثر من ثلاثة أيّام وأن لا يحملوا سلاحاً غير سلاح السفر كما كان من مواد العقد أُمور أُخرى تدور حول سلامة الأرواح والأموال التي تعود للمسلمين والذين يأتون مكّة منهم [من قِبَل المدينة] ومن مواد العقد أيضاً إيقاف القتال بين المسلمين والمشركين لعشر سنين وأن يكون مسلمو مكّة أحراراً في أداء مناسكهم وفرائضهم الإسلامية.

وكان هذا العقد [أو هذه المعاهدة] بمثابة عدم التعرض لكلا الجانبين ولحسم المعارك المستمرّة بين المسلمين والمشركين بصورة مؤقتة.

وكان مؤدّى هذه المعاهدة وما يتضمّنه عقد الصلح بالنحو التالي:

«قال النّبي لعلي اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم: فقال سهيل بن عمرو الذي كان سفير المشركين: لا أعرف هذه العبارة بل ليُكتبْ بسمِكَ اللّهمّ! فقال النّبي لعلي اكتب: بسمك اللّهمّ، ثمّ قال النّبي لعلي اكتبْ: هذا ما صالح عليه محمّد رسول الله سهيل بن عمرو، فقال سهيل: لو كنّا نعرفك رسول الله لما حاربناك فاكتب اسمك واسم أبيك فحسب. فقال النبيّ: لا مانع من ذلك اكتب: هذا ما صالح عليه محمّد بن عبد الله سهيل بن عمرو أن يترك القتال عشر سنين ليجد الناس مأمنهم ثانية، وإضافة إلى ذلك من يأتِ محمّداً من قريش مسلماً دون إذن وليّه فيجب إعادته الى أهله ومن جاء قريشاً من أصحاب محمّد فلا يجب إعادته إلى محمّد!

والجميع أحرار فمن شاء دخل في عهد محمّد ومن شاء دخل في عهد قريش!

ويتعهّد الطرفان أن لا يخون كلّ منهما [صاحبه] الآخرَ وأن يحترم ماله ونفسه!

ثمّ بعد هذا ليس لمحمّد هذا العام أن يدخل مكّة، لكن في العام المُقبل تخرج قريش من مكّة لثلاثة أيّام ويأتي محمّد وأصحابه إلى مكّة على أن لا يمكثوا فيها أكثر من ثلاثة أيّام ويؤدّوا مناسك العمرة ثمّ يعودوا إلى أهلهم شريطة أن لا يحملوا معهم سلاحاً سوى السيف الذي هو من عُدة السفر وأن يكون في الغمد وشهد على هذه المعاهدة جماعة من المسلمين وجماعة من المشركين وأملى المعاهدة علي بن أبي طالب عليه السلام»(١).

---

(١) منقول بتصرّف يسير عن تأريخ الطبري، ج٢، ص٢٨١.

وذكر العلاّمة المجلسي في «بحار الأنوار» مواد أُخرى منها:

«ينبغي أن يكون الإسلام في مكّة غير خفي وأن لا يُجبر أحد في اختيار مذهبه وأن لا ينالَ المسلمين أذى من المشركين»(١).

وهذا المضمون كان موجوداً في التعبير السابق بصورة إجمالية.

وهنا أمر النّبي ﷺ أن تنحر الإبل التي جيء بها مع المسلمين وأن يحلق المسلمون رؤوسهم وأن يتحلّلوا من إحرامهم!..

لكن هذا الأمر كان على بعض المسلمين عسير للغاية وغير مستساغ أيضاً.. لأنّ التحلل من الإحرام في نظرهم دون أداء العمرة غير ممكن!! لكنّ النّبي تقدّم بنفسه ونحر «هديه» وتحلّل من إحرامه وأشعرَ المسلمين أنّ هذا «استثناءٌ» في قانون الإحرام أمر به الله سبحانه نبيّه!

ولمّا رأى المسلمون ذلك من نبيّهم أذعنوا للأمر الواقع ونفذوا أمر النّبي بدقة وعزموا على التوجّه نحو المدينة من هناك، غير أنّ بعضهم كان يحسّ كأنّ جبلاً من الهمِّ والحزن يجثم على صدره لأنّ ظاهر القضية أنّ هذا السفر كان غير موفّق بل مجموعة من الهزائم! لكنّ مثل هذا وأضرابه لم يعلموا ما ينطوي وراء صلح الحديبية من انتصارات للمسلمين ولمستقبل الإسلام، وفي ذلك الحين نزلت سورة الفتح وأعطت للنّبي الكريم بشرى كبرى بالفتح المبين(٢).

الآثار السياسية والاجتماعية والمذهبية لصلح الحديبية:

يتّضح بمقايسة إجمالية بين حال المسلمين في السنة السادسة للهجرة «أي عند صلح الحديبية» وحالهم بعدها بسنتين حيث تحرّك المسلمون لفتح مكّة بعشرة آلاف مقاتل ليردّوا على نقض العهد بشدّة، وقد فتحوا مكّة دون أية مواجهة عسكرية لأنّ قريشاً لم تجد في نفسها القدرة على المقاومة أبداً.

يتّضح بهذه المقايسة الإجمالية - سعة ردّ الفعل - التي أحدثتها معاهدة صلح الحديبية!..

وباختصار فإنّ المسلمين حصلوا على امتيازات عديدة من وراء هذا الصلح وفتحاً كبيراً نذكرها على النحو التالي:

---

(١) بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٣٥٢.

(٢) راجع سيرة ابن هشام، ج٣، ص٣٢١ - ٣٢٤، تفسير مجمع البيان وتفسير في ظلال القرآن والكامل لابن الأثير، ج٢ ومصادر أخرى [مع شيء من التلخيص طبعاً].

١ - بيّنوا عملياً للمضللين من أهل مكّة أنّهم ليس لديهم نيّة للحرب وسفك الدماء وأنّهم يحترمون مكّة وكعبتها المقدسة وكان هذا الأمر سبباً لاكتساب قلوب الكثيرين نحو الإسلام.

٢ - اعترفت قريش لأوّل مرّة بالإسلام والمسلمين «بصورة رسمية» وكان ذلك سبباً لتثبيت موقعهم في جزيرة العرب!..

٣ - استطاع المسلمون بعد صلح الحديبيّة أن يمضوا حيث يشاؤون وأن تبقى أرواحهم وأموالهم في مأمن من الخطر واتصلوا بالمشركين من قريب اتصالاً أثمر نتيجته، فكان أن عرف المشركون الإسلام بصورة أكثر واسترعى أنظارهم نحوه!.

٤ - انفتح الطريق بعد صلح الحديبيّة لنشر الإسلام في الجزيرة العربية. وأثار موقف النّبي الإيجابي من الصلح القبائل العربية وأصلح نظرتها إلى الإسلام ورسوله الكريم، وحصل المسلمون على مجال إعلامي واسع في هذا الصدد.

٥ - هيّأ صلح الحديبيّة الطريق لفتح «خيبر» واستئصال هذه الغدة السرطانية «المتمثلة باليهود» والتي كانت تشكل خطراً مهمّاً «بالفعل والقوّة» على الإسلام والمسلمين!

٦ - وأساساً فإنّ استيحاش قريش من مواجهة الجيش الذي كان يتألّف من ألف وأربعمائة مسلم فحسب ولا يحمل أي منهم سلاحاً سوى سلاح السفر وقبول قريش بمعاهدة الصلح كان بنفسه أيضاً عاملاً مهماً على تقوية المعنويات عند المسلمين وهزيمة أعداء الإسلام إلى درجة أنّهم كانوا يتهيّبون من مواجهة المسلمين!.

٧ - وبعد صلح الحديبيّة كتب النّبي ﷺ كتباً و(رسائل) متعددة إلى رؤساء الدول الكبرى (إيران والروم والحبشة) وملوك العالم البارزين يدعوهم فيها إلى الإسلام، وهذا بنفسه يدل على أن صلح الحديبيّة أعطى المسلمين الثقة بأنفسهم وأن ينفتحوا لا على الجزيرة العربية فحسب بل على آفاق العالم قاطبة!

والآن لنعد ثانية إلى تفسير الآيات!...

نستطيع أن ندرك ممّا ذكر آنفاً - بشكل جيد - أنّ صلح الحديبيّة كان بحق انتصاراً للإسلام وفتحاً للإسلام والمسلمين فلا غرابة أن يعبّر عنه القرآن بالفتح المبين!.

ثمّ بعد هذا كله فإنّ هناك قرائن كثيرة تؤيد هذا التّفسير..

١ - جملة - فتحنا - التي جاءت بصيغة الفعل الماضي تدل على أنّ هذا الأمر قد تحقق عند نزول الآيات في حين أنّه لم يكن وقتئذ أي شيء سوى صلح الحديبية!.

٢ - زمان نزول الآيات المشار إليها آنفاً والآيات الأُخرى المذكورة في هذه السورة التي تمدح المؤمنين وتذم المنافقين والمشركين في صلح الحديبيّة كلّ ذلك شاهد آخر على هذا المعنى، والآية (٢٧) من سورة الفتح التي تؤكّد على تحقق رؤيا النّبي ﷺ ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ هي شاهد بليغ على أنّ هذه السورة نزلت بعد الحديبيّة وقبل فتح مكّة!.

٣ - هناك روايات كثيرة تعبّر عن صلح الحديبيّة بأنّه «الفتح المبين»! ومن ضمنها ما ورد في تفسير «جوامع الجامع» أنّه حين كان النّبي راجعاً من الحديبيّة ونزلت عليه سورة الفتح.. قال أحد أصحابه: ما هذا الفتح؟! لقد صُددنا عن البيت وصُدّ هدينُا!.

فقال النّبي ﷺ: «بئس الكلام هذا بل هو أعظم الفتوح قد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراع ويسألوكم القضيّة! ورغبوا إليكم في الأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا..»[١].

ثمّ ذكّرهم النّبي ﷺ ما تحمّل المشركون من مساءة يوم بدر ويوم الأحزاب فصدّق المسلمون رسولهم على أنّ هذا أعظم الفتوح وأنّهم قضوا عن عدم اطلاعهم بما قالوا[٢].

يقول «الزهري» وهو من التابعين: لم يكن فتح أعظم من الحديبيّة وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكّن الإسلام في قلوبهم وأسلم في ثلاث سنين خلق كثيرٌ كثر بهم سواد الإسلام[٣].

ففي هذه الأحاديث إشارة إلى جانب من الامتيازات التي حصل عليها المسلمون ببركة صلح الحديبية.

إلاّ أنّ حديثاً واحداً ورد عن الإمام الرضا «علي بن موسى» عليه السلام يقول: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ نزلت بعد «فتح مكّة»[٤].

بيد أنّه يمكن توجيه هذه الرواية ببساطة بالقول بأنّ صلح الحديبيّة كان مقدمةً لفتح مكّة بعد سنتين، فيرتفع الإشكال.

---

(١) جوامع الجامع «طبقاً لنور الثقلين»، ج٥، ص٤٨، ح ٩.
(٢) تفسير الدر المنثور، ج٦، ص٦٨. (٣) المصدر السابق، ص ١٠٩.
(٤) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٤٨.

أو بتعبير آخر أنّ «صلح الحديبية» كان سبباً لفتح خيبر في فترة وجيزة «في السنة السابعة للهجرة» وأوسع من ذلك كان سبباً لفتح مكّة (السنة الثامنة للهجرة) وانتصارات الإسلام في مجالات شتى من حيث النفوذ في قلوب العالمين!.

وبهذا يمكن الجمع بين التفاسير الأربعة مع هذا القيد وهو أنّ صلح الحديبيّة يشكل المحور الأصلي لهذه التفاسير!.

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾

التّفسير

نتائج الفتح المبين الكبرى

في هاتين الآيتين بيان للنتائج المباركة من «الفتح المبين» [صلح الحديبية] والتي ورد ذكرها في الآية السابقة فتقول الآيتان: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾.

وبهذا فإنّ الله منح نبيّه الكريم في ظل هذا الفتح المبين أربع مواهب عظيمة هي «المغفرة»، و«إتمام النعمة»، و«الهداية» و«النصر».

بحثان

١ - الإجابة على بعض الأسئلة المهمة:

تُثار هنا أسئلة كثيرة دأب المفسّرون منذ زمن قديم حتى يومنا هذا بالإجابة على هذه الأسئلة!

ومن هذه الأسئلةِ، الأسئلةُ الثلاثة التالية حول قوله تعالى لنبيّه: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

١ - ما المراد من العبارة الآنفة: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ مع أنّ النّبي معصوم من الذنب؟!

٢ - وعلى فرض أن نغض النظر عن هذا الإشكال! فما علاقة المغفرة بالفتح وصلح الحديبية؟!

٣ - وإذا كان المقصود من قوله تعالى ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ هو الذنوب المستقبلية! فكيف

يمكن أن تكون الذنوب الآتية تحت دائرة العفو والمغفرة. أليس مثل هذا التعبير ترخيصاً لارتكاب الذنب؟!

وقد أجاب كلّ من المفسّرين بنحو خاص على مثل هذه الإشكالات، ولكن للحصول على الإجابة «الجامعة» لهذه الإشكالات والتّفسير الدقيق لهذه الآيات لابدّ من ذكر مقدمة لهذا البحث وهي:

إنّ المهم هو العثور على العلاقة الخفيّة بين فتح الحديبيّة ومغفرة الذنب لأنّها المفتاح الأصيل للإجابة على الأسئلة الثّلاثة المتقدّمة!

وبالتدقيق في الحوادث التاريخية وما تمخّضت عنه نصل إلى هذه النتيجة، وهي أنّه حين يظهر أيّ مذهب حق ويبرز في عالم الوجود فإنّ أصحاب السنن الخرافية الذين يرون أنفسهم ووجودهم في خطر يكيلون التهم والأُمور التافهة إليه ويشيعون الشائعات والأباطيل وينشرون الأراجيف الكاذبة بصدده وينسبون إليه الذنوب العديدة وينتظرون عاقبته وإلى أين ستصل؟!

فإذا واجه هذا المذهب في مسيره الانحدار فإنّ ذلك يكون ذريعة قوية لإثبات النِّسَب الباطلة ضدّه على أيدي أعدائه ويصرخون: ألم نقل كذا وكذا!!

ولكن حين ينال الانتصار وتحظى مناهجه وخططه بالموفقية فإنّ تلك النسب تمضي كما لو كانوا قد رقموا على الماء!! وتتبدّل جميع أقوالهم إلى حسرات وندامة ويقولون عندئذ لم نكن نعلم!

وخاصّةً في شأن النّبي محمّد ﷺ كانت هذه التصوّرات والذنوب التي وصموها به كثيرة!! إذ عدّوه باغياً للحرب والقتال ومثيراً لنار الفتنة معتداً بنفسه لا يقبل التفاهم وما إلى ذلك!

وقد كشف صلح الحديبيّة أنّ مذهبه على خلاف ما يزعمه أعداؤه إذ كان مذهباً «تقدّمياً» إلهياً.. وكان آيات قرآنه ضامنة لتربية النفوس الإنسانية وطاوية لصحائف الظلم والاضطهاد والحرب والنزيف الدموي!.

فهو يحترم كعبة الله وبيته العتيق ولا يهاجم أية جماعة أو قبيلة دون سبب، فهو رجل منطقيّ ويعشقه أتباعه، ويدعو جميع الناس بحقّ إلى محبوبهم «الله» وإذا لم يضطره أعداؤه إلى الحرب فهو داعية للسلام والصلح والدعة!...

وعلى هذا فقد غسل صلح الحديبيّة جميع الذنوب التي كانت قبل الهجرة وبعد

الهجرة قد نسبت إلى النّبي ﷺ أو جميع الذنوب التي نسبت إليه قبل هذا الحادث أو ستنسب إليه في المستقبل احتمالاً . . . وحيث إنّ الله جعل هذا الفتح نصيب النّبي فيمكن أن يقال إن الله غفر للنبي ذنوبه جميعاً.

والنتيجة أنّ هذه الذنوب لم تكون ذنوباً حقيقية أو واقعية بل كانت ذنوباً تصورية وفي أفكار الناس وظنّهم فحسب، وكما نقرأ في الآية (١٤) من سورة الشعراء في قصة موسى قوله مخاطباً ربّه ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ في حين أنّ ذنبه لم يكن سوى نصرة المظلوم من بني إسرائيل وسحق ظلم الفراعنة لا غير!.

وبديهي أنّ هذا الفعل لا يعدّ ذنباً، بل دفاع عن المظلومين ولكنّه كان يعدّ ذنباً في نظر الفراعنة وأتباعهم.

وبتعبير آخر إنّ «الذنب» في اللغة يعني الآثار السيئة والتبعات التي تنتج عن العمل غير المطلوب، فكان ظهورُ الإسلام في البداية تدميراً لحياة المشركين، غير أنّ انتصاراته المتلاحقة والمتتابعة كانت سبباً لنسيان تلك التبعات.

فمثلاً لو كان لدينا بيت قديم يوشك على الخراب ولكنّنا نلتجىءُ إليه ولنا به علاقة وطيدة فقام أحد الناس بتخريبه فإنّنا نغضب منه ونخطّئه على فعله ولكنّه بعد بنائه من جديد مُحكماً سامقاً فإنّ أحكامنا السابقة تمضي أدراج الرياح!

وهكذا بالنسبة لمشركي مكّة سواءً قبل هجرة النّبي أم بعدها إذ كانت أفكارهم وأذهانهم مبلبلة عن الإسلام وشخص النّبي بالذات، غير أنّ انتصارات الإسلام أزالت هذه التصورات والأفكار!

أجل: لو أخذنا مسألة العلاقة بين مغفرة هذه الذنوب وفتح الحديبيّة بنظر الاعتبار لاتضح الموضوع بجلاء، واستفدنا العلاقة من «اللام» في ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ في كونها مفتاح «الرمز» لفتح معنى الآية المغلق!

غير أنّ من لم يلتفت إلى هذه «اللطيفة»... جعل عصمة النّبي ﷺ موضع استفهام وقال «والعياذ بالله»: إنّ لديه ذنوباً غفرها الله بفتح «الحديبية» أو حمل الآية على خلاف ظاهر معناها وأنّ المراد (الذنوب عامّة).

وقال بعضهم: بل هي ذنوب الناس التي ارتكبوها في حقّ النّبي كأذاهم والإساءة إليه وقد غفرها الله بفتح «الحديبية» [وفي هذه الصورة يكون الذنب قد أُضيف إلى مفعوله معنىً لا إلى فاعله].

أو حملوا الذنب على [ترك الأولى].

وبعضهم فسّر ذلك بالفرض فقال: ليغفر لك الذنب الذي لو كنت عملته فَرضاً أو ستعمله فقد غفر الله كلّ ذلك لك!.

لكن من المعلوم أنّ كلّ هذه التفاسير يمكن القول بأنّها تعسفيّة ودون أي دليل! إذ لو خدشنا في عصمة الأنبياء.. لأنكرنا فلسفة وجودهم، لأنّ النّبي ينبغي أن يكون قدوة في كلّ شيء، فكيف يستطيع المذنب أن يفي بهذا المنهج ويؤدّي حقّه؟!

زدْ على ذلك، فالمذنب بنفسه يحتاج إلى قائد يرشده ويدلّه ليهتدي به.

وهناك تفاسير أُخرى تخالف ظاهر الآية، والإشكال المهم فيها أنّها تقطع العلاقة ما بين مغفرة الذنب والفتح «صلح الحديبية».

فأحسنُ التفاسير هو ما ذكرناه آنفاً، وهو ما يجيب على الأسئلة الثلاثة المتقدّمة في مكان واحد! ويبيّن ارتباط الجمل في الآية..

كل ذلك هو في شأن الموهبة الأولى من المواهب الأربع التي وهبها الله نبيّه في صلح الحديبية!.

أمّا «إتمام النعمة» على النّبي وهدايته إيّاه الصراط المستقيم ونصره النصر العزيز.. بعد الفتح في الحديبيّة فليست هذه الأُمور ممّا تخفى على أحد.. فقد انتشر الإسلام بسرعة وسخّر القلوب المهيّأة! وظهرت عظمة تعليماته للجميع وأبطل السموم (المضادّة) وتمّت نعمة الله على النّبي وعلى المسلمين وهداهم الصراط المستقيم نحو الانتصارات حتى أنّ جيش الإسلام لم يجد أية مقاومة في فتح مكّة وفتح أكبر حصن للمشركين!.

٢ - المراد من ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ و﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾...

قرأنا في الآية السابقة قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فما المراد من هذا النص ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ اختلف المفسّرون في بيان الآية:

فقال بعضهم: المراد بما تقدّم هو عصيان آدم وحواء وترك الأولى من قبلهما، أمّا المراد بما تأخّر فهو ذنوب أُمّة محمّد ﷺ.

وقال بعضهم: ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ إشارة إلى المسائل المتعلّقة بما قبل النبوة، و﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ إشارة إلى المسائل المتعلّقة بما بعدها..

وقال بعضهم: المراد بما تقدّم هو ما تقدّم على صلح الحديبية، وما تأخّر أي ما تأخّر عنها من أمور وحوادث!.

ولكن مع ملاحظة التّفسير الذي أوضحناه في أصل معنى الآية وخاصةً العلاقة بين مغفرة الذنب مع مسألة فتح الحديبية، يبدو بجلاء أنّ المراد هو التهم الباطلة التي وصمها المشركون - بزعمهم - بالنّبي ﷺ في ما سبق وما لحق ولو لم يتحقّق هذا النصر العظيم لكانوا يتصوّرون أنّ جميع هذه الذنوب قطعية..

غير أنّ هذا الانتصار الذي تحقّق للنّبي طوى جميع الأباطيل والتهم (المتقدّمة) في حقّ النّبي وما سيُتّهم به في المستقبل في حال عدم انتصاره!.

والشاهد الآخر على هذا التّفسير هو الحديث المنقول عن الإمام الرضا علي بن موسى عليه السلام إذ سأله المأمون عن تفسير هذه الآية فقال: «لم يكن أحد عند مشركي أهل مكّة أعظم ذنباً من رسول الله ﷺ لأنّهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاثمائة وثلاثين صنماً فلمّا جاءهم بالدعوة إلى كلمة الإخلاص «التوحيد» كبر ذلك عليهم وقالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً إنّ هذا لشيء عجابٌ إلى أن قالوا ما سمعنا بهذا في الملّة الآخرة إن هذا إلاّ اختلاق[1].

فلمّا فتح الله تعالى على نبيّه مكّة قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴿٢﴾﴾ عند مشركي أهل مكّة بدعائك إلى توحيد الله فيما تقدّم وما تأخّر لأنّ مشركي مكّة أسلم بعضهم وخرج بعضهم عن مكّة ومن بقي منهم لم يقدر على إنكار التوحيد عليه إذ دعا الناس إليه فصار ذنبه عندهم مغفوراً بظهُوره عليهم» فلمّا سمع المأمون كلام الرضا قال له: «أحسنت، بارك الله فيك يا أبا الحسن».

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾

التّفسير

نزول السكينة على قلوب المؤمنين

ما قرأناه في الآيات السابقة هو ما أعطاه الله من مواهب عظيمة لنبيّ الإسلام ﷺ بالفتح المبين «صلح الحديبية»، أمّا في الآية أعلاه فالكلام عن الموهبة العظيمة التي

(١) راجع في هذا الصدد سورة ص في الآيات ٤ - ٧ وتفسير الصافي نقلاً عن عيون الأخبار - وراجع نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٦.

تلطف الله بها على جميع المؤمنين إذ تقول الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾.

ولِمَ لا تنزل السكينة والاطمئنان على قلوب المؤمنين؟ ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

ماذا كانت هذه السكينة؟!

من الضروري هنا أن نعود إلى قصة «صلح الحديبيّة» وأن نتصوّر أنفسنا في فضاء الحديبيّة وفي جوّها لنطّلع على عمق هذه الآية.

لقد كان النّبي ﷺ قد رأى رؤيا «رحمانية وإلهية» أنّه دخل المسجد الحرام مع أصحابه، وعلى أثر رؤياه تحرّك نحو زيارة بيت الله مع أصحابه وكان أغلب أصحابه يتوّقعون أنّ هذه الرؤيا الصالحة سيتحقّق تعبيرها في هذا السفر نفسه، لكنّ الذي قدّره الله كان شيئاً آخر! هذا كلّه من جانب.

ومن جانب آخر كان المسلمون قد أحرموا وجاؤوا بالإبل ليهدوها أو ينحروها، ولكنّهم وعلى خلاف ما توقّعوا لم يوفّقوا لزيارة بيت الله، وأمر النّبي أن ينحروا الإبل في الحديبيّة التي توقّفوا فيها هناك. وأن يحلّوا من إحرامهم، وكان ذلك أمراً صعباً عليهم ولا يمكن تصديقُه، لأنّ آدابهم وسننهم وتعليمات الإسلام أيضاً تنصّ على عدم الخروج والإحلال من الإحرام ما لم يتمّ أداء المنَاسك الخاصة بالعمرة.

ومن جانب ثالث كان من مواد معاهدة الصلح في الحديبية، مادة تقضي بإعادة المسلمين من يلجأ إليهم من قريش ويعلن إسلامه ويدخل المدينة! ولا يلزم العكس، وكان هذا الموضوع صعباً على المسلمين للغاية.

ومن جانب رابع، فإنّ قريشاً لم ترغبْ أن تكتب كلمة «رسول الله» التي كان يدعى بها النّبي محمّد وأصرّ ممثلها سهيل بن عمرو على حذف الكلمة من معاهدة الصلح، ولم يوافق حتى على كتابة بسم الله الرحمن الرحيم، وأصرّ أن يكتب مكانها «بسمك اللّهمَّ»، التي كانت تنسجم مع سنّة أهل مكّة، فهذه الأُمور كلّ واحد منها كان غير مرغوب فيه، فكيف بجميعها؟ ولذلك تزلزلت قلوب بعض ضعاف الإيمان من أصحاب النّبي إلى درجة أنّه حين نزلت سورة ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ قالوا أي فتح هذا؟!

هنا ينبغي أن يشمل لطف الله حال المسلمين وأن يُنزل عليهم السكينة والاطمئنان وأن لا يوجد في قلوبهم الضعف والفتور فحسب، بل ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ وتنطبق مصداقية الآية عليهم، فإنّ الآية نزلت في مثل هذه الظروف.

﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾ في الأصل مشتقة من «السكون»، ومعناها الاطمئنان والدعة وما يزيل كل أنواع الشك والتردّد والوحشة من الإنسان ويجعله ثابت القدم في طوفان الحوادث!

وهذه السكينة يمكن أن يكون لها جانب عقائدي فيزيلُ ضعف تزلزل العقيدة أو يكون لها جانب عملي بحيث يهب الإنسان ثبات القدم والمقاومة والاستقامة والصبر.

وبالطبع فإنّ البحوث السابقة وتعبيرات الآية نفسها تتناسب مع استعمال السكينة في معناها الأوّل أكثر.

في حين أنّها في الآية (٢٤٨) من سورة البقرة في قصة «طالوت وجالوت» تعوّل على الأسس العملية أكثر!

وقد ذكر جماعة من المفسّرين معانٍ أُخرَ للسكينة وترجع في نهايتها إلى هذا التّفسير أيضاً.

الطريف أنّ ﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾ في بعض الرّوايات فسّرت بالإيمان[(١)] كما فُسّرت في بعضها بنسيم الجنّة الذي يبدو في هيئة الإنسان ويمنح المؤمنين الاطمئنان[(٢)]!

وكل هذه التفاسير تأييد لما قلناه، لأنّ السكينة وليدة الإيمان، وهي تهب الاطمئنان كنسيم الجنّة!

وينبغي الالتفات أيضاً إلى هذه اللطيفة في شأن السكينة، إذ عُبّر عنها بالإنزال ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ ونعلم أنّ هذا التعبير في القرآن قد يعني الخلق والإيجاد وإيلاء النعمة أحياناً... وحيث إنّها من عالٍ إلى دانٍ فقد ورد في شأنها التعبير بالإنزال!.

ملاحظات:

١ - السكينة التي لا نظير لها!

إذا لم يكن للإيمان أية ثمرة سوى مسألة السكينة لكان على الإنسان أن يتقبّله! فكيف به وهو يرى آثاره وثمراته وبركاته!.

والتحقيق في حال المؤمنين وحال غير المؤمنين يكشف هذه الحقيقة، وهي أنّ الفئة الثّانية يعانون حالة الاضطراب والقلق الدائم، في حين أنّ الجماعة الأولى في اطمئنان خاطر عديم النظير...

وفي ظل الاطمئنان، فإنّهم ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾[(٣)].

---

(١) تفسير البرهان، ج٢، ص١١٤. (٢) المصدر السابق.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٩.

كما أنّهم في مواصلة نهجهم لا يؤثر اللوم والتهديد فيهم أبداً ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾[(١)].

وهم يتمسّكون بأصلين مهمّين في حفظ هذه السكينة، وهما: عدم الحزن على ما فاتهم، وعدم التعلّق والفرح بما لديهم، فهم مصداق لقوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[(٢)].

وأخيراً فإنّهم لا يضعفون أبداً أمام الشدائد، ولا يركعون مقابل الأعداء ويتحلّون بشعار ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[(٣)].

إنّ المؤمن لا يرى نفسه وحيداً في ميدان الخطوب والحوداث بل يحسّ بيد الله على رأسه ويلمس إعانة الملائكة ونصرتهم له، في حين أنّ غير المؤمنين يحكمهم الاضطراب في أحاديثهم وسلوكهم ولا سيما عند هبوب العواصف وطوفان الأحداث إذ يُرى كلّ ذلك منهم بصورة بيّنة!

٢ - سلسلة مراتب الإيمان

الإيمان، سواءً بمعنى العلم والمعرفة، أم روح التسليم والإذعان للحق فإنّ له درجات وسلسلة مراتب، لأنّ العلم له درجات، والتسليم والإذعان لهما درجات مختلفة أيضاً، حتى العشق والحب الذي هو توأم الإيمان يتفاوت من حالة إلى أُخرى!

فالآية محل البحث التي تقول: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ تأكيد على هذه الحقيقة أيضاً. . وعلى هذا فلا ينبغي للمؤمن أن يتوقّف في مرحلة واحدة من مراحل الإيمان، بل عليه أن يتسامى إلى درجاته العليا عن طريق بناء شخصيّته والعلم والعمل.

ففي حديث عن الإمام الصادق أنّه قال: «إنّ الإيمان عشر درجات بمنزلة السلّم يصعد منه مرقاة بعد مرقاة»[(٤)].

كما نقرأ عنه حديثاً آخر إذ قال: «إنّ الله عزّوجلّ وضع الإيمان على سبعة أسهم على البر والصدق واليقين والرضا والوفاء والعلم والحلم فمن جعل فيه السبعة الأسهم فهو كامل محتمِلٌ وقسّم لبعض الناس السهم والسهمين ولبعض الثلاثة حتى انتهوا إلى (الـ) سبعة».

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٤.
(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٣.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.
(٤) بحار الأنوار، ج٦٩، ص١٦٥.

ثمّ يضيف الإمامُ عليه السلام: «لا تحملوا على صاحب السهم سهمين ولا على صاحب السهمين ثلاثة فَتبهضوهم»... ثمّ قال كذلك حتى انتهى إلى (الـ) سبعة[1].

ومن هنا يتّضح ما نُقل عن بعضهم أنّ الإيمان ليس فيه زيادة ولا نقصان، لا أساس له، لأنّه لا ينسجم مع الثوابت العلميّة ولا مع الرّوايات الإسلامية!.

٣ - ركنا السكينة

قرأنا في ذيل الآية محل البحث جملتين، كلٌّ منهما تمثّل ركناً من أركان «السكينة» والاطمئنان للمؤمنين.

فالأُولى جملة ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾.

والأُخرى جملة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

فالأُولى تقول للإنسان: إذا كنت مع الله فإنّ جميع ما في الأرض والسماء معك!.

والأُخرى تقول: إنّ الله يعلم حاجاتك ومشاكلك كما يعلم سعيك وطاعتك وعبادتك.

ومع الإيمان بهذين «الأصلين» كيف يمكن أن لا يحكم الاطمئنان وسكينة القلب وجود الإنسان!

﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ الْمُنَٰفِقِينَ وَالْمُنَٰفِقَٰتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَٰتِ الظَّآنِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾

التّفسير

نتيجة أُخرى من الفتح المُبين:

نقل جماعة من مفسّري الشيعة وأهل السنّة أنّه حين بُشّر النّبي صلى الله عليه وآله وسلم «بالفتح المبين»

(١) أُصول الكافي، ج٢، باب درجات الإيمان، ح١. تبهضوهم: أي تشقوا عليهم.

و«إتمام النعمة» و«الهداية» و«النصرة».. قال بعض المسلمين ممّن كان مستاءً من صلح الحديبيّة: هنيئاً لك يا رسول الله! لقد بيّن لك الله ماذا يفعل بك! فماذا يفعل بنا فنزلت الآية ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾(١).

وعلى كلّ حال، فإنّ هذه الآيات تتحدّث عن علاقة صلح الحديبيّة وآثاره وردّ الفعل المختلف في أفكار الناس ونتائجه المثمرة، وكذلك عاقبة كلّ من الفريقين اللذين امتحنا في هذه «البوتقة» والمختبر - فتقول الآية الأولى من هذه الآيات محل البحث ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾. فلا تُسلب هذه النعمة الكبرى عنهم أبداً...

وإضافة إلى ذلك فإنّ الله يعفو عنهم ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾(٢).

وبهذا فإنّ الله قد وهب المؤمنين بإزاء ما وهب لنبيّه في فتحه المبين من المواهب الأربع موهبتين عظيمتين هما «الجنّة خالدين فيها» و«التكفيرُ عن سيّئاتهم» بالإضافة إلى إنزال السكينة على قلوبهم ومجموع هذه المواهب الثلاث يعدّ فوزاً عظيماً لأولئك الذين خرجوا من الامتحان بنجاح وسلامة!.

وكلمة «الفوز» التي توصف في القرآن غالباً بـ «العظيم» وأحياناً توصف بـ«المبين» أو «الكبير» بناءً على ما يقول «الراغب» في «مفرداته» معناها الانتصار ونيل الخيرات المقرون بالسلامة، وذلك في صورة ما لو كان فيه النجاة في الآخرة وإن اقترن مع زوال بعض المواهب الدنيوية.

وطبقاً للرواية المعروفة عن أمير المؤمنين علي عليه السلام حين ضربه اللعين عبد الرحمن ابن ملجم في محراب العبادة بالسيف على أمّ رأسه قال هاتفاً: «فزت وربِّ الكعبة» وكأنّه يقول: فزت بأنّي أمضيت خَتم صحيفتي بدم رأسي.

---

(١) تفسير المراغي، ج٢٦، ص٨٥ وتفسير أبي الفتوح الرازي، ج١٠، ص٢٦ وتفسير روح المعاني للآلوسي، ج٢٦، ص٨٦.

(٢) طبقاً لهذا البيان فإنّ جملتي ﴿لِّيُدْخِلَ﴾ وكذلك ﴿وَيُعَذِّبَ﴾ اللتين هما في الآية التالية معطوفتان على جملة ليغفر، وقد اختار جماعة من المفسّرين هذا الرأي كالشيخ الطوسي في «التبيان» والطبرسي في «مجمع البيان» وأبو الفتوح الرازي في تفسيره، غير أنّ جماعة آخرين قالوا إنّ ما سبق آنفاً معطوف على جملة ليزدادوا إيماناً وهذا لا ينسجم مع شأن النّزول ولا مجازاة الكفّار.

أجلْ قد تبلغ الامتحانات الإلهية درجةً أن تضعضع الإيمان الضعيف وتغيّر القلوب، وإنّما يثبت المؤمنون الصادقون الذين تحلّوا بالسكينة والاطمئنان وسينعمون في يوم القيامة بنتائجه، وذلك هو الفوز العظيم حقّاً!.

غير أنّ إزاء هذه الجماعة، جماعة المنافقين والمشركين الذين تتحدّث الآية التالية عن عاقبتهم بهذا الوصف فتقول: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾.

أجلْ، لقد ظنّ المنافقون حين تحرّك النّبي ﷺ ومعه المؤمنون من المدينة أن لا يعودوا نحوها سالمين كما تتحدّث عنهم الآية (١٢) من هذه السورة ذاتها فتقول: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾.

كما ظنّ المشركون أيضاً أنّ محمّداً لن يعود إلى المدينة سالماً مع قلّة العَدد والعُدد وسيأفل كوكب الإسلام عاجلاً.. ثمّ يفصّل القرآن ببيان عذاب هؤلاء وعقابهم ويجعله تحت عناوين أربعة فيقول أوّلاً: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾[١].

«الدائرة» في اللغة هي الحوادث وما ينجم عنها أو ما يتّفق للإنسان في حياته، فهي أعم من أن تكون حسنةً أو سيئة غير أنّها هنا بقرينة كلمة «السوء» يُراد منها الحوادث غير المطلوبة!.

وثانياً: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

وثالثاً: ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾.

ورابعاً وأخيراً: فإنّه بالمرصاد ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[٢].

والذي يسترعي الانتباه أنّه في الحديبيّة كان أغلبُ الحاضرين من المسلمين رجالاً، وفي مقابلهم من المنافقين والمشركين رجالاً أيضاً، غير أنّ الآيات الآنفة أشركت الرجال والنساء في ذلك الفوز العظيم، وهذا العذاب الأليم، وذلك لأنّ الرجال المؤمنين أو المنافقين الذين يقاتلون في «ساحات القتال» لا يحقّقون أهدافهم إلاّ أن تدعمهم النساء بالدعم اللازم.

---

(١) «سَوْء» على زنة «نوع» كما يقول صاحب صحاح اللغة فيه معنى مصدري، والسُّوء) على وزن (نُور) اسم مصدر، غير أنّ صاحب الكشّاف يقول إنّ كليهما، بمعنى واحد.

(٢) «مصير» وردت بمعانٍ مختلفة حيث يصل الإنسان واحداً تلو الآخر.

وأساساً فإنّ الإسلام ليس دين الرجال فحسب فيُهمل شخصيّة المرأة، بل يهتمّ بها، وفي كلّ موطن يوهم الكلام بالاقتصار على الرجل مع عدم ذكر المرأة فيه يصرّح بذكرها ليُعلَم أنّ الإسلام دين الجميع دون استثناء رجالاً ونساءً.

وفي آخر آية من الآيات محل البحث إشارة أُخرى إلى عظمة قدرة الله فتقول الآية: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

وقد ورد هذا التعبير مرّةً في ذيل مقامات أهل الإيمان ومواهبهم، ومرّةً هنا في ذيل الآية التي تحكي عن عقاب المنافقين والمشركين.. ليتّضح أنّ الله الذي له جنود السماوات والأرض جميعاً قادر على الأمرين، فهو قادرٌ أن تشمل رحمته مستحقيها من عباده الصالحين وناصريه، كما أنّه قادر على أن ينزل غضبه وانتقامه ناراً تحرق المجرمين.

وممّا يستلفت النظر أنّ القرآن حين يذكر المؤمنين يصف الله بالعلم والحكمة، وهما يناسبان مقام الرحمة، ولكنّه حين يذكر المنافقين والمشركين يصف الله بالعزة والحكمة، وهما يناسبان العذاب!

ما المراد من ﴿جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾؟!

هذا التعبير له معنى واسع حيث يشمل الملائكة «وهي من جنود السماء» كما يشمل جنوداً أُخرَ كالصواعق والزلازل والطوفانات والسيول والأمواج والقوى الغيبية غير المرئية التي لا نعرف عنها شيئاً.. لأنّ جميع هذه الأشياء هي جنود الله وهي مطيعة لأوامره!.

من هم الظانّون بالله ظنّ السوء؟!

قد يكون سوء الظن تارةً بالنفس، وقد يكون سوء الظن بالآخرين، كما قد يكون بالله، وبهذا التقسيم وعلى منواله يكون «حسن الظن» أيضاً.

أمّا سوء الظن بالنفس إذا لم يبلغ درجة الإفراط فهو سلّم إلى التكامل ويدفع الإنسان إلى التدقيق في أعماله والإخلاص فيها، ويكون حاجزاً عن العجب والغرور منه عند قيامه بالأعمال الصالحة.

وبهذا فإنّ الإمام علياً عليه السلام يصف المتّقين في جوابه لهمّام قائلاً: «فهم لأنفسهم متّهمون، ومن أعمالهم مشفقون، إذا زُكّي أحد منهم خاف ممّا يقال له، فيقول: أنا

أعلم بنفسي من غيري وربّي أعلم بي منّي بنفسي، اللّهمَّ لا تؤاخذني بما يقولون واجعلني أفضل ممّا يظنّون واغفر لي ما لا يعلمون»[١].

وإذا كان سوء الظن بالناس فهو ممنوع إلاّ أن يغلب الفساد في المجتمع حيث لا ينبغي هناك حسن الظن «وسيأتي بيان هذا الموضوع بإذن الله ذيل الآية ١٢ من سورة الحجرات».

أمّا سوء الظن بالله أي سوء الظن بوعده أو رحمته وكرمه الذي لا حدَّ له فهو قبيح ومذموم، وقد يدلّ على ضعف الإيمان وربّما دلّ على عدم الإيمان!

ويشير القرآن عدّة مرّات إلى سوء ظنّ ضعافِ الإيمان أو عديمي الإيمان... وخاصةً عند بروز الحوادث الاجتماعية الصعبة وطوفان الابتلاء والامتحان، وكيف أنّ المؤمنين يبقون ثابتي الأقدام عند هذه الحوادث وهم في كمال حسن الظن والاطمئنان بلطف الله... ولكنّ ضعيفي الإيمان يطلقون لسان الشكوى، كما كان ذلك في قصة الحديبيّة، حيث إنّ المنافقين ومن على شاكلتهم أساؤوا الظنّ، وقالوا إنّ محمّداً وأصحابه يمضون في سفرهم هذا ولا يعودون بعده، فكأنّهم نسوا وعود الله أو أنّهم اتهموها.

والنموذج الآخر ما حدث في ساحة يوم الأحزاب حين زُلزل المسلمون زلزالاً شديداً ووقعوا تحت التأثير والمحنة الصعبة فهناك ذمّ الله المسيئين الظنّ به فقال: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[٢].

وقد عبّرت الآية (١٥٤) من سورة آل عمران عن مثل هذه الظنون بـ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾.

وعلى كلّ حال، فإنّ حسن الظن بالله ورحمته ووعده وكرمه ولطفه وعنايته من علائم الإيمان المهمّة ومن الأسباب المؤثّرة في النجاة والسعادة!.

حتى أنّه ورد في بعض أحاديث الرّسول ﷺ قوله: «ليس من عبد يظنّ بالله خيراً إلاّ كان عند ظنّه به»[٣].

كما ورد عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال: «أحسن بالله الظن فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: أنا عند ظنّ عبدي المؤمن بي إن خير فخير وإن شر فشر»[٤].

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣ (همام).
(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: ١٠ - ١١.
(٣) بحار الأنوار، ج٧٠، ص٣٨٤.
(٤) بحار الأنوار ج٧٠، ص٣٨٥.

وأخيراً فقد ورد حديث آخر عن النبي ﷺ يقول فيه: «إنّ حسن الظنّ بالله عزّوجلّ ثمن الجنّة»[1]!.

فأي قيمة أيسر من هذا... وأيُّ متاع أعظم قيمةً منه!؟

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾

التّفسير

مكانة النّبي وواجب الناس تجاهه!

قلنا إنّ بعض الجهلاء اعترضوا بشدّة على صلح الحديبيّة وحتى أنّ بعض تعبيراتهم لم تخل من عدم الاحترام بالنسبة إلى النّبي ﷺ وكان مجموع هذه الأُمور يستوجب أن يؤكّد القرآن مرّةً أُخرى على عظمة النّبي ﷺ وجلالة قدره!.

لذلك فإنّ الآية الأولى من الآيات أعلاه تخاطب النّبي فتقول: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

وهذه ثلاثة أوصاف بارزة هي من أهم ما يتمتّع به النّبي من صفات ومقام، كونه ﴿شَٰهِدًا﴾ و﴿وَمُبَشِّرًا﴾، و﴿وَنَذِيرًا﴾.

«شاهداً» على جميع الأمّة الإسلامية، بل هو شاهد على جميع الأمم كما نقرأ هذا التعبير في الآية (٤١) من سورة النساء ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾.

ونقرأ في الآية (١٠٥) من سورة التوبة قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

وأساساً فإنّ لكلّ إنسان شهوداً كثيرين!.

(١) بحار الأنوار ج٧٠، ص٣٨٥.

أولهم الله الذي هو عالم الغيب والشهادة المطّلع على جميع أعماله ونيّاته!.

ومن بعده الملائكة المأمورون بحفظ أعماله كما ورد التعبير في الآية (٢١) من سورة (ق) ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾.

ثمّ أعضاء بدن الإنسان وحتى جلده شاهد عليه.. ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١).

وجاء في الآية ٢١ من سورة فصلت في هذا الصدد أيضاً: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

و«الأرض» أيضاً، من زمرة الشهود وكما جاء في سورة الزلزلة: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾(٢).

وطبقاً لبعض الروايات فإنّ «الزمان» أحد الشهود أيضاً، إذ نقرأ في بعض أحاديث الإمام علي عليه السلام قوله: «ما من يوم يمرّ على بني آدم إلاّ قال له ذلك اليوم أنا يوم جديد وأنا عليك شهيد فافعل فيّ خيراً واعمل فيّ خيراً، أشهدُ لك يوم القيامة فإنّك لن تراني بعد هذا أبداً»(٣) (٤).

ولا شك أنّ شهادة الله وحدها كافية، لكنّ تعدّد الشهود فيه إتمام للحجّة أكثر وله أثر تربويّ - أقوى - في الناس..

وعلى كلّ حال فإنّ القرآن الكريم بيّن هذه الأوصاف الثلاثة وهي الشهادة والبشارة والإنذار التي هي من الأوصاف الأساسية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لتكون مقدمة لما ورد في الآية التي بعدها.

وفي الآية التالية خمسة أوامر مهمّة - هي في الحقيقة بمثابة الهدف من سمات النّبي المذكورة آنفاً: وتشكل أمرين في طاعة الله وتسبيحه وتقديره، وثلاثة أوامر منها في «طاعة» رسوله و«الدفاع عنه» و«تعظيم مقامه»، إذ تقول الآية: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

كلمة ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ مشتقة من مادة تعزير، وهو في الأصل يعني «المنع» ثمّ توسّعوا فيه

---

(١) سورة النور، الآية: ٢٤. (٢) سورة الزلزلة، الآية: ٤.

(٣) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص١١٢.

(٤) مرّ البحث عن الشهود في محكمة القيامة ذيل الآيات ٢٠ - ٢٢ من سورة فصلت.

فأطلق على كلّ دفاع ونصرة وإعانة للشخص في مقابل أعدائه كما يطلق على بعض العقوبات المانعة عن الذنب «التعزير» أيضاً.

وكلمة ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ مشتقة من مادة توقير، وجذورها «الوقر» ومعناها الثِّقَل.. فيكون معنى التوقير هنا التعظيم والتكريم.

وطبقاً لهذا التّفسير فإنّ الضميرين في ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ و﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ يعودان على شخص النّبي ﷺ والهدف من ذلك هو الدفاع عنه بوجه أعدائه وتعظيمه واحترامه «وقد اختار هذا التّفسير الشيخ الطوسي في «التبيان» و«الطبرسي» في مجمع البيان وغيرهما أيضاً».

غير أنّ جماعة من المفسّرين(١) ذهبوا إلى أنّ جميع الضمائر في الآية تعود على الله، والمراد بالتعزير والتوقير هنا نصرة دين الله وتعظيمه وتكريمه دينه ودليلهم على هذا التّفسير انسجام جميع الضمائر بعضها مع بعض.

غير أنّ التّفسير الأوّل يبدو أقرب، لأنّ «التعزير» أولاً: معناه في الأصل المنع وذبُّ الأعداء والدفاع عن «الشخص»، ولا يصحّ ذلك في شأن الله إلاّ على سبيل «المجاز» فحسب!

وأهمُ من ذلك هو شأن نزول الآية، إذ إنّها نزلت بعد صلح الحديبية وكان بعضهم يسيءُ التعامل مع النّبي ولا يحترم مقامه الكريم، وقد نزلت الآية لتنبه المسلمين على ما ينبغي عليهم من الوظائف بالنسبة إلى رسول الله ﷺ.

ثمّ لا ينبغي أن ننسى أنّ الآية هي بمثابة النتيجة للآية السابقة التي وصفت النّبي بأنّه «شاهدٌ ومبشرٌ ونذير» وهذا الأمر يُهيىء الأرضية المناسبة للآية التي بعدها.

وفي آخر آية من الآيات محل البحث إشارة قصيرة إلى مسألة «بيعة الرضوان» وقد جاء التفصيل عنها في الآية (١٨) من السورة ذاتها!

وتوضيح ذلك هو: كما قلناه آنفاً إنّ النّبي ﷺ رأى في منامه كما تقول التواريخ إنّه دخل مع أصحابه مكّة، فتوجّه على أثر هذه الرؤيا مع ألف وأربعمائة صحابي إلى مكّة، إلاّ أنّ قريشاً صمّمت على منعه وهو على مقربة من مكّة.. فتوقف النّبي ﷺ مع أصحابه في منطقة الحديبيّة.. وتمّ تبادل المبعوثين بين قريش والنّبي حتى انتهى الأمر إلى معاهدة صلح الحديبيّة!

---

(١) منهم الزمخشري في «الكشاف» والآلوسي في «روح المعاني» و«الفيض الكاشاني» في تفسير الصافي و«العلاّمة الطباطبائي في الميزان».

وفي عملية تبادل السفراء والمبعوثين، أُمر عثمان مرّةً أن يبلّغ أهل مكّة - من قِبل النّبي - أنّه لا يريد الحرب ولا القتال وإنّما يريد العمرة فحسب، إلاّ أنّ المشركين من أهل مكّة أوقفوا عثمان مؤقتاً وكان هذا الأمر سبباً لأن يشيع بين المسلمين خبر قتل عثمان، ولو كان هذا الموضوع صحيحاً لكان دليلاً على إعلان قريش الحرب ومنازلة النّبي ﷺ لذلك فإنّ النّبي قال: «لا نبارح مكاننا «الحديبيّة» حتى نأخذ البيعة من قومنا»، فطلب تجديد البيعة. . فاجتمع المسلمون وبايعوا النّبي ﷺ تحت شجرة هناك على أن لا يتركوا النّبي وراءهم ظِهريّاً وأن يقاتلوا مع النّبي أعداءه ويذبّوا عنه ما دام فيهم طاقة على ذلك.

فبلغ هذا الأمر سمع المشركين ودبّ الرعب فيهم، وهذا ما دعاهم إلى الصلح مع النّبي. ومن هنا سمّيت مبايعة المسلمين نبيّهم تحت الشجرة بيعة الرضوان حيث وردت الإشارة إليها في الآية (١٨) من السورة ذاتها: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾.

وعلى كلّ حال فإنّ القرآن يتحدّث عن مبايعة المسلمين في الآية محلّ البحث فيقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾!

و«البيعة» معناها المعاهدة على اتّباع الشخص وطاعته، وكان المرسوم أو الشائع بين الناس أنّ الذي يعاهد الآخر ويبايعه يمد يده إليه ويظهر وفاءه ومعاهدته عن هذا الطريق لذلك الشخص أو لذلك «القائد» المبايَع!.

وحيث إنّ الناس يمدّون أيديهم «بعضهم إلى بعض» عند البيع وما شاكله من المعاملات ويعقدون المعاملة بمد الأيدي و«المصافحة» فقد أطلقت كلمة «البيعة» على هذه العقود والعهود أيضاً. وخاصةً أنّهم عند «البيعة» كأنّما يقدّمون أرواحهم لدى العقد مع الشخص الذي يظهرون وفاءهم له.

وعلى هذا يتّضح معنى ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾. إذ إنّ هذا التعبير كناية عن أنّ بيعة النّبي هي بيعة الله، فكأنّ الله قد جعل يده على أيديهم فهم لا يبايعون النّبي فحسب بل يبايعون الله، وأمثال هذه الكناية كثيرة في اللغة العربية!.

وبناءً على هذا التّفسير فإنّ من يرى بأنّ معنى هذه الجملة ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ هو أنّ قدرة الله فوق قدرتهم أو أنّ نصرة الله أعظم من نصرة الناس وأمثال ذلك لا يتناسب تأويله مع شأن نزول الآية ومفادها وإن كان هذا الموضوع بحدّ ذاته صحيحاً.

ثمّ يضيف القرآن الكريم قائلاً: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[١].

كلمة ﴿نَّكَثَ﴾ مشتقة من «نكْث» ومعناها الفتح والبسط ثمّ استعملت في نقض العهد[٢].

والقرآن في هذه الآية يُنذر جميع المبايعين للنبي ﷺ أنّ يثبتوا على عهدهم وبيعتهم فمن ثبت على العهد فسيؤتيه الله أجراً عظيماً ومن نكث فإنّما يعود ضرره عليه ولا ينال الله ضررُه أبداً. . بل إنّه يهدّد وجود المجتمع وكرامته وعظمته ويعرّضه للخطر بنقضه البيعة!.

وقد ورد - في كلام - عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «إنّ في النّار لمدينة يقال لها الحصينة، أفلا تسألوني ما فيها؟! فقيل له: ما فيها يا أمير المؤمنين؟! قال: فيها أيدي الناكثين»[٣].

ومن هنا يتّضح بجلاء قبح نقض البيعة من وجهة نظر الإسلام!! وفي هذا المجال هناك بحوث في «البيعة في الإسلام» وحتى «قبل الإسلام» وكيفية البيعة وأحكامها ستأتي بإذن الله في ذيل الآية (١٨) من هذه السورة ذاتها!.

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا

(١) ينبغي الالتفات إلى أنّ كلمة (عليهُ) في الآية الآنفة جاءت على خلاف ما نعهده، إذ ضُمّ الضمير وهو الهاء هنا، وقد وجّه بعض المفسّرين إلى أنّ هذا أصله «هو» وبعد حذف الواو يأتي مضموناً أحياناً مثل له وعنه ويأتي مكسوراً أحياناً لأنه يلي الياء ككلمة «عليه الله» وحيث إنّ كلمة «عليه» هنا تلاها لفظ الجلالة فقد ضم الضمير في «عليه» ينسجم مع تضخيم اللام في لفظ الجلالة «الله».

(٢) «النكث» بفتح النون مصدر و«النِكث» بكسر النون اسم مصدر.

(٣) بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ١٨٦.

﴿لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾

التّفسير

اعتذار المخلفين

ذكرنا - في تفسير الآيات الآنفة - أنّ النّبي ﷺ توجّه من المدينة إلى مكّة مع ألف وأربعمائة من صحابته «للعُمرة»!.

وقد أُبلغ عن النّبي جميع من في البادية من القبائل أن يحضروا معه في سفره هذا، إلاّ أنّ قسماً من ضعيفي الإيمان لووا رؤوسهم عن هذا الأمر وأعرضوا عنه وكان تحليلهم هو أنّ المسلمين لا يستطيعون الحفاظ على أرواحهم في هذا السفر في حين أنّ كفار قريش كانوا في حالة حرب مع المسلمين وقاتلوهم في أُحد والأحزاب على مقربة من المدينة، فإذا توجّهت هذه الجماعة القليلة العزلاء من كلّ سلاح نحو مكّة وعرّضت نفسها إلى العدوّ المدجّج بالسلاح، فكيف ستعود إلى بيوتها بعدئذ؟!

إلاّ أنّهم حين رأوا المسلمين وقد عادوا إلى المدينة ملاءَ الأيدي وافرين قد حصلوا على امتيازات تستلفت النظر من صلح الحديبيّة دون أن تراق من أحدهم قطرة دم، عرفوا حينئذ خطأهم الكبير وجاؤوا إلى النّبي ﷺ ليعتذروا إليه، ويبرّروا تخلّفهم عنه ويطلبوا منه أن يستغفر لهم!

غير أنّ الآيات آنفة الذكر نزلت ففضحتهم وأماطت عنهم اللثام.

وعلى هذا، فالآيات هذه - تبيّن حالة المخلّفين ضعاف الإيمان بعد أن بيّنت الآيات السابقة حال المنافقين والمشركين لتتمّ حلقات البحث ويرتبط بعضها ببعض!

تقول هذه الآيات: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ﴾.

إنّهم لم يكونوا صادقين حتى في توبتهم!

فأبلغهم يا رسول و﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ﴾؟!

فليس على الله بعزيز ولا عسير أن يحفكم بأنواع البلاء والمصائب وأنتم في دار أمنكم وبين أهليكم وأبنائكم كما لا يعزّ عليه أن يجعلكم في حصن حصين من بأس الأعداء ولو كنتم في مركزهم!

إنّما هو جهلكم الذي دعاكم إلى هذا التصور والاعتقاد!

أجلْ ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

وأقصى من هذا فهو خبير بأسراركم ونيّاتكم وهو يعلم جيداً أنّ هذه الحيل والحجج الواهية لا صحة لها ولا واقعيّة.. والواقع هو أنّكم متردّدون ضعيفو الإيمان، وهذه الأعذار لا تخفى على الله ولا تحول دون عقابكم أبداً!

الطريف هنا أنّه يستفاد من لحن الآيات ومن التواريخ أيضاً أنّ هذه الآيات نزلت عند عودة النّبي ﷺ إلى المدينة، أي أنّها قبل مجيء المخلّفين للاعتذار إليه - أماطت اللثام عنهم وكشفت الستار وفضحتهم!.

ومن أجل أن ينجلي الأمر ويتّضح الواقع أكثر يميط القرآن جيمع الأستار فيقول: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾.

أجلْ، إنّ السبب في عدم مشاركتكم النّبي وأصحابه في هذا السَّفَر التاريخي لم يكن هو كما زعمتم - انشغالكم بأموالكم وأهليكم - بل العامل الأساس هو سوء ظنّكم بالله، وكنتم تتصوّرون خطأً أنّ هذا السفر هو السفر الأخير للنّبي وأصحابه وينبغي الاجتناب عنه!

وما ذلك إلاّ ما وسوست به أنفسكم ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾.

لأنّكم تخيّلتم أنّ الله أرسل نبيّه في هذا السفر وأودعه في قبضة أعدائه ولن يخلصه ويحميه عنهم! ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ - أي هالكين - في نهاية الأمر!.

وأي هلاك أشدّ وأسوأ من عدم مشاركتهم في هذا السفر التاريخي وبيعة الرضوان وحرمانهم من المفاخر الأُخَر.. ثمّ الفضيحة الكبرى.. وبعد هذا كله ينتظرهم العذاب الشديد في الآخرة، أجل لقد كان لكم قلوب ميتة فابتليتم بمثل هذه العاقبة!.

وحيث إنّ هؤلاء الناس - ضعاف الإيمان - أو المنافقين هم أُناس جبناء وتائقون الى الدعة والراحة ويفرّون من الحرب والقتال فإنّ ما يحلّلونه إزاء الحوادث لا ينطبق على الواقع أبداً.. ومع هذه الحال فإنّهم يتصوّرون أنّ تحليلهم صائب جدّاً.

وبهذا الترتيب فإنّ الخوف والجبن وطلب الدعة والفرار من تحمل المسؤوليات يجعل سوء ظنّهم في الأُمور واقعياً، فهم يسيئون الظنّ في كلّ شيء حتى بالنسبة الى الله والنّبي ﷺ.

ونقرأ في نهج البلاغة من وصية للإمام علي عليه السلام إلى مالك الأشتر قوله: «إنّ البخل

والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظنّ بالله»[١].

حادثة «الحديبيّة» والآيات محل البحث، كلّ ذلك هو الظهور العيني لهذا المعنى، ويدلّل كيف أنّ مصدر سوء الظنّ هو من الصفات القبيحة حاله حال البخل والحرص والجبن!.

وحيث إنّ هذه الأخطاء مصدرها عدم الإيمان فإنّ القرآن يصرّح في الآية التالية قائلاً: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾[٢]... و«السعير» معناه اللهيب.

وفي آخر آية من الآيات محل البحث يقول القرآن ومن أجل أن يثبت قدرة الله على معاقبة الكفار والمنافقين: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وممّا يسترعي النظر أنّ موضوع المغفرة مقدّم هنا على العذاب، كما أنّ في آخر الآية تأكيداً على المغفرة والرحمة أيضاً، وذلك لأنّ الهدف من هذه التهديدات جميعاً هو التربية، وموضوع التربية يوجب أن يكون طريق العودة مفتوحاً بوجه الآثمين حتى الكفّار، وخاصةً أنّ أساس كثير من هذه الأُمور السلبية هو الجهل وعدم الاطلاع - فينبغي أن يُبعث في مثل هؤلاء الأفراد الأمل على المغفرة بمزيد من الرجاء، فلعلّهم يؤوبون نحو السبيل!.

ملاحظة

تعليل الذنب وتوجيهه مرض عامّ

مهما كان الذنب كبيراً فإنّه ليس أكبر من تبريره وتوجيهه، لأنّ المذنب المعترف بالذنب غالباً ما يؤوب للتوبة، لكنّ المصيبة تبدأ حين يقوم المذنب بتبرير ذنوبه، فلا ينغلق باب التوبة بوجه الإنسان فحسب بل يتجرّأ على الذنب ويشتدّ على مقارفته!

وهذا التعليل أو التوجيه يقع أحياناً لحفظ ماء الوجه وتحسباً من الافتضاح، ولكنّ أسوأ من هذا كلّه حين ينخدع به الضمير و«الوجدان»!

(١) نهج البلاغة: من رسالة له «برقم ٥٩».

(٢) أسلوب الجملة ونظمها كان ينبغي أن يكون: فقل: «إنّا اعتدنا لهم سعيراً»: إلاّ أنّ القرآن حذف الضمير خاصة وجعل مكانه الاسم الصريح «الكافرين» ليبيّن أنّ علة هذا المصير المشؤوم هو الكفر بعينه.

وهذا التعليل ليس أمراً جديداً، ويمكن العثور على أمثال له على امتداد التاريخ البشري، وكيف وجّه أكبر مجرمي التاريخ جناياتهم لخداع أنفسهم بتوجيهات مضحكة تجعل كلّ إنسان غارقاً في ذهوله وتعجّبه منها!.

والقرآن المجيد الذي يسعى لتربية وصناعة الإنسان يعالج مسائل من هذا الباب كثيرة منها ما قرأناه في الآيات الآنفة - محلّ البحث -.

ولا بأس بأن نقف على آيات أُخرى لإكمال البحث في هذا الصدد.

١ - كان العرب المشركون يتذرّعون أحياناً بسيرة السلف لتوجيه شركهم وتبريره وكانوا يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾![1].

كما كانوا يتذرّعون أحياناً بنوع من الإجبار فكأنّهم مُجبرون! ويقولون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾[2].

٢ - كما كان بعض ضعفاء الإيمان يأتون إلى النّبي أحياناً متذرّعين عن عدم مشاركتهم في الحرب بأن بيوتهم عورة ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾[3].

٣ - وربّما تذرّعوا بعدم ذهابهم إلى الحرب لأنّ وجوه نساء الرومان النضرة تسلب قلوبهم وتفتنهم!! ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾![4].

٤ - وربّما تذرّعوا بانشغالهم بأموالهم وأهليهم ونسائهم فيوجّهون ذنبهم الكبير في الفرار عن طاعة أمر رسول الله ﷺ كما هي الحال في الآيات الآنفة - محل البحث -.

٥ - والشيطان أيضاً وجّه عدم طاعته لله بمقايسة خاطئة فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾![5].

٦ - وفي العصر الجاهلي ومن أجل أن يوجّهوا ذنبهم الكبير وخطأهم في وأد البنات كانوا يقولون نخشى أن تؤسر بناتنا في الحرب وإن غيرتنا وناموسنا يدعواننا إلى قتلهن ودسّهنّ في التراب! وربّما قالوا إنّما نقتل الأطفال خشية الإملاق كما صرّحت به سورة الإسراء وغيرها في القرآن[6].

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٨.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ١٣.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٤٩.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٢.
(٦) سورة الإسراء، الآية: ٣١.

كما أنّه يظهر من بعض الآيات أنّ المجرمين يتشبّثون بالكبراء والاقتداء بهم في توجيه ذنوبهم ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾(١).

والخلاصة إنّ بلاء توجيه الذنب بلاء واسع شمل طائفة عظيمة من الناس عامّهم وخاصهم، وخطره الكبير أنّه يغلق سُبل الإصلاح في وجوههم وربّما غيّر حتى الواقعيات وأعطاها وجهاً آخر عند المذنبين!

فكثير من يوجّه الخوف والجبن بأنّه: احتياط.

والحرص بأنّه تأمين على الحياة في «المستقبل».

والتهوّر بأنّه حسم وجرأة.

وضعف النفس بالحياء!

وعدم الاكتراث بالزهد.

وارتكاب الحرام بالحيلة الشرعية.

والفرار من تحمّل المسؤولية بعدم ثبوت الموضوع!!

والتقصير والتفريط بالقضاء والقدر.

وهكذا يغلق الإنسان بيده سبيل نجاته!

وبالرغم من أنّ هذه المفاهيم كلاً منها له معنى صحيح في محلّه وموقعه، ولكن الإشكال في أنّها حرّفت واتخذت نتيجة مقلوبة، وكم نال المجتمعات البشرية والأُسر والأفراد من أضرار من هذا المنفذ!!... حفظنا الله جميعاً من هذا البلاء العظيم «آمين».

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٧.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧)﴾

التّفسير

المخلّفون الانتهازيّون

يعتقد أغلب المفسّرين أنّ هذه الآيات ناظرة إلى «فتح خيبر» الذي كان في بداية السنة السابعة للهجرة وبعد صلح الحديبيّة! وتوضيح ذلك أنّه طبقاً للرّوايات حين كان النّبي ﷺ يعود من الحديبيّة بشّر المسلمين المشتركين بالحديبيّة - بأمر الله - بفتح خيبر، وصرّح أن يشترك في هذه الحرب من كان في الحديبيّة من المسلمين فحسب، وأنّ الغنائم لهم وحدهم ولن ينال المخلّفين منها شيء أبداً.

إلاّ أنّ عبيد الدنيا الجبناء لمّا فهموا من القرائن أنّ النّبي سينتصر في المعركة المقبلة قطعاً - وأنّه ستقع غنائم كثيرة في أيدي جنود الإسلام - أفادوا من الفرصة، فجاؤوا الى النّبي ﷺ وطلبوا منه أن يأذن لهم بالاشتراك في حرب خيبر، وربّما توسّلوا بهذا العذر، وهو أنّهم يريدون التكفير عن خطئهم السابق والتوبة من الذنب وأن يتحمّلوا عبءَ المسؤولية، والخدمة الخالصة للإسلام والقرآن ويريدون الجهاد مع رسول الله في هذا الميدان، وقد غفلوا عن نزول الآيات آنفاً وأنّها كشفت حقيقتهم من قبلُ كما نقرأ ذلك في الآية الأُولى من الآيات محل البحث -: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ...﴾.

ولا نجد ذلك في هذا المورد فحسب، بل في موارد كثيرة نجد هؤلاء الطامعين يركضون وراء اللقمة الدسمة التي لا تقترن بألم، ويهربون من المواطن الخطيرة وساحات القتال كما نقرأ ذلك في الآية (٤٢) من سورة التوبة: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾.

وعلى كلّ حال فإنّ القرآن الكريم يقول رداً على كلام هؤلاء الانتهازيين وطالبي الفُرص ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ﴾ ثمّ يضيف قائلاً للنّبي: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾.

وليس هذا هو كلامي بل ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ﴾ وأخبرنا عن مستقبلكم أيضاً.

إنّ أمر الله أن تكون غنائم خيبر خاصّة بأهل الحديبيّة ولن يشاركهم في ذلك أحد.

لكنّ هؤلاء المخلّفين الصلفين استمروا في تبجّحهم واتهموا النبيّ ومن معه بالحسد كما صرّح القرآن بذلك: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾.

وهكذا فإنّهم بهذا القول يكذّبون حتى النبي ﷺ ويعدّون أساس منعهم من الاشتراك في معركة خيبر الحسد فحسب.

وفي ذيل الآية يصرّح القرآن عن حالهم فيقول: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أجل إنّ أساس جميع شقائهم وسوء حظهم هو جهلهم وعدم فقاهتهم، فالجهل ملازم لهم أبداً، جهلهم بالله سبحانه وعدم معرفة مقام النبي ﷺ وجهلهم عن مصير الإنسان وعدم توجّههم إلى أنّ الثروة في الدنيا لا قرار فيها، فهي زائلة لا محالة!.

صحيح أنّهم أذكياء في المسائل المادية والمنافع الشخصية، ولكن أي جهل أعظم من أن يبيع الإنسان جميع كيانه وكلّ شيء منه بالثروة!

وأخيراً وطبقاً لما نقلته التواريخ فإنّ النّبي الأكرم وزّع غنائم خيبر على أهل الحديبيّة فحسب، حتى الذين لم يشتركوا في خيبر وكانوا في الحديبيّة جعل لهم النّبي سهماً من غنائم خيبر، وبالطبع لم يكن لهذا المورد أكثر من مصداق واحد وهو «جابر بن عبد الله الأنصاري»[1].

واستكمالاً لهذا البحث فإنّ الآية التالية تقترح على المخلّفين عن الحديبيّة اقتراحاً وتفتح عليهم باب العودة فتقول: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

فمتى ما ندمتم عن أعمالكم وسيرتكم السابقة ورفعتم اليد عن عبادة الدنيا وطلب الراحة، فينبغي أن تؤدّوا امتحان صدقكم في الميادين الصعبة وأن تُسهموا فيها مرّةً أخرى، وإلاّ فإنّ اجتناب الميادين الصعبة، والمساهمة في الغنائم وميادين الراحة غير مقبول بأي وجه ودليل على نفاقكم أو ضعف إيمانكم وجبنكم.

الطريف هنا أنّ القرآن كرّر التعبير بالمخلّفين في آياته، وبدلاً من الاستفادة من الضمير فقد عوّل على الاسم الظاهر.

وهذا التعبير خاصةً جاء بصيغة اسم المفعول «المخلَّفين» أي المتروكين وراء الظهر،

---

(١) سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ٣٦٤.

وهو إشارة إلى أنّ المسلمين المؤمنين حين كانوا يشاهدون ضعف هؤلاء وتذرعهم بالحيل كانوا يخلّفونهم وراء ظهورهم ولا يعتنون أو يكترثون بكلامهم! ويسرعون إلى ميادين الجهاد!.

ولكن من هم هؤلاء القوم المعبّر عنهم بـ﴿أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ في الآية وأي جماعة هم؟! هناك كلام بين المفسّرين..

وجملة ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ تدلُّ على أنّهم ليسوا من أهل الكتاب، لأنّ أهل الكتاب لا يُجبرون على قبول الإسلام، بل يُخيّرون بين قبوله أو دفع الجزية والحياة مع المسلمين على شروط أهل الذمّة.

وإنّما الذين لا يُقبل منهم إلاّ الإسلام هم المشركون وعبدة الأصنام فحسب، لأنّ الإسلام لا يعترف بعبادة الأصنام ديناً ويرى أنّه لابدّ من إجبار الناس على ترك عبادتها.

ومع الالتفات إلى أنّه لم تقع معركة مهمّة في عصر النّبي بعد حادثة الحديبيّة مع المشركين سوى فتح مكّة وغزوة حنين، فيمكن أن تكون الآية المتقدّمة إشارة إلى ذلك وخاصّة غزوة حنين لأنّها اشترك فيها أولو بأس شديد من «هوازن» و«بني سعد».

وما يراه بعض المفسّرين من احتمال أنّ الآية تشير إلى غزوة (مؤتة) التي حدثت مع أهل الروم فهذا بعيد، لأنّ أهل الروم كانوا كتابيين.

واحتمال أنّ المراد منها الغزوات التي حدثت بعد النّبي ومن جملتها غزوة فارس واليمامة، فهذا أبعد بكثير، لأنّ لحن الآيات مشعر بأنّ الحرب ستقع في زمان النبيّ ولا يلزمنا أبداً أن نطبّق ذلك على الحروب التي حدثت بعده، ويظهر أنّ للدوافع السياسية أثراً في بعض أفكار المفسّرين في هذه القضية!.

وهنا ملاحظة جديرة بالتأمّل وهي أنّ النّبي ﷺ لا يَعِدُهم بالقول أنّهم سيغنمون في الحروب والمعارك المقبلة، لأنّ الهدف من الجهاد ليس كسب الغنائم بل المعوّل عليه هو ثواب الله العظيم وهو عادةً إنّما يكون في الدار الآخرة!

وهنا ينقدح هذا السؤال، وهو أنّ الآية (٨٣) من سورة التوبة تردّ ردّاً قاطعاً على هؤلاء المخلّفين فتقول: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾.

في حين أنّ الآية محل البحث تدعوهم إلى الجهاد والقتال في ميدان صعب ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾. فما وجه ذلك؟

ولكن مع الالتفات إلى الآية (٨٣) في سورة التوبة تتعلق بالمخلّفين في معركة تبوك الذين قطع النّبي الأمل منهم، أمّا الآية محل البحث فتتحدّث عن المخلّفين عن الحديبيّة، وما يزال النّبي يأمل فيهم المشاركة، فيتّضح الجواب على هذا الإشكال!.

وحيث إنّ من بين المخلّفين ذوي أعذار لنقص عضوي في أبدانهم أو لمرض وما الى ذلك فلم يقدروا على الاشتراك في الجهاد، ولا ينبغي أن نُجحد حقهم، فإنّ الآية الأخيرة من الآيات محلّ البحث تبيّن أعذارهم وخاصّة أنّ بعض المفسّرين قالوا إنّ جماعة من المعوّقين جاؤوا إلى النّبي بعد نزول الآية وتهديدها للمخلّفين بقولها ﴿يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾، فقالوا: يا رسول الله ما هي مسؤوليتنا في هذا الموقع؟ فنزل قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ﴾.

وليس الجهاد وحده مشروطاً بالقدرة، فجميع التكاليف الإلهيّة هي سلسلة من الشرائط العامة ومن ضمنها الطاقة والقدرة، وكثيراً ما أشارت الآيات القرآنية إلى هذا المعنى وفي الآية (٢٨٦) من سورة البقرة نقرأ تعبيراً كلياً عن هذا الأصل وهو: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾.

وهذا الشرط ثابت بالأدلة النقلية والعقليّة!.

وبالطبع فإن هذه الجماعة وإن كانت معذورة من الاشتراك في ميادين الجهاد، إلاّ أنّ عليها أن تساهم بمقدار ما تستطيع لتقوية قوى الإسلام وتقدّم الأهداف الإلهيّة كما نقرأ ذلك في الآية (٩١) من سورة التوبة: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾.

أي أنّهم إذا لم يستطيعوا أن يؤدّوا عملاً بأيديهم، فلا ينبغي أن يألوا جهداً فيما يقدرون عليه ولا يعتذروا بألسنتهم عنه، وهذا التعبير الطريف يدلّ على أنّه لا ينبغي الإغماض عن القدرات أبداً، وبتعبير آخر أنّهم إذا لم يستطيعوا أن يشاركوا في الجبهة فعلى الأقل عليهم أن يُحكموا المواضع الخلفية للجبهة!

ولعلّ الجملة الأخيرة في الآية محل البحث تشير أيضاً إلى هذا المعنى فتقول: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾.

وهذا الاحتمال وارد أيضاً، وهو أنّ بعض الأفراد في المواقع الاستثنائية يعتذرون عن المساهمة [ويسيئون فهم النص] فالقرآن هنا يحذّرهم أنّهم إذا لم يكونوا معذورين واقعاً فإنّ الله أعدّ لهم عذاباً أليماً.

ومن نافلة القول أنّ كون المريض والأعمى والأعرج معذورين خاص بالجهاد، أمّا في الدفاع عن حمى الإسلام والبلد الإسلامي والنفس فيجب أن يدافع كلٌّ بما وسعه، ولا استثناء في هذا المجال!

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

التّفسير

رضي الله عن المشتركين في بيعة الرضوان

ذكرنا آنفاً أنّه في الحديبيّة جرى حوار بين ممثلي قريش والنّبي ﷺ وكان من ضمن السفراء «عثمان بن عفان» الذي تشدّه أواصر القُربى بأبي سفيان، ولعلّ هذه العلاقة كان لها أثر في انتخابه ممثلاً عن النّبي ﷺ فبعثه إلى أشراف مكّة ومشركي قريش ليطلعهم على أنّ النّبي لم يكن يقصد الحرب والقتال بل هدفه زيارة بيت الله واحترام الكعبة المشرّفة بمعية أصحابه.. إلاّ أنّ قريشاً أوقفت عثمان مؤقتاً وشاع على أثر ذلك بين المسلمين أنّ عثمان قد قُتل! فقال النّبي ﷺ: لا أبرح مكاني هذا حتى أقاتل عدوّي!

ثمّ جاء إلى شجرة هناك فطلب من المسلمين تجديد البيعة تحتها، وطلب منهم أن لا يقصّروا في قتالهم المشركين وأن لا يُولّوا أدبارهم من ساحات القتال(١).

فبلغ صدى هذه البيعة مكّة واضطربت قريش من ذلك بشدّة وأطلقوا عثمان.

وكما نعرف فإنّ هذه البيعة عرفت ببيعة الرضوان وقد أفزعت المشركين وكانت منعطفاً في تاريخ الإسلام.

فالآيتان محل البحث تتحدّثان عن هذه القصة فتقول الأولى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾.

والهدف من هذه البيعة الانسجام أكثر فأكثر بين القوى وتقوية المعنويات وتجديد التعبئة العسكرية ومعرفة الأفكار واختبار ميزان التضحية من قبل المخلصين الأوفياء!

---

(١) تفسير مجمع البيان ذيل الآيات محل البحث.

وهذه البيعة أعطت روحاً جديداً في المسلمين لأنّهم أعطوا أيديهم إلى النبيّ وأظهروا وفاءهم من أعماق قلوبهم.

فأعطى الله هؤلاء المؤمنين المضحّين والمؤثرين على أنفسهم نفس رسول الله في هذه اللحظة الحسّاسة والذين بايعوه تحت الشجرة أعطاهم أربعة أجور، ومن أهمّ تلك الأجور والإثابات الأجر العظيم وهو «رضوانه» كما عبّرت عنه الآية (٧٢) من سورة التوبة ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾.. أيضاً.

ثمّ تضيف الآية قائلة: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾.

سكينة واطمئناناً لا حدّ لهما، وهم بين سيل الأعداء في نقطة بعيدة عن الأهل والديار والعدو مدجّج بالسلاح، في حين أن المسلمين عُزّل من السلاح «لأنّهم جاؤوا بقصد العمرة لا من أجل المعركة» فوقفوا كالجبل الأشم لم يجد الخوف طريقاً إلى قلوبهم!.

وهذا هو الأجر الثّاني والموهبة الإلهية الأُخرى، وأساساً فإنّ الألطاف الخاصة والإمدادات الإلهية تشمل حال المخلصين والصادقين.

لذلك فإنّنا نقرأ حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام يقول فيه!: «إنّ العبد المؤمن الفقير ليقول يا ربّ ارزقني حتى افعل كذا وكذا من البرّ ووجوه الخير فإذا علم الله عزّوجلّ ذلك منه بصدق نيّته كتب الله له من الأجر مثل ما يكتب له لو عمله إنّ الله واسع كريم»(١).

وفي ذيل هذه الآية إشارة إلى الأجر الثّالث إذ تقول الآية: ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

أجل، هذا الفتح وهو فتح خيبر كما يقول أغلب المفسّرين [وإن كان يرى بعضهم أنّه فتح مكّة] هو ثالث أجر وثواب للمؤمنين المؤثرين، المضحّين.

والتعبير بـ﴿قَرِيبًا﴾ تأييد على أنّ المراد منه «فتح خيبر»، لأنّ هذا الفتح حدث وتحقّق بعد بضعة أشهر من قضيّة الحديبيّة وفي بداية السنة السابعة للهجرة!

والأجر الرابع أو النعمة الرابعة التي كانت على أثر بيعة الرضوان من نصيب المسلمين كما تقول الآية التالية هي: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾.

وواحدة من هذه الغنائم الكثيرة هي «غنائم خيبر» التي وقعت في أيدي المسلمين بعد فترة قصيرة من قضية الحديبيّة، ومع الالتفات إلى ثروة اليهود الكثيرة جدّاً تعرف أهمية هذه الغنائم.

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٠، ص١٩٩.

إلاّ أنّ تحديد هذه الغنائم بغنائم خيبر لا دليل قطعي عليه، ويمكن عدّ الغنائم الأُخرى التي وقعت في أيدي المسلمين خلال الحروب الإسلامية بعد فتح (الحديبيّة) في هذه الغنائم الكثيرة!

وحيث إنّ على المسلمين أن يطمئنوا بهذا الوعد الإلهي اطمئناناً كاملاً فإنّ الآية تضيف في الختام: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

فإذا ما أمركم في الحديبيّة أن تصالحوا فإنّما هو على أساس من حكمته، حكمة كشف عن إسرارها الأستار مضي الزمن، وإذا ما وعدكم بالفتح القريب والغنائم الكثيرة فهو قادر على أن يُلبس وعده ثياب الإنجاز والتحقّق!

وهكذا فإنّ المسلمين المضحّين الأوفياء أولي الإيمان والإيثار اكتسبوا في ظل بيعة الرضوان في تلك اللحظات الحسّاسة انتصاراً في الدنيا والآخرة، في حين أنّ المنافقين الجهلة وضعاف الإيمان احترقوا بنار الحسرات!

ونختم حديثنا بكلام لأمير المؤمنين عليه السلام حيث يتحدّث عن بسالة المسلمين الأوائل وثباتهم وجهادهم الذي لا نظير له ويخاطب ضعاف الإيمان موبّخاً إيّاهم على خذلانهم فيقول: «فلمّا رأى الله صدقنا أنزل بعدوّنا الكبت وأنزل علينا النصر حتى استقر الإسلام ملقياً جرانه ومتبوّئاً أوطانه ولعمري لو كنّا نأتي ما أتيتم. ما قام للدين عمود. ولا اخضرّ للإيمان عود وايم الله لتحتلبنّها دماً ولتتبعنّها ندماً!»[(١)].

بحث

البيعة وخصوصيّاتها!

«البيعة» من مادة «بيع» وهي في الأصل إعطاء اليد عند إقرار المعاملة. ثمّ أطلق هذا التعبير على مدّ اليد على المعاهدة، وهكذا كانت حين كان الشخص يريد أن يعلم الآخر بوفائه له وأن يطيع أمره ويعرفه رسمياً فيبايعه ويمدّ له يده، ولعلّ إطلاق هذه الكلمة من جهة أنّ كلاً من الطرفين يتعهّد كما يتعهّد ذوا المعاملة فيما بينهما، وكان المبايع مستعداً أحياناً أن يضحّي بروحه أو بماله أو بولده في سبيل الطاعة! والذي يقبل البيعة يتعهّد على رعايته وحمايته والدفاع عنه!..

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة رقم ٥٦.

يقول «ابن خلدون» في مقدمة تأريخه في هذا الصدد: «كانوا إذا بايع الأمير جعل أيديهم في يده تأكيداً فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري»[1].

وتدل القرائن على أنّ البيعة ليست من إبداعات المسلمين، بل هي سنّة متّبعة بين العرب قبل الإسلام، ولهذا السبب فإنّ طائفة من «الأوس والخزرج» جاؤوا في بداية الإسلام خلال موسم الحج من المدينة إلى مكّة وبايعوا النّبي ﷺ في العقبة، وكان تعاملهم في قضية البيعة يوحي بأنّها أمر معروف، وبعدها وخلال فرص ومناسبات متعدّدة جدّد النّبي البيعة مع المسلمين، وكانت إحداها هذه البيعة التي عرفت ببيعة الرضوان في الحديبيّة، وأوسع منها البيعة التي كانت عند فتح مكّة، وسيأتي بيانها وشرحها في تفسير «سورة الممتحنة» بإذن الله!

ولكن كيف تتم البيعة؟!.. بصورة عامّة تتمّ البيعة كما يلي:

يمدّ المبايع يده إلى يد المبايَع ويبدي الطاعة والوفاء بلسان الحال أو المقال!.. وربّما ذكر شروطاً أو حدوداً لبيعته كأن يعقد البيعة على بذل ماله! أو بذل روحه أو بذل جميع الأشياء حتى الولد والمرأة!

وقد تقع البيعة أحياناً على أن لا يفرّ المبايعُ أبداً أو أن يبقى على عهده وبيعته حتى الموت «وكان هذان المعنيان جميعاً في بيعة الرضوان كما صرَّحت بذلك التواريخ».

وكان النّبي الكريم يقبلُ بيعة النساء أيضاً لكن لا على أن يمددن أيديهنّ إلى يده الكريمة بل كان يأمر بإناء كبير فيه ماء فيدخل يده في طرف منه وتدخل يدها في طرف آخر.

وكان يشترط في البيعة أحياناً على عمل معيّن أو ترك عمل معيّن كما اشترط النبيّ ﷺ على النساء المبايعات له بعد مكّة على ألاّ ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ...﴾[2].

وعلى كلّ حال فإنّ في أحكام البيعة بحوثاً مختلفة نشير إليها هنا على نحو الإيجاز والاختصار وإن كانت مسائل هذا البحث محاطة بهالة من الإبهام في الفقه الإسلامي:

١ - «ماهية البيعة» نوع من العقد والمعاهدة بين المبايع من جهة والمبايَع من جهة أخرى، ومحتواها الطاعة والاتّباع والدفاع عن المبايَع، ولها درجاتٌ طبقاً للشروط التي

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ١٧٤.
(٢) سورة الممتحنة، الآية: ١٢.

يذكرونها فيها، ويستفاد من لحن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أنّ البيعة نوع من العقد اللازم من جهة المبايع، ويجب العمل طبقاً لما بايع عليه، ويكون مشمولاً بالقانون الكلّي ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾(١) فعلى هذا لا يحقّ للمبايع الفسخ، ولكن المبايَع له أن يفسخ البيعة إن وجد في الأمر صلاحاً وفي هذه الصور يتحرر المبايع من بيعته(٢).

٢ - ويرى البعض أنّ البيعة شبيهة بالانتخابات أو نوعاً منها، في حين أنّ الانتخابات على العكس منها تماماً، أي إنّ ماهيتها نوع من إيجاد المسؤولية والوظيفة والمقام للمنتخب، أو بتعبير آخر هي نوع من التوكيل في عمل ما بالرغم من أنّ الانتخاب يقتضي وظائف على المنتخِب أيضاً «كسائر الوكالات» في حين أنّ البيعة ليست كذلك!

وبتعبير آخر إنّ الانتخابات تعني إعطاء «المقام» وكما قلنا هي شبيهة بالتوكيل في حين أنّ البيعة تعهّد بالطاعة!

ومن الممكن أن يتشابه كلٌّ من البيعة والانتخاب في بعض الآثار، لكن هذا التشابه لا يعني وحدة المفهوم والماهية أبداً..

ولذلك لا يمكن للمبايع أن يفسخ البيعة، في حين أنّ المنتخبين لهم الحق في الفسخ في كثير من المواطن بحيث يستطيع جماعةٌ ما أن يعزلوا المنتخب «فلاحظوا بدقة»!

٣ - وبالنسبة للنّبي ﷺ والأئمّة المعصومين المنصوبين من قبل الله تعالى لا حاجة لهم بالبيعة، أي أنّ طاعة النّبي ﷺ والإمام المعصوم والمنصوب من قبل الله واجبة سواءً على من بايع أو لم يبايع!

وبتعبير آخر: إنّ لازم مقام النبوّة والإمامة وجوب الطاعة كما يقول القرآن الكريم: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾(٣).

لكن ينقدح هنا هذا السؤال وهو إذا كان الأمر كذلك فعلامَ أخذ النّبي من أصحابه - البيعة كراراً - أو المسلمين الجدد، وقد ورد في القرآن الإشارة إلى حالتين منها بصراحة

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١.

(٢) نقرأ في حادثة كربلاء أنّ الإمام الحسين عليه السلام خطب أصحابه ليلة العاشر من المحرم وأحلّ بيعته من أصحابه بعد أن أظهر تقديره لهم وشكرهم على مواساتهم إيّاه لينطلقوا حيث يشاؤون فقال: «انطلقوا في حِلٍّ منّي ليس عليكم منّي ذمام» لكنّهم لم يتركوا الحسين عليه السلام وبقوا على وفائهم (الكامل: لابن الأثير، ج٤، ص٥٧).

(٣) سورة النساء، الآية: ٥٩.

إحداهما «بيعة الرضوان» - محل البحث - والأُخرى «البيعة مع أهل مكّة» المشار إليها في سورة الممتحنة!.

وفي الإجابة على هذا السؤال نقول: لا شك أنّ هذه المبايعات كانت نوعاً من التأكيد على الوفاء، وقد أُديّت في ظروف خاصة ولا سيما في مواجهة الأزمات والحوادث الصعبة لتنبض في ظلّها روح جديدة في الأفراد كما وجدنا تأثيرها المذهل في بيعة الرضوان في البحث السابق!..

إلاّ أنّه فيما يتعلّق بمبايعة الخلفاء فقد كانت البيعة على أساس أنّها قبول لمقام الخلافة وإن كنّا لا نعتقد بخلافة من يخلف النّبي والتي تؤخذ البيعة لها عن طريق الناس، بل هي من قبل الله وتتحقّق بالنص من قِبل النّبي أو الإمام السابق على اللاحق!

ومن هذا المنطلق فإنّ البيعة التي بايعها المسلمون لعلي عليه السلام أو للحسن أو الحسين عليه السلام فيها (جنبة) تأكيد على الوفاء وهي شبيهة ببيعة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم.

٤ - هل البيعة في العصر الحاضر مقبولة على أنّها أصل إسلامي، أو بتعبير آخر: هل يمكن تعميم البيعة، وهل للجماعة الفلانية أن تختار شخصاً لائقاً وواجداً للشرائط الشرعية كأن يكون آمراً للقوات المسلّحة أو رئيساً للجمعية أو رئيساً للحكومة فتبايعه؟ فهل أنّ مثل هذه البيعة مشمول بأحكام الشارع للبيعة؟!

الجواب على ذلك: إنّه لا يوجد عموم ولا إطلاق في القرآن والسنّة في خصوص البيعة فمن المشكل تعميم هذه المسألة وإن كان الاستدلال بعموم الآية ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ غير بعيد!

ولكن مع هذا الإبهام في المسائل المرتبطة بالبيعة فإنّ هناك مانعاً من أن نعوّل بصورة قطعية على ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ وخاصةً أنّنا لا نجد في الفقه أي مورد للبيعة لغير النّبي صلى الله عليه وآله وسلم والإمام المعصوم.

وينبغي الالتفات إلى هذه «اللطيفة» وهي أن مقام نيابة الوليّ الفقيه في نظرنا مقام منصوص عليه من قبل الأئمة المعصومين عليهم السلام ولا حاجة له بالبيعة وبالطبع فإنّ اتباع الناس للولي الفقيه وطاعتهم له يمنحه الإمكان من الاستفادة من هذا المقام ويعطيه - كما هو مصطلح عليه - بسط اليد، لكنّ هذا لا يعني أنّ مقامه مشروط بتبعيّة الناس له، ثمّ إنّ اتباع الناس إيّاه لا علاقة له بالبيعة، بل هو عمل بحكم الله في شأن ولاية الفقيه «فلاحظوا بدقّة».

٥ - وعلى كلّ حال فإنّ البيعة مرتبطة بالمسائل الإجرائية ولا علاقة لها بالأحكام، أي إنّ البيعة لا تمنح أحداً حق «التشريع والتقنين» أبداً. . بل يجب أن تؤخذ القوانين من الكتاب والسنّة ثمّ تنفّذ في حيّز الواقع، ولا كلام لأحد في هذا.

٦ - يستفاد من الرّوايات أنّ البيعة مع الإمام المعصوم ينبغي أن تكون خالصةً لله، وبتعبير آخر هي من الأُمور التي يلزم فيها قصد القربة.

فقد ورد عن النّبي ﷺ أنّه قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله عزّ وجلّ يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم، رجل بايع إماماً لا يبايعه إلاّ للدنيا، إن أعطاه ما يريده وفى له وإلاّ كفّ، ورجلاً بايع رجلاً بسلعته بعد العصر فحلف بالله عزّ وجلّ لقد أُعطي بها كذا وكذا فصدّقه وأخذها ولم يُعط فيها ما قال، ورجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه ابن السبيل»[١]. «والتعبير بالعصر لعلّه لشرف هذا الوقت أو لأنّ كثيراً من الباعة يبيعون أجناسهم بالقيمة التي اشتروها في هذا الوقت».

٧ - «نكث البيعة» من الذنوب الكبيرة، ونقرأ حديثاً عن الإمام موسى بن جعفر أنّه قال: «ثلاث موبقات، نكث الصفقة، وترك السنّة، وفراق الجماعة»[٢].

ويظهر أنّ المراد من «ترك السنّة» هي ترك القوانين التي جاء بها النّبي محمّد ﷺ وفراق الجماعة معناها الإعراض عنها لا محض عدم المشاركة في الجماعة.

٨ - البيعة في كلام الإمام علي عليه السلام هناك في نهج البلاغة كلمات تؤكّد على البيعة وقد عوّل الإمام علي عليه السلام عليها مراراً وأنّ الناس بايعوه.

ومن جملتها أنّه قال في بعض خطبه: «أيّها الناس إنّ لي عليكم حقّاً ولكم عليَّ حق فأمّا حقكم عليَّ فالنصيحة لكم وتوفير فيئكم عليكم وتعليمكم كيلا تجهلوا وتأديبكم كيما تعلموا» ثمّ يضيف عليه السلام: «وأمّا حقي عليكم فالوفاء بالبيعة والنصيحة بالمشهد والمغيب والإجابة حين أدعوكم والطاعة حين آمركم»[٣].

ويقول عليه السلام - في مكان آخر: «لم تكن بيعتكم إيّاي فلتةً»[٤].

وفي خطبته التي خطبها قبل حرب الجمل والتحرّك من المدينة نحو البصرة أشار إلى

---

(١) الخصال: باب ٣ ح ٧٠.
(٢) بحار الأنوار، ج٦٧، ص١٨٥.
(٣) نهج البلاغة الخطبة ٣٤.
(٤) نهج البلاغة الخطبة ١٣٦.

بيعة الناس إيّاه وأن يثبتوا على ما بايعوه فقال عليه السلام: «وبايعني الناس غير مستكرهين ولا مجبرين بل طائعين مخيّرين»[١].

ونقرأ أخيراً في بعض كتبه لمعاوية حين لم يبايع الإمام عليّاً وكان يريد الانتقام من علي عليه السلام قوله: «بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد»[٢].

ويستفاد من بعض عبارات النهج أنّ البيعة ليست أكثر من مرة واحدة ولا سبيل لتجديد النظر فيها وليس فيها اختيار الفسخ، ومن يخرج منها فهو طاعن، ومن يتريث ويفكر في قبولها أو ردّها فهو منافق.

[إنّها بيعة واحدة لا يثنّى فيها النظر ولا يستأنف فيها الخيار؛ الخارج منها طاعن والمروّي فيها مداهن][٣].

ويستفاد من مجموع هذه التعابير أنّ الإمام عليه السلام استدلّ على من لم يقبلوا بأنّ إمامته منصوص عليها من قِبل النّبي صلى الله عليه وآله وسلم - وكانوا يتذرّعون بحجج واهية - بالبيعة التي كانت عندهم من المسلّم بها، ولم تكن لهم الجرأة على أن يرفضوا طاعة الإمام ويسمعوا لمعاوية وأمثال معاوية، فكما أنّهم يرون مشروعية الخلافة للخلفاء الثلاثة السابقين، فعليهم أن يعتقدوا بأنّ خلافة الإمام مشروعة أيضاً وأن يذعنوا له «بل إنّ خلافته أكثر شرعيةً لأنّ بيعته كانت أوسع وكانت حسب رغبة الناس ورضاهم».

فبناءً على هذا لا منافاة بين الاستدلال بالبيعة ومسألة نصب الإمام بواسطة الله والنّبي صلى الله عليه وآله وسلم وتأكيد البيعة.

لذلك فإنّ الإمام يشير في مكان من (نهج البلاغة) نفسه بحديث الثقلين الذي هو من نصوص الإمامة[٤] كما يشير في مكان آخر إلى مسألة الوصية والوراثة[٥]. [فلاحظوا بدقّة].

كما يشير عليه السلام في بعض عباراته الأُخرى إلى لزوم الوفاء بالبيعة وعدم إمكان الفسخ

---

(١) نهج البلاغة من كتاب له عليه السلام رقم ١.

(٢) من كتاب له رقم ٦، وينبغي الالتفات إلى أنّ التعويل على بيعة الخلفاء السابقة هو لأنّ معاوية كان منصوباً من قِبلهم وكان يدافع عنهم فلا منافاة بين هذا وما جاء في الخطبة المعروفة بالشقشقية.

(٣) نهج البلاغة: من كتاب له برقم ٧.

(٤) نهج البلاغة: الخطبة رقم ٨٧.

(٥) نهج البلاغة: الخطبة رقم ٢.

والنكث وتجديد النظر وعدم الحاجة إلى التكرار وهذه هي مسائل مقبولة بالنسبة للبيعة أيضاً.

ويستفاد من هذه التعابير ضمناً بصورة جيّدة أنّ البيعة إذا كانت فيها «جنبة» إكراه أو إجبار أو أخذت على حين غرّة من الناس فلا عبرة بها ولا قيمة لها بل البيعة الحق التي تكون في حال الاختيار والحرية والإرادة والتفكّر والتدبّر.

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾

التّفسير

من بركات صلح الحديبيّة مرّة أخرى!

تتحدّث هاتان الآيتان كالآيات السابقة المتعلّقة بصلح الحديبيّة والوقائع التالية لها - عن البركات وما حصل عليه المسلمون من غنائم في هذا الطريق.

فتقول الآية الأولى منهما: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾.

ويدلّ لحن الآية أنّ المراد من المغانم الكثيرة هنا جميع المغانم التي جعلها الله للمسلمين سواءً في أمد قصير أم بعيد حتى أنّ جمعاً من المفسّرين يعتقدون أنّ المغانم التي تقع في أيدي المسلمين إلى يوم القيامة داخلة في هذه العبارة أيضاً.

أمّا قوله: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ فيرى الكثير من المفسّرين أنّ المراد منه مغانم خيبر التي توفّرت خلال أمد قصير جداً بعد حادثة الحديبيّة!

غير أنّ البعض يرى أنّ كلمة ﴿هَٰذِهِۦ﴾ إشارة إلى فتح الحديبيّة الذي يُعدّ أكبر غنيمة معنوية!.

ثمّ يشير القرآن إلى لطف آخر من ألطاف الله على المسلمين - في هذه الحادثة - فيقول: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾.

وهذا لطف كبير أن يكون المسلمون على قلة العَدد والعُدد وفي نقطة نائية عن الوطن وفي مقربة من العدوّ - في مأمن منه وأن يلقي الله رعباً ووحشة منهم في قلوب الأعداء بحيث يخشون التحرش بهم!.

ويرى جماعة من المفسّرين أنّ هذه الجملة إشارة إلى ما جرى في خيبر إذ كانت بعض القبائل من «بني أسد» و«بني غطفان» قد صمّموا أن يهجموا على المدينة في غياب المسلمين وأن ينهبوا أموالهم ويأسروا نساءهم!

أو أنّها إشارة إلى تصميم جماعة من هاتين القبيلتين على أن ينهضوا لنصرة يهود خيبر فألقى الله الرعب في قلوبهم فصرفهم عن ذلك.

غير أنّ التّفسير الأوّل أنسب ظاهراً! لأنّنا نشاهد شرطاً لهذا التعبير بعد بضع آيات ورد في شأن أهل مكّة كما جاء في الآية محل البحث، وهو منسجم مع أسلوب القرآن الذي هو أسلوب إجمال وتفصيل!

المهم أنّه طبقاً للرّوايات المشهورة فإنّ سورة الفتح جميعها نزلت بعد حادثة الحديبية وخلال عودة النّبي ﷺ من مكّة إلى المدينة!

ثمّ يضيف القرآن في تكملة الآية مشيراً إلى نعمتين كُبريين أُخريين من مواهب الله ونعمه إذ يقول: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

وبالرغم من أنّ بعض المفسّرين يرى أنّ الضمير في لتكون عائد على الغنائم الكثيرة الموعودة، وبعضهم يراه عائداً على حماية المسلمين وكف أيدي الناس عنهم، غير أنّ المناسب أن يعود الضمير إلى جميع حوادث الحديبية ومجرياتها بعد ذلك.. لأنّ كلاً منها آية من آيات الله ودليل على صدق النّبي ﷺ ووسيلة لهداية الناس إلى الصراط المستقيم، وكان في قسم منها (جنبة) أخبار بالمغيّبات، وكان بعضها لا ينسجم مع الظروف العادية، وهي في المجموع تعدّ معجزة واضحة من معاجز النّبي ﷺ.

وفي الآية التالية أعطى الله بشارةً أخرى للمسلمين إذ قال: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾.

وهناك كلام بين المفسّرين في أنّ هذا الوعد يشير إلى أية غنيمة؟ وإلى أي نصر؟!

يرى بعضهم أنّه إشارة إلى فتح مكّة وغنائم حنين.

ويرى آخرون أنّه إشارة إلى الفتوحات والغنائم التي كانت نصيب المسلمين بعد النّبي (كفتح فارس والروم ومصر) كما يحتمل أيضاً أنّه إشارة لجميع ما تقدّم ذكره[1].

---

(١) ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ هنا صفة لمحذوف تقدير (ومغانم أُخرى لم تقدروا عليها) وهي منصوبة لعطفها على ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾..

عبارة: ﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ إشارة إلى أنّ المسلمين لم يحتملوا قبل ذلك أن يظفروا بمثل هذه الفتوحات والغنائم، إلاّ أنّه وببركة الإسلام والإمدادات الإلهية نالوا هذه القدرة والقوّة!

واستنبط بعض المفسّرين من هذه الجملة أنّ المسلمين كانوا يتحدّثون عن مثل هذه الفتوحات، إلاّ أنّهم كانوا يرون أنفسهم غير قادرين وخاصّة أنّنا نقرأ في قصة الأحزاب يوم بشّر النّبي ﷺ المسلمين بفتح بلاد فارس والروم واليمن اتخذ المنافقون كلامه هزواً!

وجملة ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ إشارة إلى إحاطة قدرة الله على هذه الغنائم أو الفتوحات، ويرى بعض المفسّرين أنّها إشارة إلى إحاطة علمه، غير أنّ المعنى الأوّل أكثر انسجاماً مع تعابير الآية الأُخرى، وبالطبع لا مانع في الجمع بينهما معاً.

وأخيراً فإنّ آخر جملة في الآية ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ هي في الحقيقة بمنزلة بيان العلة للجملة السابقة، وهي إشارة إلى أنّه مع قدرة الله على كلّ شيء فلا عجب أن ينال المسلمون مثل هذه الفتوحات!.

وعلى كلّ حال فإنّ الآية من إخبار القرآن بالمغيّبات والحوادث الآتية، وقد حدثت هذه الفتوحات في مدة قصيرة وكشفت عن عظمة هذه الآيات بجلاء!

ملاحظة

قصة غزوة خيبر

لمّا عاد النّبي ﷺ من الحديبيّة نحو المدينة أمضى شهر ذي الحجة كلّه وأياماً من شهر محرم الحرام من السنة السابعة للهجرة في المدينة، ثمّ تحرّك بألف وأربعمائة نفر من المسلمين الذين كانوا حضروا الحديبيّة نحو «خيبر» [حيث كان مركزاً للتحرّكات المناوئة للإسلام وكان النّبي ﷺ يتحيّن الفرص لتدمير ذلك المركز للفساد].

وقد صمّمت قبيلة غطفان في البداية أن تحمي يهود خيبر غير أنّها خافت بعدئذ عواقب أمرها (فاجتنبت حمايتها لهم).

فلمّا وصل النّبي ﷺ قريباً من قلاع خيبر أمر أصحابه أن يقفوا ثمّ رفع رأسه الشريف للسماء ودعا بهذا الدعاء: «اللّهمّ ربّ السماوات وما أظللن وربّ الأرضين وما أقللن، نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ونعوذ بك من شرّها وشرّ أهلها وشرّ ما فيها».

ثمّ قال ﷺ : «اقدموا بسم الله»، وهكذا وصلوا خيبر ليلاً وعند الصباح - حيث

علم أهل خيبر بالخبر - وجدوا أنفسهم محاصرين من قبل جنود الإسلام، ثمّ فتح النّبي ﷺ القلاع قلعة بعد أُخرى حتى بلغ أقوى القلاع وأمنعها وآخرها وكان فيها «مرحب» قائد اليهود المعروف.

وفي هذه الأيّام أصاب رأس النّبي ﷺ وجع شديد كان ينتابه أحياناً حتى أنّه لم يستطع الخروج من خيمته - يوماً أو يومين.. وفي هذه الأثناء وطبقاً لما ورد في التاريخ الإسلامي، حمل أبو بكر الراية في يده وتوجّه بالمسلمين نحو معسكر اليهود غير أنّه سرعان ما عاد وهو صفر اليدين دون نتيجة، ومرّة أُخرى أخذ عمر الراية وحمل بالمسلمين بصورة أشد فما أسرع ما عاد دون جدوى...

فلمّا بلغ الخبر مسمع النّبي ﷺ قال: «والله لأعطينها غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله يأخذها عنوة!».

فاشرأبت الأعناق من كلّ جانب تَرى من هو المقصود، وقد حدس جماعة منهم أنّ مقصوده (علي) عليه السلام، إلاّ أنّ علياً كان مصاباً بوجع في عينه فلم يكن حاضراً حينئذ، ولمّا كان الغد أمر النّبي بأن يدعو له علياً، فجاء راكباً على بعير له حتى أناخ قريباً من خباء رسول الله ﷺ، وهو أرمد قد عصّب عينيه.

فقال رسول الله ﷺ: ما لك؟

قال علي عليه السلام: رمدت بعدك.

فقال له: ادنُ مني، فدنا منه، فتفل في عينيه، فما شكا وجعاً حتى مضى بسبيله، ثمّ أعطاه الراية.

فتوجّه علي عليه السلام بجيش الإسلام نحو القلعة الكبرى (من خيبر) فرآه رجل يهودي من أعلى الجدار فسأله من أنت؟ فقال: أنا علي بن أبي طالب. فنادى اليهودي: أيّتها الجماعة حان اندحاركم، فجاء «مرحب» آمر الحصن ونازل علياً فما كان إلاّ أن هوى إلى الأرض صريعاً بضربة علي عليه السلام، فالتحمت الحرب بين المسلمين واليهود بشدّة فاقترب علي عليه السلام من باب الحصن فقَلعه فدحاه ورماه بقوّة خارقة إلى مكان آخر، وهكذا فُتحت القلعة ودخلها المسلمون فاتحين.

واستسلم اليهود وطلبوا من النّبي أن يحقن دماءهم لاستسلامهم، فقبل النّبي ﷺ وغنم الجيش الإسلامي الغنائم المنقولة، وأودع النّبي ﷺ الأرض والأشجار بأيدي اليهود على أن يعطوا المسلمين نصف حاصلها[1].

(١) نقلاً بتلخيص عن [الكامل في التاريخ لابن الأثير] ج٢، ص٢١٦ - ٢٢١.

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾

التّفسير

لو حدَثتِ الحرب في الحديبيّة!؟

هذه الآيات تتحدّث أيضاً عن أبعاد أُخر لما جرى في الحديبيّة وتشير إلى «لطيفتين» مهمّتين في هذا الشأن!

الأولى: هي أنّه لا تتصوّروا أنّه لو وقعت الحرب بينكم وبين مشركي مكّة في الحديبيّة لانتصر المشركون والكفرة! ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

وليس هذا منحصراً بكم بل: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

فهذا هو قانون إلهي دائم، فمتى واجه المؤمنون العدوّ بنيّات خالصة وقلوب طاهرة ولم يضعفوا في أمر الجهاد نصرهم الله على عدوّهم، وربّما حدث في هذا الشأن إبطاء أو تعجيل لامتحان المؤمنين أو لأهداف أخرى، ولكنّ النصر النهائي على كل حال هو حليف المؤمنين. . .

لكن في موارد كمعركة أحد مثلاً حيث إنّ جماعة لم يتّبعوا أمر الرّسول ومالت طائفة منهم إلى الدنيا وزخرفها فلوّثت نياتها وعكفت على جمع الغنائم فإنّها ذاقت هزيمة مرّة، وهكذا بعد!

اللطيفة المهمّة التي تبيّنها الآيات هي أن لا تجلس قريش فتقول: مع الأسف إنّنا لم

نقاتل هذه الطائفة القليلة العدد، أسفاً إذ بلغ «الصيد» مكّة فغفلنا عنه. . أبداً ليس الأمر كذلك. . فبالرغم من أنّ المسلمين كانوا قلّة وبعيدين عن الوطن والمأمن وفاقدين للأعتدة والمؤن. ولكن مع هذه الحال لو وقع قتال بين المشركين والمؤمنين لانتصر المؤمنون ببركة قوى الإيمان ونصر الله أيضاً. . ألم يكونوا في بدر والأحزاب قلّة وأعداؤهم كثرة، فكيف انهزم الجمع وولّوا الدبر في المعركتين؟!

وعلى كلّ حال فإنّ بيان هذه الحقيقة كان سبباً لتقوية روحية المؤمنين وتضعيف روحية الأعداء وإنهاء القيل والقال من قبل المنافقين، ودلّ على أنّه حتى لو حدثت حرب في هذه الظروف غير الملائمة بحسب الظاهر فإنّ النصر سيكون حليف المؤمنين الخُلّص!.

واللطيفة الأُخرى التي بيّنتها هذه الآيات أنّها قالت: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

حقاً. . كان ما حدث مصداقاً جليّاً «للفتح المبين» ونعمَ ما اختاره القرآن له من وصف، فالعدوّ الذي زحف بجيشه مراراً نحو المدينة وسعى سعياً عجيباً لإيقاع الهزيمة بالمسلمين، إلاّ أنّه الآن حيث حطّوا أقدامهم في حريمه ودياره يمتلكه الرعب منهم حتى أنّه يقترح الصلح معهم، فأيّ فتح مبين أكبر من هذا الفتح إذ ينال المسلمون هذا التفوّق على العدو دون أن تسفك قطرة دم واحدة من المسلمين!؟

ولا شكّ أنّ ما جرى في الحديبيّة كان يعدّ في جزيرة العرب عامة نصراً للمسلمين وهزيمة لقريش.

هذا وقد ذكر جماعة من المفسّرين في نزول هذه الآية أنّ مشركي مكّة عبّؤوا أربعين رجلاً للهجوم على المسلمين (بصورة خفية) في الحديبيّة، غير أنّ المسلمين أفشلوا مؤامرتهم وأجهضوا مكيدتهم - بفطنتهم - فأسر المسلمون هؤلاء الأربعين جميعاً وجاؤوا بهم إلى النّبي ﷺ فخلّى عنهم سبيلهم.

وقال بعضهم: إنّهم كانوا ثمانين أرادوا أن يهجموا على المسلمين من جبل التنعيم عند صلاة الغداة وبالاستفادة من العتمة، وقال بعضهم: كان النّبي ﷺ يستظلّ تحت الشجرة ليكتب معاهدة الصلح مع ممثل قريش وعلي مشغول بالإملاء، فحمل عليه ثلاثون شابّاً من أهل مكّة بأسلحتهم ولكن بمعجزة مذهلة فشلت خطتهم وأُسر جميعهم

وخلّى النّبي ﷺ عنهم سبيلهم(١).

وطبقاً لشأن النّزول هذا فإنّ جملة ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ إشارة إلى الانتصار على هذه الطائفة، في حين أنّه طبقاً للتفسير السابق يكون المقصود هو النصر الكلّي للمسلمين على المشركين وهذا التّفسير أكثر انسجاماً مع مفاد الآية. .

ممّا يستلفت النظر أنّ القرآن يؤكّد على عدم القتال في بطن مكّة، وهذا التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى لطيفتين:

الأولى: إنّ مكّة كانت مركزاً لقوّة العدوّ، وعلى القاعدة كان على أهل مكّة [المشركين] أن يغتنموا الفرصة المناسبة فيحملوا على المسلمين فقد كانوا يبحثون عنهم وعن فرصة للقضاء عليهم فإذا هم في دارهم وفي قبضتهم فما كان ينبغي أن يتركوا هذه الفرصة بهذه البساطة، لكنّ الله سلب عنهم قدرتهم وصرفهم عنهم!

الثانية: إنّ مكّة كانت حرم الله الآمن، فلو وقع القتال فيها لسالت الدماء فتهتك حرمة الحرم من جانب، وتكون عاراً على المسلمين وعيباً أيضاً، إذ سلبوا أمن هذه الأرض المقدّسة، ولذلك فإنّ من نِعَم الله على نبيّه ﷺ وعلى المسلمين أنّه وبعد هذه القضية بسنتين فتح عليهم مكّة وكان ذلك من دون سفك دم أيضاً. . .

وفي آخر آية من الآيات محل البحث إشارة إلى لطيفة أُخرى تتعلّق بمسألة صلح الحديبيّة وحكمتها إذ تقول الآية: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ﴾(٢).

كان أحد ذنوبهم كفرهم، والذنب الآخر صدّهم إيّاكم عن العُمرة زيارة بيت الله ولم يجيزوا أن تنحروا الهدي في محله، أي مكّة (الهدي في العمرة ينحر [أو يذبح] في مكّة وفي الحج بمنى) على حين ينبغي أن يكون بيت الله للجميع وصدّ المؤمنين عنه من أعظم الكبائر، كما يصرّح القرآن بذلك في مكان آخر من سورة: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾(٣).

---

(١) تفسير مجمع البيان ج٩، ص١٢٣، مع شيء من التصرف كما ذكر هذا الشأن (القرطبي) بتفاوت يسير و(أبو الفتوح الرازي) و(الآلوسي في روح المعاني) و(الشيخ الطوسي في التبيان) و(المراغي) وأضرابهم.

(٢) «معكوفاً» مشتق من العكوف ومعناها المنع عن الحركة والبقاء في المكان.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١١٤.

ومثل هذه الذنوب يستوجب أن يسلّطكم الله عليهم لتعاقبوهم بشدّة! لكنّ الله تعالى لم يفعل ذلك فلماذا؟! ذيل الآية يبيّن السبب بوضوح إذ يقول: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(١)..

وهذه الآية تشير إلى طائفة ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ﴾ المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام في مكّة ولم يهاجروا إلى المدينة لأسباب خاصة.

فلو قاتل المسلمون أهل مكّة لأوقعوا أرواح هؤلاء المستضعفين في خطر ولامتدت ألسنة المشركين بالقول: إنّ جنود الإسلام لم يرحموا لا أعداءهم ومخالفيهم ولا أتباعهم ومؤالفيهم، وهذا عيب وعار كبير!

وقال بعضهم أيضاً: إنّ المراد من هذا العيب لزوم الكفارة ودية قتل الخطأ، لكنّ المعنى الأوّل أكثر مناسبةً ظاهراً.

«المعرّة» من مادة «عرّ» على زنة «شرّ» «والعرّ على زنة الحر» في الأصل معناه مرض الجرب وهو من الأمراض الجلدية التي تصيب الحيوانات أو الإنسان أحياناً ثمّ توسّعوا في المعنى فأطلقوا هذا اللفظ على كلّ ضرر يصيب الإنسان.

ولإكمال الموضوع تضيف الآية: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

أجل، كان الله يريد للمستضعفين المؤمنين من أهل مكّة أن تشملهم الرحمة ولا تنالهم أية صدمة..

كما يرد هذا الاحتمال أيضاً وهو أنّ أحد أهداف صلح الحديبيّة أنّ من المشركين من فيه قابلية الهداية فيهتدي ببركة هذا الصلح ويدخل في رحمة الله.

والتعبير بـ﴿مَن يَشَآءُ﴾ يراد منه الذين فيهم اللياقة والجدارة، لأنّ مشيئة الله تنبع من حكمته دائماً، والحكيم لا يشاء إلاّ بدليل ولا يعمل عملاً دون دقّة وحساب..

ولمزيد التأكيد تضيف الآية الكريمة: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي لو افترقت وانفصلت صفوف المؤمنين والكفّار في مكّة ولم يكن هناك خطر على المؤمنين لعذّبنا الكفّار بأيديكم عذاباً أليماً.

---

(١) جواب لولا في الجملة الآنفة محذوف والتقدير: لمّا كفّ أيديكم عنهم، أو: لوطأتم رقاب المشركين بنصرنا إيّاكم..

صحيح أنّ الله قادر على أن يفصل هذه الجماعة عن الآخرين عن طريق الإعجاز، ولكنّ سنّة الله - في ما عدا الموارد الاستثنائية - أن تكون الأُمور وفقاً للأسباب العاديّة.

جملة ﴿تَزَيَّلُوا﴾ من مادة زوال، وهنا معناها الانفصال والتفرّق.

ويستفاد من روايات متعدّدة منقولة عن طرق الشيعة والسنّة حول ذيل هذه الآية أنّ المراد منها أفراد مؤمنون كانوا في أصلاب الكافرين والله سبحانه لأجل هؤلاء لم يعذّب الكافرين..

ومن جملة هذه الروايات نقرأ في الرواية أنّه سأل رجلٌ الإمام الصادق عليه السلام: ألم يكن علي عليه السلام قوياً في دين الله؟ قال عليه السلام: بلى. فقال: فعلام إذ سُلّط على قوم (في الجمل) لم يفتك بهم فما كان منعه من ذلك؟!

فقال الإمام: آية في القرآن!

فقال الرجل: وأية آية؟!

فقال الصادق عليه السلام قوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾..

ثمّ أضاف عليه السلام: أنّه كان لله عزّ وجلّ ودائع مؤمنون في أصلاب قوم كافرين ومنافقين، ولم يكن علي ليقتل الآباء حتى تخرج الودائع.. وكذلك قائمنا أهل البيت لن يظهر أبداً حتى تظهر ودائع الله عزّ وجلّ[1].

أي أن الله سبحانه يعلم أنّ جماعة سيولدون منهم في ما بعد وسيؤمنون عن اختيارهم وإرادتهم ولأجلهم لم يعذب الله آباءهم وقد أورد هذا القرطبي في تفسيره بعبارة أُخرى.

ولا يمنع أن تكون الآية مشيرة إلى المؤمنين المختلطين بالكفّار في مكّة وإلى المؤمنين الذين هم في أصلاب الكافرين وسيولدون في ما بعد!..

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦)﴾

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٧٠، ح ٥٩، وروايات أُخر متعددة وردت أيضاً في هذا المجال!.

التّفسير

التعصّب «وحمية الجاهلية» أكبر سدٍّ في طريق الكفّار

هذه الآية تتحدّث مرّة أُخرى عن (مجريات) الحديبيّة وتجسّم ميادين أُخرى من قضيتها العظمى. . . فتشير أوّلاً إلى واحد من أهم العوامل التي تمنع الكفّار من الإيمان بالله ورسوله والإذعان والتسليم للحق والعدالة فتقول: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾(١).

ولذلك منعوا النّبي والمؤمنين أن يدخلوا بيت الله ويؤدّوا مناسكهم وينحروا «الهدي» في مكّة. وقالوا: لو دخل هؤلاء - الذين قتلوا آباءنا وإخواننا في الحرب - أرضنا وديارنا وعادوا سالمين فما عسى أن تقول العرب فينا؟! وأية حيثية واعتبار لنا بعد هذا؟

هذا الكبر والغرور والحميّة - حمية الجاهلية - منعتهم حتى من كتابة «بسم الله الرحمن الرحيم» بصورتها الصحيحة عند تنظيم معاهدة صلح الحديبيّة، مع أنّ عاداتهم وسننهم كانت تجيز العُمرة وزيارة بيت الله للجميع، وكانت مكّة عندهم حرماً آمناً حتى لو وجد أحدهم قاتل أبيه فيها أو أثناء المناسك فلا يناله منه سوء وأذى لحرمة البيت عنده، فهؤلاء - بهذا العمل - هتكوا حرمة بيت الله والحرم الآمن من جهة، وخالفوا سننهم وعاداتهم من جهة أخرى، كما أسدلوا ستاراً بينهم وبين الحقيقة أيضاً، وهكذا هي آثار حمية الجاهلية المميتة!

«الحمية» في الأصل من مادة حَمي - على وزن حمد - ومعناها حرارة الشمس أو النّار التي تصيب جسم الإنسان وما شاكله، ومن هنا سمّيت الحُمّى التي تصيب الإنسان بهذا الاسم «حُمّى» على وزن كبرى، ويقال لحالة الغضب أو النخوة أو التعصّب المقرون بالغضب حمية أيضاً.

وهذه الحالة السائدة في الأُمم هي بسبب الجهل وقصور الفكر والانحطاط الثقافي خاصةً بين «الجاهليّين» وكانت مدعاة لكثير من الحروب وسفك الدماء!. .

(١) يستوفي الفعل ﴿جَعَلَ﴾ مفعولاً واحداً أحياناً وذلك إذا كان معناه «الإيجاد» كالآية محل البحث وفاعله الذين كفروا ومفعوله الحمية والمراد بالإيجاد هنا البقاء على هذه الحالة والتعلّق بها، وقد يستوفي هذا الفعل ﴿جَعَلَ﴾ مفعولين وذلك إذا كان بمعنى (صار).

ثمّ تضيف الآية الكريمة - وفي قبال ذلك - ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. . .

هذه السكينة التي هي وليدة الإيمان والاعتقاد بالله والاعتماد على لطفه دعتهم الى الاطمئنان وضبط النفس وأطفأت لهب غضبهم حتى أنّهم قبلوا - ومن أجل أن يحفظوا ويرعوا أهدافهم الكبرى - بحذف جملة «بسم الله الرحمن الرحيم» التي هي رمز الإسلام في بداية الأعمال وأن يثبتوا - مكانها «بسمك اللّهمَّ» التي هي من موروثات العرب السابقين - في أوّل المعاهدة وحذفوا حتى لقب «رسول الله» الذي يلي اسم محمّد ﷺ.

وقبلوا بالعودة إلى المدينة من الحديبيّة دون أن يستجيبوا لهوى عشقهم بالبيت ويؤدّوا مناسك العمرة! ونحروا هديهم خلافاً للسنّة التي في الحج أو العمرة في المكان ذاته وأحلّوا من إحرامهم دون أداء المناسك! . .

أجل، لقد رضوا بمرارة أن يصبروا إزاء كلّ المشاكل الصعبة، ولو كانت فيهم حميّة الجاهلية لكان واحد من هذه الأُمور الآنفة كفيلاً أن يشعل الحرب بينهم في تلك الأرض!

أجل. . . إنّ الثقافة الجاهلية تدعو إلى «الحمية» و«التعصّب» و«الحفيظة الجاهلية»، غير أنّ الثقافة الإسلامية تدعو إلى «السكينة» و«الاطمئنان» و«ضبط النفس».

ثمّ يضيف القرآن في هذا الصدد قائلاً: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾. .

(كلمة) هنا بمعنى «روح»، ومعنى الآية أنّ الله ألقى روح التقوى في قلوب أولئك المؤمنين وجعلها ملازمة لهم ومعهم، كما نقرأ - في هذا المعنى - أيضاً الآية (١٧١) من سورة النساء في شأن عيسى ابن مريم إذ تقول الآية: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾.

واحتمل بعض المفسّرين أنّ المراد من «كلمة التقوى» ما أمر الله به المؤمنين في هذا الصدد!

إلاّ أنّ المناسب هو «روح التقوى» التي تحمل مفهوماً تكوينياً، وهي وليدة الإيمان والسكينة والالتزام القلبي بأوامر الله سبحانه، لذا ورد في بعض الروايات عن النبيّ ﷺ أنّ المراد بكلمة التقوى هو كلمة لا إله إلاّ الله[1]، وفي رواية عن الإمام

(١) تفسير الدر المنثور، ج ٦، ص ٨٠.

الصادق عليه السلام أنّه فسّرها بالإيمان(١).

ونقرأ في بعض خطب النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «نحن كلمة التقوى وسبيل الهدى»(٢) وشبيه بهذا التعبير ما نُقل عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قوله: «ونحن كلمة التقوى والعروة الوثقى»(٣)!

وواضح أنّ الإيمان بالنبوّة والولاية مكمل للإيمان بأصل التوحيد ومعرفة الله لأنّهما جميعاً داعيانِ إلى الله ومناديان للتوحيد.

وعلى كلّ حال فإنّ المسلمين لم يُبتلوا في هذه اللحظات الحسّاسة بالحميّة والعصبية والنخوة والحفيظة، وما كتب الله لهم من العاقبة المشرفة في الحديبيّة لم تمسسْه نار الحمية والجهالة!

لأنّ الله يقول: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾.

وبديهي أنّه لا يُنتظر من حفنة عتاة وجهلة وعبدة أصنام سوى ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ ولا ينتظر من المسلمين الموحّدين الذين تربّوا سنين طويلة في مدرسة الإسلام مثل هذا الخلق والطباع الجاهلية، ما ينتظر منهم هو الاطمئنان والسكينة والوقار والتقوى، وذلك ما أظهروه في الحديبيّة ولكن بعض حادّي الطبع والمزاج أوشكوا على كسر هذا السدّ المنيع بما يحملوه من أنفسهم من ترسبات الماضي وأثاروا البلبلة والضوضاء، غير أنّ سكينة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم ووقاره كانا كمثل الماء المسكوب على النّار فأطفأها!

وتُختتم الآية بقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾. فهو سبحانه يعرف نيّات الكفّار السيئة ويعرف طهارة قلوب المؤمنين أيضاً فينزل السكينة والتقوى عليهم هنا، ويترك أُولئك في غيّهم وحميّتهم حميّة الجاهلية، فالله يشمل كلّ قوم وأمّة بما تستحقّه من اللطف والرحمة أو الغضب والنقمة!

ملاحظة

ما هي حميّة الجاهلية؟!

قلنا إنّ «الحميّة» في الأصل من مادة «حَمِي» ومعناها الحرارة، ثمّ صارت تستعمل في معنى الغضب، ثمّ استعملت في النخوة والتعصّب الممزوج بالغضب أيضاً..

---

(١) أصول الكافي طبقاً لما نقل في تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٧٣.
(٢) خصال الصدوق، ج ٢، ص ٤٣٢، وتفسير نور الثقلين، ج٥، ص٧٣.
(٣) بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ٣٥، وتفسير نور الثقلين، ج٥ ص٧٤.

وهذه الكلمة قد تستعمل في هذا المعنى المذموم «مقرونة بالجاهلية أو بدونها» بعض الأحيان، وقد تستعمل في المدح حيناً آخر، فتكون عندئذ بمعنى التعصّب في الأُمور الإيجابية البنّاءة!

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حين انتقده بعض أصحابه المعاندين: «مُنيت بمن لا يطيع إذا أمرت ولا يجيب إذا دعوت أما دين يجمعكم ولا حميّة تحشمكم»(١).

غير أنّ هذه الكلمة غالباً ما ترد في الذم كما ذكرها الإمام علي عليه السلام مراراً في خطبته القاصعة ذامّاً بها إبليس إمام المستكبرين: «صدّقه به أبناءُ الحمية وإخوان العصبية وفرسان الكبر والجاهلية»(٢).

وفي مكان آخر من هذه الخطبة يقول محذّراً من العصبيات الجاهلية: «فاطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبية وأحقاد الجاهلية فإنّما تلك الحمية تكون في المسلم من خطرات الشيطان ونخواته ونزعاته ونفثاته»(٣).

وعلى كلّ حال فلا شكّ أنّ وجود مثل هذه الحالة في الفرد أو المجتمع باعث على تخّلف ذلك المجتمع وتكبيل العقل والفكر الإنساني ومنعه من الإدراك الصحيح والتشخيص السالم.. وربّما تذرُ جميع مصالحه مع الرياح!..

وأساساً فإنّ انتقال السنن الخاطئة من جيل لآخر ومن قوم لآخرين ما كان إلاّ في ظل هذه الحميّة المشؤومة، ومقاومة الأمم للأنبياء والقادة غالباً ما تكون عن هذه السبيل أيضاً...

يُنقل عن الإمام علي بن الحسين حين سئل عن «العصبية» أنّه قال عليه السلام: «العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم»(٤).

إنّ خير سبيل لمقاومة هذه السجية السيئة والنجاة من هذه المهلكة العظمى السعي والجدّ لرفع المستوى الثقافي والفكري وإيمان كلّ قوم وجماعة..

وفي الحقيقة إنّ القرآن عالج هذا المرض بالآية المتقدّمة - محل البحث - حيث يتحدّث عن المؤمنين ذوي السكينة والتقوى، فحيث توجد التقوى فلا توجد حميّة الجاهلية، وحيث توجد حميّة الجاهلية فلا تقوى ولا سكينة.

---

(١) نهج البلاغة. الخطبة ٣٩.
(٢) المصدر السابق، الخطبة القاصعة ١٩٢.
(٣) المصدر السابق.
(٤) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٧٣، ح ٧٠.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝٢٧﴾

التّفسير

رؤيا النّبي الصادقة

هذه الآية - أيضاً - ترسم جانباً آخر من جوانب قصة الحديبيّة المهمّة، والقصة كانت على النحو التالي:

رأى النّبي ﷺ في المدينة رؤيا أنّه يدخل مكّة مع أصحابه لأداء مناسك العمرة، فحدّث أصحابه عن رؤياه فسُرّوا جميعاً، غير أنّه لمّا كان جماعة من أصحابه يتصوّرون أنّ تعبير الرؤيا سيتحقق في تلك السنة ذاتها ومنعهم المشركون من الدخول إلى مكّة أصابهم الشك والتردّد... ترى هل من الممكن أن تكون رؤيا النّبي غير صادقة؟ ألم يكن البناء أن نعتمر هذا العام؟! فأين هذا الوعد؟ وأين صارت هذه الرؤيا الرحمانية؟!

فكان جواب النّبي لهم: هل قلت لكم أنّ هذه الرؤيا ستتحقق هذا العام؟!

فنزلت الآية الآنفة في هذا الصدد والنّبي عائد من الحديبية إلى المدينة وأكّدت أنّ هذه الرؤيا كانت صادقة ولابدّ أنّها كائنة... تقول الآية: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾(١) فما رآه النّبي في المنام كان حقّاً وصدقاً.

ثمّ تضيف الآية قائلة: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ وكان في هذا التأخير حكمةٌ: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

ملاحظات

وفي الآية الكريمة عدّة ملاحظات تلفت النظر:

١ - ينبغي الالتفات إلى أنّ «اللام» في ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ هي لام القسم، وأنّ «النون» في

---

(١) ﴿صَدَقَ﴾ فعل ماض قد يستوفي مفعولين كما هي الحال في الآية الآنفة فرسوله مفعول به أوّل والرؤيا مفعول ثان، وقد يستوفي هذا الفعل مفعولاً واحداً يتعدّى إلى المفعول الثّاني بفي كقولك صدقته في حديثه.

آخر الفعل هي للتوكيد، بأنّ هذا هو وعد إلهي قطعي في المستقبل وتنبؤ معجز صريح عن أداء المناسك والعمرة في كامل الأمان ومنتهى الطمأنينة - وكما سنبيّن - كان هذا التوقّع والتنبّؤ صادقاً في شهر ذي القعدة ذاته من السنة المقبلة، وهكذا أدّى المسلمون مناسك العمرة بهذه الصورة!

٢ - جملة ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هنا لعلّها نوع من تعليم العباد لكي يعوّلوا على مشيئة الله عند الإخبار عن المستقبل وأن لا ينسوا إرادة الله، وأن لا يجدوا أنفسهم غير محتاجين أو مستقلّين عنه، وربّما هي إشارة للظروف التي يهيّؤها الله لهذا التوفيق «توفيق الله المسلمين لزيارة بيته في المستقبل القريب» والبقاء على خط «التوحيد والسكينة والتقوى». . .

كما يمكن أن تكون إشارة إلى بعض المسلمين الذين تنتهي أعمارهم في هذه الفترة والفاصلة الزمانية ولا يوفّقون إلى زيارة بيت الله، والجمع بين هذه المعاني كلها لا مانع منه أبداً. . .

٣ - التعبير بـ ﴿فَتۡحٗا قَرِيبًا﴾ كما يعتقد كثيرٌ من المفسّرين هو إشارة إلى صلح الحديبيّة الذي عبّر عنه القرآن بالفتح المبين، ونعرف أنّ هذا الفتح كان السبيل إلى دخول المسجد الحرام في السنة التالية.

على حين أنّ جماعة آخرين يعتقدون أنّ ﴿فَتۡحٗا قَرِيبًا﴾ إشارة إلى «فتح خيبر».

وبالطبع فإنّ كلمة ﴿قَرِيبًا﴾ فيها تناسبٌ أكثر مع «فتح خيبر» لأنّه كان - «تحقّقه العيني» بعد هذه الرؤيا في فترة أقل زمناً من فتح مكّة بعدها، ثمّ بعد هذا فإنّ القرآن يقول في الآية (١٨) من هذه السورة ذاتها عند الكلام على بيعة الرضوان: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾. وكما قلنا - ويعتقد بذلك أكثر المفسّرين أيضاً - أنّ المراد من هذا الفتح هو «فتح خيبر» والقرائن الموجودة في الآية تحكي عن هذا الفتح أيضاً، ومع الالتفات إلى أنّ الآية محل البحث تنسجم مع تلك الآية فيبدو أنّ الآيتين بمعنى واحد. . .[١].

وفي تفسير علي بن إبراهيم رواية تشير إلى هذا المعنى أيضاً[٢].

٤ - جملة ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ﴾ إشارة إلى واحد من مناسك العمرة وآدابها وهو

---

(١) التعبير بـ ﴿مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ إمّا بمعنى قبل ذلك، أي قبل أداء العمرة يفتح الله عليكم فتحاً قريباً في السنة المقبلة، أو بمعنى «غير ذلك» أي سينال المؤمنون فتحاً قريباً غير زيارة بيت الله والعمرة أيضاً.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٧٦، ح ٨٤.

«التقصير» وبه يخرج المحرم من إحرامه وقد استدل بعضهم بالآية في التخيير عند الخروج من الإحرام بين التقصير في تقليم الأظافر والحلق، لأنّ الجمع بينهما ليس واجباً قطعاً.

٥ - جملة ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ إشارة إلى مسائل مهمّة مطوية في صلح الحديبيّة وقد انكشفت بمرور الزمن - إذ قويت قواعد الإسلام وانتشر صوته وترامت أصداؤه في كلّ مكان وطُويت نزعة الحرب عند المسلمين واستطاعوا أن يفتحوا «خيبر» بفارغ البال وقرار البلبال، وأرسلوا المبلّغين إلى أطراف الجزيرة العربية وبعث النّبي ﷺ رسائله إلى أعاظم رؤساء الدول آنئذ، فهذه مسائل كان الفرد المسلم لا يعرفها لكنّ الله كان يعلمها...

٦ - نواجه في هذه الآية الكريمة موضوع الرؤيا، وهي رؤيا النّبي ﷺ الصادقة التي تعدّ (غصناً من غصون) الوحي وهي مشابهة لقصة رؤيا إبراهيم عليه السلام وذبح ولده إسماعيل الواردة في سورة الصافات (الآية ١٠٢).

«ولمزيد الإيضاح وتفصيل البيان حول الرؤيا وتعبير الأحلام من المناسب مراجعة تفسير سورة يوسف في هذا التّفسير».

٧ - الآية محل البحث واحدة من المسائل الغيبية التي أخبر عنها القرآن، وهي شاهد على أنّ هذا الكتاب سماويّ وأنّه من معاجز النّبي الكريم حيث يخبرُ قاطعاً عن أداء مناسك العمرة ودخول المسجد الحرام في المستقبل القريب وعن الفتح القريب قبله أيضاً، وكما نعلم أنّ هذين التنبّؤين قد حدثا فعلاً، وقد ذكرنا قصة «فتح خيبر» والآن نتحدّث عن قصة «عمرة القضاء».

عمرة القضاء

عمرة القضاء هى العمرة التي أدّاها النّبي ﷺ مع أصحابه بعد صلح الحديبيّة بعام، أي في ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة (على وجه الدقّة بعد عام من منع المشركين أن يدخل الرّسول وأصحابه مكّة).

وتسمية «عمرة القضاء» بهذا الاسم لأنّها في الحقيقة تعد قضاءً عن السنة السابقة...

وتوضيح ذلك: أنّه طبقاً لإحدى مواد معاهدة الحديبيّة أصبح من المقرر أن يؤدّي المسلمون العمرة وزيارة بيت الله في العام المقبل على أن لا يمكثوا في مكّة أكثر من ثلاثة أيام، وفي الوقت ذاته يخرج المشركون من مكّة ورؤساء قريش أيضاً، لئلا يقع

نزاع محتمل بين الطرفين ولئلا يروا المسلمين يؤدّون المناسك فيثيرهم منظر العبادة «التوحيدية».

وقد ورد في بعض التواريخ أنّ النّبي ﷺ أحرم في السنة المقبلة مع أصحابه والجمال المساقة للهدي وتحرّكوا جميعاً حتى بلغوا أطراف «الظهران» وضواحيه فأرسل النّبي ﷺ ما كان عنده من أسلحة وخيول تستلفت النظر مع أحد أصحابه واسمه «محمّد بن مسلمة» فلمّا رأى المشركون هذه الخطة فزعوا وخافوا خوفاً شديداً وظنّوا أنّ النّبي ﷺ يريد أن يقاتلهم وينقض المعاهدة الممضاة لعشر سنين وأخبروا أهل مكّة بذلك.

غير أنّ النّبي ﷺ حين وصل منطقة قريبة من مكّة أمر أن توضع الأسلحة من السهام والرماح وغيرها من الأسلحة في منطقة تدعى «ياجج»، ودخل هو وأصحابه مكّة بالسيوف المغمدة.

فلمّا رأى أهل مكّة من النّبي ما رأوا فرحوا إذ وفى النّبي بوعده [فكأنّ النّبي بإقدامه هذا أنذر المشركين أن لو نقضوا العهد وأرادوا أن ينازلوا المسلمين فهم على أتم الاستعداد].

فخرج رؤساء مكّة منها لئلاّ تتأثر عواطفهم وقلوبهم بهذه «المناظر» ولا تثيرهم مناسك العمرة من قبل المسلمين.

غير أنّ بقية أهل مكّة من الرجال والنساء والأطفال اجتمعوا في السطوح وحول الكعبة وخلال الطريق ليروا كيف يؤدّي المسلمون مناسكهم...

فدخل النّبي مكّة بهذه الأُبّهة الخاصة وكانت معه جمال كثيرة مسوقة للهدي فعامل أهل مكّة بمنتهى اللطف والمحبّة وأمر المسلمين أن يسرعوا أثناء الطواف وأن يزيحوا الإحرام عن أكتافهم قليلاً لتبدو علائم القدرة والقوّة فيهم وأن تترك هذه الحالة في أفكار أهل مكّة وأنفسهم تأثيراً كبيراً ودليلاً حيّاً على قوة المسلمين وحكمتهم!

وعلى كلّ حال فإنّ «عمرة القضاء» كانت عبارة كما كانت في الوقت ذاته عَرضاً «للعضلات المفتولة» وينبغي القول أنّ «فتح مكّة» الذي تحقّق بعد سنة أُخرى كان قد نثر بذره في هذه السنة وهيّأ الأرضية لاستسلام أهل مكّة للفاتحين (المسلمين).

وكان هذا الأمر مدعاةً لقلق رؤساء قريش إلى درجة أنّهم بعثوا رجلاً بعد مضي ثلاثة أيّام إلى النّبي يطلب منه أن يغادر بسرعة هو وأصحابه مكّة طبقاً للمعاهدة...

الطريف هنا أنّ النّبي تزوّج أرملة من نساء قريش وكانت من أقرباء بعض رؤسائهم المعروفين وذلك ليشدّ أواصره بهم ويخفّف من غلوائهم وبغضائهم.

وحين سمع النّبي اقتراحهم بالمغادرة قال: «ما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم فصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه». قالوا: لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنّا.

ولو كان تمّ ذلك لكان له أثره في نفوذ أمر النّبي في قلوبهم غير أنّهم لم يقبلوا ذلك منه[1].

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾

التّفسير

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾:

في هاتين الآيتين اللتين بهما تنتهي سورة الفتح إشارة إلى مسألتين مهمّتين من «الفتح المبين» أي «صلح الحديبيّة» إحداهما تتعلّق بعالميّة الإسلام والثانية تتعلّق بأوصاف أصحاب النّبي وخصائصهم وما وعدهم الله سبحانه به!

فالأولى منهما تقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

وهذا وعد صريح وقاطع من الله سبحانه في غلبة الإسلام وظهوره على سائر الأديان.

أي لا تعجبوا لو أخبركم الله عن طريق رؤيا نبيّه محمّد بالانتصار وأن تدخلوا

(١) تفسير مجمع البيان للطبرسي، ج ٩، ص ١٢٧ - في ظلال القرآن، ج ٧، ص ٥١١، تاريخ الطبري، ج٢، ص٣١٠ مع شيء من التلخيص.

المسجد الحرام بمنتهى الأمان وتؤدّوا مناسك العمرة دون أن يجرؤ أحد على إيذائكم، كما لا تعجبوا أن يبشّركم الله بالفتح القريب - فتح خيبر «فأوّل الغيث قطرة» وسيكون الإسلام باسطاً ظلاله في أرجاء المعمورة ويظهر على جميع الأديان. . .

ولِمَ لا يكون كذلك ومحتوى دعوة النّبي هداية الله إذ «أرسله بالهدى» ودينه «دين الحق» ويستطيع كلّ ناظر غير منحاز أن يرى حقّانيته في آيات القرآن وأحكام الإسلام الفرديّة والاجتماعية والقضائية والسياسية! وكذلك تعليماته الأخلاقية والإنسانية، وأن يعرف علاقة النّبي ﷺ بالله حقّاً من خلال إخباره بالمغيّبات وتنبّؤاته التي تقع في المستقبل بصورة قاطعة.

أجلْ: إنّ منطق الإسلام المتين ومحتواه الغني الغزير يطهّر الأرض من أديان الشرك الملوّثة، وتخضع له الأديان السماوية المحرّفة الأُخرى وأن يشدّ بأسلوبه الشائق[1] القلوب إليه.

ولكن ما المراد بـ «الظهور على الدين كلّه»؟ أهو الظهور المنطقي؟! أم الظهور (والغلبة) العسكريان؟! هناك اختلاف بين المفسّرين. . .

يعتقد جماعة منهم أنّ هذا الظهور هو الظهور المنطقي والاستدلالي فحسب وهذا الأمر متحقق، لأنّ الإسلام متفوّق من حيث الاستدلال والقدرة المنطقية على جميع الأديان.

ولكنّ جماعة آخرين فسّروا هذا الظهور بالغلبة الظاهرية وغلبة القوة، وموارد استعمال كلمة «يظهر» ومشتقاتها أيضاً دليل على الغلبة الخارجية. . . ولهذا يمكن القول أنّه بالإضافة إلى نفوذ الإسلام في مناطق كثيرة واسعة من الشرق والغرب وهي تحت لوائه اليوم وتدين به أكثر من أربعين دولة إسلامية بنفوس يقدّر إحصاؤها بأكثر من مليارد نسمة فإنّه سيأتي زمان على الناس يستوعب الإسلام جميع أرجاء المعمورة «رسميّاً» وسيكتمل هذا الأمر بظهور المهدي أرواحنا فداه إن شاء الله.

وكما نقل عن بعض أحاديث النّبي ﷺ أنّه قال: «لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلاّ أدخله الله كلمة الإسلام»[2].

---

(١) يجري على ألسنة الناس وبعض الأدباء قولهم هذا أسلوب شيّق، وهذا التعبير خطأ، والصحيح «شائق» أي مثير للشوق أمّا الشيّق فهو المشتاق (المصحّح).

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٥، القرطبي نقل هذه الرواية عن النّبي أيضاً ذيل الآية ٥٥ من سورة النور، ج ٧، ص ٤٦٩٢.

وسبق أن بحثنا في هذا المجال في نفس هذا التّفسير ذيل الآية (٣٣) من سورة التوبة المشابهة لهذه الآية محل البحث.

وهنا ملاحظة تلتفت النظر إليها وهي أنّ البعض ذهب إلى أنّ التعبير بالهدى إشارة الى استحكام العقائد الإسلامية، في حين أنّ التعبير بـ «دين الحق» ناظرٌ إلى حقّانية فروع الدين، إلاّ أنّه لا دليل لدينا على هذا التقسيم، والظاهر أنّ الهداية والحقّانية هما في الأصول والفروع معاً. . .

وفي عود الضمير في ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ هل يعود على الإسلام أم على النّبي؟ للمفسّرين احتمالان، إلاّ أنّ القرائن تدل بوضوح على أنّ المقصود هو دين الحق، لأنّه قريب من الضمير، هذا من حيث النظم والسبك اللغوي، كما أنّ المناسب ظهور الدين على الدين الآخر لا ظهور الشخص على الدين - أيضاً -.

وآخر ما نريد بيانه في شأن هذه الآية أنّ جملة ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ إشارة إلى هذه الحقيقة وهي أنّ هذا التوقع أو التنبّؤ لا يحتاج إلى أي شاهد، لأنّ شاهده الله، ورسالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً لا تحتاج إلى شاهد آخر، لأنّ الشاهد هو الله أيضاً، وإذا لم يوافق سهيل بن عمرو وأمثاله على كتابة عنوان: ﴿رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ بعد اسم النّبي محمّد فليس ذلك مدعاة للتأثر أبداً.

وفي آخر آية وصفٌ بليغٌ لأصحاب النّبي الخاصّين والذين كانوا على منهاجه على لسان التوراة والإنجيل وهو مدعاة افتخار لهم إذ أبدوا شهامتهم ورُجولتهم في الحديبيّة والمراحل الأُخر كما أنّه درس اختبار لجميع المسلمين على مدى القرون والأعصار! . . .

فتقول الآية في البداية: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾.

سواء رضي به خفافيش الليل كسهيل بن عمرو أم لم يرضَ به؟! وأخفوا أنفسهم عن هذه الشمس التي أشرقت على العالم أجمع أم لم يُخفوا؟! فالله يشهد على رسالته ويشهد بذلك العارفون.

ثمّ تصف الآية أصحابه وخلالهم (وسجاياهم) الباطنية والظاهرية ضمن خمس صفات إذ تقول في وصفهم: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾.

وصفتهم الثانية أنّهم: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾.

أجل: هم منطلق للمحبّة والرحمة فيما بينهم كما أنّهم نار ملتهبة وسدّ محكم بوجه أعدائهم الكفّار. . .

وفي الحقيقة إنّ عواطفهم وأفكارهم تتلخّص في هاتين الخصلتين: «الرحمة» و«الشدّة». . . لكن لا تضادّ في الجمع بينهما أوّلاً، ولا رحمتهم فيما بينهم وشدّتهم على الكفّار تقتضي أن تحيد أقدامهم عن جادّة الحق ثانياً. . .

ثمّ تضيف الآية مبيّنة وصفهم الثّالث فتقول: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾.

هذا التعبير يجسد العبادة بركنيها الأساسيين: «الركوع والسجود» على أنّها حالة دائمية لهم، العبادة التي هي رمز للتسليم أمام أمر الله الحق، ونفي الكبر والغرور والأنانية عن وجودهم.

أمّا الوصف الرابع الذي تذكره الآية عن هؤلاء الأصحاب فهو بيان نيّتهم الخالصة الطاهرة فتقول: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ فهم لا يعملون رياءً ولا يبتغون من الخلق الثواب، بل هدفهم رضا الله وفضله فحسب، والباعث على تحرّكهم في حياتهم جميعاً هو هذا الهدف ليس إلاّ! . . .

حتى التعبير بـ﴿فَضْلًا﴾ يدل على أنّهم معترفون بتقصيرهم ويرون أعمالهم أقل من أن يطلبوا الثواب من الله، بل إنّهم مع كلّ عبادتهم وأعمالهم الصالحة ما يزالون قائلين: لولا فضلك يا ربّنا فالويل لنا. .

أمّا الوصف الخامس فهو عن سيماهم المشرق إذ تقول الآية: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾(١).

«سيما» في الأصل معناها العلامة والهيئة، سواءً أكانت هذه العلامة في الوجه أم في مكان آخر وإن كانت في الاستعمال العرفي تشير إلى علامة الوجه! والأثر الظاهريّ له. . .

وبعبارة أُخرى إنّ قيافتهم تدلّ بصورة جيدة أنّهم أناس خاضعون أمام الله والحق والقانون والعدالة، وليست العلامة في وجوههم فحسب، بل في جميع وجودهم وحياتهم تبدو هذه العلامة. . .

وبالرغم من أنّ بعض المفسّرين يرى بأنّ «السيماء» هي الأثر الظاهر في الجبهة من السجود أو أثر التراب عليها من مكان السجدة. . . غير أنّ هذه الآية كما يظهر لها مفهوم أوسع ترتسم ملامحه على وجوه هؤلاء الرجال الربّانيين. . .

---

(١) ﴿سِيمَاهُمْ﴾ مبتدأ و﴿فِى وُجُوهِهِم﴾ خبره و﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ قد يكون حالاً عن السيماء والأفضل أن تعد (من) نشوية أي: «سيماهم في وجوههم وهذه السيماء والعلامة من أثر سجودهم».

وقال بعضهم: هذه الآية إشارة إلى إشراق وجوههم يوم القيامة كالبدر من كثرة سجودهم....

وبالطبع يمكن أن تكون جباههم ووجوههم على هذه الهيّئة يوم القيامة إلاّ أنّ الآية تتحدّث عن وضعهم الظاهري في الدنيا...

وقد ورد في حديث عن الإمام الصادق في تفسير هذه الجملة أنّه قال: «هو السهر في الصلاة!»[١].

ولا مانع من الجمع بين هذه المعاني كلّها!...

وعلى كلّ حال فإنّ القرآن يضيف بعد بيان هذه الأوصاف: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾!

فهذه حقيقة مقولة قبلاً وأوصافٌ وردت في كتاب سماوي نزل منذ أكثر من ألفي عام...

ولكن لا ينبغي أن ننسى أنّ التعبير بـ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ يحكي عن معيّة النّبي في كلّ شيء، في الفكر والعقيدة والأخلاق والعمل لا عن أولئك الذين كانوا في عصره - وإن اختلفوا وإيّاه في المنهج.

ثمّ يتحدّث القرآن عن وصفهم في كتاب سماوي كبير آخر وهو الإنجيل فيقول: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾[٢].

«الشطأ»: معناه الفسيل أو البرعم الذي يخرج إلى جانب الساق الأصلي للزرع...

و«آزره» مشتقٌ من المؤازرة أي المعاونة.

و«استغلظ» مشتقٌ من مادة الغلظة، أي أنّه متين...

وجملة «فاستوى على سوقه» مفهومها أنّ هذا الزرع بلغ قدراً من المتانة بحيث ثبت على سيقانه: و«سوق» جمع ساق - والتعبير بـ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ يعني أنّ هذا الزرع يكون سريع النمو كثير البراعم وافر النتاج إلى درجة يُسرّ به الزراع ويعجبون منه، والطريف أنّ وصفهم الثّاني في الإنجيل جاء على خمسة أمور أيضاً هي:

---

(١) «من لا يحضره الفقيه» و«روضة الواعظين»، طبقاً لما ورد في تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٧٨.

(٢) هناك كلام بين المفسّرين في جملة ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ﴾ أهي جملة مستقلة ووصف آخر عن أصحاب محمّد صلى الله عليه وآله غير ما وُصفوا في التوراة، أم هي معطوفة على جملة ذلك مثلهم في التوراة؟ فيكون الوصفان مذكورين في كتابين سماويين! الظاهر أنّ الآية ذكرت الوصفين كلاً على حدة في كتاب سماوي ولذلك كرّرت كلمة ﴿وَمَثَلُهُمْ﴾ ولو كان هذا الوصف معطوفاً على السابق لاقتضت الفصاحة أن يكون التعبير: ذلك مثلهم في التوراة والإنجيل.

١ - إخراج الشطأ. ٢ - والمؤازرة للنموّ. ٣ - والاستغلاظ. ٤ - والاستواء. ٥ - والنمو المعجب.

وفي الحقيقة إنّ أوصافهم المذكورة في «التوراة» تتحدّث عن أبعاد وجودهم من جهة العواطف والأهداف والأعمال وصورتهم الظاهرية...

وأمّا الأوصاف الواردة في «الإنجيل» فهي تتحدّث عن حركتهم ونموّهم وتكاملهم في جوانب مختلفة (فلاحظوا بدقة).

أجل هم أُناس متّصفون بصفات عليا لا يفترون عن الحركة لحظة واحدة... وتتنامى براعمهم دائماً ويثمرون ويتآزرون كلّ حين... وينشرون الإسلام بأقوالهم وأعمالهم في العالم ويوماً بعد يوم يزداد عددهم في المجتمع الإسلامي!...

أجل، إنّهم لا يتكاسلون في حركتهم المتّجهة إلى الإمام دائماً، وهم في حال عبادتهم مجاهدون، وفي حال جهادهم عابدون، ظاهرهم سوي، وباطنهم سليم، وعواطفهم صادقة، ونيّاتهم خالصة، وهم مظهر غضب الله بوجه أعداء الحق، ومظهر الرحمة بوجه إخوانهم.

ثمّ تضيف الآية معقّبةَ: إنّ هذه الأوصاف العليا وهذا النمو والتكامل السريع وهذه الحركة المباركة بقدر ما تعجب المحبّين وتسرّهم فهي في الوقت ذاته: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾[1].

ويضيف القرآن مختتماً هذه الآية المباركة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

بديهي أنّ أوصاف أصحاب النّبي التي وردت في بداية الآية محل البحث جمعت فيها الإيمان والعمل الصالح، فتكرار هذين الوصفين إشارة إلى استمرارهما وديمومتهما: أي أنّ الله وعد أولئك الذين بقوا على نهجهم من أصحاب محمّد ﷺ واستمروا بالإيمان والعمل الصالح، وإلاّ فإنّ من كان يوماً مع النّبي ويوماً آخر مع سواه وعلى خلاف طريقته فلا يُشملون بهذا الوعد أبداً.

والتعبير بـ ﴿مِنْهُم﴾ مع الإلتفات إلى هذه المسألة، وهي أنّ الأصل في كلمة «من» في

---

(١) يرى كثير من المفسّرين أنّ اللام في جملة ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ هي لام التعليل، فيكون مفهوم الجملة: إنّ هذه القوّة والقدرة جعلها الله نصيب أصحاب محمّد ليغيظ بهم الكفّار.

مثل هذه الموارد التبعيض، وظاهر الآية يُعطي هذا المعنى أيضاً، وهذا التعبير يدلُّ على أنّ أصحاب النّبي ينقسمون قسمين: فطائفة منهم يواصلون إيمانهم وعملهم الصالح وتشملهم رحمة الله الواسعة وأجره العظيم، وطائفة يحيدون عن نهجه فيحرمون من هذا الفيض العظيم! . . .

وليس معلوماً السبب في إصرار بعض المفسّرين على أنّ «من» في كلمة «منهم» بيانيّة حتماً، في حين لو ارتكبنا خلاف الظاهر وقلنا إنّ من هنا بيانية فكيف يمكن أن ندع القرائن العقلية هنا، فلا أحد يدّعي أبداً أنّ جميع أصحاب النّبي معصومون وفي هذه الصورة يزول احتمال أنّ كلّ واحد منهم بقي على عمله الصالح وإيمانه، ومع هذه الحال فكيف يعدهم الله بالمغفرة والأجر العظيم دون قيد وشرط سواءً عملوا الصالحات في طول مسيرتهم، أو أن يعملوا الصالحات في وقت، ثمّ ينحرفوا من منتصف الطريق! . . .

وهذه اللطيفة تستدعي الالتفات وهي أنّ جملة: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ لا تعني المرافقة الجسدية مع النّبي ﷺ والمصاحبة الجسمانية لأنّ المنافقين كانوا على هذه الشاكلة أيضاً. . . بل المراد من ﴿مَعَهُۥٓ﴾ هو المعيّة من جهة أصول الإيمان والتقوى قطعاً. . . فبناءً على هذا لا يمكننا أن نستنتج حكماً كليّاً من الآية الآنفة في شأن جميع المعاصرين والمجالسين للنبي ﷺ . . .

بحثان

١ - قصة تنزيه الصحابة!

المعروف بين علماء أهل السنّة أنّ صحابة رسول الله جميعاً أولو امتياز خاص دون سائر الناس من أُمّة محمّد فهم مطهّرون أزكياء معصومون من الزلل وليس لنا الحق في انتقاص أي منهم أو انتقاده ويحرم الإساءة إليهم بالكلام وغيره، حتى أنّ بعضهم قال بكفر من يفعل ذلك واستدلّوا على ذلك بآيات من الذكر الحكيم منها هذه الآية: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ . . .

وبالآية ١٠٠ من سورة التوبة إذ تعبّر عن المهاجرين والأنصار بعد ذكرهم في آيات سابقة بقولها: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ . . .

ولكنّنا إذا ابتعدنا عن الأحكام المسبقة الاعتباطية، فسنجد أمامنا قرائن تتزلزل عندها هذه العقيدة!

الأولى: إنّ جملة: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ الواردة في سورة التوبة لا تخصّ المهاجرين والأنصار فحسب، لأنّ في الآية تعبيراً آخر وهو: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ يشمل كلّ من يتّبعهم بالإحسان والصلاح إلى يوم القيامة...

فكما أنّ «التابعين» إذا كانوا في خط الإيمان يوماً وفي خط الكفر والإساءة يوماً آخر يخرجون من خيمة رضا الله، فإنّ الموضوع ذاته وارد في الصحابة لأنّهم في آخر سورة الفتح مقيّدون بالإيمان والعمل الصالح أيضاً بحيث لو خرجوا عن هذا القيد ولو يوماً واحداً لخرجوا عن رضوان الله سبحانه...

وبتعبير آخر: إنّ كلمة «بإحسان» هي في شأن التابعين والمتبوعين جميعاً، فأي منهما خرج عن خطّ الإحسان فلن يشمله رضا الله ولطفه...

الثانية: أنّه يستفاد من الروايات الإسلامية أنّ أصحاب النّبي وإن امتازوا بشرف صحبته، إلاّ أنّ من يأتي بعدهم في الفترات المقبلة وهم ذوو عمل صالح وإيمان راسخ أفضل منهم من جهة واحدة وهي أنّ أصحاب النّبي شهدوا معاجزه بجميع أنواعها غير أنّ الآخرين اتبعوا منهاجه دون مشاهدتها وساروا على هداه بالإفادة من الدلائل الأُخر...

ونقرأ في بعض أحاديث النّبي ﷺ أنّه سأله أصحابه: «نحن إخوانُك يا رسول الله؟! قال: لا أنتم أصحابي، وإخواني الذين يأتون بعدي. آمنوا بي ولم يروني، وقال: للعامل منهم أجر خمسين منكم، قالوا: بل منهم يا رسول الله؟! قال: بل منكم ردّدها ثلاثاً، ثمّ قال: لأنّكم تجدون على الخير أعواناً»(١).

كما نقل في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «وددْتُ أنّا قد رأينا إخواننا، قالوا: أوَ لسنا إخوانك يا رسول الله؟! فقال: أنتم أصحابي وإخوانُنا الذين لم يأتوا بعد»(٢).

ويؤيّد العقل والمنطق هذه المقولة أيضاً حيث إنّ من لم يدركوا رسول الله ولم يتعلّموا بين يديه وهم في الوقت ذاته مثل أصحابه من حيث الإيمان والعمل الصالح فهم أفضل من الصحابة...

---

(١) تفسير روح المعاني، ج٩، ص٦١.

(٢) صحيح مسلم، ج ١، ح ٣٩، كتاب الطهارة.

الثالثة: إنّ هذا الكلام من وجهة النظر التاريخية مقدوح فيه كثيراً لأنّ بعض الصحابة بعد زمان النّبي ﷺ بل حتى في عصره حاد عن جادّة الصواب...

فكيف يمكن أن نُبرّئ الذين أشعلوا نار فتنة «الجمل» وقتلوا ما قتلوا وحملوا على خليفة رسول الله حقّاً بالسيف ولا نعدّهم آثمين خاطئين...

أو أن نقول إنّ الذين اجتمعوا في النهروان وصفّين وثاروا على وصي رسول الله وخليفته المنتخب من قبل المسلمين وسفكوا الدماء الغزيرة مشمولون برضوان الله ولا غبار عليهم من الذنب والإثم؟!

وأعجب من ذلك كله أن يُعتذر - عن أولئك الذين أخطأوا كلّ هذه الأخطاء وفعلوا ما فعلوا - بأنّهم مجتهدون، والمجتهد معذور! هكذا وجّهوا الأمر!!

وإذا أمكن أن توجّه أمثال هذه الذنوب الكبيرة على أنّها اجتهاد فلا مجال لملامة أي قاتل، ولا داعي لإقامة حدود الله في شأنه!! فلعلّه اجتهد فأخطأ!!...

وبتعبير آخر: أنّه قد تقابلت في معركة الجمل وصفّين والنهروان طائفتان متحاربتان ومن المسلّم به قطعاً أنّهما لم تكونا جميعاً على الحق، لأنّ الجمع بين الضدّين محال، فمع هذا التقدير كيف يمكن القول بأنّ الطائفتين كلتيهما مشمولتان برضا الله، والمسألة لم تكن من المسائل العويصة الملتوية ولم يكن التمييز بين الحق والباطل صعباً ولا مشكلاً... فالجميع كانوا يعرفون أنّ علياً عليه السلام أمّا طبقاً لنص النّبي عليه أو بانتخاب المسلمين هو الخليفة الحق ومع هذا فقد واجهوه بالسيف، فكيف يُوجّه هذا العمل عن طريق الاجتهاد؟

ولِمَ لا يوجّهون قيام «أصحاب الردّة» في زمان أبي بكر عن طريق الاجتهاد وعدوّهم مرتدّين رسماً... غير أنّهم برّأوا أصحاب الجمل وصفّين والنهروان من أي ذنب وإثم!!؟

وعلى كلّ حال... يبدو أنّ مسألة «تنزيه الصحابة» بصورة مطلقة كانت حكماً سياسياً لتحفظ جماعة بعد النّبي موقعها وتعوّل على هذا الحكم، وتصون نفسها من الانتقاد...

وهذا الموضوع لا ينسجم مع حكم العقل ولا مع التواريخ الإسلامية المسلّم بها...

وما أحسن أن نحتكم في شأن أصحاب النّبي في الوقت الذي نجلّهم ونحترمهم ذاته - إلى معيار يقضي عليهم بالحق من خلال أعمالهم وعقائدهم عبر حياتهم من البداية

حتى النهاية، ذلك المعيار الذي أفدناه من القرآن الكريم وذلك المعيار الذي وزن النّبي به صحابته. . .

٢ - المحبّة الإسلامية المتبادلة

في الروايات الإسلامية الواردة في تفسير الآية الأخيرة من سورة الفتح تأكيد لا مزيد عليه على قوله تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ ومن بين هذه الروايات ما نقرأه عن الإمام الصادق عليه السلام: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يخونه ويحقّ على المسلم الاجتهاد في التواصل والتعاون على التعاطف والمواساة لأهل الحاجة وتعاطف بعضهم على بعض، حتى تكونوا كما أمركم الله عزّ وجلّ رحماء بينكم متراحمين، مغتّمين لما غاب عنكم من أمرهم على ما مضى عليه معشر الأنصار على عهد رسول الله»[1].

إلاّ أنّ العجيب أنّ المسلمين في هذا العصر لا يقتدون بتعاليم هذه الآية المؤثرة وما تنقله من خصائص أصحاب رسول الله والمؤمنين الصادقين، وربّما تحامل بعضهم على بعض وأثار الحفيظة وسفك الدماء وهو ما لم يفعله أعداء الإسلام أحياناً. . .

وربّما ارتبطوا بالكفّار وأنشأوا علائق المحبّة حتى تظن أنّهم إخوان من أصل واحد ونسب واحد.

فلا خبر عن الركوع والسجود ولا النيّات الخالصة ولا ابتغاء فضل الله ولا آثار السجود في سيماهم ولا الزرع الذي أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه!!

والعجيب أيضاً. . . أنّه كلّما ابتعدنا عن الأصول القرآنية هذه منينا بالذل والنكبة أكثر فأكثر ومع ذلك لا نلتفت من أين نؤكل؟! وما تزال حميّة الجاهلية تصدّنا عن التفكير وإعادة النظر والعودة نحو القرآن. . .

اللّهمَّ نبّهنا من نومة الغافلين!. . .

اللّهمَّ وفّقنا أن نحيى فيها خلال أصحاب رسول الله وصفاتهم التي ذكرتها هذه الآيات البيّنات. . .

اللّهمَّ ارزقنا الشدّة على أعدائنا والرحمة فيما بيننا والتسليم لأمرك، والاهتمام الى ما توليه إيّانا من العنايات الخاصّة والجد والسعي إلى النهوض بالمجتمع الإسلامي إلى الخير والازدهار.

---

(١) أصول الكافي - طبقاً لتفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٧٧، ح ٩١.

اللّهمَّ ارزقنا فتحاً مبيناً يتحرّك في ظلّه المجتمع الإسلامي وأن نوفّق إلى نشر تعاليم هذا الدين القويم الذي يهب الحياة للناس في هذا العصر الذي هو أحوج الى المعنويات من أي وقت آخر، وأن نفتح كلّ يوم قلوباً جديدة إلى نور الإسلام. . .

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

مدنيّة وعدد آياتـها ثماني عشرة

محتوى السورة

هذه السورة التي لا تتجاوز ١٨ آية تحملُ في ما تحمل مسائل مهمة تتعلّق بشخص النّبي الكريم ﷺ والمجتمع الإسلامي بعضه ببعض وحيث إنّ أغلب المسائل فالأخلاقية تدور في هذه السورة فيمكن أن نسمِّي هذه السورة بـ«سورة الأخلاق والآداب». . .

ويمكن على الإجمال تقسيم مضامين السورة على النحو التالي:

القسم الأوّل: آيات بداية السورة وهي تبين طريقة التعامل مع النّبي ﷺ وآدابها وما ينبغي على المسلمين مراعاته من أصول عند حضرة النّبي.

الثّاني: تشتمل هذه السورة على سلسلة من أُصول «الأخلاق الاجتماعية» المهمّة التي إن عُمل بها وعلى هداها حفظت المحبّة والصفاء والأمن والاتحاد في المجتمع الإسلامي، وعلى العكس من ذلك لو أُهملت تكون سبباً للشقاء والنفاق والتفرّق وعدم الأمن. . .

الثّالث: الأوامر الإرشادية المتعلّقة بكيفية مواجهة الاختلافات والتنازع أو القتال الذي قد يقع بين المسلمين أحياناً. . .

الرابع: يتحدّث عن معيار قيمة الإنسان عند الله وأهمية التقوى!. . .

الخامس: يعالج قضية أنّ الإيمان ليس بالقول فحسب بل لابدّ من ظهور آثاره في أعمال الإنسان والجهاد بالمال والنفس - إضافةً إلى الاعتقاد في القلب -.

السادس: يتحدّث عن أنّ الإيمان والإسلام هما هدية إلهية للمؤمنين وبدلاً من أن يمنّوا بالإسلام أو الإيمان ينبغي أن يشكروا الله على هذه الهدية إذ شملهم بها. . .

السابع: والأخير يتحدّث عن علم الله واطلاعه وعن جميع أسرار الوجود الخفية وأعمال الإنسان، وهذا القسم بمثابة الضامن لتنفيذ جميع هذه الأقسام الواردة في هذه السورة!

وتسمية هذه السورة بسورة «الحجرات» لورود هذه الكلمة في الآية الرابعة منها وسنبيّن تفسيرها في السطور التالية. . .

فضل تلاوة هذه السورة!

يكفي أن نعرف فضل هذه السورة من حديث نقرؤه عن النّبي في فضلها! . . . «من قرأ سورة الحجرات أُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من أطاع الله وعصاه»[(١)].

كما نقرأ حديثاً آخر عن الإمام الصادق في فضلها يقول: «من قرأ سورة الحجرات في كلّ ليلة أو في كلّ يوم كان من زوّار محمّد ﷺ[(٢)]».

وبديهي أنّ كلّ هذه الحسنات التي هي بعدد المطيعين والعاصين إنّما تكون في صورة ما لو أخذنا بنظر الاعتبار كلّاً من الفريقين وأن نفكّر جيداً فنجعل مسيرنا وفقاً لمنهج المطيعين ونبتعد عن منهج العاصين. ونيل زيارة النّبي أيضاً فرع على أن نعمل وفق الآداب المذكورة في الحضور عنده ﷺ لأنّ التلاوة في كلّ مكان مقدمة للعمل. . .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ
(١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ
بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ (٢) إِنَّ
ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ
لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ
أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ (٤) وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ
وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٥)﴾

سبب النّزول

ذكر المفسّرون لنزول الآية الأُولى من هذه السورة شأناً بل شؤوناً كما ذكروا لنزول الآيات التي بعدها شؤوناً أُخر!

(١-٢) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ذيل الآيات مورد البحث.

فمن الشؤون التي ذكروها لنزول الآية الأُولى أنّه: حين أراد النّبي ﷺ أن يتوجّه إلى خيبر رغب في أن يخلّف شخصاً معيّناً مكانه في المدينة وينصّبه خليفةً عنه، فاقترح عمر شخصاً آخر، فنزلت الآية الآنفة وأمرت أن لا تقدموا بين يدي الله ورسوله(١).

وقال آخرون: كان بعض المسلمين بين الفينة والأُخرى يقولون: لو نزلت فينا آية لكان أفضل، فنزلت الآية أن لا تقدموا بين يدي الله ورسوله(٢).

وقال بعضهم: إنّ الآية تشير إلى أعمال بعض المسلمين الذين كانوا يؤدّون عباداتهم قبل أوانها، فنزلت الآية لتنهاهم عن مثل هذه الأعمال(٣).

وأمّا في شأن الآية الثانية فقد قال المفسّرون: إنّ طائفةً من «بني تميم» وأشرافهم وردوا المدينة، فلمّا دخلوا مسجد النّبي نادوا بأعلى صوتهم من وراء الحجرات التي كانت للنبي: يا محمّد اخرج إلينا، فأزعجت هذه الصرخات غير المؤدّبة النّبي، فخرج إليهم فقالوا له: جئناك لنفاخرك فأجز شاعرنا وخطيبنا ليتحدّث عن مفاخر قبيلتنا، فأجازهم النّبي ﷺ فنهض خطيبهم وتحدّث عن فضائلهم الخيالية الوهميّة كثيراً...

فأمر النّبي (ثابت بن قيس) أن يردّ عليهم(٤) فنهض وخطب خُطبةً بليغة فلم يُبق لخُطبة أولئك من أثر!...

ثمّ نهض شاعرهم وألقى قصيدة في مدحهم فنهض «حسان بن ثابت» فردَّ عليه بقصيدة شافية كافية!

فقام رجلٌ من أشراف تلك القبيلة واسمه «الأقرع» فقال: إنّ هذا الرجل يعني محمّداً خطيبه أبلغ من خطيبنا وشاعره أجدر من شاعرنا وصدى صوته أبعد مدىً من صوتنا...

فأمر النّبي ﷺ أن تُهدى لهم هدايا ليكتسب قلوبهم إليه فكان أن تأثّروا بمثل هذه المسائل فاعترفوا بنبوّته!

فالآيات محل البحث ناظرة إلى هذه القضية والأصوات من خلف الحجرات.

وهناك شأن آخر لنزول الآية بل هو يتعلّق بالآية الأولى وما بعدها وهو أنّه في السنة التاسعة للهجرة [حين كانت القبائل تَفِد على النّبي للسلام عليه أو للمعاهدة معه] وقد عُرف العام ذلك «بعام الوفود» وعند وصول ممثلي قبيلة تميم إلى النّبي ﷺ قال أبو

(١-٣) تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٦١٢١.

(٤) كان «ثابت بن قيس» خطيب الأنصار وخطيب النّبي ﷺ كما كان حسّان بن ثابت شاعره [أسد الغابة، ج١، ص٢٢٩].

بكر: ليكن «القعقاع» (أحد أشراف تلك القبيلة) أميرها، واقترح عمر أن يكون «الحابس ابن أقرع» أميرها، فقال أبو بكر لعمر: أردت أن تخالفني، فردَّ عليه عمر بأنّه لم يُرد مخالفته أبداً، فتعالى الصياح والضجيج بينهما، فنزلت الآيات الآنفة... أي لا تقترحوا في الأمور على النّبي شيئاً ولا تتقدّموا عليه في العمل ولا ترفعوا أصواتكم عند النّبي(١).

التّفسير

آداب الحضور عند النّبي

كما أشرنا آنفاً أنّ في محتوى هذه السورة قسماً من المباحث الأخلاقية المهمّة والأوامر والتعليمات الانضباطية التي تدعونا إلى تسمية هذه السورة بسورة الأخلاق، وهذه المسائل والتعليمات تقع في الآيات الأول من السورة محل البحث - والآيات هذه على نحوين من التعليمات:

الأول: عدم التقدّم على الله ورسوله وعدم رفع الصوت عند رسول الله ﷺ... فتقول الآية الأولى في هذا الصدد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

والمراد من عدم التقديم بين يدي الله ورسوله هو أن لا يُقترح عليهما في الأُمور، وترك العجلة والإسراع أمام أمر الله ورسوله...

وبالرغم من أنّ بعض المفسّرين أرادوا أن يحدّدوا مفهوم الآية وجعلوه منحصراً بأداء العبادات قبل وقتها، أو التكلّم قبل كلام رسول الله وأمثال ذلك، إلاّ أنّه من الواضح أنّ للآية مفهوماً واسعاً يشمل أي تقدّم وإسراع في كلّ خطّة ومنهج(٢).

إنّ مسؤولية انضباط السائرين إزاء القادة وخاصةً إزاء القادة الإلهيين تقتضي ألاّ يتقدّموا عليهم في أي عمل وقول ولا يعجل أحد عندهم.

---

(١) نقل ذلك القرطبي في تفسيره، ج٩، ص٦١٢١، وسيد قطب في ظلاله، ج٧، ص٥٢٤، وابن هشام في سيرته ص٢٠٦ فما بعد (مع شيء من التفاوت والاختلاف) كما ورد في صحيح البخاري، ج٦، ص١٧٢، في تفسيره سورة الحجرات.

(٢) ورد الفعل ﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ على صيغة الفعل المتعدّي إلاّ أنّ المفعول محذوف هنا وتقديره: لا تقدّموا أمراً بين يدي الله ورسوله وقد احتمل بعضهم أنّ هذا الفعل لازم هنا ومفهومه لا تتقدّموا بين يدي الله وبالرغم من أنّ الفعلين مختلفان شكلاً إلاّ أنّ المعنى أو النتيجة واحدة.

وبالطبع فإنّ هذا الكلام لا يعني بأنّه لا يجوز لهم أن يتشاوروا مع النّبي إذا كان لديهم شيءٌ يجدر بيانه، بل المراد منه ألاّ يعجلوا ويبادروا بالتصميم قبل أن يوافق النّبي على ذلك! حتى أنّه لا ينبغي أن تثار أسئلة ومناقشات أكثر ممّا يلزم في شأن المسائل، بل ينبغي أن يترك الأمر للقائد نفسه أن يبيّن المسائل في حينها، لا سيما إذا كان القائد معصوماً الذي لا يغفل عن أي شيء! كما أنّه لو سُئل المعصوم أيضاً، لا يحقّ للآخرين أن يجيبوا السائل قبل أن يردّ عليه المعصوم، وفي الحقيقة إنّ الآية جمعت كلّ هذه المعاني في طيّها.

والآية الثانية تشير إلى الأمر الثّاني فتقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

والجملة الأولى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ إشارة إلى أنّه لا ينبغي رفع الصوت على صوت النّبي، فهو بنفسه نوع من الإساءة الأدبية في محضره المبارك، والنّبي له مكانته، وهذا الأمر لا يجدر أن يقع أمام الأب والأم والأستاذ لأنّه مخالف للاحترام والأدب أيضاً.

أمّا جملة: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ فيمكن أن تكون تأكيداً على المعنى المتقدّم في الجملة الأولى، أو أنّها إشارة إلى مطلب آخر، وهو ترك مخاطبة النّبي ﷺ بالنداء «يا محمّد» والعدول عنه بالقول: «يا رسول الله»!...

غير أنّ جماعة من المفسّرين قالوا في الفرق بين الجملتين آنفتي الذكر ما يلي: - إنّ الجملة الأولى ناظرة إلى زمان يتحادث الناس فيه مع النّبي، فلا ينبغي لأحد أن يرفع صوته فوق صوت النّبي ﷺ أمّا الجملة الثانية فناظرة الى زمان يكون الرّسول فيه صامتاً وأصحابه يُحدّثونه، ففي هذه الحالة أيضاً لا ينبغي رفع الصوت عنده.

والجمع بين هذا المعنى والمعنى السابق أيضاً - لا مانع منه كما أنّه ينسجم مع شأن نزول الآية، وعلى كلّ حال فظاهر الآية هو بيان أمرين مختلفين...

وبديهي أنّ أمثال هذه الأعمال إن قصد بها الإساءة والإهانة لشخص النّبي ومقامه الكريم فذلك موجب للكفر، وإلاّ فهو إيذاء له وفيه إثم أيضاً...

وفي الصورة الأُولى تتّضح علة الحبط وزوال الأعمال، لأنّ الكفر يحبط العمل ويكون سبباً في زوال ثواب العمل الصالح...

وفي الصورة الثانية أيضاً، لا يمنع أن يكون مثل هذا العمل السيّىء باعثاً على زوال ثواب الكثير من الأعمال.

وقلنا سابقاً في بحث الحبط أنّه لا مانع من زوال ثواب بعض الأعمال بسبب بعض الذنوب الخاصة، كما أنّ زوال أثر بعض الذنوب بسبب الأعمال الصالحة قطعيّ أيضاً. . . وهناك دلائل كثيرة في الآيات القرآنية أو الأحاديث الشريفة على هذا المعنى ورغم أنّ هذا المعنى لم يثبت على أنّه قانون كلّي في جميع الحسنات والسيئات، إلاّ أنّه توجد دلائل نقلية في شأن بعض الحسنات والسيئات المهمّة ولايوجد دليل عقلي مخالف لها![١].

وقد ورد في رواية أنّه حين نزلت الآية آنفة الذكر قال «ثابت بن قيس» خطيب النّبي الذي كان له صوت جهوري عال: أنا الذي رفعت صوتي فوق صوت النّبي فحبطت أعمالي وأنا من أهل النّار. . .

فبلغ ذلك سمع النّبي ﷺ فقال: «هو من أهل الجنّة»[٢]. لأنّه حين فعل ذلك للمؤمنين أو أمام المخالفين وكان ذلك أداءً لوظيفة إسلامية.

كما أنّ ابن العباس بن عبد المطلب نادى بأمر النّبي الذين فرّوا في معركة «حنين» بصوت عال ليعودوا إلى ساحات القتال!

وفي الآية الأُخرى مزيد تأكيد على الثواب الذي أعدّه الله لأُولئك الذين يمتثلون أمر الله ويراعون الآداب عند رسول الله فتقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾[٣].

كلمة ﴿يَغُضُّونَ﴾ مشتقة من غضّ - على وزن حظّ - ومعناها تقليل النظر أو خفات الصوت ويقابل هذه الكلمة الإمعان بالنظر والجهر بالصوت.

وكلمة ﴿ٱمۡتَحَنَ﴾ مشتقة من الامتحان، والأصل في استعمالها إذابة الذهب وتطهيره من غير الخالص، كما أنّها تستعمل في بسط الجلد المعدّ للدّبغ، ثمّ استعملت بعدئذ في مطلق الاختبار كما هي الحال بالنسبة للآية محل البحث، ونتيجة ذلك خلوص القلب وبسطه لقبول التقوى. . .

---

(١) لمزيد الاطلاع بحثنا مسألة الحبط في ذيل الآية (٢١٧) من سورة البقرة فليراجع.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج٩، ص١٣٠، وقد ورد هذا الحديث بتفاوت في بعض الكلمات عند كثير من المفسّرين ولا سيما البخاري في صحيحه وسيد قطب في ظلاله وغيرهما.

(٣) «اللام» في كلمة «التقوى» في الحقيقة هي لام الغاية وليست (لام العلّة) أي أنّ الله يجعل قلوب أولئك مهيّأة للقبول والتقوى، لأنّ القلب إذا لم يَخلُص ولم يصف فلا يكون محلاً للتقوى حقيقةً.

وممّا يسترعي الانتباه أنّ الآية السابقة ورد فيها التعبير بالنبي، إلاّ أنّ هذه الآية ورد التعبير فيها عنه برسول الله، وكلتا الآيتين تشير إلى هذه «اللطيفة»: وهي أنّ النّبي ليس عنده شيءٌ من نفسه، بل هو رسول الله ونبيّه، فإساءة الأدب إليه إساءة الأدب إلى الله ورعاية الأدب إليه رعاية لله.

ونكّرت كلمة ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ للتعظيم والأهمية... أي إنّ الله يجعل نصيبهم المغفرة الكبرى والتامة، وبعد تطهيرهم من الذنب يرزقهم الأجر العظيم، لأنّه لا بدّ من التطهير من الذنب أولاً، ثمّ الانتفاع من الأجر العظيم من قِبل الله..

أمّا الآية الأُخرى فتشير إلى جهل أولئك الذين يجعلون أمر الله وراء ظهورهم، وعدم إدراكهم فتقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

فأي عقل يدفع الإنسان إلى أن ينادي برفيع صوته أمام أعظم سفير إلهي فلا يلتفت الى آداب النداء كما فعلت قبيلة بني تميم فنادت النّبي بصوت مزعج يا محمّد يا محمّد اخرج إلينا وهو مركز المحبّة والعطف الإلهي؟!

وأساساً كلّما ترقّى عقل الإنسان زيد في أدبه فيعرف القيم الأخلاقية بصورة أحسن ومن هنا فإنّ إساءة الأدب دليل على عدم العقل، أو بتعبير آخر إنّ إساءة الأدب عمل الحيوان، أمّا الأدب أو رعاية الأدب فهو من عمل الإنسان...

جملة ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ «الأكثر» في لغة العرب يطلق أحياناً بمعنى الجميع، وإنّما استعمل هذا اللفظ رعايةً للاحتياط في الأدب حتى لو أنّ واحداً استثني من الشمول لا يضيع حقّه عند التعبير بالأكثر، فكأنّ الله يريد أن يقول: إنّي أنا الله الذي أحطت بكلّ شيء علماً، عند الكلام على مثل هذه الأُمور أراعي الأدب في ذلك فعلامَ لا تراعون في كلامكم هذه الناحية؟!

أو لأنّه يوجد فيهم أناس يعقلون حقّاً، ولعادة الناس وعدم التفاتهم في رفع الصوت يريد القرآن أن يحذّرهم بهذا الأسلوب أن لا ينسوا الأدب وأن يستعملوا عقولهم وأفكارهم عند الكلام...

﴿الْحُجُرَاتِ﴾: جمع «حجرة» وهي هنا إشارة إلى البيوت[1] المتعددة لأزواج النّبي المجاورة للمسجد...

---

(١) بيوت جمع بيت وهذا اللفظ يطلق على الغرفة الواحدة [أو مجموع الغرف في مكان واحد لعائلة معيّنة] وهو مشتقٌ من المبيت ليلاً...

وأصل الكلمة مأخوذ من «الحَجْر» على وزن الأجْر: أي المنع لأنّ الحجرة تمنع الآخرين من الدخول في حريم «حياة» الإنسان... والتعبير بـ ﴿وَرَآءِ﴾ هنا كناية عن الخارج من أي جهة كان، لأنّ أبواب الحجرات كانت تتفتح على المسجد أحياناً فيقف الجهلة عندها فينادون: يا محمّد اخرج إلينا، فمنعهم القرآن ونهاهم عن ذلك!...

ويضيف القرآن إكمالاً للمعنى في نهاية الآية قائلاً: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

صحيح أنّ العجلة قد تجعل الإنسان أحياناً يبلغ قصده بسرعة، إلاّ أنّ الصبر في مثل هذا «المقام» والتأنّي مدعاة إلى المغفرة والأجر العظيم.

وحيث إنّ بعضهم قد ارتكبوا جهلاً هذا الخطأ من قبل، واستوحشوا من هذا الأمر وحاسبوا أنفسهم بعد نزول الآية، فإنّ القرآن يضيف قائلاً إنّهم تشملهم الرحمة عند التوبة: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

بحوث

١ - الأدب أغلى القيم

اهتم الإسلام اهتماماً كبيراً بمسألة رعاية الأدب، والتعامل مع الآخرين مقروناً بالإحترام والأدب سواءً مع الفرد أم الجماعة، ونشير إلى طائفة من الأحاديث الشريفة هنا على أنّها شواهد وأمثال لهذا العنوان...

١ - يقول الإمام علي عليه السلام: «الآداب حُللٌ مجدّدة»[1].

ويقول في مكان آخر: الأدب يُغني عن الحسب[2].

كما أنّنا نقرأ حديثاً آخر عن الإمام الصادق عليه السلام يقول فيه: «خمس من لم تكن فيه لم يكن كثير فيه مستمتع؛ قيل: وما هنّ يا بن رسول الله؟ قال عليه السلام: الدين والعقل والحياء وحُسن الخلق وحسن الأدب»[3].

ونقرأ في مكان آخر حديثاً عنه عليه السلام أيضاً يقول فيه: لا يطمعنّ ذو الكبر في الثناء الحسن ولا الخبّ في كثرة الصديق ولا السيّء الأدب في الشرف[4]...

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار الكلمة - ٥.
(٢) بحار الأنوار، ج٧٥، ص٦٨.
(٣) المصدر السابق، ص٦٧.
(٤) المصدر السابق.

ولذلك فإنّنا حين نقرأ تأريخ حياة القادة في الإسلام وننعم النظر فيها نلاحظ أنّهم يراعون أهم النقاط الحسّاسة واللطائف الدقيقة في الأخلاق والآداب حتى مع الأناس البسطاء، وأساساً فإنّ الدين مجموعة من الآداب، الأدب بين يدي الله والأدب بين يدي الرّسول والأئمة المعصومين، والأدب بين يدي الأستاذ والمعلم، أو الأب والأم والعالم والمفكّر. . .

والتدقيق في آيات القرآن الكريم يكشف عن أنّ الله سبحانه بما له من مقام العظمة حين يتكلّم مع عباده، يراعي الآداب بتمامها. . .

فحيث يكون الأمر على هذه الشاكلة فمن المعلوم عندئذ ما هي وظيفة الناس أمام الله؟ وما هو تكليفهم؟! ونقرأ في بعض الأحاديث الإسلامية أنّه حين نزلت الآيات الأُولى من سورة «المؤمنون» وأمرتهم بسلسلة من الآداب الإسلامية، ومنها مسألة الخشوع في الصلاة، وكان النّبي ﷺ ينظر أحياناً إلى السماء عند الصلاة ثمّ ينظر إلى الأرض مطرقاً برأسه «لا يرفعه»(١).

وفي ما يخص النّبي ﷺ كان هذا الموضوع ذا أهمية أيضاً إذ صرّح القرآن في آياته بالإعراض عن اللغو عنده وعدم رفع الصوت والصخب، فكلّ ذلك موجب للحبط في الأعمال واضمحلال الثواب.

وواضح أنّه لا تكفي رعاية هذه المسألة الخلقيّة عند النّبي فحسب، بل هناك أمور أخرى ينبغي مراعاتها في حضوره، وكما يعبّر الفقهاء ينبغي إلغاء الخصوصية هنا وتنقيح المناط بما سبق أشباهه ونظائره!

ونقرأ في سورة النور الآية (٦٣) منها: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾. . . وقد فسّرها جماعة من المفسّرين بأنّه «عندما تنادون النّبي فنادوه بأدب واحترام يليقان به لا كما ينادي بعضكم بعضاً». . .

الطريف هنا أنّ القرآن عدّ أُولئك الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ويراعون الأدب بأنّهم مطهّرو القلوب وهم مهيّأون للتقوى، وجديرون بالمغفرة والأجر العظيم. . . في حين أنّه يعدّ الذين ينادونه من وراء الحجرات ويسيئون الأدب عنده - كالأنعام - أكثرهم لا يعقلون.

---

(١) راجع تفسير مجمع البيان وتفسير الفخر الرازي، ذيل الآية ٢ سورة المؤمنون.

حتى أنّ بعض المفسّرين توسّعوا في الآيات محل البحث وجعلوا لها مراحل أدنى أيضاً بحيث تشمل المفكّرين والعلماء والقادة من المسلمين، فوظيفة المسلمين أن يراعوا الآداب بين أيديهم. . .

وبالطبع فإنّ هذه المسألة أكثر وضوحاً في شأن الأئمة أولي العصمة، حتى أنّه بلغنا بعض الروايات الواردة عن أهل البيت أنّه «حين دخل أحد الأصحاب على الإمام بادره الإمام دون مقدّمة: أما تعلم أنّه لا ينبغي للجنب أن يدخل بيوت الأنبياء»[١].

وورد التعبير في رواية أُخرى بهذه الصورة: «إنّ بيوت الأنبياء وأولاد الأنبياء لا يدخلها الجنب».

وملخص القول أنّ مسألة رعاية الآداب أمام الكبير والصغير تشمل قسماً كبيراً من التعليمات الإسلامية بحيث لو أردنا أن ندرجها ضمن بحثنا هذا لخرجنا عن تفسير الآيات، إلاّ أنّنا نختم بحثنا بحديث عن الإمام علي بن الحسين (السجّاد) في «رسالة الحقوق» حيث قال في «مورد رعاية الأدب أمام الأستاذ»:

«وحقّ سائسك بالعلم التعظيم له والتوقير لمجلسه وحسن الاستماع إليه والإقبال عليه وأن لا ترفع عليه صوتك ولا تجيب أحداً يسأله عن شيء حتى يكون هو الذي يجيب ولا تحدّث في مجلسه أحداً ولا تغتب عنده أحداً وأن تدفع عنه إذا ذكر عندك بسوء وأن تستر عيوبه وتظهر مناقبه ولا تجالس له عدوّاً ولا تعادي له ولياً فإذا فعلت ذلك شهدت لك ملائكة الله بأنّك قصدته وتعلّمت علمه لله جلّ اسمه لا للناس»[٢].

٢ - رفع الصوت عند قبر الرسول

قال جماعة من العلماء والمفسّرين: إنّ الآيات محل البحث كما أنّها تمنع رفع الصوت عند النّبي حال حياته فهي كذلك شاملة للمنع بعد وفاته[٣].

وإذا كان المراد من تعبيرهم آنفاً شمول العبارة في الآية، فظاهر الآية يخصُّ زمان حياته ﷺ لأنها تقول: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ وذلك في حالة ما يكون النّبي له حياة جسمانية وهو يتكلّم مع أحد فلا يجوز رفع الصوت فوق صوته. . .

(١) بحار الأنوار، ج٢٧، ص٢٥٥.
(٢) المحجّة البيضاء، ج٣، ص٤٥٠، باب آداب الصحبة والمعاشرة.
(٣) تفسير روح المعاني، ج٢٦، ص١٢٥.

لكن إذا كان مرادهم - المناط - وفلسفة الحكم - وهي واضحة في هذه الموارد وأمثالها - وأهل العرف - يُلغون «الخصوصية»، فلا يبعد التعميم المذكور، لأنّه من المسلّم به - أنّ الهدف هنا رعاية الأدب واحترام ساحة قدس النّبي، فعلى هذا متى ما كان رفع الصوت عند قبره نوعاً من هتك الحرمة فهو بدون شكّ غير جائز، إلاّ أن يكون أذاناً للصلاة أو تلاوةً للقرآن أو إلقاء خطبة... وأمثال ذلك فإنّ هذه الأُمور ليس فيه أي إشكال لا في حياة النّبي ولا بعد وفاته...

ونقرأ حديثاً في أصول الكافي نُقل عن الإمام الباقر في شأن ما جرى للحسن بعد وفاته وممانعة عائشة عن دفنه في جوار رسول الله جاء فيه أنّه حين ارتفعت الأصوات استدل الإمام الحسين عليه السلام بالآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ ونقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله: إنّ الله حرّم من المؤمنين أمواتاً ما حرّم منهم أحياءً[1].

وهذا الحديث شاهد آخر على عموم مفهوم الآية!

٣ - الانضباط الإسلامي في كلّ شيء وفي كلّ مكان!

إنّ مسألة المديرية لا تتم بدون رعاية الانضباط، وإذا أريد للناس العمل تحت مديرية وقيادة حسب رغبتهم، فإنّ اتساق الأعمال سينعدم عندئذ وإن كان المديرون والقادة جديرين.

وكثير من الأحداث والنواقص التي نلاحظها تحدّث عن هذا الطريق، فكم من هزيمة أصابت جيشاً قوياً أو نقصاً حدث في أمر يهمّ جماعة وما إلى ذلك كان سببه ما ذكرناه آنفاً... ولقد ذاق المسلمون أيضاً مرارة مخالفة هذه التعاليم مراراً في عهد النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أو بعده، ومن أوضح الأُمور قصة هزيمة المسلمين في معركة أُحُد لعدم الانضباط من قبل جماعة قليلة من المقاتلين.

والقرآن يثير هذه المسألة المهمّة في عبارة موجزة في الآية الآنفة وبأسلوب جامع طريف إذ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

ومفهوم الآية كما أشرنا سابقاً واسع إلى درجة أنّها تشمل أي نوع من أنواع التقدّم والتأخر والكلام والتصرّفات الذاتية الخارجية عن تعليمات القيادة...

ومع هذه الحال فإنّنا نلاحظ في تاريخ حياة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم موارد كثيرة يتقدّم فيها بعض

(١) أصول الكافي، ج ١، ص ٣٠٢، نقلاً عن تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٨٠.

الأفراد على أمره أو يتخلّفون ويلوون رؤوسهم فيكونون موضع الملامة والتوبيخ الشديد. . . ومن ذلك ما يلي. . .

١ - حين تحرّك النّبي ﷺ لفتح مكّة في السنة الثامنة للهجرة كان ذلك في شهر رمضان وكان معه جماعة كثيرة، منهم الفرسان ومنهم المشاة، ولمّا بلغ (منزل) كراع الغميم أمر بإناء ماء، فتناول منه الرّسول وأفطر ثمّ أفطر من كان معه، إلاّ أنّ العجيب أنّ جماعة منهم (تقدّم على النّبي) ولم يوافقوا على الإفطار وبقوا صائمين فسمّاهم النّبي ﷺ بالعُصاة(١)!

٢ - ومثل آخر ما حدث في حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة حيث أمر النبيّ أن ينادي المنادي: «من لم يسق منكم هدياً فليحلّ وليجعلها عمرة، ومن ساق منكم هدياً فليقم على إحرامه» ثمّ يؤدّي مناسك الحج وأنّ من جاء بالهدي (وحجّه حجّ إفراد) فعليه أن يبقى على إحرامه. . . ثمّ قال ﷺ: «لولا أنّي سقت الهدي لأحللت، وجعلتها عمرةً، فمن لم يسق هدياً فليحلّ». إلاّ أنّ جماعة أبوا وقالوا كيف يمكننا أن نحل وما يزال النّبي محرماً؟ أليس قبيحاً أن نمضي للحج بعد أداء العمرة ويسيل منّا ماء الغسل «من الجنابة»؟.

فساء النّبي ما قالوا ووبّخهم ولامهم(٢).

٣ - قصة التخلّف عن جيش أُسامة عندما أراد النّبي ﷺ أن يلتحق بالرفيق الأعلى معروفة حيث أمر ﷺ المسلمين أن ينفذوا جيش أُسامة بن زيد ويتحرّكوا إلى حرب الروم وأمر المهاجرين والأنصار أن يتحرّكوا مع هذا الجيش. . .

ولعلّ النّبي ﷺ أراد ألاّ تقع عند رحلته مسائل في أمر الخلافة - وقد وقعت - حتى أنّه لعن المتخلّفين عن جيش أُسامة ومع كلّ ذلك تخلّف جماعة بحجة أنّهم لا يستطيعون أن يتركوا النّبي في مثل هذه الظروف(٣)!! . . .

٤ - قصة «القلم والدواة» معروفة أيضاً وهي في الساعات الأخيرة من عمر

(١) نقل هذا الحديث كثير من المؤرخين والمحدّثين ومنها ما ورد في الجزء السابع من وسائل الشيعة، ص١٢٥، باب من يصح منه الصوم مع شيء من التلخيص.

(٢) بحار الأنوار، ج٢١، ص٣٨٦ (بشيء من التصرّف والاختصار).

(٣) ذكر هذه القصة مؤرّخون كُثر في كتب التاريخ الإسلامي وهي من الحوادث المهمّة في تاريخ الإسلام «لمزيد الاطلاع يُراجع كتاب المراجعات - المراجعة ٩٠ - منه».

النّبي ﷺ كما أنّها مثيرة والأحسن أن ننقل ما جاء من عبارة في صحيح مسلم بعينها هنا: «لمّا حُضر رسول الله وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب فقال النّبي: هلمّ أكتب لكم كتاباً لا تضلّون بعده، فقال عمر: إنّ رسول الله قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت، فاختصموا فمنهم من يقول: قرّبوا يكتب لكم رسول الله كتاباً لن تضلّوا بعده ومنهم من يقول ما قال عمر فلمّا أكثروا اللغو والاختلاف عند رسول الله قال رسول الله: قوموا»(١)!...

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ هذا الحديث عينه نقله البخاري في صحيحه باختلاف يسير جداً «صحيح البخاري، ج ٦، باب مرض النّبي، ص ١١».

وهذه القضية من الحوادث المهمّة في التأريخ الإسلامي التي تحتاج إلى تحليل وبسط ليس هنا محلّه ولكنّها على كلّ حال من أجلى موارد التخلّف عن أمر النّبي ومخالفة الآية محل البحث: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾...

وما يهمّنا هنا أنّ رعاية الانضباط الإسلامي والإلهي تحتاج إلى روح التسليم المطلق وقبول القيادة «الإلهيّة» في جميع شؤون الحياة والإيمان المتين بمقام القائد الشامخ...

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾

سبب النّزول

قال بعض المفسّرين كالطبرسي في مجمع البيان: هناك قولان في شأن نزول الآية الأولى من الآيات أعلاه، ولكنّ بعضهم اكتفى بقول واحد منهما كالقرطبي وسيد قطب، ونور الثقلين.

---

(١) صحيح مسلم، ج ٣، ص ١٢٥٩، كتاب الوصية، ح ٢٢.

فالقول الأوّل في شأن نزول الآية محل البحث الذي ذكره أغلب المفسّرين أنّ الآية الكريمة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ﴾ نزلت في «الوليد بن عقبة» وذلك أنّ النّبي ﷺ أرسله لجمع الزكاة من قبيلة «بني المصطلق» فلمّا علم بنو المصطلق أنّ مبعوث الرّسول قادم إليهم سّروا كثيراً وهُرعوا لاستقباله، إلاّ أنّ الوليد حيث كانت له خصومة معهم في زمان الجاهلية، شديدة، تصوّر أنّهم يريدون قتله.

فرجع إلى النّبي «ومن دون أن يتحقّق في الأمر» وقال: يا رسول الله إنّهم امتنعوا عن دفع الزكاة «ونعرف أنّ عدم دفع الزكاة هو نوع من الوقوف بوجه الحكومة الإسلامية فبناءً على ذلك فإنّ مدّعى الوليد يقتضي أنّهم مرتدّون»!!

فغضب النّبي ﷺ لذلك وصمّم على أن يقاتلهم فنزلت الآية آنفة الذكر[١]...

وأضاف بعضهم أنّ النّبي ﷺ حين أخبره الوليد بن عقبة بارتداد قبيلة (بني المصطلق) أمر خالد بن الوليد بن المغيرة أن يمضي نحوها وأن لا يقوم بعمل حتى يتريث ويعرف الحقّ...

فمضى خالد ليلاً وصار قريباً من قبيلة بني المصطلق وبعث عيونه ليستقصوا الخبر فعادوا إليه وأخبروا بأنّهم مسلمون «أوفياء لدينهم» وسمعوا منهم صوت الأذان والصلاة، فغدا خالد عليهم في الصباح بنفسه فوجد ما قاله أصحابه صدقاً فعاد إلى النّبي وأخبره بما رأى فنزلت الآية آنفة الذكر، وعقّب النّبي عليها... «التأنّي من الله والعجلة من الشيطان»[٢].

وذكر بعض المفسّرين قولاً آخر في شأن نزول الآية وعوّلوا عليه فحسب، وهو أنّ الآية نزلت في «مارية القبطية» زوج النّبي وأم إبراهيم عليه السلام، لأنّه قيل للنّبي ﷺ إنّ لها ابن عمٍّ «يُدعى جريحاً» تتردّد إليه أحياناً «وبينهما علاقة غير مشروعة» فأرسل النّبي ﷺ خلف علي عليه السلام فقال له «يا أخي خذ السيف فإن وجدته عندها فاضرب عنقه...».

فأخذ أمير المؤمنين السيف ثمّ قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله: أكونُ في أمرك إذا أرسلتني كالسكة المحماة؛ أمضي لما أمرتني أم الشاهد يَرى ما لا يرى الغائب؟ فقال ﷺ: «بل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب»، قال علي: فأقبلتُ متوشّحاً بالسيف فوجدته عندها فاخترطت السيف فلمّا عرف أنّي أريده أتى نخلةً فرقى إليها ثمّ رمى بنفسه على قفاه وشغر برجليه فإذا أنّه أجبّ أمسح ما له ممّا للرجال قليل ولا كثير فرجعت

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٩، ص١٣٢.

(٢) تفسير القرطبي، ج٩، ص٦١٣١.

فأخبرت النّبي ﷺ فقال: «الحمد لله الذي يصرف عنّا السوء أهل البيت»[1].

وورد هذا الشأن ذاته في تفسير نور الثقلين ج٥ مع اختلاف يسير في العبارات...

التّفسير

لا تكترث بأخبار الفاسقين

كان الكلام في الآيات الآنفة على ما ينبغي أن يكون عليه المسلمون ووظائفهم أمام قائدهم ونبيّهم محمّد ﷺ وقد ورد في الآيات المتقدّمة أمران مهمّان، الأوّل أن لا يقدموا بين يديه والآخر هو مراعاة الأدب عند الكلام معه وعدم رفع الصوت فوق صوته...

أمّا الآيات محل البحث فهي تبيّن الوظائف الأُخرى على هذه الأُمّة إزاء نبيّها. وتقول ينبغي الاستقصاء عند نقل الخبر إلى النّبي فلو أنّ فاسقاً جاءكم بنبأ فتثبّتوا وتحقّقوا من خبره، ولا تكرهوا النّبي على قبول خبره حتى تعرفوا صدقه... فتقول الآيات أوّلاً: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾.

ثمّ تبيّن السبب في ذلك فتضيف: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾.

فلو أنّ النّبي قد أخذ بقول «الوليد بن عقبة» وعدّ قبيلة بني المصطلق مرتدّين وقاتلهم لكانت فاجعة ومصيبة عظمى!...

ويستفاد من لحن الآية التالية أنّ جماعة من أصحاب الرّسول أصرّوا على قتال بني المصطلق، فقال لهم القرآن: إنّ هذا هو الجهل بعينه وعاقبته الندم.

واستدل جماعة من علماء الأُصول على حجّية خبر الواحد بهذه الآية لأنّها تقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ ومفهومها أنّ العادل لو جاء بنبأ فلا يلزم التبيّن... ويصح قبول خبره إلاّ أنّه أشكل على هذا الاستدلال بمسائل عديدة أهمها مسألتان:

المسألة الأولى: إنّ الاستدلال المتقدّم ذكره متوقّف على قبول «حجّية مفهوم الوصف»، والمعروف أنّه لا حجّية لمفهوم الوصف[2]...

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٩، ص١٣٢، كما ورد في تفسير نور الثقلين بصورة مسهبة، ج٥، ص٨١.

(٢) يتصوّر بعضهم أنّ المسألة هنا من قبيل مفهوم الشرط ومفهوم الشرط حجّة، في حين أنّه لا علاقة هنا بمفهوم الشرط، إضافةً الى ذلك فإنّ الجملة الشرطية هنا لبيان الموضوع ونعرف أنّه في مثل هذه الموارد لا مفهوم للجملة الشرطية أيضاً فلاحظوا بدقّة.

المسألة الثانية: إنّ العلة المذكورة في ذيل الآية فيها من السعة ما يشمل خبري العادل والفاسق معاً لأنّ العمل بالخبر الظنّي - مهما كان - ففيه احتمال الندم.

لكنّ هاتين المسألتين يمكن حلّهما، لأنّ مفهوم الوصف وأي قيد آخر في الموارد التي يراد منها بيان القيد في مقام الاحتراز حجة، وذكر هذا القيد «قيد الفاسق» في الآية المتقدّمة طبقاً للظهور العرفي لا فائدة منه تستحق الملاحظة سوى حجّية خبر العادل!

وأمّا في مورد التعليل الوارد في ذيل الآية فالظاهر أنّه لا يشمل كلّ عمل بالأدلة الظنّية، بل هو ناظر إلى الموارد التي يكون العمل فيها بجهالة، أي العمل بسفاهة وحمق، لأنّ الآية عوّلت على الجهالة، ونعرف أنّ أغلب الأدلة التي يعوّل عليها العقلاء جميعاً في العالم في المسائل اليومية هي دلائل ظنّية «من قبيل ظواهر الألفاظ وقول الشاهد، وقول أهل الخبرة، وقول ذي اليد وأمثالها».

ومعلوم أنّه لا يعدّ أيٌّ ممّا أُشير إليه آنفاً بأنّه جهالة ولو لم يطابق الواقع أحياناً، فلا تتحقّق هنا مسألة الندم فيه لأنّه طريق عام...

وعلى كلّ حال فإنّنا نعتقد بأنّ هذه الآية من الآيات المحكمات التي فيها دلالة على حجّية خبر الواحد حتى في الموضوعات، وهناك بحوث كثيرة في هذا الصدد - ليس هنا مجال شرحها...

إضافةً إلى ذلك فإنّه لا يمكن إنكار أنّ مسألة الاعتماد على الأخبار الموثقة هي أساس التاريخ والحياة البشرية، بحيث لو حذفنا مسألة حجيّة خبر العادل أو الموثّق من المجتمعات الإنسانية لبطل كثير من التراث العلمي والمعارف المتعلّقة بالمجتمعات البشرية القديمة وحتى كثير من المسائل المعاصرة التي نعمل على ضوئها اليوم...

ولا يرجع الإنسان إلى الوراء فحسب، بل تتوقف عجلة الحياة، لذلك فإنّ العقلاء جميعاً يرون حجّيته والشارع المقدّس أمضاه أيضاً «قولاً وعملاً».

وبمقدار ما يعطي خبر الواحد «الثقة» الحياة نظامها فإنّ الاعتماد على الأخبار غير الموثّقة خطير للغاية، ومدعاة إلى اضطراب نظام المجتمع، ويجر الوبال والمصائب المتعدّدة، ويهدّد الحيثيات وحقوق الأشخاص بالخطر ويسوق الإنسان إلى الانحراف والضلال وكما عبّر القرآن الكريم تعبيراً طريفاً في الآية محل البحث: ﴿فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾.

وهنا لطيفة تسترعي الانتباه أيضاً، وهي أنّ صياغة الأخبار الكاذبة والتعويل على

الأخبار غير الموثّقة من الأساليب القديمة التي تتّبعها النظم الاستعمارية والديكتاتورية لتخلق جوّاً كاذباً ينخدع به الجهلة من الناس والمغفّلون فتُنهب أموالهم وأرصدتهم بهذه الأساليب وما شاكلها. . .

فلو عمل المسلمون بهذا الأمر الإلهي الوارد في هذه الآية على نحو الدقّة ولم يأخذوا بأخبار الفاسقين دون تبيّن لكانوا مصونين من هذه البلايا الخطيرة!

والجدير بالذكر أنّ المسألة المهمّة هنا هي الوثوق والاعتماد على الخبر ذاته، غاية ما في الأمر قد يحصل هذا الوثوق من جهة الاعتماد على الشخص المخبر تارةً، وتارةً من القرائن الأُخر الخارجية. . . ولذلك فإنّنا قد نطمئن إلى «الخبر» أحياناً وإن كان «المخبر» فاسقاً. . .

فعلى هذا الأساس، فإنّ هذا الوثوق أو الاعتماد كيف ما حصل، سواءً عن طريق العدالة والتقوى وصدق القائل أم عن طريق القرائن الخارجية، فهو معتبر عندنا، وسيرة العقلاء التي أمضاها الشارع الإسلامي مبنية على هذا الأساس. . .

ولذا فإنّنا نرى في الفقه الإسلامي كثيراً من الأخبار ضعيفة السند لكن لأنّها جرى عليها «عمل المشهور» ووقف على صحة الخبر من خلال قرائن خاصة، فلذلك أصبحت هذه الأخبار (الضعيفة السند) صالحة للعمل وجرت فتاوى الفقهاء على وفقها.

وعلى العكس من ذلك قد تقع أخبار عندنا قائلها معتبر ولكنّ القرائن الخارجية لا تساعد على قبوله، فلا سبيل لنا إلاّ الإعراض عنه وإن كان المخبر عادلاً و«معتبراً». . .

فبناءً على هذا - إنّ المعيار هو الاعتماد على الخبر نفسه - في كلّ مكان - وإن كان الغالب كون الوسيلة هي عدالة الراوي وصدقه - لهذا الاعتماد - إلاّ أنّ ذلك ليس قانوناً كليّاً. (فلاحظوا بدقّة).

والآية التالية - وللتأكيد على الموضوع المهم في الآية السابقة - تضيف قائلةً: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾(١).

وتدلّ هذه الجملة - كما قاله جماعة من المفسّرين أيضاً - أنّه بعد أن أخبر «الوليد» بارتداد طائفة «بني المصطلق». . . ألحّ جماعة من المسلمين البسطاء السذّج ذوي النظرة السطحية على الرّسول أن يقاتل الطائفة آنفة الذكر. . .

---

(١) كلمة ﴿لَعَنِتُّمۡ﴾: مشتقّة من مادة العنت ومعناه الوقوع في عمل يخاف الإنسان عاقبته أو الأمر الذي يشقّ على الإنسان، ومن هنا قيل للألم الحاصل من العظم المكسور عند تعرّضه للضربة بأنّه عنت. .

فالقرآن يقول: من حسن حظّكم أنّ فيكم رسول الله وهو مرتبط بعالم الوحي فمتى ما بدت فيكم بوادر الانحراف فسيقوم بإرشادكم عن هذا الطريق، فلا تتوقّعوا أن يطيعكم ويتعلّم منكم ولا تصرّوا وتلحّوا عليه، فإنّ ذلك فيه عنت لكم وليس من مصلحتكم. . .

ويشير القرآن معقّباً في الآية إلى موهبة عظيمة أُخرى من مواهب الله سبحانه فيقول: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾.

وفي الحقيقة إنّ هذه التعابير إشارة لطيفة إلى قانون اللطف أي «اللطف التكويني».

وتوضيح ذلك أنّه حين يريد الشخص الحكيم أن يحقّق أمراً فإنّه يوفّر له جميع ما يلائمه من كلّ جهة ويصدق هذا الأصل في شأن الناس تماماً. . .

فالله يريد أن يطويَ الناس جميعاً طريق الحق دون أن يقعوا تحت تأثير الإجبار بل برغبتهم وإرادتهم، ولذا يرسل إليهم الرسل والكتب السماوية من جهة، ويحبّب إليهم الإيمان من جهة أخرى، ويضيء شعلة العشق نحو طلب الحق والبحث عنه في داخل النفوس ويكرّه إليها الكفر والفسوق والعصيان. . .

وهكذا فإنّ كلّ إنسان مفطور على حبِّ الإيمان والطهّارة والتقوى، والبراءة من الكفر والذنب.

إلاّ أنّه من الممكن أن يتلوّث ماء المعنويات المنصبّ في وجود الناس في المراحل المتتالية وذلك نتيجةً للاختلاط بالمحيطات الموبوءة فيفقد صفاءه ويكتسب رائحة الذنب والكفر والعصيان. . .

هذه الموهبة الفطرية تدعو الناس إلى اتباع رسول الله وعدم التقدّم بين يديه.

وينبغي التذكير بهذه اللطيفة أيضاً، وهي أنّ محتوى الآية لا ينافي المشاورة أبداً، لأنّ الهدف من المشاورة أو الشورى أن يعرب كلٌّ عن عقيدته ووجهة نظره، إلاّ أنّ الرأي الأخير والنظر النهائي لشخص النّبي ﷺ كما يستفاد ذلك من آية الشورى أيضاً. . .

وبتعبير آخر. . . إنّ الشورى هي موضوع مستقل، وفرض الرأي موضوع آخر، فالآية محل البحث تنفي فرض الرأي لا المشاورة.

وفي أنّ المراد من «الفسوق» المذكور في الآية ما هو؟! قال بعض المفسّرين هو الكذب، إلاّ أنّه مع الالتفات إلى سعة مفهومه اللغوي فإنّه يشمل كلّ خروج على الطاعة، فعلى هذا يكون التعبير بـ«العصيان» بعده تأكيداً عليه، كما أنّ جملة ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ تأكيد على الجملة السابقة لها: ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾.

وقال بعضهم: إنّ كلمة «الفسوق» إشارة إلى الذنوب الكبيرة في حين أنّ «العصيان» أعم منه. . . إلاّ أنّه لا دليل على ذلك. . .

وعلى كلّ حال، فإنّ القرآن يقرّر قاعدةً كليةً وعامةً في نهاية هذه الآية لواجدي الصفات المذكورة [فيها] فتقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾.

أي لو حفظتم هذه الموهبة الإلهية «العشق للإيمان والتنفّر من الكفر والفسوق» ولم تلوّثوا هذا النقاء والصفات الفطرية فإنّ الرشد والهداية دون أدنى شكّ في انتظاركم. . .

وممّا يستجلب النظر أنّ الجمل السابقة في الآية كانت بصيغة الخطاب للمؤمنين لكنّ هذه الجملة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ تتحدّث عنهم بصيغة «الغائب» ويبدو أنّ هذا التفاوت في التعبير جاء ليدلّ على أنّ هذا الحكم غير مختصّ بأصحاب النّبي، بل هو قانون عام، فكلّ من حفظ صفاءه الفطري في أي عصر وزمان هو من أهل الرشد والهداية والنجاة.

أمّا آخر الآيات محل البحث فتوضّح هذه الحقيقة وهي أن محبوبية الإيمان والتنفّر من الكفر والعصيان من المواهب الإلهية العظمى على البشر إذ تقول: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(١).

فعلمه وحكمته يوجبان أن يخلق فيكم عوامل الرشد والسعادة ويكملها بدعوة الأنبياء إيّاكم ويجعل عاقبتكم الوصول إلى الهدف المنشود. . . «وهو الجنّة».

والظاهر أنّ الفضل والنعمة كليهما إشارة إلى حقيقة واحدة، هي المواهب الإلهية التي يمنحها عباده، غايةً ما في الأمر أنّ «الفضل» إنّما سُمّي فضلاً لأنّ الله غير محتاج إليه و«النعمة» إنّما سمّيت نعمة لأنّ العباد محتاجون إليها، فهما بمثابة الوجهين لعملة واحدة! . . .

ولا شكّ أنّ علم الله بحاجة العباد وحكمته في مجال التكامل وتربية المخلوقات توجبان أن يتفضّل بهذه النعم المعنوية الكبرى على عباده (وهي محبوبية الإيمان والتنفّر من الكفر والعصيان).

---

(١) (فضلاً ونعمة) نُصبا على أنّهما [مفعولان لأجله] للفعل ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ﴾ أو أنّهما مفعولان مطلقان لفعلين محذوفين وتقديرهما: هكذا أفضل فضلاً وأنعم نعمة. .

ملاحظات

١ - هداية الله وحريّة الإرادة

إنّ الآيات الآنفة تجسيدٌ بيّن لوجهة نظر الإسلام في مسألة «الجبر والاختيار» والهداية والإضلال، لأنّها توضح هذه اللطيفة - بجلاء - وهي أنّ الله يهيئ المجال «والأرضية» للهداية والرشد، فمن جهة يبعث رسوله ويجعله بين الناس وينزل القرآن الذي هو نور ومنهج هداية؛ ومن جهة يلقي في النفوس العشق للإيمان ومحبّته؛ والتنفّر والبراءة من الكفر والعصيان، لكنْ في النهاية يوكل للإنسان أن يختار ما يشاء ويصمّم بنفسه، ويشرع سبحانه التكاليف في هذا المجال!...

وطبقاً للآيات المتقدّمة فإنّ عشق الإيمان والتنفّر من الكفر موجودان في قلوب جميع الناس دون استثناء وإذا لم يكن لدى بعضهم ذلك فإنّما هو من جهة أخطائهم وسلوكيّاتهم وأعمالهم، فإنّ الله لم يُلقِ في قلب أيّ شخص حُبَّ العصيان وبغض الإيمان...

٢ - القيادة والطاعة

هذه الآيات تؤكد مرّةً أُخرى أنّ وجود القائد «الإلهي» ضروري لرشد جماعة ما، بشرط أن يكون مطاعاً لا مطيعاً وأن يتّبع أصحابه وجماعته أوامره لا أن يؤثّروا عليه ويفرضوا عليه آراءهم (ابتغاء مقاصدهم ومصالحهم).

وهذه المسألة لا تختصّ بالقادة الإلهيين فحسب، بل ينبغي أن تكون حاكمة في المديرية والقيادة في كلّ مكان، وحاكمية هذا الأصل لا تعني استبداد القادة، ولا ترك الشورى كما أشرنا آنفاً وأوضحنا ذلك.

٣ - الإيمان نوع من العشق لا إدراك العقل فحسب

هذه الآيات تشير ضمناً إلى هذه الحقيقة وهي أنّ الإيمان نوع من العلاقة الإلهية الشديدة «والمعنوية» وإن كانت من الاستدلالات العقلية... ولذلك فإنّنا نقرأ حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام حين سألوه: هل الحب والبغض من الإيمان؟ فأجاب عليه السلام: «وهل الإيمان إلاّ الحبّ والبغض»؟! ثمّ تلا هذه الآية: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾(١).

---

(١) أصول الكافي، ج٢، باب الحب في الله والبغض في الله، ح ٥.

وورد في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام قوله في هذا المجال «وهل الدين إلاّ الحبّ»؟! ثمّ استدلّ عليه السلام ببعض الآيات منها هذه الآية محل البحث وقال بعدئذ: «الدين هو الحبّ والحبّ هو الدين»(١).

إلاّ أنّه ودون أدنى شكّ يجب أن تُرفد هذه المحبّة - كما نوّهنا آنفاً - بالوجوه الاستدلالية والمنطقيّة لتكون مثمرة عندئذ. . .

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

سبب النّزول

ورد في شأن نزول الآيتين - هاتين - أنّ خلافاً وقع بين قبيلتي «الأوس» و«الخزرج» «وهما قبيلتان معروفتان في المدينة» أدّى هذا الخلاف إلى الاقتتال بينهما وأن يتنازعا بالعصي والهراوات والأحذية فنزلت الآيتان آنفتا الذكر وعلّمت المسلمين سبيل المواجهة مع أمثال هذه الحوادث(٢).

وقال بعضهم: حدث بين نفرين من الأنصار خصومة واختلاف! فقال أحدهما للآخر: سآخذ حقّي منك بالقوة لأنّ قبيلتي كثيرة، وقال الآخر: لنمضِ ونحتكم عند رسول الله، فلم يقبل الأوّل، فاشتدّ الخلاف وتنازع جماعة من قبيلتيهما بالعصي والأحذية و«حتى» بالسيوف، فنزلت الآيتان آنفتا الذكر وبيّنت وظيفة المسلمين في مثل هذه الأُمور(٣).

التّفسير

المؤمنون إخوة

يقول القرآن هنا قولاً هو بمثابة القانون الكلّي العام لكلّ زمان ومكان: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٨٣، وص٨٤. (٢) تفسير مجمع البيان، ج٩، ص١٣٢.
(٣) تفسير القرطبي، ج٩، ص٦١٣٦.

مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾[١].

وصحيح أنّ كلمة ﴿ٱقْتَتَلُوا۟﴾ مشتقّة من مادة القتال ومعناها الحرب، إلاّ أنّها كما تشهد بذلك القرائن تشمل كلّ أنواع النزاع وإن لم يصل إلى مرحلة القتال والمواجهة «العسكرية» ويؤيّد هذا المعنى أيضاً بعض ما نقل في شأن نزول الآية. . .

بل يمكن القول: إنّه لو توفّرت مقدّمات النزاع كالمشاجرات اللفظية مثلاً التي تجرّ إلى المنازعات الدامية فإنّه ينبغي وطبقاً لمنطوق الآية أن يُسعى إلى الإصلاح بين المتنازعين، لأنّه يمكن أن يستفاد هذا المعنى من الآية المتقدّمة عن طريق إلغاء الخصوصية.

وعلى كلّ حال، فإنّ من واجب جميع المسلمين أن يصلحوا بين المتنازعين منهم لئلاّ تسيل الدماء وأن يعرفوا مسؤوليتهم في هذا المجال، فلا يكونوا متفرّجين كبعض الجهلة الذين يمرّون بهذه الأُمور دون اكتراث وتأثّر! فهذه هي وظيفة المؤمنين الأولى عند مواجهة أمثال هذه الأُمور.

ثمّ يبيّن القرآن الوظيفة الثانية على النحو التالي: ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ ولم تستسلم لاقتراح الصلح ﴿فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

وبديهي أنّه لو سالت دماء الطائفة الباغية والظالمة - في هذه الأثناء - فإثمها عليها، أو كما يصطلح عليه إنّ دماءهم هدر، وإن كانوا مسلمين، لأنّ الفرض أنّ النزاع واقع بين طائفتين من المؤمنين. . .

وهكذا - فإنّ الإسلام يمنع من الظلم وإن أدّى إلى مقاتلة الظالم، لأنّ ثمن العدالة أغلى من دم المسلمين أيضاً، ولكن لا يكون ذلك إلاّ إذا فشلت الحلول السلمية.

ثمّ يبيّن القرآن الوظيفة الثالثة فيقول: ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾.

أي لا ينبغي أن يقنع المسلمون بالقضاء على قوة الطائفية الباغية الظالمة بل ينبغي أن يعقب ذلك الصلح وأن يكون مقدّمة لقلع جذور عوامل النزاع، وإلاّ فإنّه بمرور الزمن ما أن يُحسّ الظالم في نفسه القدرة حتى ينهض ثانية ويثير النزاع.

قال بعض المفسّرين: يستفاد من التعبير ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ أنّه لو كان حقّ مضاع بين

---

(١) مع أنّ كلمة ﴿طَآئِفَتَانِ﴾ مثنى طائفة، إلاّ أنّ فعلها جاء بصيغة الجمع اقتتلوا لأنّ كلّ طائفة مؤلفة من مجموعة من الأفراد.

الطائفتين أو دم مراق وما إلى ذلك ممّا يكون منشأ للنزاع فيجب إصلاحه أيضاً، وإلاّ فلا يصدق عليه «إصلاح بالعدل»(١).

وحيث إنّه تميل النوازع النفسية أحياناً في بعض الجماعات عند الحكم والقضاء الى إحدى الطائفتين المتخاصمتين وتنقض «الاستقامة» عند القضاة فإنّ القرآن ينذر المسلمين في رابع تعليماته وما ينبغي عليهم فيقول: ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾(٢).

والآية التالية تضيف - لبيان العلّة والتأكيد على هذا الأمر قائلةً: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾.

فكما تسعون للإصلاح بين الأخوين في النَّسَب، فينبغي أن لا تألوا جهداً في الدخول بصورة جادّة للإصلاح بين المؤمنين المتخاصمين بعدالة تامّة!

وما أحسنه من تعبير وكم هو بليغ إذ يعبّر القرآن عن جميع المؤمنين بأنّهم «إخوة» وأن يسمّي النزاع بينهم نزاعاً بين الإخوة! وأنّه ينبغي أن يبادر إلى إحلال الإصلاح والصفاء مكانه...

وحيث إنّه في كثير من الأوقات تحلّ «الروابط» في أمثال هذه المسائل محل «الضوابط» فإنّ القرآن يضيف في نهاية هذه الآية مرّةً أُخرى قائلاً: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وهكذا تتّضح إحدى أهم المسؤوليات الاجتماعية على المسلمين في ما بينهم في تحكيم العدالة الاجتماعية بجميع أبعادها.

بحثان

الأوّل: شروط قتال أهل البغي «البُغاة»

هناك باب في الفقه الإسلامي بعنوان: «قتال أهل البغي» ضمن كتاب الجهاد، والمراد منه قتال الظَّلَمة الذين ينهضون بوجه «الإمام العادل في المسلمين» وقد وردت فيهم أحكام كثيرة في هذا الباب...

---

(١) تفسير الميزان، ج١٨، ص٣٤٢.

(٢) كلمة ﴿ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ مأخوذة من القسط ومعناها في الأصل التقسيم بالعدل، وحين ترد على صيغة الفعل الثلاثي قسط على زنة ضرب تعني الظلم والتجاوز على حصّة الآخرين ظلماً، إلاّ أنّه حين تأتي ثلاثي مزيد فيقال «أقسط» فإنّها تعني إعطاء الحصة عدلاً، وهل القسط والعدل بمعنى واحد أم لا؟ هناك بحث ذكرناه في ذيل الآية (٢٩) من سورة الأعراف لا بأس بمراجعتها..

إلاّ أنّ ما أثارته الآية الآنفة موضوع آخر، وهو النزاع الواقع بين الطائفتين المؤمنين، وليس في هذا النزاع نهوض بوجه إمام المسلمين العادل ولا نهوض بوجه الحكومة الإسلامية الصالحة، وقد أراد بعض الفقهاء أو المفسّرين أن يستفيدوا من هذه الآية «في المسألة السابقة» إلاّ أنّ هذا الاستدلال كما يقول الفاضل «المقداد» في «كنز العرفان» خطأ بين[1]. لأنّ القيام والنهوض بوجه الإمام العادل موجب للكفر، في حين أنّ النزاع بين المؤمنين موجب للفسق فحسب لا الكفر، ولذلك فإنّ القرآن المجيد عبّر عن الطائفتين بالمؤمنين وسمّاهم إخوةً، فلا يصحّ تعميم أحكام أهل البغي على أمثال هؤلاء!...

ومن المؤسف أنّنا لم نعثر على بحث في الفقه في شأن أحكام هذه الطائفة، إلاّ أنّ ما يستفاد من الآية المتقدّمة بضميمة القرائن الأُخَر وخاصةً ما ورد من إشارات في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي الأحكام التالية!...

١ - إنّ الإصلاح بين الطوائف المتنازعة «من المسلمين» أمر واجب كفائي.

٢ - ينبغي لتحقّق هذا الأمر أن يُشرع أوّلاً من المراحل البسيطة وأن تراعى قاعدة «الأسهل فالأسهل» إلاّ أنّه إذا لم ينفع ذلك فيجوز عندئذ المواجهة المسلّحة بل تلزم أحياناً...

٣ - ما يسفك من دم البغاة في هذا السبيل وما تذهب منهم من أموال كلّها هدر، لأنّ حكم الشرع قد امتثل وأُديّت الوظيفة الواجبة، والأصل في مثل هذه الموارد عدم الضمان!

٤ - لا حاجة لإذن حاكم الشرع في مراحل الإصلاح عن طريق الكلام والمباحثات، إلاّ أنّه لابدّ من الإذن عند اشتداد العمل ولا سيما إذا انتهى الأمر إلى سفك الدماء، فلا يجوز عندئذ الإقدام بأيّ عمل إلاّ بأمر الحكومة الإسلامية وحاكم الشرع! إلاّ في الموارد التي لا يمكن الوصول إلى حاكم الشرع بأي وجه، فللعدول عندئذ وأهل الخبرة من المؤمنين أن يتّخذوا القرار الذي يرونه...

٥ - في حالة ما لو سفكت الطائفة الباغية والظالمة دماً من «الجماعة المصلحة» أو نهبت أموالاً منها، فهي ضامنة بحكم الشرع ويجري القصاص منها في صورة وقوع قتل

(١) كنز العرفان في فقه القرآن، كتاب الجهاد، باب أنواع أُخر من الجهاد - ج ١، ص ٣٨٦.

العمد، وكذلك في مورد تسفك فيه دماء من الطائفة المظلومة أو تتلف منها أموالها فإنّ حكم القصاص والضمان ثابت أيضاً وما يقال من أنّه بعد وقوع الصلح لا تتحمّل الطائفة الباغية مسؤولية الدماء المسفوكة والأموال المهدورة لأنّه لم تشر إليه الآية - محل البحث - غير صحيح، والآية ليست في مقام بيان جميع هذا المطلب، بل المرجع في مثل هذه الموارد هو سائر الأصول والقواعد الواردة في أبواب القصاص والإتلاف. . .

٦ - حيث إنّ الهدف من هذه المقاتلة والحرب حمل الطائفة الباغية على قبول الحق، فعلى هذا لا تُثار في الحرب مسألة «أسرى الحرب والغنائم» لأنّ الطائفتين بحسب الفرض مسلمتان، إلاّ أنّه لا مانع من الأسر مؤقتاً لإطفاء نائرة النزاع ولكن بعد حل النزاع والصلح يجب إطلاق الأسرى فوراً. . .

٧ - قد يتفق أحياناً أن يكون طرفا النزاع باغيين، فهذا الطرف قتل جماعة من القبيلة الأُخرى وسلب ماله، وذلك الطرف قتل جماعة من هذه القبيلة والطائفة وسلب أموالها دون أن يقنع كلّ منهما بالمقدار اللازم من الدفاع سواءً كان الطرفان «الطائفتان» بمستوى واحد من الظلم والبغي أو بعضهما أكثر اعتداءً والآخر أقل!

وبالطبع فإنّ الحكم في شأن هذا المورد لم يرد صراحةً في القرآن، لكن يمكن أن يستفاد هذا الحكم عن طريق إلغاء الخصوصية من الآية محل البحث، وهو أنّ وظيفة المسلمين أن يصلحوا بين الطرفين، وإذا لم يوافقا على الصلح فلابدّ من قتالهم جميعاً حتى يفيء كلٌّ إلى أمر الله، ما ذكرناه آنفاً من أحكام في شأن الباغي والظالم جار في الطرفين. . .

وفي ختام هذا الكلام نؤكّد مرّةً أُخرى أنّ حكم هؤلاء البغاة منفصل عن حكم الذين يقفون بوجه الإمام المعصوم أو الحكومة الإسلامية العادلة، فإنّ لهذه الطائفة الأخيرة أحكاماً أشدّ وأصعب واردة في كتاب الجهاد من الفقه الإسلامي.

الثّاني: أهميّة الأخوّة الإسلامية

إنّ جملة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ الواردة في الآيات المتقدّمة واحدة من الشعارات الأساسية و«المتجذّرة» في الإسلام، فهي شعار عميق، بليغ، مؤثر وذو معنى غزير. . .

إنّ الآخرين حين يريدون إظهار مزيد من العلاقة بمن يشاركهم في المنهج والعمل، يعبّرون عنهم بالرفاق، «أو الرفيق للمفرد» إلاّ أنّ الإسلام رفع مستوى الارتباط والحب

بين المسلمين إلى درجة جعلها بمستوى أقرب العلائق بين شخصين وهي علاقة الأخوين التي تقوم العلاقة بينهما على أساس المساواة والتكافؤ.

فعلى هذا الأصل الإسلامي المهم فإنّ المسلمين على اختلاف قبائلهم وقوميّاتهم ولغاتهم وأعمارهم يشعرون فيما بينهم بالأخوّة وإن عاش بعضهم في الشرق والآخر في الغرب...

ففي مناسك الحج مثلاً حيث يجتمع المسلمون من نقاط العالم كافة في مركز التوحيد تبدو هذه العلاقة والارتباط والانسجام والوشائج محسوسة وميداناً للتحقّق العيني لهذا القانون الإسلامي المهم...

وبتعبير آخر إنّ الإسلام يرى المسلمين جميعاً بحكم الأسرة الواحدة ويخاطبهم جميعاً بالإخوان والأخوات ليس ذلك في اللفظ والشعار، بل في العمل والتعهّدات المتماثلة أيضاً، جميعهم (إخوة وأخوات).

وفي الروايات الإسلامية تأكيد على هذه المسألة أيضاً ولا سيما في ما يخص الجوانب العملية ونحن نذكر هنا على سبيل المثال بعضاً من الأحاديث التالية:

١ - ورد عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه»(١).

٢ - وورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «مثل الأخوين مثل اليدين تغسل إحداهما الأُخرى»(٢).

٣ - ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد إذا اشتكى شيئاً منه وجد ألم ذلك في سائر جسده وأرواحهما من روح واحدة»(٣).

٤ - كما نقرأ حديثاً آخر عنه عليه السلام يقول فيه: «المؤمن أخو المؤمن عينه ودليله لا يخونه ولا يظلمه ولا يغشّه ولا يعده عدةً فيخلفه»(٤).

وهناك روايات كثيرة في مصادر الحديث الإسلامية المعروفة في ما يتعلّق بحق المؤمن على أخيه المسلم وأنواع حقوق المؤمنين بعضهم على بعض وثواب زيارة

---

(١) المحجّة البيضاء، ج٣، ص٣٣٢ (كتاب الصحبة والمعاشرة) الباب الثاني.
(٢) المصدر السابق، ص ٣١٩.
(٣) أصول الكافي، ج٢، ص١٣٣ (باب أخوّة المؤمنين بعضهم لبعض، ح ٣ و٤).
(٤) المصدر السابق.

الإخوان المؤمنين «والمصافحة والمعانقة» وذكرهم وإدخال السرور على قلوبهم وخاصةً قضاء حاجاتهم والسعي في إنجازها وإذهاب الهمّ والغمّ عن القلوب وإطعام الطعام وإكسائهم الثياب وإكرامهم واحترامهم، ويمكن مطالعتها في أصول الكافي في أبواب مختلفة تحت العناوين الآنفة.

٥ - وفي ختام هذا المطاف نشير إلى رواية هي من أكثر الروايات «جمعاً» في شأن حقوق المؤمن على أخيه المؤمن التي تبلغ ثلاثين حقّاً! . . .

قال رسول الله ﷺ: «للمسلم على أخيه ثلاثون حقّاً، لا براءة له منها إلاّ بالأداء أو العفو!

يغفر زلّته، ويرحم عبرته، ويستر عورته، ويُقيل عثرته، ويقبل معذرته، ويرد غيبته، ويديم نصيحته، ويحفظ خلّته، ويرعى ذمّته، ويعود مرضه، ويشهد ميّته، ويجيب دعوته، ويقبل هديته، ويكافئ صلته، ويشكر نعمته، ويحسن نصرته، ويحفظ حليلته، ويقضي حاجته، ويشفع مسألته، ويسمّت عطسته، ويرشد ضالّته، ويردّ سلامه، ويطيب كلامه، ويُبرّ أنعامه، ويصدق أقسامه، ويوالي وليّه، ولا يعاديه، وينصره ظالماً ومظلوماً، فأمّا نصرته ظالماً فيردّه عن ظلمه، وأمّا نصرته مظلوماً فيعينه على أخذ حقّه، ولا يُسلمه، ولا يخذله، ويحب له من الخير ما يُحبّ لنفسه، ويكره له من الشرّ ما يكره لنفسه»[1].

وعلى كلّ حال فإنّ واحداً من حقوق المسلمين بعضهم على بعض هو مسألة الإعانة وإصلاح ذات البين كما ورد في الآيات المتقدّمة والروايات الآنفة «وكان لنا في التفسر الأمثل بحث في «إصلاح ذات البين» ذيل الآية الأولى من سورة الأنفال». . .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٤، ص٢٣٦.

سبب النزول

ذكر المفسّرون لهاتين الآيتين شأناً «في نزولهما» بل شؤوناً مختلفة، منها أنّ جملة ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ نزلت في «ثابت بن قيس» خطيب النّبي ﷺ الذي كان ثقيل السمع وكان حين يدخل المسجد يجلس إلى جنب النّبي ويُوّفَر له المكان عنده ليسمع حديث النّبي، وذات مرّة دخل المسجد والمسلمون كانوا قد فرغوا من صلاتهم وجلسوا في أماكنهم، فكان يشقّ الجموع ويقول: تفسّحوا، تفسّحوا حتى وصل إلى رجل من المسلمين فقال له: اجلسْ (مكانك هنا) فجلس خلفه مُغضَباً حتى انكشفت العُتمة فقال ثابت لذلك الرجل: من أنت؟ فقال: أنا فلان فقال له: ثابت ابن فلانة؟! وذكر اسم أُمّه بما يكره من لقبها.. وكانت تعرف به في زمان الجاهلية فاستحيى ذلك الرجل وطأطأ برأسه إلى الأرض، فنزلت الآية ونهت المسلمين عن مثل هذا العمل..

وقيل إنّ جملة ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ﴾ نزلت في أُمِّ سلمة إحدى أزواج النّبي ﷺ لأنّها كانت تلبس لبوساً خاصاً أو لأنّها كانت قصيرة فكانت النساء يسخرن منها، فنزلت الآية ونهت عن مثل هذه الأعمال!.

وقالوا إنّ جملة ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ نزلت في نفرين من الصحابة اغتابا صاحبهما «سلمان» لأنّهما كانا قد بعثاه نحو النّبي ﷺ ليأتيهما بطعام منه، فأرسل النّبي سلمان نحو «أسامة بن زيد» الذي كان مسؤول بيت المال فقال أسامة: ليس عندي شيء الآن.. فاغتابا أسامة وقالا إنّه بخيل وقالا في شأن سلمان: لو كنّا أرسلناه إلى بئر سميحة لغاض ماؤها «وكانت بئراً غزيرة الماء» ثمّ انطلقا ليأتيا أسامة وليتجسّسا عليه، فقال لهما النّبي ﷺ: إنّي أرى آثار أكل اللحم على أفواهكما، فقالا: يا رسول الله لم نأكل اللحم هذا اليوم فقال رسول الله: أجل تأكلون لحم سلمان وأسامة. فنزلت الآية ونهت المسلمين عن الاغتياب(١).

التّفسير

الاستهزاء وسوء الظنّ والغيبة والتجسّس والألقاب السيئة حرام!

حيث إنّ القرآن المجيد اهتمّ ببناء المجتمع الإسلامي على أساس المعايير الأخلاقية

(١) راجع تفسير مجمع البيان، ج٩، ص١٣٥، والقرطبي في تفسيره، إذ ذكر هذا الشأن مع شيء من التفاوت.

فإنّه بعد البحث عن وظائف المسلمين في مورد النزاع والمخاصمة بين طوائف المسلمين المختلفة بيّن في الآيتين محل البحث قسماً من جذور هذه الاختلافات ليزول الاختلاف (بقطعها) ويُحسم النزاع!

ففي كلّ من الآيتين الآنفتين تعبير صريح وبليغ عن ثلاثة أُمور يمكن أن يكون كلّ منها شرارة لاشتعال الحرب والاختلاف، إذ تقول الآية الأولى من الآيتين محل البحث أوّلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾.

لأنّه ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾.

﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾.

والخطاب موجّه هنا إلى المؤمنين كافة فهو يَعمُّ الرجال والنساء وينذر الجميع أن يجتنبوا هذا الأمر القبيح، لأنّ أساس السخرية والاستهزاء هو الإحساس بالاستعلاء والغرور والكبر وأمثال ذلك إذ كانت تبعث على كثير من الحروب الدامية على امتداد التاريخ!

وهذا الاستعلاء أو التكبّر غالباً ما يكون أساسه القيم المادية والظواهر المادية فمثلاً، فلانٌ يرى نفسه أكثر مالاً من الآخر أو يرى نفسه أجمل من غيره أو أنّه يُعدُّ من القبيلة المشهورة والمعروفة أكثر من سواها، وربّما يسوقه تصوّره بأنّه أفضل من الجماعة الفلانية علماً وعبادةً ومعنوية إلى السخرية منهم، في حين أنّ المعيار الواقعي عند الله هو «التقوى» التي تنسجم مع طهارة القلب وخلوص النيّة والتواضع والأخلاق والأدب!.

ولا يصحّ لأي أحد أن يقول أنا أفضل عند الله من سواي، ولذلك عُدَّ تحقير الآخرين والتعالي بالنفس من أسوأ الأُمور وأقبح العيوب الأخلاقية التي يمكن أن تكون لها انعكاسات سلبية في حياة الناس جميعاً.

ثمّ تقول الآية في المرحلة الثانية: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

كلمة ﴿تَلْمِزُوٓاْ﴾ هي من مادة «لَمز» على زنة «طنز» ومعناها تتّبع العيوب والطعن في الآخرين، وفسّر بعضهم الفرق بين «الهمز» و«اللمز» بأنّ «اللمز» عدّ عيوب الناس بحضورهم، و«الهمز» ذكر عيوبهم في غيابهم، كما قيل إنّ «اللمز» تتبّع العيوب بالعين والإشارة في حين أنّ «الهمز» هو ذكر العيوب باللسان «وسيأتي تفصيل هذا الموضوع بإذن الله في تفسير سورة الهمزة»...

الطريف أنّ القرآن في تعبير بـ ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ يُشير إلى وحدة المؤمنين وأنّهم نسيجٌ واحد،

ويبيّن هنا بأنّ جميع المؤمنين بمثابة النفس الواحدة فمن عاب غيره فإنّما عاب نفسه في الواقع!.

وتضيف الآية في المرحلة الثالثة أيضاً قائلة: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾.

هناك الكثير من الأفراد الحمقى قديماً وحديثاً، ماضياً وحاضراً مولعون بالتراشق بالألفاظ القبيحة، ومن هذا المنطلق فهم يحقّرون الآخرين ويدمّرون شخصياتهم وربّما انتقموا منهم أحياناً عن هذا الطريق، وقد يتّفق أنّ شخصاً كان يعمل المنكرات سابقاً، ثمّ تاب وأناب وأخلص قلبه لله، ولكن مع ذلك نراهم يرشقونه بلقب مبتذل كاشف عن ماضيه!

الإسلام نهى عن هذه الأُمور بصراحة ومنع من إطلاق أي اسم أو لقب غير مرغوب فيه يكون مدعاةً لتحقير المسلم...

ونقرأ في بعض الأحاديث أنّ «صفية بنت حيي بن أخطب» المرأة اليهودية التي أسلمت بعد فتح خيبر وأصبحت زوجة النّبي - جاءت صفية يوماً إلى النّبي وهي باكية العين فسألها النّبي عن سبب بكائها فقالت: إنّ عائشة توبّخني وتقول لي يا ابنة اليهودي، فقال لها النّبي ﷺ: فلمَ لا قلت لها: أبي هارون وعمّي موسى وزوجي محمّد فكان أن نزلت هذه الآية - محل البحث -[1].

ولذلك فإنّ الآية تضيف قائلةً: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي قبيح جدّاً على من دخل في سلك الإيمان أن يذكر الناس بسمات الكفر.

واحتمل بعض المفسّرين احتمالاً آخر لهذه الجملة المذكورة آنفاً وهي أنّ الله نهى المؤمنين أن يرضوا بأسماء الفسق والجاهلية لأنفسهم بسبب سخرية الناس ولتحاشي استهزائهم.

ولكن مع الالتفات إلى صدر الآية وشأن النّزول المذكور يبدو أنّ التّفسير الأوّل أقرب.

وتُختتم الآية لمزيد التأكيد بالقول: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وأي ظلم أسوأ من أن يؤذي شخص بالكلمات اللاذعة و«اللاسعة» والتحقير واللمز قلوب المؤمنين التي هي «مركز عشق» الله وأن يطعن في شخصياتهم ويبتذل كرامتهم التي هي أساس شخصيتهم.

(١) تفسير مجمع البيان، ج٩، ص١٣٦.

ماء وجوههم الذي هو أساس حياتهم الأهم.

وقلنا إنّ في كلٍّ من الآيتين - محل البحث - ثلاثة أحكام في مجال الأخلاق الاجتماعية، فالأحكام الثلاثة في الآية الأولى هي «عدم السخرية» و«ترك اللمز» و«ترك التنابز بالألقاب».

والأحكام الثلاثة في الآية الثانية هي «اجتناب سوء الظن» و«التجسّس» و«الاغتياب».

في هذه الآية يبدأ القرآن فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

والمراد من «كثيراً من الظن» الظنون السيّئة التي تغلب على الظنون الحسنة بين الناس لذلك عبّر عنها بـ«الكثير» وإلاّ فإنّ حسن الظن لا أنّه غير ممنوع فحسب، بل هو مستحسن كما يقول القرآن في الآية (١٢) من سورة النور: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾.

وممّا يلفت النظر أنّه قد نُهي عن كثير من الظنّ، إلاّ أنّه في مقام التعليل تقول الآية: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ ولعلّ هذا الاختلاف في التعبير ناشئٌ من أنّ الظنون السيّئة بعضها مطابق للواقع وبعضها مخالف له، فما خالف الواقع فهو إثم لا محالة، ولذلك قالت الآية: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وعلى هذا فيكفي هذا البعض من الظنون الذي يكون إثماً أن نتجنّب سائر الظنون لئلا نقع في الإثم!

وهنا ينقدح هذا السؤال، وهو أنّ الظنّ السيّىء أو الظن الحسن ليسا اختياريين (غالباً) وإنّما يكون كلٌّ منهما على أثر سلسلة من المقدّمات الخارجة عن اختيار الإنسان والتي تنعكس في ذهنه، فكيف يصحُّ النهي عن ذلك؟!

وفي مقام الجواب يمكن القول بأنّه:

١ - المراد من هذا النهي هو النهي عن ترتيب الآثار، أي متى ما خطر الظنّ السيّىء في الذهن عن المسلم فلا ينبغي الاعتناء به عمليّاً، ولا ينبغي تبديل أُسلوب التعامل معه ولا تغيير الروابط مع ذلك الطرف، فعلى هذا الأساس فإنّ الإثم هو إعطاء الأثر وترتّبه عليه.

ولذلك نقرأ في هذا الصدد حديثاً عن نبيّ الإسلام يقول فيه: «ثلاث في المؤمن لا يستحسنّ، وله منهنّ مخرج فمخرجه من سوء الظن ألاّ يحقّقه»[1]... إلى آخر الحديث الشريف.

---

(١) المحجّة البيضاء، ج٥، ص٢٦٩.

٢ - يستطيع الإنسان أن يبعد عن نفسه سوء الظن بالتفكير في المسائل المختلفة، بأن يفكر في طرق الحمل على الصحة، وأن يجسّد في ذهنه الاحتمالات الصحيحة الموجودة في ذلك العمل، وهكذا يتغلّب تدريجاً على سوء الظنّ!

فبناءً على هذا ليس سوء الظن شيئاً (ذا بال) بحيث يخرج عن اختيار الإنسان دائماً!

لذلك فقد ورد في الروايات أنّه: «ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يقلبك منه، ولا تظنّنّ بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجدُ لها في الخير محملاً»(١).

وعلى كلّ حال فإنّ هذا الأمر واحد من أكثر الأوامر والتعليمات جامعيّةً ودقّةً في مجال روابط الإنسان الاجتماعية التي تضمن الأمن في المجتمع بشكل كامل! وسيأتي بيانه وتفصيله في فقرة البحوث.

ثمّ تذكر الآية موضوع «التجسّس» فتنهى عنه بالقول: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾!.

و«التجسّس» و«التحسّس» كلاهما بمعنى البحث والتقصّي، إلاّ أنّ الكلمة الأُولى غالباً ما تستعمل في البحث عن الأُمور غير المطلوبة، والكلمة الثانية على العكس حيث تستعمل في البحث عن الأُمور المطلوبة أو المحبوبة! ومنه ما ورد على لسان يعقوب في وصيته ولده! ﴿يَـٰبَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾(٢).

وفي الحقيقة إنّ سوء الظن باعث على التجسّس، والتجسس باعث على كشف الأسرار وما خفي من أمور الناس، والإسلام لا يبيح أبداً كشف أسرار الناس!

وبتعبير آخر إنّ الإسلام يريد أن يكون الناس في حياتهم الخاصة آمنين من كل الجهات، وبديهي أنّه لو سمح الإسلام لكلّ أحد أن يتجسّس على الآخرين فإنّ كرامة الناس وحيثيّاتهم تتعرض للزوال، وتتولد من ذلك «حياة جهنمية» يحسّ فيها جميع أفراد المجتمع بالقلق والتمزّق!.

وبالطبع فإنّ هذا الأمر لا ينافي وجود أجهزة «مخابرات» في الحكومة الإسلامية لمواجهة المؤامرات، ولكنّ هذا لا يعني أنّ لهذه الأجهزة حقَّ التجسّس في حياة الناس الخاصّة «كما سنبيّن ذلك بإذن الله فيما بعد».

---

(١) أصول الكافي، ج٢، باب التهمة وسوء الظن، ح ٣، وقد ورد شبيه هذا المعنى في نهج البلاغة مع شيء من التفاوت في «الكلمات القصار، الكلمة رقم ٣٦٠».
(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٧.

وأخيراً فإنّ الآية تضيف في آخر هذه الأوامر والتعليمات ما هو نتيجة الأمرين السابقين ومعلولهما فتقول: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾.

وهكذا فإنّ سوء الظن هو أساس التجسس، والتجسس يستوجب إفشاء العيوب والأسرار، والاطلاع عليها يستوجب الغيبة، والإسلام ينهى عن جميعها علةً ومعلولاً!

ولتقبيح هذا العمل يتناول القرآن مثلاً بليغاً يجسّد هذا الأمر فيقول: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾!.

أجل، إنّ كرامة الأخ المسلم وسمعته كلحم جسده، وابتذال ماء وجهه بسبب اغتيابه وإفشاء أسراره الخفية كمثل أكل لحمه.

كلمة ﴿مَيْتًا﴾ للتعبير عن أنّ الاغتياب إنّما يقع في غياب الأفراد، فمثلهم كمثل الموتى الذين لا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم، وهذا الفعل أقبح ظلم يصدر عن الإنسان في حقّ أخيه!.

أجل، إنّ هذا التشبيه يبيّن قبح الاغتياب وإثمه العظيم.

وتولي الروايات الإسلامية - كما سيأتي بيانها - أهميّة قصوى لمسألة الاغتياب، ونادراً ما نجد من الذنوب ما فيه من الإثم إلى هذه الدرجة.

وحيث إنّه من الممكن أن يكون بعض الأفراد ملوّثين بهذه الذنوب الثلاثة ويدفعهم وجدانهم إلى التيقّظ والتنبّه فيلتفتون إلى خطئهم، فإنّ السبيل تفتحه الآية لهم إذ تُختتم بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

فلابدّ أن تحيا روح التقوى والخوف من الله أوّلاً: وعلى أثر ذلك تكون التوبة والإنابة لتشملهم رحمة الله ولطفه.

بحوث

١ - الأمن الاجتماعيُ الكامل!

إنّ الأوامر أو التعليمات الستة الواردة في الآيتين آنفتي الذكر (النهي عن السخرية واللمز والتنابز بالألقاب وسوء الظن والتجسس والاغتياب) إذا نُفّذت في المجتمع فإنّ سمعة وكرامة الأفراد في ذلك المجتمع تكون مضمونة من جميع الجهات، فلا يستطيع أحد أن يسخر من الآخرين - على أنّه أفضل - ولا يمدّ لسانه باللمز، ولا يستطيع أن يهتك حرمتهم باستعمال الألقاب القبيحة ولا يحقّ له حتى أن يسيء الظن بهم، ولا

يتجسس عن حياة الأفراد الخاصة ولا يكشف عيوبهم الخفية (باغتيابهم).

وبتعبير آخر إنّ للإنسان رؤوس أموال أربعة ويجب أن تحفظ جميعاً في حصن هذا القانون وهي: «النفس والمال والناموس وماء الوجه».

والتعابير الواردة في الآيتين محل البحث والروايات الإسلامية تدل على أنّ ماء وجه الأفراد كأنفسهم وأموالهم بل هو أهم من بعض الجهات.

الإسلام يريد أن يحكم المجتمع أمن مطلق، ولا يكتفي بأن يكفّ الناس عن ضرب بعضهم بعضاً فحسب، بل أسمى من ذلك بأن يكونوا آمنين من ألسنتهم، بل وأرقى من ذلك أن يكونوا آمنين من تفكيرهم وظنّهم أيضاً.. وأن يُحسّ كلٌّ منهم أنّ الآخر لا يرشقه بنبال الاتهامات في منطقة أفكاره.

وهذا الأمن في أعلى مستوى ولا يمكن تحقّقه إلاّ في مجتمع رسالي مؤمن. يقول النّبي ﷺ في هذا الصدد: «إنّ الله حرّم من المسلم دمه وماله وعرضه وأن يُظنّ به السوء»[(١)].

إنّ سوء الظن لا أنّه يؤثر على الطرف المقابل ويسقط حيثيّته فحسب، بل هو بلاء عظيم على صاحبه لأنّه يكون سبباً لإبعاده عن التعاون مع الناس ويخلق له عالماً من الوحشة والغربة والانزواء كما ورد في حديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنّه قال: «من لم يحسن ظنّه استوحش من كلّ أحد»[(٢)].

وبتعبير آخر، إنّ ما يفصل حياة الإنسان عن الحيوان ويمنحها الحركة والرونق والتكامل هو روح التعاون الجماعي، ولا يتحقّق هذا الأمر إلاّ في صورة أن يكون الاعتماد على الناس (وحسن الظن بهم) حاكماً.. في حين أنّ سوء الظن يهدم قواعد هذا الاعتماد، وتنقطع به روابط التعاون، وتضعف به الروح الاجتماعية.

وهكذا الحال في التجسس والغيبة أيضاً.

إنّ سيىء النظرة والظن يخافون من كلّ شيء ويستوحشون من كلّ أحد وتستولي على أنفسهم نظرة الخوف، فلا يستطيعون أن يقفوا على ولي ومؤنس يطوي الهموم، ولا يجدون شريكاً للنشاطات الاجتماعية، ولا معيناً ونصيراً ليوم الشدّة!

---

(١) المحجّة البيضاء، ج٥، ص٢٦٨.
(٢) غرر الحكم ص ٦٩٧، ح ٥٣٣٣.

ولا بأس بالالتفات إلى هذه اللطيفة، وهي أنّ المراد من «الظن» هنا هو الظن الذي لا يستند إلى دليل، فعلى هذا إذا كان الظن في بعض الموارد مستنداً إلى دليل فهو ظنّ معتبر، وهو مستثنى من هذا الحكم، كالظن الحاصل من شهادة نفرين عادلين.

٢ - لا تجسّسوا!

رأينا أنّ القرآن يمنع جميع أنواع التجسس بصراحة تامّة، وحيث إنّه لم يذكر قيداً أو شرطاً في الآية فيدلّ هذا على أنّ التجسس على أعمال الآخرين والسعي إلى إذاعة أسرارهم إثم، إلاّ أنّ القرائن الموجودة داخل الآية وخارجها تدل على أنّ هذا الحكم متعلّق بحياة الأفراد الشخصية والخصوصية.

ويصدق هذا الحكم أيضاً في الحياة الاجتماعية للأفراد بشرط أن لا يؤثر في مصير المجتمع.

لكن من الواضح أنّه إذا كان لهذا الحكم علاقة بمصير المجتمع أو مصير الآخرين فإنّ المسألة تأخذ طابعاً آخر، ومن هنا فإنّ النّبي ﷺ كان قد أعدّ أشخاصاً وأمرهم أن يكونوا عيوناً لجمع الأخبار واستكشاف المجريات واستقصائها ليحيطوا بما له علاقة بمصير المجتمع.

ومن هذا المنطلق أيضاً يمكن للحكومة الإسلامية أن تتّخذ أشخاصاً يكونون عيوناً لها أو منظمة واسعة للإحاطة بمجريات الأُمور، وأن يواجهوا المؤامرات ضد المجتمع أو التي يراد بها إرباك الوضع الأمني في البلاد، فيتجسّسوا للمصلحة العامة حتى لو كان ذلك في إطار الحياة الخاصة للأفراد!

إلاّ أنّ هذا الأمر لا ينبغي أن يكون ذريعةً لهتك حرمة هذا القانون الإسلامي الأصيل، وأن يسوّغ بعض الأفراد لأنفسهم أن يتجسّسوا في حياة الأفراد الخاصة بذريعة التآمر والإخلال بالأمن، فيفتحوا رسائلهم مثلاً، أو يراقبوا الهاتف ويهجموا على بيوتهم بين حين وآخر!!

والخلاصة أنّ الحدّ بين التجسس بمعناه السلبي وبين كسب الأخبار الضرورية لحفظ أمن المجتمع دقيق وظريف جداً، وينبغي على مسؤولي إدارة الأُمور الاجتماعية أن يراقبوا هذا الحدّ بدقّة لئلاّ تهتك حرمة أسرار الناس، ولئلاّ يتهدّد أمن المجتمع والحكومة الإسلامية!.

٣ - الغيبة من أعظم الذنوب وأكبرها!

قلنا إنّ رأس مال الإنسان المهم في حياته ماءُ وجهه وحيثيّته، وأي شيء يهدّده فكأنّما يهدّد حياته بالخطر.

وأحياناً يعدّ اغتيال وقتل الشخصية أهم من اغتيال الشخص نفسه، ومن هنا كان إثمه أكبر من قتل النفس أحياناً.

إنّ واحدةً من حِكم تحريم الغيبة أن لا يتعرّض هذا الاعتبار العظيم ورأس المال المعنوي للأشخاص لخطر التمزّق والتلوّث وأن لا تهتك حرمة الأشخاص ولا تلوّث حيثيّاتهم، وهذا مطلب مهم تلقّاه الإسلام باهتمام بالغ!

والأمر الآخر إنّ الغيبة تولّد النظرة السيئة وتضعف العلائق الاجتماعية وتوهنها وتتلف رأس مال الاعتماد وتزلزل قواعد التعاون «الاجتماعي»!

ونعرف أنّ الإسلام أولى أهمّيةً بالغةً من أجل الوحدة والانسجام والتضامن بين أفراد المجتمع، فكلّ أمر يقوي هذه الوحدة فهو محل قبول الإسلام وتقديره، وما يؤدّي إلى الإخلال بالأواصر الاجتماعية فهو مرفوض، والاغتياب هو أحد عوامل الوهن والتضعيف...

ثمّ بعد هذا كلّه فإنّ الاغتياب ينثر في القلوب بذور الحقد والعداوة وربّما أدّى أحياناً إلى الاقتتال وسفك الدماء في بعض الأحيان.

والخلاصة أنّنا حين نقف على أنّ الاغتياب يعدّ واحداً من كبائر الذنوب فإنّما هو لآثاره السيئة فرديةً كانت أم اجتماعية!

وفي الروايات الإسلامية تعابير مثيرة في هذا المجال نورد هنا على سبيل المثال بعضاً منها!

قال رسول الله ﷺ: «إنّ الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل، وأربى الربى عِرض الرجل المسلم»(١).

وما ذلك إلاّ لأنّ الزنا وإن كان قبيحاً وسيئاً، إلاّ أنّ فيه جَنبة حق الله، ولكنّ الربا وما هو أشدّ منه كإراقة ماء وجه الإنسان وما إلى ذلك فيه جنبة حق الناس.

وقد ورد في رواية أُخرى أنّ النّبي ﷺ خطب يوماً بصوت عالٍ ونادى: «يا معشر

---

(١) المحجّة البيضاء، ج٥، ص٢٥٣.

من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه! لا تغتابوا المسلمين ولا تتّبعوا عوراتهم فإنّه من تتّبع عورة أخيه تتّبع الله عورته ومن تتّبع الله عورته يفضحه في جوف بيته»(١).

كما ورد في حديث ثالث أنّ الله أوحى لموسى عليه السلام قائلاً: «من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنّة، ومن مات مصرّاً عليه فهو أوّل من يدخل النّار»(٢).

كما نقرأ حديثاً آخر عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من الآكلة في جوفه»(٣).

وهذا التشبيه يدلُّ على أنّ الاغتياب كمثل الجَرب الذي يأكل اللحم، فإنّه يذهب بالإيمان بسرعة.

ومع الالتفات إلى أنّ بواعث الغيبة ودوافعها أمور متعدّدة كالحسد والتكبّر والبخل والحقد والأنانية وأمثالها من صفات دميمة وقبيحة يتّضح السرّ في سبب كون الغيبة وتلويث سمعة المسلمين وهتك حرمتهم لها هذا الأثر المدمّر لإيمان الشخص.

والروايات الإسلامية في هذا الصدد كثيرة، ونختتم بحثنا هذا بذكر حديث آخر نقل عن الإمام الصادق عليه السلام إذ يقول: «من روى على مؤمن روايةً يريد بها شينه وهدم مروّته ليسقط من أعين الناس أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان»(٤).

إنّ جميع هذه التأكيدات والعبارات المثيرة إنّما هي للأهمية القصوى التي يوليها الإسلام لصون ماء الوجه وحيثيّة المؤمنين الاجتماعية، وكذلك للأثر المخرّب - الذي تتركه الغيبة - في وحدة المجتمع والاعتماد المتبادل في القلوب، وأسوأ من كل ذلك أنّ الغيبة تسوق إلى إشعال نار العداوة والبغضاء والنفاق وإشاعة الفحشاء في المجتمع لأنّه حين تنكشف عيوب الناس الخفيّة عن طريق الغيبة لا تبقى لها خطورة في أعين الناس ويكون التلوّث بها في غاية البساطة!.

٤ - مفهوم الاغتياب؟

«الغيبة» أو الاغتياب كما هو ظاهر الاسم ما يقال في غياب الشخص، غاية ما في الأمر أنّه بقوله هذا يكشف عيباً من عيوب الناس. سواءً كان عيباً جسدياً أو أخلاقيّاً أو

(١) المحجّة البيضاء، ج٥، ص٢٥٢. (٢) المصدر السابق.
(٣) أُصول الكافي، ج٢، باب الغيبة، ح ١ - الآكلة نوع من الأمراض الجلدية.
(٤) وسائل الشيعة، ج٨، الباب ١٥٧، ح ٢، ص ٦٠٨.

في الأعمال أو في المقال بل حتى في الأمور المتعلّقة به كاللباس والبيت والزوج والأبناء وما إلى ذلك!

فبناءً على هذا ما يقال عن الصفات الظاهرة للشخص الآخر لا يُعدّ اغتياباً، إلاّ أن يراد منه الذم والعيب فهو في هذه الصورة حرام، كما لو قيل في مقام الذم أنّ فلاناً أعمى أو أعور أو قصير القامة أو شديد الأدمة والسمرة أكوس اللحية إلخ. . .

فيتّضح من هذا أنّ ذكر العيوب الخفية بأي قصد كان يعدّ غيبةً وهو حرام أيضاً، وذكر العيوب الظاهرة إذا كان بقصد الذم فهو حرام، سواءً أدخلناه في مفهوم الغيبة أم لا؟!

كل هذا في ما لو كانت هذه العيوب في الطرف الآخر واقعية، أمّا إذا لم تكن أصلاً فتدخل تحت عنوان «البهتان» وإثمه أشدّ من الاغتياب بمراتب.

ففي حديث ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «الغيبة أن تقول في أخيك ما ستره الله عليه، وأمّا الأمر الظاهر فيه مثل الحدّة والعجلة فلا، والبهتان أن تقول ما ليس فيه»[1].

ومن هنا يتبيّن أنّ ما يتبجّح به العوام من أعذار في الغيبة غير مقبول كأن يقول المغتاب: ليس هذا اغتياباً بل هو صفته، في حين إذا لم يكن قوله الذي يعيبه فيه صفة له فهو بهتان لا أنّه غيبة.

أو أن يقول: هذا كلام أقوله في حضوره أيضاً، في حين أنّ كلامه أمام الطرف الآخر لا يترتّب عليه إثم الاغتياب فحسب، بل يتحمّل بسبب الإيذاء إثماً أكبر ووزراً أثقل.

٥ - علاج الغيبة والتوبة منها!

إنّ الغيبة كسائر الصفات الذميمة تتحوّل تدريجاً إلى صورة مرض نفسي بحيث يلتذ المغتاب من فعله ويحس بالاغتباط والرضا عندما يريق ماء وجه فلان، وهذه مرتبة من مراتب المرض القلبي الخطير جداً.

ومن هنا فينبغي على المغتاب أن يسعى إلى علاج البواعث الداخلية للاغتياب التي تكمن في أعماق روحه وتحضّه على هذا الذنب، من قبيل البخل والحسد والحقد والعداوة والاستعلاء والأنانية!

فعليه أن يطهّر نفسه عن طريق بناء الشخصية والتفكير في العواقب السيئة لهذه

---

(١) أصول الكافي، ج٢، باب الغيبة والبهت، ح ٧.

الصفات الذميمة وما ينتج عنها من نتائج مشؤومة، ويغسل قلبه عن طريق الرياضة النفسية ليستطيع أن يحفظ لسانه من التلوّث بالغيبة.

ثمّ يتوجّه إلى مقام التوبة، وحيث إنّ التوبة من الغيبة فيها «جنبة» حق الناس، فإنّ عليه إذا كان ممكناً ولا يحصل له أيّ مشكل أو معضل - أن يعتذر ممّن اغتابه حتى ولو بصورة مجملة أو معمّاة كأن يقول: إنّني أغتابك أحياناً لجهلي فسامحني واعفُ عني، ولا يطيل في بيان الغيبة وشرحها لئلاّ يحدث عامل آخر للفساد أو الإفساد!

وإذا لم يستطع الوصول إلى الطرف الآخر، أو لا يعرفه، أو أنّه مضى إلى ربّه فيستغفر له ويعمل صالحاً، فلعلّ الله يغفر له ببركة العمل الصالح ويرضي عنه الطرف الآخر.

٦ - موارد الاستثناء!

وآخر ما ينبغي ذكره في شأن الغيبة أنّ قانون الغيبة كأي قانون آخر له استثناءات، من جُملتها أنّه يتّفق أحياناً في مقام «الاستشارة» مثلاً لانتخاب الزوج أو الشريك في الكسب وما إلى ذلك أن يسأل إنسان إنساناً آخر، فالأمانة في المشورة التي هي قانون إسلامي مسلّم به توجب أن تبيّن العيوب إن وجدت في الشخص الآخر لئلاّ يتورّط المسلم في مشكلة، فمثلُ هذا الاغتياب بمثل هذا القصد لا يكون حراماً.

وكذلك في الموارد الأُخرى التي فيها أهداف مهمّة كهدف المشورة في العمل أو لإحقاق الحق أو التظلّم وما إلى ذلك.

وبالطبع فإنّ «المتجاهر بالفسق» خارج عن موضوع الغيبة، ولو ذكر إثمه في غيابه فلا إثم على مغتابه، إلاّ أنّه ينبغي الالتفات إلى أنّ هذا الحكم خاص بالذنب الذي يتجاهر به فحسب.

وممّا يسترعي الالتفات أيضاً هو أنّ الغيبة ليست حراماً فحسب، فالاستماع إليها حرام أيضاً، والحضور في مجلس الاغتياب حرام، بل يجب طبقاً لبعض الروايات أن يردّ على المغتاب، يعني أن يدافع عن أخيه المسلم الذي يراد إراقة ماء وجهه، وما أحسن مجتمعاً تُراعى فيه هذه الأُصول الأخلاقية بدقّة!.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾

التّفسير

التقوى أغلى القيم الإنسانية

كان الخطاب في الآيات السابقة موجّهاً للمؤمنين وكان بصيغة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وقد نهى الذكر الحكيم في آيات متعدّدة عمّا يُوقِع المجتمع الإسلامي في خطر، وتكلّم في جوانب من ذلك.

في حين أنّ الآية محل البحث تخاطب جميع الناس وتبيّن أهم أصل يضمن النظم والثبات، وتميّز الميزان الواقعي للقيم الإنسانية عن القيم الكاذبة والمغريات الباطلة. فتقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾.

والمراد بـ﴿خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ هو أصل الخلقة وعودة أنساب الناس إلى «آدم وحواء»، فطالما كان الجميع من أصل واحد فلا ينبغي أن تفتخر قبيلة على أُخرى من حيث النسب، وإذا كان الله سبحانه قد خلق كلّ قبيلة وأولاها خصائص ووظائف معيّنة فإنّما ذلك لحفظ نظم حياة الناس الاجتماعية! لأنّ هذه الاختلافات مدعاةٌ لمعرفة الناس، فلو كانوا على شاكلة واحدة ومتشابهين لساد الهرج والمرج في المجتمع البشري أجمع.

وقد اختلف المفسّرون في بيان الفرق بين «الشعوب» جمع شعب - على زنة صعب - (الطائفة الكبيرة من الناس) و«القبائل» جمع قبيلة فاحتملوا احتمالات متعدّدة:

قال جماعة: إنّ دائرة الشعب أوسع من دائرة القبيلة، كما هو المعروف في العصر الحاضر أن يطلق الشعب على أهل الوطن الواحد.

وقال بعضهم: كلمة «شعوب» إشارة إلى طوائف العجم، وأمّا «القبائل» فإشارة طوائف العرب.

وأخيراً فإنّ بعضهم قال بأنّ «الشعوب» إشارة إلى انتساب الناس إلى المناطق «الجغرافية» و«القبائل» إشارة إلى انتسابهم إلى العرق والدم.

لكنّ التّفسير الأوّل أنسب من الجميع كما يبدو! وعلى كلّ حال فإنّ القرآن بعد أن ينبذ أكبر معيار للمفاخرة والمباهاة في العصر الجاهلي ويُلغي التفاضل بالأنساب والقبائل يتّجه نحو المعيار الواقعي القيم فيضيف قائلاً: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

وهكذا فإنّ القرآن يشطب بالقلم الأحمر على جميع الامتيازات الظاهرية والمادية،

ويعطي الأصالة والواقعية لمسألة التقوى والخوف من الله، ويقول إنّه لا شيء أفضل من التقوى في سبيل التقرّب إلى الله وساحة قدسه.

وبما أنّ «التقوى» صفة روحانية وباطنية ينبغي أن تكون قبل كلّ شيء مستقرّةً في القلب والروح، وربّما يوجد مدّعون للتقوى كثيرون والمتّصفون بها قلة منهم، فإنّ القرآن يضيف في نهاية الآية قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

فالله يعرف المتّقين حقّاً وهو مطّلع على درجات تقواهم وخلوص نيّاتهم وطهارتهم وصفائهم، فهو يكرمهم طبقاً لعلمه ويثيبهم، وأمّا المدّعون الكذَبَة فإنّه يحاسبهم ويجازيهم على كذبهم أيضاً.

بحثان

١ - القيم الحقّة والقيم الباطلة

لا شكّ أنّ كلّ إنسان يرغب بفطرته أن يكون ذا قيمة وافتخار، ولذلك فهو يسعى بجميع وجوده لكسب القيم...

إلاّ أنّ معرفة معيار القيم يختلف باختلاف الثقافات تماماً، وربّما أخذت القيم الكاذبة مكاناً بارزاً ولم تُبق للقيم الحقّة مكاناً في قاموس الثقافة للفرد.

فجماعة ترى بأنّ قيمتها الواقعية في الانتساب إلى القبيلة المعروفة، ولذلك فإنّهم من أجل أن تعلوَ سمعةُ قبيلتهم وطائفتهم يظهرون نشاطات وفعاليات عامة ليكونوا برفعة القبيلة وسمّوها كبراء أيضاً.

وكان الاهتمام بالقبيلة والافتخار بالانتساب إليها من أكثر الأُمور الوهميّة رواجاً في الجاهلية إلى درجة كانت كلّ قبيلة تعدّ نفسها أشرف من القبيلة الأُخرى، ومن المؤسف أن نجد رواسب هذه الجاهلية في أعماق نفوس الكثيرين من الأفراد والمجتمعات!! وجماعة أُخرى تعوّل على مسألة المال والثروة وامتلاكها للقصور والخدم والحشم وأمثال هذه الأُمور، فتعدّها دليلاً على القيمة الشخصيّة وتسعى من أجل كلّ ذلك دائماً.

وجماعة تعتبر (المقامات) السياسية والاجتماعية العليا معياراً للشخصية والقيم الإجتماعية!

وهكذا تخطو كلّ جماعة في طريق خاص وتنشدّ قلوبها إلى قيمة معينة وتعدّها معيارها الشخصي!

وبما أنّ هذه الأُمور جميعها أمور متزلزلة ومسائل ذاتية ومادية وعابرة فإنّ مبدأً سماوياً كمبدأ الإسلام لا يمكنه أن يوافق عليها أبداً.. لذلك يشطب عليها بعلامة البطلان ويعتبر القيمة الحقيقية للإنسان في صفاته الذاتية وخاصة تقواه وطهارة قلبه والتزامه الديني.

حتى أنّه لا يكترث بموضوعات مهمّة كالعلم والثقافة إذا لم تكن في خطّ «الإيمان والتقوى والقيم الأخلاقية»...

ومن العجيب أن يظهر القرآن في محيط يهتمّ بالقيمة القبلية أكثر من اهتمامه بالقيم الأُخرى، إلاّ أنّ القرآن حطّم هذه الوثنية وحرّر الإنسان من أسر العِرق والدم والقبيلة واللون والمال والمقام والثروة وقاده إلى معرفة نفسه والعثور على ضالّته داخل نفسه وصفاتها العليا.

الطريف أنّ في ما ذُكر في شأن نزول الآية محل البحث لطائف ودقائق تحكي عن عمق هذا الدستور الإسلامي.

منها: إنّ النّبي ﷺ أمر «بلالاً» بعد فتح مكّة أن يؤذّن، فصعد بلال وأذّن على ظهر الكعبة، فقال «عتّاب بن أسيد» الذي كان من الأحرار: أشكر الله أن مضى أبي من هذه الدنيا ولم يرَ مثل هذا اليوم.. وقال «الحارث بن هشام»: ألم يجدْ رسول الله غير هذا الغراب الأسود للأذان؟! «فنزلت الآية الآنفة وبيّنت معيار القيم الواقعية»[1].

وقال بعضهم: نزلت الآية عندما أمر الرّسول ﷺ بتزويج بعض الموالي من بنات العرب «والموالي تطلق على العبيد الذين عُتقوا من رقبة أسيادهم أو على غير العرب (المسلمين)». فتعجّبوا وقالوا: يا رسول الله أتأمرنا أن نزوّج بناتنا من الموالي «فنزلت الآية وأبطلت هذه الأفكار الخرافية»[2].

ونقرأ في بعض الروايات الإسلامية أنّ النّبي ﷺ خطب يوماً في مكّة فقال: «يا أيّها الناس إنّ الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعاظمها بآبائها فالناس رجلان رجل برّ تقي كريم على الله وفاجر شقي هيّن على الله والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾»[3].

(١-٢) تفسير روح البيان، ج ٩، ص ٩٠، كما ورد في تفسير القرطبي، ص ٦١٦٠، ج ٩.

(٣) تفسير القرطبي، ج٩، ص٦١٦١.

وقد جاء في كتاب «آداب النفوس» للطبري أنّ النّبي ﷺ التفت إلى الناس وهو راكب على بعيره في أيّام التشريق بمنى «وهي اليوم الحادي عشر والثّاني عشر والثّالث عشر» من ذي الحجة فقال: «يا أيّها الناس! ألا إنّ ربّكم واحد وإنّ أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلاّ بالتقوى ألا هل بلّغت؟ قالوا: نعم! قال: ليبلّغ الشاهد الغائب»(١).

كما ورد في حديث آخر بهذا المعنى ضمن كلمات قصيرة ذات معاني غزيرة أنّه ﷺ قال: «إنّ الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا الى أجسامكم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم، فمن كان له قلب صالح تحنّن الله عليه وإنّما أنتم بنو آدم وأحبّكم إليه أتقاكم»(٢).

إلاّ أنّ العجيب أنّه مع هذه التعليمات الواسعة الغنية ذات المغزى الكبير ما يزال بين المسلمين من يعوّل على الدم والنسب واللسان ويقدّمون وحدة الدم واللغة على الأخوّة الإسلامية والوحدة الدينية ويحيون العصبية الجاهلية مرّةً أخرى، وبالرغم من الضربات الشديدة التي يتلقّونها من جراء ذلك، إلاّ أنّهم حسب الظاهر لا يريدون أن يتيقّظوا ويعودوا إلى حكم الإسلام وحظيرة قدسه!

حفظ الله الجميع من شرِّ العصبية الجاهلية.

إنّ الإسلام حارب العصبية الجاهلية في أي شكل كانت وفي أيّة صورة ليجمع المسلمين في العالم من أي قوم وقبيلة وعرق تحت لواء واحد! - لواء القومية ولا سواه - لأنّ الإسلام لا يوافق على هذه النظريات المحدودة ويعدّ جميع هذه الأُمور وهمية ولا أساس لها حتى أنّه ورد في حديث عن النّبي ﷺ أنّه قال: «دعوها فإنّها منتنة»(٣).

ولكنّ لماذا بقيت هذه الفكرة المُنتنة مترسّخة في عقول الكثيرين ممّن يدّعون أنّهم مسلمون ويتّبعون القرآن والأخوّة الإسلامية ظاهراً؟! لا ندري!!

وما أحسن أن يُبنى المجتمع على أساس معيار القيم الإسلامي ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ

(١) المصدر السابق، ص٦١٦٢، والتعبير «بالأحمر» في هذه الرواية لا يعني من بشرته حمراء بل من بشرته حنطيّة لأنّ أغلب الناس في ذلك المحيط كانوا بهذه الصفة ومن الطريف أن يطلق الأحمر على الحنطة أيضاً.

(٢) المصدر السابق.

(٣) صحيح مسلم طبقاً لما نقل في تفسير ظلال القرآن، ج٧، ص٥٣٨.

﴿أَتْقَىٰكُمْ﴾ وأن تطوى القيم الكاذبة من قوميّة ومال وثروة ومناطق جغرافية وطبقية عن هذا المجتمع.

أجل، التقوى الإلهية والإحساس بالمسؤولية الداخلية والوقوف بوجه الشهوات والالتزام بالحق والصدق والطهارة والعدل، هي وحدها معيار القيم الإنسانية لا غير، بالرغم من أنّ هذه القيم الأصيلة نسيت وأهملت في سوق المجتمعات المعاصرة وحلّت محلها القيم الكاذبة.

في نظام القيم الجاهلية الذي كان يدور حول محور «التفاخر بالآباء والأموال والأولاد» لم ينتج سوى حفنة سرّاق وناهبين، غير أنّه بتبدّل هذا النظام وإحياء أصل ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ الكبير كان من ثمراته أناس أمثال سلمان وأبو ذر وعمّار وياسر والمقداد، والمهم في ثورات المجتمعات الإنسانية هو الثورة على القيم» وإحياء هذا الأصل الإسلامي الأصيل!

ونختتم كلامنا هذا بحديث للنبي ﷺ إذ قال: «كلكم بنو آدم وآدم خُلِقَ من تراب ولينتهينّ قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان»[(١)].

٢ - حقيقة التقوى

كما رأينا من قبل، فإنّ القرآن جعل أكبر امتياز للقوى، وعدّها معياراً لمعرفة القيم الإنسانية فحسب!

وفي مكان آخر عدّها خير الزاد والشراب إذ يقول: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾[(٢)].

أمّا في سورة الأعراف فقد عبّر عنها باللباس: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[(٣)].

كما أنّه عبّر عنها في آيات أُخر بأنّها واحدة من أهم أسس دعوة الأنبياء، ويسمو بها في بعض الآيات إلى أن يعبّر عن الله بأنّه أهل التقوى فيقول: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾[(٤)].

والقرآن يعدّ التقوى نوراً من الله، فحيثما رسخت التقوى كان العلم والمعرفة إذ يقول: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾[(٥)].

---

(١) تفسير في ظلال القرآن، ج٧، ص٥٣٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٦.
(٤) سورة المدّثر، الآية: ٥٦.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

ويقرن التقوى بالبرّ في بعض آياته فيقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾[(١)].

أو يقرن العدالة بالتقوى فيقول: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

والآن ينبغي أن نرى ما هي «حقيقة التقوى» التي هي أعظم رأس مال معنوي وافتخار للإنسان.

أشار القرآن إشارات تكشف أستاراً عن حقيقة التقوى، فيذكر في آيات متعدّدة «القلب» مكاناً للتقوى، ومن ضمنها قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾[(٢)].

ويجعل القرآن «التقوى» في مقابل «الفجور» كما نقرأ ذلك في الآية (٨) من سورة الشمس: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾.

ويعدّ القرآن كلّ عمل ينبع من روح الإيمان والإخلاص والنية الصادقة أساسه التقوى، كما جاء في وصفه في شأن «مسجد قبا» (في المدينة) حيث بنى المنافقون في قباله «مسجد ضرار» فيقول: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾[(٣)].

ويستفاد من مجموع هذه الآيات أنّ التقوى هي الإحساس بالمسؤولية والتعهّد الذي يحكم وجود الإنسان وذلك نتيجةً لرسوخ إيمانه في قلبه حيث يصدّه عن الفجور والذنب ويدعوه إلى العمل الصالح والبر ويغسل أعمال الإنسان من التلوّثات ويجعل فكره ونيّته في خلوص من أية شائبة.

وحين نعود إلى الجذر اللغوي لهذه الكلمة نصل إلى هذه النتيجة أيضاً لأنّ «التقوى» مشتقّة من «الوقاية» ومعناها المواظبة والسعي على حفظ الشيء، والمراد في هذه الموارد حفظ النفس من التلوّث بشكل عام، وجعل القوى تتمركز في أمور يكون رضا الله فيها:

وقد ذكر بعض الأعاظم للتقوى ثلاث مراحل:

١ - حفظ النفس من (العذاب الخالد) عن طريق تحصيل الاعتقادات الصحيحة.

٢ - تجنّب كلّ إثم وهو أعم من أن يكون تركاً لواجب أو فعلاً لمعصية.

٣ - التجلّد والاصطبار عن كلّ ما يشغل القلب ويصرفه عن الحقّ، وهذه تقوى الخواص بل خاص الخاص[(٤)].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ٣.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠٨.
(٤) بحار الأنوار، ج٧٠، ص١٣٦.

وفي نهج البلاغة للإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام تعابير حيّة وبليغة في شأن التقوى، حيث ذكرت التقوى في كثير من خطب الإمام وكلماته القصار!

ففي بعض كلماته يقارن عليه السلام بين التقوى والذنب فيقول: «ألا وإنّ الخطايا خيل شُمس حمل عليها أهلها وخلعت لجمها فتقحّمت بهم في النّار ألا وإنّ التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها وأعطوا أزمّتها فأوردتهم الجنّة»[١].

وطبقاً لهذا التشبيه اللطيف فإنّ التقوى هي حالة ضبط النفس والتسلّط على الشهوات، في حين أنّ عدم التقوى هو الاستسلام للشهوات وعدم التسلّط عليها.

ويقول الإمام علي في مكان آخر: «اعلموا عباد الله أنّ التقوى دار حصن عزيز والفجور دار حصن ذليل لا يمنع أهله ولا يحرز من لجأ إليه ألا وبالتقوى تقطع حمة الخطايا»[٢].

ويضيف في مكان آخر أيضاً: «فاعتصموا بتقوى الله فإنّ لها حبلاً وثيقاً عروتهُ ومعقلاً منيعاً ذروتهُ»[٣].

وتتّضح حقيقة التقوى وروحها من خلال مجموع التعبيرات آنفة الذكر.

وينبغي الالتفات إلى هذه «اللطيفة» وهي أنّ التقوى ثمرة شجرة الإيمان، ومن أجل الحصول على هذه الثمرة النادرة والغالية ينبغي أن تكون قاعدة الإيمان راسخة ومُحكمة!

وبالطبع فإنّ ممارسة الطاعة وتجنّب المعصية والالتفات إلى المناهج الأخلاقية تجعل التقوى راسخة في النفس، ونتيجتها ظهور نور اليقين والإيمان في نفس الإنسان، وكلّما ازداد نور التقوى ازداد نور اليقين أيضاً، ولذلك نجد التقوى في بعض الروايات الإسلامية على أنّها درجة أعلى من الإيمان وأدنى من اليقين!

يقول الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «الإيمان فوق الإسلام بدرجة والتقوى فوق الإيمان بدرجة واليقين فوق التقوى بدرجة وما قسم في الناس شيء أقلّ من اليقين»[٤].

ونختتم بحثنا بأبيات تجسّد حقيقة التقوى ضمن مثال جلي:

خلِ الذنوب صَغيرها وكبيرها فهو التقى

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٦.
(٢) المصدر السابق، الخطبة ١٥٧.
(٣) المصدر السابق، الخطبة ١٩٠.
(٤) بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ١٣٦.

واصنع كماش فوق أرض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إنّ الجبال من الحصى(١)

﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥﴾

سبب النّزول

ذكر كثير من المفسّرين شأناً لنزول الآيتين وخلاصته ما يلي...

ورد المدينة جماعة من «بني أسد» في بعض سنين الجدب والقحط وأظهروا الشهادتين على ألسنتهم أملاً في الحصول على المساعدة من النبي ﷺ وقالوا للرسول إنّ قبائل العرب ركبت الخيول وحاربتكم إلاّ أنّنا جئناك بأطفالنا ونسائنا دون أن نحاربك، وأرادوا أن يمنّوا على النّبي عن هذا الطريق!

فنزلت الآيتان آنفتا الذكر وكشفتا أنّ إسلامهم ظاهري ولم يتغلغل الإيمان في أعماق قلوبهم، ثمّ إذا كانوا مؤمنين فما ينبغي عليهم أن يمنّوا على الرّسول بالإيمان بل الله يمنّ عليهم أن هداهم للإيمان(٢).

ولكنّ وجود شأن النّزول هذا لا يمنع من عمومية مفهوم الآية.

التّفسير

الفرق بين الإسلام والإيمان

كان الكلام في الآية المتقدّمة على معيار القيم الإنسانية، أي التقوى، وبما أنّ التقوى ثمرة لشجرة الإيمان، الإيمان النافذ في أعماق القلوب، ففي الآيتين الآنفتين

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١، ذيل الآية ٢ من سورة البقرة.
(٢) تفسير الميزان وروح البيان وفي ظلال القرآن، ذيل الآيات محل البحث.

بيان لحقيقة الإيمان إذ تقول الآية الأولى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾.

وطبقاً لمنطوق الآية فإنّ الفرق بين «الإسلام» و«الإيمان» في أنّ: الإسلام له شكل ظاهري قانوني، فمن تشهد بالشهادتين بلسانه فهو في زمرة المسلمين وتجري عليه أحكام المسلمين.

أمّا الإيمان فهو أمر واقعي وباطني، ومكانه قلب الإنسان لا ما يجري على اللسان أو ما يبدو ظاهراً!

الإسلام ربّما كان عن دوافع متعدّدة ومختلفة بما فيها الدوافع الماديّة والمنافع الشخصية، إلاّ أنّ الإيمان ينطلق من دافع معنوي، ويسترفد من منبع العلم، وهو الذي تظهر ثمرة التقوى اليانعة على غصن شجرته الباسقة!

وهذا ما أشار إليه الرّسول الأكرم ﷺ في تعبيره البليغ الرائع: «الإسلام علانية والإيمان في القلب»[١].

كما إنّا نقرأ حديثاً آخر عن الإمام الصادق يقول فيه: الإسلام يحقن الدم وتؤدّى به الأمانة وتستحلّ به الفروج والثواب على الإيمان[٢].

وربّما كان لهذا السبب أنّ بعض الروايات تحصر مفهوم الإسلام بالإقرار اللفظي، في حين أنّ الإيمان إقرار باللسان وعمل بالأركان، إذ تقول الرواية «الإيمان إقرار وعمل، والإسلام إقرار بلا عمل»[٣].

وهذا المعنى نفسه وارد في تعبير آخر في بحث الإسلام والإيمان، يقول «فضيل بن يسار» سمعت الإمام الصادق عليه السلام يقول: إنّ الإيمان يشارك الإسلام ولا يشاركه الإسلام، إنّ الإيمان ما وقر في القلوب والإسلام ما عليه المناكح والمواريث وحقن الدماء[٤].

وهذا التفاوت في المفهومين فيما إذا اجتمع اللفظان معاً، إلاّ أنّه إذا انفصل كلٌّ عن الآخر فربّما أطلق الإسلام على ما يُطلق عليه بالإيمان، أي أنّ اللفظين قد يستعملان في معنى واحد أحياناً.

(١) تفسير مجمع البيان، ج٩، ص١٣٨.
(٢) أُصول الكافي، ج٢، باب أنّ الإسلام يحقن به الدم، الحديثان ١، ٢.
(٣) المصدر السابق، ح ٢.
(٤) أُصول الكافي، ج٢، باب أنّ الإيمان يشرّك الإسلام، ح ٣.

ثمّ تضيف الآية محل البحث فتقول: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ وسيوفّيكم ثواب أعمالكم بشكل كامل ولا ينقص منها شيئاً.

وذلك لـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿لَا يَلِتْكُم﴾ مشتقٌّ من «لَيت» على زنة (ريب) ومعناه الإنقاص من الحق[1].

والعبارات الأخيرة في الحقيقة إشارات إلى أصل قرآني مسلّم به وهو أنّ شرط قبول الأعمال «الإيمان»، إذ مضمون الآية أنّه إذا كنتم مؤمنين بالله ورسوله إيماناً قلبياً وعلامته طاعتكم لله والرّسول فإنّ أعمالكم مقبولة، ولا ينقص من أجركم شيء، ويثيبكم الله، وببركة هذه الأعمال يغفر ذنوبكم لأنّ الله غفور رحيم.

وحيث إنّ الحصول على هذا الأمر الباطني أي الإيمان ليس سهلاً، فإنّ الآية التالية تتحدّث عن علائمه، العلائم التي تميّز المؤمن حقّاً عن المسلم والصادق عن الكاذب، وأولئك الذين استجابوا لله وللرسول رغبةً وشوقاً منهم عن أولئك الذين استجابوا طمعاً أو للوصول إلى المال والدنيا فتقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾!

أجل، إنّ أوّل علامة للإيمان هي عدم التردّد في مسير الإسلام، والعلامة الثانية الجهاد بالأموال، والعلامة الثالثة التي هي أهم من الجميع الجهاد بالنفس.

وهكذا فإنّ الإسلام يستهدف في الإنسان أجلى العلائم «ثبات القدم وعدم الشك والتردّد من جهة، والإيثار بالمال والنفس من جهة أخرى».

فكيف لا يرسخ الإيمان في القلب والإنسان لا يقصّر عن بذل المال والروح في سبيل المحبوب!؟

ولذلك فإنّ الآية تُختتم بالقول مؤكّدةً: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾.

هذا هو المعيار الذي حدّده الإسلام لمعرفة المؤمنين الحق وتمييزهم عن الكاذبين المدّعين بالإسلام تظاهراً، وليس هذا المعيار منحصراً بفقراء جماعة بني أسد، بل هو معيار واضح وجلي ويصلح لكلّ عصر وزمان لفصل المؤمنين عن المتظاهرين بالإسلام، ولبيان قيمة أُولئك الذين يمنّون بأن أسلموا على النّبي ﷺ وذلك بحسب الظاهر فحسب، إلاّ أنّه عند التطبيق والعمل لا يوجد فيهم أقلّ علامة من الإيمان أو الإسلام.

---

(١) فعلى هذا يكون الفعل ليت أجوف يائياً وإن كان الفعل ولت بهذا المعنى أيضاً.

وفي قبال أُولئك رجال لا يدّعون شيئاً ولا يمنّون، بل يرون أنفسهم مقصّرين دائماً، وفي الوقت ذاته هم في طليعة المضحّين والمؤثرين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله.

ولو أنّا اتخذنا معيار القرآن لمعرفة المؤمنين الواقعيين وتمييزهم عن سواهم لما كان معلوماً من خلال هذا العدد الهائل من آلاف الآلاف و«الملايين» ممّن يدّعون الإسلام كم هم المؤمنون حقّاً؟! وكم هم المسلمون في الظاهر فحسب؟!

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

سبب النّزول

قال جماعة من المفسّرين إنّه بعد نزول ما تقدّم من الآيات آنفاً جاء النّبي طائفةٌ من الأعراب وحلفوا أنّهم صادقون في ادّعائهم بأنّهم المؤمنون وظاهرهم وباطنهم سواء، فنزلت الآية الأولى من الآيات محل البحث وأنذرتهم أن لا يحلفوا، فالله يعرف باطنهم وظاهرهم، ولا تخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض[١].

التّفسير

لا تمنّوا عليَّ إسلامكم

كانت الآيات السابقة قد بيّنت علائم المؤمنين الصادقين، وحيث إنّا ذكرنا في شأن النّزول أنّ جماعة جاؤوا النّبي ﷺ وقالوا إنّ ادّعاءهم كان حقيقةً وإنّ الإيمان مستقرٌّ في قلوبهم، فإنّ هذه الآيات تنذرهم وتبيّن لهم أنّه لا حاجة إلى الإصرار والقسم، كما أنّ هذا البيان والإنذار هو لجميع الذين على شاكلة تلك الجماعة، فمسألة (الكفر والإيمان) إنّما يطّلع عليها الله الخبير بكل شيء!

---

(١) تفسير مجمع البيان، الميزان، روح البيان، وتفسير القرطبي.

ولحن الآيات فيه عتاب وملامة، إذ تقول الآية الأولى من الآيات محل البحث: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

ولمزيد التأكيد تقول الآية أيضاً: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. فذاته المقدّسة هي علمه بعينه وعلمه هو ذاته بعينها(١) ولذلك فإنّ علمه أزلي أبدي!

ذاته المقدّسة في كلّ مكان حاضرة، وهو أقرب إليكم من حبل الوريد، ويحول بين المرء وقلبه، فمع هذه الحال لا حاجة لادّعائكم، وهو يعرف الصادقين من الكاذبين ومطّلع على أعماق أنفسهم حتى درجات إيمانهم المتفاوتة ضعفاً وقوّةً، وقد تنطلي عليهم أنفسهم، إلاّ أنّه يعرفها بجلاء، فعلامَ تصرّون أن تعلّموا الله بدينكم؟!

ثمّ يعود القرآن لكلمات الأعراب من أهل البادية الذين يمنّون على النّبي بأنّهم أسلموا وأنّهم أذعنوا لدينه في الوقت الذي حاربته القبائل العربية الأُخرى.

فيقول القرآن جواباً على كلماتهم هذه: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

«المنّة» كما بيّنا سابقاً من مادة «المن» ومعناه الوزن الخاص الذي يوزن به، ثمّ استُعمل هذا اللفظ على كلّ نعمة غالية وثمينة، والمنّة على نوعين: فإذا كان فيها جانب عملي كعطاء النعمة والهبة فهي ممدوحة، ومنن الله من هذا القبيل، وإذا كان فيها جانب لفظي، كمنّ كثير من الناس بالقول بعد العمل، فهي قبيحة وغير محبوبة!

الطريف أن صدر الآية يقول ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ وهذا تأكيد آخر على أنّهم غير صادقين في إيمانهم.

وفي ذيل الآية يأتي التعبير قائلاً: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وعلى كلّ حال فهذه مسألة مهمّة أن يتصوّر قاصرو التفكير غالباً أنّهم بقبول الإيمان وأداء العبادات والطاعات يقدّمون خدمةً لساحة قدس الله أو للنبي ﷺ وأوصيائه، ولذلك فهم ينتظرون الثواب والأجر.

في حين أنّه لو أشرق نور الإيمان في قلب أحد، ونال هذا التوفيق بأن كان في زمرة المؤمنين، فقد شمله لطف عظيم من الله عزّوجلّ.

---

(١) يشيع على ألسنة بعضهم التعبير بـ«صفاته عين ذاته وذاته عين صفاته» وما أشبه ذلك وهذا التعبير ركيك والصحيح ما ورد في المتن (المصحّح).

فالإيمان وقبل كلّ شيء يمنح الإنسان إدراكاً جديداً عن عالم الوجود، ويكشف عنه حجب الأنانية والغرور، ويوسع عليه أفق نظرته، ويجسّد له عظمة خلقه في نظره!

إنّه يلقي على عواطفه النور والضياء ويُربّيها ويُحيي في نفسه القيم الإنسانية، وينمّي استعداداته العالية فيه، ويمنحه العلم والقوة والشهامة والإيثار والتضحية والعفو والتسامح والإخلاص، ويجعل منه إنساناً قوياً ذا عطاء وثمر بعد أن كان موجوداً ضعيفاً.

إنّه يأخذ بيده ويصعد به في مدارج الكمال إلى قمة الفخر، ويجعله منسجماً مع عالم الوجود، ويسخّر عالم الوجود طوع أمره!

أهذه النعمة التي أنعمها الله على الإنسان ذات قيمة، أم ما يمنّه الإنسان على النّبي؟!!

كذلك كلّ عبادة وطاعة هي خطوة نحو التكامل، إذ تمنح القلب صفاءً وتسيطر على الشهوات، وتقوّي فيه روح الإخلاص، وتمنح المجتمع الإسلامي الوحدة والقوّة والعظمة فكأنّه نسيج واحد!

فكل واحدة منها درس كبير في التربية، ومرحلة من المراحل التكاملية!

ومن هنا كان على الإنسان أن يؤدّي شكر نعمة الله صباح مساء، وأن يهوي إلى السجود بعد كلّ صلاة وعبادة، وأن يشكر الله على جميع هذه الأُمور!

فإذا كانت نظرة الإنسان - في هذا المستوى - من الإيمان والطاعة فإنّه لا يرى نفسه متفضلاً، بل يجد نفسه مديناً لله ولنبيّه وغريق إحسانه. ويؤدّي عبادته بلهفة، ويسعى في سبيل طاعته على الرأس لا على القدم، وإذا ما أثابه الله أجراً فهو تفضّل آخر منه ولطف، وإلاّ فإنّ أداء الأعمال الصالحة يكون بنفع الإنسان، والحقيقة أنّه بهذا التوفيق يضاف على ميزانه عند الله.

فهداية الله - بناءً على ما بيّنا - لطف، ودعوة النّبي ﷺ لطف آخر، والتوفيق للطاعة مضاعف، والثواب لطف فوق لطف!.

وفي آخر آية من الآيات محل البحث التي هي آخر سورة الحجرات تأكيد آخر على ما ورد في الآية الآنفة إذ تقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فلا تصرّوا على أنّكم مؤمنون حتماً ولا حاجة للقسم.. فهو حاضر في أعماق قلوبكم، وهو عليم بما يجري في غيب السماوات والأرض جميعاً، فكيف لا يعلم ما في قلوبكم وما تنطوي عليه صدوركم؟!

اللّهمَّ مننت علينا بنور الإيمان، فنقسم عليك بعظيم نعمة الهداية أن تثبّت أقدامنا في هذا الطريق تقودنا في سبيل الكمال. . .

إلهنا، أنت عالم بما في قلوبنا، وتعلم نيّاتنا ودوافعنا فاستر عيوبنا عن أنظار عبادك، وأصلح ما فسد منّا بكرمك.

ربّنا، وفّقنا للتحلّي بجميل الصفات ومحاسن الأخلاق التي ذكرتها في هذه السورة حتى تتجذّر في وجودنا وتتعمّق في أرواحنا وأفكارنا. . .

سُورَة قٓ

مكّية وعدد آياتـها خمس وأربعون

محتوى السورة

إنّ محور بحوث هذه السورة هو موضوع «المعاد» وجميع هذه الآيات - تقريباً - تدور حول هذا المحور وبعض المسائل الأُخرى التي لها تعلّق به أيضاً.

ومن المسائل المرتبطة بالمعاد تمت الإشارة في هذه السورة إلى الأُمور التالية:

١ - إنكار الكافرين مسألة المعاد وتعجّبهم منها «المراد بالمعاد هنا هو المعاد الجسماني».

٢ - الاستدلال على مسألة المعاد عن طريق الالتفات إلى مطلق التكوين والخلق وخاصّة إحياء الأرض الميتة بنزول الغيث.

٣ - الاستدلال على مسألة المعاد عن طريق الالتفات إلى الخلق الأوّل.

٤ - الإشارة إلى مسألة ثبوت الأعمال والأقوال ليوم الحساب.

٥ - المسائل المتعلّقة بالموت والانتقال من هذه الدنيا إلى الدار الأُخرى.

٦ - جانب من حوادث يوم القيامة وأوصاف الجنّة والنار.

٧ - إشارة إلى حوادث نهاية هذا العالم المذهلة والمثيرة التي تعتبر بدورها بداية العالم الآخر!

وفي الأثناء إشارات (موجزة وذات تأثير بليغ) عن حال الأُمم الماضية وطغيانها وعاقبتها الوخيمة أمثال قوم فرعون وعاد وقوم لوط وقوم شعيب وقوم تبع وما ورد من تعليمات للنّبي في التوجّه إلى الله تعالى... كما وردت في بداية السورة ونهايتها إشارة موجزة إلى عظمة القرآن!.

فضل تلاوة سورة «ق»:

يستفاد من الرّوايات الإسلامية أنّ النّبي كان يهتمّ اهتماماً كبيراً بسورة «ق» حتى أنّه كان يقرؤها في خطبة صلاة كلّ يوم جمعة[1].

---

(١) تفسير القرطبي، ج٩، ص٦١٧١.

كما ورد في حديث آخر أنّه كان يقرؤها في كلّ عيد وجمعة[١] وذلك لأنّ يومي الجمعة والعيد يومان يتيقّظ فيهما الناس وينتبهون، وفيهما تكون العودة إلى الفطرة الأُولى، والتوجّه إلى الله ويوم الحساب، وبما أنّ آيات هذه السورة تتحدّث عن مسائل المعاد والموت وحوادث يوم القيامة وأنّ لأُسلوبها تأثيراً بالغاً في إيقاظ الناس من الغفلة وتربيتهم، لذلك كانت موضع اهتمام النّبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد ورد في بعض أحاديث النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «من قرأ سورة (ق) هوّن الله عليه تارات الموت وسكراته»[٢].

كما ورد عن الباقر عليه السلام أنّه قال: «من أدمن في فرائضه ونوافله سورة (ق) وسّع الله في رزقه وأعطاه كتابه بيمينه وحاسبه حساباً يسيراً»[٣].

ولا حاجة للتذكير بأنّ كلّ هذه الفضيلة والفخر لا يحصل بقراءة الألفاظ فحسب، بل القراءة هي بداية لتيقّظ الأفكار، وهي بدورها مقدّمة للعمل الصالح والانسجام مع محتوى السورة هذه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾

التّفسير

المنكرون المعاندون في أمر مريج!

مرّةً أُخرى نواجه هنا بعض الحروف المقطّعة! وهو الحرف «ق»، وكما قلنا من قبل إنّ واحداً من التفاسير المتينة هو أنّ هذا القرآن على عظمته مؤلّف من حروف بسيطة هي ألف باء الخ... وهذا يدلّ على أنّ مُبدع القرآن ومنزله لديه علم لا محدود وقدرة مطلقة بحيث خلق هذا التركيب الرفيع العالي من هذه الوسائل البسيطة المألوفة!

(١) تفسير في ظلال القرآن، ج٧، ص٥٤٧. (٢-٣) تفسير مجمع البيان، ج٩، ص١٤٠.

وبالطبع فإنّ هناك تفاسير أُخر للحروف المقطّعة ويمكن مراجعتها في بدايات سور «البقرة، آل عمران، الأعراف وسور حم أيضاً».

قال بعض المفسّرين: إنّ «ق» إشارة إلى بعض أسماء الله تعالى «كالقادر والقيّوم» وما إلى ذلك من الأسماء المبدوءة بحرف القاف.

كما ورد في كثير من التفاسير أنّ «ق» اسم لجبل عظيم يحيط بالكرة الأرضية!

ولكن أي جبل هو بحيث يحيط بالكرة الأرضية أو مجموع العالم؟! وما المراد منه؟ ليس هنا محلّ الكلام عنه! لكن ما ينبغي ذكره هنا أنّه من البعيد جدّاً أن يكون «ق» في هذه السورة إشارة إلى جبل قاف! لأنّه ليس هذا لا يتناسب مع مواضيع السورة وما ورد فيها فحسب، بل حرف «القاف» هنا كسائر الحروف المقطّعة الواردة في بدايات السور في القرآن، أضف إلى ذلك لو كان «ق» إشارة إلى جبل «قاف» لكان ينبغي أن يقترن بواو القسم كقوله تعالى: «والطور» وأمثال ذلك، وذكر كلمة ما من دون مبتدأ ولا خبر أو واو القسم لا مفهوم لها.

ثمّ بعد هذا كلّه، فإنّ الرسم القرآني لجميع المصاحف هو ورود الحرف «ق» مفرداً، في حين أنّ جبل «قاف» يُكتب رسمه على هيئة اسمه الكامل «قاف».

ومن جملة الأُمور التي تثبت على أنّ هذا الحرف «ق» هو من الحروف المقطّعة المذكورة لبيان عظمة القرآن هو مجيء القسم مباشرةً - بعد هذا الحرف - بالقرآن المجيد إذ يقول سبحانه: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾.

كلمة ﴿ٱلْمَجِيدِ﴾ مشتقّة من المجد ومعناها الشرف الواسع، وبما أنّ القرآن عظمته غير محدودة وشرفه بلا نهاية، فهو جدير بأن يكون مجيداً من كلّ جهة، فظاهره رائق، ومحتواه عظيم، وتعاليمه عالية، ومناهجه مدروسة، تبعث الروح والحياة في نفوس العباد.

ولسائل أن يسأل: ما المراد من ذكر هذا القسم؟ أو ما هو المقسم له؟! هناك بين المفسّرين احتمالات كثيرة، ولكن مع الالتفات إلى ما بعد القسم من الآيات فإنّه يبدو أنّ المقصود بالقسم أو جواب القسم هو مسألة النبوّة نبوّة محمّد أو نشور الناس وبعثهم بعد موتهم[١].

ثمّ يبيّن القرآن جانباً من إشكالات الكفّار والمشركين العرب الواهية فيذكر إشكالين

---

(١) وتقدير الكلام هكذا «ق والقرآن المجيد إنّك لرسول الله» أو... لتُبعثنّ أو أنّ البعث حقّ إلخ..

منها. . . الأوّل هو حكايته عنهم: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾.

وهذا إشكال طالما أشار إليه القرآن وردّ عليه، وتكرار هذا الاشكال يدلّ على أنّه من إشكالات الكفّار الأساسية التي كانوا يكرّروها دائماً!.

ولم يكن النّبي محمّد ﷺ وحده قد أشكلوا عليه بهذا الإشكال، فالرسل أيضاً أشكلوا عليهم أيضاً بذلك بقولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾[1].

وكانوا يقولون أحياناً: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾[2]. . .

وربّما أضافوا أحياناً ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾[3].

إلاّ أنّ جميع هذه الأُمور كانت حِججاً واهية وذريعة لعدم التسليم للحقّ.

والقرآن في هذه الآيات محلّ البحث لا يردّ على هذا الإشكال، لأنّه أجاب عليه مراراً، وهو إن أردنا أن نرسل ملكاً لجعلناه على صورة بشر. . . أي أنّ قادة الناس ينبغي أن يكونوا منهم فحسب ليكونوا قادرين على معرفة همومهم وآلامهم ورغباتهم وحاجاتهم ومسائل حياتهم، وليكونوا أُسوة لهم من الناحية العملية ولئلاّ يقولوا لو كانوا أمثالنا لما ظلّوا طاهرين أنقياء!

فمناهج الملائكة تتناسب معهم ولا تتناسب مع طموحات البشر وآلامهم.

وبعد إشكالهم الأوّل على نبوّة النّبي محمّد ﷺ وهو كيف يكون النّبي بشراً؟! كان لهم إشكال آخر على محتوى دعوته ووضعوا أصابع الدهشة على مسألة أُخرى كانت عندهم أمراً غريباً وهي ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾[4].

وعلى كلّ حال، كانوا يتصوّرون أنّ العودة للحياة مرّة أُخرى بعيدة لا يصدّقها العقل، بل كانوا يرونها محالاً ويعدّون من يقول بها ذا جنّة! كما نقرأ ذلك في الآيتين ٧ و٨ من سورة سبأ إذ قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۝٨﴾.

(١) سورة ابراهيم، الآية: ١٠.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٣٣.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٧.
(٤) جواب إذا محذوف ويعرف من الجملة التالية وتقديرها: «أإذا متنا وكنّا تراباً نرجع ونردّ أحياء ذلك رجع بعيد».

ولم يكن هذا الإشكال الذي أوردوه على النّبي هنا فحسب، بل أشكلوا عليه به عدّة مرّات وسمعوا ردّه عليهم، إلاّ أنّهم كرّروا عليه ذلك عناداً.

وعلى كلّ حال، فإنّ القرآن يردّ عليهم بطرق متعدّدة! فتارةً يشير إلى علم الله الواسع فيقول: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾.

إذا كان إشكالكم هو أنّه كيف تجتمع عظام الإنسان النخرة ولحمه الذي صار تراباً وذرّاته التي تبدلّت إلى بخار وغازات متفرّقة في الهواء، ومن يجمعها؟! أو من يعرف عنها شيئاً؟! فجواب ذلك معلوم... فالله الذي أحاط بكلّ شيء علماً يعرف جميع هذه الذرّات ويجمعها متى شاء، كما أنّ ذرّات الحديد المتناثرة في تلّ من الرمل يمكن جمعها بقطعة من «المغناطيس» فكذلك جمع ذرّات الإنسان أيسر على الله من ذلك.

وإذا كان إشكالهم أنّه من يحفظ أعمال الإنسان ليوم المعاد، فالجواب على ذلك أنّ جميع أعمال الناس في لوح محفوظ، ولا يضيع أي شيء في هذا العالم، وكلّ شيء - حتى أعمالكم - سيظلّ باقياً وإن تغيّر شكله.

(الكتاب الحفيظ) معناه الكتاب الذي يحفظ جميع أعمال الناس وغيرها، وهو إشارة إلى «اللوح المحفوظ» الذي بيّنا معناه بتفصيل في ذيل الآية (٣٩) من سورة الرعد.

ثمّ يردّ القرآن عليهم بجواب آخر، وفيه منحى نفسي أكثر إذ يقول: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾.

أي إنّهم جحدوا الحقّ مع علمهم به، وإلاّ فإنّه لا غبار على الحقّ، وكما سيتّضح في الآيات المقبلة فإنّهم يرون صورة مصغّرة للمعاد بأعينهم مراراً في هذه الدنيا وليس عندهم مجال للشكّ والتردّد!

لذلك فإنّ القرآن يختتم هذه الآية مضيفاً: ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾! فلأنّهم كذّبوا الرسالة فهم دائماً في تناقض في القول وحيرة في العمل واضطراب في السلوك.

فتارةً يتّهمون النّبي بأنّه مجنون أو أنّه شاعر أو كاهن.

وتارةً يعبّرون عن كلماته بأنّها «أساطير الأوّلين».

وتارةً يقولون بأنّه يعلّمه بشر.

وتارةً يقولون عنه بأنّه ساحر لنفوذ كلماته في القلوب.

وتارةً يقولون بأنّنا نستطيع أن نأتي بمثله.

وهذه الكلمات المتفرّقة والمتناقضة تدلّ على أنّهم فهموا الحقّ، إلاّ أنّهم يتذرّعون بحجج واهية شتّى، ولذلك لا يقرّون على كلام واحد أبداً.

وكلمة ﴿مَّرِيجٍ﴾ مشتقّة من مرج - على زنة حرج - ومعناها الأمر المختلط والمشتبه والمشوش، ولذلك فقد أطلقوا على الأرض التي تكثر فيها النباتات المختلفة والمتعدّدة بأنّها «مرج» أو «مرتع».

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾

التّفسير

انظروا إلى السماء لحظةً!

هذه الآيات تواصل البحث عن دلائل المعاد، فتارةً تتحدّث عن قدرة الله المطلقة لإثبات المعاد، وأُخرى تستشهد له بوقائع ونماذج تحدث في الدنيا تمثّل حالة المعاد.

فهي تستجلب وتُلفت أنظار المنكرين إلى خلق السماوات فتقول: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾.

والمراد بالنظر هنا هو النظر المقترن بالتفكير الذي يدعو صاحبه لمعرفة عظمة الخالق الذي خلق السماء الواسعة وما فيها من عجائب مذهلة وتناسق وجمال وإستحكام ونظم ودقّة.

جملة ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ أي لا انشقاق فيها، إمّا أن يكون بمعنى عدم وجود النقص والعيب كما ذهب إليه بعض المفسّرين، أو أن يكون معناه عدم الانشقاق والانفطار في السماء المحيطة بأطراف الأرض وهي ما يعبّر عنها بالغلاف الجوّي للأرض أو ما يعبّر القرآن عنه بالسقف المحفوظ كما ورد ذلك في سورة الأنبياء الآية (٣٢) إذ توصد الطريق بوجه النيازك والشُّهب التي تهوي باستمرار نحو الأرض وبسرعة هائلة وقبل أن تصل إلى الأرض تستحيل إلى شعلة ثم تكون رماداً، كما أنّها تحجب الأشعّة الضارّة للشمس وغيرها من الأشعّة الكونية، وإلاّ فإنّ السماء معناها الفضاء الواسع الذي تسبح فيه الأجرام الكروية المعروفة بالنجوم.

وهنا احتمال ثالث أيضاً، وهو أنّ الجملة السابقة إشارة إلى نظرية وجود «الأثير»... وطبقاً لهذه النظرية فإنّ جميع عالم الوجود بما فيه الفواصل التي تقع ما بين النجوم - مليء من مادّة عديمة اللون والوزن تُدعى بـ «الأثير» وهي تحمل أمواج النور وتنقلها من نقطة لأُخرى، وطبقاً لهذه النظرية فإنّه لا وجود لأيّة فُرجة ولا فجوة ولا انشقاق في عالم الإيجاد والخلق، وجميع الأجرام السماوية والكواكب السيارة تموج في الأثير!

وبالطبع فإنّه لا منافاة بين هذه التفاسير الثلاثة وإن كانت النظرية الثالثة التي تعتمد على فرضية الأثير لا يعوّل عليها ولا يمكن الركون إليها، لأنّ موضوع الأثير ما يزال قيد الدرس ولم يثبت بصورة قطعيّة عند جميع العلماء لحدّ الآن!

ثمّ تشير الآيات إلى عظمة الأرض فتقول: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾.

أجل، خلق الأرض من جهة، ثمّ اتّساعها «وخروجها من تحت الماء» من جهة أُخرى، ووجود الجبال «الرواسي» عليها وارتباط بعضها ببعض كأنّها السلاسل التي تشدّ الأرض وتحفظها من الضغوط الداخلية والخارجية والجزر والمدّ الحاصلين من جاذبية الشمس والقمر من جهة ثالثة... ووجود أنواع النباتات بما فيها من عجائب واتّساق وجمال من جهة رابعة جميعها تدلّ على قدرته اللاّمحدودة[1].

والتعبير بـ ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ إشارة إلى مسألة الزوجية في عالم النباتات التي لم تكن معروفة كأصل كلّي حين نزول الآيات محلّ البحث، وبعد قرون وسنين متطاولة استطاع العلم أن يميط النقاب عنها، أو أنّه إشارة إلى اختلاف النباتات وأنواعها المتعدّدة، لأنّ التنوّع والاختلاف في عالم النبات عجيب ومذهل.

أمّا الآية التالية فهي بمثابة الاستنتاج إذ تقول: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[2].

أجل إنّ من له القدرة على خلق السماوات بما فيها من عظمة وجمال وجلال، والأرض بما فيها من نعمة وجمال ودقّة، كيف لا يمكنه أن يلبس الموتى ثوب الحياة مرّة أُخرى وأن يجعل لهم معاداً وحياة أُخرى!؟

---

(١) كنّا قد بحثنا فوائد إيجاد الجبال واتّساع الأرض وبسطها وزوجية النباتات بحثاً مفصّلاً في سورة الرعد ذيل الآية (٣).

(٢) يمكن أن تكون تبصرة مفعولاً لأجله كما يمكن أن تكون مفعولاً مطلقاً... إلاّ أنّ الاحتمال الأوّل أنسب، ومثل هذا يقع الكلام على كلمة ﴿وَذِكْرَىٰ﴾.

ترى أليست هذه القدرة المذهلة العظيمة دليلاً واضحاً على إمكان المعاد؟!

أمّا الآية التالية ففيها استدلال آخر على هذا الأمر إذ تقول: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾.

«الجنّات» هنا إشارة إلى بساتين الثمار، أمّا ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ فإشارة إلى الحبوب التي تعدّ مادّة أساسيّة لغذاء الإنسان كالحنطة والشعير والذرّة وغيرها.

ثمّ تضيف الآية: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ كلمة: ﴿بَاسِقَاتٍ﴾ جمع باسقة بمعنى الشجرة المرتفعة العالية و«الطلع» ثمر النخل وما يكون منه الرطب والتمر بعدئذ، وكلمة «النضيد» معناها المتراكم بشكل دقيق، والمعروف أنّ عذق النخل قبل أن ينشقّ، يحمل داخله طلعاً متراكباً متراكماً وحين ينشقّ هذا الطلع يكون مذهلاً وعجيباً.

والآية الأخيرة من الآيات محلّ البحث تقول: ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾[1].

وهكذا فإنّ هذه الآيات ضمن بيان النعم العظمى للعباد وتحريك إحساس الشكر فيهم في مسير المعرفة تذكّرهم بأنّهم يرون مثلاً للمعاد كلّ سنة في حياتهم في هذه الدنيا، فالأرض الميتة الخالية واليابسة تهتزّ وتنبت النباتات عليها عند نزول قطرات الغيث وكأنّ أصداء القيامة تترنّم على شفاه النباتات قائلة: «وحده لا شريك له».

فهذه الحركة العظيمة نحو الحياة في عالم النباتات تكشف عن هذه الحقيقة، وهي أنّ بارىء عالم الموجودات قادر على إحياء الموتى مرّةً أخرى، لأنّ وقوع الشيء أقوى دليل على إمكانه!.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾

---

(١) بحثنا هذا الموضوع في آيات أُخرى أيضاً فراجع ذيل الآية (٩) من سورة فاطر وذيل الآيات الأخيرة من سورة (يس).

التّفسير

لست وحدك المبتلى بالعدوّ

تعالج هذه الآيات مسألة المعاد من خلال نوافذ متعدّدة! ففي البداية ومن أجل تثبيت قلب النّبي ﷺ وتسليته تقول: لست وحدك المرسل الذي كذّبه الكفّار وكذّبوا محتوى دعواته ولا سيّما المعاد فإنّه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾!.

وجماعة «ثمود» هم قوم صالح النّبي العظيم إذ كانوا يقطنون منطقة «الحجر» شمال الحجاز.

أمّا «أصحاب الرسّ» فهناك أقوال عند المفسّرين، فالكثير من المفسّرين يعتقدون أنّهم طائفة كانت تقطن اليمامة، وكان عندهم نبيّ يُدعى حنظلة فكذّبوه. وألقوه في البئر في آخر الأمر «من معاني الرسّ هو البئر» والمعنى الآخر الأثر اليسير الباقي من الشيء، وقد بقي من هؤلاء القوم الشيء اليسير في ذاكرة التاريخ!.

ويرى بعض المفسّرين أنّهم «قوم شعيب» لأنّهم كانوا يحفرون الآبار، ولكن مع الالتفات إلى أنّ «أصحاب الأيكة» المذكورين في الآيات التالية هم قوم شعيب أنفسهم ينتفي هذا الاحتمال أيضاً.

وقال بعض المفسّرين: هم بقايا قوم - صالح - أي ثمود، ومع الالتفات إلى ذكر ثمود على حدة في الآية فإنّ هذا الاحتمال يبدو بعيداً أيضاً.

فعلى هذا يكون التّفسير الأوّل هو الأنسب، وهو ما اشتهر على أقلام المفسّرين وألسنتهم!.

ثمّ يضيف القرآن قائلاً: ﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ والمراد بإخوان لوط هم قومه، وقد عبّر القرآن عن لوط بأنّه أخوهم، وهذا التعبير مستعمل في اللغة العربية بشكل عام.

وكذلك من بعدهم: ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾. والأيكة: معناها الأشجار الكثيرة المتداخلة ببعضها ببعض - أو الملتفّة أغصانها - و«أصحاب الأيكة» هم طائفة من قوم شعيب كانوا يقطنون منطقة غير «مدين» وهي منطقة ذات أشجار كثيرة[1]!

والمراد من ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ طائفة من أهل اليمن، لأنّ «تبّع» لقب لملوك اليمن، باعتبار

---

(١) لمزيد الإيضاح يراجع ذيل الآيتين (٧٨) من سورة الحجر و(١٧٦) من سورة الشعراء.

أنّ هؤلاء القوم يتبعون ملوكهم، وظاهر تعبير القرآن هنا وفي آية أُخرى منه (٣٧) - الدخان هو ملك مخصوص من ملوك اليمن اسمه (أسعد أبو كرب) كما نصّت عليه بعض الرّوايات، ويعتقد جماعة من المفسّرين بأنّه كان رجلاً صالحاً مؤمناً يدعو قومه إلى اتّباع الأنبياء، إلاّ أنّهم خالفوه[1].

ثمّ إنّ الآية هذه أشارت إلى جميع من ذكرتهم من الأقوام الثمانية فقالت: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾.

وما نراه في النصّ من أنّ جميع هؤلاء كذّبوا الرسل والحال أنّ كلّ قوم كذّبوا رسولهم فحسب، لأنّ الفعل الصادر منهم جميعاً التكذيب نال الأنبياء جميعاً وإن كان كلّ قوم قد كذّبوا نبيّهم وحده في زمانهم.

أو لأنّ تكذيب أحد النّبيين والرسل يعدّ تكذيباً لجميع الرسل، لأنّ محتوى دعوتهم سواء.

وعلى كلّ حال، فإنّ هؤلاء الأُمم كذّبوا أنبياءهم وكذّبوا مسألة المعاد والتوحيد أيضاً، وكانت عاقبة أمرهم نُكراً ووبالاً عليهم، فمنهم من ابتلي بالطوفان، ومنهم من أخذته الصاعقة، ومنهم من غرق بالنيل، ومنهم من خُسفت به الأرض أو غير ذلك، وأخيراً فإنّهم ذاقوا ثمرة تكذيبهم المرّة!! فكن مطمئناً يارسول الله أنّه لو واصل هؤلاء تكذيبهم لك فلن يكونوا أحسن حالاً من السابقين.

ثمّ يشير القرآن إلى دليل آخر من دلائل إمكان النشور ويوم القيامة فيقول: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ﴾[2].

ثمّ يضيف القرآن: إنّهم لا يشكّون ولا يتردّدون في الخلق الأوّل لأنّهم يعلمون أنّ خالق الإنسان هو الله ولكنّهم يشكّون في المعاد مع كلّ تلك الدلائل الواضحة: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾.

وفي الحقيقة إنّهم في تناقض بسبب هوى النفس والتعصّب الأعمى، فمن جهة يعتقدون بأنّ خالق الناس أوّلاً هو الله إذ خلقهم من تراب، إلاّ أنّهم من جهة أُخرى حين يقع الكلام على المعاد وخلق الإنسان ثانية من التراب يعدّون ذلك أمراً عجيباً ولا يمكن

---

(١) لمزيد الإيضاح يراجع ذيل الآية (٣٧) من سورة الدخان.

(٢) في الجملة الآنفة إيجاز حذف وتقدير الكلام في تماميته أن يقال «أفعيينا بالخلق الأوّل حتى نعجز عن الثاني».

تصوّره وقبوله، في حين أنّ الأمرين متماثلان: «وحكم الأمثال في ما يجوز وما لا يجوز واحد».

وهكذا فإنّ القرآن يستدلّ على المعاد في هذه الآيات والآيات الآنفة بأربعة طرق مختلفة، فتارةً عن طريق علم الله، وأُخرى عن طريق قدرته، وثالثة عن طريق تكرّر صور المعاد ومشاهده في عالم النباتات، وأخيراً عن طريق الالتفات إلى الخلق الأوّل.

ومتى ما عُدنا إلى آيات القرآن الأُخر في مجال المعاد وجدنا هذه الأدلّة بالإضافة إلى أدلّة أُخر وردت في آيات مختلفة وبصورة مستقلّة، وقد أثبت القرآن المعاد بالمنطق القويم والتعبير السليم والأُسلوب الرائع (القاطع) للمنكرين وبيّنه بأحسن وجه... فلو خضعوا لمنطق العقل وتجنّبوا الأحكام المسبقة والتعصّب الأعمى والتقليد الساذج فسرعان ما يذعنون لهذه المسألة وسيعلمون بأنّ المعاد أو يوم القيامة ليس أمراً ملتوياً وعسيراً.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾

التّفسير

كتابه جميع الأقوال

يُثار في هذه الآيات قسم آخر من المسائل المتعلّقة بالمعاد، وهو ضبط أعمال الإنسان وإحصاؤها لتعرض على صاحبها عند يوم الحساب.

تبدأ الآيات فتتحدّث عن علم الله المطلق وإحاطته بكلّ شيء فتقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾.

كلمة ﴿تُوَسْوِسُ﴾ مشتقّة من الوسوسة وهي - كما يراه الراغب في مفرداته - الأفكار غير المطلوبة التي تخطر بقلب الإنسان، وأصل الكلمة «الوسواس» ومعناه الصوت الخفي وكذلك صوت أدوات الزينة وغيرها.

والمراد من الوسوسة في الآية هنا هي أنّ الله لمّا كان يعلم بما يخطر في قلب

الإنسان والوساوس السابحة في أفكاره، فمن البديهي أنّه عالم بجميع عقائده وأعماله وأقواله، وسوف يحاسبه عليها يوم القيامة.

وجملة ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يمكن أن تكون إشارةً إلى أنّ خالق البشر محال أن لا يعلم بجزئيات خلقه! الخلق الدائم والمستمر، لأنّ الفيض أو الجود منه يبلغ البشر لحظة بعد لحظة، ولو انقطع الفيض لحظة لهلكنا، كنور الشمس الذي ينتشر في الفضاء من منبع الفيض وهو الكرة الشمسية «بل كما سنبيّن فإنّ ارتباطنا بذاته المقدّسة أسمى ممّا مثّلنا - (بنور الشمس)».

أجل، هو الخالق، وخلقه دائم ومستمر ونحن مرتبطون به في جميع الحالات، فمع هذه الحال كيف يمكن أن لا يعلم باطننا وظاهرنا؟!

ويضيف القرآن لمزيد الإيضاح في ذيل الآية قائلاً: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾.

ما أبلغ هذا التعبير!! فحياتنا الجسمانية متعلّقة بعصب يوصل الدم إلى القلب ويخرجه منها بصورة منتظمة وينقله إلى جميع أعضاء البدن، ولو توقّف هذا العمل لحظة واحدة لمات الإنسان... فالله أقرب إلى الإنسان من هذا العصب المسمّى بحبل الوريد.

وهذا ما أشار إليه القرآن في مكان آخر إذ قال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(١).

وبالطبع فإنّ هذا كلّه تشبيه تقريبي، والله سبحانه أقرب من ذلك وأسمى رغم كون المثال المذكور أبلغ تصوير محسوس على شدّة القرب، فمع هذه الإحاطة لله تعالى بمخلوقاته، وكوننا في قبضة قدرته، فإنّ تكليفنا واضح، فلا شيء يخفى عليه لا الأفعال ولا الأقوال ولا الأفكار والنيّات ولا تخفى عليه حتى الوساوس التي تخطر في القلوب!

إنّ الالتفات إلى هذه الحقيقة يوقظ الإنسان، ويكون على بيّنة من أمره وما هو مذخور له في صحيفة أعماله عند محكمة عدل الله... فيتحوّل من إنسان غافل إلى موجود واع ملتزم ورع تقيّ... ورد في حديث أنّ أبا حنيفة جاء إلى الصادق عليه السلام يوماً فقال: رأيت ولدك موسى يصلّي والناس يعبرون من أمامه إلاّ أنّه لم ينههم عن ذلك، مع أنّ هذا العمل غير صحيح!.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

فقال الصادق عليه السلام : ادعوا لي ولدي موسى فدُعي له فكرّر الإمام الصادق حديث أبي حنيفة لولده موسى بن جعفر فأجاب موسى بن جعفر قائلاً : إنّ الذي كنت أُصلّي له كان أقرب إليّ منهم يقول الله عزّ وجلّ : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ . . . فاحتضنه الإمام الصادق وقال: بأبي أنت وأُمّي يا مستودع الأسرار[١].

وللمفسّرين آراء عديدة في معنى ﴿الْوَرِيدِ﴾ . . . فمنهم من يعتقد بأنّ ﴿الْوَرِيدِ﴾ هو العصب المتّصل بقلب الإنسان أو كبده، ويعتقد بعضهم بأنّ الوريد جميع الأعصاب في بدن الإنسان. . . في حين أنّ بعضهم يعتقد بأنّه عصب الرقبة فحسب!

إلاّ أنّ التّفسير الأوّل يبدو أكثر تناسباً، ولا سيّما إذا لاحظنا الآية ٢٤ من سورة الأنفال آنفة الذكر!

وكلمة ﴿الْوَرِيدِ﴾ - ضمناً - مأخوذة من الورود، ومعناه الذهاب نحو الماء، وحيث إنّ الدم يرد من هذا العصب إلى القلب ويخرج منه إلى سائر أعضاء بدن الإنسان سمّي بالوريد.

ولكن ينبغي الالتفات إلى أنّ الاصطلاح المتداول في هذا العصر في شأن «الوريد والشريان» - يعني المجاري التي توصل الدم من سائر أعضاء الجسم إلى قلب الإنسان، وبالعكس - هذا الاصطلاح خاصّ بعلم الأحياء ولا علاقة له بالمفهوم اللغوي للوريد.

ويضيف القرآن في الآية التالية قائلاً: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾[٢].

أي أنّه بالإضافة إلى إحاطة علم الله «التامّة» على ظاهر الإنسان وباطنه، فهنالك ملكان مأموران بحفظ ما يصدر منه عن يمينه وشماله، وهما معه دائماً ولا ينفصلان عنه لتتمّ الحجّة عليه عن هذا الطريق أكثر، ولتتأكّد مسألة الحساب (حساب الأعمال).

كلمة «تلقّى» معناها الأخذ والتسلّم، و﴿الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ هما ملكان مأموران بكتابة أعمال الناس.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص١٠٨، ح ١٨.

(٢) كلمة إذ في جملة ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ ظرف متعلّق بمحذوف وتقديره واذكروا إذ يتلقّى المتلقّيان ولهذا المعنى ذهب إليه جماعة من المفسّرين، إلاّ أنّ جماعة أُخرى يرون بأنّ إذ متعلّقة بكلمة أقرب الواردة في الآية الآنفة إلاّ أنّ التّفسير الأوّل يبدو أصحّ لأنّ كلاً من الجملتين ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ و﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ إلخ تحتفظ باستقلالها دون أن يتقيّد كلّ بالأُخرى ولا يتناسب الصدر والذيل في التّفسير الثاني.

وكلمة ﴿قَعِيدٌ﴾ مأخوذة من القعود ومعناها «جالس»[(١)] والمراد بالقعيد هنا الرقيب والملازم للإنسان، وبتعبير آخر إنّ الآية هذه لا تعني أنّ الملكين جالسان عن يمين الإنسان وعن شماله، لأنّ الإنسان يكون في حال السير تارةً، وأُخرى في حال الجلوس، بل التعبير هنا هو كناية عن وجودهما مع الإنسان وهما يترصدّان أعماله.

ويحتمل أيضاً أنّهما قعيدان على كتفي الإنسان الأيمن والأيسر، أو أنّهما قعيدان عند نابيه أو ناجذيه دائماً ويسجّلان أعماله، وهناك إشارة إلى هذا المعنى في بعض الرّوايات غير المعروفة «كما في بحار الأنوار ج ٥٩ ص ١٨٦ الرّواية ٣٢».

وممّا يجدر التنويه عليه أنّه ورد في الرّوايات الإسلامية أنّ ملك اليمين كاتب الحسنات، وملك الشمال كاتب السيّئات، وصاحب اليمين أميرٌ على صاحب الشمال، فإذا عمل الإنسان حسنةً كتبها له صاحب اليمين بعشر أمثالها، وإذا عمل سيّئة فأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال له صاحب اليمين أمسك فيمسك عنه سبع ساعات، فإذا استغفر الله منها لم يكتب عليه شيء، وإن لم يستغفر الله كتب له سيّئة واحدة[(٢)].

كما يظهر من بعض الرّوايات أنّهما يقولان بعد موت المؤمن: ربّنا قبضت روح عبدك فإلى أين؟ قال: سمائي مملوءة بملائكتي يعبدونني وأرضي مملوءة من خلقي يطيعونني اذهبا إلى قبر عبدي فسبّحاني وكبّراني وهلّلاني فاكتبا ذلك في حسنات عبدي[(٣)].

وفي رواية أُخرى عن النّبي ﷺ أنّه قال: «ما من أحد من المسلمين يبتلى ببلاء في جسده إلاّ أمر الله تعالى الحفظة فقال: اكتبوا لعبدي ما كان يعمل وهو صحيح ما دام مشدوداً في وثاقي - ثمّ أضاف ﷺ - من مرض أو سافر كتب الله تعالى له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً»[(٤)].

وهذه الرّوايات جميعها إشارة إلى لطف الله الواسع.

أمّا آخر آية من الآيات محلّ البحث فتتحدّث عن الملكين أيضاً فتقول: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[(٥)].

---

(١) كلمة ﴿قَعِيدٌ﴾ مفردة مع أنّ كلمة المتلقّيان تثنية لأنّ في الآية حذفاً وتقديرها إذ يتلقّى المتلقّيان عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد» وقد وقع هذا الحذف بقرينة ذكر الآخر.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ١٤٤. (٣) المصدر السابق.

(٤) تفسير روح المعاني، ج ٢٦، ص ١٦٥ ذيل الآيات محل البحث، وهذا المضمون نفسه منقول عن الإمام الصادق في كتاب الكافي وكذلك بحار الأنوار، ج ٥٩، ص ١٨٧ في الرّوايتين ٣٤ و٣٥».

(٥) الضمير في لديه يرجع إلى كلمة قول كما يحتمل أن يكون عائداً على الذي يلفظ القول، إلاّ أنّ الاحتمال الأوّل أنسب.

وكان الكلام في الآية الآنفة عن كتابة جميع أعمال الإنسان، وفي هذه الآية اهتمام بخصوص ألفاظه، وهذا الأمر هو للأهميّة القصوى للقول وأثره في حياة الناس، حتى أنّ جملة واحدة أو عبارة قصيرة قد تؤدّي إلى تغيير مسير المجتمع نحو الخير أو الشرّ!! كما أنّ بعض الناس لا يعتقدون بأنّ الكلام جزء من أعمالهم ويرون أنفسهم أحراراً في الكلام مع أنّ أكثر الأُمور تأثيراً وأخطرها في حياة الناس هو الكلام!.

فبناءً على ذلك فإن ذكر هذه الآية بعد الآية المتقدّمة هو من قبيل ذكر الخاص بعد العام.

كلمة «الرقيب» معناها المراقب و«العتيد» معناها المتهيىء للعمل، لذلك يطلق على الفرس المعدّة للركض بأنّها فرس عتيد كما يطلق على من يعدّ شيئاً أو يدّخره بأنّه عتيد، وهي من مادّة العتاد على زنة الجهاد ومعناها الادّخار!.

ويعتقد أغلب المفسّرين أنّ الرقيب والعتيد إسمان للملكين المذكورين في الآية المتقدّمة وهما ﴿ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ فاسم ملك اليمين ﴿رَقِيبٌ﴾ واسم ملك الشمال ﴿عَتِيدٌ﴾، وبالرغم من أنّ الآية محلّ البحث ليس فيها قول صريح على هذا الأمر، إلاّ أنّ هذا التّفسير وبملاحظة مجموع الآيات يبدو غير بعيد!

ولكن أيّ كلام يكتب هذان الملكان؟ هناك أقوال بين المفسّرين قال بعضهم يكتبان كلّ كلام حتى الصرخات من الألم، في حين أنّ بعضهم الآخر يعتقد بأنّهما يكتبان ألفاظ الخير والشرّ والواجب والمستحبّ أو الحرام والمكروه، ولا يكتبان ما هو مباح!

إلاّ أنّ عموميّة التعبير يدلّ على أنّ الملكين يكتبان كلّ لفظ وقول يقوله الإنسان.

الطريف أنّنا نقرأ روايةً عن الإمام الصادق يقول فيها: «إنّ المؤمنَين إذا قعدا يتحدّثان قالت الحفظة بعضها لبعض اعتزلوا بنا فلعلّ لهما سرّاً وقد ستر الله عليهما!

يقول الراوي: ألم يقل الله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ فيجيب الإمام عليه السلام: إن كانت الحفظة لا تسمع فإنّ عالم السرّ يسمع ويرى»(١).

ويستفاد من هذه الرّوايات أنّ الله سبحانه يكتم بعض أحاديث المؤمن التي فيها (جانب سرّي) احتراماً وإكراماً له، إلاّ أنّه حافظ لجميع هذه الأسرار.

ويستفاد من بعض الرّوايات أنّ حفظة الليل غير حفظة النهار، كما بيّنا هذا المعنى في تفسير الآية ٧٨ من سورة الإسراء من نفس هذا التّفسير.

---

(١) أُصول الكافي طبقاً لما نقل في تفسير نور الثقلين، ج٥، ص١١٠.

بحث

الحبيب أقرب إلى الإنسان من نفسه!!

يقول بعض الفلاسفة: كما أنّ شدّة البعد توجب الخفاء فإنّ شدّة القرب كذلك، فمثلاً لو كانت الشمس بعيدة عنّا جدّاً لما رأيناها ولو كانت قريبة منّا جدّاً أو اقتربنا منها كثيراً فإنّ نورها سيذهلنا إلى درجة بحيث لا نستطيع رؤيتها.

وفي الحقيقة إنّ ذات الله المقدّسة كذلك: «يا من هو اختفى لفرط نوره»!.

وفي الآيات محلّ البحث تشبيه رائع لقرب الله إلى العباد إذ قالت حاكية عنه سبحانه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ أي أنّ الله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد.

والتشبيهات التي تقول مثلاً العالم جميعه جسم والله روحه، أو العالم كشعاع الشمس وهو قرصها وأمثال هذه لا يمكن أن توضّح العلاقة القريبة كما وصفتها الآية.

ولعلّ أفضل تعبير هو ما ورد على لسان أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته الأُولى من نهج البلاغة إذ قال عنه سبحانه: «مع كلّ شيء لا بمقارنة وغير كلّ شيء لا بمزايلة».

وقد شبّه بعض الفلاسفة لبيان هذا القرب تشبيهاً آخر، فقالوا إنّ ذات الله المقدّسة هي المعنى الاسمي والموجودات هي المعنى الحرفي.

وتوضيح ذلك:

حين نقول: توجّه إلى الكعبة، فإنّ كلمة (إلى) لا مفهوم لها وحدها، وما لم تضف الكعبة إليها فستبقى مبهمة، فعلى هذا ليس للمعنى الحرفي مفهوم إلاّ تبعاً للمفهوم الاسمي، فوجود جميع موجودات العالم على هذه الشاكلة، إذ دون ارتباطها بذاته لا مفهوم لها ولا وجود ولا بقاء لها أصلاً... وهذا يدلّ على نهاية قرب الله إلى العباد وقربهم إليه وإن كان الجهلة غافلين عن ذلك.

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾

التّفسير

القيامة، والبصر الحديد

تعكس الآيات أعلاه مسائل أُخرى تتعلّق بيوم المعاد: «مشهد الموت» و«النفخ في الصور» و«مشهد الحضور في المحشر»!

فتقول أوّلاً: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾.

﴿سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾: هي حال تشبه حالة الثمل السكران إذ تظهر على الإنسان بصورة الاضطراب والانقلاب والتبدّل، وربّما استولت هذه الحالة على عقل الإنسان وسلبت شعوره وإختياره.

وكيف لا تكون كذلك مع أنّ الموت مرحلة انتقالية مهمّة ينبغي أن يقطع الإنسان فيها جميع علائقه بالدنيا التي تعلّق بها خلال سنين طويلة، وأن يخطو في عالم جديد عليه مليء بالأسرار، خاصّة أنّ الإنسان - لحظة الموت - يكون عنده إدراك جديد وبصر حديد - فهو يلاحظ عدم استقرار هذا العالم بعينيه ويرى الحوادث التي بعد الموت، وهنا تتملّكه حالة الرعب والاستيحاش من قرنه إلى قدمه فتراه سَكِراً وليس بسكر[(١)].

حتى الأنبياء وأولياء الله الذين يواجهون حالة النزع والموت باطمئنان كامل ينالهم من شدائد هذه الحالة نصيب، ويصابون ببعض العقبات في حالة الانتقال، كما قد ورد في حالات انتقال روح النّبي الأكرم ﷺ إلى بارئها عند اللحظات الأخيرة من عمره الشريف المبارك أنّه كان يدخل يده في إناء فيه ماء ويضعها على وجهه ويقول: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ثمّ يقول: (إنّ للموت سكرات)[(٢)].

وللإمام علي كلام بليغ يرسم لحظة الموت وسكراتها بعبارات حيّة بليغة إذ يقول: «اجتمعت عليهم سكرات الموت وحسرت الفوت ففترت لها أطرافهم وتغيّرت لها ألوانهم ثمّ ازداد الموت فيهم ولوجاً فحيل بين أحدهم ومنطقه وأنّه لبيّن أهله ينظر ببصره ويسمع بأُذنه على صحّة من عقله وبقاء من لبّه يفكّر فيم أفنى عمره؟ وفيم أذهب دهره؟

---

(١) السَّكر - على زنة المكر - معناه في الأصل سدّ طريق الماء، والسِّكر - على زنة الفكر - معناه المحلّ المسدود، وحيث إنّ حالة الثمل تقع حاجزاً وسدّاً بين الإنسان وعقله فقد سمّيت بالسُّكر على زنة الشُّكر.

(٢) تفسير روح المعاني، ج٩، ص١١٨.

ويتذكّر أموالاً جمعها أغمض في مطالبها وأخذها من مصرحاتها ومشتبهاتها قد لزمته تبعات جمعها وأشرف على فراقها تبقى لمن وراءه ينعمون فيها ويتمتّعون بها»(١).

كما أنّ هذا المعلّم الكبير ينذر في مكان آخر البشرية فيقول: «إنّكم لو عاينتم ما قد عاين من مات منكم لجزعتم ووهلتم وسمعتم وأطعتم ولكن محجوب عنكم ما قد عاينوا وقريب ما يطرح الحجاب»(٢).

ثمّ يضيف القرآن في ذيل الآية قائلاً: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾(٣) أجل إنّ الموت حقيقة يهرب منها أغلب الناس لأنّهم يحسبونه فناءً لا نافذةً إلى عالم البقاء، أو أنّهم لعلائقهم وارتباطاتهم الشديدة بالدنيا والمواهب المادية التي لهم فيها لا يستطيعون أن يصرفوا قلوبهم عنها، أو لسواد صحيفة أعمالهم.

أيّاً كان فهم منه يهربون. . . ولكن ما ينفعهم ومصيرهم المحتوم في انتظار الجميع ولا مفرّ لأحد منه، ولابدّ أن ينزلوا إلى حفرة الموت ويقال لهم هذا ما كنتم منه تفرّون!!.

وقائل هذا الكلام ربّما هو الله أو الملائكة أو الضمائر اليقظة أو الجميع!.

والقرآن بيّن هذه الحقيقة في آيات أُخر كما هو في الآية (٧٨) من سورة النساء إذ يقول: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾!.

وقد ينسى الإنسان المغرور جميع الحقائق التي يراها بأُمّ عينيه على أثر حبّ الدنيا وحبّ الذات حتى يبلغ درجةً يقسم فيها أنّه خالد كما يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾(٤).

ولكن سواء أقسم أم لم يقسم، وصدّق أم لم يصدّق فإنّ الموت حقيقة تحدق بالجميع وتحيق بهم ولا مفرّ لهم منها.

ثمّ يتحدّث القرآن عن النفخ في الصور فيقول: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾.

والمراد من «النفخ في الصور» هنا هو النفخة الثانية، لأنّه كما نوّهنا آنفاً فإنّ الصور ينفخ فيه مرّتين: فالنفخة الأُولى تدعى بنفخة الفَزَع أو الصعَق وهي التي تكون في نهاية الدنيا ويموت عند سماعها جميع الخلق ويتلاشى نظام العالم الدنيوي، والنفخة الثانية هي

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٠٩. (٢) المصدر السابق، الخطبة ٢٠.
(٣) كلمة تحيد مشتقّة من مادّة حيد - على وزن صيد - ومعناها العدول عن الشيء والفرار منه.
(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٤٤.

نفخة «القيام والجمع والحضور» وتكون في بداية البعث والنشور والقيامة وبها يحيى الناس جميعهم ويخرجون «وينسلون» من الأجداث والقبور إلى ربّهم وحساب «عدله» وجزائه.

«النفخ» معناه معروف، و«النفخة» تعني المرة الواحدة منه، و«الصور» هو المزمار أو «البوق» والذي يستعمل في القضايا العسكرية عادةً لجمع الجنود أو تفريقهم أو الاستعداد أو الذهاب للراحة والنوم، واستعماله في صور إسرافيل نوع من الكناية والتشبيه «وقد بيّنا تفصيل هذا الموضوع في ذيل الآية (٦٨) من سورة الزمر».

وعلى كلّ حال، فمع الالتفات وملاحظة جملة ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ يتّضح أنّ المراد من نفخة الصور هنا هو النفخة الثانية ويوم النشور والقيامة.

وفي الآية التالية بيان لحال الناس يوم المحشر بهذه الصورة: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾.

فالسائق يسوقه نحو محكمة عدل الله، والشهيد يشهد على أعماله! وهي كمحاكم هذا العالم إذ يسوق المأمورون المتّهمين ويأتون معهم للمحكمة ويشهد عليهم الشهود.

واحتمل بعض المفسّرين أنّ السائق هو من يسوق الصالحين نحو الجنّة والطالحين نحو جهنّم، ولكن مع ملاحظة كلمة «الشهيد» معها يكون المعنى الأوّل وهو السوق نحو محكمة عدل الله أنسب.

ولكن من هما السائق والشهيد؟ أهما «ملكان» من الملائكة أو سواهما، هناك تفاسير متعدّدة.

قال بعضهم: إنّ «السائق» هو الملك الذي يكتب الحسنات، و«الشهيد» هو الملك الذي يكتب السيّئات، فيكون المراد بهما الملكين الوارد ذكرهما في الآيات المتقدّمة.

ويستفاد من بعض الرّوايات أنّ «السائق» ملك الموت و«الشهيد» رسول الله ﷺ ولكن هذه الرّواية مع ملاحظة لحن الآيات تبدو ضعيفة.

وقال بعضهم: «السائق» الملك الذي يسوق كلّ إنسان و«الشهيد» عمل الإنسان.

كما قيل إنّ «السائق» ملك و«الشهيد» أعضاء جسم الإنسان أو صحيفة أعماله أو الكتاب الذي في عنقه.

ويحتمل أنّ السائق والشهيد ملك واحد، وعطف اللفظين بعضهما على الآخر هو لاختلاف الوصفين، أي أنّ مع الإنسان ملكاً يسوقه إلى محكمة عدل الله ويشهد عليه أيضاً.

إلاّ أنّ أغلب هذه التفاسير مخالف لظاهر الآية، وظاهر الآية كما فهم منه أغلب المفسّرين أنّ ملكين يأتيان مع كلّ إنسان، فواحد يسوقه والآخر يشهد على أعماله.

ومن الواضح أنّ شهادة بعض الملائكة لا تنفي وجود شهادة أُخرى لبعض الشهود في يوم القيامة، الشهود الذين هم من قبيل الأنبياء وأعضاء البدن، وصحائف الأعمال والزمان والمكان اللذين وقع عمل الإنسان فيهما أو أثم فيهما.

وعلى كلّ حال فالملك الأوّل يمنع الإنسان عن الفرار، والملك الثاني يمنع عن الإنكار، وهكذا فإنّ كلّ إنسان في ذلك اليوم مبتلى بأعماله ولا مفرّ له من جزاء أعماله أبداً.

وهنا يخاطب المجرمون أو جميع الناس (فرداً فرداً) فيقال: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

أجل، إنّ أستار عالم المادّة من الآمال والعلاقة بالدنيا والأولاد والمرأة والأنانية والغرور والعصبية والجهل والعناد وحبّ الذات لم تكن تسمح أن تنظر إلى هذا اليوم مع وضوح دلائل المعاد والنشور، فهذا اليوم ينفض عنك غبار الغفلة، وتماط عنك حجب الجهل والتعصّب واللجاجة، وتنشقّ أستار الشهوات والآمال، وما كان مستوراً وراء حجاب الغيب يبدو ظاهراً اليوم، لأنّ هذا اليوم يوم البروز ويوم الشهود ويوم تبلى السرائر!

ولذلك فقد وجدت عيناً حادّة البصر ويمكن أن تدرك جميع الحقائق بصورة جيّدة.

أجل، إنّ وجه الحقيقة لم يكن مخفياً ولا لثام على جمال الحبيب، ولكن ينبغي أن ينفض غبار الطريق ليمكن رؤيته.

إلاّ أنّ الغرق في بحر الطبيعة والابتلاء بأنواع الحجب لا يسمحان للإنسان أن يرى الحقائق بصورة واضحة، لكنّه في يوم القيامة حيث تنقطع كلّ هذه العلائق فمن البديهي أن يحصل للإنسان إدراك جديد ونظرة ثاقبة، وأساساً فإنّ يوم القيامة يوم الظهور وبروز الحقائق!

حتى في هذه الدنيا يستطيع البعض تخليص أنفسهم من قبضة الأهواء واتّباع الشهوات وأن يلقوا الحجب عن عيون قلوبهم فيرزقوا بصراً حديداً يرون به الحقائق، أمّا أبناء الدنيا فمحرومون منه.

وينبغي الالتفات إلى أنّ الحديد نوع من المعدن كما يطلق على السيف والمُدية، ثمّ

توسّعوا فيه فأطلقوه على حدّة البصر وحدّة الذكاء، ومن هنا يظهر أنّ المراد بالبصر ليس العين الحقيقية الظاهرة، بل بصر العقل والقلب.

يقول الإمام علي عليه السلام في أولياء الله في أرضه: «هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين واستلانوا ما استعوره المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلّقة بالمحل الأعلى أُولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه»[١].

بحوث

١ - حقيقة الموت

يتصوّر أغلب الناس أنّ الموت أمر عدمي ومعناه الفناء، إلاّ أنّ هذه النظرة لا تنسجم مع ما ورد في القرآن المجيد وما تدلّ عليه الدلائل العقلية ولا توافقها أبداً.

فالموت في نظر القرآن أمر وجودي، وهو انتقال وعبور من عالم إلى آخر، ولذلك عُبّر عن الموت في كثير من الآيات بـ«تُوفّي» ويعني تسلّم الروح واستعادتها من الجسد بواسطة الملائكة.

والتعبير في الآيات المتقدّمة ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ هو إشارة إلى هذا المعنى[٢] أيضاً، وقد جاء في بعض الآيات التعبير عن الموت بالخلق: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ (الملك - ٢).

وهناك تعبيرات متعدّدة عن حقيقة الموت في الرّوايات الإسلامية، ففي رواية أنّ الإمام علي بن الحسين سئل: ما الموت؟ فقال عليه السلام: «للمؤمن كنزع ثياب وسخة قملة وفكّ قيود وأغلال ثقيلة والاستبدال بأفخر ثياب وأطيبها روائح وأوطىء المراكب وآنس المنازل وللكافر كخلع ثياب فاخرة والنقل عن منازل أنيسة والاستبدال بأوسخ الثياب وأخشنها وأوحش المنازل وأعظم العذاب»[٣].

---

(١) نهج البلاغة - الكلمات القصار - الكلمة ١٤٧.

(٢) في المراد من الباء في كلمة بالحقّ هناك احتمالات عديدة، فمنهم قال معناه التعدية والحقّ معناه الموت، ويكون معنى الجملة إنّ سكرات الموت لها واقعية أي أنّ السكرات تصحب معها الموت، وقيل إنّ الباء للملابسة، أي أنّ سكرات الموت تأتي مع الحقّ.

(٣) بحار الأنوار، ج٦، ص١٥٥.

وسئل الإمام محمّد بن علي عليه السلام السؤال الآنف ذاته فقال: «هو النوم الذي يأتيكم كلّ ليلة إلاّ أنّه طويل مدّته لا ينتبه منه إلاّ يوم القيامة»[١].

وقد قلنا في المباحث المتعلّقة بالبرزخ أنّ حالات الأشخاص متفاوتة في البرزخ، فبعضهم كأنّهم يغطّون في نوم عميق، وبعضهم «كالشهداء في سبيل الله والمؤمنين الراسخين» ينعّمون بأنواع النعم بينما يعذّب الأشقياء والجبابرة بعذاب الله الأليم!

وقد بيّن الإمام الحسين عليه السلام لأصحابه حقيقة الموت يوم عاشوراء عند اشتداد المأزق والقتال بتعبير لطيف بليغ فقال: «صبراً بني الكرام، فما الموت إلاّ قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضرّاء إلى الجنان الواسعة، والنّعم الدائمة، فأيّكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر وما هو لأعدائكم إلاّ كمن ينتقل من قصر إلى سجن وعذاب، إنّ أبي حدّثني عن رسول الله إنّ الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر والموت جسر هؤلاء إلى جنانهم وجسر هؤلاء إلى جحيمهم»[٢] . . .

ونقرأ في حديث آخر أنّ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام دخل على رجل يعاني سكرات الموت ولم يُكلّم أحداً، فسأل الحاضرون الإمام موسى بن جعفر: يابن رسول الله وددنا لو عرفنا كيف الموت وكيف هو حال صاحبنا؟

فقال عليه السلام : «الموت هو المصفاة يصفّي المؤمنين من ذنوبهم فيكون آخر ألم يصيبهم كفّارة آخر وزر بقي عليهم ويصفّي الكافرين من حسناتهم فيكون آخر لذّة أو راحة تلحقهم وهو آخر ثواب حسنة تكون لهم، وأمّا صاحبكم هذا فقد نخل من الذنوب نخلاً وصفّي من الآثام تصفية وخلص حتى نقي كما ينقّى الثوب من الوسخ وصلح لمعاشرتنا أهل البيت في دارنا دار الأبد»[٣].

٢ - سكرات الموت

كان الكلام في الآيات الآنفة على سكرات الموت، وقلنا إنّ «السكرات» جمع سكرة، ومعناها الحالة التي تشبه حالة الثمل على أثر اشتداد حالة الإنسان فيضطرب منها فيرى سِكراً وليس بِسَكِر!

---

(١) بحار الأنوار [ويظهر أنّ المراد من الإمام محمّد بن علي هو الإمام التاسع محمّد الجواد عليه السلام].
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) المصدر السابق نفسه.

صحيح أنّ الموت هو للمؤمنين بداية انتقال إلى عالم أوسع مليء بمواهب الله، إلاّ أنّه مع ذلك فإنّ هذه الحالة الانتقالية ليست سهلة لأي إنسان، لأنّ روحه تطبّعت مع البدن سنين طوالاً وارتبطت به.

ولذلك فإنّه حين يسأل الإمام الصادق عليه السلام عن سبب اضطراب الجسد حين خروج الروح منه يجيب: لأنّه نما عليها البدن[١].

وهذا يشبه تماماً حالة قلع السنّ الفاسد من اللثّة، فإنّه عند قلعه يحسّ الإنسان بالألم إلاّ أنّه يشعر بالراحة بعدئذ.

ونقرأ في الرّوايات الإسلامية أنّ الإنسان يستوحش من ثلاثة أيّام، يوم يولد فيه فيرى هذا العالم الذي لم يعرفه، ويوم يموت ويرى عالم ما بعد الموت، ويوم يبعث حيّاً في عرصات القيامة فيرى أحكاماً لم يرها في هذه الدنيا... لذلك فإنّ القرآن يقول في شأن يحيى بن زكريا: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾[٢]. ويحكى على لسان عيسى ابن مريم مثل هذا الكلام، فهذان النبيّان مشمولان بعناية الله في هذه الأيّام الثلاثة!.

وبالطبع فإنّه من المسلّم به أنّ المرتبطين بهذه الدنيا يكون انتقالهم منها أصعب وقطع القلوب منها أشدّ، كما أنّ الآثمين وأصحاب الذنوب تكون عليهم سكرات الموت أكثر ألماً ومرارة!.

٣ - الموت حقّ

ليست الآيات محلّ البحث وحدها تتحدّث عن الموت بأنّه حقّ، بل هناك آيات كثيرة في القرآن تصرّح بأنّ الموت حقّ ويقين، إذ نقرأ في الآية (٩٩) من سورة الحجر ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾. وفي الآية (٤٧) من سورة المدثر نقرأ ما يشبه هذا التعبير أيضاً.

كلّ ذلك لأنّ الإنسان إذا أنكر كلّ شيء فليس بوسعه أن ينكر أنّ الموت حقّ وأنّه لابدّ أن يُطرق بابه، فالموت يطرق أبواب الجميع ويأخذهم معه أخيراً.

---

(١) بحار الأنوار، ج٦، ص١٥٨.

(٢) المصدر نفسه مع شيء من التلخيص: نقرأ في سورة مريم الآية ١٥ في شأن يحيى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ كما نقرأ في شأن عيسى بن مريم في السورة ذاتها ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾.

والالتفات - إلى حقيقة الموت - يُعدّ إنذاراً لجميع الناس ليفكّروا أكثر وأحسن ويعرفوا طريقهم المقدمين عليه وما هو أمامهم ويستعدّوا له!

الطريف أنّنا نقرأ في بعض الرّوايات أنّ رجلاً جاء إلى عمر فقال: إنّي أحبّ الفتنة وأكره الحقّ وأشهد على ما لم أره، فأمر عمر به فحُبس، فبلغ ذلك علياً عليه السلام فقال: يا عمر إنّ حبسه ظلم وقد أثمت على ذلك. فقال: ولِمَ؟ فقال علي: إنّه - يحبّ أمواله وأولاده وقد قال الله عنهما في بعض آياته إنّهما فتنة ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾(١) ويكره الموت والقرآن يعبّر عنه بأنّه حقّ ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾(٢) ويشهد بوحدانية الله وهو لم يره. فقال عمر: لولا علي لهلك عمر(٣).

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾

التّفسير

قرناء الإنسان من الملائكة والشياطين

مرّةً أُخرى ترتسم في هذه الآيات صورة أُخرى عن المعاد، صورة مثيرة مذهلة حيث إنّ الملك - قرين الإنسان - يبيّن محكومية الإنسان بين الملأ ويصدر حكم الله لمعاقبته وجزائه.

تقول الآية الأُولى من هذه الآيات: يقول صاحبه وقرينه هذا كتاب أعمال هذا الإنسان حاضر لديّ: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ فيكشف الستار عن كلّ صغيرة وكبيرة صدرت منه.

---

(١) سورة التغابن، الآية: ١٥.
(٢) سورة ق، الآية: ١٩.
(٣) تفسير روح البيان، ج٩، ص١١٨.

ولكن ما المراد من ﴿قَرِينُهُ﴾؟ للمفسّرين أقوال كثيرة، إلاّ أنّ أغلبهم يرى أنّ المراد منه هو الملك الذي يرافق الإنسان في الدنيا والذي كان مأموراً بتسجيل أعماله وضبطها ليشهد عليه هناك في محكمة عدل الله.

والآيات السابقة التي كانت تشير إلى أنّ من يرد عرصات المحشر فإنّ معه سائقاً يسوقه وشهيداً يشهد عليه، تدلّ على هذا المعنى أيضاً، زد على ذلك لحن الآية نفسها والآية التي تليها تتناسبان مع هذا المعنى أيضاً [فلاحظوا بدقّة].

إلاّ أنّ بعض المفسّرين ذكر أنّ المراد من ﴿قَرِينُهُ﴾ هو «الشيطان»، لأنّ كلمة «قرين» أُطلقت في كثير من آيات القرآن على الشيطان الذي يصطحب الإنسان فيكون معنى الآية على هذا التقدير هكذا: وقال الشيطان قرين الإنسان: «إنّني أعددت هذا المجرم لجهنّم وبذلت أقصى ما في وسعي من جهد في هذا السبيل».

إلاّ أنّ هذا المعنى لا أنّه لا يتناسب مع الآيات السابقة واللاحقة فحسب، بل لا ينسجم مع تبرئة الشيطان نفسه من إغوائه الإنسان على الذنب كما تصرّح بذلك الآية الواردة بعد عدّة آيات من هذه الآية محلّ البحث.

فطبقاً لهذا التّفسير للآية فإنّ الشيطان يعترف بمسؤوليته في إغواء الإنسان، والحال أنّ الآيات المقبلة نقرأ فيها قوله: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ فيقع التضادّ بين القولين كما تلاحظون.

وهناك تفسير ثالث وهو أبعد ممّا ذكر آنفاً ولا قرينة عليه أبداً، وهو أنّ المراد من ﴿قَرِينُهُ﴾ هو من رافق الإنسان في حياته من البشر!!

ثمّ يخاطب الله الملكين المأمورين بتسجيل أعمال الإنسان فيقول لهما: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

كلمة ﴿عَنِيدٌ﴾ مشتقّة من العناد، ومعناها التكبّر وحبّ الذات وعدم الخضوع للحقّ!

ومن هم المخاطبون هنا؟ هناك تفاسير متعدّدة أيضاً، فمنهم من اختار التّفسير آنف الذكر، ومنهم من قال بأنّهما خازنا النيران.

وقال بعضهم - أيضاً - من المحتمل أن يكون المخاطب واحداً فحسب، وهو الشاهد الذي يرد عرصة القيامة مع المجرم، وصرّحت به الآيات آنفة الذكر، وتثنية الفعل هو من أجل التأكيد، فكأنّه يؤكّد مرتين: «الق، الق» واستعمال التثنية في خطاب المفرد وارد في لغة العرب، إلاّ أنّ هذا التّفسير بعيد جدّاً، وخير التفاسير وأنسبها هو التّفسير الأوّل.

وفي الآية التالية إشارة إلى بعض الأوصاف الذميمة المنحطّة التي يتّصف بها هؤلاء الكفّار - إذ تقول الآية: ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ﴾.

«المنّاع» بحكم كونه صيغة مبالغة فإنّه يطلق على الشخص الذي يمنع كثيراً من الأمور، فيكون التعبير بـ ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ يقصد به من يمنع كلّ عمل صالح فيه خير وبأيّة صورة كانت.

وقد ورد في بعض الرّوايات أنّ الآية نزلت في «الوليد بن المغيرة» حيث إنّه كان يمنع أبناء أخيه عن الإسلام ويقول لهم: طالما كنت حيّاً فلن أعينكم في حياتكم[١].

وكلمة ﴿مُعْتَدٍ﴾ معناها المتجاوز على الحدود، سواءً أكان متجاوزاً لحقوق الآخرين أو لحدود الله وأحكامه!

وكلمة ﴿مُرِيبٍ﴾ مشتقّة من الريب، وتعني من هو في شكّ، الشكّ المقرون بسوء الظنّ، أو من يخدع الآخرين فيجعلهم بما يقول أو يعمل في شكّ من أمرهم... فيضلّوا عن سواء السبيل.

ثمّ تضيف الآية التالية لتذكر وصفاً ذميماً لمن كان من طائفة الكفّار فتقول: ﴿الَّذِى جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

أجل: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾.

وفي هذه الآيات بيان ستّة أوصاف لأهل النار، فالأوصاف الخمسة المتقدّمة بعضها لبعض بمثابة العلّة والمعلول، أمّا الوصف السادس فإيضاح للجذر الأصيل لهذه الأوصاف.

لأنّ معنى الكفّار هو من أصرّ على كفره كثيراً، وينتهي هذا الأمر إلى العناد.

والمعاند أو العنيد يصرّ على منع الخير أيضاً، ومثل هذا الشخص بالطبع يكون معتدياً متجاوزاً على حقوق الآخرين وحدود الله.

والمعتدون يصرّون على إيقاع الآخرين في الشكّ والريب وسلب الإيمان عنهم.

وهكذا تبيّن أنّ هذه الأوصاف الخمسة أي «الكفّار والعنيد والمنّاع للخير والمعتدي والمريب» يرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً، وبعضها لبعض يشكّل علاقة اللازم بالملزوم[٢].

---

(١) تفسير روح المعاني، ج٢٦، ص١٦٨. (٢) تفسير الميزان، ج ١٨، ص ٣٨١.

وفي الوصف السادس أي ﴿الَّذِى جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ يكمن الجذر الأصيل والأساس لجميع الانحرافات الآنف ذكرها، والمراد من هذا الوصف هو الشرك، لأنّ التدقيق فيه يكشف أنّ الشرك هو الباعث على جميع هذه الأُمور المتقدّمة!

وفي الآية التالية يكشف الستار عن مشهد آخر وصورة أُخرى ممّا يجري على هؤلاء الكفّار وعاقبتهم، وهو المجادلة بينهم وبين الشيطان الغويّ في يوم القيامة، فكلّ من الكفّار يلقي التبعات على الشياطين، إلاّ أنّ قرينه «الشيطان» يردّ عليه ويقول كما يحكي عنه القرآن: ﴿۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾. فلم أجبره على سلوك طريق الغواية والضلالة، بل هو الذي سلكه باختياره وإرادته واختار هذا الطريق.

وهذا التعبير يشبه ما ورد في سورة إبراهيم الآية (٢٢) إذ يتبرّأ الشيطان من أتباعه فيقول: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ﴾!!

وبالطبع فإنّ الشيطان لا يريد أن ينكر أثره في إغواء الإنسان إنكاراً كليّاً، بل يريد أن يثبت أنّه لم يجبر أحداً على إغوائه، بل الإنسان بمحض استجابته ورغبته قبل وساوس الشيطان، فعلى هذا الأساس لا تضادّ بين هذه الآية والآية (٨٢) من سورة ﴿صٓ﴾: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وبالرغم من أنّ هذه الآيات تتحدّث عن دفاع الشيطان عن نفسه فحسب، ولا يظهر فيها كلام على اعتراض الكفّار وردّهم على الشيطان، إلاّ أنّه وبقرينة سائر الآيات التي تتحدّث عن مخاصمتهم في يوم القيامة وبقرينة الآية التالية يتّضح جدال الطرفين إجمالاً، لأنّها تقول حاكية عن ربّ العزّة: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ وأخبرتكم عن هذا المصير.

إشارة إلى قوله تعالى للشيطان من جهة: ﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾[1].

ومن جهة أُخرى فقد أنذر سبحانه من تبعه من الناس ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2].

وهذا التهديد والوعيد وارد في سائر آيات القرآن، وهي حاكية جميعاً عن أنّ الله أتمّ

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٣.
(٢) سورة ص، الآية: ٨٥.

الحجّة على الشياطين والإنس كلّهم. . . وحذّر كلا الفريقين من الإغواء والغواية والإضلال والضلال.

ولمزيد التأكيد تقول الآية التالية حاكية عن لسان ربّ العزّة: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[1].

والمراد من ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ هنا هو التهديد أو الوعيد الذي أشار إليه الله سبحانه مراراً في آيات متعدّدة وذكرنا آنفاً أمثلةً منها.

والتعبير بـ﴿بِظَلَّٰمٍ﴾ وهو صيغة مبالغة معناه كثير الظلم، مع أنّ الله لا يصدر منه أقل ظلم، ولعلّ هذا التعبير هو إيذان بأنّ مقام عدل الله وعلمه في درجة بحيث لو صدر منه أصغر ظلم لكان يعدّ كبيراً جدّاً ولكان مصداقاً للظلاّم، فعلى هذا فإنّ الله بعيد عن أي أنواع الظلم.

أو أنّ هذا التعبير ناظر إلى الأفراد والمصاديق، إذ لو نال عبداً ظلم من الله فهناك نظراء لهذا العبد، وفي المجموع يكون الظلم كثيراً.

وعلى كلّ حال، فإنّ هذا التعبير دليل على أنّ العباد مخيّرون ولديهم الحريّة «في الإرادة» فلا الشيطان مجبور على شيطنته وعمله، ولا الكفّار مجبورون على الكفر واتباع طريق الشيطان، ولا العاقبة والمصير القطعي الخارج عن الإرادة قد تقرّرا لأحد أبداً.

وهنا ينقدح هذا السؤال! وهو:

كيف يقول سبحانه: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾؟ مع أنّ جماعة من العباد يشملهم عفوه وغفرانه؟

والجواب على هذا السؤال: أنّ العفو أيضاً وفقاً لمنهج دقيق وفرع على عمل أدّاه الإنسان بحيث إنّه على رغم جرمه فهو جدير بالعفو، وهذا بنفسه أحد السنن الإلهيّة، وهو أنّ من يستحقّ العفو يشمله عفوه، وهذا أيضاً لا يتغيّر.

وفي آخر آية من الآيات محلّ البحث إشارة إلى جانب قصير ومثير من مشاهد يوم القيامة إذ تقول الآية: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾[2].

---

(١) لديّ ظرف متعلّق بـ﴿يُبَدَّلُ﴾ وإحتمل بعض المفسّرين أنّه متعلّق بالقول، إلاّ أنّ المعنى الأوّل أنسب.

(٢) بأي كلمة متعلّق لفظ ﴿يَوْمَ﴾؟ هناك ثلاثة وجوه - الوجه الأوّل أنّه متعلّق بمحذوف وتقديره اذكروا، والوجه الثاني أنّه متعلّق بيبدّل، والوجه الثالث أنّه متعلّق بظلاّم، إلاّ أنّ الأوّل أولى.

والمراد من ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ ما هو؟ هناك تفسيران:

الأوّل: أنّه استفهام إنكاري، أي إنّ جهنّم تقول لا مجال للزيادة، وبهذا فينسجم هذا المعنى مع الآية (١٣) من سورة السجدة: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ وهو تأكيد على أنّ تهديد الله يتحقّق في ذلك اليوم تماماً وأنّ جهنّم تمتلىء في يوم القيامة من الكفّار والمجرمين.

والثّاني: إنّ هذه الجملة فيها طلب للزيادة! أي هل يوجد غير هؤلاء ليدخلوا النار، وأساساً فإنّ طبيعة كلّ شيء أن يبحث عن سنخه دائماً، فلا النار تشبع من الكفّار ولا الجنّة تشبع من المؤمنين الصالحين.

إلاّ أنّ هذا السؤال سيبقى بلا جواب، وهو أنّ مفهوم هذا الطلب أنّ جهنّم ما تزال غير ممتلئة، فلا تنسجم مع الآية ١٣ من سورة السجدة آنفة الذكر التي تقول: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾.

ولكن ينبغي الالتفات إلى أنّ طلب المزيد لا يدلّ على عدم الامتلاء لأنّه:

أوّلاً: قد يكون إناء مليء بالطعام مثلاً، إلاّ أنّ شخصاً ما يزال يتمنّى أن لو أُضيف إليه فيكون متراكماً أكثر!

ثانياً: هذا الطلب يمكن أن يكون طلباً لتضييق المكان على أهل جهنّم وعقابهم الأليم أو تمنّي السعة لاستيعاب أنفار آخرين أكثر.

وعلى كلّ حال، فإنّ هذه الآية تدلّ دلالة واضحة أنّ أهل جهنّم كثيرون، وأنّ صورة جهنّم مرعبة وموحشة وأنّ تهديد الله جدّي وحقّ يربك الفكر في كلّ إنسان فيهزّه ويحذّره ألاّ يكون واحداً من أهلها! وهذا التفكير يمكن أن يصيّره ورعاً ملتزماً فلا يقدم على الذنوب الكبيرة والصغيرة!.

وينقدح سؤال آخر، وهو كيف تخاطب النار وهي موجود غير عاقل فتردّ وتجيب على الخطاب!

ولهذا السؤال توجد إجابات ثلاث:

الأُولى: إنّ هذا التعبير نوع من التشبيه وبيان لسان الحال! أي أنّ الله يسأل بلسان التكوين جهنّم وهي تجيب بلسان الحال، ونظير هذا التعبير كثير في اللغات المختلفة!

الثّانية: إنّ الدار الآخرة دار حياة واقعية، فحتّى الموجودات المادية كالجنّة والنار يكون لها نوع من الإدراك والحياة والشعور، فالجنّة تشتاق إلى المؤمنين، وجهنّم تنتظر المجرمين.

وكما أنّ أعضاء جسم الإنسان تنطق في ذلك اليوم وتشهد على الإنسان، فلا عجب أن تكون الجنّة والنار كذلك!

بل وحسب اعتقاد بعض المفسّرين إنّ ذرّات هذا العالم جميعها لها إدراك وإحساس خاصّ، ولذلك فهي تسبّح الله وتحمده، وقد أشارت إليه بعض آيات القرآن كالآية (٤٤) من سورة الإسراء(١).

والثّالثة: إنّ المخاطبين هم خزنة النار وهم الذين يردون على هذا السؤال.

وجميع هذه التفاسير يمكن قبولها، إلاّ أنّ التّفسير الأوّل أنسب كما يبدو!

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾

التّفسير

ادخلوا الجنّة... أيّها المتّقون!

مع الالتفات إلى أنّ أبحاث هذه السورة يدور أغلبها حول محور المعاد والأُمور التي تتعلّق به، ومع ملاحظة أنّ الآيات آنفة الذكر تتحدّث عن كيفية إلقاء الكفّار المعاندين في نار جهنّم وما يلاقونه من عذاب شديد وبيان صفاتهم التي جرّتهم وساقتهم إلى نار جهنّم! ففي هذه الآيات محلّ البحث تصوير لمشهد آخر، وهو دخول المتّقين الجنّة بمنتهى التكريم والتجلّة وإشارة إلى أنواع النعم في الجنّة، كما أنّ هذه الآيات تبيّن صفات أهل الجنّة لتتّضح الحقائق أكثر بهذه المقارنة ما بين أهل النار وأهل الجنّة.

فتبدأ الآيات بالقول: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾.

﴿وَأُزْلِفَتِ﴾: من مادّة زُلفى - على زنة كُبرى - ومعناها القرب، أي قُرّبت.

والطريف هنا أنّ القرآن لا يقول: وقُرّب المتّقين إلى الجنّة، بل يقول وأُزلفت أي

---

(١) يراجع ذيل الآية ٤٤ من سورة الإسراء.

وقرّبت الجنّة للمتّقين، وهذا أمر لا يمكن أن يتصوّر تبعاً للظروف الدنيوية وشروطها، ولكن حيث إنّ الأُصول الحاكمة على العالم الآخر تختلف اختلافاً بالغاً عمّا هي في هذه الدنيا، فلا ينبغي التعجّب إطلاقاً أن يُقرّب الله الجنّة للمتّقين بمنتهى التكريم بدلاً من أن يذهبوا هم إليها.

كما أنّنا نقرأ في الآيتين (٩٠ و٩١) من سورة الشعراء: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾.

وهذا منتهى اللطف الإلهي لعباده المؤمنين حيث لا يتصوّر فوقه لطف آخر!.

والتعبير بـ ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾[1] تأكيد على هذا المعنى أيضاً.

وعلى كلّ حال، فمفهوم الآية أنّ هذه القضيّة تقع في القيامة رغم أنّه عبّر عنها بالماضي ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ لكن الحوادث المستقبلية القطعية كثيراً ما يعبّر عنها بالماضي - لأنّ وقوعها سيتحقّق حتماً -.

وقيل: إنّ إزلاف الجنّة للمتّقين يتحقّق في الدنيا، لأنّه لا يفصلهم شيء عن الجنّة والتعبير بالماضي يراد به الماضي حقيقة. وعند الموت سيجدون أنفسهم في الجنّة، لكن مع ملاحظة الآيات السابقة واللاحقة التي تتحدّث عن مشاهد القيامة يبدو أنّ هذا المعنى بعيد، والمناسب هو التّفسير الأوّل.

ثمّ تبيّن الآيات أوصاف أهل الجنّة فتقول: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾.

وقد أُشير في هذه الآية إلى وصفين من أوصافهم وهما ﴿أَوَّابٍ﴾... ﴿حَفِيظٍ﴾.

وكلمة «الأوّاب»: من مادّة [أوب] - على زنة ذوب - ومعناها العودة، ولعلّها تعني التوبة عن الذنوب الكبيرة والصغيرة.

أو أنّها تعني العودة إلى الطاعة، ومع ملاحظة أنّ هذه الصيغة هي للمبالغة فإنّها تدلّ على أنّ أهل الجنّة رجال متّقون بحيث إنّ أيّ عامل أو مؤثّر أراد أن يبعدهم عن طاعة الله فهم يلتفتون ويتذكّرون فيرجعون إلى طاعته فوراً، ويتوبون عن معاصيهم وغفلاتهم ليبلغوا مقام «النفس المطمئنة».

«الحفيظ» معناه الحافظ، فما المراد منه؟ هل هو الحافظ لعهد الله إذ أخذه من بني

---

(١) غير بعيد فيها ثلاثة أوجه إعرابية، فيحتمل أن تكون ظرفاً، كما يحتمل أن تكون حالاً، ويحتمل أن تكون صفةً لمحذوف تقديره إزلافاً غير بعيد.

آدم ألاّ يعبدوا الشيطان كما ورد في الآية (٦٠) من سورة يس، أم هو الحافظ لحدود الله وقوانينه أو الحافظ لذنوبه والمتذكّر لها ممّا يستلزم التوبة والجبران، أو يعني جميع ما تقدّم من احتمالات؟

ومع ملاحظة أنّ هذا الحكم ورد بصورة مطلقة، فإنّ التّفسير الأخير الجامع لهذه المعاني يبدو أقرب.

واستدامةً لبيان هذه الأوصاف فإنّ الآية التالية تشير إلى وصفين آخرين منها، وهما في الحقيقة بمثابة التوضيح والتّفسير لما سبق ذكره، إذ تقول الآية: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾.

عبارة: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ إشارة إلى أنّهم رغم عدم رؤيتهم الله بأعينهم، إلاّ أنّهم يؤمنون به عن طريق آثاره والاستدلال بها، فيؤمنون إيماناً مقروناً بالإحساس بتحمّل المسؤولية.

ويحتمل أنّ المراد من «الغيب» هو ما غاب عن أعين الناس، أي أنّهم لا يرتكبون الإثم لا بمرأى من الناس ولا في خلوتهم وابتعادهم عنهم.

وهذا الخوف «أو الخشية» يكون سبباً للإنابة، فيكون قلبهم متوجّهاً إلى الله ويقبل على طاعته دائماً ويتوب من كلّ ذنب، وأن يواصلوا هذه الحالة حتى نهاية العمر ويردوا عرصات المحشر على هذه الكيفية!.

ثمّ تضيف الآية الأُخرى بأنّ أُولئك الذين يتمتّعون بالصفات الأربع هذه حين تتلقّاهم الملائكة عند أبواب الجنّة يقولون لهم بنهاية التجلّة والإكرام ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾.

«السلام» من كلّ أنواع الأذى والسوء والعذاب والمعاقبة، السلامة الكاملة في لباس الصحّة والعافية.

ولطمأنتهم يُضاف أنّ ذلك اليوم يوم الدعّة و﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾.

وإضافةً لهاتين البشارتين بشرى الدخول بسلام، وبشرى الخلود في الجنّة، يبشّرهم الله بشريين أُخريين بحيث تكون مجموع البشريات أربعاً كما أنّهم يتّصفون بأربع صفات يقول: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾.

وإضافةً إلى كلّ ذلك فإنّه ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ من النعم التي لم تخطر ببال أحد.

ولا يمكن أن يتصوّر تعبير أبلغ من هذا التعبير وأوقع منه في النفس، إذ يقول القرآن أوّلاً: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ على سعة معنى العبارة وما تحمله من مفهوم إذ لا استثناء

فيها، ثمّ يضاف عليها المزيد من قبل الله ما لم يخطر بقلب أحد، حيث إنّ الله الذي أنعم على المتّقين فشملهم بألطافه الخاصّة وهم يتنعّمون فيها، وهكذا فإنّ نعم الجنّة ومواهبها ذات أبعاد واسعة لا يمكن أن توصف بأيّ بيان.

كما يستفاد من هذا التعبير ضمناً أنّه لا مقايسة بين أعمال المؤمنين وثواب الله، بل هو أعلى وأسمى منها كثيراً، والجميع في يوم القيامة يواجهون فضله أو عدله! ونجازى بعدله!

وبعد الانتهاء من بيان الحديث حول أهل الجنّة وأهل النار ودرجاتهما، فإنّ القرآن يلفت أنظار المجرمين للعبرة والاستنتاج فيقول: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ فكانت تلك الأقوام أقوى من هؤلاء وكانوا يفتحون البلدان ويتسلّطون عليها، إلاّ أنّهم وبسبب كفرهم وظلمهم أهلكناهم... فهل وجدوا منفذاً ومخرجاً للخلاص من الموت والعذاب الإلهي ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾؟!

«القرن» و«الاقتران» في الأصل هو «القرب» أو «الاقتراب» ما بين الشيئين أو الأشياء، ويطلق لفظ «القرن» على الجماعة المتزامنة في فترة واحدة، ويجمع على «قرون» ثمّ أطلق هذا اللفظ على فترة من الزمن حيث يطلق على ثلاثين سنة أحياناً كما يطلق على مئة سنة أيضاً، فإهلاك القرون معناه إهلاك الأُمم السابقة.

و«البطش» معناه حمل الشيء وأخذه بالقوّة والقدرة، كما يستعمل هذا اللفظ بمعنى الفتك والحرب.

و«نقّبوا»: فعل من مادّة نقب، ومعناه الثقب في الجدار أو الجلد، غير أنّ الثقب يطلق على ما يقع في الخشب، والنقب معناه أعمّ وأوسع.

وهذه المفردة إذا استعملت كفعل كما هو في الآية فيعني ذلك الحركة والسير وشقّ الطريق، كما يعني السيطرة على البلدان والنفوذ فيها أيضاً.

«المنقبة»: من المادّة ذاتها، وتطلق على الصفات البارزة في الشخص وأفعاله الكريمة التي لها تأثير ونفوذ في نفوس الآخرين، أو أنّها تشقّ له الطريق في الارتقاء والسمو!

و«النقيب»: هو من يبحث عن أحوال جماعة ما ويطّلع على أخبارهم وينفذ في أنفسهم.

و«المحيص»: كلمة مشتقّة من الحيص على زنة «الحيف»، ومعناها الانحراف والعدول عن الشيء، ومن هنا فقد استعملت هذه الكلمة في الفرار من المشاكل والهزيمة عن المعركة!.

وعلى كلّ حال فإنّ الآية تنذر الكفّار المعاصرين للنّبي ﷺ أن يستقرئوا تاريخ الماضين وأن ينظروا في قصصهم للاعتبار، ليروا ما صنع بهؤلاء المعاندين الذين كانوا أُمماً وأقواماً أشدّ من هؤلاء «وليفكّروا بعاقبتهم أيضاً»، وهذا المعنى ورد مراراً في القرآن منها الآية ٨ من سورة الزخرف إذ نقرأ قوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾.

ويرى بعض المفسّرين أنّ الآية محلّ البحث تشير إلى «ثمود» هذه الطائفة التي كانت تسكن مناطق جبلية تدعى «بالحجر» وتقع شمال الحجاز، فكانت تقطنها وتنقّب في الجبال وتحفر صخورها فتصنع منها القصور الرائعة، غير أنّ ظاهر النصّ أنّ هذه الآية مفهومها واسع، فيشمل هؤلاء وغيرهم أيضاً.

أمّا جملة ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ فيحتمل أن تكون سؤالاً على لسان الكفّار السابقين حين أحدق بهم العذاب، فكانوا يسألون: هل من فرار ومحيص عنه؟ كما يحتمل أن يكون سؤالاً من قبل الله للكفّار المعاصرين للنّبي ﷺ أي هل استطاع مَن كان قبلكم من الكفرة الفرار من قبضة العذاب؟ أو هل يستطيع من يعاند النّبي أن يهرب من مثل هذا لو أحدق به؟!

ويضيف القرآن في آخر آية من الآيات محل البحث مؤكّداً أكثر فيقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

والمراد بـ«القلب» هنا وفي الآيات الأُخر من القرآن التي تتكلّم على إدراك المسائل هو العقل والشعور والإدراك، كما أنّ كتب اللغة تشير إلى أنّ واحداً من معاني القلب هو العقل، أمّا الراغب فقد فسّر القلب في الآية محلّ البحث بالعلم والفهم، كما نقرأ في لسان العرب أنّ القلب قد يطلق على العقل أيضاً(١).

كما ورد في تفسير عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام لهذه الآية أنّه قال: إنّ القلب هو العقل(٢).

والجذر اللغوي لكلمة ﴿قَلْبٌ﴾ في الأصل: التغيير والتحوّل، واصطلاحاً معناه الانقلاب، وحيث إنّ فكر الإنسان أو عقله في تقلّب دائم وفي حال مختلفة فقد أطلقت عليه كلمة «القلب»... ولذلك فإنّ القرآن يعوّل على اطمئنان القلب والسكينة فيقول:

---

(١) لسان العرب مادّة القلب. [ق ل ب].

(٢) أصول الكافي، ج١ - كتاب العقل والجهل، الحديث ١١.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(١) كما يقول في آية أُخرى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾(٢)، أجل إنّما يُهدىء هذا الموجود المضطرب ذكر الله فحسب.

أمّا ﴿أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ﴾ فكناية عن الإصغاء ومنتهى الاستماع بدقّة، وهناك تعبير في العرف يشبه هذا التعبير يقول: «أُذني معك» أي إنّني أصغي إليك بدقّة!

و«الشهيد» يطلق على من هو حاضر القلب، أو كما يقال قلبه في المجلس وهو يتابع المسائل بدقّة!.

وهكذا فإنّ مضمون الآية بمجموعه يعني ما يلي: إنّ هناك فريقين ينتفعان بهذه المواعظ والنصيحة... فالفريق الأوّل من يتمتّع بالذكاء والعقل... ويستطيع بنفسه أن يحلّل المسائل بفكره!

أمّا الفريق الآخر فليس بهذا المستوى، إلاّ أنّه يمكن أن يلقي السمع للعلماء ويصغي لكلماتهم بحضور القلب ويعرف الحقائق عن طريق الإرشاد.

ويشبه هذا التعبير ما نقرؤه في الآية ١٠ من سورة الملك على لسان أهل النار، إذ ورد هكذا: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾!

لأنّ علائم الحقّ واضحة، فأهل التحقيق يعرفونها جيّداً... ومن لم يكن كذلك فيستطيع أن يعرفها عن طريق إرشاد المخلصين من العلماء.

فعلى هذا يجب أن يتمتّع الإنسان بعقل كاف وعلم واف... أو يتمتّع بأُذن واعية(٣).

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ﴿٣٨﴾ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾

التّفسير

خالق السماوات والأرض قادر على إحياء الموتى

تعقيباً على ما ورد في الآيات آنفة الذكر ودلائلها المتعدّدة في شأن المعاد، تشير

(١) سورة الفتح، الآية: ٤. (٢) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

(٣) لاحظوا أنّ الآيتين عطفت الموضوعين «بأو» وهذا يدلّ على أنّ واحداً منهما على الأقل ضروري للإنسان!..

الآيات محلّ البحث إلى دليل آخر من دلائل إمكان المعاد. . . ثمّ تأمر النّبي بالصبر والاستقامة والتسبيح بحمد الله ليبطل دسائس المتآمرين وما يحيكونه ضدّه، فتقول الآية الأولى من هذه الآيات: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾.

«اللغوب» بمعنى «التعب» وبديهي أنّ من لديه قدرة محدودة وأراد أن يعمل عملاً فوق طاقته وقدرته فإنّه يتعب ويناله اللغوب والنصب، إلاّ أنّ من كان ذا قدرة لا نهاية لها، وقوّة لا حدّ لها فإنّ التعب والنصب واللغوب لا تعني شيئاً لديه فعلى هذا من كان قادراً على إيجاد السماوات والأرض وخلق الكواكب والمجرّات وأفلاكها جميعاً، قادر على إعادة الإنسان بعد موته وأن يُلبسه ثوباً جديداً من الحياة.

بعض المفسّرين ذكر في شأن نزول الآية أنّ اليهود كانوا يتصوّرون أنّ الله خلق السماوات والأرض في ستّة أيّام «ستّة أيّام من أيّام الأسبوع»! ثمّ استراح في اليوم السابع «السبت» فوضع رجلاً على رجل أُخرى!! وهكذا فإنّهم يرون أنّ الجلوس على هذه الشاكلة غير لائق، وأنّه خاصّ بالله، فنزلت الآية آنفة الذكر وحسمت الكلام في مثل هذه الخرافات المضحكة[1]!

إلاّ أنّ هذا الشأن لا يمنع من أن يتابع مسألة إمكان المعاد في الوقت الذي هو دليل على توحيد الله وقدرته وعلمه، إذ خلق السماوات والأرض بما فيهما من عجائب و(ملايين) الأحياء والأسرار المذهلة ونظمها الخاصّة بحيث إنّ التفكّر في زاوية واحدة من هذا الخلق يسوقنا إلى الخالق الذي حرّكت يد قدرته هذه الكواكب ونثرت نور الحياة في كلّ مكان ليكون دليلاً عليه.

وقد تكرّر موضوع خلق السماوات والأرض في ستّة أيّام في آيات متعدّدة من القرآن[2].

وكلمة «يوم» يراد منها الفترة الزمنية لا بمعنى أربع وعشرين ساعة أو اثنتي عشرة ساعة، كأن نقول «كان الناس يعيشون في ظلّ النّبي يوماً، وسلّط عليهم بنو أُميّة يوماً وبنو العبّاس يوماً آخر! . . الخ».

---

(١) راجع تفسير الدرّ المنثور، ج٦، ص١١٠.

(٢) راجع سورة الأعراف الآية ٥٤؛ سورة يونس الآية ٣؛ سورة هود الآية ٧؛ سورة السجدة الآية ٤؛ سورة الحديد الآية ٤؛ سورة الفرقان الآية ٥٩.

وواضح أنّ كلمة «اليوم» في هذه التعبيرات وأمثالها يراد منها الفترة الزمانية سواءً كانت سنةً أو شهراً أو جيلاً... أو آلاف السنين... فنقول مثلاً: كانت الكرة الأرضية قطعةً متلهّبة يوماً، وبردت يوماً فغدت مهيّأة للحياة، فجميع هذه التعبيرات تشير إلى الفترات الزمنية.

فيستفاد من التعبيرات الواردة في الآية آنفة الذكر أنّ الله خلق جميع السماوات والأرض والموجودات الأُخرى في ستّ مراحل أو ستّ فترات زمانية. «وتفصيل هذا الكلام مبيّن في ذيل الآية (٥٤) من سورة الأعراف فلا بأس بمراجعته».

إذاً، لا يبقى مجال للسؤال بأنّه لم يكن قبل خلق السماء والأرض ليل أو نهار فكيف خلقتهما في ستّة أيّام؟!

وبعد ذكر دلائل المعاد المختلفة وتصوير مشاهد المعاد ويوم القيامة المتعدّدة فإنّ القرآن يخاطب النّبي ويأمره بالصبر - لأنّ هناك طائفة لا تذعن للحقّ وتصرّ على الباطل فيقول: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ إذ بالصبر والاستقامة - وحدهما - يستطاع التغلّب على مثل هذه المشاكل.

وبما أنّ الصبر والإستقامة يحتاجان إلى دعامة ومعتمد، فخير دعامة لهما ذكر الله والارتباط بالمبدأ - مبدأ العلم القادر على إيجاد العالم - لذلك فإنّ القرآن يضيف تعقيباً على الأمر بالصبر قائلاً: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾.

وكذلك: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾.

فهذا الذكر والتسبيح المستمر ينصبّ على صعيد قلبك كانصباب الغيث على الأرض ليهبها الحياة ويسقيها الرواء، فالتسبيح أيضاً يُلهم قلبك النشاط والاستقامة بوجه الأعداء المعاندين.

وهناك أقوال مختلفة بين المفسّرين في المراد من «التسبيح» في الأوقات الأربعة «قبل طلوع الشمس وبعد الغروب ومن الليل وأدبار السجود!».

فبعضهم يعتقد أنّ المراد من هذه التعبيرات هو الصلوات الخمس اليومية وبعضاً من النوافل الفضلى على الترتيب والنحو التالي:

فـ ﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾ إشارة إلى صلاة الصبح، لأنّ في آخر وقتها تطلع الشمس فينبغي أداؤها قبل طلوع الشمس.

وقبل الغروب إشارة إلى صلاتي الظهر والعصر لأنّ الشمس تغرب آخر وقتيهما.

أمّا قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ فيشير إلى صلاتي المغرب والعشاء وقوله: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ ناظر إلى النوافل بعد صلاة المغرب، وقال ابن عبّاس بهذا التّفسير - مع هذا القيد - وهو أنّ المراد من إدبار السجود هو جميع النوافل التي تؤدّى بعد الفرائض ولكن حيث أنّا نعتقد بأنّ ما يؤدّى من النوافل اليومية بعد الفرائض هما نافلة المغرب ونافلة العشاء فحسب، فلا يصحّ هذا التعميم آنفاً.

كما فسّر بعضهم قوله ﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾ بصلاة الصبح، ﴿وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾ بصلاة العصر، ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ بصلاتي المغرب والعشاء، فلم يذكروا شيئاً عن صلاة الظهر هنا، وهذا دليل على ضعف هذا التّفسير.

ونقرأ في بعض الرّوايات المنقولة عن الإمام الصادق أنّه حين سئل عن الآية: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾... قال عليه السلام: «تقول حين تصبح وتمسي عشر مرّات لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كلّ شيء قدير»[1].

ولا يتنافى هذا التّفسير مع التّفسير الأوّل ويمكن أن يجتمعا في الآية معاً.

وممّا ينبغي الالتفات إليه هو ورود نظير هذا المعنى باختلاف يسير في الآية (١٣٠) من سورة طه أيضاً إذ تقول الآية: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾.

جملة «لعلّك ترضى» - تدلّ على أنّ لهذا التسبيح والذكر في هذه الأوقات أثراً مهمّاً في اطمئنان القلب ورضا الخاطر، إذ يمنح القلب قوّة وشدّة بوجه الحوادث.

وهناك لطيفة تسترعي النظر وهي أنّ الآية (٤٩) من سورة الطور تقول هكذا: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾[2].

وقد ورد في حديث عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «المراد بـ ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ ركعتا نافلة تؤدّيان بعد صلاة المغرب «ينبغي الالتفات إلى أنّ نافلة المغرب أربع ركعات وقد

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآيات موزد البحث.

(٢) ينبغي الالتفات إلى أنّ إدبار هنا جاءت بالكسر على زنة «إقبال» أمّا في الآية مورد البحث فجاءت أدبار بفتح الهمزة على زنة أفكار، وهي هنا جمع دبر ومعناه العقب، فيكون المعنى في أدبار السجود أي بعد كلّ سجدة، وأمّا معنى إدبار النجوم أي عند تفرّق النجوم.

أُشير إلى اثنين منهما هنا فحسب «وإدبار النجوم ركعتا نافلة الصبح إذ تؤدّيان عند غروب النجوم وتفرّقها وقبل صلاة الصبح»[١].

كما ورد في رواية أُخرى أنّ المراد من «إدبار السجود» هو نافلة الوتر التي تؤدّى آخر الليل[٢].

وعلى كلّ حال فإنّ التّفسير الأوّل أقرب من الجميع وأكثر تناسباً وإن كان مفهوم التسبيح وسعته شاملاً لكثير من التفاسير المشار إليها في الرّوايات آنفاً.

بحث

الصبر مفتاح لكلّ فلاح

لم يكن تعويل القرآن وإعتماده على الصبر بوجه المشاكل لأوّل مرّة هنا فحسب، فطالما أمر النّبي والمؤمنون عامّة في الآيات مراراً بالصبر وأكّد على هذا الموضوع كما أنّ التجارب تدلّ على أنّ النصر والغلبة من نصيب أُولئك الذين تمتّعوا بالصبر والإستقامة.

ففي حديث عن الإمام الصادق أنّه أمر بعض أصحابه «ولعلّه كان لا يطيق بعض الظروف الصعبة في ذلك الزمان»: «عليك بالصبر في جميع أُمورك. ثمّ قال عليه السلام: إنّ الله بعث محمّداً وأمره بالصبر والمداراة فصبر حتى نسبوا إليه ما لا يليق فضاق صدره فأنزل الله عليه الآية: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾[٣].

فصبر فكذّبوه أيضاً، ورشقوه بنبال التّهم من كلّ جانب فحزن وتأثّر لذلك، فأنزل الله عليه تسلية قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴿٣٤﴾﴾[٤].

ثمّ يضيف الإمام عليه السلام: أنّ النّبي واصل صبره إلاّ أنّهم تجاوزوا الحدّ فكذّبوا الله فقال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قد صبرت في نفسي وأهلي وعرضي ولا صبر لي على ذكر إلهي فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن

(١-٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث. (٣) سورة الحجر، الآيتان: ٩٧ - ٩٨.
(٤) سورة الأنعام، الآيتان: ٣٣ - ٣٤.

لُغُوبٍ﴾[١] . . . أي خلقنا السماوات والأرض في عدّة فترات ولم نعجل ولم يمسّنا تعب ونصب، فعليك أن تصبر، فصبر النّبي في جميع أحواله ما كان يواجهه حتى انتصر على أعدائه»[٢] .

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

التّفسير

يخرج الجميع أحياءً عند صيحة القيامة

هذه الآيات محلّ البحث التي تختتم بها سورة - «ق» كسائر آياتها تتحدّث على المعاد والقيامة كما أنّها تعرض جانباً منهما أيضاً وهو موضوع النفخة في الصور، وخروج الأموات من القبور في يوم النشور. . . فتقول: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾ .

والمخاطب بالفعل ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ هو النّبي ﷺ نفسه إلاّ أنّه من المسلّم به أنّ المقصود جميع الناس.

والمراد من «استمع» إمّا هو الانتظار والترقّب، لأنّ من ينتظر حادثة تبدأ بصوت مهول يُرى في حالة ترقّب دائماً، فهو منتظر لأن يسمع الصوت؛ أو هو الإصغاء إلى كلام الله فيكون المعنى «استمع كلام الله» إذ يقول: يوم يسمعون الصيحة الخ[٣] .

لكن من هو هذا المنادي؟ يحتمل أن يكون الذات المقدّسة جلّ وعلا، ولكن

---

(١) سورة ق، الآية: ٣٨.

(٢) راجع أُصول الكافي، طبقاً لما ورد في تفسير نور الثقلين، ج٥، ص١١٧، ح ٥٠.

(٣) بناءً على التّفسير الأوّل فإنّ «يوم» مفعول استمع، وبناءً على التّفسير الثّاني فإنّ مفعول استمع محذوف وتقديره استمع حديث ربّك فيكون نصب كلمة يوم على فعل مقدّر من الخروج وتقديره يخرجون يوم ينادي المنادي من مكان قريب.

الاحتمال الأقوى هو «إسرافيل» الذي ينفخ في الصور. . . وقد وردت الإشارة في آيات القرآن إليه لا بالاسم بل بتعبيرات خاصّة.

عبارة: ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ إشارة إلى أنّ هذه الصيحة ينتشر صداها في الفضاء بدرجة أنّها كما لو كانت في أذن كلّ أحد، وجميعهم يسمعونها بدرجة واحدة من القرب.

نحن اليوم نستطيع أن نسمع كلام أي إنسان وفي أيّة نقطة كان بوسائل مختلفة فكأنّ المتكلّم على مقربة منّا، ويتحدّث معنا، إلاّ أنّ يوم القيامة يسمع الناس كلّهم الصيحة دون حاجة إلى مثل هذه الوسائل وهي قريبة منهم[(١)].

وعلى كلّ حال، فليست هذه الصيحة هي الصيحة الأولى التي تقع مؤذنة بنهاية العالم، بل هي الصيحة الثانية، أي الصيحة للنشور والحشر، وفي الحقيقة أنّ الآية الثانية توضيح للآية السابقة وتفسير لها إذ تقول: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ من القبور والبعث والنشور.

ولكي يعرف من الحاكم في هذه المحكمة الكبرى، فإنّ القرآن يضيف قائلاً: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾.

والمراد من ﴿نُحْيِۦ﴾ هو الحياة الأولى في الدنيا، والمراد من ﴿وَنُمِيتُ﴾ هو في نهاية العمر، وجملة ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ إشارة إلى الإحياء في يوم القيامة.

وفي الحقيقة أنّ الآية تشير إلى هذه الحقيقة وهي كما أنّ الحياة والموت في الدنيا بأيدينا، فكذلك المعاد وقيام الساعة بأيدينا أيضاً.

ثمّ يضيف القرآن فيخبر عن ميقات النشور فيقول: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ أي يخرجون مسرعين من القبور[(٢)] ويضيف مختتماً: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾.

و«الحشر» معناه الجمع من كلّ جهة ومكان.

وواضح أنّ خالق السماوات والأرض وما بينهما من اليسير عليه أن ينشر الموتى ويحشرهم للحساب والثواب أو العقاب.

---

(١) يرى جماعة من المفسّرين أنّ المكان القريب يُحتمل أن تكون صخرة بيت المقدس - تلك الصخرة الخاصّة التي عرج منها الرّسول الأكرم عليه السلام نحو السماء فيقف المنادي على طرفها ويصيح أيّتها العظام البالية والأوصال المتقطّعة واللحوم المتمزّقة قومي لفصل القضاء وما أعدّ الله لكم من الجزاء. . . لكن لا دليل بيّن على ذلك.

(٢) ﴿سِرَاعًا﴾ منصوب على أنّه حال للفاعل في «يخرجون» المحذوف والتقدير «يخرجون سراعاً» وهو جمع لكلمة «سريع» كما في «كرام» جمع «كريم» والبعض يرى أنّ «سراعاً» مصدر في موضع الحال.

وأساساً، فإنّ موضوع الصعوبة واليُسر يقال في من يتمتع بقدرة محدودة، إلاّ أنّ القادر على كلّ شيء ولا حدّ لقدرته فكلّ شيء عليه سهل ويسير.

الطريف هنا أنّنا نقرأ في بعض الرّوايات: أنّ أوّل من يبعث ويخرج من قبره ويرد المحشر هو النّبي الأكرم محمّد ﷺ وعلي معه[1].

أمّا آخر آية من الآيات محلّ البحث وهي آخر آية من سورة ق ذاتها فهي تخاطب النّبي وتسرّي عنه وتسلّي قلبه لما يلاقيه من المعاندين والكفرة فتقول: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾.

فمسؤوليتك البلاغ والدعوة نحو الحقّ والبشارة والنذارة: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[2].

وقد ورد في تفسير القرطبي عن ابن عبّاس أنّه قال: جاء جماعة إلى رسول الله ﷺ فقالوا: أنذرنا يا رسول الله وبشّرنا، فنزلت الآية محلّ البحث وقالت: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[3].

وذلك إشارة إلى أنّ القرآن كاف للإنذار وإيقاظ المؤمنين، فكلّ صفحة منه تذكر بيوم القيامة وآياته المختلفة التي تتحدّث عن قصص الماضين وعاقبتهم وتصف أهل النار وأهل الجنّة وما يقع عند قيام الساعة في محكمة عدل الله هي خير موعظة ونصيحة لجميع الناس.

والحقّ أن تذكر مشهد تشقّق الأرض وولوج الأرواح في الموتى وخروجهم من القبر واكتسائهم ثوب الحياة وتحركهم في حال من الوحشة والاضطراب من القرن حتى القدم وهم يساقون إلى محكمة عدل الله هذا المشهد مثير جدّاً.

ولا سيّما أنّ بعض القبور يضمّ في لحده على تقادم الزمان ومرور الأعوام أجساداً متعدّدة من الناس بعضهم صالح وبعضهم طالح وبعضهم مؤمن وبعضهم كافر وكما يقول المعرّي:

رُبّ قبر قد صار قبراً مراراً ضاحك من تزاحم الأضداد
ودفين على بقايا دفين في طويل الآجال والآماد!

(١) كتاب الخصال: طبقاً لما نقل في تفسير نور الثقلين، ج٥، ص١١٩، ح ٦٠.
(٢) كلمة وعيد أصلها وعيدي وحذفت ياؤها وأبقيت الكسرة لتدلّ عليها وهي مفعول للفعل يخاف.
(٣) تفسير القرطبي، ج٩، ص٦١٩٨.

سُورَة الذاريات

مكية وعدد آياتها ستّون

محتوى السورة

يدور محور هذه السورة في الدرجة الأُولى حول المسائل المتعلّقة بالمعاد ويوم القيامة والثواب والعقاب لكلّ من المؤمنين والكافرين، ولكنّها ليست كسورة (ق) محورها المعاد، بل فيها محاور أُخر كما يلاحظها القارىء.

ويمكن أن يقال بشكل إجمالي إنّ مباحث هذه السورة تدور حول خمسة محاور وهي:

١ - كما قلنا آنفاً إنّ القسم المهمّ منها يتكلّم عن المعاد وبداية السورة ونهايتها أيضاً هما حول المعاد.

٢ - القسم الآخر من هذه السورة ناظر إلى مسألة توحيد الله وآياته في نظام الخلق والوجود، وهي تكمل مبحث المعاد طبعاً.

٣ - وفي قسم آخر يقع الكلام على ضيف إبراهيم من الملائكة وما أُمروا به من تدمير مدن قوم لوط!

٤ - والآيات الأُخر من هذه السورة فيها إشارات قصيرة إلى قصّة موسى عليه السلام وبعض الأُمم كعاد وثمود وقوم نوح، وبهذا فهي تنذر الكفّار الآخرين بما آل إليه السابقون.

٥ - وأخيراً فإنّ قسماً من هذه السورة - يتحدّث عن مواجهة الأُمم المعاندين لأنبيائهم وتأمر النّبي صلى الله عليه وآله بالصبر والاستقامة بوجه المشاكل والشدائد وتسرّي عنه وتسلّي قلبه.

فضل تلاوة هذه السورة

ورد عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّه قال: «من قرأ سورة الذاريات في يومه أو ليلته أصلح الله له معيشته وأتاه برزق واسع ونوّر له قبره بسراج يزهر إلى يوم القيامة»(١).

---

(١) تفسير مجمع البيان - بداية سورة الذاريات - وثواب الأعمال طبقاً لما ورد في تفسير نور الثقلين، ج٥، ص١٢٠.

وقد قلنا مراراً أنّ مجرّد التلاوة باللسان غير كافية لبلوغ هذا الثواب العظيم، بل الهدف هو التلاوة بتفكّر... التفكّر الباعث على العمل. وتسمية «الذاريات» - ضمناً - تعود إلى ورود الآية الأُولى من هذه السورة ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾﴾

التّفسير

قسماً بالأعاصير والسُحب الذاريات

هذه السورة هي الثانية بعد سورة «الصافات» التي تبدأ بالقَسَم المتكرّر، القسم العميق والباعث على التفكّر، القسم الذي يوقظ الإنسان ويمنحه الوعي والاطّلاع!

وكثير من سور القرآن التي سنواجهها - في المستقبل إن شاء الله - بالبحث والتّفسير - هي على هذه الشاكلة... والطريف في الأمر أنّ هذا القَسَم غالباً ما يوطّئُ للمعاد، سوى بعض المواطن التي يمهّد فيها للتوحيد والمسائل المتعلّقة به.

كما أنّ ممّا يلفت النظر أنّ هذا القسم يرتبط بمحتواه بمحتوى يوم القيامة والنشور... وهو يتابع بظرافة ورونق خاصّ هذا البحث المهمّ من جوانب متعدّدة:

والحقيقة أنّ كلّ قسم في القرآن هو بنفسه - وإن كثرت الأقسام - أو الأيمان - وجه من وجوه إعجاز القرآن هذا الكتاب السماوي، وهو من أجمل جوانبه وأبهاها وسيأتي تفصيل كلّ ذلك في موقعه.

وفي مستهلّ السورة يقسم الله سبحانه بخمسة أشياء مختلفة، وقد جاء القسم بأربعة أشياء متوالية سرداً وجاء القسم بخامسها فرداً.

فيقول الله في البداية: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾(١) أي قسماً بالرياح التي تحمل السحب في السماء وتذرو البذور على الأرض في كلّ مكان...

---

(١) «الذاريات» جمع الذارية ومعناها الريح التي تحمل معها الأشياء وتنشرها في الفضاء.

ثمّ يضيف: ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾[١] قسماً بالسحب التي تحمل أمطاراً ثقيلة معها..

﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾[٢] «والجاريات هنا هي السفن» أي قسماً بالسفن التي تجري في الأنهار العظيمة والبحار الشاسعة بيسر وسهولة..

﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ «والمقسمات «هنا» معناها الملائكة الذين يقسّمون الأُمور.

ونقرأ حديثاً نقله كثير من المفسّرين ذيل هذه الآية أنّ «ابن الكوا»[٣] سأل مرّة علياً عليه السلام وهو على المنبر خطيباً: ما ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾؟ فقال عليه السلام: هي الرياح.

فقال: ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ فأجاب عليه السلام: هي السحاب.

فقال: ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ فقال عليه السلام: هي السُّفن.

فقال: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ فقال: الملائكة.

ومع هذه الحال فهناك تفاسير أُخر يمكن ضمّها إلى هذا التّفسير، منها أنّ المراد بـ«الجاريات» هي الأنهار التي تجري بماء المزن و«المقسمات أمراً» هي الأرزاق التي تقسّم بواسطة الملائكة عن طريق الزراعة.

وعلى هذا فإنّ الكلام عن الرياح ثمّ الغيوم وبعدها الأنهار وأخيراً نمو النباتات في الأرض يتناسب تناسباً قريباً مع مسألة المعاد، لأنّنا نعرف أنّ واحداً من أدلّة إمكان المعاد هو إحياء الأرض الميتة بنزول الغيث وقد ذكر ذلك عدّة مرّات في القرآن بأساليب مختلفة.

كما يرد هذا الاحتمال أيضاً: وهو أنّ هذه الأوصاف الأربعة جميعها للرياح - الرياح المولّدة للسُّحب، والرياح التي تحملها على متونها، والرياح التي تجري بها إلى كلّ جانب، والرياح التي تنثر وتقسّم قطرات الغيثِ لكلّ جهة[٤]!.

ومع ملاحظة أنّ هذه التعبيرات الواردة في الآيات جميعها جامعة وكليّة فيمكن أن تحمل المعاني آنفة الذكر كلّها، إلاّ أنّ التّفسير الأساس هو التّفسير الأوّل.

---

(١) «الوقر» على زنة الفِكر - معناه ذو الوزن الثقيل كما يأتي معنى ثقل السمع والوقار ثقل الحركات والحلم والهدوء أيضاً.

(٢) «الجاريات» جمع جارية، ومعناها هنا السفن كما تأتي بمعنى الأنهار لجريانها وقد ورد قوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ في الآية (١٢) من سورة الغاشية كما تطلق الجارية على الشمس لجريها في السماء، وتطلق الجارية أيضاً على الفتاة لأنّ نشاط الشباب يجري في كيانها.

(٣) كان يدعى بعبدالله، وكان من المنافقين في زمان الإمام علي، وأشدّ أعدائه وكان يزعم أنّه من أصحابه إلاّ أنّه كان يتآمر عليه..

(٤) أشار إلى هذا المعنى تفسير الفخر الرازي، ج٢٨، ص١٩٥.

وهنا ينقدح هذا السؤال. . . وهو:

إذا كان المراد من «المقسمات» هو الملائكة فماذا تقسّم الملائكة؟!

نجيب على هذا السؤال أنّ تقسيم العمل هنا لعلّه راجع إلى كلّ التدبير في العالم بحيث إنّ جماعات من الملائكة مأمورة بتدبير أُموره، كما يحتمل أنّها مأمورة بتدبير الأرزاق، أو تقسيم قطرات الغيث على المناطق المتعدّدة في الأرض[(١)].

وبعد ذكر هذه الأقسام الأربعة التي تبيّن أهميّة الموضوع الذي يليها يقول القرآن: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾[(٢)].

ومرّة أُخرى لمزيد التأكيد يضيف قائلاً: ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ الدين: هنا معناه الجزاء كما جاء بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾: أي يوم الجزاء.

وأساساً فإنّ واحداً من أسماء يوم القيامة هو «يوم الدين» و«يوم الجزاء» ويتّضح من ذلك أنّ المراد من الوعود الواقعة «هنا» هي ما يوعدون عن يوم القيامة وما يتعلّق بها من حساب وثواب وعقاب وجنّة ونار وسائر الأُمور المتعلّقة بالمعاد، فعلى هذا تكون الجملة الأُولى شاملة لجميع الوعود، والجملة الثانية تأكيد آخر على مسألة الجزاء.

وبعد عدّة جمل أُخر سيأتي الكلام على يوم الدين، وكما أشرنا آنفاً فإنّ الأقسام الواردة في بداية السورة لها علاقة وتناسب بيّن مع نتيجة هذه الأقسام! لأنّ حركة الرياح ونزول الغيث نتيجة لكلّ ذلك، وإنّ حياة الأرض بعد موتها بنفسها مشهد من مشاهد القيامة والمعاد يبدو في هذه الدنيا.

قال بعض المفسّرين إنّ ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ يحمل معنى واسعاً يشمل جميع الوعود الإلهيّة المتعلّقة بيوم القيامة والدنيا وتقسيم الأرزاق ومجازاة المجرمين في هذه الدنيا والدار الآخرة وانتصار المؤمنين الصالحين، فالآية (٢٢) من هذه السورة ذاتها التي تقول: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ يمكن أن تكون تأكيداً أو تأييداً لهذا المعنى، وحيث إنّ لفظ الآية مطلق فلا تبعد هذه العمومية.

وعلى كلّ حال فإنّ الوعود الإلهيّة جميعها صادقة لأنّ خلف الوعد إمّا ناشىء عن الجهل أو العجز! . . . الجهل الباعث على تغيير فكر الواعد، والعجز المانع من الوفاء به، إلاّ أنّ الله العالم والقادر لا تتخلّف وعوده أبداً. . . تعالى الله عن ذلك!

---

(١) ينبغي الالتفات إلى أنّ الواو في ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ هي للقسم، إلاّ أنّ الفاء في الآيات التي تليها عاطفة وهي تحمل مفهوم القسم كما أنّها في الوقت ذاته بمثابة علاقة ورباط بين الأقسام الأربعة هنا.

(٢) ينبغي الالتفات إلى أنّ «ما» هنا اسم موصول، وهو اسم لأنّ وخبرها لصادق.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

التّفسير

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾

تبدأ هذه الآيات كالآيات المتقدّمة بالقسم وتتحدّث عن اختلاف الكفّار وجدلهم حول يوم الجزاء والقيامة ومسائل أُخر متعدّدة من بينها شخصية النّبي (محمّد) ومسألة التوحيد.

فتقول الآيات في البداية: قسماً بالسماء ذات الخطوط والتعرّجات الجميلة: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾.

وفي اللغة معان كثيرة لكلمة ﴿الْحُبُكِ﴾ على زنة «كتب» وهي جمع «حباك» على وزن - كتاب -.

من ضمن هذه المعاني الطرق والتعاريج التي تبدو على الرمل نتيجة للرياح أو التي تبدو على صفحة الماء أو على السُّحب في السماء!

كما تطلق الحبُك على الشعر المجعّد.

وقد تُفسّر الحبك بالزينة والجمال!

كذلك تأتي بمعنى الشكل الموزون والرتيب.

والجذر الأصلي لها «حبْك» ومعناه هو الشدّ والإحكام(١)!.

ويبدو أنّ جميع هذه المعاني تعود إلى معنى واحد وهي التجاعيد والتعاريج الجميلة التي تظهر على صفحات الرمل في الصحراء أو صفحات الماء أو التجاعيد في الشعر أو السُحب في السماء.

وأمّا تطبيق هذا المعنى على السماء ووصفها بها ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ هو إمّا لنجومها

(١) يراجع «لسان العرب» والمفردات للراغب مادّة الحبك.

ذات المجاميع المختلفة وصورها الفلكية «تطلق على مجموعات النجوم الثابتة التي لها شكل خاصّ بالصورة الفلكية»!

وإمّا للأمواج الجميلة التي ترتسم في السحب وقد تكون جميلة إلى درجة بحيث تحدق العين فيها لفترة طويلة!

أو لمجرّاتها العظيمة التي تبدو وكأنّها تجاعيد الشعر على صفحة السماء، وخاصّة صورها التي التقطت «بالتلسكوب» إذ تشبه هذه الصور التجاعيد في الشعر تماماً.

فعلى هذا يكون معنى ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ أنّ القرآن يقسم بالسماء ومجراتها العظيمة التي لم تكتشفها يومئذ العيون الحادّة ببصرها ولا علم الإنسان يومئذ بها.

ومع ملاحظة أنّ الجمع بين المعاني المتقدّمة ممكن ولا منافاة فيه فيحتمل أن تكون هذه المعاني كلّها مجتمعة في القسم، ونقرأ في الآية (١٧) من سورة «المؤمنون» أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾(١).

كما يجدر الالتفات إلى أنّ الجذر الأصلي للحبك يمكن أن يكون إشارة إلى استحكام السماء وارتباط الكرات بعضها ببعض كالكواكب السياره والمجموعة أو المنظومة الشمسية التي ترتبط بقرص الشمس.

أمّا الآية التالية فهي جواب للقسم وبيان لما وقع عليه القسم إذ تقول مؤكّدة: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾.

فدائماً أنتم تتناقضون في الكلام، وكأنّ هذا التناقض في كلامكم دليل على أنّه لا أساس لكلامكم أبداً.

ففي مسألة المعاد تقولون أحياناً: لا نصدّق أبداً أن نعود أحياء بعد أن تصير عظامنا رميماً.

وتارةً تقولون نحن نشكّ في هذه القضيّة ونتردّد!

وتارةً تضيفون أن هاتوا آباءنا وأسلافنا من قبورهم ليشهدوا أنّ بعد الموت قيامةً ونشوراً لنقبل بما تقولون!

وتقولون في شأن النّبي محمّد ﷺ تارةً بأنّه شاعر، أو بأنّه ساحر، وتارةً تقولون أنّه لمجنون، وتارةً تقولون إنّما يعلمه بشر فهو مُعَلَّم!!

(١) هناك شرح مفصّل في تفسير هذه الآية فراجعه في سورة «المؤمنون».

كما تقولون في شأن القرآن بأنّه: أساطير الأوّلين تارةً، أو تقولون بأنّه شعر، وتارةً تسمّونه سحراً، وحيناً آخر تقولون أنّه كذب افتراه وأعانه عليه قوم آخرون!... الخ.

فقسماً بحُبكِ السماء وتجاعيدها إنّ كلامكم مختلف ومليء بالتناقض، ولو كان لكلامكم أساس لكنتم على الأقل تقفون عند موضوع خاصّ ومطلب معيّن ولما تحوّلتم منه كلّ يوم إلى موضوع آخر!

وهذا التعبير في الحقيقة إنّما هو استدلال على بطلان ادّعاء المخالفين في شأن التوحيد والمعاد والنّبي والقرآن «وإن كان اعتماد هذه الآيات في الأساس على مسألة المعاد كما تدلّ عليه القرينة في الآيات التالية»!.

ونعرف أنّه يُستند دائماً لكشف كذب المدّعين الكذبة سواءً في المسائل القضائية أو المسائل الأُخرى على تناقض كلامهم وتضادّه، فكذلك القرآن يعوّل على هذا الموضوع تماماً!

وفي الآية التالية يبيّن القرآن علّة الانحراف عن الحقّ فيقول: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي يؤفك عن الإيمان بالقيامة والبعث كلّ مخالف للحقّ! وإلاّ فإنّ دلائل الحياة بعد الموت واضحة وجليّة!

وينبغي الالتفات إلى أنّ تعبير الآية عامّ ومغلق، وترجمتها الحرفية هي «ليصرف عنه من هو مصروف».

لأنّ «الإفك» في الأصل يطلق على صرف الشيء، فلذا يطلق على الكذب الذي فيه تأثير انحرافي بأنّه إفك، كما يطلق على الرياح المختلفة بأنّها «المؤتفكات».

ولكن مع ملاحظة أنّ الكلام كان في الآيات المتقدّمة على المعاد والقيامة، فمن المعلوم أنّ المراد الأصلي من الانحراف والإفك هنا هو الانحراف عن هذه العقيدة... كما أنّه حيث كان الكلام في الآية المتقدّمة عن اختلاف كلام الكفّار وتناقضهم فيعلم أنّ المراد هنا من الآية هم أُولئك المنحرفون عن الإيمان بالمعاد الذين انحرفوا عن مسير الدليل العقلي والمنطق السليم الباحث عن الحقّ!

وبالطبع لا مانع أن يكون المراد من «الإفك» هنا هو الانحراف عن قبول الحقّ أيّاً كان نوعه، سواءً كان هذا الانحراف عن القرآن أم التوحيد أو النبوّة أو المعاد «ومن هذا القبيل مسألة ولاية الأئمّة المعصومين الواردة في بعض الرّوايات» ولكن مسألة القيامة والمعاد على كلّ حال التي هي الموضوع الأصلي داخلة فيه قطعاً.

وفي الآية التالية ذمّ شديد للكاذبين وتهديد لتخرصّاتهم إذ تقول: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾.

و«الخرّاص» من مادّة «خَرْص» - على زنة دَرس - ومعناه في الأصل كلّ كلام يقال تخميناً أو ظنّاً، وحيث إنّ مثل هذا الكلام غالباً ما يكون كذباً فقد استعملت هذه الكلمة في الكذب أيضاً... فيكون المعنى من ﴿ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ هو: أُولئك الذين يطلقون كلمات عارية من الصحّة ولا أساس لها، والمراد منها هنا - بقرينة الآيات التالية - هو: أُولئك الذين يحكمون أو يقضون في شأن القيامة والمعاد بكلام لا أساس له بعيد عن المنطق.

على كلّ حال، فإنّ هذا التعبير هو في شكل دعاء عليهم... دعاء يدلّ على أنّهم «موجودات» تستحقّ الفناء والقتل، فعدمهم خير من وجودهم!

كما فسّر بعضهم «القتل» هنا بالطرد واللعن والمحروميّة عن رحمة الله.

ومن هنا يمكن أن يستفاد من هذا الحكم الكلّي أيضاً أنّ القضاء بلا دليل ولا مدرك أو مستند بيّن بل على الظنّ والحدس هو عمل يسوق إلى الضلال ويستحقّ اللعن والعذاب.

ثمّ يعرّف القرآن هؤلاء الخراصين الكذبة فيقول: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾.

«الغمرة» في الأصل معناها الماء الغزير الذي يغطّي محلا ما... ثمّ استعملت على الجهل السحيق الذي يغطّي عقل الشخص!

وكلمة ﴿سَاهُونَ﴾ جمع لـ «ساه» وهي مشتقّة من «السهو» والمراد بها هنا الغفلة.

وقال بعضهم إنّ الجهل على مراحل: فالأُولى هي «السهو والاشتباه»، ثمّ «الغفلة» وبعدها «الغمرة».

فيكون المعنى بناءً على هذا أنّهم ابتدوا من مرحلة السهو، ثمّ انساقوا إلى مرحلة الغفلة، ولما استمرّوا وواصلوا في هذا الطريق غرقوا في الجهل تماماً، والجمع بين هذين التعبيرين «السهو» و«الغمرة» في هذه الآية لعلّه إشارة إلى بداية هذه الحركة ونهايتها.

فعلى هذا يكون المراد من كلمة ﴿ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ هم الغارقون في جهلهم وكلّ يوم يتذرّعون بحجّة واهية فراراً من الحقّ.

ولذلك فهم دائماً: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾.

جملة ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ والفعل للمضارع يدلّ على أنّهم يثيرون هذا السؤال أيّان يوم الدين؟! باستمرار... على أنّه ينبغي أن يكون يوم القيامة وموعده مخفياً، ليكون محتمل الوقوع

في أيّ زمان، ويحصل منه الأثر التربوي للإيمان بيوم القيامة الذي هو بناء الشخصية والاستعداد الدائم.

وهذا الكلام يشبه تماماً كلام المريض إذ يسأل طبيبه مثلاً: متى يكون آخر عمري؟ ويكرّر عليه السؤال باستمرار، فكلّ أحد يعدّ هذا السؤال هذراً ويقول: المهمّ أن تعرف أنّ الموت حقّ لتعالج نفسك ولئلاّ تبتلى بالموت السريع.

إلاّ أنّهم لم يكن لهم من هدف سوى الاستهزاء أو التذرّع بالحجج الواهية ولم يكن سؤالهم عن تاريخ يوم القيامة وزمانه بحقّ!

إلاّ أنّه ومع هذه الحال فإنّ القرآن يردّ عليهم مجيباً بلغة شديدة ويعنّفهم ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾.

وعندئذ يقال لهم هنالك: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ والفتنة في الأصل اختبار الذهب في موقد النار ليمتاز الخالص من غيره، ومن هنا فقد استعملت «الفتنة» على أيّ نوع كان من أنواع الامتحان أو الاختبار، كما استعملت على دخول الإنسان النار، كما تستعمل في البلاء والعذاب وعدم الراحة كما تشير إليه الآية محل البحث هنا.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾

التّفسير

ثواب المستغفرين بالأسحار

تعقيباً على الكلام المذكور في الآيات آنفة الذكر الذي كان يدور حول الكذبة والجهلة ومنكري القيامة وعذابهم، في الآيات محلّ البحث يقع الكلام عن المؤمنين المتّقين وأوصافهم وثوابهم لتتجلّى بمقارنة الفريقين - كما هو عليه أُسلوب القرآن - الحقائق أكثر فأكثر.

تقول الآيات هنا: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ وصحيح أنّ البستان بطبيعته يكون

ذا سواق وروافد، لكن ما ألطف أن تتدفّق مياه العيون في داخل البستان نفسه وتسقي أشجاره... فهذا هو ما تمتاز به بساتين الجنّة... فهي ليست ذات عين واحدة بل فيها عيون ماء متعدّدة تجري متدفّقة هناك(١).

ثمّ يضيف القرآن مشيراً إلى نعم الجنّات الأُخر فيتحدّث عنها بتعبير مغلق فيقول: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

أي أنّهم يتلقّون هذه المواهب الإلهيّة بمنتهى الرضا والرغبة والشوق... ويعقّب القرآن في ختام الآية بأنّ هذه المواهب وهذا الثواب كلّ ذلك ليس اعتباطاً بل ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾(٢) و«الإحسان» هنا يحمل معنى وسيعاً بحيث يشمل طاعة الله والأعمال الصالحة الأُخر أيضاً.

والآيات التالية تبيّن كيفية إحسانهم، فتعرض ثلاثة أوصاف من أوصافهم فتقول: أوّلاً: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾.

كلمة ﴿يَهْجَعُونَ﴾ مشتقّة من الهجوع، ومعناه النوم ليلاً... قال بعضهم المراد من هذا التعبير أنّهم كانوا يقظين يحيون أكثر الليل أو يحيون الليل... وينامون قليلاً منه.

ولكن حيث إنّ هذا الحكم والدستور الشرعي بصورته العامّة والكليّة للمحسنين والمتّقين يبدو بعيداً، فلا يناسب هذا التّفسير المقام، بل المراد أنّهم قلّ أن يناموا تمام الليل، وبتعبير آخر إنّ الليل هنا المراد منه العموم والجنس.

فعلى هذا فهم كلّ ليلة يحيّون قسماً منها بالعبادة وصلاة الليل، أمّا الليالي التي يرقدون فيها حتى مطلع الفجر... وتفوت عليهم العبادة فيها كليّاً... فهي قليلة جدّاً.

وهذا التّفسير منقول عن الإمام الصادق عليه السلام في بعض أحاديثه أيضاً(٣) وهناك

---

(١) كلمة «في» بدخولها على الجنّات واضحة المعنى، لأنّ المتّقين داخل الجنان إلاّ أنّ دخولها على العيون بالعطف ليس معناه أنّ المتّقين داخل العيون بل تعني أنّهم في جنّات تتخلّلها العيون.

(٢) المراد من ﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾... كما قلنا سابقاً يعني قبل يوم القيامة والدخول إلى الجنّة أي في عالم الدنيا، إلاّ أنّ بعض المفسّرين قال بأنّ قبل ذلك يعني قبل ورود الشرع، وهو إشارة إلى تمسكّهم بالمستقّلات العقلية حتى قبل نزول الوحي إلاّ أنّ هذا المعنى يبدو بعيداً.

(٣) أشار العلاّمة الطبرسي في مجمع البيان إلى هذا الحديث ج٩ ص١٥٥، كما أنّ هذا الحديث منقول في تفسير الصافي عن الكافي بهذه الصورة: كانوا أقلّ الليالي تفوتهم لا يقومون فيها (تفسير الصافي: ذيل الآية مورد البحث).

تفاسير أُخر لهذه الآية أعرضنا عن ذكرها لأنّها[1] بعيدة.

والوصف الثاني من أوصافهم يذكره القرآن بهذا البيان: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

فحيث إنّ عيون الغافلين هاجعة آخر الليل والمحيط هادىء تماماً، فلا صخب ولا ضجيج ولا شيء يشغل فكر الإنسان ويقلق باله... ينهضون ويقفون بين يدي الله ويعربون له عن حاجتهم وفاقتهم، ويصفّون أقدامهم، ويصلّون ويستغفرون عن ذنوبهم خاصّة.

ويرى الكثير من المفسّرين أنّ المراد من «الاستغفار» هنا هو «صلاة الليل» لأنّ «الوتر» منها مشتمل على الاستغفار.

و«الأسحار» جمع سحر على زنة «بشر» ومعناه في الأصل الخفي أو المغطّى، وحيث إنّه في الساعات الأخيرة من الليل يغطّي كلّ شيء خفاء خاصّ، فقد سمّى آخر الليل سحراً.

وكلمة «سِحر» - بكسر السين - تطلق أيضاً على ما يُغطّي وجه الحقائق أو يخفي أسرارها عن الآخرين!.

وقد جاء في رواية في تفسير «الدرّ المنثور» أنّ النّبي ﷺ قال: «إنّ آخر الليل في التهجّد أحبّ إليّ من أوّله، لأنّ الله يقول: وبالأسحار هم يستغفرون»[2].

ونقرأ حديثاً آخر عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «كانوا يستغفرون الله في الوتر سبعين مرّة في السحر»[3].

ثمّ يذكر القرآن الوصف الثالث لأهل الجنّة المتّقين فيقول: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾.

كلمة ﴿حَقٌّ﴾ هنا هو إمّا لأنّ الله أوجب ذلك عليهم: كالزكاة والخمس وسائر الحقوق الشرعية الواجبة، أو لأنّهم التزموه وعاهدوا أنفسهم على ذلك، وفي هذه الصورة يدخل في هذا المفهوم الواسع حتى غير الحقوق الشرعية الواجبة.

---

(١) كلمة «ما» في قوله ﴿مَا يَهْجَعُونَ﴾ يمكن أن تكون زائدة وللتأكيد أو موصولة أو مصدرية كما ورد ذلك في تفسير الفخر الرازي والميزان، وقال بعضهم بأنّها زائدة أو مصدرية فحسب كما جاء في تفسير القرطبي وروح البيان، وما احتمله بعضهم بأنّها نافية فهو بعيد.

(٢) تفسير الدرّ المنثور، ج٦، ص١١٣.

(٣) تفسير مجمع البيان ذيل الآيات مورد البحث.

ويعتقد بعض المفسّرين أنّ هذه الآية ناظرة إلى القسم الثاني فحسب، فهي لا تشمل الحقوق الواجبة. . . لأنّ الحقوق الواجبة واردة في أموال الناس جميعاً، المتّقين وغير المتّقين حتى الكفّار.

فعلى هذا حين يقول القرآن: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ﴾ فإنّما يعني أنّه إضافة إلى واجباتهم وحقوقهم أوجبوا على أنفسهم حقّاً ينفقونه من مالهم في سبيل الله للسائل والمحروم.

إلاّ أنّه يمكن أن يقال إنّ الفرق بين المحسنين وغيرهم هو أنّ المحسنين يؤدّون هذه الحقوق، في حين أنّ غيرهم ليسوا مقيدين بذلك.

كما يمكن أن يقال في تفسير الآية أنّ المراد بالسائل في ما يخصّ الحقوق الواجبة، لأنّه يحقّ له السؤال والمطالبة بها. . . والمراد بالمحروم في ما يخصّ الحقوق المستحبّة إذ ليس له حقّ المطالبة بها.

ويصرّح «الفاضل المقداد» في كتابه «كنز العرفان» أنّ المراد من قوله: ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ هو الحقّ الذي ألزموه أنفسهم في أموالهم ويرون أنفسهم مسؤولين عنه[١].

وجاء نظير هذا المعنى في سورة المعارج الآيتين ٢٤ و٢٥ إذ يقول سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾.

ومع ملاحظة أنّ حكم وجوب الزكاة نزل في المدينة وآيات هذه السورة جميعها مكيّة، فيتأيّد الرأي الأخير.

وما وصلنا من روايات عن أهل البيت عليهم السلام يؤكّد أيضاً أنّ المراد من ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ شيء غير الزكاة الواجبة، إذ نقرأ حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «لكنّ الله عزّ وجلّ فرض في أموال الأغنياء حقوقاً غير الزكاة فقال عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ ﴿٢٥﴾﴾، فالحقّ المعلوم غير الزكاة وهو شيء يفرضه الرجل على نفسه في ماله. . . إن شاء في كلّ يوم وإن شاء في كلّ جمعة وإن شاء في كلّ شهر»[٢].

وفي هذا المجال أحاديث متعدّدة أُخر منقولة عن الإمام علي بن الحسين والإمام الباقر والإمام الصادق عليهم السلام أيضاً[٣].

---

(١) مؤدّى ما ورد في كنز العرفان، ج١، ص٢٢٦.

(٢) وسائل الشيعة، ج٦، ص٧٢ (باب ما تجب فيه الزكاة الباب السابع الحديث ٢)، وج ٩، ص ٤٦، ح ١١٤٨٧، (باب الحقوق في المال سوى الزكاة وجملة من أحكامها. . .) [طبعة آل البيت].

(٣) المصدر السابق.

وهكذا فإنّ تفسير الآية واضح بيّن.

وهناك كلام في الفرق بين «السائل» و«المحروم»، فقال بعضهم «السائل» هو من يطلب العون من الناس، أمّا «المحروم» فمن يحافظ على ماء وجهه ويبذل قصارى جهده ليعيش دون أن يمدّ يده إلى أحد، أو يطلب العون من أحد، بل يصبّر نفسه.

وهذا هو ما يعبّر عنه بالمحارف، لأنّه قيل في كتب اللغة في معنى «المحارف» بأنّه الشخص الذي لا ينال شيئاً مهما سعى وجدّ فكأنّ سبل الحياة مغلقة بوجهه!

وعلى كلّ حال، فهذا التعبير يشير إلى هذه الحقيقة وهي لا تنتظروا أن يأتيكم المحتاجون ويمدّوا أيديهم إليكم، بل عليكم أن تبحثوا عنهم وتجدوا الأفراد المحرومين الذين يعبّر عنهم القرآن بأنّهم ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾(١)... لتساعدوهم وتحفظوا ماء وجوههم، وهذا دستور مهم لحفظ حيثية المسلمين المحرومين وينبغي الاهتمام به.

وهؤلاء الأشخاص يمكن معرفتهم - كما صرّح بذلك القرآن ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾.

أجل فبرغم سكوتهم إلاّ أنّ في عمق وجوههم آثار الهموم وما تحمله أنفسهم من آلام يعرفها المطّلعون، ويخبر لون وجوههم عن كربتهم.

بحوث

١ - التوجّه نحو الله وخلق الله

ما ورد في هذه الآيات عن المتّقين وأوصافهم يتلخّص - في الحقيقة - في قسمين «التوجّه نحو الله» «الخالق» وذلك في ساعات يتوفّر فيها من جميع الجهات الاستعداد لبيان الحاجة عنده مع حضور القلب، وتبلغ أسباب انشغال الفكر وانصراف الذهن إلى أدنى حدّ أي في أواخر الليل!

والآخر «التوجّه نحو الخلق» ومعرفة احتياج المحتاجين سواءً أظهروا حاجتهم أم كتموها.

وهذا المطلب هو ما أشار إليه القرآن في آياته مراراً وأوصى به، والآيات التي يرد فيها ذكر الصلاة، ثمّ يتلوها ذكر الزكاة، وتعول على الاثنين معاً، تشير إلى هذه

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٣.

المسألة، لأنّ الصلاة أبرز مظهر لعلاقة الإنسان بالخالق، والزكاة أجلى مظهر لعلاقته بخلق الله.

٢ - السهر ديدن العشّاق

مع أنّ صلاة الليل من الصلوات المستحبّة والنافلة إلاّ أنّ القرآن المجيد أشار إليها مراراً، وهذا دليل على أهميّتها القصوى حتى أنّ القرآن عدّها وسيلة لبلوغ «المقام المحمود» وأساساً لقرّة العين «كما هو في الآية ٧٩ من سورة الإسراء والآية ١٧ من سورة آلم السجدة».

وفي الرّوايات الإسلامية أيضاً اهتمام بالغ على هذه القضيّة وبيان الحاجة «في صلاة الليل» والسهر في السحر، ففي مكان يعدّها النّبي بأنّها كفّارة عن الذنوب فيقول: «يا علي ثلاث كفّارات: . . . منها: التهجّد بالليل والناس نيام»(١).

وفي حديث آخر ورد عنه ﷺ أنّه قال: «أشراف أُمّتي حملة القرآن وأصحاب الليل»(٢).

وأيضاً في حديث آخر عنه ﷺ يوصي علياً عليه السلام إذ قال أربع مرّات: «عليك بصلاة الليل(٣)».

وينقل عن الإمام الصادق في تفسير الآية محلّ البحث: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: أنّه قال: «كانوا أقلّ الليالي تفوتهم لا يقومون فيها»(٤).

كما ورد في حديث عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «الركعتان في جوف الليل أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها(٥)».

كما نقرأ حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال لسليمان الديلمي «أحد أصحابه»: «لا تدع قيام الليل فإنّ المغبون من حُرم قيام الليل»(٦).

وبالطبع فإنّ الرّوايات في هذا الصدد كثيرة ويلاحظ فيها تعابير مثيرة وطريفة جدّاً ولا سيّما التعبير بأنّ صلاة الليل وسيلة «لمحو الذنوب» و«تيقّظ الفكر» و«إشراق القلب»

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٥، ص ٢٧٣.
(٢) وسائل الشيعة، ج ٥، ص ٢٧٥.
(٣) المصدر السابق، ص ٢٧٧.
(٤) وسائل الشيعة، ج ٥، ص ٢٧٩.
(٥) بحار الأنوار، ج٨٧، ص١٤٨.
(٦) المصدر السابق، ص ١٤٦.

و«جلب الرزق» و«سعة العيش» و«الصحّة»، ولو جمعنا هذه الرّوايات لحصلنا على كتاب مستقل[١].

وقد كان لنا بحوث أُخر في هذا المجال ذيل الآية (٧٩) من سورة الإسراء وذيل الآية (١٧) من سورة الم السجدة فلا بأس بمراجعتها.

حقّ السائل والمحروم!

ممّا ينبغي ذكره أنّنا قرأنا في الآيات المتقدّمة أنّ في أموال الصالحين والمحسنين حقّاً للسائل والمحروم، وهذا التعبير يدلّ بوضوح أنّهم يعدّون أنفسهم مدينين للمحتاجين والمحرومين، ويعدّون السائل أو المحروم ذا حقّ عليهم، حقّ ينبغي دفعه إليه دون امتنان ولا أذى، فكأنّه دين من سائر الديون.

وكما قلنا آنفاً فإنّ هذا التعبير كما تدلّ عليه القرائن المتعدّدة لا علاقة له بالزكاة الواجبة وأمثالها، بل هو ناظر إلى النفقة المستحبّة التي يعدّها المتّقون ديناً عليهم[٢].

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣)﴾

التّفسير

آيات الله وآثاره في أنفسكم

تعقيباً على الآيات المتقدّمة التي كانت تتحدّث عن مسألة المعاد وصفات أهل النار وأهل الجنّة، تأتي هذه الآيات - محلّ البحث - لتتحدّث عن آيات الله ودلائله في الأرض وفي وجود الإنسان نفسه ليطّلع على مسألة التوحيد ومعرفة الله وصفاته التي هي مبدأ الحركة نحو الخيرات كلّها من جهة، وعلى قدرته على مسألة المعاد والحياة بعد الموت من جهة أُخرى، لأنّ خالق الحياة على هذه الأرض وما فيها من عجائب قادر

(١) للاطلاع على هذه الرّوايات يراجع، ج ٥ من وسائل الشيعة؛ ج ١ من مستدرك الوسائل؛ ج ٨٧ من بحارالأنوار.

(٢) نزول هذه الآيات بمكّة وورود هذا الحكم في خصوص أهل الجنّة الصالحين وروايات أهل البيت كلّها قرائن على أنّ الحقّ في الآية غير الزكاة.

على تجديد الحياة بعد الموت كذلك! تقول هذه الآية أوّلاً: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾.

والحقّ أنّ دلائل الله وقدرته غير المتناهية وعلمه وحكمته التي لا حدّ لها في هذه الأرض كثيرة ووفيرة إلى درجة أنّ عمر أي إنسان مهما كان لا يكفي لمعرفتها جميعاً.

فحجم الأرض وبعدها عن الشمس وحركتها حول نفسها وحركتها حول الشمس والقوى الجاذبة والدافعة التي تنتج عن حجمها وحركتها وهي متعادلة فيما بينها تماماً ومتناسقة فجميع هذه الأُمور مجتمعةً توفّر الحياة على سطح الأرض وكلّ ذلك من آيات الله الكبرى.

في حين أنّه لو تغيّرت حركة من هذه الحركات واختلفت الخصائص أقل اختلاف، لاضطربت الموازين وتبدلّت ظروف الحياة على سطح الأرض.

فالمواد التي تتشكّل منها الأرض والمنابع التي هي فوق سطح الأرض وداخلها - المعدّة للحياة - كلّ منها آية من آيات الله ودلائله.

الجبال والسهول والهضاب والأنهار والعيون التي كلّ منها له أثره في استمرار الحياة واتّساق ظروفها دلائل أُخرى من دلائله وآياته.

مئات الآلاف من أنواع النباتات والحشرات والحيوانات... أجل، مئات الآلاف كلّ منها بخصائصه وعجائبه عند مطالعة كتب الأحياء و«البايلوجيا» وكتب الجيولوجيا والتربة وعلم النبات وعلم الحيوان تدع الإنسان يستغرق في حيرة مذهلة!.

وفي كلّ زاوية أو جانب من هذه الكرة الأرضية أسرار مثيرة قلّ أن يلتفت إليها أحد، إلاّ أنّ الباحثين والعلماء كشفوا النقاب عن جزء منها وأظهروا عظمة الخالق وقدرته.

ولا بأس أن ننقل هنا جانباً من كلمات بعض العلماء المعروفين في العالم الذين لهم دراسات كثيرة في هذا الصدد: إنّه «كرسي موريسين» فلنصغ إليه قائلاً:

«لقد روعي منتهى الدقّة في تنظيم العوامل الطبيعية فلو تضخّمت القشرة الخارجية للكرة الأرضية أكثر ممّا كانت عليه عشر مرّات لانعدم الأوكسجين الذي هو المادّة الأصلية للحياة، ولو أنّ أعماق البحار كانت أكثر عمقاً ممّا هي عليه قليلاً أو كثيراً، لانجذب جميع الأوكسجين والكربون من سطح الأرض ولم يعد أي إمكان لحياة النبات أو الحيوان على سطح الأرض»!

ويقول في مكان آخر في الغلاف الجوّي الذي يحيط بالأرض: لو أنّ هذا الغلاف الذي يحيط بالأرض من الهواء كان رقيقاً لخرقته الشهب الثواقب التي تأتي كلّ يوم بنحو

عدّة ملايين فتصيب الأرض حيث ما وقعت، إلاّ أنّ هذا الغلاف الجوّي يمنعها لكثافته فتتلاشى وتحترق عنده فلا تصل إلى الأرض.

ولو أنّ الشهب الثواقب خفّت سرعتها لما احترقت عند اصطدامها بالهواء ولوقعت على الأرض ودمّرت الكثير.

ويقول في مكان آخر إنّ نسبة الأوكسجين في الهواء هي إحدى وعشرين بالمائة فحسب، فلو كانت هذه النسبة خمسين بالمائة لاحترق به كلّ ما من شأنه الاشتعال في هذا العالم... ولو وصلت شظية صغرى من النار إلى شجرة في غابة لاحترقت الغابة جمعاء»!

إنّ نسبة كثافة الهواء المحيط بالأرض إلى درجة بحيث يوصل الأشعّة المناسبة لرشد النباتات ونموّها وتعدم المكروبات الضارّة في الفضاء نفسه وتنتج الفيتامينات النافعة.

ومع وجود الأبخرة المختلفة التي خرجت من باطن الأرض خلال القرون المتمادية وانتشرت في الهواء وأغلبها أبخرة سامّة فمع ذلك فإنّ الهواء المحيط بالأرض لم يتلوّث وما يزال باقياً على حالته الطبيعية المناسبة للحياة الإنسانية.

والجهاز الذي يوجد هذه الموازنة ويحفظ هذا التعادل هو البحر والمحيط الذي منه تستمدّ المواد الحياتية والغذاء والأمطار واعتدال الهواء والنباتات وأخيراً فإنّ وجود الإنسان نفسه يستمدّ منه أيضاً.

فكلّ من يدرك هذه المعاني فعليه أن يطأطىء رأسه للبحر تعظيماً وأن يشكر مواهبه وخالق البحر»[1].

ويضيف القرآن في الآية التالية قائلاً: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ أي أفلا تبصرون هذه الآيات في أنفسكم أيضاً؟!

ولا شكّ أنّ الإنسان أعجوبة عالم الوجود وما هو في العالم الأكبر موجود في عالم الإنسان الأصغر أيضاً، بل في الإنسان عجائب لا توجد في أي مكان من العالم!

والعجب أنّ هذا الإنسان على عظمته وعقله وعلمه وهذا الابتداع والابتكار والصنع العجيب كان أوّل يومه على صورة نطفة صغرى لا قيمة لها!! لكن ما أن استقرّت في الرحم حتى تكاملت بسرعة وتبدلّت يوماً بعد يوم ولحظة بعد أُخرى فإذا هذه النطفة التي لا قيمة لها تغدو إنساناً كاملاً سويّاً!

---

(١) الكاتب كرسي موريسين في كتابه (أسرار خلق الإنسان) من ص٣٣ إلى ٣٦.

خليّة واحدة التي هي أصغر جزء في بدن الإنسان تشكّل بناية ضخمة متداخلة عجيبة فهي على حدّ تعبير بعض العلماء تعادل «مدينة صناعية».

يقول أحد علماء «علم الأحياء» إنّ هذه المدينة العظمى مع آلاف الأبواب أو البوابات المثيرة وآلاف المعامل والمخازن وشبكات المجاري والتأسيسات الكثيرة والارتباطات والأعمال الحياتية المختلفة كلّ ذلك في مساحة صغيرة جدّاً بمقدار خلية من أكثر الأُمور تعقيداً وإثارة، إذ لو أردنا أن نهيىء تأسيسات مثلها ولن نستطيع أبداً - لكان علينا أن نشغل مساحة آلاف الهكتارات من الأرض وعليها البنايات والماكنات المختلفة المعقّدة لنصل إلى مثل هذه الخطّة!! إلاّ أنّ الطريف أنّ جهاز الخلقة جعل كلّ ذلك في مساحة تعدل خمسة عشر مليونيم الميليمتر فحسب[1].

إنّ الأجهزة الموجودة في بدن الإنسان كالقلب والكلية والرئة وخاصّة عشرات آلاف الكيلومترات من الأعصاب الرقيقة أو الكبيرة والأعصاب الدقيقة التي لا ترى بالعين المجرّدة وجميعها مسؤولة عن إيصال الغذاء والماء والتهوية إلى عشرة مليون مليارد خلية، والحواس المختلفة كالسمع والبصر والحواس الأُخر كلّ منها آية عظمى من آيات الله.

وأهمّ من كلّ ذلك لغز الحياة التي لم تعرف أسرارها وبناء الروح أو العقل الإنساني الذي يعجز عن إدراكه عقول جميع الناس وهنا - ينحني الإنسان ويتمتم بالتسبيح والحمد والثناء لله دون اختياره ويترنّم بهذه الأشعار:

فيك يا أعجوبة الكو ... ن غدا الفكر كليلا
أنت حيّرت ذوي اللـ ... ـبّ وبلبلت العقولا
كلّما قدّم فكري ... فيك شبراً فرّ ميلا
ناكصاً يخبط في عمـ ... ـياء لا يُهدى سبيلا[2]

وقد ورد في حديث عن النبي ﷺ أنّه قال: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه»[3].

أجل إنّ معرفة النفس في جميع المراحل طريق لمعرفة الله والتعبير: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

---

(١) سفرة في أعماق وجود الإنسان قسم الخلايا.
(٢) شرح نهج البلاغة، ج ١٣، ص ٥١.
(٣) سفينة البحار، ج ٢، ص ٦٠٣ مادّة نفس.

تعبير لطيف: أي إنّ هذه الآيات حولكم وفي داخلكم وفي تمام وجودكم بحيث لو فتحتم أعينكم ولو قليلاً لأبصرتم آيات الله ولارتوت أرواحكم من إدراك عظمته!.

وفي الآية الثالثة من الآيات - محلّ البحث - إشارة إلى القسم الثالث من دلائل عظمة الخالق وقدرته على المعاد إذ تقول: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾.

وبالرغم من أنّ بعض الرّوايات الإسلامية تفسّر «الرزق» في هذه الآية بـ«المطر» الذي يمنح الحياة وهو مصدر الخير والبركة في الأرض جميعاً، والآية (٥) من سورة الجاثية أيضاً توافق هذا التّفسير إذ تقول: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ إلاّ أنّ هذا المعنى يمكن أن يكون مصداقاً جليّاً من مصاديق الآية، في حين أنّ سعة مفهوم الرزق تشمل حبّات المطر وغيرها كنور الشمس الذي يأتي من السماء وله أثره الفاعل في الحياة، والهواء الذي هو أساس حياة الموجودات.

كلّ هذا لو أخذنا مفهوم السماء بالمعنى اللغوي أي السماء التي فوقنا، إلاّ أنّ بعضهم فسّرها بعالم الغيب وما وراء الطبيعة أو اللوح المحفوظ الذي تقدّر منه أرزاق العباد!

وبالطبع فإنّ الجمع بين التّفسيرين ممكن، وإن كان التّفسير الأوّل أنسب وأوضح!.

وأمّا جملة و﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ فيمكن أن تكون تأكيداً على مسألة الرزق ووعد الله في هذا المجال، أو أنّ المراد منها الجنّة الموعودة، لأنّنا نقرأ الآية ١٥ من سورة النجم ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾ أو أنّها إشارة إلى كلّ خير وبركة أو عذاب ينزل من السماء! أو أنّ ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ناظر إلى جميع هذه المعاني، لأنّ مفهوم ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ واسع جدّاً.

وعلى كلّ حال، فهذه الآيات الثلاث فيها ترتيب لطيف، فالآية الأُولى تتحدّث عن أسباب وجود الإنسان وحياته، والآية الثانية تتحدّث عن الإنسان نفسه، والآية الثالثة تتحدّث عن أسباب بقائه ودوامه!.

وجدير بالالتفات أيضاً أنّ ما يمنع البصيرة ويصدّها عن مطالعة أسرار الخلق وأسرار الأرض وعجائب وجود الإنسان هو «الحرص على الرزق»، فالله سبحانه يطمئن الإنسان في الآية الأخيرة بأنّ رزقه مضمون، ليستطيع أن ينظر إلى عجائب العالم ويتحقّق فيه قوله: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾؟!

لذلك فإنّ الآية الأخيرة من الآيات محلّ البحث تُقسم فتقول: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾.

وقد بلغ الأمر حدّاً أن يقسم الله على ما لديه من عظمة وقدرة ليُطمئِنَ عباده الشاكّين ضعاف الأنفس الحريصين إنّ ما توعدون في مجال الرزق والثواب والعقاب والقيامة جميعه حقّ ولا ريب في كلّ ذلك(١).

والتعبير بـ ﴿مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ تعبير لطيف ودقيق إذ يتحدّث عن أكثر الأشياء لمساً، لأنّه قد يخطىء الإنسان في الباصرة أو السمع بأن يتوهّم أنّه سمع أو رأى، إلاّ أنّه لا يمكن أن يتوهّم أنّه قال شيئاً مع أنه لم يقله. . . لذلك فإنّ القرآن يقول: كما أنّ ما تنطقون محسوس عندكم وله واقع، فإنّ الرزق والوعد الإلهي عنده كذلك!

ثمّ بعد هذا كلّه فإنّ النطق بنفسه واحد من أكبر الأرزاق والمواهب الإلهيّة التي لم يتمتّع بها أي موجود حيّ سوى الإنسان، وليس بخاف أثر الكلام والنطق في الحياة الاجتماعية وتعليم الناس وتربيتهم وانتقال العلوم وحلّ مشاكل الحياة على أحد.

بحوث

قصّة الأصمعي المثيرة

ينقل الزمخشري في كشّافه عن الأصمعي(٢) أنّه قال: خرجت من مسجد البصرة فبصرت بأعرابي من أهل البادية راكباً على دابته فواجهني وسألني: من أي القبائل أنت؟! فقلت: من بني الأصمع. . . فقال من أين تأتي؟ فقلت: من مكان يقرأ فيه كلام الله فقال لي: اقرأ لي منه، فقرأت له آيات من سورة الذاريات حتى بلغت ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ فقال كفى. ثمّ نهض وعمد إلى بعير عنده فنحره وقسّم لحمه على المحتاجين من الذاهبين والآيبين ثمّ عمد إلى سيفه وقوسه فكسّرهما أيضاً وألقاهما جانباً واستدار إلى الوراء ومضى وانتهت هذه القصّة!.

وحين مضيت إلى حجّ بيت الله الحرام بمعيّة هارون الرشيد وكنت مشغولاً في الطواف إذا أنا برجل يناديني بصوت ضعيف فنظرت فإذا هو ذلك الأعرابي وكان نحيلاً

(١) هناك كلام بين المفسّرين في أنّ مرجع الضمير في «أنّه» على أي شيء يعود؟ قال بعضهم يعود على الرزق، وقال بعضهم يعود على ما توعدون وقال بعضهم يعود على النّبي والقرآن إلاّ أنّ التّفسير الأوّل أنسب.

(٢) كان يدعى «عبدالملك بن قريب» وكان يعيش في عهد هارون الرشيد وله حافظة عجيبة واطّلاعات واسعة عن تاريخ العرب وأشعارها وتوفّي في البصرة سنة ٢١٦ الكنى والألقاب، ج٢، ص٢٧.

مصفرّ الوجه «وكان يظهر عليه العشق الملتهب الذي لم يدع له قراراً» فسلّم عليّ وطلب منّي أن أُعيد عليه سورة الذاريات فلمّا بلغت الآية آنفة الذكر صرخ وقال: وجدنا وعد ربّنا حقّاً... ثمّ أضاف هل هناك آية بعدها؟! فقرأت ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾، فصرخ ثانية وقال: ياسبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف ليصدّقوه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين(١).

أين الجنّة؟!

كما ذكرنا في الآيات آنفة الذكر فإنّ بعض المفسّرين يرى أنّ جملة ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ معناها الجنّة، وقالوا: يستفاد من هذه الآية أنّ الجنّة في السماء، إلاّ أنّ هذا الكلام لا ينسجم مع الآية التي تتحدّث عن الجنّة فتقول: ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾(٢).

وكما قلنا - إنّ هذا التّفسير لجملة ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ لا دليل عليه، بل يمكن أن يكون إشارة إلى وعد الله برزقه أو عذاب السماء.

وإذا كان في الآية (١٥) من سورة النجم قد ورد أنّ جنّة المأوى في السماء عند سدرة المنتهى فليس ذلك دليلاً على هذا المعنى، لأنّ «جنّة المأوى» قسم من بساتين الجنّة لا جميع الجنّة... (فلاحظوا بدقّة).

الاستفادة من آيات الله تحتاج إلى قابلية!

حين تتحدّث آيات القرآن عن أسرار الخلق ودلائل الله في عالم الوجود تقول تارةً إنّ في ذلك ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يونس الآية ٦٧.

وتارةً تقول: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الرعد الآية ٣.

وأُخرى تقول: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الرعد الآية ٤.

أو تقول: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ النحل الآية ٧٩.

وفي مكان آخر تقول: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ﴾ سورة طه الآية ٥٤.

وتارةً تقول: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ الحجر الآية ٧٥.

وأخيراً تقول: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ الروم الآية ٢٢.

والآيات محلّ البحث تقول: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟!

---

(١) تفسير الكشّاف، ج٤، ص٤٠٠.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

أي إنّ آيات الله في الأرض وفي أنفسكم واضحة جليّة لأُولئك الذين لهم بصر ثاقب.

وهذه التعبيرات تدلّ دلالة واضحة على أنّ الاستفادة من الآيات التي لا تحصى - الدالّة على وجود ذاته المقدّسة في الأرض تحتاج إلى استعداد كاف، عين باصرة، أُذن سميعة، فكر يقظ، قلب ذكي وروح مهيّأة لقبول الحقائق متعطّشة لها... وإلاّ فمن الممكن أن يعيش الإنسان سنين بين هذه الآيات إلاّ أنّ مثله كمثل الحيوانات التي همّها علفها.

الرزق حقّ

من جملة الأُمور التي يحكمها نظام دقيق هي «مسألة الرزق» التي أُشير إليها في الآيات محلّ البحث إشارات واضحة.

صحيح أنّ الاستفادة من مواهب الحياة مشروطة بالجدّ والسعي والمثابرة وأنّ الكسل والخنوع مدعاة للتأخّر والحرمان من الحياة... إلاّ أنّه من الخطأ البيّن أن نتصوّر أنّ رزق الإنسان يزداد بالحرص والولع والأعمال الكثيرة وأنّ رزقه يقلّ بالتعفّف والتجلّد وما إلى ذلك.

ونلاحظ في الأحاديث الإسلامية تعابير طريفة في هذا المجال: ففي حديث عن النّبي ﷺ أنّه قال: «إنّ الرزق لا يجرّه حرص حريص ولا يصرفه كره كاره»(١).

وفي حديث آخر عن الصادق عليه السلام جواباً على بعض أصحابه وقد طلب منه أن يعظه وينصحه فقال عليه السلام: ... «وإن كان الرزق مقسوماً فالحرص لماذا»(٢)؟!

الهدف من بيان هذه الأحاديث ليس هو الوقوف بوجه الجدّ والسعي بل هو تنبيه الحريصين أن يلتفتوا إلى أنّ رزقهم مقدّر ليرتدعوا عن حرصهم!.

وهنا لطيفة جديرة بالالتفات وهي أنّ الرّوايات الإسلامية ذكرت أُموراً كثيرة على أنّها مدعاة للرزق أو مانعة له، وكلّ منها مهمّ في نفسه!

نقرأ عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «والذي بعث جدّي بالحقّ نبيّاً أنّ الله تبارك وتعالى يرزق العبد على قدر المروءة وأنّ المعونة تنزل على قدر شدّة البلاء»(٣).

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص١٢٦، ح ٣٢.

(٢) المصدر السابق، ح ٣٣.

(٣) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ١٢٥، ح ٣١.

وعنه عليه السلام أنّه قال: «كفّ الأذى وقلّة الصخب يزيدان في الرزق»[١]. كما نقل عن نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله أنّه قال: «التوحيد نصف الدين واستنزل الرّزق بالصدقة»[٢].

وهناك أُمور أُخر ذكرت على أنّها مدعاة لزيادة للرزق كتنظيف نواحي البيت وغسل الأواني وتنظيفها.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ
سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ
أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾
فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ
رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾

التّفسير

ضيوف إبراهيم عليه السلام

من هذا المقطع - فما بعدُ - يتحدّث القرآن في هذه السورة عن قصص الأنبياء الماضين والأُمم المتقدّمة تأكيداً وتأييداً للموضوع آنف الذكر وما حواه من مسائل، وأوّل جانب يثيره هذا المقطع هو قصّة الملائكة الذين جاؤوا لعذاب قوم لوط، ومرّوا على إبراهيم عليه السلام على صورة بشر، ليبشّروه بالولد، مع أنّ إبراهيم بلغ سنّاً كبيراً فهو في مرحلة المشيب وامرأته كانت عقيماً كذلك!

فمن جهة... يعدّ إعطاء هذا الولد لإبراهيم وزوجه وهما في مرحلة الكبر واليأس من الإنجاب تأكيداً على كون الأرزاق مقدّرة كما أُشير إلى ذلك في الآيات المتقدّمة.

ومن جهة أُخرى يُعدّ دليلاً آخر على قدرة الحقّ وآية من آيات معرفة الله التي ورد البحث عنها في الآيات آنفاً.

ومن جهة ثالثة يُعدّ بُشرى للأُمم المؤمنة بأنّها في رعاية الحقّ - كما أنّ الآيات التالية تتحدّث عن عذاب قوم لوط وهي في الوقت ذاته تهديد للمجرمين.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص١٢٦ ح ٥.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ١٢٦، ح ٣٧.

ففي البدء يوجّه الله سبحانه الخطاب لنبيّه فيقول: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾[١].

والتعبير بـ ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ إمّا لأنّ هؤلاء الملائكة كانوا مأمورين من قبل الحقّ، وقد ورد التعبير عنهم في الآية (٢٦) من سورة الأنبياء أيضاً بمثل هذا - ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أو لأنّ إبراهيم عليه السلام أكرمهم، أو للوجهين معاً.

ثمّ يبيّن القرآن حالهم فيقول: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾[٢].

قال بعضهم: جملة أنّهم ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ لم يصرّح بها إبراهيم، بل حدّث بها نفسه لأنّ هذا الكلام لا ينسجم مع وافر الاحترام للضيف الكرام.

إلاّ أنه كما هو المعتاد قد يقول المضيّف للضيف في حال الاحترام والترحيب: «لا أدري أين التقيت بك من قبل - أو يبدو أنّك غريب..».

فبناءً على هذا يمكن التمسّك بظاهر الآية وأنّ إبراهيم قال هذا الكلام صراحةً وإن كان الاحتمال الأوّل غير بعيد، خاصّة أنّ «الضيف» لم يردّوا على هذا الكلام، ولو كان إبراهيم قال مثل هذا الكلام صراحةً، فلابدّ أن يجيبوه.

وعلى كلّ حال فإنّ إبراهيم أدّى ما عليه من حقّ الضيافة ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾.

والفعل «راغ» كما يقول الراغب في مفرداته مشتقّ من «روغ» - على وزن «شوق» - ومعناه التحرّك مقروناً بخطّة خفيّة، لأنّ إبراهيم فعل «كذلك» وقام بذلك خفاء لئلاّ يلتفت الضيف فلا يقبلوا بضيافته التي تستلزم نفقة كثيرة! إلاّ أنّه لِمَ هيّأ إبراهيم طعاماً كثيراً؟ مع أنّ ضيفه كانوا كما يقول بعض المفسّرين «ثلاثة» وقال بعضهم: كانوا اثني عشر - وهذا أقصى ما قاله بعض المفسّرين[٣].

---

(١) «الضيف» له معنى وصفي، ويطلق على المفرد كما يطلق على الجمع أيضاً... ولذلك فقد وصف بالمكرمين، وما قاله بعضهم إنّه مصدر ولا يثنّى ولا يجمع فلا يبدو صحيحاً. ولكن كما يقول الزمخشري في الكشّاف حيث إنّه كان في الأصل مصدراً وبعد أن أصبح ذا معنى وصفي فإنّه استعمل في المفرد والجمع معاً، فلاحظوا بدقّة.

(٢) سلاماً منصوب بفعل محذوف وتقديره: نسلّم عليكم سلاماً: أمّا سلامٌ فهو مبتدأ وخبره محذوف وأصله عليكم سلام أو سلام عليكم فكأنّ إبراهيم أراد أن يحيّهم بأحسن من تحيّتهم، لأنّ الجملة الاسمية تدلّ على الثبات والدوام تفسير الكشّاف، ج٤، ص٤٠١.

(٣) اقتباس عن تفسير روح البيان وحاشية تفسير الصافي ذيل الآيات مورد البحث.

فذلك لأنّ الكرماء لا يهيّؤون الطعام بمقدار الضيف فحسب، بل يهيّؤون طعاماً يستوعب حتى العمّال ليشاركوهم في الأكل، وربّما أخذوا بنظر الاعتبار حتى الجار والأقارب فعلى هذا لا يعدّ مثل هذا الطعام الذي هيّأه إبراهيم إسرافاً، ويلاحظ هذا المعنى في يومنا هذا عند بعض العشائر التي تعيش على طريقتها القديمة.

و«العجل» على وزن «طفل» معناه ولد البقر «وما يراه بعضهم أنّه الخروف فلا ينسجم مع متون اللغة»!.. وهذه الكلمة مأخوذة في الأصل من العجلة، لأنّ هذا الحيوان في هذه السنّ وفي هذه المرحلة يتحرّك حركة عجلى، وحين يكبر تزول عنه هذه الصفة تماماً.

و«السمين» معناه المكتنز لحمه، وانتخاب مثل هذا العجل إنّما هو لإكرام الضيف وليسع المتعلّقين والأكلة الآخرين!

وفي الآية التاسعة والستّين من سورة هود جاء وصف هذا العجل بأنّه «حنيذ» أي مشويّ، وبالرغم من أنّ الآية محلّ البحث لم تذكر شيئاً عن هذا العجل، إلاّ أنّه لا منافاة بين التعبيرين.

ثمّ تضيف الآية بالقول عن إبراهيم وضيفه ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ إلاّ أنّه لاحظ أنّ أيديهم لا تصل إلى الطعام فتعجّب و﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾.

وكان إبراهيم يتصوّر أنّهم من الآدميين ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ﴾ لأنّه كان معروفاً في ذلك العصر وفي زماننا أيضاً بين كثير من الناس الملتزمين بالتقاليد العرفية، أنّه متى ما أكل شخص من طعام صاحبه فلن يناله أذى منه ولا يخونه ولذلك فإنّ الضيف إذا لم يأكل من طعام صاحبه، يثير الظنّ السيّىء بأنّه جاء لأمر محذور، وقد قيل على سبيل المثل في لغة العرب: من لم يأكل طعامك لم يحفظ ذمامك»!

و«الإيجاس» مشتقّ من وجس - على وزن مكث - ومعناه في الأصل الصوت الخفي ومن هنا فقد أطلق الإيجاس على الإحساس الداخلي والخفي، فكأنّ الإنسان يسمع صوتاً داخله وحين يقترن الإيجاس بالخيفة يكون معناه الإحساس بالخوف.

وهنا قال له الضيف كما ورد في الآية (٧٠) من سورة هود طمأنةً له فـ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ﴾.

ويضيف القرآن: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾.

وبديهي أنّ الغلام عند ولادته لا يكون عليماً، إلاّ أنّه من الممكن أن يكون له استعداد بحيث يكون في المستقبل عالماً كبيراً... والمراد به هنا هو ذلك المعنى!.

وهذا الغلام من هو؟ هل هو إسحاق أم إسماعيل؟! هناك أقوال بين المفسّرين وإن كان المشهور أنّه إسحاق واحتمال كونه إسماعيل - مع ملاحظة الآية (٧١) من سورة هود التي تقول فبشّرناها بإسحاق - يبدو غير صحيح، فبناءً على ذلك ليس من شكٍّ أنّ المرأة التي يأتي ذكرها في الآيات التالية هي سارة زوج إبراهيم وولدها هذا هو إسحاق!

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ ونقرأ في الآية (٧٢) من سورة هود قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾!؟

فبناءً على هذا فصراخها كان صراخ تعجّب مقرون بالسرور، وكلمة ﴿صَرَّةٍ﴾ مشتقّة من الصرّ على وزن الشرّ، ومعناه في الأصل الشدّ والارتباط، كما يطلق على الصوت العالي والصراخ والجماعة المتراكمة لأنّها ذات شدّة وارتباط.

ويطلق على الريح الباردة «صرصر» لأنّها تصرّ الإنسان و«الصرورة» كلمة تطلق على من لم يحجّ رجلاً كان أو امرأة! كما تطلق على من لم يرغب في الزواج [منهما] لأنّ في ذلك نوعاً من الامتناع أو الارتباط، والصرّة في الآية محلّ البحث معناها هو الصوت العالي الشديد.

أمّا «صكّت» فمشتقّة من مادّة صكّ على وزن شكّ - ومعناها الضرب الشديد أو الضرب، والمراد منها هنا هو أنّ امرأة إبراهيم حين سمعت بالبشرى ضربت بيدها على وجهها - كعادة سائر النساء - تعجّباً وحياءً!

وطبقاً لما يقول بعض المفسّرين وما ورد في سفر التكوين فإنّ امرأة إبراهيم كانت آنئذ في سنّ التسعين وإبراهيم نفسه كان في سنّ المئة عاماً... أو أكثر.

إلاّ أنّ الآية التالية تنقل جواب الملائكة لها فتقول: ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

فبالرغم من كونك امرأةً عجوزاً وبعلك مثلك شيخاً إلاّ أنّ أمر الله إذا صدر في شيء ما فلابدّ أن يتحقّق دون أدنى شكّ!.

حتى خلق العالم الكبير كعالمنا هذا إنّما هو عليه سهل إذ تمّ بقوله: كن فكان!

والتعبير بـ«الحكيم» و«العليم» إشارة إلى أنّه لا يحتاج إلى الإخبار بكونك امرأة عقيماً عجوزاً وبعلك شيخاً، فالله يعرف كلّ هذه الأمور، وإذا لم يرزقك حتى الآن ولداً وأراد أن يهبك في هذه السنّ ولداً فإنّما هو لحكمته!

الطريف أنّنا نقرأ في الآية (٧٣) من سورة هود أنّ الملائكة قالوا لها: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾.

ووجود الفرق بين هذين التعبيرين هو لأنّ الملائكة قالوا كلّ ذلك لسارة منتهى الأمر أنّ قسماً منه أشارت إليه سورة هود، وهنا إشارة إلى القسم الآخر، ففي سورة هود جاء الكلام عن «رحمة الله وبركاته» وهما يتناسبان مع كونه حميداً مجيداً.

أمّا هنا فالكلام على علمه بعدم استعداد هذين الزوجين للإنجاب والولد ويأس المرأة بحسب الأسباب الطبيعية «الظاهرية» ويتناسب مع هذا الكلام أن يقال إنّه هو العليم، وإذ سئل لِمَ لم يرزقهما في فترة الشباب ولداً. فيقال: إنّ في ذلك حكمةً وهو الحكيم سبحانه.

ملاحظة

كَرَمُ الأنبياء

كثيراً ما يظنّ الممسكون البخلاء أنّ السخاء وبذل الوسع ضرب من الإفراط والإسراف والتبذير، والتشدّد وضيق النظرة نوع من الزهد والتدبير!!

والقرآن يكشف عن هذه الحقيقة في هذه الآيات والآيات التي مرّت في سورة هود، وهي أنّ الضيافة بسعتها وبشكلها المعقول ليست مخالفةً للشرع، بل طالما قام النّبي بمثل هذا العمل، فهو دليل على أنّ هذا الأمر محبوب، وبالطبع فإنّ ضيافةً كهذه الضيافة التي تستوعب الآخرين إنّما هي سنّة الكرماء الشرفاء.

والله سبحانه لم يحرّم التمتّع بمواهب الحياة وكون الإنسان ذا مال حلال كما كان إبراهيم - فلا ضير أن يتصرّف بماله كما فعل إبراهيم عليه السلام أيضاً.

فإبراهيم مع كونه ثريّاً ذا مال لم يغفل عن ذكر الله لحظة واحدة ولم يكن قلبه أسير ثروته ولم يجعل منافعه منحصرة به وحده.

يقول القرآن في الآية (٣٢) من سورة الأعراف: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وفي هذا الصدد كان لنا بحث مفصّل ذيل الآية (٣٢) من سورة الأعراف... «فلا بأس بمراجعته هناك».

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾
لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن
كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ
ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾

التّفسير

مُدُن قوم لوط المدمّرة آية وعبرة

تعقيباً على ما سبق من الحديث عن الملائكة الذين حلّوا ضيوفاً على إبراهيم وبشارتهم إيّاه في شأن الولد «إسحاق» تتحدّث هذه الآيات عمّا دار بينهم وبين إبراهيم في شأن قوم لوط.

توضيح ذلك: إنّ إبراهيم بعد ما أُبعد إلى الشام. . . واصل دعوة الناس إلى الله ومواجهته لكلّ أنواع الشرك وعبادة الأصنام. . . وقد عاصر إبراهيم الخليل «لوط» أحد الأنبياء العظام ويُحتمل أنّه كان مأموراً من قبله بتبليغ الناس وهداية الضالّين، فسافر إلى بعض مناطق الشام «أي مدن سدوم» فحلّ في قوم مجرمين ملوّثين بالشرك والمعاصي الكثيرة، وكان أقبحها تورّطهم في الانحراف الجنسي واللواط، وأخيراً فقد أمر رهط من الملائكة بعذابهم وهلاكهم إلاّ أنّهم مرّوا بإبراهيم قبل إهلاكهم.

وقد عرف إبراهيم من حال الضيف ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أنّهم ماضون لأمر مهمّ، ولم يكن هدفهم الوحيد البشرى بتولّد إسحاق، لأنّ واحداً منهم كان كافياً لمهمّة «البشارة»، أو لأنّهم كانوا عَجِلين فأحسّ بأنّ لديهم «مأمورية» مهمّة.

لذلك فإنّ أوّل آية من الآيات محلّ البحث تحكي بداية المحاورة فتقول: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾(١).

فأماط الملائكة اللثام عن «وجه الحقيقة» ومأموريتهم فـ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾.

---

(١) ينبغي الإلتفات إلى أنّ «خطب» لا يطلق على كلّ عمل، بل هو خاصّ في الأُمور والأعمال المهمّة في حين أنّ كلمات مثل عمل، شغل، أمر، فعل، لها معان عامّة.

إنّهم قوم متلوّثون - إضافةً إلى عقيدتهم الفاسدة - بأنواع الآثام والذنوب المختلفة المخزية القبيحة(١).

ثمّ أضافوا قائلين: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ والتعبير بـ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ هو ما أشارت إليه الآية ٨٢ من سورة هود بالقول من «سجّيل» وسجّيل كلمة فارسية الأصل مأخوذ من (سنگ + گل) ثمّ صارت في العرب سجّيل، فهي ليست صلبة كالحجر ولا رخواً كالطين، ولعلّها في المجموع إشارة إلى هذا المعنى وهو أنّ هلاك قوم لوط المجرمين لم يكن يستلزم إنزال أحجار عظيمة وصخور وجلاميد من السماء، بل كان يكفي أن يمطروا بأحجار صغيرة ليست صلبة جدّاً كأنّها حبّات «المطر».

ثمّ أضاف الملائكة قائلين: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ كلمة مسوّمة تطلق على ما فيه علامة ووسم، وهناك أقوال بين المفسّرين في كيفية أنّها ﴿مُّسَوَّمَةً﴾؟!

قال بعضهم إنّها كانت في شكل خاصّ يدلّ على أنّها ليست أحجاراً كسائر الأحجار الطبيعية، بل كانت وسيلة للعذاب.

وقال جماعة كان لكلّ واحدة منها علامة وكانت لشخص معيّن وعلامتها في نقطة خاصّة ليعلم الناس أنّ عقاب الله في منتهى الدقّة بحيث يُعلم من هذه الأحجار المسوّمة أنّ أيّ مجرم ينال واحدةً منها فيهلك بها.

كلمة «المسرفين» إشارة إلى كثرة ذنوبهم بحيث تجاوزت الحدّ وخرقوا ستار الحياء والخجل، ولو قدّر لبعض الدارسين أن يتفحّص حالات قوم لوط وأنواع ذنوبهم للاحظ أنّ هذا التعبير في حقّهم ذو مغزى كبير(٢).

وكلّ إنسان من الممكن أن يقع في الذنب أحياناً، فلو تيقّظ بسرعة وأصلح نفسه يرتفع الخطر، وإنّما يكون خطيراً حين يبلغ حدّ الإسراف!.

ويكشف هذا التعبير عن مطلب مهمّ آخر، وهو أنّ هذه الحجارة السماوية التي أُعدت لتنزل على قوم لوط لا تختصّ بهؤلاء القوم، بل معدّة لجميع المسرفين والعصاة المجرمين.

---

(١) ينبغي الالتفات إلى أنّه في سورة هود جاء التعبير هكذا: إنّا أُرسلنا إلى قوم لوط، وهذا التفاوت في التعابير بين الآيات مورد البحث وآيات سورة هود هو لأنّ كلّاً من الآيات يذكر قسماً ممّا جرى وبتعبير آخر هذه المسائل كلّها واقعة، غاية ما في الأمر أنّ بعضها مذكور في الآيات مورد البحث وبعضها في الآيات الآنفة من سورة هود.

(٢) يراجع ذيل الآية (٨١) من سورة هود.

والقرآن هنا يكشف عمّا جرى لرسل الله إلى نبيّه لوط على أنّهم حلّوا ضيفاً عنده، وقد تبعهم قوم لوط بلا حياء ولا خجل ظنّاً منهم أنّهم غلمان نضِرون ليقضوا منهم وطرهم!! إلاّ أنّهم سرعان ما أحسّوا بخطئهم فإذا هم عُمي العيون، فيذكر قول الله فيهم[1] ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

أجل فنحن لا نحرق الأخضر واليابس معاً، وعدالتنا لا تسمح أن يبتلى المؤمن بعاقبة الكافر حتى ولو كان بين آلاف الآلاف من الكافرين رجل مؤمن طاهر لأنجيناه!

وهذا هو ما أشارت إليه الآيتان ٥٩ و٦٠ من سورة الحجر بالقول: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

ونقرأ في سورة هود الآية ٨١ مثله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾.

أمّا في سورة العنكبوت فقد وردت الإشارة في الآية (٣٢) كما يلي: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

كما أنّ هذا الموضوع ذاته مشار إليه في الآية (٨٣) من سورة الأعراف: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

وكما تلاحظون، أنّ هذا القسم من قصّة قوم لوط ورد في هذه السور الخمس في عبارات مختلفة وجميعها يتحدّث عن حقيقة واحدة... إلاّ أنّه حيث يمكن أن ينظر إلى حادثة ما من زوايا متعدّدة وكلّ زاوية لها بعدها الخاصّ... فإنّ القرآن ينقل الحوادث التاريخية - على هذه الشاكلة - غالباً، والتعابير المختلفة في الآيات المتقدّمة شاهدة على هذا المعنى.

أضف إلى ذلك أنّ القرآن كتاب تربوي وإنساني - وفي مقام التربية يلزم أحياناً أن يعوّل على مسألة مهمّة مراراً لتترك أثرها العميق في ذهن القارىءغاية ما في الأمر ينبغي أن يكون هذا التكرار بتعابير طريفة ومثيرة ومختلفة لئلاّ يقع السأم ويملّ الإنسان، وأن يكون الأُسلوب فصيحاً بليغاً!.

---

(١) الجدير بالنظر أنّ في سورة هود بياناً لهذه القصّة لكنّ التعابير فيها تدلّ بوضوح أنّ لقاء الملائكة لإبراهيم كان قبل معاقبة قوم لوط وهلاكهم مع أنّ الآيات مورد البحث فيها تعابير تشير إلى أنّ اللقاء تمّ بعد المعاقبة والجزاء، وطريق الحلّ هو أن نقول إنّ الآيات الوارد ذكرها آنفاً إلى قوله: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ هي كلام الملائكة، وأمّا الآيات الثلاث بعدها فقول الله يخاطب نبيّه والمسلمين يتحدّث عنها على أنّها قصّة وقعت فيما مضى «فلاحظوا بدقّة»!

«ولمزيد التوضيح في شأن ضيف إبراهيم وما دار بينهم وبينه ثمّ عاقبة قوم لوط المرّة يراجع ذيل الآيات ٨٣ من سورة الأعراف و٨١ من سورة هود و٥٩ و٦٠ من سورة الحجر و٣٢ من سورة العنكبوت».

وعلى كلّ حال فإنّ الله سبحانه زلزل مدن قوم لوط وقلب عاليها سافلها ثمّ أمطرها بحجارة من سجّيل منضود ولم يبق منها أثراً... حتى أنّ أجسادهم دُفنت تحت الأنقاض والحجارة! لتكون عبرةً لمن يأتي بعدهم من المجرمين والظالمين غير المؤمنين.

ولذلك فإنّ القرآن يضيف قائلاً: في آخر آية من الآيات محلّ البحث: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

وهذا التعبير يدلّ بوضوح أنّ من يعتبر ويتّعظ بهذه الآيات هم الذين لديهم استعداد للقبول في داخل كيانهم ويحسّون بالمسؤولية.

بحث

أين تقع مدن قوم لوط؟

من المسلّم به أنّ إبراهيم الخليل جاء إلى الشام بعد أن هاجر من العراق «بابل» ويقال أنّ لوطاً كان يقطن معه إلاّ أنّه بعد فترة توجّه نحو «سدوم» ليدعو إلى التوحيد ويكافح الفساد.

و«سدوم» واحدة من مدن قوم لوط وأحيائهم التي كانت من بلاد الأردن على مقربة من البحر الميّت... وكانت أرضها خصبة كثيرة الأشجار، إلاّ أنّ هذه الأرض بعد نزول العذاب الإلهي على هؤلاء الظالمين من قوم لوط قلب عاليها سافلها وتهدّمت مدنها وسمّين بالمؤتفكات «أي المقلوبات».

وذهب بعضهم أنّ آثار هذه المدن الخربة غرقت في الماء ويزعمون أنّهم رأوا في زاوية من البحر الميّت أعمدتها وآثارها وخرائبها الأُخرى.

وما نقرؤه في بعض التفاسير الإسلامية هو أنّ المراد من جملة ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ هو المياه العفنة والمستنقعات التي غطّت أماكن هذه المدن، ولعلّه إشارة إلى هذا المعنى وهو أنّه بعد الزلازل الشديدة وانشقاق الأرض انفتح طريق من البحر الميّت نحو هذه الأرض فغرقت جميع آثارها تحت الماء.

في حين أنّ بعضهم يعتقد أنّ مدن لوط لم تغرق بعدُ وما تزال على مقربة من البحر الميّت منطقة مغطّاة بالصخور السود ويحتمل أن تكون هي محلّ مدن قوم لوط!

وقيل إنّ مركز إبراهيم كان في مدينة «حبرون» على فاصلة غير بعيدة من «سدوم» وحين نزل العذاب والصاعقة من السماء أو الزلزلة في الأرض واحترقت «سدوم» كان إبراهيم واقفاً قريباً من حبرون وشاهد دخان تلك المنطقة المتصاعد في الفضاء بأُمّ عينيه[1]!.

ومن مجموع هذه الكلمات تتّضح الحدود التقريبية لهذه المدن وإن كانت جزئياتها ما تزال وراء ستار الإبهام باقية.

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

التّفسير

دروس العبرة من الأقوام السالفة

يتحدّث القرآن في هذه الآيات محلّ البحث - تعقيباً على قصّة قوم لوط وعاقبتهم الوخيمة - عن قصص أقوام آخرين ممّن مضوا في العصور السابقة.

فيقول أوّلاً: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾.

«السلطان» ما يكون به التسلّط، والمراد به هنا المعجزة أو الدليل والمنطق العقلي القويّ أو كلاهما، وقد واجه موسى فرعون بهما.

والتعبير بـ﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ جاء في آيات القرآن المتعدّدة والمختلفة كثيراً وغالباً ما

(١) مقتبس من كتاب القاموس المقدّس.

يراد منه الدليل المنطقي البيّن والواضح إلاّ أنّ فرعون لم يسلّم لمعجزات موسى الكبرى التي كانت شاهداً على ارتباطه بالله ولم يطأطىء رأسه للدلائل المنطقية. . . بل بقي مصرّاً لما كان فيه من غرور وتكبّر ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾.

«الركن» في الأصل القاعدة الأساسية أو الأُسطوانة[1] والقسم المهمّ من كلّ شيء، وهو هنا لعلّه إشارة إلى أركان البدن، أي أنّ فرعون أدار ظهره لموسى تماماً!

وقال بعضهم المراد بالركن هنا جيشه، أي إنّه اعتمد على أركان جيشه وتولّى عن رسالة الحقّ، أو أنّه صرف نفسه عن أمر الله وصرف أركان حكومته - وجيشه جميعاً عن ذلك أيضاً[2].

والطريف أنّ الجبابرة المتكبّرين حين كانوا يتّهمون الأنبياء بالكذب والافتراء كانوا يتناقضون تناقضاً عجيباً، فتارةً يتّهمونهم بأنّهم سحرة، وأُخرى بأنّهم مجانين، مع أنّ الساحر ينبغي أن يكون ذكيّاً وأن يعوّل على مسائل دقيقة ويعرف نفوس الناس حتى يسحرهم ويخدعهم بها. . . والمجنون بخلافه تماماً.

إلاّ أنّ القرآن يخبر عن فرعون الجبّار وأعوانه بقوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

﴿ٱلْيَمِّ﴾: كما هو مذكور في كتب اللغة وكتب الأحاديث يطلق على البحر، كما يطلق على الأنهار العظيمة كالنيل مثلاً[3].

جملة ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ إشارة إلى أنّ فرعون وجنوده كانوا في درجة من الضعف أمام قدرة الله بحيث ألقاهم في اليمّ كأنّهم موجود لا قيمة ولا مقدار له.

والتعبير بـ ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ إشارة إلى أنّ العقاب الإلهي لم يَمحُهُ فحسب بل التاريخ من بعده يلومه على أعماله المخزية ويذكرها بكلّ ما يشينه ويلعنه ويفضح غروره وتكبّره بإماطة النقاب عنهما.

---

(١) «الأُسطوانة» معربة عن كلمة ستون الفارسية.

(٢) فتكون الباء في بركنه حسب التّفسير الأوّل للمصاحبة، وحسب التّفسير الثاني للسببية، وحسب التّفسير الثالث للتعدية.

(٣) المراد بالمليم ذو الملامة - فهو اسم فاعل من اللوم وبابه الأفعال [ألام يُليم] أي هو الشخص الذي يرتكب عملاً يكون بنفسه ملامة مثل المُغرب الذي يأتي بالعجيب الغريب. . . ولمزيد التوضيح في قصّة موسى وفرعون يراجع ذيل الآية ١٣٦ من سورة الأعراف.

ثمّ يتناول القرآن عاقبة قوم آخرين بالذكر وهم «قوم عاد» فيقول: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾.

وكون الريح عقيماً هو عندما تأتي الريح غير حاملة معها السحب الممطرة، ولا تلقح النباتات ولا تكون فيها أيّة فائدة ولا بركة وليس معها إلاّ الدمار والهلاك!.

ثمّ يذكر القرآن سرعة الريح المسلّطة على عاد فيقول: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾.

«الرميم» مأخوذ من الرمّة على زنة (المنّة) - وهي العظام النخرة البالية، والرُّمَّة - على وزن القُبّة - هي الحبل المتآكل أو الخيط البالي والرِّم[١] على وزن الجنّ - ما يسقط من الخشب أو التبن على الأرض و«الترميم» معناه إصلاح الأشياء المتآكلة[٢]!

وهذا التعبير يدلّ على أنّ سرعة الريح المسلّطة على قوم عاد لم تكن سرعة طبيعيّة، بل إضافةً إلى تخريبها البيوت وهدمها المنازل، فهي محرقة وذات سموم ممّا جعلت كلّ شيء رميماً.

أجل، هذه قدرة الله التي تدمّر القوم الجبّارين بسرعة الريح المذهلة فلا تبقي منهم ومن ضجيجهم وصخبهم وغرورهم إلاّ أجساداً تحوّلت رميماً.

وهكذا أشارت الآية آنفة الذكر إشارة عابرة عن عاقبة قوم «عاد» الأثرياء الأقوياء الذين كانوا يقطنون الأحقاف وهي منطقة «ما بين عمان وحضرموت».

ثمّ تصل النوبة إلى ثمود قوم صالح إذ أمهلهم الله قليلاً ليتلقوا العذاب بعد ذلك... فيقول الله فيهم: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

والمراد بـ ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ هو الأيّام الثلاثة المشار إليها في الآية (٦٥) من سورة هود إمهالاً لهم: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾.

ومع أنّ الله قد أنذرهم بواسطة نبيّهم «صالح» عليه السلام مراراً... إلاّ أنّه إتماماً للحجّة أمهلهم ثلاثة أيّام فلعلّهم يتداركون ما فرطوا في ماضيهم الأسود ويغسلوا صدأ الذنوب - بماء التوبة - عن قلوبهم وأرواحهم.

بل كما يقول بعض المفسّرين: ظهرت خلال الأيّام الثلاثة بعض التغيّرات في أبدانهم

---

(١) راجع، المفردات للراغب مادّة رمّ.

(٢) راجع، لسان العرب والمفردات مادّة رمّ.

إذ صارت صفراً ثمّ حمراً ثمّ تحوّلت سوداً. . . لتكون نذيراً لهؤلاء القوم المعاندين، إلاّ أنّهم وللأسف لم يؤثّر فيهم أي شيء من هذه الأمور ولم ينزلوا عن مركب غرورهم.

أجل: ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾.

كلمة «عتوا» مشتقّة من العتوّ - على وزن غلوّ - ومعناه الإعراض «بالوجه»، والانصراف عن طاعة الله، والظاهر أنّ هذه الجملة إشارة إلى ما كان منهم من إعراض طوال الفترة التي دعاهم فيها نبيّهم صالح كالشرك وعبادة الأوثان والظلم وعقرهم الناقة التي كانت معجزة نبيّهم، لا الإعراض الذي كان منهم خلال الأيّام الثلاثة فحسب، وبدلاً من أن يتوبوا وينيبوا غرقوا في غرورهم وغفلتهم.

والشاهد على ذلك قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[1].

والصاعقة والصاقعة كلا اللفظين بمعنى واحد تقريباً، وأصلهما الهوّي المقرون بالصوت الشديد، مع تفاوت بينهما، وهو أنّ الصاعقة تطلق على ما يقع في الأشياء السماوية والصاقعة في الأشياء فوق الأرض.

وكما يقول بعض أهل اللغة فإنّ «الصاعقة» تعني الموت حيناً أو العذاب أو النار حيناً آخر، وهذه الكلمة تطلق غالباً على الصوت الشديد الذي يسمع في السماء مقروناً بالنار المهلكة.

وقد أشرنا من قبل أنّ السحب ذات الشحنات الموجبة إذا اقتربت من الأرض التي تحتوي على شحنات سالبة، يحدث وميض كهربائي شديد من هذين مقروناً بصوت مرعب ونار محرقة يهتزلها مكان الحادث.

وفي القرآن الكريم استعملت هذه الكلمة في الآية (١٩) من سورة البقرة بهذا المعنى بجلاء، لأنّه بعد أن يتحدّث القرآن عن الصيّب والبرق والرعد يضيف قائلاً: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾.

وأخيراً فإنّ آخر جملة تتحدّث عن شأن هؤلاء القوم المعاندين تقول: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾.

أجل: هكذا تدمّر الصاعقة حين تقع على الأرض بصورة مفاجئة، فلا يستطيع

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٧٧.

الإنسان أن ينهض من الأرض، ولا يقدر على الصريخ والاستنصار، وعلى هذه الحال هلك قوم صالح وكانوا عبرةً للآخرين.

أجل: إنّ قوم صالح (ثمود) الذين كانوا من القبائل العربية وكانوا يقطنون «الحجر» وهي منطقة تقع شمال الحجاز مع إمكانات مادية هائلة وثروات طائلة وعمّروا طويلاً في قصور مشيّدة. . . أُهلكوا بسبب إعراضهم عن أمر الله وطغيانهم وعنادهم والشرك والظلم، وبقيت آثارهم درساً بليغاً من العبر للآخرين.

وفي آخر آية من الآيات محلّ البحث إشارة قصيرة إلى عاقبة خامس أُمّة من الأُمم، وهي قوم نوح فتقول: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[1].

و«الفاسق» يُطلق على من يخرج على حدود الله وأمره، ويكون ملوّثاً بالكفر أو الظلم أو سائر الذنوب.

والتعبير بـ ﴿مِّن قَبْلُ﴾ لعلّه إشارة إلى أنّ قوم فرعون وقوم لوط وعاداً وثمود كان قد بلغهم ما انتهى إليه قوم نوح من عاقبة وخيمة، إلاّ أنّهم لم يتنبهوا، فابتلوا بما ابتلي به من كان قبلهم من قوم نوح!

تعقيب

أوجه عذاب الله!

ممّا ينبغي الالتفات إليه أنّه ورد في الآيات الآنفة الإشارة إلى قصص خمس أُمم من الأُمم المتقدّمة «قوم لوط، فرعون، عاد، ثمود، وقوم نوح» وقد أُشير إلى جزاء أربع من هذه الأُمم وما عوقبت به، إلاّ أنّه لم ترد الإشارة في كيفية عقاب قوم نوح.

وحين نلاحظ بدقّة نجد كلّ أُمّة من الأُمم الأربع المتقدّم ذكرها عوقبت بنوع من العناصر الأربعة المعروفة! فقوم لوط عوقبوا بالزلزلة والحجارة ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي أنّهم أهلكوا بالتراب، وقوم فرعون أهلكوا بالماء غرقاً - وعاد أُهلكوا بريح صرصر عاتية (سريعة) وثمود أُهلكوا بالصاعقة و«النار».

وصحيح أنّ هذه الأشياء الأربعة لا تعدّ اليوم (عنصراً) أي جسماً بسيطاً، لأنّ كلاً منها مركب من أجسام أُخر، إلاّ أنّه لا يمكن الإنكار أنّها تمثّل أربعة أركان حياة

---

(١) هناك حذف في الجملة المتقدّمة وتقديره كما يقول «الزمخشري» في «الكشّاف» (وأهلكنا قوم نوح من قبل)، بالرغم من أنّ أهلكنا لم تكن في الآيات المتقدّمة إلاّ أنّ هذه الكلمة تستفاد منها بصورة جيّدة.

الإنسان المهمّة، ومتى ما حذف أي منها فلا يمكن أن يواصل الإنسان حياته فكيف بحذف جميعها؟!

أجل إنّ الله سبحانه أهلك هذه الأُمم بشيء يعدّ عامل البقاء والحياة الأصيل ولم يستطيعوا بدونه أن يواصلوا الحياة... وهذه قدرة (غائية) عجيبة!

وإذا لم نجد بياناً عن ما عوقب به قوم نوح عليه السلام خلال السياق، فلعلّه لأنّهم عوقبوا بمثل ما عوقب به قوم فرعون أي أُهلكوا بالغرق (والطوفان) ولم تكن حاجة هنا للتكرار!

الرياح اللواقح والرياح العقيم!

قرأنا في الآيات الآنفة أنّ عاداً أهلكوا بالريح العقيم، ونقرأ في الآية (٢٢) من سورة الحجر ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾! وبالرغم أنّ هذه الآية ناظرة إلى تلقيح الغيوم واتّصال بعضها ببعض لنزول الغيث... إلاّ أنّها وبشكل عام تبيّن أثر الرياح في حياة الإنسان... أجل إنّ أثرها وعملها التلقيح، تلقيح الغيوم وتلقيح النباتات، وحتى أنّها تؤثّر أحياناً على تهيئة مختلف الحيوانات للتلاقح!

إلاّ أنّ هذه الريح حين تحمل الأمر بالعذاب، فبدلاً من أن تهب الحياة تكون عاملاً على الهلاك، وكما يعبّر القرآن في الآية (٢٠) من سورة القمر التي تتكلّم على عاد فتقول: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾!

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾

التّفسير

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾

مرّة أُخرى تتحدّث هذه الآيات عن موضوع آيات عظمة الله في عالم الخلق، وهي في الحقيقة تتمّة لما ورد في الآيتين (٢٠ و٢١) من هذه السورة في شأن آياته في الأرض وفي نفس «الإنسان» ووجوده - وهي ضمناً دليل على قدرة الله على المعاد والحياة فتقول أوّلاً: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

«الأيد» على وزن الصيد، معناه القدرة والقوّة - وقد تكرّر هذا المعنى في آيات القرآن المجيد، وهو هنا بمعنى قدرة الله المطلقة العظيمة في خلق السماوات!

ودلائل هذه القدرة العظيمة واضحة جليّة في عظمة السماوات ونظامها الخاصّ الحاكم عليها أيضاً(١).

وهناك كلام بين المفسّرين في المراد من ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ :

فقال بعضهم معناه توسعة الرزق من قِبَلِ الله على العباد بواسطة نزول الغيث، وقال بعضهم معناه توسعة الرزق من جميع الجهات، وقال بعضهم معناه غنى الله وعدم حاجته، لأنّ خزائنه من السعة بحيث لا تنفد ولا تنقص مهما كان عطاؤه!

إلاّ أنّه مع ملاحظة موضوع خلق السماء في الجملة السابقة ومع الأخذ بنظر الاعتبار ما اكتشفه العلماء من اتّساع العالم عن طريق المشاهدات الحسّية المؤيّدة، يمكن الوقوف على معنى أكثر لطافةً لهذه الآية، وهو أنّ الله خلق السماوات ويوسعها دائماً.

والعلم الحديث [المعاصر] يقول: ليست الكرة الأرضية وحدها تتضخّم وتثقل على أثر جذب المواد السماوية تدريجاً، بل السماء أيضاً في اتّساع دائم، أي أنّ بعض النجوم المستقرّة في المجرّات تبتعد عن مركز مجرّاتها بسرعة هائلة حتى أنّ هذه السرعة لها أثرها في الاتّساع في كثير من المواقع!.

ونقرأ في كتاب «حدود النجوم» بقلم الكاتب «فِرد هويل»: أنّ أقصى سرعة لابتعاد النجوم عن مركزها حتى الآن ٦٦ ألف كيلومتر في الثانية، والمجرّات التي هي أبعد منها - في نظرنا - وميض نورها قليل جدّاً حتى أنّه من الصعب تحديد سرعتها، والصور الملتقطة من السماء تدلّ على أهميّة هذا الكشف وأنّ الفاصلة ما بين هذه المجرّات تتّسع أكثر من المجرّات القريبة منّا بسرعة(٢).

---

(١) وقع خطأ أو اشتباه عند بعض المفسّرين وغيرهم هنا وينبغي التنويه إليه:
أ - قال بعض المفسّرين أنّ للأيد «معنيين»: «القدرة» و«النعمة» مع أنّ الأيد تعني القدرة لغةً، إلاّ أنّ اليد تُجمع على أيدي وجمع جمعها أياد تأتي بمعنى القدرة والنعمة، وقد ذكرنا المعنيين أيضاً في الآية (١٧) من سورة ص تبعاً للمرحوم الطبرسي صاحب مجمع البيان ونصحّحه هنا..
ب - جاء في المعجم المفهرس لمحمّد فؤاد عبد الباقي ذكر اليد في الآية محلّ البحث بيائيين (أييد) ويظهر أنّ هذا الاشتباه ناشيء من بعض الرسم في كتابة المصاحف وإلاّ فإنّ المفسّرين ذكروا معنى القدرة لليد.

(٢) حدود النجوم، ص ٣٣٨ إلى ص ٣٤٠.

ثمّ يتحدّث المؤلّف عن سرعة هذه المجرّات «السنبلة والإكليل والشجاع وغيرها» فيبيّن سرعتها العجيبة المذهلة في هذا الكتاب(١).

ولنصغ إلى بعض العبارات للأُستاذ «جان الدر» إذ يقول:

«إنّ أحدث وأدقّ تقدير طول الأمواج التي تبثّها النجوم يكشف الستار عن وجه حقيقة عجيبة ومحيّرة أي أنّها تكشف لنا أنّ مجموع النجوم التي يحويها العالم تبتعد عن مركزها بسرعة دائماً وكلّما كانت الفاصلة بينها وبين مركزها ازدادت سرعتها.

فكأنّ جميع النجوم كانت مجتمعة في هذا المركز ثمّ تفرّقت عنه مجاميع كبيرة من النجوم واتّجه كلّ منها إلى اتّجاه خاصّ».

ويستنتج العلماء من ذلك أنّ العالم كانت له نقطة بداية وشروع(٢).

ويقول «جورج جاموف» في كتاب خلق العالم في هذا الصدد «إنّ فضاء العالم المتشكّل من ملياردات المجرّات في حالة انبساط سريعة، والحقيقة هي أنّ عالمنا ليس في حالة من السكون، بل انبساطه مقطوع به... والإذعان إلى أنّ عالمنا منبسط يهيئ المفتاح لخزينة أسرار معرفة العالم لأنّه إذا كان العالم الآن في حالة الانبساط فيلزم أن يكون في زمان ما في حالة انقباض شديد»(٣).

وليس العلماء المذكورون آنفاً يعترفون بهذه الحقيقة فحسب... فإنّ هناك آخرين ذكروا هذا المعنى في كتاباتهم ويجرّنا نقل كلماتهم إلى الإطالة.

وممّا يستجلب النظر أنّ التعبير بـ ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ دالّة على الدوام والاستمرار، فهي جملة اسمية ذات اسم فاعل، كما أنّها تدلّ على أنّ هذا الاتّساع موجود دائماً وكان ولا يزال، وهذا يؤيّد تماماً ما وصل إليه العلم الحديث أنّ جميع النجوم والمجرّات كانت مجتمعة في البداية في مركز واحد «بوزن خاصّ له ثقل خارق» ثمّ انفجرت انفجاراً عظيماً مثيراً (مرعباً) وعلى أثر ذلك تلاشت أجزاء العالم وظهرت بصورة كرات وهي بسرعتها في حالة الاتّساع والابتعاد (عن المركز).

وأمّا التعبير الوارد في شأن خلق الأرض ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ ففي كلمة «ماهدون» لطافة تدلّ على أنّ الله مهّد الأرض بجميع وسائل الراحة للإنسان، لأنّ «الماهد» مأخوذ من

---

(١) حدود النجوم، ص ٣٣٨ إلى ص ٣٤٠.

(٢-٣) بداية العالم ونهايته، الصفحات ٧٤ - ٧٧ بتلخيص.

المهد، ومعناه ما يعدّ للطفل من الفراش أو أي محل للاستراحة، فمثل هذا المحل ينبغي أن يكون هادئاً محفوظاً ليّناً دافئاً مطمئناً، وجميع هذه الأُمور متوفّرة في الأرض!.

وبأمر الله أضحت الحجارة ليّنة وتبدلّت إلى تراب هذا من جهة، وصلابة الجبال وقشر الأرض القوي من جهة ثانية جعلت الأرض تقاوم الجزر والمدّ، ومن جهة ثالثة فإنّ الغلاف الجوّي المحيط بالأرض يخفّف من وطأة حرارة الشمس ويحفظها وهو بمثابة اللحاف لها كما أنّه يصدّ النيازك والأحجار العظيمة التي تهوي من السماء إلى الأرض فيمنعها من النفوذ إليها فتتلاشى عنده وتتحوّل رماداً.

وهكذا فإنّ الله هيّأ جميع وسائل الراحة لاستقبال الإنسان الذي هو ضيف الله في هذه الكرة الأرضية.

وبعد خلق السماء والأرض تصل النوبة إلى خلق الموجودات المختلفة في السماء والأرض وأنواع النباتات والحيوانات فتقول الآية التالية في هذا الشأن: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

ويعتقد كثير من المفسّرين أنّ كلمة «الزوجين» هنا معناها الأصناف المختلفة وأنّ الآية تشير إلى أصناف الموجودات المختلفة في هذا العالم التي تبدو على شكل زوج زوج كالليل والنهار، والنور والظلمة، والبحر واليابسة، والشمس والقمر، والذكر والأُنثى وغيرها.

إلاّ أنّه كما ذكرنا سابقاً ذيل الآيات المشابهة لهذه الآيات أيضاً أنّ الزوجية في مثل هذه الآيات يمكن أن تكون إشارة إلى معنى أدقّ، لأنّ كلمة «الزوج» تطلق عادةً على جنسي الذكر والأُنثى، سواءً في عالم الحيوانات أو النباتات، وإذا ما توسّعنا في استعمال هذه الكلمة فإنّها ستشمل جميع الطاقات الموجبة والسالبة (- و+) ومع ملاحظة ما جاء في القرآن ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ ويشمل جميع الموجودات لا الموجودات الحيّة فحسب، فيمكنها أن تشير إلى هذه الحقيقة وهي أنّ جميع أشياء العالم مخلوقة من ذرّات موجبة وسالبة، ومن المسلّم به هذا اليوم من الناحية العلمية أنّ الذرّات مؤلّفة من أجزاء مختلفة، منها ما يحمل طاقة سالبة تدعى بالألكترون، ومنها ما يحمل طاقة موجبة وتدعى بالبروتون.

فبناءً على ذلك لا داعي أن نفسّر الشيء بالحيوان أو النبات حتماً أو أنّ نفسّر الزوج

بمعنى الصنف «لمزيد الإيضاح ذكرنا شرحاً مفصّلاً ذيل الآية ٧ من سورة الشعراء» وينبغي الالتفات أنّه في الوقت ذاته يمكن الجمع بين التّفسيرين.

وجملة ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ - تشير إلى أنّ الزوجية والتعدّد في جميع أشياء العالم تذكّر الإنسان بأنّ الله خالق هذا العالم واحد أحد، لأنّ التثنية والتعدّد من خصائص المخلوقات.

وقد جاءت الإشارة إلى هذا المعنى في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام إذ قال: «بمضادته بين الأشياء عُرف أن لا ضدّ له وبمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له، ضاد النور بالظلمة، واليبس بالبلل والخشن باللين، والصرد بالحرور مؤلّفاً بين متعادياتها مفرقاً بين متدانياتها دالّة بتفريقها على مفرقها، وبتأليفها على مؤلّفها وذلك قوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾»(١).

ويضيف القرآن في الآية التالية مستنتجاً ممّا تقدّم من الأبحاث التوحيدية قائلاً: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

والتعبير بـ«الفرار» هنا تعبير لطيف وبليغ، لأنّ الفرار يطلق في ما إذا واجه الإنسان موجوداً أو حادثاً مخيفاً من جهة، وهو من جهة أُخرى يعرف مكاناً يلتجيء إليه فيُسرع من مكان المواجهة إلى ذلك المكان ويلتجيء إلى نقطة الأمن والأمان... فالآية تقول: فرّوا من عقيدة الشرك الموحشة وعبادة الأصنام إلى التوحيد الخالص الذي هو منطقة الأمن والأمان الواقعي.

ففرّوا من عذاب الله وتوجّهوا نحو رحمته!

فرّوا من عصيانه وعناده وتوسّلوا بالتوبة إليه.

والخلاصة: فرّوا من السيّئات والقبائح وعدم الإيمان وظلمة الجهل والعذاب الدائم والتجأوا إلى رحمة الحقّ وسعادته الأبدية.

ولمزيد التأكيد، يستند القرآن إلى وحدانية العبادة لله الأحد فيقول: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾.

ويحتمل أنّ الآية السابقة - تدعو إلى أصل الإيمان بالله! وهذه الآية تدعو إلى وحدانية ذاته المقدّسة فيكون تكرار جملة: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ في المورد الأوّل

(١) توحيد الصدوق، ص ٣٠٨، طبقاً لما ورد في نور الثقلين، ج٥، ص١٣٠، ح ٤٩.

على أنّه إنذار على ترك الإيمان بالله، وفي المورد الآخر إنذار على الشرك وعبادة الأصنام، وهكذا فإنّ كلّ جملة وإن تكرّرت تشير إلى موضوع مستقلّ!

وجاء في بعض الرّوايات عن الإمام الصادق أنّ المراد من قوله: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ هو الحجّ وزيارة بيت الله(١) وواضح أنّ المراد هنا ذكر مصداق واحد من المصاديق الواضحة للفرار إلى الله، لأنّ الحجّ يعرّف الإنسان حقيقة التوحيد والتوبة والإنابة إلى الله ويمنحه الالتجاء إلى ألطاف الله سبحانه.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾

التّفسير

إنّ الذكرى تنفع المؤمنين

قرأنا في الآية ٣٩ من هذه السورة أنّ فرعون اتّهم موسى عليه السلام عندما دعاه إلى الله وترك الظلم أنّه ساحر أو مجنون، فهذا الاتّهام ورد على لسان المشركين في زمان النّبي محمّد صلى الله عليه وآله أيضاً إذ اتّهموه بمثل ما اتّهم فرعون موسى وقد عزّ ذلك على المؤمنين الأوائل والقلائل كما كان يؤلم روح النّبي صلى الله عليه وآله.

فالآيات محلّ البحث ومن أجل تسلية النّبي والمؤمنين تقول: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾(٢).

كانوا يتّهمون الرسل السابقين بأنّهم سحرة لأنّهم لم يجدوا جواباً منطقياً لمعاجزهم الباهرة، وكانوا يخاطبون رسولهم بأنّه «مجنون»... لأنّه لم يكن على غرارهم ومتلوّناً بلون المحيط ولم يستسلم للأمور الماديّة.

فبناءً على ذلك لا تحزن ولا تكترث وواصل المسير بالصبر والاستقامة، لأنّ مثل هذه الكلمات قيلت في أمثالك يا رسول الله من رجال الحقّ وأهله.

---

(١) نقل في تفسير نور الثقلين في هذا الصدد بضعة أحاديث عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، ج ٥، ص١٣٠ - ١٣١، ح ٥١ و ٥٢.

(٢) كذلك خبر لمبتدأ محذوف وتقدير الكلام: الأمر كذلك.

ثمّ يضيف القرآن هل أنّ هذه الأقوام الكافرة تواصت فيما بينها على توجيه هذه التّهمة إلى جميع الأنبياء: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾؟!

وكان عملهم هذا إلى درجة من الانسجام، وكأنّهم اجتمعوا في مجلس - في ما وراء التاريخ - وتشاوروا وتواصوا على أن يتّهموا الأنبياء عامّةً بالسحر والجنون ليخفّفوا من وطأة نفوذهم في نفوس الناس!

ولعلّ كلاًّ منهم كان يريد أن يمضي من هذه الدنيا ويوصي أبناءه وأحبابه بذلك!

ويعقّب القرآن على ذلك قائلاً: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾(١).

وهذه هي إفرازات روح الطغيان حيث يتوسّلون بكلّ كذب واتّهام لإخراج أهل الحقّ من الساحة، وحيث إنّ الأنبياء يأتون الناس بالمعجزات فإنّ خير ما يلصقونه بهم من التّهم أن يَسِموهم بالسحر أو الجنون، فبناءً على ذلك يكون عامل «وحدة عملهم» هذا هي الروحية الخبيثة والطاغية الواحدة لهم.

ولمزيد التسرّي عن قلب النّبي وتسليته يضيف القرآن: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾.

وكن مطمئناً بأنّك قد أدّيت ما عليك من التبليغ والرسالة ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾.

وإذا لم يستجب أُولئك للحقّ فلا تحزن فهناك قلوب متعطّشة له جديرة بحمله وهي في انتظاره.

وهذه الجملة في الحقيقة تذكّر بالآيات السابقة التي تدلّ على أنّ النّبي كان يتحرّق لقومه حتى يؤمنوا ويتأثّر غاية التأثّر لعدم إيمانهم حتى كاد يهلك نفسه من أجلهم.

كما تشير الآية (٦) من سورة الكهف حيث نقرأ فيها: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾.

.. وبالطبع فإنّ القائد الحقّ ينبغي أن يكون كذلك.

قال المفسّرون: لمّا نزلت هذه الآية حزن النّبي والمؤمنون لأنّهم تصوّروا أنّ هذا آخر الكلام في شأن المشركين وأنّ وحي السماء قد انقطع ويوشك أن يحيق بهم العذاب... إلاّ أنّه لم تمض فترة قصيرة حتى نزلت الآية بعدها لتأمر النّبي بالتذكير: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

فكان أن أحسّ الجميع بالاطمئنان!

---

(١) «بل» في الآية الآنفة للأضراب.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج٩، ص١٦١.

والآية تشير إلى أنّ هناك قلوباً مهيّأة تنتظر كلامك يا رسول الله وتبليغك فإذا ما عاند جماعة ونهضوا بوجه الحقّ مخالفين، فإنّ هناك جماعةً آخرين تتوق إلى الحقّ من أعماق قلوبهم وأرواحهم ويؤثّر فيها كلامك اللّين!

ملاحظة

لابدّ من قلوب مهيّأة لقبول الحقّ

لاحظوا المزارع والفلاّح الذي ينثر البذور، فقد تقع بعض هذه البذور على الأحجار، ومن الواضح أنّ ما يقع على الأحجار والصخور لا ينمو!

وبعض هذه البذور يقع على طبقة رقيقة من التراب الذي يغطّي الصخر، فتثبت هذه البذور وتمدّ جذورها، إلاّ أنّ المكان حيث كان حرجاً لا يساعد على امتداد الجذور (لكون الأرض صخرية) فما أسرع من أن تجفّ البراعم وتموت الجذور.

ويقع قسم من البذور على أرض ذات تراب صالحة، إلاّ أنّ نبات الشوك والعلف تنمو إلى جانبها، فحتّى لو أورقت تلك البذور إلاّ أنّها ما أسرع أن تغلبها الأشواك وتلتفّ عليها فتموت.

وأحسن هذه البذور حظّاً تلك البذور التي تستقرّ في تربة صالحة ولا تعوقها نباتات أُخرى... فلا يمضي زمن حتى تنبت وتنمو وتورق وتستوي على سوقها وتعطي ثمارها.

فكلمات الحقّ التي تخرج من أفواه الأنبياء ورسل الله وخلفائهم المعصومين كهذه البذور، فالقلوب الصخرية لا تتقبّل هذه الكلمات من الأساس، والقلوب الضعيفة تتقبّلها مؤقتاً ثمّ تعرض عنها، وهناك قلوب مهيّأة للقبول، لكن الأهواء والصفات الرذيلة والشهوات نابتة فيها، وهذه الأُمور تبطل تأثير تلك الكلمات الحقّة.

القلوب - الوحيدة - التي تتقبّل كلمات هؤلاء الأئمّة العظام وتنمو فيها وتثمر هي القلوب التي تطلب الحقّ ويحكم عليها البحث عن الحقّ! وخالية من الصفات السلبية والدوافع الدنيوية أيضاً... وتلك هي قلوب المؤمنين.

أجل... ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾!

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾

التّفسير

هدفُ خلقِ الإنسان من وجهة نظرِ القرآن

من أهمّ الأسئلة التي تختلج في خاطر كلّ إنسان هو لِمَ خُلِقنا؟! وما الهدف من خلق الناس والمجيء إلى هذه الدنيا؟!

فالآيات آنفة الذكر تجيب على هذا السؤال المهم والعام بتعابير موجزة ذات معنى غزير، وتكمّل البحث الوارد في آخر آية من الآيات المتقدّمة حول تذكير المؤمنين، لأنّ ذلك من أهمّ الأُصول التي ينبغي على النّبي أن يتابعها... كما توضّح - ضمناً - معنى الفرار إلى الله الوارد في الآيات السابقة.

تقول الآيات حاكيةً عن الله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

وأنّه غير مفتقر إلى أيّ منهم أبداً ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ بل إنّ الله تعالى هو الذي يرزق عباده ومخلوقاته... ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾.

فهذه الآيات التي هي في منتهى الوجازة والاختصار تكشف ستاراً عن الحقيقة التي يطلبها الجميع ويريدون معرفتها وتجعلنا أمام الهدف العظيم.

توضيح ذلك: لا شكّ أنّ كلّ فرد عاقل وحكيم حين يقوم بعمل فإنّما يهدف من وراء عمله إلى هدف معيّن، وحيث إنّ الله أعلم من جميع مخلوقاته وأعرفهم بالحكمة، بل لا ينبغي قياسه بأي أحد، فينقدح هذا السؤال وهو لِمَ خلق الله الإنسان؟! هل كان يشعر بنقص فارتفع بخلق الإنسان؟! هل كان محتاجاً إلى شيء فارتفع الاحتياج بخلقنا؟

ولكنّنا نعلم أنّ وجوده كامل من كلّ الجهات (ولا محدود في اللاّمحدود) وهو غني بالذات!

إذاً، فطبقاً للمقدّمة الأُولى يجب القبول على أنّه كان له هدف، وطبقاً للمقدّمة الثانية ينبغي القبول أنّ هدفه من خلق الإنسان ليس شيئاً يعود إلى ذاته المقدّسة.

فالنتيجة ينبغي أن يبحث عن هذا الهدف خارج ذاته، هذا الهدف يعود للمخلوقين أنفسهم وأساس كمالهم... هذا من جانب!

ومن جانب آخر ورد في القرآن تعابير كثيرة مختلفة في شأن خلق الإنسان والهدف منه!

فنقرأ في إحدى آياته: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾(١)، وهنا يبيّن مسألة الامتحان للإنسان وحسن العمل على أنّه هدف (من أهداف خلق الإنسان).

وجاء في آية أُخرى ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾!(٢).

وهنا يبيّن القرآن أنّ علمنا بعلم الله وقدرته هو الهدف من خلق السماوات والأرض ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾.

ونقرأ في آية أُخرى ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿١١٩﴾﴾(٣).

وطبقاً لهاتين الآيتين فالهدف من خلق الإنسان هو رحمة الله.

والآيات محلّ البحث تستند إلى مسألة العبوديّة فحسب، وتعبّر عنها بصراحة بأنّها الهدف النهائي من خلق الجنّ والإنس!

وبقليل من التأمّل في مفهوم هذه الآيات وما شابهها نرى أنّه لا تضادّ ولا اختلاف بين هذه الآيات، ففي الحقيقة بعضها هدف مقدّمي، وبعضها هدف متوسّط، وبعضها هدف نهائي، وبعضها نتيجة!.

فالهدف الأصلي هو «العبودية» وهو ما أُشير في هذه الآيات محلّ البحث، أمّا العلم والامتحان وأمثالهما فهي أهداف ضمن مسير العبودية لله، ورحمة الله الواسعة نتيجة العبودية لله.

وهكذا يتّضح أنّنا خلقنا لعبادة الله، لكن المهمّ أن نعرف ما هي حقيقة هذه العبادة؟!

فهل المراد منها أداء المراسم أو المناسك (اليومية) وأمثالها كالركوع والسجود والقيام والصلاة والصوم، أو هي حقيقة وراء هذه الأُمور وإن كانت العبادة الرسميّة كلّها أيضاً واجدة للأهميّة!؟

وللإجابة على هذا السؤال ينبغي معرفة معنى كلمة «العبد» والعبودية وتحليلهما!

«العبد»: لغةً هو الإنسان المتعلّق بمولاه وصاحبه من قرنه إلى قدمه!.. وإرادته تابعة لإرادته وما يطلب ويبتغيه تبع لطلب سيّده وابتغائه، فلا يملك في قباله شيئاً وليس له أن يقصّر في طاعته.

---

(١) سورة الملك، الآية: ٦.
(٢) سورة الطلاق، الآية: ١٢.
(٣) سورة هود، الآيتان: ١١٨ - ١١٩.

وبتعبير آخر: إنّ العبودية - كما تبيّن معناها كتب اللغة - هي إظهار منتهى الخضوع للمعبود، ولذلك فالمعبود الوحيد الذي له حقّ العبادة على الآخرين هو الذي بذل منتهى الإنعام والإكرام، وليس ذلك سوى الله سبحانه!

فبناءً على ذلك فالعبودية هي قمّة التكامل وأوجُ بلوغ الإنسان واقترابه من الله! والعبودية منتهى التسليم لذاته المقدّسة!

والعبودية هي الطاعة بلا قيد ولا شرط والامتثال للأوامر الإلهيّة في جميع المجالات!.

وأخيراً فإنّ العبودية الكاملة هي أن لا يفكّر الإنسان بغير معبوده الواقعي أي الكمال المطلق، ولا يسير إلاّ في منهجه اللاحب وأن ينسى سواه حتى (نفسه وشخصه).

وهذا هو الهدف النهائي من خلق البشر الذي أعدّ الله له الامتحان والاختبار لنيله، ومنح الإنسان العلم والمعرفة، وجعل نتيجة كلّ ذلك فيض رحمته للإنسان.

بحوث

١ - الله غني على الإطلاق

إنّ جملة: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ هي في الحقيقة إشارة إلى استغناء الله عن كلّ أحد وعن كلّ شيء، وإذا ما دعا العباد إلى عبادته فليس ذلك ليستفيد منهم، بل يريد أن يجود عليهم، وهذا على العكس من العبودية بين الناس، لأنّهم يطلبون الرقّ والعبيد ليحصلوا بهم الرزق أو المعاش، أو أن يخدموهم في البيت، فيقدّمون لهم الطعام والشراب، وفي كلتا الحالين فإنّما يعود نفعهم على مالكيهم، وهذا الأمر ناشيء عن احتياج الإنسان، إلاّ أنّ جميع هذه المسائل لا معنى لها في شأن الله، إذ ليس غنيّاً عن عباده فحسب، بل هو يضمن لعباده الرزق بلطفه وكرمه «ورزق الجميع على الله».

٢ - الله ذو القوّة المتين

«المتين» كلمة مشتقّة من متن، وهو في الأصل ما يكتنف العمود الفقري من لحم وعصب التي تشدّ الظهر وتجعله مهيّأً لتحمّل الأعباء، ولذلك فقد استعمل «المتين» بمعنى القوّة الكاملة والطاقة والقدرة، فبناءً على ذلك فإنّ ذكر «المتين» بعد ذكر كلمة «ذو القوّة» إنّما هو للتأكيد، لأنّ «ذو القوّة» إشارة إلى أصل قدرة الله! «والمتين» إشارة إلى

كمال القدرة، وحين تقترن هذه الكلمة بـ «الرزّاق» وهو صيغة مبالغة أيضاً تدلّ على هذه الحقيقة، وهي أنّ الله له منتهى القدرة والتسلّط في إيلاء الرزق وإعطائه لمن يشاء، وهو يوصل الرزق إلى أيّة جهة كانت وأي مكان كان. . . في أعماق البحار، وفي قمم الجبال، وفي سفوح التلال وعلى ضفاف الأنهار، وفي الوديان والصحاري والبراري. . . وجميع ما في الوجود ومن في الوجود مجتمعون على مائدته الكريمة، إذاً فخلق الله للإنسان وسائر الموجودات لم يكن لحاجته إليهم، بل ليفيض عليهم من لطفه العميم.

٣ - لِمَ قُدّم ذكر الجنّ؟

مع أنّه يُستفاد من آيات القرآن بشكل واضح أنّ الإنس أفضل من الجنّ، إلاّ أنه قدّم ذكر الجنّ على الإنس في الآية الآنفة، ولعلّ الظاهر منه أنّ الجنّ خلقوا قبل أن يُخلق آدم كما نقرأ ذلك في الآية (٢٧) من سورة الحجر إذ تقول: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ[(١)] مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾.

٤ - الحكمة من الخلق في نظر الفلسفة

ذكرنا آنفاً أنّه قلّ أن نجد من لا يسأل نفسه أو غيره عن الهدف من خلق الإنسان! فدائماً تولد جماعة وتمضي جماعة أُخرى وتنطفىء إلى الأبد، فما المراد من هذا المجيء والذهاب؟!

والحقّ أنّنا - كأُناس لو لم نكن نعيش على وجه هذه الكرة الأرضية فماذا سيحدث؟ وهل يجب علينا أن نعرف لِمَ نأتي ولِمَ نمضي؟ ولو أردنا أن نعرف السرّ فهل نستطيع ذلك؟! وهكذا تترا الأسئلة الأُخرى على فكر الإنسان وتحيط به. . .

وعندما يطرح هذا السؤال من قبل الماديين فالظاهر أنّهم لا جواب لهم عليه، لأنّ المادّة أو الطبيعة ليس لها عقل ولا شعور حتى يكون لها هدف لذلك، فقد أراحوا أنفسهم من هذا السؤال وهم يعتقدون بعبثيّة الخلق وأنّه لا هدف من ورائه! وكم هو مثير ومقلق أن يتّخذ الإنسان لجزئيات حياته سواءً أكانت للعمل أم الكسب أو الصحّة أو الرياضة أهدافاً منظّمة وأن يعتقد أنّ الحياة بمجموعها ضرب من العبث واللغو!؟

---

(١) «قبل» بني على الضمّ وإن سبقه الخافض لأنّه مضاف - والمضاف إليه محذوف لفظاً وتقديره من قبلِ خلق الإنسان.

لذلك فلا مجال للعجب أنّ جماعة من الماديين حينما يفكّرون في هذه المسائل يتركون هذه الحياة التي لا هدف وراءها ويقدمون على الانتحار!

إلاّ أنّ هذا السؤال حين يلقيه معتقد بالله، فإنّه لا يواجه طريقاً مسدوداً، لأنّه يعلم أنّ خالق هذا العالم حكيم وقد خلق هذا العالم عن حكمة حتماً وإن جهلناها، هذا من جانب، ومن جانب آخر حين يرى أعضاءه عضواً عضواً يجد لكلٍّ فلسفة وحكمة وهدفاً، ليس الأعضاء المهمّة ظاهراً كالقلب واللسان والعروق والأعصاب فحسب، بل حتى الأظفار وخطوط اليد والبنان وتقوّس القدم أو هيأة اليد وفسلجتها كلٌّ له فلسفة يعرفها العلم الحديث المعاصر!

فإلى أيّ درجة من السذاجة أن يُرى لجميع هذه الأعضاء أهدافاً إلاّ أنّ المجموع يكون بلا هدف!!

وأي قضاء متهافت أن نجد لكلّ بناء في المدينة فلسفة خاصّة - إلاّ أنّنا نقضي على المدينة بأنّها لا فلسفة فيها ولا هدف من ورائها!!

ترى هل من الممكن أن يبني مهندس ما بناءً عظيماً فيه الغرف والأبواب والنوافذ والأحواض والحدائق و«الديكورات» وكلّ من هذه الأُمور هو لأمر خاصّ ولهدف معيّن، إلاّ أنّ مجموع البناء لا هدف من ورائه؟!

هذه الأُمور هي التي تمنح المؤمن بالله والمعتقد به الاطمئنان بأنّ خلقه له هدف عظيم، وعليه أن يسعى ويجدّ حتى يكتشفه بقوّة العقل والعلم.

والعجيب أنّ أصحاب نظرية العبث (في الخلق) حين يردون أيّة زاوية من زوايا العلوم الطبيعية يبحثون عن الهدف لتفسير الظواهر المختلفة ولا يهدأون حتى يجدوا الهدف! حتى أنّهم لا يرتضون أن تبقى غدّة صغيرة في بدن الإنسان دون عمل وغاية، ولربّما يقضون سنوات بالبحث عن الحكمة من وجود مثل هذه الغدّة... إلاّ أنّهم حين يبلغون أصل خلق الإنسان يقولون بصراحة: لا هدف من ورائه.

فما أعجب هذا التناقض!!

وعلى كلّ حال فالإيمان بحكمة الله تعالى من جانب، وملاحظة فلسفة أجزاء (وجود) الإنسان من جانب آخر، كلّ ذلك يدعونا إلى الإيمان أنّ وراء خلق الإنسان هدفاً كبيراً.

والآن ينبغي علينا أن نبحث عن هذا الهدف وأن نحدّده ما بوسعنا - وأن نسير في منهاجه اللاحب.

إنّ ملاحظة عدّة مقدّمات - يمكن لها - أن تسلّط الأضواء على هدفنا للكشف عن هذا المجهول المظلم.

- نحن دائماً نقصد في أعمالنا إلى هدف ما، وعادةً يكون هذا الهدف إشباع حاجة ورفعها وإتمام النواقص، وحتى الخدمة للآخرين أو إنقاذ مبتلى من بلائه... أو إذا قمنا بعمل إنساني وآثرنا سوانا على أنفسنا فذلك أيضاً نوع من الحاجات المقدّسة، وبرفعها نزداد معنوية وكمالاً!

ولمّا كنّا نقيس أحياناً صفات الله مع أنفسنا فقد يخطر مثل هذا التصوّر وهو ما هي الحاجة عند الله حتى ترتفع بخلقنا؟ أو إذا كانت الآيات الآنفة تقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فنقول ما هي حاجته إلى العبادة؟!

مع أنّ هذه التصوّرات ناشئة من المقايسة بين صفات الخالق والمخلوق والواجب والممكن؟!

وبما أنّ وجودنا محدود فإنّنا نسعى وراء إشباع حاجاتنا، وأعمالنا جميعها تقع في هذا المسير... إلاّ أنّ هذا غير وارد في وجود مطلق، فينبغي البحث عن هدف أفعاله في غير وجوده، فهو عين فيّاضة ومبدأ النعمة الذي يكتنف الموجودات في كنف حمايته ورعايته وإنمائه والسلوك بها إلى الكمال، وهذا هو الهدف الواقعي لعبوديتنا... وهذه فلسفة عباداتنا وابتهالاتنا، فهي جميعاً دروس تربوية لتكاملنا.

وأساساً فإنّ أصل الخلق هو خطوة تكاملية عظيمة، أي مجيء الشيء من العدم إلى الوجود، ومن الصفر إلى مرحلة العدد.

وبعد هذه الخطوة التكاملية العظيمة تبدأ مراحل تكاملية أُخرى... فجميع المناهج الدينية والإلهيّة تسلك بالإنسان في هذا المسير!

- وهنا ينقدح هذا السؤال، وهو إذا كان الهدف من الخلق هو الجود - على العباد - من المعبود لا النفع للخالق، وهذا الجود يتمثّل في تكامل الناس، فلِمَ لم يخلق الله (الجواد الكريم) العباد كاملين من البداية - ليكونوا في جواره وقربه وأن يتمتّعوا ببركات قربه وجوار ذاته المقدّسة!

والجواب على هذا السؤال واضح... فتكامل الإنسان ليس أمراً يمكن خلقه بالإجبار، بل هو طريق طويل مديد، وعلى الناس أن يسيروه ويجوبوه ويقطعوه بإرادتهم وتصميمهم وأفعالهم الاختيارية.

فمثلاً لو أخذ مالاً باهظاً، قسراً من أحد لبناء مستشفى، فهل لهذا العمل من أثر تكاملي روحي وأخلاقي في نفسه؟! قطعاً لا! لكن لو أعطى بمحض إرادته ورغبته وميله النفسي ولو درهماً واحداً لهذا الهدف المقدّس فإنّه يخطو في طريق التكامل الأخلاقي والروحي بتلك النسبة التي ساهم فيها.

ويستفاد من هذا الكلام أنّ على الله أن يبيّن لنا هذا المسير بأوامره وتكاليفه ومناهجه التربوية بواسطة أنبيائه والعقل ليتمّ الإبلاغ بذلك، فنعرف هذا المسير التكاملي ونطويه باختيارنا وإرادتنا.

- وينقدح هنا سؤال - آخر أيضاً - وهو أنّ كلّ هذا حسن... فالهدف من خلقنا هو التكامل الإنساني، أو بتعبير آخر القرب من الله وحركة الوجود الناقص نحو الوجود الكامل الذي لا نهاية له، إلاّ أنّه ما الهدف من هذا التكامل؟!

والجواب يتّضح بهذه الجملة أيضاً وهو أنّ التكامل هو الهدف النهائي أو بتعبير آخر «غاية الغايات».

وتوضيح ذلك: لو سألنا طالب المدرسة علام تدرس أو لِمَ تدرس؟! فيجيب حتى أدخل الجامعة!

ولو سألناه ثانية ما تستفيد من الجامعة؟ فيقول مثلاً: سأكون طبيباً أو مهندساً جديراً!

فتقول له: ما تصنع بشهادة «الدكتوراه» أو الهندسة؟ فيقول: لأبرز نشاطاتي وفعاليّاتي الإيجابية المثبتة ولكي يكون ربحي وفيراً!

فنقول له: ما تصنع بالربح الوفير؟ فيقول: لتكون حياتي منعمة وأعيش مكرماً ومرفّهاً.

وأخيراً نوجّه إليه هذا السؤال... لِمَ تريد الحياة المنعمة؟

وهنا نراه يجيب بلحن آخر فيقول: حَسَنٌ(١) لتكون حياتي منعمة وأعيش مكرماً ومرفّهاً. أي إنّه يكرّر جواب السؤال السابق!

وهذا دليل على أنّ ذاك هو الجواب النهائي، وكما يصطلح عليه بأنّه «غاية الغايات» لعمله، وليس وراءه جواب آخر! وإنّه هو الهدف النهائي... كلّ هذا هو في المسائل الماديّة وهكذا الحال في الحياة المعنوية، فحين يسأل علام مجيء الأنبياء ونزول الكتب من السماء، ولِمَ هذه التكاليف الشرعية والمناهج التربوية؟ فنجيب: للتكامل الإنساني والقرب من الله!.

---

(١) «حسنٌ» خبر لمبتدأ محذوف تقديره كلامكم أو سؤالكم حسن.

وإذا سألوا: ما المراد من التكامل الإنساني والقرب من الله؟ نقول: هو القرب من الله، أيّ أنّ هذا هو الهدف النهائي، وبتعبير آخر أنّنا نريد كلّ شيء للتكامل والقرب من الله. . . وأمّا القرب من الله فلنفسه (أي للقرب من الله).

- وينقدح مرّة أُخرى هذا السؤال أنّه ورد في حديث قدسي قوله تعالى: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أُعرف»[1].

فما علاقة هذا الحديث بما ذكرتم آنفاً؟!

فنجيب على ذلك: . . . إنّه بغضّ النظر عن أنّ هذا الحديث من باب خبر الواحد، ولا يُعتد بخبر الواحد في المسائل الاعتقادية، فإنّ مفهوم هذا الحديث أنّ معرفة الله هي الوسيلة لتكامل الخلق أي إنّ الله أحبّ أن يستوعب فيض رحمته كلّ مكان، فلذلك خلق الخلق وعلّمهم طريقه وسبيل معرفته ليسيروا نحو التكامل والكمال! لأنّ معرفة الله رمز تكاملهم.

أجل، إنّ على العباد أن يعرفوا أنّ ذات الله هي منبع جميع الكمالات، ويسترفدوا لأنفسهم من كمالاته ويستلهموا منه في وجودهم ليشرق في وجودهم ومض من صفات كماله وجلاله، فالتكامل والقرب من الله لا يتحقّقان إلاّ عن طريق التخلّق بأخلاقه، وهذا التخلّق فرع معرفته «فلاحظوا بدقّة».

- وبملاحظة ما ذكرناه آنفاً فإنّنا نقترب من النتائج فنقول: إنّ عبادة الله والعبودية له يعينان السير في ما يرتضيه وأن نستودعه أرواحنا ونعشقه بقلوبنا وأن نتخلّق بأخلاقه!.

وإذا كانت الآيات المتقدّمة قد ذكرت «العبادة» على أنّها الهدف النهائي فمفهومها هو هذا، أي أنّه بتعبير آخر هو «التكامل الإنساني»!.

أجل إنّ «الإنسان الكامل» هو العبد المخلص لله.

حسنٌ: خبر لمبتدأ محذوف تقديره كلامكم أو سؤالكم حسن.

٥ - الرّوايات الإسلامية وفلسفة خلق الإنسان

ذكرنا آنفاً مسألة الهدف من خلق الإنسان، وعالجنا هذه المسألة عن طريقين: أحدهما عن طريق تفسير آيات القرآن، والآخر عن طريق الفلسفة، وقد أوصلنا كلاً منهما إلى نقطة واحدة.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٨١، ص ١٩٨.

والآن علينا أن نتابع هذه المسألة في المسير الثالث، أي عن طريق الرّوايات الإسلامية لنعرف نتيجتها من هذه الرّوايات.

والتدقيق أو التأمّل في الرّوايات التالية التي هي بعض ما ورد في هذا الباب يمنحنا العمق في النظر!

ففي حديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنّه لمّا سئل ما معنى قول النّبي صلى الله عليه وآله: «اعملوا فكلٌّ ميسّر لما خُلق له. قال عليه السلام: إنّ الله عزّوجلّ خلق الجنّ والإنس ليعبدوه ولم يخلقهم ليعصوه وذلك قوله عزّوجلّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فيسّر كلا لما خلق له، فويل لمن استحبّ العمى على الهدى»(١).

وهذا الحديث إشارة ذات معنى غزير إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ الله لمّا خلق الناس لهدف تكاملي هيّأ له وسائله التكوينية والتشريعية وجعلها في اختياره.

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ الإمام الحسين خطب أصحابه فقال: «إنّ الله عزّوجلّ ما خلق العباد إلاّ ليعرفوه فإذا عرفوه عبدوه فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه»(٢).

٦ - الإجابة على سؤال:

ويرد هنا سؤال آخر، وهو إذا كان الله قد خلق العباد ليعبدوه، فعلام يختار قسم منهم طريق الكفر؟ وهل يمكن أن تتخلّف إرادة الله عن هدفه؟!

وفي الحقيقة إنّ الذين يوردون هذا الإشكال خلطوا بين الإرادة التكوينية والإرادة التشريعيّة، لأنّ الهدف من العبادة لم يكن إجبارياً، بل العبادة توأم الإرادة والاختيار، وبهذا يتجلّى الهدف بصورة تهيئة الأرضية أو المجال... فمثلاً لو قلت إنّي بنيت هذا المسجد ليصلّي الناس فيه، فمفهومه أنّني هيّأته لهذا العمل! لا أنّني أُجبر الناس على الصلاة فيه!

وكذلك في الموارد الأُخر كبناء المدرسة للدرس، والمستشفى للتداوي، والمكتبة للمطالعة!

وهكذا فإنّ الله هيّأ هذا الإنسان للطاعة والعبادة، ووفّر له كلّ وسائل المساعدة من

---

(١) توحيد الصدوق، ص ٣٥٦.

(٢) علل الشرائع للصدوق، ج١، ص ٩، طبقاً لما نقل في الميزان، ج ١٨، ص ٤٢٣.

قبيل والعقل والعواطف والقوى المختلفة في الداخل، وإرسال الأنبياء والكتب السماوية والمناهج التشريعية في الخارج الخ.

ومن المسلّم به أنّ هذا المعنى في المؤمن والكافر واحد، إلاّ أنّ المؤمن ينتفع من هذه الإمكانات، والكافر لاينتفع.

لذلك فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه حين سئل عن الآية ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾... قال عليه السلام: «خلقهم للعبادة».

قال الراوي: فسألته: خاصّةً أم عامّة؟!

فقال عليه السلام: «عامّة»(١).

وفي حديث آخر عن الإمام نفسه عليه السلام أنّه لمّا سئل عن تفسير هذه الآية قال: «خلقهم ليأمرهم بالعبادة»(٢).

وهي إشارة إلى أنّ الهدف لم يكن الإجبار على العبادة بل الإعداد والتهيئة له، وهذا المعنى يصدق في حقّ عموم الناس(٣).

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ (٦٠)﴾

التّفسير

هؤلاء يشاركون أصحابهم في العذاب

الآيتان أعلاه هما آخر سورة الذاريات، وهما في الحقيقة نوع من الاستنتاج لما تقدم من الآيات الواردة في السورة ذاتها ولا سيّما الآيات التي تتحدّث عن الأُمم السالفة كقوم فرعون وقوم لوط وثمود وعاد، وكذلك الآيات السابقة التي كانت تتحدّث عن الهدف من الخلق والإيجاد.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٥، ص ٣١٤، ح ٧.

(٢) المصدر السابق، ح ٥.

(٣) يتّضح ممّا ذكرنا آنفاً أنّ الألف واللام في «الجنّ والإنس» للاستغراق، وتشمل الآية جميع الأفراد، لا أنّ الألف واللام للجنس، بحيث تشمل جماعة منهم كما ورد في بعض التفاسير والله العالم.

فالآية الأُولى تقول إنّه بعد أن أصبح معلوماً أنّ هؤلاء المشركين قد انحرفوا عن الهدف الحقيقي للخلقة، فليعلموا أنّ لهم قسطاً وافراً من العذاب الإلهي كما كان للأقوام السالفة: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾[(١)] . . ويقولوا إن كان عذاب الله حقّاً فلِمَ لا يصيبنا؟!

والتعبير بـ«الظلم» في شأن هذه الجماعة هو لأنّ الشرك والكفر من أكبر الظلم، ولأنّ حقيقة الظلم هي وضع الشيء في غير موضعه المناسب، ومن المعلوم أنّ عبادة الأصنام مكان عبادة الله تعدّ أهمّ مصداق للظلم، ولذلك فهم يستحقّون العاقبة التي نالها الأقدمون من المشركين.

«الذنوب»: - على وزن قبول - في الأصل معناه «الفرس التي لها ذنب طويل»، كما تطلق الكلمة ذاتها على الدلو الكبير التي لها ذنب.

وكان العرب في السابق ينزحون ماء البئر بواسطة الحيوانات بأن يُهيّئوا دلاءً عظيمة متّصلة بحبال تعين على سحب الدلاء المملوءة بالماء.

وحيث كانت هذه الدلاء تقسّم أحياناً على الجماعات حول البئر، فتنال كلّ مجموعة دلواً أو أكثر، فقد استعملت هذه الكلمة بمعنى النصيب والسهم أيضاً، وهي في الآية محل البحث بهذا المعنى أيضاً، غاية ما في الأمر أنّها هنا تشير إلى السهم الكبير[(٢)] .

وهل المراد من هذه الكلمة في هذه الآية التهديد بعذاب الدنيا أو عذاب الآخرة؟ قال جماعة من المفسّرين بالمعنى الأوّل، وقال آخرون بالمعنى الثاني.

ونرى أنّ القرائن تدلّ على أنّ هذا العذاب هو العذاب الدنيوي، لأنّ العجلة لدى بعض الكفّار هي أنّهم كانوا يقولون للنّبي: متى هذا الوعد. . . وأين عذاب الله ولِمَ لا يأتينا. . . الخ. فمن الواضح أنّه إشارة إلى عذاب الدنيا[(٣)] هذا أوّلاً.

---

(١) الفعل فلا يستعجلون مجزوم بلا الناهية كما هو واضح، والنون هنا للوقاية وقد كسرت للدلالة على أنّ ياء المتكلّم محذوفة لفظاً أو رسماً ومقدرة معنىً. .

(٢) يقول بعض الشعراء العرب:

لنا ذنوب ولكم ذنوب فإن أبيتم فلنا القليب

تفسير الميزان، ج ٩، ذيل الآيات مورد البحث.

(٣) تراجع الآيتان (٥٧) و(٥٨) من سورة الأنعام، والآية (٧٢) من سورة النمل وأمثالها، وهذا التعبير في القرآن قد يستعمل في شأن القيامة أيضاً.

وثانياً إنّ التعبير بـ ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ الظاهر أنّه إشارة إلى عاقبة الأمم المتقدّم ذكرها في هذه السورة كقوم لوط وقوم فرعون وعاد وثمود الذين نال كلاً منهم نوع من العذاب في الدنيا وهلكوا به جميعاً.

وهنا ينقدح هذا السؤال، وهو إذا كانت الآية تشير إلى عذاب الدنيا فلِمَ لم يتحقّق الوعد الإلهي في شأنهم؟!

وهذا السؤال له جوابان:

- إنّ هذا الوعد تحقّق في شأن كثير منهم كأبي جهل وجماعة آخرين في غزوة بدر وغيرها.

- نزول العذاب على جميعهم مشروط بعدم الرجوع نحو الله وعدم التوبة من الشرك، ولمّا آمن معظمهم في فتح مكّة... فإنّ هذا الشرط أصبح منتفياً فلم ينزل عذاب الله.

وفي الآية الأخيرة استكمال لعذاب الدنيا بعذاب الآخرة إذ تقول: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾.

وكما أنّ هذه السورة بُدئت بمسألة المعاد والقيامة، فإنّها انتهت بالتأكيد عليها كذلك[1]!.

كلمة «الويل» تستعمل في لغة العرب عندما يقع فرد ما أو أفراد في الهلاك كما تعني العذاب والشقاء، وقال بعضهم في الويل معنى أشدّ من العذاب.

وكلمات الويل والويس والويح تستعمل في لغة العرب لإظهار التأسّف والتأثّر، غاية ما في الأمر... تستعمل كلمة «ويل» لمن يعمل أعمالاً قبيحة، أمّا «ويس» فتستعمل في مقام التحقير، وكلمة «ويح» تستعمل في موضع الترحّم.

قال بعضهم إنّ «وَيْلا» بئر من آبار جهنّم أو باب من أبوابها، غير أنّ مراد القائلين لا يعني بأنّ هذه الكلمة جاءت في اللغة بهذا المعنى فحسب، بل هي في الحقيقة بيان لمصداق من المصاديق.

وقد استعملت هذه الكلمة في القرآن بكثرة، منها في شأن الكفّار والمشركين والكاذبين والمكذّبين والمجرمين والمطفّفين والمصلّين الذين هم عن صلاتهم ساهون،

---

(١) يرى بعض المفسّرين أنّ هذه الآية تشير إلى عذاب الدنيا. مع أنّ مثل هذا التعبير في القرآن يكون ليوم القيامة غالباً.

إلاّ أنّ أكثر استعمالها في القرآن في شأن المكذّبين، وقد تكرّرت الآية ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ في سورة المرسلات وحدها عشر مرّات!.

ربّنا، نجّنا من عذاب ذلك اليوم العظيم ومن خزيه.

اللهمّ ارزقنا قبول الطاعة والتوفيق للعبودية والفخر بأن نكون عبيدك!

اللهمّ لا تبتلنا بعاقبة المكذّبين المؤلمة الذين كذّبوا رسلك وآياتك وأيقظنا من نومة الغافلين برحمتك يا أرحم الراحمين.

سُورَةُ الطُّور

مكّية وعدد آياتـها تسع وأربعون

محتوى السورة

تتركز بحوث هذه السورة - أيضاً - على مسألة المعاد وعاقبة الصالحين والمتّقين من جهة، والمجرمين والمفسدين في ذلك اليوم العظيم من جهة أُخرى رغم أنّ فيها مواضيع أُخر في مجالات مختلفة من الأُمور العقائدية أيضاً -.

ويمكن على الإجمال - أن يقسّم محتوى هذه السورة إلى ستّة أقسام.

- الآيات الأُولى من السورة التي تبدأ بالقَسَم تلو القَسَم، وهي تبحث في عذاب الله، ودلائل القيامة وعلاماتها - وعن النار وعقاب الكافرين [من الآية ١ إلى ١٦].

- القسم الآخر من هذه السورة يذكر بتفصيل نعم الجنّة ومواهب الله في القيامة وما أُعدّ للمتّقين، وينبّه على ذلك على نحو متتابع! . . . وفي الحقيقة إنّ في هذه السورة إشارةً إلى أغلب نعم الجنّة من الآيات ١٧ إلى ٢٨.

- وفي القسم الثّالث من هذه السورة يقع الكلام عن نبوّة محمّد ﷺ وما وجّه إليه الأعداء من التّهم، ويردّ عليها بنحو موجز من الآيات ٢٩ إلى ٣٤.

- وفي القسم الرّابع بحث عن التوحيد باستدلالات واضحة من الآيات ٣٥ إلى ٤٣.

- وفي القسم الخامس من هذه السورة عود على مسألة المعاد وبعض أوصاف يوم القيامة من الآيات ٤٤ إلى ٤٧.

- وأخيراً فإنّ القسم الأخير من هذه السورة الذي لا يتجاوز الآيتين يختتم الأُمور المذكورة آنفاً بأمر نبي الإسلام بالصبر والاستقامة والتسبيح والحمد لله وعده بأنّ الله حاميه وناصره.

وهكذا تتشكّل السورة من مجموعة منسجمة منطقية وعاطفية تنشدّ إليها قلوب السامعين.

وتسمية هذه السورة بـ «الطور» تناسباً لما ورد في الآية الأُولى من ذكر كلمة الطور فيها.

فضل تلاوة هذه السورة

ورد عن النّبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: «من قرأ سورة الطور كان حقّاً على الله أن يؤمنه من عذابه وأن ينعّمه في جنّته»(١).

وورد في حديث آخر عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنّه قال: «من قرأ سورة الطور جمع الله له خير الدنيا والآخرة»(٢)!

وواضح أنّ كلّ هذا الأجر والثواب العظيم في الدنيا والآخرة هو لأُولئك الذين يجعلون هذه التلاوة وسيلة للتفكّر والتفكّر بدوره وسيلة للعمل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾

التّفسير

هذه السورة - هي الأُخرى - من السور التي تبدأ بالقسم. . . القسم الذي يهدف لبيان حقيقة مهمّة، وهي مسألة القيامة والمعاد ومحاسبة أعمال الناس.

وأهميّة هذه المسألة إلى درجة بحيث إنّ الله أقسم في آيات مختلفة من القرآن بأنواع كثيرة من المقدّسات لتتجلّى عظمة ذلك اليوم ووقوعه حتماً.

وتلوح في بداية السورة خمس آيات تبدأ بالقَسم، وفيها معاني مغلقة تدعو إلى التفكير ممّا جعلت المفسّرين يبحثون فيها من جميع الوجوه.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَالطُّورِ﴾.

﴿وَالطُّورِ﴾ - في اللغة معناه الجبل - ولكن مع ملاحظة أنّ هذه الكلمة تكرّرت في عشر آيات من القرآن الكريم، تسع منها كانت في الكلام على «طور سيناء» وهو الطور أو الجبل الذي نزل الوحي عنده على موسى، فيُعلم أنّ المراد منه في الآية محلّ البحث (الطور ذاته) خاصّة لو أنّنا لاحظنا أنّ الألف واللام في هذه الكلمة هي للعهد.

(١-٢) تفسير مجمع البيان، ج٩، ص١٦٢، وتفسير البرهان، ج ٤، ص٢٤٠.

فبناءً على ذلك، فإنّ الله يقسم في أوّل مرحلة بواحد من الأمكنة المقدّسة في الأرض حيث نزل عليها الوحي.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ احتمالات متعدّدة أيضاً، إذ قال بعضهم: المراد به اللوح المحفوظ، وقال آخرون: بل هو القرآن الكريم، ومضى بعض إلى أنّه «صحيفة الأعمال»، وذهب آخر إلى أنّه «كتاب التوراة» النازل على موسى عليه السلام.

ولكن بتناسب القسَم المذكور آنفاً فإنّ الآية تشير هنا إلى «كتاب موسى» أو كلّ كتاب سماوي.

﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾.

كلمة «الرقّ» مشتقّة من الرقّة، وهي في الأصل الدقّة واللطافة، كما تطلق هذه الكلمة على الورق أو الجلد الخفيف الذي يكتب عليه و«المنشور»: معناه الواسع، ويعتقد بعضهم أنّ هذه الكلمة تحمل في مفهومها معنى اللمعان أيضاً.

فبناءً على ذلك... وقع القسم على كتاب نُشر على صفحاته أحسن ما يُكتب وهو في الوقت ذاته مفتوح وواسع غير ملتو.

﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾.

هناك تفاسير مختلفة في «البيت المعمور» كذلك... إذ قال بعضهم: المراد منه البيت الذي في السماء محاذياً للكعبة، وهو معمور بطواف الملائكة وزيارتهم إيّاه، ويلاحظ هذا المعنى في روايات إسلامية مختلفة وردت في مصادر متعدّدة[1]. وطبقاً لبعض الرّوايات فإنّ سبعين ألف ملك يزورون ذلك البيت كلّ يوم ولا يعودون إليه أبداً.

وذهب البعض أنّ المراد منه «الكعبة» وهي بيت الله في الأرض المعمور بالحجّاج والزوّار، وهو أوّل بيت وضع للعبادة على الأرض[2].

وقال بعضهم المراد من البيت المعمور هو «قلب المؤمن» الذي يعمره الإيمان وذكر الله.

إلاّ أنّ ظاهر الآية هو واحد من المعنيين الأوّلين المذكورين آنفاً، وبملاحظة التعابير المختلفة في القرآن عن الكعبة بالبيت يكون المعنى الثاني أكثر انسجاماً.

---

(١) ورد في بحار الأنوار أكثر من عشر روايات في هذا المجال، ج٥٨، ص٥٥ وما بعدها.

(٢) ذكرنا في تفسير ذيل الآية ٢ من سورة الدخان هذه المسألة، فراجع.

أمّا المقصود بـ ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾ فهو «السماء» لأنّنا نقرأ في الآية (٣٢) من سورة الأنبياء: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ﴾.

كما نقرأ في الآيتين (٢٧ و ٢٨) من سورة النازعات ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ فالله هو الذي أعلى سقفها وجعلها متّسقة ومنتظمة.

ولعلّ الوجه - في التعبير - بالسقف هو أنّ النجوم والكرات السماوية إلى درجة من الكثرة بحيث غطّت السماء فصارت كأنّها السقف، ويمكن أن يكون إشارة إلى الجوّ الذي يحيط بالأرض أو ما يسمّى بالغلاف الجوّي، وهو بمثابة السقف الذي يمنع النيازك والشهب أن تهوي إلى الأرض وتصدّ الأشعّة الضارّة من الوصول إلى الأرض.

﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾.

«للمسجور»: في اللغة معنيان: الأوّل الملتهب، والثّاني المملوء، ويقول الراغب في مفرداته: سجر على وزن فجر معناه إشعال النار، ويعتقد أنّ الآية تعطي هذا المعنى... ولم يتحدّث عن المعنى الثاني، إلاّ أنّ العلاّمة الطبرسي يذكر أنّ المعنى الأوّل هو ما تقدّم، وكذلك تشير بعض كتب اللغة إلى ذلك.

والآيات الأُخر في القرآن تؤيّد المعنى الأوّل أيضاً كما هي الحال في الآيتين(٧١و٧٢) من سورة غافر إذ قال سبحانه: ﴿يُسۡحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

ونقرأ في نهج البلاغة عن «أمير المؤمنين» في شأن «الحديدة المحماة» إذ يقول لأخيه «عقيل»: «أتئنّ من حديدة أحماها إنسانها للعبه وتجرّني إلى نار سجّرها جبّارها لغضبه..»(١).

ولكن أين هو هذا «البحر المسجور»؟ قال بعضهم هو البحر المحيط بالأرض «أو البحار المحيطة بها» وسيلتهب قبل يوم القيامة، ثمّ ينفجر كما نقرأ ذلك في الآية (٦) من سورة التكوير ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ﴾ ونقرأ في الآية (٣) من سورة الانفطار ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾.

إلاّ أنّ بعضهم فسّر ذلك بالبحر الذي في باطن الأرض وهو مؤلّف من مواد منصهرة مذابة، وما ورد في حديث عن الإمام الباقر الذي نقله «العياشي» شاهد على هذا

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٤.

المعنى، وقد ورد في هذا الحديث أنّ قارون يعذّب في البحر المسجور[١] مع أنّ القرآن يقول في شأنه: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾[٢].

وهذان التّفسيران لا يتنافيان، ويمكن أن تكون الآية قَسَماً بهما معاً، إذ كلاهما من آيات الله ومن عجائب هذا العالم الكبرى.

وممّا يلفت النظر أنّ المفسّرين لم يتناولوا بالبحث علاقة هذه الأقسام الخمسة فيما بينها، إلاّ أنّ الظاهر أنّ الأقسام الثلاثة الأُوَل بينها ارتباط وعلاقة، لأنّها جميعاً تتحدّث عن الوحي وخصوصياته، فالطور محلّ نزول الوحي، والكتاب المسطور إشارة إلى الكتاب السماوي أيضاً، سواءً كان التوراة أو القرآن، والبيت المعمور هو محلّ ذهاب وإيّاب الملائكة ورُسِل وحي الله.

أمّا القَسَمان الآخران فيتحدّثان عن الآيات التكوينية «في مقابل الأقسام الثلاثة التي كانت تتحدّث عن الآيات التشريعيّة».

وهذان القَسَمان واحد منهما يشير إلى أهمّ دلائل التوحيد وعلائمه وهو «السماء» بعظمتها، والآخر يشير إلى واحد من علائم المعاد المهمّة ودلائله، وهو الواقع بين يدي القيامة!.

فبناءً على هذا فإنّ التوحيد والنبوّة والمعاد جمعت في هذه الأقسام [أو الأيمان] الخمسة.

وبعض المفسّرين يرون أنّ هذه الآيات جميعها تشير إلى موسى وسيرة تأريخه وحياته، وذكروا إرتباط الآيات على النحو التالي:

الطور... هو الجبل الذي نزل الوحي على موسى عنده.

والكتاب المسطور: هو التوراة.

والبيت المعمور: مركز مجيء وإيّاب الملائكة ويحتمل أن يكون بيت المقدس.

والسقف المرفوع: هو ما ذكر في قصّة بني إسرائيل ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾[٣].

والبحر المسجور: هو البحر الملتهب الذي عوقب قارون به لأنّه خالف موسى فهوى فيه.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص١٣٨.
(٢) سورة القصص، الآية: ٨١.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٧١.

إلاّ أنّ هذا التّفسير يبدو بعيداً، ولا ينسجم مع الرّوايات المنقولة في المصادر الإسلامية، وكما قلنا فإنّ السقف المرفوع بشهادة آيات القرآن الأُخر والرّوايات المذكورة فيه هو السماء.

تبقى لطيفة دقيقة هنا وهي ما العلاقة بين هذه الأقسام والمُقسَم به؟.

ويتّضح الجواب على هذا السؤال - مع ملاحظة ما بيّناه آنفاً - وهو أنّ هذه الأقسام والتي تدور حول محور قدرة الله في عالم التكوين والتشريع تدلّ على أنّ الله قادر على إعادة الحياة وبعث الموتى من قبورهم مرّة أُخرى، وهذا هو غاية الأقسام المذكورة كما قرأنا في الآيات الأخيرة من - الآيات محلّ البحث - ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾.

﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

التّفسير

كانت في الآيات السابقة إشارة وتلميح عن عذاب الله في يوم القيامة - بصورة مغلقة - أمّا الآيات - محلّ البحث - ففيها توضيح وتفسير لما مرّ، فتتحدّث أوّلاً عن بعض حالات يوم القيامة وخصائصه، ثمّ عن كيفية تعذيب المكذّبين فتقول: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾(١).

«المَوْر»: على وزن قَوْل - له معان عديدة في اللغة. يقول الراغب في مفرداته: المور معناه الجريان السريع، كما قال إنّ المور يطلق على الغبار الذي تجري به الريح لكلّ جهة أيضاً.

(١) كلمة ﴿يَوْمَ﴾ منصوبة على أنّها ظرف وهي متعلّقة باسم الفاعل «واقع» الواردة في الآيات المتقدّمة.

وقد ورد في «لسان العرب» أنّ «المور» معناه الحركة والذهاب والإيّاب، كما يطلق على «الموج» ومنهم من قال: المور هو الحركة الدائرة، ومن مجموع هذه التفاسير يستفاد أنّ «المور» هو الحركة السريعة والدوران المقترن بالذهاب والإيّاب والاضطراب والتموّج، وعلى هذا فإنّ النظام الحاكم على الكرات يضطرب بين يدي يوم القيامة وتنحرف عن مداراتها وتتّجه إلى كلّ جهة ذهاباً وإيّاباً، ثمّ تتبدّل وتولّد سماء جديدة بأمر الله كما تقول الآية (١٠٤) من سورة الأنبياء: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾.

ونقرأ في الآية (٤٨) من سورة إبراهيم: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾.

ثمّ يضيف القرآن في آية أخرى: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾.

أجل، الجبال تنقلع من أمكنتها وتتحرّك وتسير ثمّ تندكّ وتتلاشى كما تشهد بذلك آيات القرآن الأُخر فتغدو ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾(١)، ثمّ تكون قاعاً خالية من كلّ شيء كما يقول القرآن: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾(٢).

كلّ ذلك هو إشارة إلى أنّ هذه الدنيا وما فيها وما عليها تندكّ ويحدث مكانها عالم جديد بأنظمة جديدة ويكون الإنسان أمام نتائج أعماله وجهاً لوجه.

لذا فإنّ القرآن يضيف في الآية التالية قائلاً: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾(٣).

أجل، حين تعمّ الوحشة والاضطراب جميع الخلق لتغيّر العالم، تهيمن على المكذّبين وحشة عظيمة وهي العذاب الإلهي... لأنّ «الويل»: إظهار التأسّف والحزن لوقوع حادثة غير مطلوبة!.

ثمّ تبيّن الآيات من هم «المكذّبون» فتقول: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾.

فيزعمون أنّ آيات القرآن ضرب من الكذب والافتراء وأنّ معجزات النّبي سحر وأنّه مجنون، ويتلقّون جميع الحقائق باللعب ويسخرون منها ويستهزئون بها ويحاربون الحقّ بالكلام الباطل غير المنطقي، ولا يأبون من أيّة تهمة أو كذب في سبيل الوصول إلى مآربهم.

﴿خَوْضٍ﴾ على وزن حوض - معناه الدخول في الكلام الباطل، وهو في الأصل ورود الماء والعبور منه.

---

(١) سورة القارعة، الآية: ٥.

(٢) لمزيد التوضيح يراجع التّفسير الأمثل ذيل الآية (١٠٥) من سورة طه.

(٣) الفاء هنا للتفريع، أي حيث تكون الأرض قاعاً صفصفاً ولا ملجأ من الله فويل يومئذ للمكذّبين.

ثمّ تبيّن الآيات ذلك اليوم وعاقبة هؤلاء المكذّبين في توضيح آخر: فتقول: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾[1] أي يساقون نحو جهنّم بعنف وشدّة.

ويقال لهم حينئذ: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

كما يقال لهم أيضاً: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾؟!

لقد كنتم تزعمون في الدنيا إنّ ما جاء به محمّد سحر، وقد أخذ السحر عن ساحر آخر، فغطّى على أعيننا ليصرفها عن الحقائق وليختطف عقولنا! ويرينا أُموراً على أنّها معاجز، ويذكر لنا كلاماً على أنّه وحي منزل من الله، إلاّ أنّ جميع ذلك لا أساس له وما هو إلاّ السحر!!

لذلك فحين يردون نار جهنّم يقال لهم بنحو التوبيخ والملامة والاحتقار وهم يلمسون حرارة النار: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾؟!

كما يقال لهم هناك أيضاً: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أجل هذه هي أعمالكم وقد عادت إليكم، فلا ينفع الجزع والفزع والآه والصراخ ولا أثر لكلّ ذلك أبداً.

وهذه الآية تأكيد على «تجسّم الأعمال» وعودتها نحو الإنسان، وهي تأكيد جديد أيضاً على عدالة الله... لأنّ نار جهنّم مهما كانت شديدة ومحرقة فهي ليست سوى نتيجة أعمال الناس أنفسهم، وأشكالها المتبدّلة هناك!.

تعقيب

كيف يُساق المجرمون إلى جهنّم؟

لا شكّ أنّ المجرمين يُساقون ويُدعّون إلى جهنّم بالتحقير والمهانة والزجر والعذاب، إلاّ أنّه تشاهد آيات متعدّدة في هذا الصدد ذات تعابير مختلفة.

إذ نقرأ في الآيتين (٣٠ و٣١) من سورة الحاقة مثلاً ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١﴾.

ونقرأ في الآية (٤٧) من سورة الدخان ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾.

---

(١) دعّ على وزن جدّ معناه الدفع الشديد والسوق بخشونة وعنف و«اليوم» في الآية منصوب على الظرفية أو البدلية من يومئذ في الآية السابقة.

كما جاء التعبير بالسوق في بعض الآيات كالآية (٨٦) من سورة مريم ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾.

وعلى العكس منهم المتّقون والصالحون إذ يتلقّون بكلّ إكرام واحترام عند باب الجنّة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[1].

وعلى هذا فليست الجنّة والنار - كلّ منهما - مركزاً لرحمة الله أو عذابه فحسب، بل تشريفات الورود لكلّ منهما كاشفة عن هذا المعنى أيضاً.

الخائضون في الأباطيل!

بالرغم من أنّ كلام القرآن في الآيات الآنفة كان يدور حول المشركين في عصر النّبي محمّد ﷺ، إلاّ أنّ هذه الآيات دون شكّ عامّة، فهي تشمل جميع المكذّبين حتى الفلاسفة الماديين الخائضين في حفنة من الخيالات والأفكار الناقصة، ويتّخذون حقائق عالم الوجود لعباً وهزواً، ولا يعتدّون إلاّ بما يقرّ به عقلهم القاصر، فهم ينتظرون أن يروا كلّ شيء في مختبراتهم وتحت المجهر حتى ذات الله المقدّسة - تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً - وإلاّ فلا يؤمنون بوجوده أبداً.

هؤلاء أيضاً مصداق للذين هم ﴿فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ وهم غارقون في أمواج من الخيالات والتصوّرات الباطلة.

إنّ عقل الإنسان مهما بلغ فهو قبال نور الوحي كالشمعة أمام نور الشمس المضيئة في العالم، فهذه الشمعة تساعد الإنسان أن يخرج من محيط المادّة المظلم وأن يفتح الأبواب نحو ما وراء الطبيعة، وأن يحلّق في كلّ جهة بنور الوحي ليرى العالم الواسع ويتعرّف على مجهولاته وخفاياه.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ

(١) سورة الزمر، الآية: ٧٣.

بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾

التفسير

مواهب الله للمتّقين

تعقيباً على المباحث الواردة في الآيات المتقدّمة حول عقاب المجرمين وعذابهم الأليم تذكر الآيات محلّ البحث ما يقابل ذلك من المواهب الكثيرة والثواب العظيم للمؤمنين والمتّقين لتتجلّى بمقايسة واضحة مكانة كلّ من الفريقين.

تقول الآية الأُولى من الآيات محلّ البحث: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾.

والتعبير بـ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بدلاً من المؤمنين، لأنّ هذا العنوان يحمل مفهوم الإيمان، كما يحمل مفهوم العمل الصالح أيضاً، خاصّة أنّ «التقوى» تقع مقدّمةً وأساساً للإيمان في بعض المراحل، كما تقول الآية (٢) من سورة البقرة ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنّ الإنسان إذا لم يكن ذا تعهّد وإحساس بالمسؤولية وروح تطلب الحقّ وتبحث عنه - وكلّ ذلك مرحلة من مراحل التقوى - فإنّه لا يمضي في التحقيق عن دينه وعقيدته ولا يقبل هداية القرآن أبداً.

والتعبير بـ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ بصيغة الجمع والتنكير لكلٍّ منهما، إشارة إلى تنوّع الجنّات والنعيم وعظمتهما.

ثمّ يتحدّث القرآن عن تأثير هذه النِّعَم الكبرى على روحية أهل الجنّة فيقول في الآية التالية: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾(١).

خاصّةً أنّ الله قد طمأنهم وآمنهم من العقاب ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

وهذه الجملة قد تكون ذات معنين... الأوّل بيان النعمة المستقلّة قبال نعم الله الأُخر... والثاني أن يكون تعقيباً على الكلام السابق، أي أنّ أهل الجنّة مسرورون من

(١) كلمة ﴿فَٰكِهِينَ﴾ مشتقّة من فكه على وزن نظر - وفكاهة على وزن شباهة، ومعناها كون الإنسان مسروراً، وجعل الآخرين مسرورين بالكلام العذب. ويقول الراغب في مفرداته: الفاكهة معناها كلّ نوع من الثمار. والفكاهة أحاديث أهل الأُنس... وقد احتمل بعضهم أنّ الآية: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ إشارة إلى تناول أنواع الفواكه وهذا المعنى يبدو بعيداً.

شيئين «بما آتاهم الله من النعم في الجنّة»، و«بما وقاهم من عذاب الجحيم».

والتعبير بـ ﴿رَبُّهُمْ﴾ في الجملتين يشير ضمناً إلى نهاية لطف الله ودوام ربوبيته عليهم في تلك الدار.

ثمّ تشير الآية الأُخرى إشارةً إجمالية إلى نعم المتّقين في الجنّة فتقول: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

والتعبير بـ ﴿هَنِيئًا﴾ هو إشارة إلى أنّ أطعمة الجنّة وشرابها السائغة غير منغّصة، فهي ليست كأطعمة الدنيا وشرابها التي تجرّ الإنسان إلى الوبال عند الإفراط أو التفريط بها... إضافةً إلى ذلك كلّ ذلك لا يحصل عليها بمشقّة، ولا يخاف من انتهائها، ولذلك فهي هنيئة![1].

ومن المعلوم أنّ أطعمة الجنّة هنيئة بذاتها، ولكنّ قول الملائكة لأهل الجنّة ﴿هَنِيئًا﴾ هذا القول له لطفه وعذوبته الخاصّة.

والنعمة الأُخرى التي يتمتّع بها أهل الجنّة هي كونهم: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾.

فهم يلتذّون بالاستئناس إلى أصحابهم والمؤمنين الآخرين، وهذه لذّة معنوية فوق أيّة لذّة أُخرى!.

و﴿سُرُرٍ﴾ جمع سرير، وأصل المادّة هو «السرور» وتطلق السرر على الكراسي المهيأة لمجالس السرور ليُتّكأ عليها.

و﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ من مادّة صف، ومعناها أنّ هذه السرر مرتبة واحداً إلى جنب الآخر ويتشكّل منه مجلس عظيم للأُنس.

ونقرأ في آيات متعدّدة من القرآن أنّ أهل الجنّه يجلسون على سرر متقابلين. [الحجر الآية ٤٧ والصافات الآية ٤٤].

وهذا التعبير لا ينافي ما ورد في هذه الآية محلّ البحث، لأنّ مجالس الأُنس والسرور ترتّب الأسّرة فيها على شكل مستدير ومصفوفة جنباً إلى جنب، فجلاّسها على سرر مصفوفة متقابلون!.

والتعبير بـ ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ إشارة إلى منتهى الهدوء، لأنّ الإنسان عند الهدوء يتكىء عادةً، والذين هم في قلق وحزن لا يرون كذلك!.

---

(١) يقول الراغب في مفرداته: الهنيء كلّ ما لا يلحق فيه المشقّة ولا يعقبه وخامة.

ثمّ يضيف القرآن بأنّا زوجناهم من نساء بيض جميلات ذوات أعين واسعة ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾[1].

هذه بعض من نعم أهل الجنّة المادية والمعنوية، إلاّ أنّهم لا يكتفون بهذه النعم فحسب، وإنّما تضاف إليها نعم ومواهب معنوية ومادية أُخر! ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾!.

وهذه نعمة بنفسها أيضاً أن يرى الإنسان ذريّته في الجنّة ويلتذّ برؤيتهم دون أن ينقص من عمله شيء أبداً.

ويفهم من تعبير الآية أنّ المراد من الذرية هم الأبناء البالغون الذين يسيرون في خطّ الآباء المؤمنين ويتّبعون منهجهم.

فمثل هؤلاء الأبناء وهذه الذريّة إذا كان في عملهم نقص وتقصير فإنّ الله سبحانه يتجاوز عنهم لأجل آبائهم الصالحين، ويرتفع مقامهم عندئذ فيبلغون درجة آبائهم، وهذه المثوبة موهبة للآباء والأبناء[2]!.

إلاّ أنّ جماعة من المفسّرين يعتقدون أنّ «الذريّة» هنا تشمل الأبناء الكبار والصغار جميعاً... غير أنّ هذا التّفسير لا ينسجم مع ظاهر الآية، لأنّ الاتّباع بإيمان دليل على وصولهم مرحلة البلوغ أو مقاربتهم لها.

إلاّ أن يقال إنّ الأطفال يصلون في يوم القيامة مرحلة البلوغ ويمتحنون فمتى نجحوا في الامتحان التحقوا بالآباء، كما جاء هذا المعنى في الكافي إذ ورد فيه أنّه سئل الإمام عن أطفال المؤمنين فقال عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة جمعهم الله ويشعل ناراً فيأمرهم أن يلقوا أنفسهم في النار فمن ألقى نفسه سلم وكان سعيداً وجعل الله النار عليه برداً وسلاماً ومن امتنع حرم من لطف الله»[3].

---

(١) «الحور»: جمع (حوراء) وأحور، فهو جمع للمذكّر والمؤنث سواء، ويطلق على من حدقة عينه سوداء وبياضها شفّاف أو هو كناية عن الجمال، لأنّ الجمال يتجلّى في العينين قبل كلّ شيء، والعين جمع لأعين وعيناء معناه العين الواسعة، وهكذا فإنّ للحور العين مفهوماً واسعاً يشمل الأزواج جميعاً الذكور والإناث من أهل الجنّة فالذكور للإناث وبالعكس.

(٢) الظاهر أنّ جملة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ جملة مستقلّة والواو للاستئناف، وقد اختار جماعة من المفسّرين هذا المعنى «كالعلاّمة الطباطبائي والمراغي وسيّد قطب» إلاّ أنّ العجب أن يعدّ الزمخشري هذه الجملة معطوفة على وزوّجناهم بحور عين مع أنّه لا يتناسب هذا المعنى ومفهوم النصّ ولا ينسجم مع فصاحة القرآن وبلاغته.

(٣) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص١٣٩ بتصرّف وتلخيص.

إلاّ أنّ هذا الحديث إضافةً إلى ضعف سنده يواجه إشكالات ومؤخذات في المتن أيضاً . . . وليس هنا مجال لبيانها وشرحها .

وبالطبع فإنّه لا مانع أن يُلحق الأطفال بالآباء ويكونوا معهم في الجنّة . . . إلاّ أنّ الكلام هو هل الآية الآنفة ناظرة إلى هذا المطلب أم لا؟ وقد قلنا إنّ التعبير بـ ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ ظاهره أنّ المقصود هو الكبار .

وعلى كلّ حال - وحيث إنّ ارتقاء الأبناء إلى درجة الآباء يمكن أن يوجد هذا التوهّم أنّه ينقص من أعمال الآباء ويُعطى للأبناء فإنّ الآية تعقّب بالقول: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم[1] مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ .

وينقل ابن عبّاس عن النّبي ﷺ أنّه قال: «إذا دخل الرجل الجنّة سأل عن أبويه وزوجته وولده فيقال له إنّهم لم يبلغوا درجتَكَ وعملك. فيقول: ربّ قد عملت لي ولهم فيؤمر بإلحاقهم به»[2] .

ممّا ينبغي الالتفات إليه أنّ القرآن يضيف في نهاية الآية: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ .

فلا ينبغي التعجّب من عدم إنقاص أعمال المتّقين، لأنّ هذه الأعمال مع الإنسان حيثما كان، وإذا أراد الله أن يُلحق أبناء المتّقين بهم تفضّلاً منه ورحمة، فلا يعني ذلك أنّه سينقص من ثواب أعمالهم أي شيء!

وقال بعض المفسّرين: إنّ كلمة ﴿رَهِينٌ﴾ هنا معناها مطلق، فكلّ إنسان مرهون بأعماله، سواءً أكانت صالحةً أم طالحة، ولا ينقص من جزاء أعماله شيء.

ولكن مع ملاحظة أنّ هذا التعبير لا يتناسب والأعمال الصالحة، فإنّ بعض المفسّرين قالوا: إنّ ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ﴾ هنا إشارة إلى أصحاب الأعمال السيّئة! وإنّ كلّ إنسان مرهون بأعماله السيّئة فهو حبيسها وأسيرها .

ويستدلّون أحياناً بالآيتين(٣٨ و٣٩) من سورة المدثر . . . ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ .

غير أنّ هذا التّفسير مع الإلتفات إلى سياق الآيات السابقة واللاحقة - التي تتكلّم في شأن المتّقين وليس فيها كلام على المشركين والمجرمين - يبدو غير مناسب!

---

(١) الفعل ألتناهم مشتق من مادّة ألَتَ على وزن ثَبَتَ: ومعناه الإنقاص.

(٢) تفسير المراغي، ج٢٧، ص٢٦.

وقبال هذين التّفسيرين الذين يبدو كلّ منهما غير مناسب - من بعض الوجوه - هناك تفسير ثالث ينسجم مع صدر الآية والآيات السابقة والآيات اللاحقة، وهو أنّ من معاني «الرهن» في اللغة «الملازمة»، وإن كان معروفاً أنّه الوثيقة في مقابل الدين، إلاّ أنّه يستفاد من كلمات أهل اللغة أنّ الرهن من معانيه الدوام والملازمة[١].

بل هناك من يصرّح بأنّ المعنى الأصلي للرهن هو الدوام والثبوت، ويعدّ الرهن بمعنى الوثيقة من اصطلاحات الفقهاء، لذلك فإنّه حين يقال «نعمة راهنة» فمعناها أنّها ثابتة ومستقرّة[٢].

ويقول أمير المؤمنين في شأن الأمم السالفة: «ها هم رهائن القبور ومضامين اللحود»[٣].

فيكون معنى ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أنّ أعمال كلّ إنسان ملازمة له ولا تنفصل عنه أبداً، سواءً كانت صالحة أو طالحة، ولذلك فإنّ المتّقين في الجنّة رهينو أعمالهم، وإذا كان أبناؤهم وذريّاتهم معهم، فلا يعني ذلك أنّ أعمالهم ينقص منها شيء أبداً.

وأمّا في شأن الآية (٣٩) من سورة المدثر التي تستثني أصحاب اليمين ممّا سبق، فيمكن أن تكون إشارةً إلى أنّهم مشمولون بألطاف لا حدّ لها حتى كأنّ أعمالهم لا أثر لها بالقياس إلى ألطاف الله[٤].

وعلى كلّ حال، فإنّ هذه الجملة تؤكّد هذه الحقيقة وهي أنّ أعمال الإنسان لا تنفصل عنه أبداً، وهي معه في جميع المراحل.

﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)﴾

(١) لسان العرب، مادّة رهن.
(٢) مجمع البحرين، مادّة رهن.
(٣) نهج البلاغة، من كتاب له ٤٥.
(٤) هناك تفاسير أُخر في أصحاب اليمين سنتناولها ذيل الآية من سورة المدثر إن شاء الله.

التّفسير

مواهب أُخرى لأهل الجنّة

أشارت الآيات المتقدّمة إلى تسعة أقسام من مواهب أهل الجنّة، وتشير الآيات محلّ البحث إلى خمسة أُخر منها بحيث يستفاد من المجموع أنّ ما هو لازم للهدوء والطمأنينة والفرح والسرور واللذّة مهيّأ لهم في الجنّة!

فتشير الآية الأُولى من الآيات محلّ البحث إلى نوعين من طعام أهل الجنّة فتقول: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾.

﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم﴾ مشتق من الإمداد ومعناه العطاء والزيادة والإدامة... أي إنّ طعام الجنّة وفواكهها لا ينقص منهما شيء بتناولهما، وهما ليسا كطعام الدنيا وفواكهها بحيث يتغيّران أو ينقصان.

والتعبير بـ ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ يدلّ على أنّ أهل الجنّة أحرار تماماً في انتخاب الأطعمة ونوعها وكميّتها وكيفيتها، فمهما طلبوا فهو مهيأ لهم... وبالطبع فإنّ طعام الجنّة غير منحصر بهذين النوعين اللحم والفاكهة، إلاّ أنّهما يمثّلان الطعام المهمّ، وتقديم الفاكهة على اللحم إشارة إلى أفضليّتها عليه.

ثمّ تشير الآية التالية إلى ما يشربه أهل الجنّة من شراب سائغ فتقول: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾!

حيث يناول أحدهم الآخر كؤوس الشراب الطاهر من الإثم والإفساد، ويشربون شراباً سائغاً عذباً لذيذاً يهب النشاط خالياً من أي نوع من أنواع التخدير وفساد العقل! ولا يعقبه لغو ولا إثم، بل كلّه لذّة وانتباه ونشاط «جسمي وروحاني».

وكلمة ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾ من مادّة التنازع ومعناه أخذ بعضهم من بعض، وقد يأتي للمخاصمة والتجاذب، لذلك قال بعض المفسّرين بأنّ أهل الجنّة يتجاذبون الشراب الطهور بعضهم من بعض على سبيل المزاح والسرور.

لكن كما يستفاد من كلمات أهل اللغة أنّ «التنازع» متى أطلق معه لفظ الكأس أو ما أشبه فمعناه أخذ الكأس من يد الآخر! ولا يعني التخاصم أو التجاذب! وينبغي الالتفات إلى هذه اللطيفة اللغوية وهي أنّ «الكأس» هي الإناء المملوء فإذا كان خالياً لا

يطلق عليه كأس[١].

وعلى كلّ حال، فحيث إنّ التعبير بالكأس يُتداعى منه إلى الشراب المسكر في الدنيا فإنّ الآية تضيف قائلة ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ ولا يصدر على أثرها عمل قبيح كما يعقب الشراب المسكر! فشراب هذه الكأس طهور نقي يجعلهم أكثر طهارةً وخلوصاً.

أمّا النعمة الرابعة المذكورة لأهل الجنّة فوجود الخدم والغلمان إذ تقول الآية: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾.

و«اللؤلؤ المكنون» هو اللؤلؤ داخل صدفه، وهو في هذه الحالة شفّاف وجميل إلى درجة لا توصف وإن كان خارج الصدف شفّافاً وجميلاً أيضاً، غير أنّ الهواء الملوّث والأيدي التي تتناوله كلّ ذلك يؤثّر فيه، فلا يبقى على حالته الأُولى من الشفّافية! فالغلمان وخدمة الجنّة هم إلى درجة من الصفاء حتى كأنّهم اللؤلؤ المكنون كما يعبّر القرآن الكريم.

وبالرغم من أنّه لا حاجة في الجنّة إلى الخدمة، وما يطلبه الإنسان يجده أمامه، إلاّ أنّ هذا بنفسه إكرام أو احترام آخر لأهل الجنّة!

وقد ورد في حديث عن النّبي ﷺ حين سئل عن أهل الجنّة فقيل له: يا رسول الله إنّ الغلمان هم كاللؤلؤ المكنون فكيف حالة المؤمنين؟ قال ﷺ: والذي نفسي بيده فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب[٢].

والتعبير بـ ﴿لَّهُمْ﴾ يدلّ على أنّ كلّ مؤمن له خدمة خاصّون به، وبما أنّ الجنّة ليست مكاناً للهمّ والحزن فإنّ الغلمان يلتذّون بخدمتهم المؤمنين!.

وآخر نعمة في هذه السلسلة من النعم هي نعمة الطمأنينة وراحة البال من كلّ عذاب أو عقاب إذ تقول الآية التالية: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

فمع أنّنا كنّا نعيش بين ظهراني أهلنا وكان ينبغي أن نحسّ بالأمان والطمأنينة، إلاّ أنّنا كنّا مشفقين... مشفقين أن تحدق بنا الحوادث المزعجة والمكدّرة لحياتنا وأن يصيبنا عذاب الله على حين غرّة في أيّة لحظة.

---

(١) قال الراغب في مفرداته: الكأس: الإناء بما فيه من الشراب وقال في مجمع البحرين كذلك فإذا خلا الإناء سمّي «قدحاً».

(٢) تفسير مجمع البيان، الكشّاف، روح البيان، أبو الفتوح الرازي.

مشفقين أن يسلك أبناؤنا طريق الضلال، فيتيهوا في مفازة جرداء ويتحيّروا!

مشفقين أن يفجؤنا أعداؤنا القساة ويضيّقوا علينا الميدان! ولكن الله منّ علينا برحمته الواسعة: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾:

أجل: منّ الله الرحيم علينا فنجّانا من سجن الدنيا ووحشتها، وأنعم علينا في دار القرار وجنّات النعيم.

وحين يتذكّرون ماضيهم وجزئياته ويقيسونه بما هم عليه من حالة منعّمة! يعرفون قدر نعم الله ومواهبه الكبرى أكثر، وستكون تلك النعم ألذّ وأدعى للقلب، لأنّ القيم تتجلّى أكثر في القياس بين نعم الدنيا ونعم الآخرة.

والكلام الذي ينقله القرآن على لسان أهل الجنّة هنا يشير إلى اعترافهم بهذه الحقيقة وهي أنّ كون الله برّاً رحيماً يعرفه أهل الجنّة في ذلك الزمان أكثر من أي وقت مضى فيقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾.

إلاّ أنّنا نعرف هذه الصفات الآن بشكل واقعي أكثر ممّا كنّا نعرفها، إذ شملنا برحمته العظيمة قبال هذه الأعمال التي لا تعدّ شيئاً وأحسن إلينا مع كلّ تلك الذنوب الكثيرة!.

أجل إنّ عرصة القيامة ونعم الجنّة مدعاة لتجلّي صفات الله وأسمائه، والمؤمنون يتعرّفون في عرصة القيامة على حقيقة أسماء الله تعالى وصفاته أكثر من أي زمن آخر.

حتى الجحيم أيضاً تبيّن صفاته وحكمته وعدله وقدرته!

ملاحظات:

كلمة ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ مشتقّة من السؤال، ومعناه الاستفهام، أي يسأل بعضهم بعضاً، وهذا الفعل هنا يشير إلى أنّ أهل الجنّة يسأل بعضهم بعضاً عن ماضيه، لأنّ تذكّر هذه المسائل والنجاة من تلك الآلام والهموم والوصول إلى مثل هذه المواهب كلّ ذلك بنفسه تلذّذ أيضاً... وهذا يشبه تماماً «الإنسان» المسافر العائد من سفر محفوف بالمخاطر إلى محيط آمن، فهو يتحدّث مع من سافر معه عن ما كان في سفره ويعرب عن سروره لسلامته.

- كلمة ﴿مُشۡفِقِينَ﴾ مشتقّة من الإشفاق، وكما يقول الراغب في مفرداته معناه التوجّه المقرون بالخوف... فحين يتعدّى هذا اللفظ «الإشفاق» بـ«من» يكون مفهوم الخوف فيها أظهر، وإذا تعدّت بـ«في» يكون مفهوم التوجّه والعناية فيها أكثر!

والأصل أنّ هذه الكلمة مشتقّة من «الشفق» وهو النور المقرون أو الممزوج بشيء من الظلمة.

والآن ينبغي أن يُعرف ممَّ كانوا مشفقين في الدنيا وخائفين؟ ولأي شيء كانوا يتوجّهون؟!

وهنا احتمالات ثلاثة وقد جمعناها في تفسير الآية إذ لا منافاة بينها جميعاً «الخوف من الله والتوجّه إليه لنجاتهم - والإشفاق من انحراف أهليهم والالتفات إلى أمر التربية - والخوف من الأعداء والتوجّه لحفظ أنفسهم في قبالهم» وإن كان المعنى الأوّل - مع ملاحظة الآيات التالية وخاصّة ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ - أقرب للنظر!

- التعبير ﴿فِيٓ أَهۡلِنَا﴾ بإطلاقه يحمل مفهوماً واسعاً حيث يصدق على جميع الأبناء والأزواج والأحباب، ويشير هذا التعبير إلى أنّ الإنسان في مثل هذا الجمع يحسّ بالأمن أكثر من أي مكان آخر، فإذا كان فيهم مشفقاً، فمن المعلوم حاله إذا كان في غيرهم!!

ويحتمل أيضاً أنّ هذا التعبير يشير إلى أولئك المبتلين بأُسرة غير مؤمنة، وكانوا خائفين حتى منهم، إلاّ أنّهم في الوقت ذاته قاوموا وحافظوا على استقلالهم بالاتّكال على الله ولطفه ولم يتلوّنوا بلون الأُسرة.

- ﴿ٱلسَّمُومِ﴾ يعني الحرارة التي تدخل في مسام البدن فتؤذي الإنسان، ويطلق على الريح التي تتسم بهذه السمة بريح السموم كما يطلق عذاب السموم على مثل هذا العذاب الذي تدخل حرارته مسام البدن فتؤذيه.

وأمّا إطلاق كلمة «السم» على المواد القاتلة فهو لأنّها تنفذ في جميع أجزاء البدن!

- كلمة «البرّ» في الأصل تطلق على اليابسة في قبال البحر، ثمّ استعملت هذه الكلمة في من يعمل عملاً صالحاً وواسعاً حسناً، وأجدر بهذه الكلمة الذات المقدّسة، لأنّ لطفه وإحسانه عمّ العوالم كلّها.

- ارتباط الآيات ومضامينها

قلنا إنّ هذه الآيات والآيات المتقدّمة تذكر أربعة عشر قسماً من نعم أهل الجنّة.

١ - الجنّات ٢ - النعيم ٣ - السرور ٤ - الأمان من عذاب جهنّم ٥ - تناول الطعام والشراب السائغ في الجنّة ٦ - الاتّكاء على السرر المصفوفة ٧ - الأزواج من الحور العين ٨ - إلحاق الذرية التي تبعت آباءها بإيمان ٩ - أنواع الفواكه اللذيذة ١٠ - أنواع اللحم، ١١ - ما تشتهي الأنفس ١٢ - كؤوس الشراب الطهور ١٣ - ويطوف عليهم غلمان لهم كأنّهم لؤلؤ مكنون ١٤ - التساؤل عن أيّام الدنيا في مجالس يغمرها الأُنس!.

وهذه النعم بعضها ماديّ وبعضها معنوي، ومع كلّ ذلك فإنّ نعم الجنّة الماديّة والمعنوية غير منحصرة بهذه النعم، بل ما هو مذكور هنا يعدّ جانب من جوانب نعم الجنّة!

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ (٣٤)﴾

سبب النّزول

جاء في رواية أنّ قريشاً اجتمعت في دار الندوة(١) ليفكّروا في مواجهة دعوة النّبي الإسلامية التي كانت تعدّ خطراً كبيراً على منافعهم غير المشروعة.

فقال رجل من قبيلة «عبد الدار» ينبغي أن ننتظر حتى يموت، لأنّه شاعر على كلّ حال، وسيمضي عنّا كما مات زهير والنابغة والأعشى «ثلاثة شعراء جاهليون» وطوي بساطهم... وسيطوى بساط محمّد أيضاً بموته، قالوا ذلك وتفرّقوا فنزلت الآيات آنفة الذكر وردّت عليهم(٢).

التّفسير

أُمنيات المشركين وتحدّي القرآن

كان الكلام في الآيات المتقدّمة عن قسم مهمّ من نعم الجنّة وثواب المتّقين وكان الكلام في الآيات التي سبقتها عن بعض عذاب أهل النار لذلك فإنّ الآية الأُولى من الآيات محلّ البحث تخاطب النّبي فتقول: ﴿فَذَكِّرْ﴾!

---

(١) دار الندوة هي دار «قصي بن كلاب» جدّ العرب المعروف، وكانوا يجتمعون فيها للمشاورة في الأُمور المهمّة، وكانت هذه الدار إلى جوار بيت الله وتفتح بابها نحو جهة الكعبة، وكانت هذه الدار ذات مركزية في زمن قصي بن كلاب نفسه (راجع سيرة ابن هشام، ج٢، ص١٢٤ وج ص١٣٢).

(٢) راجع تفسير المراغي، ج٢٧، ص٣١.

لأنّ قلوب عشّاق الحقّ تكون أكثر استعداداً بسماعها مثل هذا الكلام، وقد آن الأوان أن تبيّن الكلام الحقّ لها!

وهذا التعبير يدلّ بوضوح أنّ الهدف الأصلي من ذكر جميع تلك النعم ومجازاة الفريقين هو تهيئة الأرضية الروحية لقبول حقائق جديدة! وفي الحقيقة فإنّه ينبغي على كلّ خطيب أن يستفيد من هذه الطريقة لنفوذ كلامه وتأثيره في قلوب السامعين.

ثمّ يذكر القرآن الاتّهامات التي أطلقها أعداء النّبي الألدّاء المعاندون فيقول: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾.

«الكاهن» يطلق على من يخبر عن الأسرار الغيبية، وغالباً ما كان الكاهن يدّعي بأنّه له علاقة بالجنّ ويستمدّ الأخبار الغيبية منهم، وكان الكهنة في الجاهلية - خاصّةً - كثيرين... ومن ضمنهم الكاهنان «سطيح» و«شق»، والكهنة أفراد أذكياء، إلاّ أنّهم يستغلّون ذكاءهم فيخدعون الناس بادّعاءاتهم الفارغة.

والكهانة محرّمة في الإسلام وممنوعة ولا يعتدّ بأقوال الكهنة! لأنّ أسرار الغيب خاصّة بعلم الله ولا يطلع غيبه إلاّ من ارتضى من رسول وإمام وحسب ما تقتضيه المصلحة.

وعلى كلّ حال فإنّ قريشاً ومن أجل أن تشتّت الناس وتصرّفهم عن النّبي ﷺ كانت تتّهمه ببعض التّهم، فتارةً تتّهمه بأنّه كاهن، وتارةً تتّهمه بأنّه مجنون، والعجب أنّها لم تقف على تضاد الوصفين، لأنّ الكهنة أُناس أذكياء والمجانين على خلافهم!! ولعلّ الجمع بين الافتراءين في الآية إشارة إلى هذا التناقض في الكلام من قبل القائلين.

ثمّ يذكر القرآن الاتّهام الثالث الذي يخالف الوصفين السابقين أيضاً فيقول: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾.

فطالما هو شاعر فعلينا أن نصبر، إذ إنّ لأشعاره رونقها وجاذبيتها، فإذا حلّ به الموت وانطوت أشعاره كما ينطوي سجل عمره وأودعت في ضمير النسيان فسنكون حينئذ في راحة من أمره!!.

وكما يُفهم من كتب اللغة فإنّ ﴿ٱلۡمَنُونِ﴾ مشتقّ من المنّ، وهو على معنيين: النقصان والقطع، وهذان المعنيان أيضاً بينهما مفهوم جامع!

ثمّ استعملت كلمة ﴿ٱلۡمَنُونِ﴾ في الموت أيضاً، لأنّه ينقص العدد ويقطع المدد.

وقد يطلق ﴿ٱلۡمَنُونِ﴾ على مرور الزمان، وذلك لأنّه يوجب الموت ويقطع العلائق

وينقص النفر، كما يطلق ﴿ٱلۡمَنُونِ﴾ على الليل والنهار أحياناً، ولعلّ ذلك للمناسبة ذاتها[١].

وأمّا كلمة ﴿رَيۡبَ﴾ فأصلها الشكّ والتردّد والوهم في الشيء الذي تنكشف أستاره بعدئذ فتتضح حقيقته!

وهذا التعبير يستعمل في شأن الموت، فيقال ﴿رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ لأنّ وقت حصوله غير معلوم لا أصل تحقّقه[٢]!

إلاّ أنّ جماعة من المفسّرين قالوا إنّ المراد من ﴿رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ في الآية محلّ البحث هو حوادث الدهر، حتى إنّه نقل عن ابن عبّاس أنّه قال حيث ما وردت كلمة ﴿رَيۡبَ﴾ في القرآن فهي بمعنى الشكّ والتردّد، إلاّ في هذه الآية من سورة الطور فمعناها الحوادث[٣].

وقال جماعة منهم أنّ المراد منه هو حالة الاضطراب، فيكون معنى ﴿رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ على هذا القول هو حالة الاضطراب التي تنتاب أغلب الأفراد قبل الموت!

ويمكن أن يعود هذا التّفسير (الأخير) على المعنى السابق، لأنّ حالة الشكّ والتردّد أساس الاضطراب، وكذلك الحوادث التي لم ينبّأ بها من قبل، فهي تقترن بنوع من الاضطراب والشكّ والتردّد، وهكذا فإنّ جميع هذه المفاهيم تنتهي إلى أصل «الشكّ والتردّد».

وبتعبير آخر، فإنّ للريب ثلاثة معان مذكورة: الشكّ، والاضطراب، والحوادث، وهذه جميعاً من باب اللازم والملزوم!.

وعلى كلّ حال، فأُولئك كانوا يطمئنون أنفسهم ويرضون خاطرهم بأنّ حوادث الزمان كفيلة بالقضاء على النّبي ﷺ وكانوا يتصوّرون أنّهم سيتخلّصون من هذه المشكلة العظمى التي أحدثتها دعوة النّبي ﷺ في سائر المجتمع... لذلك فإنّ القرآن يردّ عليهم بجملة موجزة مقتضبة ذات معنى غزير ويهدّد هؤلاء - عمي القلوب - مخاطباً نبيّه فيقول: ﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾.

فأنتم تنتظرون تحقّق تصوّراتكم الساذجة التافهة!! وأنا أنتظر أن يصيبكم عذاب الله!.

وعليكم أن تنتظروا أن ينطوي بموتي بساط الإسلام!! وأنا بعون الله أنتظر أن أجعل

(١) راجع «لسان العرب» و«المفردات للراغب» و«المنجد» و«تفسير القرطبي».
(٢) راجع المفردات للراغب. (٣) تفسير القرطبي، ج٩، ص٦٢٤٢.

الإسلام يستوعب العالم كلّه في حياتي وأن يبقى بعد حياتي أيضاً مواصلاً طريقه دائماً!

أجل... إنّما تعوّلون على تصوراتكم وخيالاتكم، وأنا أعتمد على لطف الله الخاصّ سبحانه.

ثمّ يوبّخهم القرآن توبيخاً شديداً فيقول في شأنهم: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[1].

كان سَراةُ قريش يعرفون بين قومهم بعنوان «ذوي الأحلام»، أي أصحاب العقول، فالقرآن يقول: أي عقل هذا الذي يدّعي بأنّ وحي السماء - الذي تكمن فيه دلائل الحقّ والصدق - شعر أو كهانة؟! وأن يزعم بأنّ حامله «النّبي» الذي عرف بالصدق والأمانة منذ عهد بعيد، بأنّه شاعر أو مجنون!؟

فبناءً على ذلك ينبغي أن يستنتج أنّ هذه التّهم والافتراءات ليست ممّا تقول به عقولهم وتأمرهم به، بل أساسها طغيانهم وتعصّبهم وروح العصيان والتمرّد... فما أن وجدوا منافعهم غير المشروعة في خطر حتى ودّعوا العقل!! ولوّوا رؤوسهم نحو الطغيان عناداً عن اتّباع الحقّ!.

«الأحلام» جمع حُلُم ومعناه العقل، ولكن كما يقول الراغب في مفرداته إنّ الحلم في الحقيقة بمعنى ضبط النفس والتجلّد عند الغضب، وهو واحد من دلائل العقل والدراية، ويشترك مع الحِلم على زنة العلم - في الجذر اللغوي!.

وكلمة «الحُلُم» قد تأتي بمعنى الرؤيا والمنام ولا يبعد مثل هذا التّفسير في الآية محلّ البحث... فكأنّ كلماتهم ناتجة عن أحلامهم الباطلة!!

ومرّة أُخرى يشير القرآن إلى اتّهام آخر - من اتّهاماتهم - الذي يعدّ الرابع في سلسلة اتّهاماتهم فيقول: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿تَقَوَّلَهُۥ﴾: مشتقّ من مادّة تقوّل - على وزن تكلّف - ومعناه الكلام الذي يفتعله الإنسان بينه وبين نفسه دون أن يكون له واقع[2].

---

(١) هناك احتمالات وأقوال بين المفسّرين في معنى «أم» هنا أهي استفهامية أم منقطعة وبمعنى بل كلّ له رأيه فيها وإن كان الرأي الثاني أكثر ترجيحاً عندهم. إلاّ أنّ سياق الآيات يتناسب والمعنى الأوّل غير أنّه ينبغي أن يُعرف بأنّ أم في مثل هذه المواطن ينبغي أن تكون مسبوقة بهمزة الاستفهام ولذلك فإنّ الفخر الرازي قدر لها ما يلي: «أأُنزل عليهم ذكر أم تأمرهم أحلامهم بهذا» وهو يشير إلى أنّ الإسلام ينبغي أن يتّبع دليل النقل أو العقل!..

(٢) يقول صاحب مجمع البيان: التقوّل: تكلّف ولا يقال ذلك إلاّ في الكذب.

وهذه ذريعة أُخرى من ذرائع المشركين والكفّار المعاندين لئلاّ يستسلموا أمام القرآن المجيد ودعوة النّبي ﷺ وقد تكرّرت الإشارة إليها مراراً عديدة في آيات القرآن!.

غير أنّ القرآن يردّ عليهم ردّاً يدحرهم ويتحدّاهم متهكماً فيقول: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾.

فأنتم أُناس مثله ولديكم العقل والقدرة على البيان والاطلاع والخبرة على أنواع الكلام فلِمَ لا يأتي مفكّروكم وخطباؤكم وفصحاؤكم بمثل هذا الكلام!.

وجملة ﴿فَلْيَأْتُوا﴾ أمر تعجيزي، والهدف منه بيان عجزهم وعدم قدرتهم على مجاراة القرآن.

وهذا ما يعبّر عنه في علم الكلام والعقائد بالتحدّي أي دعوة المخالفين إلى المعارضة والإتيان بالمثل «في مواجهة المعجزات!».

وعلى كلّ حال، فهذه آية من الآيات التي تبيّن إعجاز القرآن بجلاء، ولا يختصّ مفهومها بمن عاصروا النّبي ﷺ بل يشمل جميع الذين يزعمون - بأنّ القرآن كلام بشر، وأنّه مفترى على الله - على امتداد القرون والأعصار، فهم مخاطبون بهذه الآية أيضاً... أي هاتوا حديثاً مثله إن كنتم تزعمون بأنّه ليس من الله وأنّه كلام بشر.

وكما نعلم بأنّ نداء القرآن في هذه الآية والآيات المشابهة كان عالياً أبداً، ولم يستطع أي إنسان خلال أربعة عشر قرناً - منذ بعثة النّبي ﷺ حتى يومنا هذا - أن يرد بجواب إيجابي.

ومن المعلوم أنّ أعداء الإسلام وخاصّة أصحاب الكنيسة واليهود ينفقون ما لا يحصى من الأموال الطائلة للتبليغ ضدّ الإسلام، فما كان يمنعهم أن يدعوا قسماً منها تحت تصرّف أصحاب الفكر والقلم المخالفين لينهضوا بوجه معارضة القرآن ويكونوا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ وهذا العجز «العمومي» شاهد حي على أصالة هذا الوحي السماوي!

يقول بعض المفسّرين في هذا الصدد شيئاً جديراً بالملاحظة فلا بأس بالالتفات والإصغاء إليه...

«إنّ في هذا القرآن سرّاً خاصاً يشعر به كلّ من يواجه نصوصه ابتداءً قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها... إنّه يشعر بسلطان خاصّ في عبارات هذا القرآن يشعر أنّ هنالك شيئاً ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير وأنّ هنالك عنصراً ما ينسكب

في الحسّ بمجرّد الاستماع لهذا القرآن، يدركه بعض الناس واضحاً ويدركه بعض الناس غامضاً، ولكنّه على كلّ حال موجود... هذا العنصر الذي ينسكب في الحسّ، يصعب تحديد مصدره، أهو العبارة ذاتها؟! أهو المعنى الكامن فيها، أهو الصور والظلال التي تشعّها؟ أهو الإيقاع القرآني الخاصّ المتميّز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة؟. أهي هذه العناصر كلّها مجتمعة؟. أم أنّها هي وشيء آخر وراءها غير محدود!

ذلك سرّ مستودع في كلّ نصّ قرآني، يشعر به كلّ من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداءً... ثمّ تأتي وراءه الأسرار المدركة بالتدبير والنظر والتفكير في بناء القرآن كلّه»[1].

ولمزيد الإيضاح حول إعجاز القرآن من أبوابه المختلفة يراجع ذيل الآية (٢٣) من سورة البقرة إذ ذكرنا هناك بحثاً مفصّلاً في هذا الصدد وكذلك ذيل الآية (٨٨) من سورة الإسراء.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾

التّفسير

ما هو كلامكم الحقّ؟

هذه الآيات تواصل البحث الاستدلالي السابق - كذلك - وهي تناقش المنكرين للقرآن ونبوّة محمّد ﷺ وقدرة الله سبحانه.

---

(١) تفسير في ظلال القرآن، ج٧، ص٦٠٥.

وهي آيات تبدأ جميعها بـ﴿أَمْ﴾ التي تفيد الاستفهام وتشكّل سلسلة من الاستدلال في أحد عشر سؤالاً متتابعاً (بصورة الاستفهام الإنكاري)، وبتعبير أجلى: إنّ هذه الآيات تسدّ جميع الطرق بوجه المخالفين فلا تدع لهم مهرباً في عبارات موجزة ومؤثّرة جدّاً بحيث ينحني الإنسان لها من دون اختياره إعظاماً ويعترف ويقرّ بانسجامها وعظمتها، فأوّل ما تبدأ به هو موضوع الخلق فتقول: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾[1].

وهذه العبارة الموجزة والمقتضبة في الحقيقة هي إشارة إلى «برهان العليّة» المعروف الوارد في الفلسفة وعلم الكلام لإثبات وجود الله، وهو أنّ العالم الذي نعيش فيه ممّا لا شكّ - فيه - حادث (لأنّه في تغيير دائم، وكلّ ما هو متغيّر فهو في معرض الحوادث، وكلّ ما هو في معرض الحوادث محال أن يكون قديماً وأزليّاً).

والآن ينقدح هذا السؤال، وهو إذا كان العالم حادثاً فلا يخرج عن الحالات الخمس التالية:

- وُجد من دون علّة!
- هو نفسه علّة لنفسه.
- معلولات العالم علّة لوجوده.
- إنّ هذا العالم معلول لعلّة أُخرى وهي معلولة لعلّة أُخرى إلى ما لا نهاية.
- إنّ هذا العالم مخلوق لواجب الوجود الذي يكون وجوده ذاتياً له.

وبطلان الاحتمالات الأربعة المتقدّمة واضح، لأنّ وجود المعلول من دون علّة محال، وإلاّ فينبغي أن يكون كلّ شيء موجوداً في أي ظرف كان، والأمر ليس كذلك!

والاحتمال الثاني وهو أن يوجد الشيء من نفسه محال أيضاً، لأنّ مفهومه أن يكون موجوداً قبل وجوده، ويلزم منه اجتماع النقيضين [فلاحظوا بدقّة].

وكذلك الاحتمال الثالث وهو أنّ مخلوقات الإنسان خلقته، وهو واضح البطلان إذ يلزم منه الدور!.

---

(١) هناك تفسيرات أُخر واحتمالات متعدّدة في وجوه هذه الآية، منها أنّ مفادها: هل خلقوا بلا هدف ولم يك عليهم أيّة مسؤولية؟!... وبالرغم أنّ جماعة من المفسّرين اختاروا هذا الوجه إلاّ أنّه مع الالتفات لبقيّة الآية: ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ يتّضح أنّ المراد هو ما ذكر في المتن، أي خُلقوا من دون علّة. أم هم علّة أنفسهم؟!.

وكذلك الاحتمال الرابع وهو تسلسل العلل وترتّب العلل والمعلول إلى ما لا نهاية أيضاً محال، لأنّ سلسلة المعلولات اللاّمحدودة مخلوقة، والمخلوق مخلوق ويحتاج إلى خالق أوجده، ترى هل تتحوّل الأصفار التي لا نهاية لها إلى عدد؟! أو ينفلق النور من ما لا نهاية الظلمة؟! وهل يولد الغنى من ما لا نهاية له في الفقر والفاقة؟

فبناءً على ذلك لا طريق إلاّ القبول بالاحتمال الخامس، أي خالقية واجب الوجود [فلاحظوا بدقّة أيضاً].

وبما أنّ الركن الأصلي لهذا البرهان هو نفي الاحتمالين الأوّل والثاني فإنّ القرآن اقتنع به فحسب.

والآن ندرك جيّداً وجه الاستدلال في هذه العبارات الموجزة!

الآية التالية تثير سؤالاً آخر على الادّعاء في المرحلة الأدنى من المرحلة السابقة فتقول: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

فإذا لم يوجدوا من دون علّة ولم يكونوا علّة أنفسهم أيضاً، فهل هم واجبو الوجود فخلقوا السماوات والأرض؟! وإذا لم يكونوا قد خلقوا الوجود، فهل أوكل الله إليهم أمر خلق السماء والأرض؟ فعلى هذا هم مخلوقون وبيدهم أمر الخلق أيضاً!!.

من الواضح أنّهم لا يستطيعون أن يدّعوا هذا الادّعاء الباطل، لذلك فإنّ الآية تختتم بالقول: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾!

أجل، فهم يتذرّعون بالحجج الواهية فراراً من الإيمان!

ثمّ يتساءل القرآن قائلاً: فإذا لم يدّعوا هذه الأُمور ولم يكن لهم نصيب في الخلق، فهل عندهم خزائن الله ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾(١) ليهبوا من شاؤوا نعمة النبوّة والعلم أو الأرزاق الأُخر ويمنعوا من شاؤوا ذلك: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ على جميع العوالم وفي أيديهم أُمور الخلائق؟!

إنّهم لا يستطيعون - أن يدّعوا أبداً أنّ عندهم خزائن الله تعالى، ولا يملكون تسلّطاً على تدبير العالم، لأنّ ضعفهم وعجزهم إزاء أقل مرض بل حتى على بعوضة تافهة وكذلك احتياجهم إلى الوسائل الابتدائية للحياة خير دليل على عدم قدرتهم وفقدان

---

(١) الخزائن جمع الخزينة ومعناها مكان كلّ شيء محفوظ لا تصل إليه اليد ويدّخر فيه ما يريد الإنسان يقول القرآن في هذا الصدد ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

هيمنتهم! وإنّما يجرّهم إلى إنكار الحقائق هوى النفس والعناد وحبّ الجاه والتعصّب والأنانية!.

وكلمة: «مصيطرون» إشارة إلى أرباب الأنواع التي هي من خرافات القدماء، إذ كانوا يعتقدون أنّ كلّ نوع من أنواع العالم إنساناً كان أمّ حيواناً آخر أم جماداً أم نباتاً له مدبّر وربّ خاصّ يدعى بربّ النوع ويدعون الله «ربّ الأرباب» وهذه العقيدة تعدّ في نظر الإسلام «شركاً» والقرآن في آياته يصرّح بأنّ التدبير لجميع الأشياء هو لله وحده ويصفه بربّ العالمين.

وأصل هذه الكلمة من «سَطْر» ومعناه صفّ الكلمات عند الكتابة، و«المسيطر» كلمة تطلق على من له تسلّط على شيء ما ويقوم بتوجيهه، كما أنّ الكاتب يكون مسيطراً على كلماته (وينبغي الالتفات إلى أنّ هذه الكلمة تكتب بالسين وبالصاد على السواء - مسيطر ومصيطر - فهما بمعنى واحد وإن كان الرسم القرآني المشهور بالصاد «مصيطر»).

ومن المعلوم أنّه لا منكرو النبوّة ولا المشركون في العصر الجاهلي ولا سواهما يدّعي أيّاً من الأُمور الخمسة التي ذكرها القرآن، ولذلك فإنّه يشير إلى موضوع آخر في الآية التالية فيقول: إنّ هؤلاء هل يدعون أنّ الوحي ينزل عليهم أو يدعون أنّ لهم سُلّماً يرتقون عليه إلى السماء فيستمعون إلى أسرار الوحي: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾.

وحيث إنّه كان من الممكن أن يدّعوا بأنّهم على معرفة بأسرار السماء فإنّ القرآن يطالبهم مباشرةً بعد هذا الكلام بالدليل فيقول: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

ومن الواضح أنّه لو كانوا يدّعون مثل هذا الادّعاء فإنّه لا يتجاوز حدود الكلام فحسب، إذ لم يكن لهم دليل على ذلك أبداً[(١)].

ثمّ يضيف القرآن قائلاً: هل صحيح ما يزعمون أنّ الملائكة أُناث وهم بنات الله؟! ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَٰتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾؟!

وفي هذه الآية إشارة إلى واحد من اعتقاداتهم الباطلة، وهو استياؤهم من البنات بشدّة، وإذا علموا أنّهم رزقوا من أزواجهم «بنتاً» اسودّت وجوههم من الحياء والخجل!

---

(١) سُلّم يعني «المصعد» كما يأتي بمعنى أيّة وسيلة كانت وقد اختلف المفسّرون في المراد من الآية فأيّ شيء كانوا يدعونه؟! فقال بعضهم: ادّعوا الوحي وقال آخرون هو ما كانوا يدّعونه في النّبي بأنّه شاعر أو مجنون أو ما كانوا يدّعون من الأنداد والشركاء لله... وفسّر بعضهم ذلك بنفي نبوّة محمّد ﷺ: «ولا مانع من الجمع بين هذه المعاني وإن كان المعنى الأوّل أجلى».

ومع هذا فإنّهم كانوا يزعمون أنّ الملائكة بنات الله، فإذا كانوا مرتبطين بالملأ الأعلى ويعرفون أسرار الوحي، فهل لديهم سوى هذه الخرافات المضحكة. . . وهذه العقائد المخجلة؟!

وبديهي أنّ الذكر والأُنثى لا يختلفان في نظر القيمة الإنسانية. . . والتعبير في الآية المتقدّمة هو في الحقيقة من قبيل الاستدلال بعقيدتهم الباطلة ومحاججتهم بها.

والقرآن يؤكّد - في آيات متعدّدة - على نفي هذه العقيدة الباطلة ويحاكمهم في هذا المجال ويفضحهم(١)!!

ثمّ يتنازل القرآن إلى مرحلة أُخرى، فيذكر واحداً من الأُمور التي يمكن أن تكون ذريعة لرفضهم فيقول: ﴿أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾.

«المغرم» - على وزن مغْنَم وهو ضدّ معناه - أي ما يصيب الإنسان من خسارة أو ضرر دون جهة، أمّا الغريم فيطلق على الدائن والمدين أيضاً.

و«المُثقَل» مشتقّ من الأثقال، ومعناه تحميل العبء والمشقّة، فبناءً على هذا المعنى يكون المراد من الآية: تُرى هل تطلب منهم غرامة لتبليغ الرسالة فهم لا يقدرون على أدائها ولذلك يرفضون الإيمان؟!

وقد تكرّرت الإشارة في عدد من الآيات القرآنية لا في النّبي فحسب، بل في شأن كثير من الأنبياء، إذ كان من أوائل كلمات النبيين قولهم لأُممهم: لا نريد أجراً على إبلاغنا الرسالة إليكم. . . ليثبت لهؤلاء الأقواء أنّ الأنبياء لايتحركون في أداء الرسالة من موقع المصلحة الشخصية ولئلاّ تبقى ذريعة للمتذرّعين أيضاً.

ومرّة أُخرى يخاطبهم القرآن متسائلاً ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ فهؤلاء يدّعون أنّ النّبي شاعر وينتظرون موته لينطوي بساطه وينتهي كلّ شيء بموته وتلقى دعوته في سلّة الإهمال، كما تقدّم في الآية السابقة ذلك على لسان المشركين إذ كانوا يقولون. . . ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾».

فمن أين لهم أنّهم سيبقون أحياء بعد وفاة النّبي؟! ومن أخبرهم بالغيب؟!

ويحتمل أيضاً أنّ القرآن يقول: إذا كنتم تدّعون معرفة الأسرار الغيبية وأحكام الله

---

(١) كانت لنا بحوث مفصّلة في سبب جعل العرب الملائكة بنات الله في الوقت الذي كانوا يستاؤون من البنات، وذكرنا الدلائل الحيّة التي أقامها القرآن ضدّهم فليراجع ذيل الآية (٥٧) سورة النحل وذيل الآية (١٤٩) من سورة الصافات. . .

ولستم بحاجة إلى القرآن ودين محمّد فهذا كذب عظيم(١).

ثمّ يتناول القرآن احتمالاً آخر فيقول: لو لم تكن كلّ هذه الأُمور المتقدّمة، فلابدّ أنّهم يتآمرون لقتل النّبي وإجهاض دعوته ولكن ليعلموا أنّ كيد الله أعلى وأقوى من كيدهم: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾(٢).

والآية الآنفة يطابق تفسيرها تفسير الآية (٥٤) من سورة آل عمران التي تقول: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

واحتمل جماعة من المفسّرين أنّ المراد من الآية محلّ البحث هو: «أنّ مؤامراتهم ستعود عليهم أخيراً وتكون وبالاً عليهم.. وهذا المعنى يُشبه ما ورد في الآية (٤٣) من سورة فاطر: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.

والجمع بين التّفسيرين الآنفين ممكن ولا مانع منه.

ويمكن أن يكون لهذه الآية ارتباط آخر بالآية المتقدّمة، وهو أنّ أعداء الإسلام كانوا يقولون: ننتظر موت محمّد. فالقرآن يردّهم بالقول بأنّهم ليسوا خارجين عن واحد من الأمرين التاليين... أمّا أنّهم يدّعون بأنّ محمّداً يموت قبل موتهم حتف أنفه. فلازم هذا الادّعاء أنّهم يعلمون الغيب، وأمّا أنّ مرادهم أنّه سيمضي بمؤامراتهم فالله أشدّ مكراً ويردّ كيدهم إليهم، فهم المكيدون!

وإذا كانوا يتصوّرون أنّ في اجتماعهم في دار الندوة ورشق النّبي بالتّهم كالكهانة والجنون والشعر أنّهم سينتصرون على النّبي فهم في منتهى العمى والحمق، لأنّ قدرة الله فوق كلّ قدرة، وقد ضمن لنبيّه السلامة والنجاة حتى يبلّغ دعوته العالمية.

وأخيراً فإنّ آخر ما يثيره القرآن من أسئلة في هذا الصدد قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾؟! ويضيف - منزّهاً - ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

فعلى هذا لا أحد يستطيع أن يمنعهم من الله ويحميهم، وهكذا فإنّ القرآن يستدرجهم ويضعهم أمام استجواب عجيب وأسئلة متّصلة تؤلّف سلسلة متكاملة مؤلّفة من أحد عشر

---

(١) قال بعض المفسّرين إنّ المراد بالغيب هو اللوح المحفوظ، وقال بعضهم: بل هو إشارة إلى ادّعاءات المشركين وقولهم إذ كانت القيامة فسيكون لنا عند الله مقام كريم. إلاّ أنّ هذه التفاسير لا تتناسب والآية مورد البحث ولا يرتبط بعضها ببعض.

(٢) الكيد على وزن صيد نوع من الحيلة وقد يستعمل في التحيّل إلى سبيل الخير، إلاّ أنّه غالباً ما يستعمل في الشرّ، وتعني هذه الكلمة المكر والسعي أو الجدّ كما تعني الحرب أحياناً.

سؤالاً! ويضطرهم مرحلة بعد مرحلة إلى التراجع!! والتنازل من الادّعاءات الفارغة ثمّ يوصد عليهم سُبُلَ الفرار كلّها ويحاصرهم في طريق مغلق!.

كم هي رائعة استدلالات القرآن وكم هي متينة أسئلته واستجوابه!... فلو أنّ أيّ واحد منهم كان يعيش الروح الباحثة عن الحقّ لأذعن أمام هذه الأسئلة واستسلم لها.

الطريف أنّ الآية الأخيرة من الآيات محلّ البحث لا تذكر دليلاً لنفي المعبودات ممّا سوى الله، وتكتفي بتنزيه الله ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وذلك لأنّ بطلان أُلوهية الأصنام والأوثان المصنوعة من الأحجار والخشب وغيرهما مع ما فيها من ضعف واحتياج أجلى وأوضح من أي بيان وتفصيل آخر، أضف إلى كلّ ذلك فإنّ القرآن استدلّ على إبطال هذا الموضوع بآيات متعدّدة غير هذه الآية.

﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾

التّفسير

إنّك بأعيننا!

تعقيباً على البحث الوارد في الآيات المتقدّمة الذي يناقش المشركين والمنكرين المعاندين، هذا البحث الذي يكشف الحقيقة ساطعةً لكلّ إنسان يطلب الحقّ، تميط الآيات محلّ البحث النقاب عن تعصّبهم وعنادهم فتقول: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾(١).

---

(١) «الكِسْفُ»: على وزن فِسْق - معناه القطعة من كلّ شيء، ومع ملاحظة بقيّة التعبير. ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: يظهر المراد منه هنا القطعة من حَجر السماء، وقد دلّت عليه بعض كتب اللغة وهذه الكلمة تجمع على كِسَف على وزن عِنَب، إلاّ أنّ أغلب المفسّرين يرون بأنّ الكلمة هنا مفردة وظاهر الآية أنّها مفردة أيضاً، لأنّها وصفتها بالمفرد ساقطاً.

إنّ هؤلاء المشركين معاندون إلى درجة إنكارهم الحقائق الحسيّة وتفسيرهم الحجارة الساقطة من السماء بالسحاب، مع أنّ كلّ من رأى السحاب حين ينزل ويقترب من الأرض لم يجده سوى بخار لطيف، فكيف يتراكم هذا البخار اللطيف ويتبدّل حجراً!؟

وهكذا يتّضح حال هؤلاء الأشخاص إزاء الحقائق المعنوية!! أجل إنّ ظلمة الإثم وعبادة الهوى والعناد كلّ ذلك يحجب أُفق الفكر السليم فيجعله متجهّماً حتى تنجرّ عاقبة أمره إلى إنكار المحسوسات وبذلك ينعدم الأمل في هدايته.

و«المركوم» معناه المتراكم، أي ما يكون بعضه فوق بعض!

لذلك فإنّ الآية التالية تضيف بالقول: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾.

وكلمة ﴿يُصْعَقُونَ﴾ مأخوذة من صعق، والإصعاق هو الإهلال، وأصله مشتقّ من الصاعقة، وحين أنّ الصاعقة تُهلك من تقع عليه فإنّ هذه الكلمة استعملت بمعنى الإهلاك أيضاً.

وقال بعض المفسّرين إنّ هذه الجملة تعني الموت العامّ والشامل الذي يقع آخر هذه الدنيا مقدّمة للقيامة.

إلاّ أنّ هذا التّفسير يبدو بعيداً، لأنّهم لا يبقون إلى ذلك الزمان بل الظاهر هو المعنى الأوّل، أي دعهم إلى يوم موتهم الذي يكون بدايةً لمجازاتهم والعقاب الأُخروي!

ويتبيّن ممّا قلنا أنّ جملة «ذرهم» أمر يُفيد التهديد، والمراد منه أنّ الإصرار على تبليغ مثل هؤلاء الأفراد لا يجدي نفعاً إذ لا يهتدون.

فبناءً على ذلك لا ينافي هذا الحكم إدامة التبليغ على المستوى العامّ من قبل النّبي ﷺ ولا ينافي الأمر بالجهاد، فما يقوله بعض المفسّرين أنّ هذه الآية نسخت آيات الجهاد غير مقبول!

ثمّ يبيّن القرآن في الآية التالية هذا اليوم فيقول: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

أجل: من يمت تقم قيامته الصغرى «من مات قامت قيامته» وموته بداية للثواب أو العقاب الذي يكون قسم منه في البرزخ والقسم الآخر في القيامة الكبرى، أي القيامة العامّة، وفي هاتين المرحلتين لا تنفع ذريعة متذرّع ولا يجد الإنسان وليّاً من دون الله ولا نصيراً.

ثمّ تضيف الآية أنّه لا ينبغي لهؤلاء أن يتصوّروا أنّهم سيواجهون العذاب في البرزخ

وفي القيامة فحسب، بل لهم عذاب في هذه الدنيا أيضاً: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أجل، إنّ على الظالمين أن ينتظروا في هذه الدنيا عذاباً كعذاب الأمم السابقة كالصاعقة والزلازل والكسف من السماء والقحط أو القتل على أيدي جيش التوحيد كما كان ذلك في معركة بدر وما ابتلي به قادة المشركين فيها إلاّ أن يتيقّظوا ويتوبوا ويعودوا إلى الله آيبين منيبين.

وبالطبع فإنّ جماعة منهم ابتلوا بالقحط والمحل، ومنهم من قتل في معركة بدر كما ذكرنا آنفاً - إلاّ أنّ طائفة كبيرة تابوا وأنابوا والتحقوا بصفوف المسلمين الصادقين فشملهم الله بعفوه[1].

وجملة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تشير إلى أنّ أغلب أُولئك الذين ينتظرهم العذاب في الدنيا والآخرة هم جهلة، ومفهومها أنّ القليل منهم يعرف هذا المعنى، إلاّ أنّه في الوقت ذاته يُصرّ على المخالفة لما فيه من اللجاجة والعناد عن الحقّ.

وفي الآية التالية يخاطب القرآن نبيّه ويدعوه إلى الصبر أمام هذه التّهم والمثبّطات وأن يستقيم فيقول: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾[2].

فإذا ما اتّهموك بأنّك شاعر أو كاهن أو مجنون فاصبر، وإذا زعموا بأنّ القرآن مفترى فاصبر، وإذا أصرّوا على عنادهم وواصلوا رفضهم لدعوتك برغم كلّ هذه البراهين المنطقيّة فاصبر، ولا تضعف همّتك ويفتر عزمك: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾!.

نحن نرى كلّ شيء ونعلم بكلّ شيء ولن ندعك وحدك.

وجملة ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ تعبير لطيف جدّاً حاك عن علم الله وكذلك كون النّبي مشمولاً بحماية الله الكاملة ولطفه!

أجل، إنّ الإنسان حين يحسّ بأنّ قادراً كبيراً ينظره ويرى جميع سعيه وعمله ويحميه

---

(١) من قال بأنّ جملة ﴿فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ تشير إلى يوم القيامة فسّر العذاب «في الآية» مورد البحث بعذاب البرزخ في القبر، إلاّ أنّه حيث كان تفسيرها ضعيفاً فهذا الاحتمال ضعيف أيضاً.

(٢) قد يكون المراد من «حكم ربّك» هو تبليغ حكم الله الذي أمر النّبي به، فعليه أن يَصبر عند إبلاغه، أو أنّه عذاب الله الذي وُعد أعداؤه به أي: اصبر يا رسول الله حتى يعذّبهم الله، أو المراد منه أوامر أي بما أنّ الله أمرك فاصبر لحكمه، والجمع بين هذه المعاني وإن كان ممكناً إلاّ أنّ التّفسير الأوّل يبدو أقرب خاصّة بملاحظة ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

من أعدائه فإنّ إدراك هذا الموضوع يمنحه الطاقة والقوّة أكثر كما يحسّ بالمسؤولية بصورة أوسع.

وبما أنّ الحاجة لله وعبادته وتسبيحه وتقديسه وتنزيهه والالتجاء إلى ذاته المقدّسة كلّ هذه الأُمور تمنح الإنسان الدّعة والاطمئنان والقوّة، فإنّ القرآن يعقّب على الأمر بالصبر بالقول: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾.

سبّحه حين تقوم سحراً للعبادة وصلاة الليل.

... وحين تنهض من نومك لأداء الصلاة الواجبة.

... وحين تقوم من أي مجلس ومحفل، فسبّحه واحمده.

وللمفسّرين أقوال مختلفة في تفسير هذه الآية، إلاّ أنّ الجمع بين هذه الأقوال ممكن أيضاً، سواءً كان الحمد التسبيح سحراً، أو عند صلاة الفريضة، أو عند القيام من أي مجلس كان.

أجل، نوّر روحك وقلبك بتسبيح الله وحمده فإنّهما يمنحان الصفاء... وعطر لسانك بذكر الله... واستمدّ منه المدد واستعدّ لمواجهة أعدائك!.

وقد جاء في روايات متعدّدة أنّ النّبي ﷺ حين كان يقوم من مجلسه كان يسبّح الله ويحمده ويقول: «إنّه كفّارة المجلس»[(١)].

ومن ضمن ما كان يقول بعد قيامه من مجلس كما جاء في بعض الأحاديث عنه: «سبحانك اللهمّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلاّ أنت أستغفرك وأتوب إليك!».

وسأل بعضهم رسول الله ﷺ عن هذه الكلمات فقال: «هنّ كلمات علمنيهنّ جبرئيل كفّارات لما يكون في المجلس»[(٢)].

ثمّ يضيف القرآن في آخر آية من الآيات محلّ البحث قائلاً: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾.

وقد فسّر كثير من المفسّرين جملة ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ بصلاة الليل، وأمّا ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ فقالوا هي إشارة إلى «نافلة الصبح» التي تؤدّي عند طلوع الفجر واختفاء النجوم بنور الصبح.

كما ورد في حديث عن علي عليه السلام أنّ المراد من ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ هو «ركعتان قبل

(١) تفسير الميزان، ج١٩، ص٢٤.

(٢) تفسير الدرّ المنثور، ج٦، ص١٢٠.

الفجر» نافلة الصبح اللتان تؤدّيان قبل صلاة الصبح وعند غروب النجوم، أمّا ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ الوارد ذكرها في الآية ٤٠ من سورة «ق» فإشارة إلى «ركعتان بعد المغرب» «وبالطبع فإنّ نافلة المغرب أربع ركعات إلاّ أنّ هذا الحديث أشار إلى ركعتين منها فحسب»[١].

وعلى كلّ حال، فإنّ العبادة والتسبيح وحمد الله في جوف الليل وعند طلوع الفجر لها صفاؤها ولطفها الخاصّ، وهي في منأى عن الرياء، ويكون الاستعداد الروحي لها أكثر في ذلك الوقت، لأنّ الإنسان يكون فيه بعيداً عن أُمور الدنيا ومشاكلها، والاستراحة في الليل تمنح الإنسان الدّعة، فلا صخب ولا ضجيج، وفي الحقيقة هذه الفترة تقترن بالوقت الذي عُرج بالنّبي إلى السماء، فبلغ قاب قوسين أو أدنى يناجي ربّه ويدعوه في الخلوة!

ولذلك فقد عوّلت الآيات محلّ البحث على هذين الوقتين، ونقرأ حديثاً عن النّبي ﷺ يقول فيه: ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها[٢].

اللهمّ وفّقنا للقيام في السحر ومناجاتك طوال عمرنا.

اللهمّ اجعل قلوبنا مطمئنة بعشقك ونوّرها بمحبّتك واملأها إيماناً بلطفك.

اللهمّ منّ علينا بالصبر والاستقامة في مقابل الشياطين وقوى الشر ومؤامرات أعدائك وكيدهم لنتأسّى برسولك فنعيش على هديه ونموت على سنّته.

---

(١) تفسير مجمع البيان ذيل الآية (٤٠)، سورة ق، ج٩، ص١٥٠.

(٢) تفسير القرطبي ج٩ ص٦٢٥١ ذيل الآيات مورد البحث.

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

مع تهذيب جديد

تأليف

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

الجزء السادس والعشرون

منشورات

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - لبنان

سُورَةُ النَّجْمِ

مكّية وعدد آياتـها اثنان وسبعون

محتوى السّورة

هذه السورة كما يقول بعض المفسّرين هي أوّل سورة تلاها النّبي جهراً وبصوت عال في حرم مكّة بعد أن أضحت دعوته علناً . . . وأصغى إليها المشركون وسجد لها جميع المسلمين حتى المشركون(١) .

وهذه السورة كما يعتقد بعض المفسّرين نزلت في شهر رمضان من السنة الخامسة للبعثة(٢) !

وقال بعضهم إنّ هذه السورة هي السورة الأُولى التي نزلت فيها سجدة واجبة بمكّة(٣) . لكن مع ملاحظة أنّ سورة العلق كما هو معروف نزلت قبلها وفي آخرها آية سجدة واجبة فإنّ هذا القول يبدو بعيداً .

وعلى كلّ حال، فإنّ هذه السورة - لكونها مكيّة - تحمل بين ثناياها بحوثاً في الأُصول الاعتقادية خاصّة «النبوّة والمعاد» وفيها تهديد ووعيد وإنذارات مكرّرة لإيقاظ الكفّار وردعهم عن غيّهم! .

ويمكن تقسيم محتوى هذه السورة إلى سبعة أقسام:

- بداية السورة تتحدّث بعد القَسَم العميق المغزى عن حقيقة الوحي واتّصال النّبي ﷺ مباشرةً بمُنزل الوحي «جبريل» وتبيّن ذلك بجلاء، وتبرىء ساحة النّبي المقدّسة عن كلّ شيء سوى الوحي المنزل عليه.

- وفي قسم آخر من هذه السورة يجري الكلام على معراج الرّسول ﷺ وجوانب منه بعبارات موجزة وغزيرة المعنى، له علاقة مباشرة بالوحي أيضاً .

- ثمّ يجري الكلام عن خرافات المشركين في شأن الأصنام وعبادة الملائكة وأُمور أُخر.

---

(١) تفسير روح البيان، ج٩، ص٢٠٨. (٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير المراغي، ج٢٧، ص٤١.

ليس لها أي أساس إلاّ الهوى والهوس، ويعنّف المشركين في هذا المجال ويحذّرهم من عبادة الأوثان ويثبت هذا المعنى بمنطق قوي متين.

- وفي قسم آخر منها يفتح القرآن سبيل التوبة بوجه المنحرفين وعامّة المذنبين، ويؤمّلهم بمغفرة الله الواسعة، ويؤكّد على أنّ كلاً مسؤول عن عمله، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

- وإكمالاً لهذه الأهداف يأتي القسم الخامس من هذه السورة ليبيّن جوانب من مسألة - المعاد - ويقيم دليلاً واضحاً على هذه المسألة بما هو موجود في النشأة الأُولى - الدنيا -.

- وكعادة القرآن في سائر السور ترد في هذه السورة إشارات لعواقب الأُمم المؤلمة لعداوتهم للحقّ وعنادهم - كما حدث لقوم نوح وثمود وعاد وقوم لوط ليتيقّظ الغافلون من نومتهم عن هذا الطريق.

- وأخيراً فإنّ السورة تختتم بالأمر بالسجود لله وعبادته، ومن امتيازات هذه السورة قِصَرُ آياتها وإيقاع آياتها الخاصّ الذي ينفذ - بمفاهيمها - نفوذاً عميقاً، فيوقظ قلوب الغافلين ويحملها معه إلى السماوات العلى.

وتسمية هذه السورة بـ «النجم» هي لورود هذا اللفظ في الآية الأُولى من السورة ذاتها.

فضل تلاوة هذه السورة

وردت في الرّوايات الإسلامية فضائل مهمّة لتلاوة هذه السورة، ففي حديث عن الرّسول ﷺ أنّه قال: «من قرأ سورة النجم أُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بمحمّد ومن جحد به»[1].

ونقرأ في بعض الرّوايات عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّه قال: «من كان يدمن قراءة «والنجم» في كلّ يوم أو في كلّ ليلة عاش محموداً بين الناس وكان مغفوراً له وكان محبّباً بين الناس»[2].

ومن المسلّم به أنّ مثل هذا الثواب العظيم هو لأُولئك الذين يتّخذون تلاوة هذه السورة وسيلة للتفكير، ثمّ العمل، وأن يطبّقوا تعليمات هذه السورة على أنفسهم في حياتهم.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٩، ص١٧٠.
(٢) بحار الأنوار، ج٩٢، ص٣٠٥.

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾

التّفسير

ممّا يجدر بيانه أنّ السورة السابقة «الطور» ختمت بكلمة «النجوم» وهذه السورة بُدئت بـ ﴿وَالنَّجْمِ﴾ - إذ أقسم به الله قائلاً: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾!

وهناك احتمالات كثيرة في المراد من «النجم» هنا، فكلّ من المفسّرين يختار تفسيراً، إذ قال بعضهم بأنّ المراد منه هو «القرآن المجيد» لأنّه يتناسب والآيات التي تلي الآية محلّ البحث، وهي في شأن الوحي، والتعبير بالنجم هو لأنّ العرب يستعملون هذا اللفظ في ما يتمّ في مراحل أو فواصل مختلفة ويسمّونها (أي الفواصل) «نجوماً» (وتستعمل كلمة النجوم على أقساط الدين وأُمور أُخر من هذا القبيل أيضاً).

وبما أنّ القرآن نزل خلال ٢٣ سنةً في مراحل ومقاطع مختلفة على النّبي ﷺ فقد سمّي نجماً والمراد من ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ نزوله على قلب النّبي ﷺ.

وفسّره آخرون ببعض الكواكب في السماء كالثريا[(١)] أو الشعرى[(٢)] لأنّ لكلّ منهما أهميّته الخاصّة!.

وقال بعضهم بأنّه «الشهاب الثاقب» الذي ترمى به الشياطين لئلاّ تصعد في السماء، والعرب يسمّون الشهاب نجماً.

إلاّ أنّه لا دليل مقبول على أيّ من هذه التفاسير الأربعة بل الظاهر من الآية ما يقتضيه إطلاق كلمة ﴿وَالنَّجْمِ﴾ القسم بنجوم السماء كافّة التي هي من أدلّة عظمة الله ومن أسرار عالم الوجود الكبرى ومن المخلوقات العظيمة لله تعالى.

وليست هذه هي المرّة الأُولى التي يقسم القرآن فيها بموجودات عظيمة من عالم الخلق والإيجاد، ففي آيات أُخر أيضاً أقسم القرآن بالشمس والقمر وأمثالها!

---

(١) «الثريا» مجموعة النجوم السبعة التي ستّة منها واضحة وواحد منها خافت النور وعادةً يختبر بها قوّة البصر فيمتحن الناس بالنظر إليها، والقسم بهذه المجموعة من النجوم لعلّه لمسافتها البعيدة عنّا..

(٢) «الشعرى»: واحد من نجوم السماء واللامعة وسيأتي البحث عن هذا النجم ذي الذيل الآية (٤٩) من هذه السورة ذاتها بإذن الله، والقسم بهذا النجم لعلّه لإشراقه الشديد ولخصائصه المتميّز بها.

والتعويل على غروبها وأُفولها مع أنّ طلوعها وإشراقها يسترعي النظر أكثر، هو لأنّ غروب النجم دليل على حدوثه كما أنّه دليل على نفي عقيدة عبادة الكواكب كما ورد في قصّة إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾[1].

وينبغي الالتفات إلى هذا المعنى، وهو أنّ «الطلوع» في اللغة يعبّر عنه بـ«النجم» لأنّه كما يقول الراغب في مفرداته: أصل النجم هو الكوكب الطالع، ولذلك فإنّهم يعبّرون عن ظهور النبات على الأرض والسنّ في اللثّة ووضوح النظرية في الذهن بـ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾!

وهكذا فإنّ الله أقسم بطلوع الكواكب وغروبها أيضاً، لأنّ ذلك دليل على حدوثها وأسارتها في قبضة قوانين الخلق[2].

لكن لنعرف لِمَ أقسم الله بالنجم؟ الآية التالية توضّح ذلك فتقول: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾.

فهو يخطو في مسير الحقّ دائماً، وليس في أقواله ولا في أعماله أيّ انحراف!

والتعبير بـ«الصاحب» أي الصديق أو المحبّ لعلّه إشارة إلى أنّ ما يقوله نابع من الحبّ والشفقة!

والكثير من المفسّرين لم يفرّقوا بين ﴿ضَلَّ﴾ و﴿غَوَىٰ﴾ بل عدّوا كلاً منهما مؤكّداً للآخر، إلاّ أنّ بعضهم يعتقد أنّ بينهما فرقاً وتفاوتاً! فالضلال هو أن لا يجد الإنسان طريقاً إلى هدفه، والغواية هي أن لا يخلو طريقه من إشكال أو لا يكون مستقيماً، فالضلال كالكفر مثلاً والغواية كالفسق والذنب... إلاّ أنّ «الراغب» يقول في الغي: إنّه الجهل الممزوج بالاعتقاد الفاسد.

فبناءً على ذلك فالضلالة معناها مطلق الجهل وعدم المعرفة، إلاّ أنّ الغواية جهل ممزوج أو مشوب بالعقيدة الباطلة.

وعلى كلّ حال فإنّ الله سبحانه يريد بهذه العبارة الموجزة أن ينفي كلّ نوع من أنواع الانحراف والجهل والضلال والخطأ عن نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم وأن يحبط ما وجّهه أعداؤه إليه من التّهم في هذا الصدد.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٦.

(٢) وما ورد في بعض الرّوايات من أنّ المراد بالنجم هو شخص النّبي والمراد من هوى هو نزوله من السماء في ليلة المعراج، فهذا التّفسير في الحقيقة يعدّ من بطون الآية لا من ظاهرها!

ومن أجل التأكيد على هذا الموضوع وإثبات أنّ ما يقوله هو من الله فإنّ القرآن يضيف قائلاً: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾.

وهذا التعبير مشابه التعبير الاستدلالي الوارد في الآية آنفة الذكر في صدد نفي الضلالة والغواية عن النبي ﷺ لأنّ أساس الضلال غالباً ما يكون من اتّباع الهوى.

ونقرأ في سورة ص الآية (٢٦) منها: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

كما ورد في حديث معروف عن النّبي ﷺ وعن أمير المؤمنين: «أمّا اتّباع الهوى فيصدّ عن الحقّ»[(١)].

ويعتقد بعض المفسّرين أنّ جملة ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ ناظرة إلى نفي الجنون عن النّبي وجملة ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ ناظرة إلى نفي الشعر عنه لأنّه ورد في الآية (٢٢٤) من سورة الشعراء قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ (أي الشعراء من أهل الدنيا) وأمّا جملة ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ فناظرة إلى نفي الكهانة، لأنّ الكهنة أفراد يعبدون الهوى.

ثمّ تأتي الآية التالية لتصرّح: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾.

فهو لا يقول شيئاً من نفسه، وليس القرآن من نسج فكره! بل كلّ ما يقوله فمن الله، والدليل على هذا الادّعاء كامن في نفسه، فالتحقيق في آيات القرآن يكشف بجلاء أنّه لن يستطيع إنسان مهما كان عالماً ومفكّراً - فكيف بالأُمّي الذي لم يقرأ ولم يكتب في محيط مملوء بالخرافات - أن يأتي بكلام غزير المحتوى كالقرآن، إذ ما يزال بعد مضي القرون والعهود ملهماً للأفكار، ويمكنه أن يكون أساساً لبناء مجتمع صالح مؤمن سالم!

وينبغي الالتفات - ضمناً - إلى أنّ هذا القول ليس خاصّاً بآيات القرآن، بل بقرينة الآيات السابقة يشمل سنّة الرّسول ﷺ أيضاً وأنّها وفق الوحي، لأنّ هذه الآية تقول بصراحة ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾.

والحديث الطريف التالي شاهد آخر على هذا المدّعى.

يقول العلاّمة السيوطي في تفسيره الدرّ المنثور: أمر رسول الله يوماً أن توصد جميع الأبواب المشرفة على المسجد - من بيوت الصحابة - سوى باب علي فكان هذا الأمر عزيزاً على المسلمين حتى أنّ حمزة عمّ النّبي عتب عليه وقال: كيف أوصدت أبواب عمّك وأبي بكر وعمر والعبّاس؟! وتركت باب علي مفتوحاً «وفضّلته على الآخرين؟!»

---

(١) نهج البلاغة، ومن كلام له عليه السلام رقم ٤٢.

فلمّا علم النّبي أنّ هذا الأمر صعب عليهم دعا الناس إلى المسجد وخطب خطبة عصماء وحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: «أيها الناس ما أنا سددتها ولا أنا فتحتها ولا أنا أخرجتكم وأسكنته ثمّ قرأ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾»(١).

وهذا الحديث الذي يكشف عن علوّ مقام أمير المؤمنين علي بين جميع الأُمّة الإسلامية بعد الرّسول يدلّ على أنّه ليست أقوال النّبي طبق الوحي فحسب بل حتى أعماله وأفعاله وتقريره وسيرته أيضاً.

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢﴾

التّفسير

أوّل لقاء مع الحبيب

تعقيباً على الآيات المتقدّمة التي تحدّثت عن نزول الوحي على الرّسول ﷺ يجري الكلام في هذه الآيات عن معلّم الوحي.

ولكن ينبغي قبل كلّ شيء الالتفات إلى أنّ هذه الآيات تبدو لأوّل وهلة وكأنّها محاطة بهالة من الإبهام ممّا يستلزم أن نبحث في معطياتها ومفاهيمها بدقّة كاملة لإزالة الإبهام عنها، فنتناول أوّلاً تفسيرها الإجمالي ثمّ نتناولها بالتفصيل!

تقول الآية: إنّ من له تلك القدرة العظيمة هو الذي علّم النّبي ﷺ ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾.

وللتأكيد أكثر تضيف الآية بعدها إنّه ذو قدرة خارقة ومتسلّط على كلّ شيء: ﴿ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ﴾.

وقد علّمه هذا التعليم عندما كان بالأُفق الأعلى: ﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾.

ثمّ اقترب واقترب حتى كان بفاصلة قوسين من معلّمه أو أقل ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ

(١) تفسير الدرّ المنثور، ج ٦، ص ١٢٢ مع شيء من التلخيص.

قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩)﴾ ثمّ أنّ الله تعالى أنزل عليه الوحي ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ (١١) أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢)﴾.

وهناك في تفسير هذه الآيات نظريتان إحداهما مشهورة، والأُخرى مغمورة ولكن يلزمنا أن نتناول بعض مفردات الآيات بالإيضاح ثمّ بيان التّفسيرين المختلفين.

«المِرّة». . . كما يقول أرباب اللغة وأهلها معناها الفَتل، وبما أنّ الحبل كلّما فُتل أكثر كان أشدّ إحكاماً وقوّة. . . فإنّ هذه الكلمة استعملت في الأُمور المادية أو المعنوية المحكمة والقويّة.

وقال بعض المفسّرين: المِرّة مأخوذة من المرور، فمعناها العبور، لكن هذا الرأي لا ينسجم مع ما كتبه أهل اللغة في هذا الصدد.

«تدلّى» فعل مأخوذ من التدلّي على وزن تجلّي، ومعناه كما يقول الراغب في مفرداته الاقتراب، فبناءً على ذلك فهو تأكيد على جملة «دنا» الواردة قبله، وكلا الفعلين بمعنى واحد تقريباً.

على أنّ بعض المفسّرين فَرّق بين الفعلين في المعنى فقال: «التدلّي» معناه التعلّق بالشيء كتعلّق الثمر بالشجر ولذلك يقال في الأثمار المتدلّية من أشجارها «دوالي»[١].

﴿قَابَ﴾ بمعنى مقدار - و«قوس» (معروف معناه) وهو ما يوضع في وترة السهم ليُرمى به فمعنى ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾. . . قدر طول قوسين.

وفسّر بعضهم «القوس» بأنّه المقياس فهو مشتقّ من القياس، وحيث إنّ مقياس العرب [الذراع] وهو ما بين الزند والمرفق فيكون معنى ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ على هذا الرأي: مقدار ذراعين.

وورد في بعض كتب اللغة لكلمة «قاب» معنى آخر، هو الفاصلة بين محل اليد من القوس إلى نقطة انتهاء القوس.

فبناءً على هذا فإنّ ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ معناه مجموع انحناء القوس (فلاحظوا بدقّة)[٢].

- بعد هذا كلّه لنرجع إلى التّفسيرين -.

فالنظرية المشهورة الأُولى تقول إنّ معلّم النّبي أمين الوحي جبرئيل الذي له قدرة خارقة.

---

(١) مقتبس من «روح المعاني» ذيل الآيات مورد البحث.

(٢) قالوا: هنا قلب في الكلام، وأصله فكان قابي قوس.

وكان يأتي النّبي بصورة رجل حسن الطلعة ويبلّغه رسالة الله، وظهر للنّبي بصورته الحقيقيّة مرّتين طوال فترة رسالة النّبي وعمره الشريف.

المرّة الأُولى هي ما تشير إليه الآيات محلّ البحث، إذ ظهر في الأُفق الأعلى فطبق المشرق والمغرب جميعهما، وكان عظيماً حتى أنّه هال النّبي، ثمّ دنا فاقترب من النّبي فلم يكن بينهما مسافة بعيدة إلاّ بمقدار ذراعين، والتعبير بـ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ كناية عن منتهى الاقتراب.

والمرّة الثانية - ظهر له - في معراجه ﷺ وسنبيّن ذلك في الآيات المقبلة التي تتحدّث عن هذا الأمر بإذن الله.

ويرى بعض المفسّرين ممّن اختار هذه النظرية بأنّ اللقاء الأوّل الذي ظهر له جبرئيل فيها بصورته الحقيقيّة كان في غار حراء الواقع في جبل ثور[1].

إلاّ أنّ هذه النظرية بالرغم ممّا لها من أتباع كثيرين لا تخلو من إشكالات مهمّة:

١ - في الآية: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ مرجع الضمير في ﴿عَبْدِهِۦ﴾ هو الله بلا شكّ، مع أنّه لو كان ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ يعني جبرئيل فإنّ جميع الضمائر في الآيات بعده تعود عليه... صحيح أنّه يمكن أن يعرف أنّ موضوع هذه الآية خارج عن الآيات الأُخر من خلال القرائن الموجودة فيها، إلاّ أنّ اضطراب السياق في الآيات، وعدم تناسق عود الضمائر خلاف الظاهر قطعاً!

٢ - ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾: هذا التعبير الذي يعني من له قوى خارقة إنّما يناسب ذات الله المقدّسة فحسب، صحيح أنّ الآية (٢٠) من سورة التكوير تعبّر عن جبرئيل بـ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ إلاّ أنّ بين ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ الواسع في مفهومه وبين «ذي قوّة» المذكورة فيه كلمة «قوّة» بصيغة التنكير والإفراد فرقاً كبيراً.

٣ - جاء في الآيات التالية أنّ النّبي رآه ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ (في السماء العليا) ولو كان المقصود منه جبرئيل فهو كان مع النّبي في معراجه من بداية المعراج إلى المنتهى، ولم يره النّبي عند سدرة المنتهى فحسب... إلاّ أن يقال رآه في الأرض بصورة بشر وفي السماء بصورته الحقيقيّة... ولا قرينة على ذلك في الآيات.

---

(١) هذا التفسير وهو أنّ المراد من ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ «جبرئيل» اختاره جماعة كثيرون منهم الطبرسي في مجمع البيان، والبيضاوي في أنوار التنزيل، والزمخشري في الكشّاف، والقرطبي في تفسيره روح البيان، والفخر الرازي في تفسيره الكبير، وسيّد قطب في تفسيره في ظلال القرآن، والمراغي في تفسيره وتعبيرات العلاّمة الطباطبائي في ميزانه تميل إلى هذا الرأي أيضاً.

- التعبير بـ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ - وأمثاله لم يرد في القرآن في شأن جبرئيل أبداً، بل هو في شأن تعليم الله نبيّه محمّداً وأنبياءه الآخرين، وبتعبير آخر فإنّ جبرئيل لم يكن معلّم النّبي محمّد، بل أمين وحيه، ومعلّمه الله فحسب.

- صحيح أنّ جبرئيل ملك له مقام رفيع، إلاّ أنّه من المقطوع به أنّ مقام النّبي أعلى منه شأناً، كما ورد في قصّة المعراج أنّه كان يصعد - في المعراج - مع النّبي فوصلا إلى نقطة فتوقّف جبرئيل عن الصعود وقال للنّبي: «لو دنوت قيد أنملة لاحترقت» إلاّ أنّ النّبي واصل سيره وصعوده!.

فمع هذه الحال فإنّ رؤية جبرئيل في صورته الأصلية لا تتناسب والأهميّة المذكورة في هذه الآيات، وبتعبير أكثر بساطةً: لم تكن رؤية النّبي لجبرئيل على تلك الأهميّة... مع أنّ هذه الآيات اهتمّت بهذه الرؤية اهتماماً بالغاً!

- جملة: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ هي أيضاً دليل على الرؤية القلبية لا البصرية الحسّية لجبرئيل.

- ثمّ بعد هذا كلّه فما ورد من الرّوايات عن أهل البيت لا يفسّر هذه الآيات بأنّها في رؤية النّبي لجبرئيل، بل الرّوايات موافقة للتفسير الثاني القائل بأنّ المراد من هذه الآيات الرؤية الباطنية (القلبية) لذات الله المقدّسة التي تجلّت للرسول وتكرّرت في المعراج واهتزّ لها النّبي وهالته[1].

ينقل الشيخ الطوسي في أماليه عن ابن عبّاس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «لمّا عُرِج بي إلى السماء دنوت من ربّي عزّوجلّ حتى كان بيني وبينه قاب قوسين أو أدنى»[2].

وينقل الشيخ الصدوق رحمه الله في علل الشرائع المضمون ذاته عن هشام بن الحكم عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام من حديث طويل أنّه قال: «فلمّا أُسري بالنّبي وكان من ربّه كقاب قوسين أو أدنى رُفِعَ له حجاب من حُجُبِهِ»[3].

(١) في دعاء الندبة تعبير يناسب هذا المعنى أيضاً إذ يقول: يابن من دنا فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى دنواً واقتراباً من الملأ الأعلى وفي ذيل هذا الدعاء ورد بعض ألقاب الله ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ إذ يقول: وأره سيّده يا شديد القوى..

(٢) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص١٤٩.

(٣) المصدر السابق.

وفي تفسير علي بن إبراهيم ورد أيضاً: «ثمّ دنا - يعني رسول الله - من ربّه عزّوجلّ»[١] وقد ورد هذا المعنى في روايات متعدّدة ولا يمكن عدم الاكتراث بهذا المعنى.

كما ورد هذا المعنى في روايات أهل السنّة، إذ نقل صاحب «الدرّ المنثور» ذلك عن ابن عبّاس من طريقين[٢].

فمجموع هذه القرائن يدعونا إلى اختيار التّفسير الثاني القائل بأنّ المراد من ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ هو الله، وأنّ النّبي كان قد اقترب من الله تعالى أيضاً.

ويبدو أنّ ما دعا أغلب المفسّرين إلى الإعراض عن هذا التّفسير (الثاني) وأن يتّجهوا إلى التّفسير (الأوّل) هو أنّ هذا التّفسير فيه رائحة التجسّم، ووجود مكان لله، مع أنّه من المقطوع به أنّه لا مكان له ولا جسمَ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾[٣]، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[٤]، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[٥].

ولعلّ مجموع هذه المسائل أيضاً جعل بعض المفسّرين يظهر عجزه عن تفسير هذه الآيات ويقول: هي من أسرار الغيب الخفيّة علينا.

قيل إنّهم سألوا بعض المفسّرين عن تفسير هذه الآيات فقال: إذا كان جبرئيل غير قادر على بلوغ ذلك المكان فمن أنا حتى أدرك معناه[٦]؟!

ولكن بملاحظة أنّ القرآن كتاب هداية وهو نازل ليتدبّر الناس ويتفكّروا في آياته فقبول هذا المعنى مشكل أيضاً.

إلاّ أنّنا إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ المراد من هذه الآيات هو نوع من الرؤية الباطنية والقرب المعنوي الخاصّ فلا تبقى أيّة مشكلة حينئذ.

توضيح ذلك: ممّا لا شكّ فيه أنّ الرؤية الحسّية لله غير ممكنة لا في الدنيا ولا في الأُخرى... لأنّ لازمها جسمانيّته ومادّيته، ولازم ذلك أيضاً تغيّره وتحوّله وفساده وأنّه يحتاج إلى الزمان والمكان، وهو مبرّأ عن كلّ ذلك لأنّه واجب الوجود.

إلاّ أنّ الله سبحانه يمكن رؤيته بالرؤية العقلية والقلبية، وهو ما أشار إليه أمير المؤمنين في جوابه على «ذعلب اليماني»: «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان»[٧].

---

(١) المصدر ذاته، ص١٤٨.
(٢) تفسير الدرّ المنثور، ج٦، ص١٢٣.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١١٥.
(٥) سورة الحديد، الآية: ٤.
(٦) تفسير روح المعاني، ج٩، ص٢١٩.
(٧) نهج البلاغة، الخطبة ١٧٩.

لكن ينبغي الالتفات إلى أنّ الرؤية الباطنية على نحوين: رؤية عقلانية وتحصل عن طريق الاستدلال. وأُخرى رؤية قلبية، وهي إدراك فوق إدراك العقل ورؤية وراء رؤيته!

هذا المقام لا ينبغي أن يُدعى بمقام الاستدلال، بل هو المشاهدة، مشاهدة قلبية باطنية، وهذا المقام يحصل لأولياء الله على درجاتهم المتفاوتة وسلسلة مراتبهم... لأنّ الرؤية الباطنية هي على مراتب أيضاً ولها درجات كثيرة، وبالطبع فإنّ إدراك حقيقتها لمن لم يبلغ ذلك المقام في غاية الصعوبة.

ومن الآيات المتقدّمة بما فيها من قرائن مذكورة يمكن أن يستفاد أنّ نبي الإسلام ﷺ في الوقت الذي كان ذا مقام مشهود وفي مقام الشهود، فإنّه بلغ الأوج في طول عمره مرّتين فنال الشهود الكامل:

الأوّل: يحتمل أنّه كان في بداية البعثة، والثاني في المعراج، فبلغ مقاماً قريباً من الله وتكشّفت عنه الحجب الكثيرة، مقاماً عجز عن بلوغه حتى جبرئيل الذي هو من الملائكة المقرّبين.

وواضح أنّ تعابير مثل ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ وأمثال ذلك إنّما هو كناية عن شدّة القرب، وإلاّ فإنّ الله ليس بينه وبين عبده فاصلة مكانية لتقاس بالقوس أو الذراع، و«الرؤية» في الآيات - هنا - ليست رؤية بصرية أيضاً، بل الباطنية القلبية.

وفي البحوث السابقة في تفسير «لقاء الله» الوارد في آيات متعدّدة على أنّه من ميزات يوم القيامة مراراً قلنا إنّ هذا اللقاء على خلاف ما يتصوّره أصحاب الأفكار القصيرة والعقول الضيّقة بأنّه لقاء حسّي ومادّي، بل هو نوع من الشهود الباطني وإن كان في المراحل الدنيا ولا يصل إلى مراحل لقاء الأنبياء والأولياء لله، فكيف بمرحلة شهود النّبي الكامل ليلة المعراج!!

ومع ملاحظة هذا التوضيح تزول الإشكالات على هذا التّفسير، وإذا روعيت بعض التعابير المخالفة للظاهر فلم تعامل بالمنطق الضيّق وفسّرت بما وراء المسائل المادية فما يرد من إشكالات على هذا التّفسير لا يعدّ شيئاً مهمّاً بالقياس إلى ما يرد من إشكالات على التّفسير الأوّل...

فمع الالتفات إلى ما قلناه نمرّ مروراً جديداً على الآيات محلّ البحث ونعالج مضمونها من هذا المنطلق والمنظار!

فعلى هذا التّفسير يبيّن القرآن نزول الوحي على النّبي ﷺ بالصورة التالية.

إنّ الله الذي هو شديد القوى علّم النّبي في وقت بلغ حدّ الكمال والاعتدال في الأُفق الأعلى[(١)].

ثمّ قرب وصار أكثر اقتراباً حتى كان بينه وبين الله مقدار قاب قوسين أو أقل وهناك أوحى الله إليه ما أوحاه.

وبما أنّ هذا اللقاء الباطني يصعب تصوّره لدى البعض، فإنّه يؤكّد أنّ ما رآه قلب النّبي كان حقّاً وصادقاً ولا ينبغي تكذيبه أو مجادلته.

وكما بيّنا فإنّ تفسير هذه الآيات بشهود النّبي الباطني لله تعالى هو أكثر صحّة وأكثر انسجاماً وموافقة للرّوايات الإسلامية، وأكرم فضيلة للنّبي، ومفهومها أجمل وألطف، والله أعلم بحقائق الأُمور[(٢)].

ونختم هذا البحث بحديث عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وآخر عن علي عليه السلام.

- سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «هل رأيت ربّك؟ فأجاب: «رأيته بفؤادي»[(٣)].

- وفي خطبة الإمام علي (١٧٩) في نهج البلاغة إذ سأله ذعلب اليماني: هل رأيت ربّك يا أمير المؤمنين؟ فأجاب: «أفأعبد ما لا أراه...».

ثمّ ذكر سلام الله عليه ما تقدم آنفاً.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾

التّفسير

الرّؤية الثّانية

هذه الآيات هي أيضاً تتمّة للأبحاث السابقة في شأن مسألة الوحي وارتباط

---

(١) الضمير في: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ والضمير في: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ يمكن أن يعودا على شخص النّبي، كما يمكن أن يعودا على ذات الله المقدّسة.

(٢) لا بأس بذكر هذه اللطيفة هنا إجمالاً وهي أنّ المعراج هل حدث للنّبي مرّةً في عمره أو مرّتين؟ هناك كلام بين العلماء. ولعلّ هذه الآيات فيها إشارة إلى شهودين في معراجين.

(٣) بحار الأنوار، ج١٨، ص ٢٧٦، ذيل مبحث المعراج.

النّبي ﷺ بالله والشهود الباطني.

إذ تقول: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ أي مرّة ثانية، وكان ذلك ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ أي عند شجرة سدر في الجنّة تدعى بسدرة المنتهى ومحلّها في جنّة المأوى ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾.

هذه حقائق واقعيّة شاهدها النّبي ﷺ بأُمّ عينيه و﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾[١] ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾.

وكما نلاحظ في هذه الآيات فإنّ الإبهام أو الغموض الذي كان يحيط الآيات المتقدّمة يحيط هذه الآيات أيضاً التي تتضمّن ظلالاً من المواضيع السابقة، ومن أجل أن نفهم مفاد هذه الآيات لابدّ من الرجوع إلى مفرداتها اللغوية أيضاً.

النزلة: هي النّزول مرّة واحدة، فالنزلة الأُخرى تعني نزولاً آخر، ويستفاد من هذا التعبير أنّه حدثت نزلتان، وهذا الموضوع يتعلّق بالنزلة الثانية[٢].

والسّدرة: على وزن حِرفة - طبقاً لتفسير أغلب علماء اللغة هي شجرة وريقة وارفة الظلال والتعبير بـ﴿سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ إشارة إلى شجرة وريقة ذات ظلال وارفة في أوج السماوات في منتهى ما تعرج إليه الملائكة وأرواح الشهداء وعلوم الأنبياء وأعمال الناس، وهي مستقرّة في مكان لا تستطيع الملائكة أن تتجاوزه وحين بلغ جبرئيل أيضاً في معراجه مع النّبي إلى ذلك المكان توقّف عنده ولم يتجاوزه!

ورغم أنّه لم يرد توضيح عن سدرة المنتهى في القرآن الكريم، إلاّ أنّ الأخبار والرّوايات الإسلامية ذكرتِ لها أوصافاً كثيرة... وجميعها كاشف عن أنّ انتخاب هذا التعبير هو لبيان نوع من التشبيه ولغاتنا قاصرة عن بيان مثل هذه الحقائق الكبرى.

ففي حديث عن النّبي ﷺ أنّه قال: «رأيت على كلّ ورقة من أوراقها ملكاً قائماً يسبّح الله تعالى»[٣].

---

(١) الفعل ﴿طَغَىٰ﴾ مضارعه يطغو، وطغي مضارعه يطغى، وباب الأوّل نَصر ينصر، وباب الثاني فرِح يفرح، وكلاهما بمعنى واحد، ومن هذا القبيل صغا يصغو وصغي يصغى.

(٢) قال بعض أصحاب (اللغة) والمفسّرين معنى النزلة هنا «مرّة» وليس المراد منها النّزول، فالنزلة الأُخرى تعني المرّة الثانية لا غير، لكن لا ندري لِمَ عزفوا عن المادّة الأصلية للنزلة في حين أنّ غيرهم أشاروا إليها وفسّروها بما بيّنا آنفاً [فلاحظوا بدقّة].

(٣) تفسير مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث.

كما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام نقلاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «انتهيت إلى سدرة المنتهى وإذا الورقة منها تظلّ أُمّة من الأُمم»[1].

وهذه التعابير تشير إلى أنّ المراد من هذه الشجرة ليس كما نألفه من الأشجار المورقة والباسقة على الأرض أبداً، بل إشارة إلى ظلّ عظيم في جوار رحمة الله وهناك محلّ تسبيح الملائكة ومأوى الأمم الصالحة.

أمّا ﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ فمعناها الجنّة التي يُسكن فيها[2] وهناك أقوال في ما هو المراد من هذه الجنّة؟! فبعضهم قال بأنّها «جنّة الخلد» التي أُعدّت للمتّقين المؤمنين ومكانها في السماء، والآية (١٩) من سورة السجدة، دليلهم على مدّعاهم ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾... فهذه الآية بقرينة ما بعدها تتحدّث عن جنّة الخلد - ولا شكّ أنّها تتحدّث عن جنّة الخلد.

إلاّ أنّنا نجد في آية أُخرى قوله: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾[3]، فاحتمل بعض المفسّرين أنّ جنّة المأوى التي في السماء غير جنّة الخلد التي عرضها السماوات والأرض.

لذلك فقد فسّر بعضهم ﴿جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ بأنّها مكان خاصّ في جنّة الخلد، وهي قريبة من سدرة المنتهى ومعدّة للمخلصين!

وربّما فسّرها بعضهم بأنّها «جنّة البرزخ» التي تحلّ فيها أرواح الشهداء والمؤمنين بصورة مؤقتة.

ويبدو أنّ التّفسير الأخير أنسب التفاسير وأقربها، وممّا يدلّ عليه بجلاء أنّنا نقرأ في كثير من الرّوايات الواردة في المعراج أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم رأى جماعة متنعّمين في الجنّة، مع أنّنا نعرف أنّه لن يدخل جنّة الخلد أحد قبل يوم القيامة، لأنّ آيات القرآن تشير بوضوح أنّ المتّقين يدخلون الجنان بعد الحِسابِ [في يوم القيامة] لا بعد الموت مباشرةً وأنّ أرواح الشهداء أيضاً في جنّة برزخية لأنّهم أيضاً لايدخلون جنّة الخلد قبل يوم القيامة.

والآية: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ إشارة إلى أنّ بصر النّبي، وأنّ عينيه الكريمتين لم

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص١٥٥، ح ٤٠.

(٢) «المأوى» في الأصل معناه الانضمام، وحيث إنّ سكون الأفراد في مورد ما يسبّب انضمام بعضهم لبعض فقد استعملت هذه الكلمة «المأوى» على مورد السكن مطلقاً.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

تميلا يمنة ولا يسرة، وما رآه النّبي بعينيه هو عين الواقع، لأنّ ﴿زَاغَ﴾ من مادّة زيغ معناه الانحراف يميناً أو شمالاً، و﴿طَغَىٰ﴾ من الطغيان، معناه التجاوز عن الحدّ، وبتعبير آخر: إنّ الإنسان حين يرى شيئاً فيُخطىء رؤيته ولا يلتفت إليه بدقّة فإمّا أنّه يلتفت يمنة ويسرة أو إلى ما ورائه(١).

والآن وحيث فرغنا من تفسير مفردات الآي نعود إلى التّفسير العامّ للآيات.

نعود مرّة أُخرى إلى النظريتين في تفسير الآية. . .

فقال جماعة من المفسّرين بأنّ الآيات ناظرة إلى مشاهدة النّبي للمرّة الثانية جبرئيل في صورته الحقيقيّة عند نزوله من المعراج عند سدرة المنتهى ولم يَزِغْ بصره في رؤية الملك ولم يُخطىء أبداً.

والنّبي رأى في هذه الحال بعضاً من آيات الله الكبرى، والمقصود بها هي رؤية جبرئيل في صورته الواقعية، أو بعض آيات السماء في عظمتها وعجائبها، أو كلتيهما.

إلاّ أنّ الإشكالات الواردة على التّفسير السابق ما تزال باقية هنا، بل تضاف إلى تلك الإشكالات إشكالات أُخر ومنها:

إنّ التعبير بـ ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ حسب هذا التّفسير ليس فيه مفهوم واضح، لكن بحسب التّفسير الثاني يكون المعنى أنّ النّبي رأى الله في شهود باطنيّ عند معراجه في السماء، وبتعبير آخر نزل الله مرّة أُخرى على قلب النّبي وتحقّق الشهود الكامل في (المنتهى إليه) القريب إلى الله عند سدرة المنتهى حيث جنّة المأوى والسدرة تغطّيها حجب من أنوار الله.

ورؤية قلب النّبي في هذا الشهود لم تكن لغير الحقّ أبداً، ولم يرَ سواه، ولقد رأى من دلائل عظمة الله في الآفاق والأنفس أيضاً وشاهدها بعينيه.

ومسألة الشهود الباطني كما أشرنا إليها من قبل هي نوع من الإدراك أو الرؤية التي لا تشبه الإدراكات العقلية ولا الإدراكات الحسيّة التي يدركها الإنسان بواسطة الحواس الظاهرة، ولعلّه يشبه من بعض الجهات بعلم الإنسان بوجود نفسه وأفكاره وتصوّراته.

توضيح ذلك: إنّنا نوقن بوجود أنفسنا وندرك أفكارنا ونعرف إرادتنا وميولنا النفسيّة، إلاّ أنّ مثل هذه المعرفة لم تحصل لا عن طريق الاستدلال ولا عن طريق المشاهدة

---

(١) جاء في تفسير الميزان أنّ الزيغ هو الخطأ في مشاهدة كيفية الشيء وأنّ الطغيان في البصر هو الخطأ في أصل الرؤية، إلاّ أنّه لا دليل واضح على هذا التفاوت. . . بل ما ورد في اللغة هو ما بيّناه في المتن.

الظاهرية بل هي نوع من الشهود الباطني لنا، وعن هذا الطريق وقفنا على وجودنا وروحياتنا.

ولذلك فإنّ العلم الحاصل عن الشهود الباطني لا يقع فيه الخطأ، لأنّه لم يحصل عن طريق الاستدلال الذي قد يقع الخطأ في مقدّماته، ولا عن طريق الحسّ الذي قد يقع الخطأ فيه بواسطة الحواس.

صحيح أنّنا لا نستطيع أن نكشف حقيقة الشهود الذي حصل للنّبي ليلة المعراج في رؤيته الله عزّوجلّ إلاّ أنّ المثال الذي ذكرناه مناسب للتقريب والرّوايات الإسلامية بدورها خير معين لنا في هذا الموضوع

بحوث

١ - المعراج حقيقة مقطوع بها

لا خلاف بين علماء الإسلام في أصل معراج النّبي صلى الله عليه وآله وسلم فالآيات تشهد على ذلك سواءً في هذه السورة محل البحث أو في بداية سورة الإسراء، وكذلك الرّوايات المتواترة.

غاية ما في الأمر أنّ بعض المفسّرين ولأحكامهم المسبّقة لم يستطيعوا أن يتقبّلوا صعود النّبي بجسده وروحه إلى السماء، ففسّروه بالمعراج الروحاني وما يشبه حالة الرؤيا والمنام!! مع أنّ هذا الصعود أو المعراج الجسماني للنّبي لا إشكال فيه عقلاً ولا من ناحية العلوم المعاصرة، وقد بيّنا تفصيل هذا الموضوع في تفسير سورة الإسراء بشكل مبسّط!.

فبناءً على هذا لا داعي للإعراض عن ظاهر الآيات وصريح الرّوايات لمجرّد الاستبعاد..

ثمّ بعد هذا كلّه فالتعابير في الآيات هذه تشير إلى أنّ جماعة جادلوا في هذه المسألة، والتاريخ يقول أيضاً إنّ مسألة المعراج أثارت نقاشاً حادّاً بين المخالفين!

فلو أنّ النّبي كان يدّعي المعراج الروحاني وما يشبه الرؤيا لم يكن لهذا النقاش محلّ من الإعراب.

٢ - ما هو الهدف من المعراج؟

الهدف من المعراج هو بلوغ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم مرحلة الشهود الباطني من جهة، ورؤية

عظمة الله في السماوات بالبصر الظاهري من جهة أُخرى والتي أشارت إليه آخر آية من الآيات محلّ البحث: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾.

وفي الآية الأُولى من سورة الإسراء: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ والاطلاع على مسائل مهمّة - كثيرة - كأحوال الملائكة وأهل الجنّة وأهل النار وأرواح الأنبياء والتي كانت مصدر إلهام للنّبي طوال عمره الشريف في تعليم وتربية الناس.

٣ - المعراج والجنّة

يستفاد من الآيات - محلّ البحث - أنّ النّبي ﷺ مرّ بالجنّة ليلة المعراج ودخلها، وسواء أكانت هذه الجنّة هي جنّة الخلد كما قال بها جماعة من المفسّرين، أو جنّة البرزخ كما اخترناه، فإنّ النّبي على أيّة حال - رأى مسائل مهمّة من مستقبل الناس في هذه الجنّة، وقد جاء بيان ذلك في الرّوايات الإسلامية، وسنشير إلى قسم منها.

٤ - المعراج في الرّوايات الإسلامية

من جملة المسائل المهمّة في قضيّة المعراج والتي كان لها دور مهمّ في إثارة التشكيكات من قبل البعض في أصل قضيّة المعراج هو وجود روايات ضعيفة أو مدسوسة ضمن رواياته حتى أنّ العلاّمة الطبرسي قال: يمكن تقسيم روايات المعراج إلى أربعة أقسام:

أ - الرّوايات القطعيّة لتواترها «كأصل مسألة المعراج».

ب - الرّوايات المنقولة من مصادر معتبرة، وهي مشتملة على مسائل لا مانع عقلاً من قبولها كالرّوايات الحاكية عن مشاهدة النّبي لكثير من آيات عظمة الله في السماوات!

ج - الرّوايات التي لا يتنافى ظاهرها مع ما لدينا من الأُصول المستقاة من آيات القرآن والرّوايات الإسلامية المقطوع بها... إلاّ أنّها مع ذلك تقبل التوجيه، كالرّوايات القائلة بأنّ النّبي رأى جماعة من أهل الجنّة ينعمون في الجنّة وجماعة من أهل النار يعذّبون فيها «فينبغي أن تؤول بأنّ المراد من الجنّة والنار هو جنّة البرزخ وناره»... حيث إنّ أرواح المؤمنين والشهداء في الأُولى متنعّمة وأرواح الكفّار والمشركين في الثانية «معذّبة»(١).

---

(١) جاء في آيات القرآن «إنّ المتقين يُساقون إلى الجنة زمراً وإنّ الكفّار يساقون إلى النار زمراً» (الزُمر الآيات ٧١ - ٧٣) وجاء هذا المعنى في سورة أُخرى كالآية (٧٠) من الزخرف، والآيتين(٨٥ و٨٦) من سورة مريم، والآية (٤٧) من سورة الدخان.

د - الرّوايات المشتملة على مطالب باطلة وعارية عن الصحّة ومحتواها يدلّ على أنّها مدسوسة أو مجعولة، كالرّوايات القائلة بأنّ النّبي رأى الله بعينيه وبصره الظاهري أو تكلّم معه أو شاهده، فهذه الرّوايات وأمثالها مجعولة قطعاً، إلاّ أن تفسّر بالشهود الباطني.

بعد ملاحظة هذا التقسيم نلقي الضوء على روايات المعراج، حيث يستفاد من مجموع هذه الرّوايات أنّ النّبي واصل معراجه إلى السماء خلال مراحل عديدة.

- المرحلة الأُولى: وهي ما بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى وقد أُشير إليها في الآية الأُولى من سورة الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾.

وتقول بعض الرّوايات إنّ النّبي ﷺ نزل في المدينة أثناء إسرائه مع جبرئيل فصلّى بها[1].

كما صلّى أيضاً في المسجد الأقصى مع أرواح الأنبياء العظام كإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، وكان النّبي ﷺ إمامهم في الصلاة، ثمّ بدأ المعراج إلى السماوات السبع[2] فجابهنّ سماءً بعد سماء وواجه في كلّ سماء مشاهدَ جديدة، فالتقى الملائكة والنبيين في بعضها، والجنّة وأهلها في بعضها، والنار وأهلها في بعضها، وحمل من كلٍّ في خاطره وروحه ذكريات قيّمة، وشاهد في عجائب كلّ واحدة منها رمز من رموز عالم الوجود وسرّ من أسراره، وبعد عودته ذكرها لأُمّته صراحةً أحياناً وبالكناية أو المجاز أحياناً، وكان يستلهم منها لتربية أُمّته وتعليمها بكثرة.

وهذا الأمر يدلّ على أنّ واحداً من أهداف هذا السَّفَر السماوي الاستفادة من النتائج العرفانيّة والتربوية لهذه المشاهدات، والتعبير القرآني الغزير ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ في هذه الآيات محلّ البحث يمكن أن يكون إشارة إجمالية لجميع هذه الأُمور.

وكما ذكرنا آنفاً فإنّ الجنّة والنار اللتين رآهما النّبي ﷺ في معراجه والأشخاص الذين كانوا منعّمين أو معذّبين فيهما لم تكونا جنّة القيامة ونارها، بل هما جنّة البرزخ

---

(١) بحار الأنوار، ج١٨، ص٣١٩.

(٢) طبقاً لبعض آيات القرآن كالآية السادسة من سورة الصافات: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ ما نراه من العالم العلوي من النجوم والمجرّات هو في السماء الأُولى فحسب أمّا السماوات الستّ الأُخرى فهي فوقها.

وناره، لأنّه كما أشرنا سابقاً طبقاً لآيات القرآن فإنّ الجنّة والنار تكونان بعد يوم القيامة والفراغ من الحساب معدّتين للمتّقين والمسيئين.

وأخيراً وصل النّبي إلى السماء السابعة ورأى حجُباً من النور هناك حيث ﴿سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ و﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ وبلغ النّبي هناك وفي العالم النوراني أوج الشهود الباطني والقرب إلى الله قاب قوسين أو أدنى... وخاطبه الله هناك وأوحى إليه تعاليم مهمّة وأحاديث كثيرة نراها اليوم في الرّوايات الإسلامية تحت عنوان الأحاديث القدسيّة، وسنعرض قسماً منها بإذن الله في الفصل المقبل.

الطريف هنا هو أنّ الرّوايات الكثيرة تصرّح بأنّ النّبي ﷺ رأى أخاه وابن عمّه علياً في مراحل مختلفة من معراجه بصورة مفاجئة، وما نجده من التعابير في هذه الرّوايات كاشف عن مدى مقام علي وفضله بعد النّبي ﷺ.

وعلى الرغم من كثرة الرّوايات في شأن المعراج فهناك تعابير مغلقة ذات أسرار ليس من الهيّن كشف محتواها وهي كما يصطلح عليها من الرّوايات المتشابهة... أي الرّوايات التي ينبغي إحالة تفسيرها على أهل بيت العصمة!

(لمزيد الاطلاع تراجع الرّوايات في هذا الصدد بالجزء ١٨ من بحار الأنوار من الصفحة ٢٨٢ إلى ٤١٠).

وقد ذكرت كتب أهل السنّة روايات المعراج بشكل موسّع بحيث نقل ثلاثون راوية من رواتهم حديث المعراج[(١)].

وهنا ينقدح السؤال التالي وهو: كيف تمّ كلّ هذا السفر الطويل وهذه المشاهدات العجيبة والمتنوّعة والأحداث الطويلة في ليلة واحدة، بل في جزء منها؟!

ولكن يتّضح الجواب على السؤال بملاحظة أنّ سفر المعراج لم يكن سفراً بسيطاً كالمعتاد حتى يقاس بالمعايير المعتادة! فلا السفر كان طبيعيّاً ولا وسيلته وركوبه ولا مشاهده ولا أحاديثه ولا المعايير الواردة فيها كمعاييرنا المحدودة والصغيرة على كرتنا الأرضية فكلّ شيء كان في المعراج خارقاً للعادة! وكان وفق مقاييس خارجة عن زماننا ومكاننا.

فبناءً على هذا لا مجال للعجب أن تقع كلّ هذه الأُمور بمقياس ليلة أو أقل من ليلة من مقاييس - الكرة الأرضية - الزمانية [فلاحظوا بدقّة].

(١) تفسير الميزان، ج١٣، ص٢٩ (ذيل الآيات الأُولى من سورة الإسراء بحث روائي).

٥ - جانب من إيحاءات الله وكلماته لرسوله في ليلة المعراج

وردت في كتب الأحاديث رواية عن أمير المؤمنين علي عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الشأن «المعراج» وهي مفصّلة وطويلة نذكر جانباً منها وفيها مطالب تكشف عن أحداث وأحاديث تلك الليلة التاريخية وكيف أنّها بلغت أوج السمو والرفعة.

ونقرأ في بداية الحديث أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم سأل الله سبحانه: يا ربّ أيّ الأعمال أفضل؟!

فقال تعالى: «ليس شيء عندي أفضل من التوكّل عليّ والرضا بما قسمت، يامحمّد! وجبت محبّتي للمتحابّين فيّ، ووجبت محبّتي للمتعاطفين فيّ، ووجبت محبّتي للمتواصلين فيّ، ووجبت محبّتي للمتوكّلين عليّ، وليس لمحبّتي حدّ ولا غاية ولا نهاية».

وهكذا تبدأ الأحاديث من المحبّة، المحبّة الشاملة والواسعة، وأساساً فإنّ عالم الوجود يدور حول هذا المحور!

وجاء في جانب آخر: «يا أحمد[1] فاحذر أن تكون مثل الصبي إذا نَظَر إلى الأخضر والأصفر أحبّه وإذا أُعطي شيء من الحلو والحامض اغترّ به، فقال: يا ربّ دُلّني على عمل أتقرّب به إليك قال: اجعل ليلك نهاراً ونهارك ليلاً قال: ربّ وكيف ذلك؟ قال: اجعل نومك صلاة وطعامك الجوع.

كما جاء في مكان آخر منه: يا أحمد محبّتي محبّة للفقراء فادن الفقراء وقرّب مجلسهم منك أُدنِكَ وبعّد الأغنياء وبعّد مجلسهم منك فإنّ الفقراء أحبّائي.

وجاء في موضع آخر أيضاً: يا أحمد أبغض الدنيا وأهلها وأحبّ الآخرة وأهلها قال يا ربّ ومن أهل الدنيا ومن أهل الآخرة؟ قال: أهل الدنيا من كثر أكله وضحكه ونومه وغضبه، قليل الرضا لا يعتذر إلى من أساء إليه ولا يقبل معذرة من اعتذر إليه، كسلان عند الطاعة، شجاع عند المعصية، أمله بعيد وأجله قريب، لا يحاسب نفسه، قليل المنفعة كثير الكلام، قليل الخوف، كثير الفرح عند الطعام، وإنّ أهل الدنيا لا يشكرون

---

(١) ممّا ينبغي الالتفات إليه أنّ اسم النّبي في كلّ مكان من هذا الحديث ورد بلفظ أحمد إلاّ في بدايته، أجل فاسم النّبي في الأرض محمّد وفي السماء أحمد ولِمَ لا يكون كذلك مع أنّ أحمد بالإضافة إلى أنّه اسم تفضيل مبين للحمد والتكريم أكثر، وقد كان على النّبي في تلك الليلة التاريخية أن يتجاوز من «محمّد» إلى «أحمد» لأنّ الفاصلة بين أحمد وأحد غير بعيدة.

عند الرخاء ولا يصبرون عند البلاء، كثير الناس عندهم قليل، يحمدون أنفسهم بما لا يفعلون، ويدّعون بما ليس فيهم، ويتكلّمون بما يتمنّون ويذكرون مساوئ الناس ويخفون حسناتهم. .

قال: يا ربّ، هل يكون سوى هذا العيب في أهل الدنيا، قال: يا أحمد إنّ عيب أهل الدنيا كثير، فيهم الجهل والحمق، لا يتواضعون لمن يتعلّمون منه، وهم عند أنفسهم عقلاء وعند العارفين حمقاء. .

ثمّ يتناول الحديث أهل الجنّة فيقول:

يا أحمد إنّ أهل الخير وأهل الآخرة رقيقة وجوههم كثير حياؤهم قليل حمقهم، كثير نفعهم، الناس منهم في راحة وأنفسهم منهم في تعب كلامهم موزون، محاسبين لأنفسهم، متعبين لها، تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم أعينهم باكية وقلوبهم ذاكرة، إذا كُتب الناس في الغافلين كتبوا من الذاكرين، في أوّل النعمة يحمدون وفي آخرها يشكرون دعاؤهم عند الله مرفوع، وكلامهم مسموع، تفرح الملائكة بهم، الناس (الغَفلَة) عندهم موتى والله عندهم حي قيّوم «وهمّتهم عالية فلا ينظرون إلاّ إليه» قد صارت الدنيا والآخرة عندهم واحدة يموت الناس مرّة ويموت أحدهم في اليوم سبعين مرّة «ويحيا حياةً جديدة» من مجاهدة أنفسهم ومخالفة هواهم.

وإن قاموا بين يدي كأنّهم البنيان المرصوص لا أرى في قلبهم شغلاً لمخلوق. . . فوعزّتي وجلالي لأحيينّهم حياةً طيبةً إذا فارقت أرواحهم أبدانهم ولا أُسلّط عليهم ملك الموت ولا يلي قبض روحهم غيري ولأفتحنّ لروحهم أبواب السماء كلّها ولأرفعنّ الحجب كلّها دوني، ولآمرنّ الجنان فلتزيننّ.

يا أحمد إنّ العبادة عشرة أجزاء تسعة منها طلب الحلال فإذا طيّبت مطعمك ومشربك فأنت في حفظي وكنفي.

وجاء في مكان آخر منه: يا أحمد هل تدري أيّ عيش أهنأ وأيّ أبقى؟ قال: اللهمّ لا، قال: أمّا العيش الهنيء فهو الذي لا يفترّ صاحبه عن ذكري ولا ينسى نعمتي ولا يجهل حقّي، يطلب رضاي في ليله ونهاره.

وأمّا الحياة الباقية فهي التي يعمل لنفسه حتى تهون عليه الدنيا وتصغر في عينه وتعظم الآخرة عنده ويؤثر هواي على هواه ويبتغي مرضاتي ويعظّم حقّ عظمتي ويذكر علمي به ويراقبني بالليل والنهار عند كلّ سيّئة أو معصية وينقّي قلبه عن كلّ ما أكره ويبغض

الشيطان ووساوسه ولا يجعل لإبليس على قلبه سلطاناً . . . فإذا فعل ذلك أسكنت قلبه حبّاً حتى أجعل قلبه لي وفراغه واشتغاله وهمّه وحديثه من النعمة التي أنعمت على أهل محبّتي من خلقي . . . وافتح عين قلبه وسمعه حتى يسمع بقلبه وينظر بقلبه إلى جلالي وعظمتي «وحقائق الغيب».

وأخيراً فإنّ هذا الحديث القدسي الكريم يختتم بهذه العبارات المؤثرة! يا أحمد لو صلّى العبد صلاة أهل السماء والأرض ويصوم صيام أهل السماء والأرض ويطوي من الطعام مثل الملائكة، ولبس لباس العاري ثمّ أرى في قلبه من حبّ الدنيا ذرّة أو سعتها أو رئاستها أو حليّها أو زينتها لا يجاورني في داري ولأنزعنّ من قلبه محبّتي وعليك سلامي ورحمتي والحمد لله ربّ العالمين»(١).

هذه الأحاديث القدسيّة «من ربّ العرش» التي تحمل روح الإنسان إلى أوج السماوات معها وتعرج به إلى حالة الشهود هي قسم من الحديث القدسي المشار إليه آنفاً.

ونضيف إلى ذلك أنّنا على يقين أنّه كان بين النّبي ومحبوبه في تلك الليلة الكريمة أسرار وإشارات وكلمات أُخرى لا تستطيع الآذان الإصغاء إليها ولا الأفكار الساذجة استيعابها . . . ولذلك بقيت في نفس النّبي طيّ الكتمان فلم يَبُحْ بها لأحد إلاّ لخلصائه المختصّين به.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾

هذه الأصنام وليدة أهوائكم

بعد بيان الأبحاث المتعلّقة بالتوحيد والوحي والمعراج وآيات عظمة الواحد الأحد في السماء، يتناول القرآن أفكار المشركين، فينقضها ويتحدّث عن معتقداتهم

(١) بحار الأنوار، ج٧٧، ص٢١ - ٣٠ بشيء من التلخيص.

الخرافية. . . فيقول: بعد أن أدركتم عظمة الله وآياته في خلقه فهل أنّ أصنامكم مثل اللات والعزّى والصنم الثالث وهو «مناة» بإمكانها أن تنفعكم أو تضرّكم: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾[1]؟!

مع أنّكم تزعمون أنّ قيمة البنت دون قيمة الولد ولو بلغكم أنّ أزواجكم أنجبن بنات حزنتم واسودّت وجوهكم!!

﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾[2] فهذه قسمة غير عادلة بينكم وبين الله تعالى فعلام تجعلون نصيب الله دون نصيبكم؟!

وهكذا يتناول القرآن أفكارهم الخرافية مستهزئاً بها! ويقول لهم: إنّكم ترون البنت عاراً وذلّةً وتئدونها وهي حيّة في القبر، وفي الوقت ذاته تزعمون بأنّ الملائكة بنات الله، ولا تعبدون الملائكة من دون الله فحسب بل تصنعون لها التماثيل وتجعلون لها تلك القدسيّة! وتسجدون لها وتلتجئون إليها لحلّ مشاكلكم وتطلبون حوائجكم منها، وذلك مثار للسخرية والاستهزاء حقّاً!.

ومن هنا يبدو واضحاً أنّ العرب الجاهليين كانوا يعبدون بعض هذه الأصنام على الأقل على أنّها تماثيل الملائكة، الملائكة التي يسمّون كلاًّ منها بربّ النوع ومدير الوجود ومدبّره، وكانوا يرون أنّ الملائكة بنات الله!!

فحين تقرن هذه الخرافات إلى خرافة أُخرى وهي نظرتهم عن البنت فإنّ التضادّ العجيب الواقع بين هذه الخرافات بنفسه خير شاهد على سخافة هذه المعتقدات، وكم هو طريف أن يبطل القرآن جميع تلك الخرافات بعدّة جُمل قصيرة وموجزة ويفضحها ساخراً بها.

ومن هنا يتبيّن أنّ القرآن لا يقصد إمضاء ما كان عليه العرب من التفريق بين الذكر والأُنثى، بل يريد بيان ما هو مقبول ومسلّم عندهم (وهو منطق الجدل)، وإلاّ فلا فرق

---

(١) سنتحدّث عن الأصنام الثلاثة المشار إليها في الآيات مورد البحث بإذن الله، لكن ممّا ينبغي الالتفات إليه هو التعبير بمناة الثالثة الأُخرى فقد ذكر لهذه الآية تفاسير عديدة أغلبها عار من الصحّة ولا أساس له ولكن المناسب من هذه التفاسير أنّ أهميّة هذه الأصنام عند مشركي العرب كانت بحسب ما ذكره القرآن فالتعبير بمناة الثالثة أي ثالث الأصنام (في الأهميّة) عند العرب والتعبير بالأُخرى هو لتأخر رتبتها عندهم!

(٢) ﴿ضِيزَىٰٓ﴾ أي ناقصة وغير منصفة.

في نظر الإسلام ومنطقه بين الذكر والأُنثى من حيث القيمة الإنسانية، ولا الملائكة فيهم ذكر وأُنثى، ولا هم بنات الله، وليس عند الله من ولد أساساً، فهذه افتراضات لا أساس لها... إلاّ أنّ هذا الردّ خير جواب لمن يعتقد بهذه الخرافات.

وفي آخر آية من الآيات محلّ البحث يقول القرآن بضرس قاطع: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾(١).

فلا دليل لديكم من العقل، ولا دليل عن طريق الوحي على مدّعاكم، وليس لديكم إلاّ حفنة من الأوهام والخيالات الباطلة.

ثمّ يختتم القرآن الآية بالقول: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ(٢)﴾ فهذه الخيالات والموهومات وليدة هوى النفس ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾..

إلاّ أنّهم أغمضوا أعينهم عنه وخلّفوه وراء ظهورهم وتاهوا في هذه الأوهام والضلالات!

بحوث

١ - أصنام العرب الثلاثة المشهورة

كان لمشركي العرب أصنام كثيرة، إلاّ أنّ ثلاثةً منها كانت ذات أهميّة خاصّة عندهم، وهي «اللات» و«العزّى» و«مناة».

وهناك كلام بل أقوال في تسمية هذه الأصنام ومن صنعها ومكانها والجماعة التي تعبدها، ونكتفي بما ورد في كتاب «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب» هنا فحسب.

فأوّل صنم معروف اختاره العرب كان (مناة)، حيث انّه بعد أن نقل «عمرو بن لحي» عبادة الأصنام من الشام إلى الحجاز، صُنع هذا الصنم في منطقة قريبة من البحر الأحمر بين المدينة ومكّة، وكان العرب جميعهم يحترمون هذا الصنم ويقدّمون له القرابين، إلاّ أنّ أكثر القبائل اهتماماً بهذا الصنم قبيلتا الأوس والخزرج... حتى كان فتح مكّة في السنة الثامنة للهجرة - وكان النّبي متّجهاً من المدينة إلى مكّة - فأرسل أمير المؤمنين عليّاً فكسره.

---

(١) «السلطان» معناه السلطة والغلبة، ويطلق على الدليل القاطع أنّه سلطان أيضاً، لأنّه أساس الغلبة على الخصم.

(٢) «ما» في ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ موصولة، ويحتمل أن تكون مصدرية، ولا فرق كبير بينهما.

وبعد أن صنع عرب الجاهلية صنم مناة، عمدوا فصنعوا صنماً آخر، هو اللات من صخر ذي أربع زوايا، وجعلوه في الطائف، في المكان الذي توجد فيه اليوم منارة مسجد الطائف الشمالية، وكان أغلب ثقيف في خدمة هذا الصنم، وحين أسلمت ثقيف أرسل النّبي المغيرة، فكسر ذلك الصنم، والصنم الثالث الذي اختاره العرب هو العزّى وكان في محلّ قريب من ذات عرق في طريق مكّة باتّجاه العراق وكانت قريش تهتمّ بهذا الصنم كثيراً.

وكان العرب يهتّمون بهذه الأصنام الثلاثة إلى درجة أنّهم كانوا يقولون عند الطواف حول البيت: واللات والعزّى ومناة الثالثة الأُخرى فإنّهم الغرانيق العُلى وإنّ شفاعتهم لترتجى[١].

وكانوا يزعمون بأنّ هذه الأصنام بنات الله «ويظهر أنّهم كانوا يتصوّرون أنّ هذه الأصنام تماثيل الملائكة التي كانوا يزعمون أنّها بنات الله!!».

العجب أنّ تسميتها مستقاة من أسماء الله... غالباً غاية ما في الأمر كانت أسماؤها مؤنثة لتدلّ على اعتقادهم... فاللات[٢] أصلها اللاهة، ثمّ سقط حرف الهاء فصارت الكلمة اللات، والعزّى مؤنث الأعز، ومناة من منى الله الشيء أي قدّره، ويعتقد بعضهم أنّ مناة من النوء وهو عبارة عن طلوع بعض النجوم التي تصحبها المزن وبعضهم قالوا بأنّ مناة مأخوذة من «مَنَى» على وزن «سعى»، ومعناه سفك الدم، لأنّ دماء القرابين كانت تسفك[٣] عندها وعلى كلّ حال فإنّ العرب كانوا يحترمون هذه الأصنام حتى أنّهم سمّوا كثيراً من رجالهم بعبد العزّى وعبد مناة وربّما سمّوا بعض قبائلهم بمثل هذه الأسماء[٤].

٢ - أسماء دون مسمّيات

إنّ واحداً من أقدم أُسس الشرك هو تنوّع الموجودات في العالم حيث إنّ ذوي الفكر القصير والنظر الضيّق لم يستطيعوا تصديق أنّ كلّ هذه الموجودات المتنوّعة في السماء

---

(١) بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، ج٢، ص٢٠٢ و٢٠٣.

(٢) كلمة «اللات» كان ينبغي أن تكتب اللاة بالتاء القصيرة ولكنّها لمّا كانت في الوقف تبدّل هاءً فتصير اللاه ويوهم لفظها بالاسم الكريم الله كتبت بالصورة الآنفة اللات.

(٣) الاحتمال الأوّل جاء في الكشّاف والثاني في بلوغ الإرب.

(٤) بلوغ الإرب، ج٢، ص٢٠٢ و٢٠٣.

والأرض مخلوقة لله الأحد «لأنّهم يقيسون ذلك بأنفسهم إذ لا يتسنّى لهم التسلّط إلاّ على أمر واحد أو عدّة أُمور» لذلك كانوا يزعمون أنّ لكلّ نوع من الموجودات ربّاً يعبّر عنه «بربّ النوع» كربّ نوع البحر، وربّ نوع الصحراء، وربّ نوع المطر، وربّ نوع الشمس، وربّ الحرب، وربّ الصلح. . .

وهذه الآلهة المزعومة التي كانوا يسمّونها الملائكة أحياناً كانت حسب اعتقادهم تحكم هذا العالم وحيثما تقع مشكلة يلتجأ إلى ربّ نوعها وحيث إنّ أرباب الأنواع لم تكن موجودات محسوسة فقد صنعوا لها تماثيل وعبدوها!

هذه العقائد الخرافية انتقلت من اليونان إلى المناطق الأُخرى حتى وصلت إلى الحجاز، ولكن حيث إنّ التوحيد الإبراهيمي كان سائداً لدى العرب فلم يمكنهم إنكار وجود الله، فمزجت هذه العقائد واحدة بالأُخرى، ففي الوقت الذي يعتقدون فيه بالله اعتقدوا بالملائكة الذين هم في زعمهم بناته، وعبدوا الأحجار التي صنعوا منها التماثيل.

فالقرآن هدم هذه الخرافات بعبارة موجزة غزيرة المعنى فقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ فلم يك أي شيء صادراً من ربّ المطر الذي سمّيتموه أنتم، ولا من ربّ الشمس المزعوم، ولا البحر، ولا الحرب، ولا الصلح.

فكلّ شيء صادر عن الله، وعالم الوجود كلّه طوع أمره، واتّساق جميع هذه الموجودات المختلفة في السماء والأرض وانسجامها بعضها مع بعض دليل على وحدة الخالق، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾(١).

٣ - الدافع النفسي لعبادة الأصنام

عرفنا الأصل التاريخي لعبادة الأصنام إلاّ أنّ لها دوافع ومبادئ نفسيّة وفكرية أيضاً، وقد أُشير إليها في الآيات المتقدّمة، وذلك هو اتّباع الظنّ وما تهوى الأنفس!! والخيالات والأوهام الحاصلة للجهلاء، ومن ثمّ تنتقل إلى مقلّديهم من المتحجّرين، وينتقل هذا التقليد من نسل إلى نسل.

وبالطبع فإنّ معبوداً كالصنم يتلاءم جيّداً مع أهوائهم، لأنّه ليس له سلطة على العباد،

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

ولا معاد، ولا جنّة، ولا نار، ولا كتاب، ويعطيهم الحرية الكاملة، وإنّما يأتونه في المشاكل فحسب، ويتصوّرون أنّه سينفعهم وأنّهم إنّما يستمدّون منه العون.

وأساساً فإنّ «هوى النفس» ذاته يعدّ أكبر الأصنام وأخطرها، وهو الأصل لظهور الأصنام الأُخرى.

٤ - أُسطورة الغرانيق مرّةً أخرى

من خلال بحثنا حول الأصنام الثلاثة التي كان العرب يهتّمون بها «أي اللات والعزّى ومناة» ويعبدونها - من خلال هذا البحث التاريخي وردت الإشارة إلى أنّ هذه الأصنام كانت تدعى بالغرانيق العلى وأنّ شفاعتهنّ لترتجى.

و«الغرانيق» جمع غُرنوق، على زنة عصفور وبُهلول... والغرنوق نوع من الطيور الرمادية أو السوداء، ولذلك كان العرب أحياناً إذا ذكروا الأصنام قالوا بعد ذكرها: تلك الغرانيق العُلى وإنّ شفاعتهنّ لترتجى.

وقد وردت هنا قصّة خرافية نقلتها بعض الكتب، وهي أنّ النّبي ﷺ حين قرأ الآية: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّٰتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ أضاف عليها من عنده الجملتين هاتين: تلك الغرانيق العلى وإنّ شفاعتهنّ لترتجى... فكان سبباً لارتياح المشركين وعدوّه انعطافاً من قِبَلِ النّبي إلى عبادة الأصنام، وبما أنّ ختام السورة يدعو الناس للسجود... فإنّ المسلمين سجدوا وسجد المشركون أيضاً، فكان هذا الخبر مدعاةً لإشاعة إسلام المشركين في كلّ مكان! حتى بلغ ذلك أسماع المهاجرين إلى الحبشة من المسلمين وسُرّ جماعة منهم إلى درجة أنّهم أحسّوا بالأمان فعادوا من مهجرهم إلى مكّة(١).

ولكن كما فصّلنا ذلك في تفسير الآية ٥٢ من سورة الحجّ فإنّ هذا الادّعاء كذب مفضوح، وتبطله الدلائل والقرائن الكثيرة بجلاء.

فأُولئك المفتعلون لهذه الكِذبة لم يفكّروا أنّ القرآن في ذيل هذه الآيات محلّ البحث ينقض عبادة الأصنام بصراحة، ويعدّها اتّباعاً لما تهوى النفس وظنونها، كما أنّه في الآيات التي تلي هذه الآيات يعنّف عبادة الأصنام بصراحة وبِشدّة، ويعدّها دليلاً على عدم الإيمان والمعرفة، ويأمر النّبي بصراحة أن يقطع علاقته بهم ويعرض عنهم.

فمع هذه الحال كيف يمكن أن يتلفّظ النّبي ﷺ بهاتين الجملتين، أو أن يكون

---

(١) نقل الطبري هذه القصّة الخرافية في تاريخه، ج٢، ص٧٥ فما بعد.

المشركون حمقى إلى درجة بحيث يصغون إلى هذه العبارة ولا يلتفتوا إلى الآيات بعدها التي تعنّف المشركين على عبادة الأصنام... ويفرحوا ويسجدوا في آخر ما يُتلى مِن هذه السورة مع الساجدين.

والحقيقة أنّ ناسجي هذه الأُسطورة سذّج للغاية وسطحيّون، ويمكن أن يكون عند قراءة النّبي للآية ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ تلا الشيطان بعدها أو الإنسان المتّصف بالشيطنة الجملتين بين المشركين الحاضرين «لأنّ هاتين الجملتين كانتا بمثابة الشعار الذي يودع المشركون بهما أسماء الأصنام» فاشتبه جماعة مؤقتاً بأنّهما تتمّة للآية!!

إلاّ أنّه لا معنى لسجود المشركين في انتهاء السورة، ولا لانعطاف النّبي ﷺ نحو عبادة الأصنام، لأنّ جميع آيات القرآن وسيرة النّبي ﷺ في حياته كلّ ذلك يكشف عن أنّه لم يظهر أيّ انعطاف نحو الأصنام في أي شكل وصورة، ولم يقبل بأيّ اقتراح في هذا الصدد، لأنّ الإسلام بأجمعه كان يتلخّص في التوحيد: لا إله إلاّ الله!

فكيف يمكن لنبي الإسلام أن يُساومَ على روح محتوى الإسلام الأصيل؟

«وكان لنا في هذا المجال دلائل واستدلالات ذيل الآية ٥٢ من سورة الحجّ».

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

التّفسير

الشفاعة أيضاً بإذنه

هذه الآيات أيضاً تتناول بالبحث والتعقيب - موضوع عبادة الأصنام وخرافتها، وهي تتمّة لما سبق بيانه في الآيات المتقدّمة!

فتتناول أوّلاً الأُمنيات الجوفاء عند عَبَدةِ الأصنام وما كانوا يتوقّعون من الأصنام: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾؟!.

تُرى! هل من الممكن أن تشفع هذه الأجسام التي لا قيمة لها ولا روح فيها عند الله سبحانه؟ أو يُلتجأ إليها عند المشكلات!؟ كلاّ! ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾.

إنّ عالم الأسباب يدور حول محور إرادته، وكلّ ما لدى الموجودات فمن بركات وجوده، فالشفاعة من اختياراته أيضاً، وحلّ المشاكل بيد قدرته كذلك!

ممّا يلفت النظر أنّ القرآن يتحدّث عن الآخرة أوّلاً، ثمّ عن الدنيا، لأنّ أكثر ما يُشغل فكر الإنسان هو النجاة في الآخرة... وحاكمية الله في الدار الآخرة تتجلّى أكثر منها في هذه الدنيا.

وهكذا فإنّ القرآن يقطع أمل المشركين تماماً - بشفاعة الأصنام - ويسدّ بوجوههم هذه الذريعة بأنّها تشفع لهم ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾(١).

وهناك احتمال آخر في تفسير الآيتين آنفتي الذكر: وهو أن يتوجّه الإنسان نحو الله لعدم بلوغه أمانيّه وما يرغب إليه... لأنّ الآية الأُولى من الآيات محلّ البحث تقول: ﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ﴾؟ وهذا استفهام إنكاري، وحيث إنّ جواب هذا الاستفهام أو السؤال بالنفي قطعاً، لأنّ الإنسان لا ينال كثيراً من أمانيه أبداً، وهذا يدلّ على أنّ تدبير هذا العالم بيد أُخرى تتحكّم في هذا العالم، ولذلك فإنّ الآية الثانية تقول: حيث كان الأمر كذلك ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾!

وهذا المعنى يشبه ما جاء في كلام الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «عرفت الله بفسخ العزائم وحلّ العقود ونقض الهمم»(٢). ولا يبعد الجمع بين هذا التّفسير والتّفسير السابق أيضاً.

وفي آخر الآيات محلّ البحث يقول القرآن مضيفاً ومؤكّداً على هذه المسألة: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾.

فحيث لا تستطيع الملائكة على عظمتها حتى ولو بشكل جماعي أن تشفع لأحد إلاّ بإذن الله ورضاه، فما عسى يُنتظر من هذه الأصنام التي لا قيمة لها، وهي لا تعي شيئاً!؟. وحينما تتساقط النسور المحلّقة وتهوي بأجنحتها عاجزة فما تنفع البعوضة الضعيفة؟ أليس من المخجل أن تقولوا إنّما نعبدهم ليقرّبونا إلى الله زلفى، أو هؤلاء شفعاؤنا عند الله؟!

والتعبير بـ ﴿وَكَم﴾ في الآية يفيد العموم، أي ليس لأي ملك أن يشفع دون إذن الله ورضاه، لأنّ هذه اللفظة تفيد العموم في لغة العرب، كما أنّ لفظة «كثير» تفيد العموم أحياناً وقد جاء في الآية (٧٠) من سورة الإسراء ما يدلّ على ذلك: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي فضّلنا بني آدم على جميع من خلقنا.

(١) سورة يونس، الآية: ١٨.

(٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة رقم ٢٥٠.

كما نجد هذا الإستعمال في شأن الشياطين إذ نقرأ الآية (٢٢٣) من سورة الشعراء قائلةً: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ مع أنّنا نعلم أنّ جميع الشياطين كاذبون[١].

أمّا الفرق بين «الإذن» و«الرضا» فهو - أنّ الإذن يعبّر عنه في مقام يكشف الإنسان عن رضاه الباطني، إلاّ أنّ الرضا... أعمّ من ذلك، وقد تستعمل كلمة «الرضا» لانسجام الطبع مع ما يفعل، وبما أنّ الإنسان قد يأذن بشيء ما دون أن يكون راضياً في قلبه فقد جاءت كلمة ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ تأكيداً على الإذن، وإن كان الإذن والرضا عند الله لا ينفصل بعضهما عن بعض ولا مجال (للتقيّة) عند الله!

تعقيب

١ - سعة الأماني

الأمل أو التمنّي إنّما ينبع من محدودية قدرة الإنسان وضعفه، الإنسان إذا كانت له علاقة بالشيء ولم يستطع أن يبلغه ويحقّقه فانّه يأخذ صورة التمنّي عنده... وإذا استطاع الإنسان أن يحقّق كلّ ما يريده ويرغب فيه، لم يكن للتمنّي من معنى!

وبالطبع قد تكون أماني الإنسان أحياناً نابعة من روحه العالية وباعثاً على الحركة والجدّ والنشاط والجهاد وسيره التكاملي... كما لو تمنّى بأن يتقدّم الناس بالعلم والتقوى والشخصيّة والكرامة!

إلاّ أنّه كثيراً ما تكون هذه الأحلام «والأماني» كاذبة، وعلى العكس من الأماني الصادقة فإنّها - أي الكاذبة - أساس الغفلة والجهل والتخدير والتخلّف كما لو تمنّى الإنسان الخلود في الأرض والعمر الدائم، وأن يملك أموالاً طائلة، وأن يحكم الناس جميعاً وأمثال هذا الخيال الموهوم.

ولذلك فقد رغّبت الرّوايات الإسلامية الناس في تمنّي الخير، كما نقرأ في بعض ما وصلنا عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «من تمنّى شيئاً وهو لله عزّوجلّ رضىً لم يخرج من الدنيا حتى يعطاه»[٢].

ويستفاد من بعض الرّوايات أنّه إذا لم يصل إلى ذلك في الدنيا فسينال ثوابه[٣].

---

(١) مع أنّ كلمة ملك في الآية مفردة فقد عاد الضمير عليها جمعاً في «شفاعتهم» وذلك لمفهوم الكلام ورعاية للمعنى!

(٢-٣) بحار الأنوار، ج٧١، ص٢٦١ (باب تمنّي الخيرات).

كلام في شأن الشفاعة

إنّ الآية الأخيرة - من الآيات محلّ البحث - تخبر بجلاء عن إمكان أن يشفع الملائكة، فحيث إنّه للملائكة الحقّ أن يشفعوا بإذن الله ورضاه، فمن باب الأولى أن يكون للأنبياء والمعصومين حقّ الشفاعة عند الله.

إلاّ أنّه لا ينبغي أن ننسى أنّ الآية آنفة الذكر تقول بصراحة إنّ هذه الشفاعة ليست من دون قيد وشرط. بل هي مشروطة بإذن الله ورضاه، وحيث إنّ إذن الله ورضاه لم يكونا عبثاً أو اعتباطاً، فينبغي أن تكون بين الإنسان وربّه علاقة حتى يأذن بالشفاعة للمقرّبين في شأنه، ومن هنا فإنّ رجاء الشفاعة يكون مذهباً تربوياً للإنسان ومانعاً من اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى(١).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾

التّفسير

﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾

هذه الآيات - محلّ البحث - كالآيات المتقدّمة، تبحث موضوع نفي عقائد المشركين.

فتقول أوّلها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾!

أجل، إنّ هذا الكلام القبيح والمخجل إنّما يصدر من أُناس لا يعتقدون بيوم الحساب ولا بجزاء أعمالهم، فلو كانوا يعتقدون بالآخرة لما تجاسروا وقالوا مثل هذا الكلام، وأي كلام؟! كلام ليس لهم فيه أدنى دليل... بل الدلائل العقليّة تبرهن على أنه ليس لله من ولد، وليس الملائكة إناثاً، ولا هم بنات الله كذلك!

---

(١) التعبير بـ«من يشاء» الوارد في الآية المتقدّمة يمكن أن يكون إشارة إلى الناس الذين يأذن الله لهم بالشفاعة، أو إشارة إلى الملائكة الذين يأذن الله لهم بالشفاعة، إلاّ أنّ الاحتمال الأوّل أنسب.

والتعبير بـ ﴿تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ إشارة إلى ما نوّهنا عنه في الآيات المتقدّمة، وهو أنّ مثل هذا الكلام لا معنى له. وإنّ هذه الأسماء لا مسميّات لها، وبتعبير آخر إنّها لا تعدو حدود التسمية، ولا واقع لها أبداً.

ثمّ يتناول القرآن واحداً من الأدلّة الواضحة على بطلان هذه التسمية فيقول معقّباً: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

فالإنسان الهادف والمعتقد لا يطلق كلامه دون علم ودراية، ولا ينسب أيّة نسبة لأحد دونما دليل.. فالتعويل على الظنّ والتصوّر إنّما هو من عمل الشيطان أو من يتّصف بالشيطانيّة... وقبول الخرافات والأشياء الموهومة دليل الانحراف وعدم العقل!

وواضح أنّ كلمة «الظنّ» لها معنيان مختلفان، فتارةً تطلق هذه الكلمة على الأوهام التي لا أساس لها، وطبقاً لتعبير الآيات آنفة الذكر تعني الخرافات والأوهام وما تهوى الأنفس... والمراد من هذه الكلمة في الآية هو هذا المعنى ذاته.

المعنى الآخر، الظنّ المعقول وهو ما يخطر في الذهن، ويكون مطابقاً للواقع غالباً، وعليه يبني الانسان أعماله وسلوكياته اليومية عادة، - كشهادة الشهود في المحكمة وقول أهل الخبرة وظواهر الألفاظ وأمثال ذلك، فلو أعرضنا عن مثل هذه الأمور وعوّلنا على اليقين القطعي لاضطربت الحياة واختلّ نظامها.

ولا شكّ أنّ هذا القسم من الظنّ غير داخل في هذه الآيات، وهناك شواهد كثيرة في الآيات ذاتها على ذلك... وفي الحقيقة أنّ القسم الثاني نوع من العلم العرفي لا الظنّ، فبناءً على هذا لا يصحّ الاستدلال بالآية ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ وأمثالها على نفي حجيّة الظنّ بشكل مطلق.

وينبغي الالتفات إلى هذه اللطيفة والمسألة الدقيقة... وهي أنّ الظنّ في اصطلاح الفقهاء والأصوليين معناه «الاعتقاد الراجح»، إلاّ أنّه في اللغة أوسع مفهوماً، فيشمل حتى الوهم والاحتمالات الضعيفة، ومن هذا القبيل ظنّ عبدة الأوثان - إذ كان خرافة تظهر في أذهانهم بشكل احتمال ضعيف. ثمّ ينهض هوى النفس فيزيّن ذلك الاحتمال، ويهمل الاحتمال الآخر الذي هو أقوى من هذا الاحتمال، ويصير الاحتمال الضعيف اعتقاداً راسخاً مع أنّه لا أساس له أبداً.

ومن أجل أن يبيّن القرآن أنّ هؤلاء الجماعة ليسوا أهلاً للاستدلال والمنطق

الصحيح، وقد ألهاهم حبّ الدنيا عن ذكر الله وجرّهم إلى الوحل في خرافاتهم وأوهامهم يضيف قائلاً: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾.

والمراد من ﴿ذِكْرِنَا﴾ في اعتقاد أغلب المفسّرين هو «القرآن»، وقد يُفسّر بأنّه الدلائل المنطقية والعقلية التي توصل الإنسان إلى الله، كما احتملوا أن يكون المراد هو ذكر الله الذي يقابل الغفلة عند الإنسان.

إلاّ أنّ الظاهر أنّ هذا التعبير ذو مفهوم واسع بحيث يشمل كلّ توجّه نحو الله، سواء أكان ذلك عن طريق القرآن، أو عن طريق العقل، أو عن طريق السنّة، أو تذكّر القيامة وما إلى ذلك!

ويستفاد من هذه الآية - ضمناً - أنّ هناك علاقة بين الغفلة عن ذكر الله والإقبال على الماديات، وبين زخرف الدنيا وزبرجها وأنّ بينهما تأثيراً متلازماً!

فالغفلة عن ذكر الله تسوق الإنسان نحو عبادة الدنيا، كما أنّ عبادة الدنيا تصرف الإنسان عن ذكر الله، فيكون غافلاً عنه - وهما جميعاً يقترنان مع هوى النفس، وبالطبع فإنّ الخرافات التي تنسجم مع هوى النفس تتزيّن في نظر الإنسان وتتبدّل تدريجاً إلى اعتقاد راسخ!

وربّما لا حاجة إلى التذكير أنّ الأمر بالإعراض عن هذه الفئة (أهل الدنيا) لا ينافي تبليغ الرسالة الذي هو وظيفة النّبي الأساسيّة، لأنّ التبليغ والإنذار والبشارة كلّها لا تكون إلاّ في موارد احتمال التأثير، فحيث يعلم ويتيقّن عدم التأثير فلا يصحّ هدر الطاقات، وينبغي الإعراض بعد إتمام الحجّة.

كما ينبغي الإشارة إلى أنّ الأمر بالإعراض عمّن تولّى عن ذكر الله، ليس مختصّاً بالنّبي ﷺ بل هو شامل لجميع الدعاة في طريق الحقّ، ليصرفوا طاقاتهم الكريمة في ما يحتمل تأثيرها فيه، أمّا عبدة الدنيا وموتى القلوب الذين لا أمل في هدايتهم فينبغي - بعد إتمام الحجّة عليهم - الإعراض عنهم ليحكم الله حكمه فيهم!.

وفي آخر آية من الآيات محلّ البحث يثبت القرآن إنحطاط أفكار هذه الفئة فيقول مضيفاً: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾.

أجل، إنّ أوج أفكارهم منته إلى هذا الحدّ وهو أُسطورتهم أنّ الملائكة بنات الله!! - وخبطهم في الخرافات... وهذه آخر نقطة تبلغ إليه همّتهم، إذ نسوا الله وأقبلوا على الدنيا واستعاضوا عن جميع شرفهم ووجودهم بالدينار والدرهم!

وهذه الجملة ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ يمكن أن تكون إشارةً إلى خرافاتهم كعبادة الأصنام وجعلهم الملائكة بنات الله: أي أنّ منتهى علمهم هو هذه الأوهام!.

أو أنها إشارة إلى حبّ الدنيا والأسر في قبضة الماديات، أي أن منتهى إدراكهم هو قناعتهم بالأكل والشرب والنوم والمتاع الفاني في هذه الدنيا وزبرجها وزخرفها الخ.

وقد جاء في الدعاء المعروف في أعمال شعبان المنقول عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا ولا مبلغ علمنا»(١).

وتختتم الآية بالقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ ختام الآية يشير إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ الله يعرف الضالّين جيّداً كما يعرف المهتدين أيضاً، فيصبّ غضبه على الضالّين ويسبغ لطفه على المهتدين، ويجازي كلاً بعمله يوم القيامة.

ملاحظة

رأس مال عبدة الدنيا

الطريف أنّ الآيات الآنفة في الوقت الذي تنسب العلم لعبدة الدنيا، إلاّ أنّها تعدّهم ضالّين، وهذا يدلّ على أنّ العلوم التي لا تهدف إلى شيء سوى الماديّات فمن وجهة نظر القرآن ليست علوماً، بل هي الضلالة بعينها.

ومن الغريب أنّ كلّ هذه الشّقوة والحروب وسفك الدماء والظلم والتجاوز والفساد والتلوّث ناشيء من علوم الضلال هذه - ومن الذين منتهى ما توصّلت إليه علومهم حبّ الدنيا والحياة الفانية، ولا يتّسع أُفق متطلّباتهم لأكثر من متطلّبات الحيوان.

أجل، إنّ علوم «التقنية» والمسائل الحديثة إذا لم تصعد بالانسان إلى أهداف أسمى من الماديّات، فهي الجهل بعينه، وإذا لم تؤدّ إلى نور الإيمان فهي الضلال!.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾

---

(١) جاء هذا الدعاء من دون الإشارة إلى أنّه من أعمال شهر شعبان في مجمع البيان وفي تفاسير أُخرى ذيل الآية مورد البحث.

التّفسير

لا تزكّوا أنفسكم

لمّا كان الكلام في الآيات المتقدّمة عن علم الله بالضالّين والمهتدين، فإنّ الآيات أعلاه تتمّة لما جاء آنفاً، تقول: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

فالمالكية المطلقة في عالم الوجود له وحده، والحاكمية المطلقة على هذا العالم له أيضاً، ولذلك فإنّ تدبير عالم الوجود بيده فحسب. ولمّا كان الأمر كذلك فهو وحده الجدير بالعبادة والشفاعة!

إنّ هدفه الكبير من هذا الخلق الواسع ليستيقظ الإنسان في عالم الوجود وليسير في مسير التكامل في ضوء المناهج التكوينية والتشريعيّة وتعليم الأنبياء وتربيتهم، لذلك فإنّ القرآن يذكر نتيجة هذه المالكية فيختتم الآية بالقول: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾(١).

ثمّ يصف القرآن المحسنين في الآية التالية فيقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾.

و«الكبائر» جمع كبيرة، و«الإثم» في الأصل هو العمل الذي يُبعد الإنسان عن الخير والثواب، لذلك يطلق على الذنب عادةً، و«اللمم» على وزن القلم - كما يقول الراغب في المفردات معناه الاقتراب من الذنب، وقد يعبّر عن الذنوب الصغيرة باللمم أيضاً، وهذه الكلمة في الأصل مأخوذة من الإلمام ومعناها الاقتراب من شيء دون أدائه، وقد يطلق «اللمم» على الأشياء القليلة أيضاً «وإطلاقه على الذنوب الصغيرة من هذا الباب».

وقد فسّر المفسّرون «اللمم» في هذه الحدود، فقال بعضهم: هو الذنوب الصغيرة، وقال آخرون هو نيّة المعصية دون أدائها، وفسّره غيرهم بأنّ اللمم معاص لا أهميّة لها.

وربّما قالوا بأنّ اللمم يشمل الذنوب الصغيرة والكبيرة على أن لا تكون معتادة والتي تقع أحياناً فيتذكّرها الإنسان فيتوب منها.

وهناك تفاسير متعدّدة لهذه الكلمة في الرّوايات الإسلامية، فقد جاء عن الإمام

---

(١) «اللام» في ﴿لِيَجْزِيَ﴾ هي لام الغاية، فبناءً على ذلك الجزاء هو غاية الخلق، وإن كان بعضهم يعتقد بأنّ «ليجزي» متعلّق بأعلم في الآية السابقة، وأنّ جملة ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ معترضة، إلاّ أنّ هذا الاحتمال يبدو بعيداً.

الصادق عليه السلام أنّه قال: اللمم الرجل يلمّ به الذنب فيستغفر الله منه[١] وورد عنه أيضاً أنّه قال: هو الذنب يلمّ به الرجل فيمكث ما شاء الله ثمّ يلمّ به بعد[٢].

كما وردت روايات أُخرى في هذا المعنى أيضاً.

والقرائن الموجودة في هذه الآية تشهد على هذا المعنى أيضاً... إذ قد تصدر من الإنسان بعض الذنوب، ثمّ يلتفت إليها فيتوب منها، لأنّ استثناء اللمم من الكبائر (مع الالتفات إلى أنّ ظاهر الاستثناء كونه استثناءً متّصلاً) يشهد على هذا المعنى.

أضف إلى ذلك فإنّ الجملة التالية بعد الآية في القرآن تقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾!.

وهذا يدلّ على أنّ ذنباً صدر من الإنسان وهو بحاجة إلى غفران الله، لا أنّه قصد الاقتراب منه ونواه دون أن يرتكبه.

وعلى كلٍّ فالمراد من الآية أنّ الذين أحسنوا من الممكن أن ينزلقوا في منزلق ما فيذنبوا، إلاّ أنّ الذنب على خلاف سجيّتهم وطبعهم وقلوبهم الطاهرة - وإنّما تقع الذنوب عَرضاً، ولذلك فما أن يصدر منهم الذنب إلاّ ندموا وتذكّروا وطلبوا المغفرة من الله سبحانه كما نقرأ في الآية (٢٠١) من سورة الأعراف إذ تشير إلى هذا المعنى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾.

ونظير هذا المعنى في الآية (١٣٥) من سورة آل عمران إذ تقول في وصف المحسنين والمتّقين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾!

فكلّ هذا شاهد على ما جاء من تفسير «اللّمم».

ونختتم بحثنا هنا بحديث للإمام الصادق عليه السلام إذ أجاب على سؤال حول تفسير الآية - محلّ البحث - فقال: «اللمام العبد الذي يلمّ بالذنب بعد الذنب ليس من سليقته أي من طبيعته»[٣].

ويتحدّث القرآن في ذيل الآية عن علم الله المطلق مؤكّداً عدالته في مجازاة عباده حسب أعمالهم فيقول: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾[٤].

---

(١) أُصول الكافي، ج٢ كتاب الإيمان والكفر باب اللمم ٣٢٠.
(٢) المصدر السابق. (٣) أُصول الكافي، ج٢ باب اللمم ص٣٢١.
(٤) «الأجنّة» جمع جنين: الطفل الذي في بطن أُمّه.

وقوله: ﴿أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ إمّا هو باعتبار الخلق الأوّل عن طريق آدم عليه السلام الذي خلقه من تراب، أو باعتبار أنّ ما يتشكّل منه وجود الإنسان كلّه من الأرض، حيث له الأثر الكبير في التغذية وتركيب النطفة، ثمّ بعد ذلك له الأثر في مراحل نمو الإنسان أيضاً.

وعلى كلّ حال، فإنّ الهدف من هذه الآية أنّ الله مطّلع على أحوالكم وعليم بكم منذ كنتم ذرّات في الأرض ومن يوم انعقدت نطفتكم في أرحام الأمّهات في أسجاف من الظلمات فكيف - مع هذه الحال - لا يعلم أعمالكم؟!

وهذا التعبير مقدّمة لما يليه من قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾!

فلا حاجة لتعريفكم وتزكيتكم وبيان أعمالكم الصالحة، فهو مطّلع على أعمالكم وعلى ميزان خلوص نيّاتكم، وهو أعرف بكم منكم، ويعلم صفاتكم الداخلية والخارجية.

قال بعض المفسّرين إنّ الآيتين آنفتي الذكر نزلتا في جماعة كانوا يمدحون أنفسهم بعد أداء الصوم أو الصلاة فيقولون: إنّنا صلّينا وصمنا وقمنا بكذا وكذا فنزلت الآيتان ونهتهم عن تزكية الأنفس(١).

بحوث

١ - علم الله المطلق

مرّة أُخرى يشار في هاتين الآيتين إلى علم الله المطلق وسعته، إلاّ أنّ التعبير فيهما تعبير جديد، لأنّه يستند إلى لطيفتين(٢) وهما من أشدّ حالات الإنسان خفاءً والتواءً... حالة خلق الإنسان من التراب إذ ما تزال عقول المفكّرين حائرةً فيها، فكيف يوجد موجود حي من موجود لا روح فيه (ميّت)؟ وممّا لا شكّ فيه أنّ هذا الأمر حدث في السابق سواءً في الإنسان أو الحيوانات الأُخر، ولكن في أيّة ظروف؟! فالمسألة في غاية الخفاء والالتواء بحيث ما تزال أسرارها مطوية ومكتومة عن علم الإنسان.

والأُخرى مسألة التحوّلات المفعمة بالأسرار في وجود الإنسان في مرحلة الجنين، فهي أيضاً من الأسرار الغامضة في كيفية خلق الإنسان وإن كان شبح منها قد انكشف

---

(١) تفسير روح المعاني، ج٧، ص٥٥.
(٢) «اللطيفة» ما فيها من دقّة وخفاء.

لعلم البشر، إلاّ أنّ الأسئلة حول أسرار الجنين التي ما زالت دون جواب كثيرة.

فالمطّلع على هاتين الحالتين من جميع أسرار وجود الإنسان وتحوّلاته وتغييراته وهاديه ومربّيه، كيف يكون غير عالم بأعماله وأفعاله! ولا يجازي كلاًّ بحسب ما يقتضيه عمله!

إذاً، فهذا العلم المطلق أساس عدالته المطلقة!

٢ - ما هي كبائر الإثم؟

هناك كلام طويل بين المفسّرين من جهة، والفقهاء والمحدّثين من جهة أُخرى في شأن الذنوب الكبيرة المشار إليها في بعض الآيات من القرآن[١].

فبعضهم يعتقد أنّ جميع الذنوب تعدّ من الكبائر، لأنّ كلّ ذنب - أمام الخالق الكبير يعدّ ذنباً كبيراً.

في حين أنّ بعضهم ينظر إلى الذنوب نظرةً نسبيّة فيرى كلّ ذنب بالنسبة إلى ما هو أهمّ منه صغيراً وبالعكس.

وقال آخرون إنّ الكبائر ما جاء الوعيد من قبل الله في القرآن بارتكابها!

وربّما قيل إنّ الكبائر ما يجري عليها «الحدّ» الشرعي.

إلاّ أنّ الأفضل أنّ يقال بأنّه مع ملاحظة أنّ التعبير بالذنوب الكبيرة دليل على عظمها، فكلّ ذنب فيه أحد الشروط التالية يعدّ كبيراً:

أ - الذنوب التي ورد الوعيد من قبل الله في شأنها والعذاب لمرتكبها.

ب - الذنوب المذكورة في نظر أهل الشرع ولسان الرّوايات بأنّها عظيمة.

ج - الذنوب التي عدّتها المصادر الشرعيّة أكبر من الذنوب التي هي من الكبائر.

د - وأخيراً الذنوب المصرّح بها في الرّوايات المعتبرة بأنّها من الكبائر!.

وقد ورد ذكر الكبائر في الرّوايات الإسلامية مختلفاً عددها فيه، إذ جاء في بعضها أنّها سبع «قتل النفس، وعقوق الوالدين، وأكل الربا، والعودة إلى دار الكفر بعد الهجرة، ورمي المحصنات بالزنا، وأكل مال اليتيم، والفرار من [الزحف] الجهاد»[٢].

---

(١) سورة النساء، الآية: (٣١) والشورى الآية (٣٧) والآيات مورد البحث.

(٢) الوسائل، ج١١، أبواب جهاد النفس، الباب ٤٦، الحديث ١.

وقد جاء في بعض الرّوايات ذكر هذا النصّ: «كل ما أوجب عليه الله النار» [مكان عقوق الوالدين].

وجاء في بعض الرّوايات أنّها «عشر»، وأوصلتها روايات أُخر إلى «تسع عشرة» كبيرةً! وربّما ترقّى هذا العدد إلى أكثر ممّا ذكر في بعض الرّوايات أيضاً(١).

وهذا التفاوت في عدد الكبائر هو لأنّ الذنوب الكبيرة ليست بمرتبة واحدة، فبعضها أهمّ من بعض، وبتعبير آخر يعدّ أكبر الكبائر، فبناءً على هذا لا تضادّ بين الرّوايات في اختلاف العدد.

٣ - تزكية النفس

«تزكية النفس» قبيح إلى درجة أنّها يضرب بها المثل! فيقال تزكية المرء نفسه قبيحة.

وأساس هذا العمل القبيح وأصله عدم معرفة النفس، لأنّ الإنسان إذا عرف نفسه حقّاً تصاغر أمام عظمة الخالق ورأى أعماله لا شيء لما عليه من مسؤولية، ولما وهبه الله من النعم العظيمة، وبالتالي فسوف يخجل من أيّة خطوة نحو تزكية النفس.

والغرور والغفلة والاستعلاء والأفكار الجاهلية أيضاً بواعث أُخر على هذا العمل القبيح!

وبما أنّ تزكية النفس تكشف عن اعتقاد الإنسان بكماله فهي مدعاة إلى تخلّفه! لأنّ رمز التكامل الاعتراف بالتقصير وقبول وجود النواقص والضعف!

ومن هنا نرى أولياء الله يعترفون بتقصيرهم أمام الله وما عليهم من وظائف من قِبَلِه! وينهون الناس عن تزكية النفس وتعظيم أعمالهم!.

فقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير الآية الكريمة: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أنّه قال: «لا يفتخر أحدكم بكثرة صلاته... وصومه وزكاته ونسكه لأنّ الله عزّوجلّ أعلم بمن اتّقى»(٢).

ويقول الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام في إحدى رسائله إلى معاوية مشيراً إلى هذا المضمون في ما يقول: «ولولا ما نهى الله عنه من تزكية المرء نفسه لذكر ذاكر فضائل

---

(١) لمزيد الإيضاح يراجع المصدر السابق الباب ٤٦ من أبواب جهاد النفس وقد جاء في هذا الباب سبع وثلاثون رواية..

(٢) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص١٦٥، ح٧٧.

جمّة، تعرفها قلوب المؤمنين ولا تمجّها آذان السامعين» «يعني بذلك نفسه عليه السلام»[١].

«وفي هذا الصدد أوردنا بحثاً مفصّلاً في هذا التّفسير ذيل الآية ٤٩ من سورة النساء فراجع إن شئت».

ولا ننسى أن نقول إنّ الضرورات قد توجب على الإنسان أحياناً تزكية نفسه أمام الغير بكلّ ما لديه من امتيازات حتى لا تسحق أهدافه المقدّسة، وبين هذا النوع من التعريف بالنفس وتزكية النفس المذموم اختلافاً كبيراً.

ومن أمثلة ذلك خطبة الإمام زين العابدين في مسجد بني أُميّة في الشام لمّا أراد أن يعرّف نفسه وأهل بيته لأهل الشام ليحبط مؤامرة الأُمويين الذين صوّروا للناس بأن الحسين والشهداء معه خوارج!!

وقد ورد في بعض الرّوايات أنّه سئل الإمام الصادق عن «تزكية النفس» فقال: نعم إذا اضطرّ إليه - أما سمعت قول يوسف - ثمّ استدلّ بموضعين من كلام الأنبياء أحدهما اقتراح يوسف على عزيز مصر أن يكون مسؤولاً ومشرفاً على خزائن مصر وتعقيبه: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[٢]... وقول العبد الصالح: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[٣] [٤].

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾

سبب النّزول

ذكر أغلب المفسّرين أسباباً لنزول الآيات أعلاه، إلاّ أنّها لا تنسجم كثيراً مع الآيات هذه، وما هو معروف بكثرة شأنان للنّزول:

- إنّ هذه الآيات ناظرة إلى «عثمان بن عفّان» حيث كانت لديه أموال طائلة وكان ينفق منها، فقال له بعض أرحامه واسمه «عبد الله بن سعد»: إذا واصلت إنفاقك فلا

(١) نهج البلاغة، من كتاب له برقم ٢٨.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٥٥.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٦٨.
(٤) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص١٦٦.

يبقى عندك شيء، فقال عثمان: لدي ذنوب وأُريد أن أنال بإنفاقي رضا ربّي وعفوه. فقال له عبدالله: إن أعطيتني ناقتك بما عليها من جهاز تحمّلت ذنوبك وجعلتها في رقبتي، ففعل عثمان وأشهده على ما اتّفق عليه وامتنع من الإنفاق بعدئذ. «فنزلت الآيات وذمّت هذا العمل بشدّة، وأوضحت أنّه لا يمكن لأحد أن يحمل وزر الآخر وكلٌّ ينال جزاء سعيه»[1].

- إنّ الآية في شأن «الوليد بن المغيرة» إذ جاء إلى النّبي ﷺ وصبا إلى الإسلام فلامه بعض المشركين وقال: تركت ما كان عليه كبراؤنا وعددتهم ضلاّلاً وظننت أنّهم من أهل النار! فقال إنّي أخاف من عذاب الله. فقال له اللائم: إن أعطيتني شيئاً من مالك ورجعت إلى الشرك تحمّلت وزرك وجعلته في رقبتي! ففعل الوليد بن المغيرة ذلك إلاّ أنّه لم يُعط من المال المتّفق عليه إلاّ قليلاً. فنزلت الآية ووبّخته على ارتداده من الإيمان[2].

التّفسير

كلٌ يتحمّل مسؤولية أعماله

كان الكلام في الآيات السابقة في أن يجزي الله تعالى من أساء بإساءته ويثيب المحسنين بإحسانهم... وبما أنّه من الممكن أن يتصوّر أن يعذّب أحد بذنب غيره أو أن يتحمّل أحد وزر غيره، فقد جاءت هذه الآيات لتنفي هذا التوهّم في المقام، وبيّنت هذا الأصل الإسلامي المهمّ أنّ كلاً يرى نتيجة عمله، فقالت أوّلاً: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ أي تولّى من الإسلام أو الإنفاق!؟ ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾[3] بمعنى أنّه أنفق القليل ثمّ امتنع وأمسك وهو يظنّ أنّ غيره سيحمل وزره يوم القيامة..

فأيّ رجل جاءهم من الغيب و«القيامة» فأخبرهم بأنّه يمكن أخذ الرشوة وتحمّل آثام الآخرين؟ أو من جاءهم من قبل الله فأخبرهم بأنّ الله راض عن هذا التعامل إلاّ ما تدور في أذهانهم من أوهام؟ فهم يتّبعون ما يتوهّمون فراراً من تحمّل المسؤولية.

---

(١) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ومفسّرون آخرون أمثال الزمخشري في الكشّاف والفخر الرازي في التّفسير الكبير ويضيف الطبرسي أنّه ذكره ابن عبّاس والسدي والكلبي وجماعة من المفسّرين!.

(٢) ذكر هذا الشأن صاحب مجمع البيان والقرطبي وروح البيان... وروح المعاني وبعض التفاسير الأُخر.

(٣) ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ مأخوذ من الكدية ومعناه الصلابة، ثمّ أطلق على من يمسك والبخيل.

وبعد هذا تأتي الآية الأُخرى لتبيّن اعتراض القرآن الشديد على ذلك، وبيان لأصل كلّي مطّرد في الأديان السماوية كلّها فتقول: تُرى أهذا الذي امتنع عن الإنفاق وآمن بالوعود الخيالية، ويريد أن يخلص نفسه من عذاب الله بإنفاقه اليسير والزهيد من أمواله، أتغنيه هذه الخيالات والتصوّرات: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾[1].

﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾: هو ذلك النبي العظيم الذي أدّى حقّ رسالة الله، وبلّغ ما أمره به ووفى بجميع عهوده ومواثيقه، ولم يخش تهديد قومه وطاغوت زمانه، ذلك الإنسان الذي امتُحن بمختلف الامتحانات حتى بلغ به أن يقدّم ولده ليذبحه بأمر الله، وخرج منتصراً مرفوع الرأس من جميع هذه الامتحانات ونال المقام السامي لقيادة الأُمّة... كما نقرأ هذا المعنى في الآية (١٢٤) من سورة البقرة إذ تقول: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

وقال بعض المفسّرين في توضيح معنى الآية: إنّه بذل نفسه للنيران وقلبه للرحمن وولده للقربان وماله للأخوان[2].

ثمّ تأتي الآية الأُخرى لتقول: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

«الوِزْرُ» في الأصل مأخوذ من «الوَزَرِ» - على زنة خطر - ومعناه المأوى أو الكهف أو الملجأ الجبلي، ثمّ استعملت هذه الكلمة في الأعباء الثقيلة! لشباهتها الصخور الجبلية العظيمة، وأطلقت على الذنب أيضاً، لأنّه يترك عبئاً ثقيلاً على ظهر الإنسان.

والمراد من «الوازرة» من يتحمّل الوزر[3].

ولمزيد الإيضاح يضيف القرآن قائلاً: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[4].

«السعي» في الأصل معناه السير السريع الذي لا يصل مرحلة الركض، إلاّ أنّه يستعمل غالباً في الجدّ والمثابرة، لأنّ الإنسان يؤدّي حركات سريعة في جدّه ومثابرته سواءً كان ذلك في الخير أو الشرّ!

والذي يسترعي الانتباه أنّ القرآن لا يقول: وإن ليس للإنسان إلاّ ما أدّى من

---

(١) «وفى» مصدره توفية معناه البذل والأداء التامّ..

(٢) تفسير روح البيان، ج٩، ص٢٤٦.

(٣) أتت لفظة «الوازرة» لكونها وصفاً للنفس المحذوفة في الآية ومثلها تأنيث أُخرى.

(٤) كلمة «ما» في «ما سعى» مصدرية.

عمل. . . بل يقول: إلاّ ما سعى. وهذا التعبير إشارة إلى أنّ على الإنسان أن يجدّ ويثابر فذلك هو المطلوب منه وإن لم يصل إلى هدفه، فالعبرة بالنيّة، فإذا نوى خيراً أعطاه الله ثوابه، لأنّ الله يتقبّل النيّات والمقاصد لا الأعمال المؤدّاة فحسب.

أمّا الآية التالية فتقول: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ فالإنسان لا يرى غداً نتائج أعماله التي كانت في مسير الخير أو الشرّ فحسب، بل سيرى أعماله نفسها يوم الحساب، كما نجد التصريح بذلك في الآية (٣٠) من سورة آل عمران: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾.

كما ورد التصريح بمشاهدة الأعمال الصالحة والطالحة عند القيامة في سورة الزلزلة الآيتين(٧ و٨): ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾!

أمّا الآية الأخيرة من الآيات محل البحث فتقول: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾[1].

والمراد من ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ هو الجزاء الذي يكون طبقاً للعمل، وبالطبع هذا لا ينافي لطف الله وتفضّله بأن يضاعف الجزاء على الأعمال الصالحة عشرة أضعاف أو عشرات الأضعاف ومئاتها وإلى ما شاء الله! وما فسّره بعضهم بأنّ ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ معناه الجزاء الأكثر في شأن الحسنات، لا يبدو صحيحاً، لأنّ كلام هذه الآية يشمل الذنوب والأعمال الطالحة، بل الكلام فيها أساساً على الوزر والذنب «فلاحظوا بدقّة»!

بحوث

١ - ثلاثة أصول إسلامية مهمّة

أُشير في الآيات - آنفة الذكر - إلى ثلاثة أُصول من الأُصول الإسلامية، وقد أكّدت عليها الكتب السماوية السابقة وهي:

أ - كلّ إنسان مسؤول عن ذنبه ووزره.

---

(١) نائب الفاعل في ﴿يُجْزَىٰهُ﴾ ضمير يعود على الإنسان والهاء في ﴿يُجْزَىٰهُ﴾ تعود على العمل (مع حذف حرف الجرّ) وتقدير الآية هكذا ثمّ يجزى الإنسان بعمله أو على عمله الجزاء الأوفى. . . يقول الزمخشري في الكشّاف: يمكن أن لا يكون هناك حرف مقدّر لأنّه يقال يُجزى العبد سعيه. . . إلاّ أنّه ينبغي الالتفات إلى أنّه يقال مثلاً جزاه الله على عمله ويندر أن يقال جزاه الله عمله، والجزاء الأوفى يمكن أن يكون مفعولاً ثانياً أو مفعولاً مطلقاً.

ب - ليس للإنسان في آخرته إلاّ سعيه.

ج - يُجزي الله كلّ إنسان على عمله الجزاء الأوفى.

وهكذا فإنّ القرآن يشجب الكثير من الأوهام والخرافات التي يهتمّ بها عامّة الناس أو السائدة بينهم وكأنّها مذهب عقائدي!

والقرآن لا ينفي - عن هذا الطريق - عقيدة العرب المشركين الذين يعتقدون أنّ بإمكان الإنسان أن يتحمّل وزر الآخر فحسب! بل ينفي الاعتقاد الذي كان سائداً - ولا يزال - بين المسيحيين، وهو أنّ الله أرسل ابنه المسيح ليصلب ويذوق العذاب والألم ويحمل على عاتقه ذنوب المذنبين!.

وكذلك يحكم على جماعة من القسسة والرهبان بقبح عملهم لما كانوا يبيعونه من صكوك الغفران ومنح قطع الأراضي في الجنّة لمن يشاؤون، والعفو عن المخطئين!! فكلّ هذه الأُمور باطلة.

ومنطق العقل أيضاً يقتضي أنّ كلاً مسؤول عن عمله، ويعود عليه عمله بالنفع أو الضرر.

وهذا المبدأ الإسلامي يؤدّي إلى أن يسعى الإنسان إلى الخير وأن يجتهد بدلاً من الالتجاء إلى الخرافات أو أن يتحمّل آثامه غيره! وأن يتجنّب الذنب ويتّقي الله، وإذا ما اتّفق له أن عثرت قدمه في معصية، فعليه أن يبادر إلى التوبة ويجبر ذلك بالاستغفار والعمل الصالح!

وتأثير هذه العقيدة التربوية في الناس واضح تماماً ولا يقبل الإنكار، كما أنّ أثر تلك المعتقدات الجاهلية الفاسدة - المخرّب لا يخفى على أحد.

وصحيح أنّ هذه الآيات ناظرة إلى السعي والمثابرة والعمل للآخرة ورؤية الثواب في الآخرة! إلاّ أنّ الملاك والمعيار الأصلي له يتجلّى في الدنيا أيضاً... أي أنّ الأفراد المؤمنين لا ينبغي لهم أن يتوقّعوا من الآخرين أن يعملوا لهم ويحلّوا مشاكلهم الاجتماعية، بل عليهم أنفسهم أن ينهضوا ويجدّوا ويثابروا أبداً.

ويستفاد من هذه الآيات أصل حقوقي في المسائل الجزائية أيضاً، وهو أنّ الجزاء أو العقاب إنّما ينال المذنب الحقيقي، وليس لأحد أن يجعل إثم غيره في ذمّته!

٢ - سوء الاستفادة من مفاد الآية

كما بيّنا آنفاً، فإنّ هذه الآيات بقرينة الآيات التي قبلها والآيات التي بعدها ناظرة إلى

سعي الإنسان لأُمور الآخرة، إلاّ أنّه مع هذه الحال - لما كان ذلك على أساس حكم عقلي مسلّم به فيمكن تعميم السعي والجدّ حتى يشمل السعي لأُمور الدنيا ويشمل أيضاً الجزاء الدنيوي. إلاّ أنّ ذلك لا يعني أن يتأثّر بعضهم بالمذاهب الاشتراكية فيقول: إنّ مفهوم الآية أنّ المالكية إنّما تحصل عن طريق العمل فحسب، وبذلك يخطّئ قانون الإرث والمضاربة والإجارة وأمثالها!

والعجب أنّه ينادي بالإسلام ويستدلّ بآيات القرآن أيضاً مع أنّ مسألة الإرث من الأُصول الإسلامية القطعية، وكذلك الخمس والزكاة! علماً بأنّه لم يسع الوارث إلى إرثه ولا مستحقّو الزكاة أو الخمس إليهما، ولم يقع سعي في مواطن النذر والوصايا ومع كلّ ذلك فإنّ القرآن الكريم ذكر هذه الأُمور.

وبتعبير آخر أنّ هذا هو الأصل، إلاّ أنّه غالباً ما يوجد استثناء أمام كلّ أصل، فمثلاً الولد يرث أباه هذا أصل إسلامي، لكن متى قتل الولد أباه أو خرج عن الإسلام حُرم حقّ الإرث.

وكذلك نتيجة سعي كلّ شخص تعود عليه أو إليه، هذا هو الأصل، إلاّ أنّه لا مانع من أن يعطي مقدار من المال للآخر طبقاً لقرار الإجارة بين الطرفين، وهو أصل قرآني[1] كذلك، أو أن ينتقل المال عن طريق النذر أو الوصية، كما صرّح به القرآن الكريم.

٣ - الجواب على سؤالين

يرد هنا سؤالان وينبغي أن نجيب عليها:

أوّلاً: إذا كان ما يناله الإنسان يوم القيامة هو نتيجة سعيه، فما معنى الشفاعة إذاً؟!

والثاني: إنّنا نقرأ في الآية (٢١) من سورة الطور في شأن أهل الجنّة: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾! مع أنّ الذريّة لم تسع في هذا المضمار، ثمّ إنّنا نجد في الرّوايات الإسلامية أنّ الإنسان إذا عمل عملاً صالحاً فإنّ نتيجة ذلك تنعكس على أبنائه أيضاً.

والجواب على هذه الأسئلة جملة واحدة وهي أنّ القرآن يقول إنّ الإنسان ليس له أن يأخذ أكثر من سعيه وعمله، إلاّ أنّه لا يمنع أن ينال بعض الناس اللائقين نعماً أُخر عن طريق اللطف والتفضّل الإلهي.

---

(١) جاء هذا الأصل في قصّة موسى وشعيب في سورة القصص الآية (٢٧).

فالاستحقاق شيء، والتفضّل شيء آخر! كما أنّ الله يضاعف الحسنات عشرات المرّات بل مئات المرّات وآلافها أحياناً.

ثمّ - الشفاعة - كما ذكرنا في محلّه - ليست اعتباطاً... - بل هي بحاجة إلى السعي والجدّ وإيجاد العلاقة بالشافع أيضاً، وكذلك الأمر في شأن ذريّة الأشخاص الصالحين، فإنّ القرآن يقول أيضاً: ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ﴾!.

٤ - صحف إبراهيم وموسى

«الصحف» جمع صحيفة، وتطلق هذه الكلمة على كلّ شيء واسع كما يقال مثلاً صحيفة الوجه، ثمّ استعملوا هذه الكلمة على صفحات الكتاب.

فالمراد من صحف موسى هي التوراة النازلة عليه وأمّا صحف إبراهيم فما نزل عليه من كتاب سماوي أيضاً.

ينقل المرحوم الطبرسي في مجمع البيان حديثاً عن النّبي ﷺ في تفسير سورة الأعلى وخلاصته ما يلي:

يسأل أبو ذرّ النّبي: يارسول الله كم عدد الأنبياء؟

فيجيبه النّبي ﷺ أنّهم مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألفاً.

فيسأله ثانيةً عن الرسل منهم: كم المرسلون؟

فيجيبه النّبي: ثلاثمائة وثلاثة عشر وبقيّتهم أنبياء... «والرّسول هو المأمور بالإنذار والإبلاغ في حين أنّ النّبي أعمّ منه مفهوماً».

ويسأل أبو ذرّ مرّة أُخرى: كان آدم نبيّاً؟!

فيجيب النّبي ﷺ: نعم، كلّمه الله وخلقه بيده.

فيسأله أبو ذرّ: كم أنزل الله من كتاب؟ فيجيب النّبي: مئة وأربعة كتب أنزل الله منها على آدم عشر صحف، وعلى شيث خمسين صحيفة وعلى أخنوخ وهو «إدريس» ثلاثين صحيفة، وهو أوّل من خطّ بالقلم، وعلى إبراهيم عشر صحائف، والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان»[1].

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٤٧٦ وذكر هذا الحديث في روح البيان أيضاً، ج٩، ص٢٤٦.

٥ - المسؤولية عن الأعمال في كتب السابقين

الذي يلفت النظر أنّ التّوراة الحالية أوردت المضمون الذي ذكرته الآيات محلّ البحث في كتاب حزقيل إذ جاء فيه:

«الجاني الذي يذنب سيموت، والابن لا يحمل عبء أبيه والأب لا يحمل ذنب ابنه»(١).

وجاء هذا المعنى ذاته أيضاً في مورد القتل في سفر التثنية من التوراة.

«لا يقتل الآباء عوضاً عن الأبناء ولا يقتل الأبناء عوضاً عن الآباء، فكلّ يقتل بذنبه»(٢).

وبالطبع فإنّ كتب الأنبياء الأصلية ليست في متناول اليد، وإلاّ لكان من الممكن أن نعثر على موارد أكثر في شأن هذا الأصل وأمثاله.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾

التّفسير

كلّ شيء ينتهي إليه

في هذه الآيات تتجلّى بعض صفات الله التي ترشد الإنسان إلى مسألة التوحيد وكذلك المعاد أيضاً.

ففي هذه الآيات وإكمالاً للبحوث الواردة في شأن جزاء الأعمال يقول القرآن: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾.

وليس الحساب والثواب والجزاء في الآخرة بيد قدرته فحسب، فإنّ الأسباب والعلل جميعها تنتهي سلسلتها إلى ذاته المقدّسة، وجميع تدبيرات هذا العالم تنشأ من تدبيراته،

(١) كتاب حزقيل، الفصل ١٨ ص٢٠. (٢) التوراة، سفر التثنية، باب ٢٤ الرقم ١٦.

وأخيراً فإنّ ابتداء هذا العالم والموجودات وانتهاؤها كلّها منه وإليه، وتعود إلى ذاته المقدّسة.

ونقرأ في بعض الرّوايات في تفسير هذه الآية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إذا انتهى الكلام إلى الله فأمسكوا»[1].

أي لا تتكلّموا في ذات الله فإنّ العقول تحار فيه ولا تصل إلى حدّ فإنّه لا يمكن للعقول المحدودة أن تفكّر في ما هو غير محدود لأنّه مهما فكّرت العقول فتفكيرها محدود وحاشا لله أن يكون محدوداً.

وبالطبع فإنّ هذا التّفسير يبيّن مفهوماً آخر لهذه الآية ولا ينافي ما ذكرناه آنفاً ويمكن الجمع بين المفهومين في الآية.

ثمّ يضيف القرآن في الآية التالية مبيّناً حاكمية الله في أمر ربوبيته وانتهاء أُمور هذا العالم إليه فيقول: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ [2] مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾!

وهذه الآيات الأربع وما قبلها في الحقيقة هي بيان جامع وتوضيح طريف لمسألة انتهاء الأُمور إليه وتدبيره وربوبيته، لأنّها تقول: إنّ موتكم وحياتكم بيده واستمرار النسل عن طريق الزوجين بيده، وكلّ ما يحدث في الحياة فبأمره، فهو يضحك، وهو يبكي، وهو يميت، وهو يحيي، وهكذا فإنّ أساس الحياة والمعوّل عليه من البداية حتى النهاية هو ذاته المقدّسة.

وقد جاء في بعض الأحاديث ما يوسع مفهوم الضحك والبكاء في هذه الآية ففسّرت بأنّه سبحانه: أبكى السماء بالمطر وأضحك الأرض بالنبات[3].

وقد أورد بعض الشعراء هذا المضمون في شعره فقال:

إنّ فصل الربيع فصل جميل تضحك الأرض من بكاء السماء

وما يسترعي النظر أنّ القرآن أشار إلى صفتي الضحك والبكاء دون سائر أفعال

---

(١) تفسير علي بن إبراهيم، ج ٢، ص ٣٣٨، طبقاً لما جاء في تفسير نور الثقلين، ج٥، ص١٧٠.

(٢) هذه الأفعال وإن جاءت بصيغة الماضي إلاّ أنّها تعطي معنى الفعل المضارع أيضاً والدلالة على الدوام. (فلاحظوا بدقّة).

(٣) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص١٧٢، ح ١٠٢.

الإنسان، لأنّ هاتين الصفتين خاصّتان بالإنسان وغير موجودتين في الحيوانات الأُخر أو نادرتان جدّاً.

أمّا تصوير انفعالات الإنسان عند الضحك أو البكاء وعلاقتهما بالتغيّرات في نفس الإنسان وروحه فإنّها غريبة وعجيبة جدّاً، وكلّ هذه الأُمور في مجموعها يمكن أن تكون آية واضحة من آيات المدبّر الحقّ، بالإضافة إلى التناسب الموجود بين الضحك والبكاء والحياة والفناء!

وعلى كلّ حال، فانتهاء جميع الأُمور إلى تدبير الله وربوبيته لا ينافي أصل الاختيار وحرية إرادة الإنسان، لأنّ الاختيار وحرية الإرادة في الإنسان أيضاً من قِبَلِ الله وتدبيره وتنتهي إليه!.

وبعد ذكر الأُمور المتعلّقة بالربوبية والتدبير من قِبَل الله يتحدّث القرآن عن موضوع المعاد فيقول: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾.

﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾: معناها الإيجاد والتربية، و﴿ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ ليست شيئاً سوى القيامة!

والتعبير بـ ﴿عَلَيْهِ﴾ من جهة أنّ الله لمّا خلق الناس وحمّلهم الوظائف والمسؤوليات وأعطاهم الحرية وكان بينهم المطيعون وغير المطيعون والظلمة والمظلومون ولم يبلغ أي من هؤلاء جزاءه النهائي في هذا العالم، اقتضت حكمته أن تكون نشأة أُخرى لتتحقّق العدالة.

أضف إلى ذلك فإنّ الحكيم لا يخلق هذا العالم الواسع لأيّام أو سنوات محدودة بما فيها من مسائل غير منسجمة، فلابدّ أن يكون مقدّمة لحياة أوسع تكمن فيها قيمة هذا الخلق الواسع، وبتعبير آخر إذا لم تكن هناك نشأة أُخرى فإيجاد هذا العالم لا يبلغ هدفه النهائي!

وممّا ينبغي الالتفات إليه أنّ الله سبحانه جعل هذا الوعد لعباده وعداً محتوماً على نفسه، وصدق كلام الله يوجب أن لا يخلف وعده.

ثمّ يضيف القرآن في الآية التالية قائلاً: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ فالله سبحانه لم يرفع حاجات الإنسان المادية عنه بلطفه العميم فحسب، بل أولاه غنى يرفع عنه حاجاته المعنوية من أُمور التربية والتعليم والتكامل عن طريق إرسال الرسل إليه وإنزال الكتب السماوية وإعطائه المواهب العديدة.

﴿وَأَقْنَىٰ﴾: فعل مشتق من غني ومعناه عدم الحاجة.

﴿وَأَقْنَىٰ﴾ : فعل مشتقّ من قنية على وزن جِزيَة، ومعناها الأموال التي يدّخرها الإنسان[١].

فيكون معنى الآية على هذا النحو: هو أغنى أي رفع الحاجات الفعلية، وأقنى معناه إيلاء المواهب التي تدخّر سواء في الأُمور المادية كالحائط أو البستان والأملاك وما شاكلها، أو الأُمور المعنوية كرضا الله سبحانه الذي يُعدّ أكبر «رأس مال» دائم!

وهناك تفسير آخر لأقنى، وهو أنّه ما يقابل أغنى، أي أنّ الغنى والفقر بيد قدرته، نظير ذلك ما جاء في الآية (٢٦) من سورة الرعد: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾.

إلاّ أنّ هذا التّفسير لا ينسجم مع ما ورد عن «أقنى» من معنى في كتب اللغة والآية المذكورة في هذا الصدد لا يمكن أن تكون «شاهداً» على هذا التّفسير.

أمّا آخر آية من الآيات محلّ البحث فتقول: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾.

تخصيص القرآن ﴿ٱلشِّعْرَىٰ﴾ النجم المعروف في السماء بالذكر، بالإضافة إلى أنّه أكثر النجوم لمعاناً ويطلع عند السحر في مقربة من الجوزاء ممّا يلفت النظر تماماً... فإنّ طائفةً من المشركين العرب كانت تعبده، فالقرآن يشير إلى أنّ الأولى بالعبادة هو الله لأنّه ربّ الشعرى «وربّكم».

وينبغي الالتفات - ضمناً - أنّ هناك نجمين معروفين باسم الشعرى أحدهما إلى الجنوب ويُدعى بنجم الشعرى اليماني «لأنّ اليمن جنوب الجزيرة العربية» والآخر نجم الشعرى الشامي الواقع في الجهة الشمالية «والشام شمال الجزيرة أيضاً» إلاّ أنّ المعروف والمشهور هو الشعرى اليماني.

وهناك لطائف ومسائل خاصّة في هذا النجم ﴿ٱلشِّعْرَىٰ﴾ سنتحدّث عنه بعد قليل.

بحوث

١ - كلّ الدلائل تشير إليه

إنّ ما تثيره هذه الآيات في الحقيقة إشارة إلى هذا المعنى، وهو أنّ أي نوع من أنواع التدبير في هذا العالم إنّما يعود إلى ذات الله المقدّسة، بدءاً من مسألة الموت والحياة، إلى خلق الإنسان من نطفة لا قيمة لها، وكذلك الحوادث المختلفة التي تقع في حياة

(١) راجع المفردات للراغب، مادّة قني.

الإنسان فتضحكه تارةً وتبكيه أُخرى، كلّ ذلك من تدبير الله سبحانه.

والنجوم والكواكب المشرقة في السماء تطلع وتغيب بأمره وتحت ربوبيته.

وفي الأرض الغنى وعدم الحاجة وما يقتنيه الإنسان كلّ ذلك يعود إلى ذاته المقدّسة.

وبالطبع فإنّ النشأة الأُخرى بأمره أيضاً، لأنّها حياة جديدة وامتداد لهذه الحياة واستمرارها.

هذا البيان - يبرز خطّ التوحيد من جهة... ومن - جهة أُخرى - خطّ المعاد، لأنّ خالق الإنسان من نطفة لا قيمة لها في الرحم قادر على تجديد حياته أيضاً.

وبتعبير آخر، إنّ جميع هذه الأُمور كاشفة عن توحيد أفعال الله وتوحيد ربوبيته... أجل كلّ هذه الأصداء من إيحائه!

٢ - عجائب نجم الشعرى

«نجم الشعرى» كما أشرنا إليه آنفاً من أشدّ النجوم في السماء لمعاناً وإشراقاً وهو معروف بنجم الشعرى اليماني، لأنّه يقع في جهة جنوب الجزيرة العربية، وبما أنّ اليمن يقع في جنوب الجزيرة أيضاً فقد أطلق عليه «باليماني»!

وكانت طائفة من العرب كقبيلة «خزاعة» تقدّس هذا النجم وتعبده وتعتقد أنّه مبدأ الموجودات على الأرض... فتأكيد القرآن على أنّ الله ربّ الشعرى هو لإيقاظ هذه القبيلة وأمثالها من غفوتها، لئلاّ يُشتبه المخلوق بالخالق ويُجعل المربوب مكان الربّ كما كانت القبيلة آنفة الذكر عليه.

هذا النجم العجيب الخلقة لإشراقه الكثير عُدّ ملك النجوم وله أسرار وعجائب نشير إليها في هذا البحث مع ملاحظة أنّ هذه الحقائق كانت في ذلك العصر مجهولة عند العرب وغيرهم عن الشعرى فإنّ تأكيد القرآن على هذا الموضوع ذو معنى غزير!

أ - طبقاً للتحقيقات التي أُجريت في المراصد المعروفة في العالم عن «الشعرى» ظهر أنّ حرارة هذا النجم تبلغ ١٢٠ ألف درجة سانتيغراد!.

مع العلم أنّ حرارة سطح الشمس لا تتجاوز ٦٥٠٠ درجة سانتيغراد وهذا التفاوت بين الحرارتين يبيّن مدى حرارة الشعرى بالنسبة إلى الشمس.

ب - الجرم المخصوص لهذا النجم أثقل وزناً من الماء بمقدار خمسين ألف مرّة تقريباً، أي أنّ وزن الليتر من الماء على الشعرى يعادل خمسين طنّاً على سطح الأرض!

مع أنّ من بين مجموع المنظومة الشمسية يعدّ كوكب عطارد أكثر الأجرام في وزنه النوعي ولا يتجاوز وزنه النوعي ستّة أضعاف الوزن النوعي للماء!

فينبغي أن نعرف بهذا الوصف كم هذا النجم مثير للدهشة والعجب، ومن أي عنصر يتألّف حتى صار مضغوطاً بهذا المستوى؟!

ج - يظهر نجم الشعرى - في قرننا - عند فصل الشتاء إلاّ أنّ هذا النجم أو الكوكب كان يظهر في عصر منجمّي مصر في الصيف! وهو كوكب كبير يعادل عشرين ضعفاً من كوكب الشمس، ومسافته تبعد عن الأرض أكثر من مسافة الشمس بمقدار كبير وقد ذكروا أنّ مسافة بين الشعرى والأرض تعادل مليون مرّة المسافة بيننا وبين الشمس.

ونعرف أنّ سرعة النور في الثانية ٣٠٠ ألف ألف متر (ثلاثمائة ألف كيلومتر) وأنّ نور الشمس يصل إلينا خلال ثماني دقائق وثلاث عشرة ثانية مع أنّها تبعد عنّا مسافة خمسة عشر مليون كيلو «متراً»... في حين أنّ شعاع الشعرى لا يصلنا إلاّ بعد عشر سنين، والآن قدّروا كم هي الفاصلة بين الشعرى والأرض!

د - لكوكب الشعرى نجم تابع له يدور حوله وهو من نجوم السماء الغامضة. وأوّل من اكتشفه عالم يدعى بسل عام ١٨٤٤ م، إلاّ أنّه رئي عام ١٨٦٢ بالمرصد «التلسكوب» ويكمل هذا النجم دورته حول الشعرى في ٥٠ عاماً[١].

كلّ هذا يدلّ أنّ تعابير القرآن إلى أيّ مدى عميقة وذات معنى غزير، وفي طيّات تعابيره حقائق كامنة إذا لم يقدّر لها أن تعرف في عصر نزولها فإنّها تتجلّى بمرور الزمان.

٣ - حديث عميق المحتوى عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم

جاء في بعض الأحاديث أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم مرّ بقوم يضحكون فقال: لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً فنزل عليه جبرئيل فقال: إنّ الله هو أضحك وأبكى فرجع النّبي إليهم وقال: ما خطوت أربعين خطوة حتى أتاني جبرئيل فقال: ائت هؤلاء، فقل لهم: إنّ الله أضحك وأبكى[٢].

وفي ذلك إشارة إلى أنّ المؤمن لا يلزمه أن يبكي دائماً، فالبكاء من خوف الله في محلّه مطلوب، والضحك في محلّه مطلوب أيضاً، لأنّهما من الله!

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادّة: شعرى.

(٢) تفسير الدرّ المنثور، ج٦، ص١٣٠.

وعلى كلّ حال، فإنّ هذه التعابير لا تنافي أصل الاختيار وحرية الإرادة في الإنسان، لأنّ الهدف هو بيان علّة العلل وخالق هذه الغرائز والإحساسات!

وعندما نقرأ في الآية (٨٢) من سورة التوبة قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ فهذا الأمر وارد في المنافقين، لأنّ الآيات التي قبل هذه الآية وبعدها تشهد بذلك!

الذي يلفت النظر أنّ القرآن يقسم في بداية السورة بالنجم فيقول: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ وفي الآية محلّ البحث يقول في بيان صفات الله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ فإذا جمعنا الآيتين جنباً إلى جنب فهمنا لِمَ لا يصحّ عبادة الشعرى، لأنّ كوكب الشعرى يأفل أيضاً، وهو أسير في قبضة قوانين الخلق!

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾

التّفسير

ألا تكفي دروس العبرة هذه؟!

هذه الآيات - كالآيات المتقدّمة - تستكمل المسائل المذكورة في الصحف الأُولى وما جاء في صحف إبراهيم وموسى.

وكانت الآيات المتقدّمة قد ذكرت عشر مسائل ضمن فصلين:

الأوّل: كان ناظراً إلى مسؤولية كلّ إنسان عن أعماله.

الثاني: ناظر إلى انتهاء جميع الخطوط والحوادث إلى الله سبحانه! أمّا الآيات محلّ البحث فتتحدّث عن مسألة واحدة - وإن شئت قلت - تتحدّث عن موضوع واحد ذلك هو مجازاة أربع أُمم من الأُمم المنحرفة الظالمة وإهلاكهم، وفي ذلك إنذار لأُولئك الذين يلوون رؤوسهم عن طاعة الله ولا يؤمنون بالمبدأ والمعاد[1].

(١) ينبغي الالتفات بأنّ هذه المسائل أو المواضيع المشار إليها في القرآن في أَحَدَ عَشرَ فصلاً، كلّها بدأت بأنّ: فأوّلها جاء في الآية (٣٨) ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وآخرها ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾.

فتبدأ الآية الأُولى من الآيات محلّ البحث فتقول: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ وصف عاد بـ ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ إمّا لقدمها حتى أنّ العرب تطلق على كلّ قديم أنّه «عاديّ» أو لوجود أُمّتين في التاريخ باسم «عاد» والأُمّة المعروفة التي كان نبيّها هود عَلَيْهِ السَّلَامُ تُدعى بـ «عاد الأُولى»(١).

ويضيف القرآن في الآية التالية قائلاً: ﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾.

ويقول في شأن قوم نوح: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾.

لأنّ نبيّهم نوحاً عاش معهم زماناً طويلاً، وبذل قصارى جهده في إبلاغهم ونصحهم، فلم يستجب لدعوته إلاّ قليل منهم، وأصرّوا على شركهم وكفرهم وعتوّهم واستكبارهم وإيذائهم نبيّهم نوحاً وتكذيبهم إيّاه وعبادة الأوثان بشكل فظيع كما سنعرض تفصيل ذلك في تفسير سورة نوح إن شاء الله.

وأمّا رابعة الأُمم فهي «قوم لوط» المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ﴾.

والظاهر أنّ زلزلة شديدة أصابت حيّهم وقريتهم فقذفت عماراتهم نحو السماء بعد اقتلاعها من الأرض وقلبتها على الأرض، وطبقاً لبعض الرّوايات كان جبرئيل قد اقتلعها بإذن الله وجعل عاليها سافلها ودمّرها تدميراً... ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾(٢).

أجل... لقد أُمطروا بحجارة من السماء، فغشّت حيّهم وعماراتهم المنقلبة ودفنتها عن آخرها.

وبالرغم من أنّ التعبير في هذه الآية والآية السابقة لم يصرّح بقوم لوط، إلاّ أنّ المفسّرين فهموا منه كما فهموا من الآية (٧٠) من سورة التوبة والآية (٩) من سورة الحاقة هذا المعنى من عبارة المؤتفكات، وقد احتمل بعضهم أنّ هذا التعبير يشمل كلّ المدن المقلوبة والنازل عليها العذاب من السماء، إلاّ أنّ آيات القرآن الأُخر تؤيّد ما ذهب إليه المشهور بين المفسّرين!.

وقد جاء في الآية (٨٢) من سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ﴾!

وجاء في تفسير علي بن إبراهيم أنّ المؤتفكة «المدينة المقلوبة» هي «البصرة»! لأنّه

---

(١) تفسير مجمع البيان، وتفسير روح المعاني، وتفسير الرازي.

(٢) «ما» في ﴿مَا غَشَّىٰ﴾ يمكن أن تكون مفعولاً به أو فاعلاً نظير ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ إلاّ أنّ الاحتمال الأوّل أكثر انسجاماً مع ظاهر الآية... وعلى كلّ حال فإنّ هذا التعبير يأتي للتهويل!

ورد في رواية أنّ أمير المؤمنين علياً خاطب أهلها بالقول: يا أهل البصرة ويا أهل المؤتفكة ويا جند المرأة وأتباع البهيمة!»[(١)].

غير أنّه من المعلوم أنّ هذا التعبير في كلام الإمام علي عليه السلام هو من باب التطبيق والمصداق، لا التّفسير، لاحتمال أن يكون أهل البصرة يومئذ فيهم شبه بأهل المؤتفكة من الناحية الأخلاقية... وما ابتلي به قوم لوط من عذاب الله!

وفي ختام هذا البحث يشير القرآن إلى مجموع النعم الوارد ذكرها في الآيات المتقدّمة ويلمح إليها بصورة استفهام إنكاري قائلاً: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾؟

فهل تشكّ وتتردّد بنعم الله، كنعمة الحياة أو أصل نعمة الخلق والإيجاد، أو نعمة أنّ الله لا يأخذ أحداً بوزر أحد؛ وما جاء في الصحف الأُولى وأكّده القرآن؟!

وهل من شاكٍّ بهذه النعمة، وهي أنّ الله أبعدكم عن البلاء الذي عمّ الأُمم السابقة بكفرهم وشملكم بعفوه ورحمته؟!

أو هل هناك شكّ في نعمة نزول القرآن وموضوع الرسالة والهداية؟

صحيح أنّ المخاطب بالآية هو شخص النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلاّ أنّ مفهومها شامل لجميع المسلمين، بل الهدف الأصلي من هذه الآية إفهام الآخرين.

﴿تَتَمَارَىٰ﴾[(٢)] مشتقّ من تماري ومعناه المحاجّة والمجادلة المقرونة بالشكّ والتردّد!

﴿ءَالَآءِ﴾ جمع: ألأ، أو إلىء - على وزن فعل - والألىء معناها النعمة... وبالرغم من أنّ بعض ما جاء في الآيات المتقدّمة ومن ضمنها إهلاك الأُمم السابقة وتعذيبهم ليس مصداقاً للنعمة... إلاّ أنّه من جهة كونه درساً وعبرة «للآخرين» ولأنّ الله لم يعذّب المسلمين وحتى الكفّار المعاصرين لهم بذلك العذاب يمكن اعتبار ذلك نعمة عظيمة.

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾﴾

(١) تفسير الصافي، ذيل الآيات مورد البحث.

(٢) بالرغم من أنّ باب التفاعل في اللغة العربية يدلّ على اشتراك طرفين في الفعل، إلاّ أن تتمارى هنا مخاطب به شخص واحد، وهو إمّا لتعدّد الحالات أو للتأكيد... «فلاحظوا بدقّة».

التّفسير

اسجدوا له جميعاً

تعقيباً على الآيات المتقدّمة التي كانت تتحدّث عن إهلاك الأُمم السالفة لظلمهم، تتوجّه هذه الآيات - محلّ البحث - إلى المشركين والكفّار ومنكري دعوة النّبي ﷺ فتخاطبهم بالقول: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي النّبي أو القرآن نذير كمن سبقه من المنذرين.

وقوله عن القرآن أو النّبي ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ يعني أنّ رسالة محمّد وكتابه السماوي لم يكن (أي منهما) موضوعاً لم يسبق إليه، فقد أنذر الله أُمماً بمثله في ما مضى من القرون، فعلام يكون ذلك مثار تعجّبكم؟

وقال بعض المفسّرين إنّ المراد من ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾ هو الإشارة إلى الإخبار الوارد في الآيات المتقدّمة عن نهاية الأُمم السالفة، لأنّ هذا الإخبار بنفسه نذير أيضاً، إلاّ أنّ التّفسيرين السابقين أنسب كما يبدو.

ومن أجل أن يلتفت المشركون والكفّار إلى الخطر المحدق بهم ويهتّموا به أكثر يضيف القرآن قائلاً: ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ﴾.

أجل، فقد اقترب وعد القيامة فأعدّوا أنفسكم للحساب، والتعبير بـ ﴿ٱلْءَازِفَةُ﴾ عن القيامة هو لاقترابها وضيق وقتها، لأنّ الكلمة هذه مأخوذة من الأزف على وزن نَجَف. ومعناه ضيق الوقت، وبالطبع فإنّ مفهومه يحمل الاقتراب أيضاً. . .

وتسمية القيامة بالآزفة في القرآن بالإضافة إلى هذه الآية محلّ البحث، واردة في الآية (١٨) من سورة غافر أيضاً. . . وهو تعبير بليغ وموقظ، وهذا المعنى جاء بتعبير آخر في سورة القمر (الآية الأولى) ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾، وعلى كلّ حال فإنّ اقتراب القيامة مع الأخذ بنظر الاعتبار عمر الدنيا المحدود والقصير يمكن إدراكه بوضوح، خاصّة ما ورد أنّ من يموت تقوم قيامته الصغرى.

ثمّ يضيف القرآن قائلاً: إنّ المهمّ هو أنّه لا أحد غير الله بإمكانه إغاثة الناس في ذلك اليوم والكشف عمّا بهم من شدائد: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾[1].

---

(١) الضمير في ﴿لَهَا﴾ يعود على ﴿ٱلْءَازِفَةُ﴾ وتأنيث الكاشفة، لأنّها صفة للنفس المحذوفة، وقال آخرون هي تاء المبالغة كالتاء في العلاّمة.

«الكاشفة» هنا معناه مزيحة الشدائد. إلاّ أنّ بعضهم فسّرها بأنّها العامل لتأخير القيامة، وبعضهم فسّرها بأنّها الكاشفة عن تاريخ وقوع يوم القيامة، إلاّ أنّ المعنى الأوّل أنسب ظاهراً.

وعلى كلّ حال، فالحاكم والمالك وصاحب القدرة في ذلك الحين وكلّ حين هو الله سبحانه، فإذا أردتم النجاة فالتجئوا إليه وإلى لطفه وإذا طلبتم الدّعة والأمان فاستظلّوا بالإيمان به.

ويضيف القرآن في الآية التالية قائلاً: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾.

ولعلّ هذه الجملة إشارة إلى القيامة الوارد ذكرها آنفاً، أو أنّها إشارة إلى القرآن، لأنّه ورد التعبير عنه بـ﴿الْحَدِيثِ﴾ في بعض الآيات كما في الآية ٣٤ من سورة الطور، أو أنّ المراد من ﴿الْحَدِيثِ﴾ هو ما جاء من القصص عن هلاك الأُمم السابقة أو جميع هذه المعاني.

ثمّ يقول مخاطباً: ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي في غفلة مستمرّة ولهو وتكالب على الدنيا، مع أنّه لا مجال للضحك هنا ولا الغفلة والجهل، بل ينبغي أن يُبكى على الفرص الفائتة والطاعات المتروكة، والمعاصي المرتكبة، وأخيراً فلابدّ من التوبة والرجوع إلى ظلّ الله ورحمته!

وكلمة سامدون مشتقّة من سمود على وزن جمود - ومعناه اللهو والانشغال ورفع الرأس للأعلى تكبّراً وغروراً، وهي في أصل استعمالها تطلق على البعير حين يرفل في سيره ويرفع رأسه غير مكترث بمن حوله.

فهؤلاء المتكبّرون المغرورون كالحيوانات همّهم الأكل والنوم، وهم غارقون باللذائذ جاهلون عمّا يحدق بهم من الخَطر والعواقب الوخيمة والجزاء الشديد الذي سينالهم.

ويقول القرآن في آخر آية من الآيات محلّ البحث - وهي آخر آية من سورة النجم أيضاً - بعد أن بيّن أبحاثاً متعدّدة حول إثبات التوحيد ونفي الشرك: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا۩﴾.

فإذا أردتم أن تسيروا في الصراط المستقيم والسبيل الحقّ فاسجدوا لذاته المقدّسة فحسب، إذ لله وحده تنتهي الخطوط في عالم الوجود، وإذا أردتم النجاة من العواقب الوخيمة التي أصابت الأُمم السالفة لشركهم وكفرهم فوقعوا في قبضة عذاب الله، فاعبدوا الله وحده.

الذي يجلب النظر - كما جاء في روايات متعدّدة - أنّ النّبي عندما تلا هذه الآية وسمعها المؤمنون والكافرون سجدوا لها جميعاً.

ووفقاً لبعض الرّوايات أنّ الوحيد الذي لم يسجد لهذه الآية عند سماعها هو «الوليد ابن المغيرة» [لعلّه لم يستطع أن ينحني للسجود] فأخذ قبضة من التراب ووضعها على جبهته فكان سجوده بهذه الصورة.

ولا مكان للتعجّب أن يسجد لهذه الآية حتى المشركون وعبدة الأصنام، لأنّ لحن الآيات البليغ من جهة، ومحتواها المؤثّر من جهة أُخرى وما فيها من تهديد للمشركين من جهة ثالثة، وتلاوة هذه الآيات على لسان النّبي ﷺ في المرحلة الأُولى من نزول الآيات عن لسان الوحي من جهة رابعة... كلّ هذه الأُمور كان لها دور في التأثير والنفوذ إلى القلوب حتى أنّه لم يبق أيّ قلب إلاّ اهتزّ لجلال آيات الله وألقى عنه أستار الضلال وحجب العناد - ولو مؤقتاً - ودخله نور التوحيد المشعّ!.

وإذا تلونا الآية - بأنفسنا - وأنعمنا النظر فيها بكلّ دقّة وتأمّل وحضور قلب وتصوّرنا أنفسنا أمام النّبي ﷺ وفي جوّ نزول الآيات وبقطع النظر - عن اعتقادنا الإسلامي - نجد أنفسنا ملزمين على السجود عند تلاوتنا لهذه الآية وأن نحني رؤوسنا إجلالاً لربّ الجلال!

وليست هذه هي المرّة الأُولى التي يترك القرآن بها أثره في قلوب المنكرين ويجذبهم إليه دون اختيارهم، إذ ورد في قصّة «الوليد بن المغيرة» أنّه لمّا سمع آيات فصّلت وبلغ النّبي (في قوله) إلى الآية: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[1] قام من مجلسه واهتزّ لها وجاء إلى البيت فظنّ جماعة من المشركين أنّه صبا إلى دين محمّد.

فبناءً على هذا، لا حاجة أن نقول بأنّ جماعة من الشياطين أو جماعة من المشركين الخبثاء حضروا عند النّبي ولمّا سمعوا النّبي يتلو الآية: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾[2] بسطوا ألسنتهم وقالوا: تلك الغرانيق العُلى!! ولذلك انجذب المشركون لهذه الآيات فسجدوا أيضاً عند تلاوة النّبي آية السجدة!

لأنّنا كما أشرنا آنفاً في تفسير هذه الآيات. إنّ الآيات التي تلت هذه الآيات عنّفت

---

(١) سورة فصّلت، الآية: ١٣.

(٢) سورة النّجم، الآيتان: ١٩ - ٢٠.

المشركين ولم تدع مجالا للشكّ والتردّد والخطأ لأي أحد (في مفهوم الآية) [لمزيد الإيضاح يراجع تفسير الآيتين (١٩ و٢٠) من هذه السورة].

وينبغي الالتفات أيضاً إلى أنّ الآية الآنفة يجب السجود عند تلاوتها، ولحن الآية التي جاءت مبتدئةً بصيغة الأمر - والأمر دالّ على الوجوب - شاهد على هذا المعنى.

وهكذا فإنّ هذه السورة ثالثة السور الوارد فيها سجود واجب، أي هي بعد سورة الم السجدة، وحم السجدة... وإن كان بعضهم يرى بأنّ أوّل سورة فيها سجود واجب نزلت على النّبي من الناحية التاريخية - هي هذه السورة.

اللهمّ أنر قلوبنا بأنوار معرفتك لئلاّ نعبد سواك شيئاً ولا نسجد إلاّ لك.

اللهمّ إنّ مفاتيح الرحمة والخير كلّها بيد قدرتك، فارزقنا من خير مواهبك وعطاياك، أي رضاك ياربّ العالمين.

اللهمّ ارزقنا بصيرة في العِبَر - لنعتبر بالأُمم السالفة وعاقبة ظلمها وأن نحذر الاقتفاء على آثارهم.

سورة القمر

مكية وعدد آياتـها خمس وخمسون

محتوى السورة

تحوي هذه السّورة خصوصيات السور المكيّة التي تتناول الأبحاث الأساسيّة حول المبدأ والمعاد، وخصوصاً العقوبات التي نزلت بالأُمم السالفة، وذلك نتيجة عنادهم ولجاجتهم في طريق الكفر والظلم والفساد.. ممّا أدّى بها الواحدة تلو الأُخرى إلى الابتلاء بالعذاب الإلهي الشديد، وسبّب لهم الدمار العظيم.

ونلاحظ في هذه السورة تكرار قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ وذلك بعد كلّ مشهد من مشاهد العذاب الذي يحلّ بالأُمم لكي يكون درساً وعظة للمسلمين والكفّار.

ويمكن تلخيص أبحاث هذه السورة في عدّة أقسام هي:

- تبدأ السورة بالحديث عن قرب وقوع يوم القيامة، وموضوع شقّ القمر، وإصرار وعناد المخالفين في إنكار الآيات الإلهيّة.

- والقسم الثاني يبحث بتركيز واختصار عن أوّل قوم تمرّدوا على الأوامر الإلهية، وهم قوم نوح، وكيفيّة نزول البلاء عليهم.

- أمّا القسم الثالث فإنّه يتعرّض إلى قصّة قوم «عاد» وأليم العذاب الذي حلّ بهم.

- وفي القسم الرابع تتحدّث الآيات عن قوم «ثمود» ومعارضتهم لنبيّهم صالح عليه السلام وبيان معجزة الناقة، وأخيراً ابتلاؤهم بالصيحة السماوية.

- تتطرّق الآيات بعد ذلك إلى الحديث عن قوم «لوط» ضمن بيان واف لانحرافهم الأخلاقي... ثمّ عن السخط الإلهي عليهم وابتلائهم بالعقاب الربّاني.

- وفي القسم السادس تركّز الآيات الكريمة - بصورة موجزة - الحديث عن آل فرعون، وما نزل بهم من العذاب الأليم جزاء كفرهم وضلالهم.

- وفي القسم الأخير تعرض مقارنة بين هذه الأُمم ومشركي مكّة ومخالفي الرّسول

الأعظم ﷺ والمستقبل الخطير الذي ينتظر مشركي مكّة فيما إذا استمرّوا على عنادهم وإصرارهم في رفض الدعوة الإلهيّة.

وتنتهي السورة ببيان صور ومشاهد من معاقبة المشركين، وجزاء وأجر المؤمنين والمتّقين.

وسورة القمر تتميّز آياتها بالقصر والقوّة والحركية.

وقد سمّيت هذه السورة بـ(سورة القمر) لأنّ الآية الأُولى منها تتحدّث عن شقّ القمر.

فضل تلاوة سورة القمر

ورد عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «من قرأ سورة اقتربت الساعة في كلّ غبّ بُعِثَ يوم القيامة ووجهه على صورة القمر ليلة البدر، ومن قرأها كلّ ليلة كان أفضل وجاء يوم القيامة ووجهه مسفر على وجوه الخلائق»(١).

ومن الطبيعي أن تكون النورانية التي تتّسم بها هذه الوجوه تعبيراً عن الحالة الإيمانية الراسخة في قلوبهم نتيجة التأمّل والتفكّر في آيات هذه السورة المباركة والعمل بها بعيداً عن التلاوة السطحية الفارغة من التدبّر في آيات الله.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ۝٣﴾

التّفسير

شقّ القمر!!

يتناول الحديث في الآية الأُولى حادثتين مهمّتين:

أحدهما: قرب وقوع يوم القيامة، والذي يقترن بأعظم تغيير في عالم الخلق، وبداية لحياة جديدة في عالم آخر، ذلك العالم الذي يقصر فكرنا عن إدراكه نتيجة محدودية علمنا واستيعابنا للمعرفة الكونية.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٩ (بداية سورة القمر).

والحادثة الثانية التي تتحدّث الآية الكريمة عنها هي معجزة انشقاق القمر العظيمة التي تدلّل على قدرة البارئ عزّوجلّ المطلقة، وكذلك تدلّ - أيضاً - على صدق دعوة الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾.

وجدير بالذكر أنّ سورة النجم التي أنهت آياتها المباركة بالحديث عن يوم القيامة ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ تستقبل آيات سورة القمر بهذا المعنى أيضاً، ممّا يؤكّد قرب وقوع اليوم الموعود رغم أنّه عندما يقاس بالمقياس الدنيوي فقد يستغرق آلاف السنين ويتوضّح هذا المفهوم، حينما نتصوّر مجموع عمر عالمنا هذا من جهة، ومن جهة أُخرى عندما نقارن جميع عمر الدنيا في مقابل عمر الآخرة فانّها لا تكون سوى لحظة واحدة.

إنّ اقتران ذكر هاتين الحادثتين في الآية الكريمة: «انشقاق القمر واقتراب الساعة» دليل على قرب وقوع يوم القيامة، كما ذكر ذلك قسم من المفسّرين حيث إنّ ظهور الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم - وهو آخر الأنبياء - قرينة على قرب وقوع اليوم المشهود... قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«بعثت أنا والساعة كهاتين»[(١)] مشيراً إلى إصبعيه الكريمين.

ومن جهة أُخرى، فإنّ انشقاق القمر دليل على إمكانية اضطراب النظام الكوني، ونموذج مصغّر للحوادث العظيمة التي تسبق وقوع يوم القيامة في هذا العالم، حيث اندثار الكواكب والنجوم والأرض يعني حدوث عالم جديد، استناداً إلى الرّوايات المشهورة التي ادّعى البعض تواترها.

قال ابن عبّاس: اجتمع المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: إن كنت صادقاً فشقّ لنا القمر فلقتين، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن فعلت تؤمنون؟» قالوا: نعم، وكانت ليلة بدر فسأل رسول الله ربّه أن يعطيه ما قالوا، فانشقّ القمر فلقتين ورسول الله ينادي: «يا فلان يا فلان، اشهدوا»[(٢)].

ولعلّ التساؤل يثار هنا عن كيفية حصول هذه الظاهرة الكونية: (انشقاق هذا الجرم السماوي العظيم) وعن مدى تأثيره على الكرة الأرضية والمنظومة الشمسية، وكذلك عن طبيعة القوّة الجاذبة التي أعادت فلقتي القمر إلى وضعهما السابق، وعن كيفيّة حصول

---

(١) تفسير الفخر الرازي، ج ٢٩، ص ٢٩.

(٢) ذكر في مجمع البيان وكتب تفسير أُخرى في هامش تفسير الآية مورد البحث.

مثل هذا الحدث؟ ولماذا لم يتطرّق التاريخ إلى ذكر شيء عنه؟ بالإضافة إلى مجموعة تساؤلات أُخرى حول هذا الموضوع والتي سنجيب عليها بصورة تفصيليّة في هذا البحث إن شاء الله.

والنقطة الجديرة بالذكر هنا أنّ بعض المفسّرين الذين تأثّروا بوجهات نظر غير سليمة، وأنكروا كلّ معجزة لرسول الله ﷺ عدا القرآن الكريم، عندما التفتوا إلى وضوح الآية الكريمة محلّ البحث والرّوايات الكثيرة التي وردت في كتب علماء الإسلام في هذا المجال، واجهوا عناءً في توجيه هذه المعجزة الربّانية، وحاولوا نفي الظاهرة الإعجازية لهذا الحادث...

والحقيقة أنّ مسألة «انشقاق القمر» كانت معجزة، والآيات اللاحقة تحمل الدلائل الواضحة على صحّة هذا الأمر كما سنرى ذلك إن شاء الله.

لقد كان جديراً بهؤلاء أن يصحّحوا وجهات نظرهم تلك، ليعلموا أنّ للرسول الأعظم ﷺ معجزات عديدة أيضاً.

وإذا أُريد الاستفادة من الآيات القرآنية لنفي المعجزات فإنّها تنفي المعجزات المقترحة من قبل المشركين المعاندين الذين لم يقصدوا قبول دعوة الحقّ من أوّل الأمر ولم يستجيبوا للرسول الأكرم بعد إنجاز المعجز، لكن المعجزات التي تطلب من الرّسول من أجل الاطمئنان إلى الحقّ والإيمان به كانت تنجز من قبله، ولدينا دلائل عديدة على هذا الأمر في تأريخ حياة الرّسول ﷺ.

يقول سبحانه: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾.

والمراد من قوله تعالى: ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ أنّهم شاهدوا من الرّسول الكريم ﷺ معجزات عديدة، وشقّ القمر هو استمرار لهذه المعاجز، وأنّهم كانوا يبرّرون إعراضهم عن الإيمان وعدم الاستسلام لدعوة الحقّ وذلك بقولهم: إنّ هذه المعاجز كانت ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾.

وهنالك بعض المفسّرين من فسّر﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ بمعنى «قوي» كما قالوا: (حبل مرير) أي: محكم، والبعض فسّرها بمعنى: الطارىء وغير الثابت، ولكن التّفسير الأنسب هو التّفسير الأوّل.

أمّا قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ فإنّه يشير إلى سبب مخالفتهم وعنادهم وسوء العاقبة التي تنتظرهم نتيجة لهذا الإصرار.

إنّ مصدر خلاف هؤلاء وتكذيبهم للرسول ﷺ أو تكذيب معاجزه ودلائله، وكذلك تكذيب يوم القيامة، هو اتّباع هوى النفس.

إنّ حالة التعصّب والعناد وحبّ الذات لم تسمح لهم بالاستسلام للحقّ، ومن جهة أُخرى فإنّ المشركين ركنوا للملذّات الرخيصة بعيداً عن ضوابط المسؤولية، وذلك إشباعاً لرغباتهم وشهواتهم، وكذلك فإنّ تلوّث نفوسهم بالآثام حال دون استجابتهم لدعوة الحقّ، لأنّ قبول هذه الدعوة يفرض عليهم التزامات ومسؤوليات الإيمان والاستجابة للتكاليف. . .

نعم إنّ هوى النفس كان وسيبقى السبب الرئيسي في إبعاد الناس عن مسير الحقّ. . .

وبالنسبة لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾، يعني أنّ كلّ إنسان يجازى بعمله وفعله، فالصالحون سيكون مستقرّهم صالحاً، والأشرار سيكون مستقرّهم الشرّ.

ويحتمل أن يكون المراد في هذا التعبير هو أنّ كلّ شيء في هذا العالم لا يفنى ولا يزول، فالأعمال الصالحة أو السيّئة تبقى مع الإنسان حتى يرى جزاء ما فعل.

ويحتمل أن يكون تفسير الآية السابقة أنّ الأكاذيب والاتّهامات لا تقوى على الاستمرار الأبدي في إطفاء نور الحقّ والتكتّم عليه، حيث إنّ كلّ شيء (خير أو شرّ) يسير بالاتّجاه الذي يصبّ في المكان الملائم له، حيث إنّ الحقّ سيظهر وجهه الناصح مهما حاول المغرضون إطفاءه، كما أنّ وجه الباطل القبيح سيظهر قبحه كذلك، وهذه سنّة إلهيّة في عالم الوجود.

وهذه التفاسير لا تتنافى فيما بينها، حيث يمكن جمعها في مفهوم هذه الآية الكريمة.

بحوث

١ - شق القمر معجزة كبيرة للرسول ﷺ

شقّ القمر معجزة كبيرة للرسول ﷺ ومع ذلك فإنّ بعض الأشخاص السطحيين يصرّون على إخراج هذا الحادث من حالة الإعجاز، حيث قالوا: إنّ الآية الكريمة تحدّثنا فقط عن المستقبل وعن أشراط الساعة، وهي الحوادث التي تسبق وقوع يوم القيامة. . .

لقد غاب عن هؤلاء أنّ الأدلّة العديدة الموجودة في الآية تؤكّد على حدوث هذه المعجزة، ومن ضمنها ذكر الفعل (انشقّ) بصيغة الماضي، وهذا يعني أنّ (شقّ القمر)

شيء قد حدث كما أنّ قرب وقوع يوم القيامة قد تحقّق، وذلك بظهور آخر الأنبياء محمّد ﷺ.

بالإضافة إلى ذلك، إن لم تكن الآية قد تحدّثت عن وقوع معجزة، فلا يوجد أي تناسب أو انسجام بينها وبين ما ورد في الآية اللاحقة حول افترائهم على الرّسول بأنّه (ساحر) وكذلك قوله: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ والتي تخبر الآية هنا عن تكذيبهم للرسالة والرّسول ومعاجزه.

إضافةً إلى ذلك فإنّ الرّوايات العديدة المذكورة في الكتب الإسلامية، والتي بلغت حدّ التواتر نقلت وقوع هذه المعجزة، وبذلك أصبحت غير قابلة للإنكار.

ونشير هنا إلى روايتين منها:

الأولى: أوردها الفخر الرازي أحد المفسّرين السنّة، والأُخرى للعلاّمة الطبرسي أحد المفسّرين الشيعة.

يقول الفخر الرازي: «والمفسّرون بأسرهم على أنّ المراد أنّ القمر انشقّ وحصل فيه الانشقاق، ودلّت الأخبار على حديث الانشقاق، وفي الصحيح خبر مشهور رواه جمع من الصحابة... والقرآن أدلّ دليل وأقوى مثبت له وإمكانه لا يشكّ فيه، وقد أخبر عنه الصادق فيجب اعتقاد وقوعه»[(١)].

أمّا عن نظرية بطليموس والقائلة بأنّ (الأفلاك السماوية ليس بإمكانها أن تنفصل أو تلتئم) فإنّها باطلة وليس لها أي أساس أو سند علمي، حيث إنّه ثبت من خلال الأدلّة العقليّة أنّ انفصال الكواكب في السماء أمر ممكن.

ويقول العلاّمة الطبرسي في (مجمع البيان): لقد أجمع المفسّرون والمحدّثون سوى عطاء والحسين والبلخي الذين ذكرهم ذكراً عابراً، أنّ معجزة شقّ القمر كانت في زمن الرّسول الأكرم ﷺ.

ونقل أنّ حذيفة - وهو أحد الصحابة المعروفين - ذكر قصّة شقّ القمر في جمع غفير في مسجد المدائن ولم يعترض عليه أحد من الحاضرين، مع العلم أنّ كثيراً منهم قد عاصر زمن الرّسول ﷺ (ونقل هذا الحديث في هامش الآية المذكورة في الدرّ المنثور والقرطبي).

وممّا تقدّم يتّضح جيّداً أنّ مسألة شقّ القمر أمر غير قابل للإنكار، سواء من الآية

---

(١) التّفسير الكبير، الفخر الرازي، ج٢٩، ص٢٨، أوّل سورة القمر.

نفسها والقرائن الموجودة فيها، أو من خلال الأحاديث والرّوايات، أو أقوال المفسّرين، ومن الطبيعي أن تطرح أسئلة أُخرى حول الموضوع سنجيب عنها إن شاء الله فيما بعد.

٢ - مسألة شقّ القمر والعلم الحديث

السؤال المهمّ المطروح في هذا البحث هو: هل أنّ الأجرام السماوية يمكنها أن تنفصل وتنشقّ؟ وما موقف العلم الحديث من ذلك؟

وللإجابة على هذا السؤال وبناءً على النتائج التي توصّل إليها العلماء الفلكيون، فإنّ مثل هذا الأمر في نظرهم ليس بدرجة من التعقيد بحيث يستحيل تصوّره. . . إنّ الاكتشافات العلمية التي توصّل إليها الباحثون تؤكّد أنّ مثل هذه الحوادث مضافاً إلى أنّها ليست مستحيلة فقد لوحظت نماذج عديدة من هذا القبيل ولعدّة مرّات مع اختلاف العوامل المؤثّرة في كلّ حالة.

وبعبارة أُخرى: فقد لوحظ أنّ مجموعة انفجارات وانشقاقات قد وقعت في المنظومة الشمسية، بل في سائر الأجرام السماوية.

ويمكن ذكر بعض النماذج كشواهد على هذه الظواهر. . . .

أ - ظهور المنظومة الشمسية

إنّ هذه النظرية المقبولة لدى جميع العلماء تقول: إنّ جميع كرات المنظومة الشمسية كانت في الأصل جزءاً من الشمس ثمّ انفصلت عنها، حيث أصبحت كلّ واحدة منها تدور في مدارها الخاصّ بها غاية الأمر هناك كلام في السبب لهذا الانفصال. . .

يعتقد (لابلاس) أنّ العامل المسبّب لانفصال القطع الصغيرة من الشمس هي: (القوّة الطاردة) التي توجد في المنطقة الاستوائية لها، حيث إنّ الشمس كانت تعتبر ولحدّ الآن كتلة ملتهبة، وضمن دورانها حول نفسها فإنّ السرعة الموجودة في المنطقة الاستوائية لها تسبّب تناثر بعض القطع منها في الفضاء ممّا يجعل هذه القطع تدور حول مركزها الأصلي (الشمس).

ولكن العلماء الذين جاؤوا بعد (لابلاس) توصّلوا من خلال تحقيقاتهم إلى فرضية أُخرى تقول: إنّ السبب الأساس لحدوث الانفصال في الأجرام السماوية عن الشمس هو حالة المدّ والجزر الشديدين التي حدثت على سطح الشمس نتيجة عبور نجمة عظيمة بالقرب منها.

الأشخاص المؤيّدون لهذه النظرية الذين يرون أنّ الحركة الوضعية للشمس في ذلك الوقت لا تستطيع أن تعطي الجواب الشافي لأسباب هذا الانفصال، قالوا: إنّ حالة المدّ والجزر الحاصلة في الشمس أحدثت أمواجاً عظيمة على سطحها، كما في سقوط حجر كبير في مياه المحيط، وبسبب ذلك تناثرت قطع من الشمس الواحدة تلو الأُخرى إلى الخارج، ودارت ضمن مدار الكرة الأُمّ (الشمس).

وعلى كلّ حال فإنّ العامل المسبّب لهذا الانفصال أيّاً كان لا يمنعنا من الاعتقاد أنّ ظهور المنظومة الشمسية كان عن طريق الانشقاق والانفصال.

ب - (الأستروئيدات)

الأستروئيدات: هي قطع من الصخور السماوية العظيمة تدور حول المنظومة الشمسية، ويطلق عليها في بعض الأحيان بـ(الكرات الصغيرة) و(شبه الكواكب السيارة) يبلغ قطر كبراها ٢٥ كم، لكن الغالبية منها أصغر من ذلك.

ويعتقد العلماء أنّ «الأستروئيدات» هي بقايا كوكب عظيم كان يدور في مدار بين مداري المريخ والمشتري تعرّض إلى عوامل غير واضحة ممّا أدّى إلى انفجاره وتناثره.

لقد تمّ اكتشاف ومشاهدة أكثر من خمسة آلاف من (الأستروئيدات) لحدّ الآن، وقد تمّ تسمية عدد كثير من هذه القطع الكبيرة، وتمّ حساب حجمها ومقدار ومدّة حركتها حول الشمس، ويعلّق علماء الفضاء أهميّة بالغة على الأستروئيدات، حيث يعتقدون أنّ بالإمكان الاستفادة منها في بعض الأحيان كمحطّات للسفر إلى المناطق الفضائية النائية.

كان هذا نموذج آخر لانشقاق الأجرام السماوية.

ج - الشهب

الشهب: أحجار سماوية صغيرة جدّاً، حتى أنّ البعض منها لا يتجاوز حجم (البندقة)، وهي تسير بسرعة فائقة في مدار خاصّ حول الشمس وقد يتقاطع مسيرها مع مدار الأرض أحياناً فتنجذب إلى الأرض، ونظراً لسرعتها الخاطفة التي تتميّز بها - تصطدم بشدّة مع الهواء المحيط بالأرض، فترتفع درجة حرارتها بشدّة فتشتعل وتتبيّن لنا كخطّ مضيء وهّاج بين طبقات الجوّ ويسمّى بالشهاب.

وأحياناً نتصوّر أنّ كلّ واحدة منها تمثّل نجمة نائية في حالة سقوط، إلاّ أنّها في الحقيقة عبارة عن شهاب صغير مشتعل على مسافة قريبة يتحوّل فيما بعد إلى رماد.

ويلتقي مداري الشهب والكرة الأرضية في نقطتين هما نقطتا تقاطع المدارين وذلك في شهري (آب وكانون الثاني) حيث يصبح بالإمكان رؤية الشهب بصورة أكثر في هذين الشهرين.

ويقول العلماء: إنّ الشهب هي بقايا نجمة مذنّبة انفجرت وتناثرت أجزاؤها بسبب جملة عوامل غير واضحة... وهذا نموذج آخر من الانشقاق في الأجرام السماوية.

وعلى كلّ حال، فإنّ الانفجار والانشقاق في الكرات السماوية ليس بالأمر الجديد، وليس بالأمر المستحيل من الناحية العلمية، ومن هنا فلا معنى حينئذ للقول بأنّ الإعجاز لا يمكن أن يتعلّق بالحال.

هذا كلّه عن مسألة الانشقاق.

أمّا موضوع رجوع القطعتين المنفصلتين إلى وضعهما الطبيعي السابق تحت تأثير قوى الجاذبية التي تربط القطعتين فهو الآخر أمر ممكن.

ورغم أنّ الاعتقاد السائد قديماً في علم الهيئة القديم طبق نظرية (بطليموس) واعتقاده بالأفلاك التسعة التي هي بمثابة قشور البصل في تركيبها - الواحدة على الأُخرى - فأيّ جسم لا يستطيع أن يخترقها صعوداً أو نزولاً، ولذلك فانّ أتباع هذه النظرية ينكرون المعراج الجسماني واختراقه للأفلاك التسعة، كما أنّه لا يمكن وفقاً لهذه النظريات انشقاق القمر، ومن ثمّ التئامه، ولذلك أنكروا مسألة شقّ القمر، ولكن اليوم أصبحت فرضية (بطليموس) أقرب للخيال والأساطير منها للواقع، ولم يبق أثر للأفلاك التسعة، وأصبحت الأجواء لا تساعد لتقبّل مثل هذه الآراء.

وغني عن القول أنّ ظاهرة شقّ القمر كانت معجزة، ولذا فإنّها لم تتأثّر بعامل طبيعي اعتيادي، والشيء الذي يراد توضيحه هنا هو بيان إمكانية هذه الحادثة، لأنّ المعجزة لا تتعلّق بالأمر المحال.

٣ - شقّ القمر تاريخياً

لقد طرح البعض من غير المطّلعين إشكالا آخر على مسألة شقّ القمر، حيث ذكروا أنّ مسألة شقّ القمر لها أهميّة بالغة، فإذا كانت حقيقيّة فلماذا لم تذكر في كتب التاريخ؟

ومن أجل أن تتوضّح أهميّة هذا الإشكال لابدّ من الإلمام والدراسة الدقيقة لمختلف جوانب هذا الموضوع، وهو كما يلي:

أ - يجب الالتفات إلى أنّ القمر يُرى في نصف الكرة الأرضية فقط، وليس في جميعها، ولذا فلابدّ من إسقاط نصف مجموع سكّان الكرة الأرضية من إمكانية رؤية حادثة شقّ القمر وقت حصولها.

ب - وفي نصف الكرة الأرضية التي يُرى فيها القمر فإنّ أكثر الناس في حالة سبات وذلك لحدوث هذه الظاهرة بعد منتصف الليل.

ج - ليس هنالك ما يمنع من أن تكون الغيوم قد حجبت قسماً كبيراً من السماء، وبذلك يتعذّر رؤية القمر لسكّان تلك المناطق.

د - إنّ الحوادث السماوية التي تلفت انتباه الناس تكون غالباً مصحوبة بصوت أو عتمة كما في الصاعقة التي تقترن بصوت شديد أو الخسوف والكسوف الكليين الذي يقترن كلّ منها بانعدام الضوء تقريباً ولمدّة طويلة.

لذلك فإنّ الحالات التي يكون فيها الخسوف جزئياً أو خفيفاً نلاحظ أنّ الغالبية من الناس لم تحط به علماً، اللهمّ إلاّ عن طريق التنبيه المسبق عنه من قبل المنجّمين، بل يحدث أحياناً خسوف كلّي وقسم كبير من الناس لا يعلمون به.

لذا فإنّ علماء الفلك الذين يقومون برصد الكواكب أو الأشخاص الذين يتّفق وقوع نظرهم في السماء وقت الحادث هم الذين يطّلعون على هذا الأمر ويخبرون الآخرين به.

وبناءً على هذا ونظراً لقصر مدّة المعجزة (شقّ القمر) فلن يكون بالمقدور أن تلفت الأنظار إليها على الصعيد العالمي، خصوصاً وأنّ غالبية الناس في ذلك الوقت لم تكن مهتّمة بمتابعة الأجرام السماوية.

هـ - وبالإضافة إلى ذلك فإنّ الوسائل المستخدمة في تثبيت نشر الحوادث التأريخية في ذلك الوقت، ومحدودية الطبقة المتعلّمة، وكذلك طبيعة الكتب الخطيّة التي لم تكن بصورة كافية كما هو الحال في هذا العصر حيث تنشر الحوادث المهمّة بسرعة فائقة بمختلف الوسائل الإعلامية في كلّ أنحاء العالم عن طريق الإذاعة والتلفزيون والصحف. . . كلّ هذه الأمور لابدّ من أخذها بنظر الاعتبار في محدودية الاطلاع على حادثة (شقّ القمر).

ومع ملاحظة هذا الأمر والأُمور الأُخرى السابقة فلا عجب أبداً من عدم تثبيت هذه الحادثة في التواريخ غير الإسلامية، ولا يمكن اعتبار ذلك دليلاً على نفيها.

تأريخ وقوع هذه المعجزة

من الواضح أنّه لا خلاف بين المفسّرين ورواة الحديث حول حدوث ظاهرة شقّ القمر في مكّة وقبل هجرة الرّسول الأكرم ﷺ، لكن الذي يستفاد من بعض الرّوايات هو أنّ حدوث هذا الأمر كان في بداية بعثة الرّسول ﷺ [١]. في حين يستفاد من البعض الآخر أنّ حدوث هذا الأمر قد وقع قرب هجرة الرّسول ﷺ وفي آخر عهده بمكّة، وكان استجابة لطلب جماعة قدموا من المدينة لمعرفة الحقّ وأتباعه، إذ إنّهم بعد رؤيتهم لهذه المعجزة آمنوا وبايعوا رسول الله ﷺ في العقبة[٢].

ونقرأ في بعض الرّوايات أيضاً أنّ سبب اقتراح شقّ القمر كان من أجل المزيد من الاطمئنان بمعاجز الرّسول ﷺ وأنّها لم تكن سحراً لأنّ السحر عادةً يكون في الأُمور الأرضية[٣]. ومع ذلك فإنّ قسماً من المتعصّبين والمعاندين لم يؤمنوا برغم مشاهدتهم لهذا الإعجاز، وتتعلّلوا بأنّهم ينتظرون قوافل الشام واليمن، فإنّ أيّدوا هذا الحادث ورؤيتهم له آمنوا... ومع إخبار المسافرين لهم بذلك، إلاّ أنّهم بقوا مصرّين على الكفر رافضين للإيمان[٤].

والنقطة الأخيرة الجديرة بالذكر أنّ هذه المعجزة العظيمة والكثير من المعاجز الأُخرى ذكرت في التواريخ والرّوايات الضعيفة مقترنة ببعض الخرافات والأساطير، ممّا أدّى إلى حصول تشويش في أذهان العلماء بشأنها، كما في نزول قطعة من القمر إلى الأرض، لذا فإنّ من الضروري فصل هذه الخرافات وعزلها بدقّة وغربلة الصحيح من غيره، حتى تبقى الحقائق بعيدة عن التشويش ومحتفظة بمقوّماتها الموضوعية.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَـٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾

(١) بحار الأنوار، ج ١٧، ص ٣٥٤، ح ٨. (٢) بحار الأنوار، ج ١٧، ص ٣٥٢، ح ١.
(٣) بحار الأنوار، ج ١٧، ص ٣٥٥، ح ١٠. (٤) تفسير الدرّ المنثور، ج٦، ص١٣٣.

التّفسير

يوم البعث والنشور

تأتي هذه الآيات لتواصل البحث عن الكفّار الذين كذّبوا الرّسول ﷺ ولم يذعنوا للحقّ حيث أعرضوا عن جميع المعاجز التي شاهدوها.

والآيات أعلاه تشرح حال هؤلاء الأفراد وموضّحة المصير البائس الذي ينتظر هؤلاء المعاندين في يوم القيامة.

يقول سبحانه إنّ هؤلاء لم يعدموا الإنذار والإخبار، بل جاءهم من الأخبار ما يوجب انزجارهم عن القبائح والذنوب: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ وذلك ليلقي عليهم الحجّة.

وبناءً على هذا فلا يوجد نقص في تبليغ الدعاة الإلهيين، وما يوجد من نقصان أو خلل يكمن فيهم، حيث ليس لديهم روح تواقة لمعرفة الحقّ ولا آذان صاغية، ونفوسهم متنكّبة عن التقوى والتدبّر في الآيات الإلهية.

والقصد من ﴿ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ الإخبار عن الأمم والأقوام السابقة الذين هلكوا بألوان العذاب المدمّر الذي حلّ بهم، وكذلك أخبار يوم القيامة وجزاء الظالمين والكفّار، حيث اتّضحت كلّ تلك الأخبار في القرآن الكريم.

ويضيف تعالى: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ فهذه الآيات حكم إلهيّة بليغة ومواعظ مؤثّرة، إلاّ أنّها لا تفيد أهل العناد(١) (٢).

تبيّن هذه الآية أن لا نقص في «فاعلية الفاعل»، أو تبليغ الرسل. لكن الأمر يكمن في مدى استعداد الناس وأهليتهم لقبول الدعوة الإلهيّة، وإلاّ فإنّ الآيات القرآنية والرسل والأخبار التي وردتهم عن الأمم السابقة والأخبار التي تنبئهم عن أحوال يوم القيامة كلّ هذه الأمور هي حكمة بالغة ومؤثّرة في النفوس الخيّرة ذات الفطرة السليمة.

الآية التالية تؤكّد على أنّ هؤلاء ليسوا على استعداد لقبول الحقّ، فاتركهم لحالهم

---

(١) ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هذه حكمة بالغة).

(٢) نذر جمع نذير ويعني (المنذرين) والمقصود بالمنذرين هي الآيات القرآنية وأخبار الأمم والأنبياء الذين وصل صوتهم إلى أسماع الناس، ويحتمل البعض أنّ (نذر) مصدر بمعنى إنذار. لكن المعنى الأوّل هو الأنسب. وضمناً فإنّ (ما) في عبارة ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ نافية وليست استفهامية.

واعرض عنهم وتذكّر يوم يدعو الداعي الإلهي إلى أمر مخيف، وهو الدعوة إلى الحساب، حيث يقول سبحانه: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾[1].

وعلى هذا تكون عبارة: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ عبارة مستقلّة ومنفصلة عن جملة: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾. لكن البعض يرى أنّ كلّ واحدة من الجملتين مكمّلة للأخرى، حيث يذهبون إلى أنّ قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ جاءت بصيغة الأمر للرسول ﷺ بالإعراض عن المشركين الذين يرجون الشفاعة منه يوم القيامة عندما يدعوهم الداعي الإلهي للحساب، وهذا الرأي مستبعد جدّاً.

وهنا يثار السؤال التالي: هل الداعي هو الله سبحانه؟ أم الملائكة؟ أم إسرافيل الذي يدعو الناس ليوم الحشر عندما ينفخ في الصور؟ أم جميع هؤلاء؟

ذكر المفسّرون احتمالات عدّة للإجابة على هذا التساؤل، ولكن بالرجوع إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾[2]، يرجّح الرأي الأوّل. رغم أنّ الآيات اللاحقة تتناسب مع كون الداعي هم الملائكة المختّصون بشؤون الحساب والجزاء.

أمّا المراد من ﴿شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾[3] فهو الحساب الإلهي الدقيق الذي لم يكن معلوماً من حيث وقته قبل قيام الساعة، أو العذاب الذي لم يخطر على بالهم، أو جميع هذه الأُمور، ذلك لأنّ يوم القيامة في جميع أحواله حالة غير مألوفة للبشر.

وفي الآية اللاحقة يبيّن الله سبحانه وتعالى توضيحاً أكثر حول هذا الموضوع ويذكر أنّ هؤلاء يخرجون من القبور في حالة: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾.

نسبة «الخشوع» هنا للأبصار لأنّ المشهد مرعب ومخيف إلى حدّ لا تستطيع الأنظار رؤيته، لذلك فإنّها تتحوّل عنه وتطرق نحو الأسفل.

والتشبيه هنا بـ(الجراد المنتشر) لأنّ النشور في يوم الحشر يكون بصورة غير منتظمة لحالة الهول التي تعتري الناس فيه، كما هي حركة انتشار الجراد التي تتمثّل فيها الفوضى والاضطراب خلافاً للقسم الأكبر من حركة الطيور التي تطير وفق نظم خاصّة

---

(١) في الآية أعلاه ﴿يَوْمَ﴾ يتعلّق بمحذوف تقديره (اذكر) ويحتمل البعض أنّها تتعلّق بـ﴿يَخْرُجُونَ﴾ ولكن ذلك مستبعد.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥٢.

(٣) ﴿نُّكُرٍ﴾ مفرد من مادّة (نكارة) وتعني الشيء المبهم المخيف.

في الجو، مضافاً إلى أنّهم كالجراد من حيث الضعف وعدم القدرة.

نعم، إنّ حالة هؤلاء الفاقدين للعلم والبصيرة، حالة ذهول ووحشة وتخبّط في المسير كالسكارى يرتطم بعضهم ببعض فاقدين للوعي والإرادة كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ﴾(١).

والحقيقة أنّ هذا التشبيه هو ما ورد أيضاً في الآية (٤) من سورة القارعة حيث يقول سبحانه: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾.

وأمّا قوله تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ فإنّ كلمة ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ تأتي من مادّة (اهطاع) أي مدّ الرقبة، والبعض يرجعها إلى النظر بانتباه أو الركض بسرعة نحو الشيء، ويحتمل أن تكون كلّ واحدة من هذه المعاني هي المقصودة، ولكن المعنى الأوّل هو الأنسب، لأنّ الإنسان عند سماعه لصوت موحش يمدّ رقبته على الفور وينتبه إلى مصدر الصوت، ويمكن أن تكون هذه المفاهيم مجتمعة في الآية الكريمة حيث إنّ بمجرّد سماع صوت الداعي الإلهي تمدّ الرقاب إليه ثمّ يتبعه التوجّه بالنظر نحوه، ثمّ الإسراع إليه والحضور في المحكمة الإلهيّة العادلة عند دعوتهم إليها.

وهنا يستولي الخوف من الأهوال العظيمة لذلك اليوم على وجود الكفّار والظالمين، لذا يضيف سبحانه معبّراً عن حالة البؤس التي تعتري الكافرين بقوله: ﴿يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

والحقّ أنّه يوم صعب وعسير، وهذا ما يؤكّده البارئ عزّ وجلّ بقوله: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾(٢).

ويستفاد من هذا التعبير أنّ يوم القيامة يوم غير عسير بالنسبة للمؤمنين.

مسألة:

لماذا كان يوم القيامة يوماً عسيراً؟

ولماذا لا يكون عسيراً؟ في الوقت الذي يحاط فيه المجرمون بكلّ أجواء الرهبة والوحشة، وخاصّة عندما يستلمون صحائف أعمالهم حيث يصطرخون: ﴿يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾(٣)، هذا من جهة.

---

(١) سورة الحجّ، الآية: ٢. (٢) سورة الفرقان، الآية: ٢٦.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

ومن جهة أُخرى فإنّهم يواجهون بما ليس في الحسبان، حيث يحاسبون بدقّة حتى على أصغر الأعمال التي أدّوها، سواء كانت صالحة أم طالحة: ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾(١).

ومن جهة ثالثة، لا سبيل يومئذ للتكفير عن الذنوب والتعويض بالطاعة، والاعتذار عن التقصير، حيث لا عذر يقبل ولا مجال للعودة مرّة أُخرى إلى الحياة يقول تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾(٢).

ونقرأ كذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٣). ولكن هيهات.

ومن جهة رابعة فإنّ العذاب الإلهي شديد ومرعب إلى درجة تنسى الأُمّهات أولادها، وتسقط الحوامل أجنّتهن، ويكون الجميع يومئذ في حيرة وذهول وفقدان للوعي كالسكارى وما هم بسكارى ولكنّ عذاب الله شديد، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾(٤).

والدليل على اضطراب وهلع العاصين هو حالة التشبّث بالافتداء بكلّ ما في الدنيا أملاً في الخلاص من العذاب الأليم، قال تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾﴾(٥).

إذاً، هل يمكن مع كلّ هذه الأوصاف والأوصاف الأُخرى المهولة التي وردت في آيات أُخرى أن يكون ذلك اليوم يوماً مريحاً وبعيداً عن الهمّ والغمّ والشدّة؟!

(حفظنا الله جميعاً في ظلّ لطفه ورعايته).

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا

(١) سورة لقمان، الآية: ١٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٨.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٢٧.
(٤) سورة الحجّ، الآية: ٢.
(٥) سورة المعارج، الآيات: ١١ - ١٥.

فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى
بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ
كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾

التّفسير

قصّة قوم نوح عبرة وعظة

جرت السنّة القرآنية في كثير من الموارد أنّ الله سبحانه يستعرض حالة الأقوام السابقة والعاقبة المؤلمة التي انتهوا إليها إنذاراً وتوضيحاً (للكفّار والمجرمين) بأنّ الاستمرار في طريق الضلال سوف لن يؤدّي بهم إلاّ إلى المصير البائس الذي لاقته الأقوام السابقة.

وفي هذه السورة، إكمالاً للبحث الذي تناولته الآيات السابقة، في إثارات وإشارات مختصرة ومعبّرة حول تاريخ خمسة من الأقوام المعاندة ابتداءً من قوم نوح كما في قوله تعالى: ﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾. فمضافاً إلى تكذيبه واتّهامه بالجنون صبّوا عليه ألوان الأذى والتعذيب ومنعوه من الاستمرار في أداء رسالته.

فتارةً يقولون له مهدّدين ومنذرين ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾[١].

وتارةً أُخرى يضغطون رقبته بأيديهم حتى يفقد وعيه، ولكنّه ما أن يفيق إلى وعيه حتى يقول: «اللهمّ اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون»[٢].

وخلاصة القول فإنّ قوم نوح مارسوا كلّ وسيلة لأذى نبيّهم، ومع ذلك فإنّه لم يتوقّف عن التبليغ والإرشاد أملاً في هدايتهم.

والجدير بالذكر أنّنا نلاحظ أنّ لفظ (التكذيب) قد ورد مرّتين، ولعلّ السبب أنّه ورد في الحالة الأُولى (مختصراً) وفي الثانية (مفصّلا).

والتعبير بـ﴿عَبْدَنَا﴾ إشارة إلى أنّ هؤلاء القوم المعاندين والمغرورين في الواقع يبارزون الله تعالى لا مجرّد شخص «نوح».

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١١٦.

(٢) تفسير الكشّاف وأبو الفتوح والرازي هامش الآية مورد البحث.

كلمة ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾ أصلها (زجر) بمعنى الطرد، وهو الإبعاد المقترن بصوت شديد، كما أنّه يطلق على كلّ عمل يراد منه منع الشخص من الاستمرار به.

والظريف في هذه الآية أنّ الفعل ﴿وَقَالُواْ﴾ أتى بصورة فعل معلوم ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾ بصيغة فعل مجهول ولعلّ ذلك للإشارة إلى أنّ عدم ذكر الفاعل هنا للترفّع عن ذكر قوم نوح بسبب سوء وقبح الأعمال التي مارسوها والتي كانت أقذر وأقبح من أقوالهم، ممّا يكون سبباً في عدم ذكرهم بالصيغة المعلومة كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ﴾.

ثمّ يضيف تعالى أنّ نوحاً عندما يئس من هداية قومه تماماً: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾[1].

والغلبة المذكورة في الآية الكريمة لم تكن غلبة في الحجّة والدليل أو البرهان على عدم صحّة الدعوة، وإنّما كانت تتجسّد بالظلم والجناية والتكذيب والإنكار وأنواع الزجر والضغوط... ولهذا فإنّ هؤلاء القوم لا يستحقّون البقاء، فانتقم لنا منهم وانصرنا عليهم.

نعم، فهذا النّبي العظيم كان يطلب من الله المغفرة لقومه ما دام يأمل في هدايتهم وصلاحهم، ولكن عندما يئس منهم غضب عليهم ولعنهم ودعا ربّه أن ينتقم منهم.

ثمّ يشير هنا إشارة معبّرة وقويّة في كيفية العذاب الذي ابتلوا به وصبّ عليهم حيث يقول سبحانه: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾.

إنّ تعبير انفتاح أبواب السماء لتعبير رائع جدّاً، ويستعمل عادةً عند هطول الأمطار الغزيرة.

﴿مُّنۡهَمِرٖ﴾ من مادّة (همر) على وزن (صبر) وتعني النّزول الشديد للدموع أو الماء، ويستعمل هذا التعبير أيضاً عندما يستدر الحليب من الضرع حتى النهاية.

والعجيب هنا أنّه ورد في أقوال المفسّرين أنّ قوم نوح كانوا قد أُصيبوا بالجدب لعدّة سنوات قد خلت، وكانوا يرتقبون بتلهّف سقوط المطر عليهم، وفجأة ينزل المطر ولكن لا ليحيي أرضهم ويزيد خيرهم بل ماحقاً ومميتاً لهم[2].

---

(١) (انتصر): طلب العون كما في الآية (٤١) سورة الشورى، وهنا جاءت بمعنى طلب الانتقام على أساس العدل والحكمة كما فسّرها البعض في التقدير (انتصر لي).

(٢) تفسير روح المعاني هامش الآية مورد البحث.

ويذكر أنّ الماء الذي أدّى إلى الطوفان لم يكن من هطول الأمطار فقط، بل كان من تفجير العيون في الأرض حيث يقول تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾(١) وهكذا اختلط ماء السماء بماء الأرض بمقدار مقدّر وملأ البسيطة: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾.

إنّ هذا التعبير يجسّد حالة الطوفان الذي غمر الأرض، إلاّ أنّ بعض المفسّرين فسّروا عبارة: ﴿قَدْ قُدِرَ﴾ بقولهم: إنّ كميّتي المياه المتدفّقة من الجانبين المتقابلين كانتا متساويتين في مقاديرهما بصورة دقيقة، إلاّ أنّ الرأي الأوّل هو الأرجح.

وخلاصة الأمر: إنّ الماء قد فار من جميع جهات الأرض وفجّرت العيون وهطلت الأمطار من السماء، واتّصل الماء بعضه ببعض وشكّل بحراً عظيماً وطوفاناً شديداً.

وتترك الآيات الكريمة مسألة الطوفان، لأنّ ما قيل فيها من الآيات السابقة يعتبر كافياً فتنتقل إلى سفينة نجاة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث يقول تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾.

﴿وَدُسُرٍ﴾ جمع (دِسار) على وزن (كتاب)، كما يقول الراغب في المفردات، أنّها في الأصل بمعنى الإبعاد أو النهر بشدّة مقترناً مع حالة عدم الرضا، ولكون المسمار عندما يتعرّض للطرق الشديد يدخل في الخشب وما شاكل فيقال له (دسار).

وذكر قسم من المفسّرين أنّ معنى هذه الكلمة هو (الحبل) مشيرين بذلك إلى حبال أشرعة السفينة وما إلى ذلك، والتّفسير الأوّل هو الأرجح نظراً لذكر كلمة ﴿أَلْوَٰحٍ﴾.

على كلّ حال، فإنّ التعبير القرآني هنا ظريف، لأنّه كما يقول البارئ عَزَّ وَجَلَّ بأنّنا وفي وسط ذلك الطوفان العظيم، الذي غمر كلّ شيء أودعنا أمر نجاة نوح وأصحابه إلى مجموعة من المسامير وقطع من الخشب، وأنّها أدّت هذه الوظيفة على أحسن وجه، وهكذا تتجلّى القدرة الإلهيّة العظيمة.

ويمكن أن يستفاد من هذا التعبير طبيعة البساطة التي كانت عليها سفن ذلك الزمان والتي هي بعيدة عن التعقيد والتكلّف قياساً مع السفن المتقدّمة في العصور اللاحقة، ومع ذلك فإنّ سفينة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ كان حجمها بالقدر المطلوب وطبق الحاجة، وطبقاً للتواريخ فإنّ نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ قد أمضى عدّة سنين في صنعها كي يتمكّن من وضع (من كلّ زوجين اثنين) من مختلف الحيوانات فيها.

---

(١) ﴿عُيُونًا﴾ يمكن أن تكون تمييزاً للأرض والتقدير فجّرنا عيون الأرض، ثمّ إنّ العيون مفعول به منفصل وقد جاءت بصورة تمييز كي تعبّر عن المبالغة والأهميّة وكأنّ الأرض جميعاً تحوّلت إلى عيون.

ويشير سبحانه إلى لطف عنايته للسفينة المخصّصة لنجاة نوح عليه السلام حيث يقول سبحانه ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي أنّ هذه السفينة تسير بالعلم والمشيئة الإلهيّة، وتشقّ الأمواج العالية بقوّة وتستمر في حركتها تحت رعايتنا وحفظنا.

إنّ التعبير ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ كناية ظريفة للدلالة على المراقبة والرعاية للشيء ويتجسّد هذا المعنى بوضوح في قوله تعالى في الآية (٣٧) من سورة هود: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾.

بعض المفسّرين ذهبوا إلى أنّ المقصود من ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ هو الإشارة إلى الشخصيات المهمّة التي كانت على ظهر السفينة، وبناءً على هذا فإنّ المقصود من قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾[١] أنّ تلك السفينة كانت تحمل عباد الله الخالصين المخلصين، ونظراً لطبيعة الموارد التي استعمل فيها هذا التعبير في الآيات القرآنية الأُخرى فإنّ الرأي الأوّل هو الأصحّ.

ويحتمل أيضاً أنّ المراد بجملة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ هو الملائكة التي كان لها الأثر في هداية سفينة نوح عليه السلام، ولكن هذا الرأي ضعيف أيضاً للسبب أعلاه.

ثمّ يضيف تعالى: ﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾[٢].

نعم إنّ نوحاً عليه السلام كسائر الأنبياء الإلهيين يعتبر نعمة إلهيّة عظيمة وموهبة من مواهبه الكبيرة على البشرية، إلاّ أنّ قومه الحمقى كفروا به وبرسالته[٣].

ثمّ يقول سبحانه وكنتيجة لهذه القصّة العظيمة موضع العظّة والاعتبار: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾.

والحقيقة أنّ كلّ ما كان يستحقّ الذكر في هذه القصّة قد قيل، وكل ما ينبغي للإنسان الواعي المتّعظ أن يدركه فهو موجود.

---

(١) «أعين» جمع عين، وإحدى معانيها العين الباصرة، والمعنى الآخر لها هو: الشخصية المعتبرة. ولها معان أُخرى.

(٢) يجدر بالملاحظة هنا أنّ فعل ﴿كُفِرَ﴾ مبني للمجهول، والمراد به نوح عليه السلام الذي كُفِر به، وليس فعلاً معلوماً يشير إلى الكفّار.

(٣) إذا لم يكن في الآية شيء مقدّر فيكون نائب الفاعل للفعل ﴿كُفِرَ﴾ هو شخص نوح عليه السلام حين أنّه عليه السلام يكون النعمة التي ﴿كُفِرَ﴾ بها، أمّا إذا قلنا إنّ للآية محذوف مقدّر، فيكون تقديره (كفر به) فعندئذ تكون إشارة إلى عدم الإيمان بنوح عليه السلام وتعاليمه.

واستناداً إلى هذا التّفسير المنسجم مع الآيات السابقة واللاحقة، فإنّ الضمير في ﴿تَّرَكۡنَٰهَآ﴾ يرجع إلى قصّة الطوفان وماضي نوح عليه السلام ومخالفيه، ولكن البعض يرى أنّ المراد هو (سفينة نوح) لأنّها بقيت مدّة من الزمن شاخصة لأنظار العالم، وكلّما يراها أحد تتجسّد أمامه قصّة الطوفان الذي حلّ بقوم نوح عليه السلام، ومع علمنا بأنّ بقايا سفينة نوح عليه السلام كانت حتى عصر الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم كما أنّ البعض من المعاصرين ادّعى رؤية بقاياها في جبال (آرارات) في القفقاز، عندئذ يمكن أن يكون المعنيان مقصودين في الآية الكريمة.

ولهذا فإنّ قصّة نوح عليه السلام كانت آية للعالمين، وكذا سفينته التي بقيت ردحاً من الزمن بين الناس[(١)].

وفي الآية اللاحقة يطرح الله سبحانه سؤالاً معبّراً ومهدّداً للكافرين الذين اتّبعوا نفس المنهج الذي كان عليه قوم نوح حيث يقول سبحانه: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾.

هل هذه حقيقة واقعة، أم قصّة وأُسطورة؟

ويضيف مؤكّداً هذه الحقيقة في آخر الآية مورد البحث في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾.

نعم إنّ هذا الكتاب العظيم الخالي من التعقيد والمجسّد لعناصر التأثير من حيث عذوبة ألفاظه وجاذبيتها، وحيوية عباراته وصراحتها في عرض المطالب ترغيباً وتهديداً، وطبيعة قصصه الواقعية ذات المحتوى الغزير بالإضافة إلى قوّة دلائله وأحكامها ومنطقه المتين، واحتوائه على كلّ ما يلزم من عناصر التأثير. . . لذا فإنّ القلوب المهيأة لقبول الحقّ والمتفاعلة مع منطق الفطرة والمستوعبة لمنهج العقل تنجذب بصورة متميّزة، والشاهد على هذا أنّ التاريخ الإسلامي يذكر لنا قصصاً عديدة عجيبة محيّرة من حالات التأثير العميق الذي يتركه القرآن الكريم على القلوب الخيّرة.

ولكن ما العمل حينما تكون النطفة لبذرة ما ميتة، حتى لو هيّأ لزراعتها أخصب الأراضي، وسقيت بماء الكوثر، واعتني بها من قبل أمهر المزارعين، فإنّها لن تنمو ولن تزهر وتثمر أبداً.

---

(١) لقد ذكرت أبحاث مفصّلة حول قصّة قوم نوح عليه السلام في هامش الآيات الكريمة ٢٥ - ٤٩ من سورة هود.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾

التّفسير

مصير قوم عاد

تستعرض الآيات الكريمة أعلاه وباختصار أخبار نموذج آخر من الكفّار والمجرمين بعد قوم نوح، وهم (قوم عاد) وذلك كتحذير لمن يتنكّب طريق الحقّ والهداية الإلهية.

وتبدأ فصول أخبارهم بقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾.

لقد بذل هود عليه السلام غاية جهده في توعية قومه وتبليغهم بالحقّ الذي جاء به من عند الله، وكان عليه السلام كلّما ضاعف سعيه وجهده لانتشالهم من الكفر والضلال ازدادوا إصراراً ونفوراً ولجاجة في غيّهم وغرورهم الناشىء من الثراء والإمكانات المادية، بالإضافة إلى غفلتهم نتيجة انغماسهم في الشهوات، جعلتهم صمّ الآذان، عميّ العيون، فجازاهم الله بعقاب أليم وعذاب شديد، ولهذا تشير الآية الكريمة باختصار حيث يقول سبحانه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾.

كما نلاحظ التفصيل في الآيات اللاحقة بعد هذا الإجمال حيث يقول سبحانه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾.

«صرصر» من مادّة (صرّ) على وزن (شرّ)، وفي الأصل تعني (الإغلاق والإحكام) ويأتي تكرارها في هذا السياق للتأكيد، ولأنّ الرياح التي عذّبوا بها كانت باردة وشديدة ولاذعة ومصحوبة بالأزيز، لذا أُطلق عليها (صرصر).

أمّا ﴿نَحْسٍ﴾ ففي الأصل معناها (الاحمرار الشديد) الذي يظهر في الأُفق أحياناً، كما يطلق العرب أيضاً كلمة (نحاس) على وهج النار الخالية من الدخان، ثمّ أطلق هذا المصطلح على كلّ (شؤم) مقابل (السعد).

﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ صفة لـ﴿يَوْمِ﴾ أو لـ﴿نَحْسٍ﴾ ومفهومه في الحالة الأُولى هو استمرار حوادث ذلك اليوم كما في قوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى

ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[١].

وتعني في الحالة الثانية استمرار نحوسة ذلك اليوم حتى هلك الجميع.

كما يفسّر البعض معنى (النحس) بأنّه حالة الجو المكفهر المغبرّ، لأنّ العاصفة كانت مغبرة إلى درجة أنّها لم تسمح برؤية بعضهم البعض، وعندما شاهدوا العاصفة من بعيد ظنّوا أنّها غيوم محملة بالأمطار متّجهة نحوهم، وسرعان ما تبيّن لهم أنّها ريح عاتية لا تبقي ولا تذر أُمرت بعذابهم والانتقام منهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢].

إنّ هذين التّفسيرين غير متنافيين، ويمكن جمعهما في معنى الآية الكريمة مورد البحث.

ثمّ يستعرض سبحانه وصف الريح بقوله: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾.

﴿مُّنقَعِرٍ﴾ من مادّة (قعر) بمعنى أسفل الشيء أو نهايته، ولذا يستعمل هذا المصطلح بمعنى قلع الشيء من أساسه.

كما يحتمل أن يكون المقصود من هذا التعبير أنّ ضخامة الهياكل وقوّة الأبدان التي كان عليها قوم عاد لم تغنهم من فتك الريح بهم وهلاكهم حيث ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ قوم عاد حاولوا التخلّص من العذاب الذي باغتهم وذلك بأن التجأوا إلى حفر عميقة وملاجىء تحت الأرض لحفظ أنفسهم، ولكن دون جدوى حيث إنّ الريح كانت من القوّة بحيث قلعتهم من أعماق تلك الحفر وقذفت بهم من جهة إلى أُخرى، حتى قيل أنّها كانت تدحرجهم وتجعل أعلى كلّ منهم أسفله وتفصل رؤوسهم عن أجسادهم.

﴿أَعْجَازُ﴾ جمع (عجز) - على وزن (رجل) - بمعنى خَلْفُ أو تحت، وقد شبّهوا بالقسم الأسفل من النخلة وذلك حسبما يقول البعض لأنّ شدّة الريح قطّعت أيديهم ورؤوسهم ودفعتها باتّجاهها، وبقيت أجسادهم المقطّعة الرؤوس والأطراف كالنخيل المقطّعة الرؤوس، ثمّ قُلعت أجسادهم من الأرض وكانت الريح تتقاذفها.

وللسبب المذكور أعلاه، يكرّر الله سبحانه وتعالى إنذاره للكفّار بقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾.

فنحن كذلك فعلنا وجازينا الأقوام السالفة التي سلكت سبيل الغي والطغيان

---

(١) سورة الحاقّة، الآية: ٧.

(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٢٤.

والعصيان، فعليكم أن تتفكّروا في مصيركم وأنتم تسلكون نفس الطريق الذي سلكوه!!

وفي نهاية القصّة يؤكّد قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ فهل هنالك من آذان صاغية وقلوب واعية لهذا النداء الإلهي والإنذار الربّاني؟.

والنقطة الأخيرة الجديرة بالذكر هي تأكيد قوله سبحانه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ حيث تكرّرت مرّتين: الأُولى: في بداية الحديث عن قصّة قوم عاد، والثانية: في نهايتها، ولعلّ سبب هذا الاختلاف بين قوم عاد والأقوام الأُخرى، أنّ عذاب قوم عاد كان أكثر شدّة وانتقاماً، رغم أنّ جميع ألوان العذاب الإلهي شديد.

بحث

سعد الأيّام ونحسها

الشيء المتعارف بين الناس، هو أنّ بعض الأيّام سعيدة ومباركة، والبعض الآخر نحس ومشؤوم، مع وجود اختلاف كثير في تشخيصها.

ويدور الحديث حول مدى قبولها إسلامياً، وهل أنّها مأخوذة من تعاليم الإسلام أم لا؟.

من الناحية العقلية لا يعدّ اختلاف أجزاء الزمان من هذه الجهة محالاً، بأن يتّصف بعضها بالنحوسة والأُخرى بالبركة والسعد، ولا نملك أي استدلال عقلي لإثبات أو نفي هذا المعنى، ولهذا نستطيع القول: إنّ هذا الأمر بهذا القدر شيء ممكن، ولكنّه غير ثابت من الناحية العقلية.

وبناءً على ذلك فإذا كانت لدينا دلائل شرعية لهذا المعنى ثبتت عن طريق الوحي فلا مانع من قبولها، بل الالتزام بها.

وحول (نحس الأيّام) تشير الآيات القرآنية مرّتين إلى هذا الموضوع، الأُولى في الآيات مورد البحث، والثانية: في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾(١) (٢).

---

(١) يجدر الانتباه إلى أنّ نحسات جاءت صفة للأيّام، وذلك يعني أنّ الأيّام المذكورة وصفت بالنحوسة، في الوقت الذي ذكرت كلمة ﴿يَوْمِ﴾ في الآية الكريمة ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ إضافة لـ (النحس) وليست وصفاً ولكن بقرينة الآية أعلاه يجب القول: إنّ الإضافة هنا تكون إضافة موصوف إلى صفة (يرجى الانتباه).

(٢) سورة فصّلت، الآية: ١٦.

وفي مقابل «النحوسة» فإنّنا نلاحظ في بعض الآيات القرآنية تعبير: (مبارك) كما في قوله تعالى حول ليلة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾(١).

وقلنا إنّ ﴿نَحْسٍ﴾ مأخوذ في الأصل من صورة الاحمرار الشديد في الأُفق، الذي يشبه النار المتوهّجة الخالية من الدخان والتي يطلق عليها (النحاس). وبهذه المناسبة استعمل في معنى الشؤم.

ومن هنا نلاحظ أنّ القرآن الكريم لم يتطرّق لهذه المسألة إلاّ من خلال إشارة مغلقة فقط، لكنّنا حينما نقرأ في الكتب الإسلامية، يواجهنا العديد من الرّوايات في هذا المجال، مع العلم أنّ الكثير منها ضعيف، وأنّ البعض الآخر منها موضوع أو ملفّق، أو مشوب بالخرافات، وليست جميعاً كذلك، بل هناك ما هو معتبر منها وموضع اطمئنان كما يؤكّد المفسّرون صحّة ذلك من خلال تفسير الآيات أعلاه.

ويذكر لنا المحدّث الكبير العلاّمة المجلسي روايات عديدة في هذا المجال في بحار الأنوار(٢).

وفي هذا المجال نستطيع إيراد الملاحظات التالية:

أ - لقد ذكروا في روايات عديدة (سعد ونحس) الأيّام، وكذلك الحوادث التي وقعت فيها، حيث نقرأ في الرّواية التالية في أسئلة الشامي لأمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: (أخبرني عن يوم الأربعاء والتطيّر منه وثقله، وأي أربعاء هو؟)، قال عليه السلام: «آخر أربعاء من الشهر، وهو المحاق، وفيه قتل قابيل هابيل أخاه، ويوم الأربعاء أرسل الله عزّ وجلّ الريح على قوم عاد»(٣).

ومن هنا فإنّ الكثير من المفسّرين يرتّبون أثراً على هذه الرّوايات، ويعتبرون أنّ آخر أربعاء من كلّ شهر هو يوم نحس، ويطلقون عليه (أربعاء لا تدور) أي لا تتكرّر.

ونقرأ في بعض الرّوايات أنّ اليوم الأوّل من كلّ شهر هو سعد ومبارك، وذلك لأنّ آدم عليه السلام خلق في هذا اليوم، وكذلك فإنّ اليوم ٢٦ من كلّ شهر يوم مبارك، حيث: (ضرب موسى فيه البحر فانفلق)(٤).

---

(١) سورة الدخان، الآية: ٣.
(٢) بحار الأنوار، ج٥٩ كتاب السماء والعالم، ص١ - ٩١ وما بعدها.
(٣) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ١٨٢، ح ٢٥.
(٤) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ١٠٥ و ١٠٦.

كما أنّ اليوم الثالث من كلّ شهر، هو يوم نحس، نُزع عن آدم وحواء لباسهما وأُخرجا من الجنّة[١].

كما أنّ اليوم السابع من كلّ شهر هو يوم مبارك، لأنّ نوحاً عليه السلام قد ركب في السفينة (ونجا من الغرق)[٢].

ونقرأ في الحديث التالي عن الإمام الصادق عليه السلام في هذا المعنى حول يوم (النوروز) حيث يقول: «... يوم مبارك استوت فيه سفينة نوح على الجودي، وهو اليوم الذي نزل فيه جبرائيل على النّبي، وهو اليوم الذي حمل فيه رسول الله أمير المؤمنين على منكبه حتى رمى أصنام قريش من فوق البيت الحرام فهشّمها... وهو اليوم الذي أمر النّبي أصحابه أن يبايعوا علياً بإمرة المؤمنين...»[٣].

وقد اقترن سعد ونحس الأيّام بذكر بعض الوقائع التاريخية الحسنة والسيّئة كما في العديد من الرّوايات، فمثلاً ما ذكر عن يوم عاشوراء الذي اعتبره الأُمويون يوم سعد لمّا حقّقوا فيه وبظنّهم من انتصار على أهل البيت عليهم السلام ... نلاحظ الرّوايات تنهى بشدّة عن التبرّك في مثل هذا اليوم، كما تحذر من ادّخار الأقوات السنوية فيه، والابتعاد عن أجواء الاحتفالات التي كان يقيمها الأُمويون في هذا اليوم وكذلك تؤكّد على تعطيل الأعمال فيه.

ومن ملاحظة مجموعة الرّوايات السابقة، دفع البعض أن يفسّر مسألة سعد ونحس الأيّام على أنّها مجعولة من أجل شدّ المسلمين بهذه الحوادث التاريخيّة المهمّة، وحثّهم عملياً على تطبيق ما تستلزمه تلك الحوادث من التفاعل وما تفرزه من معطيات، وكذلك الابتعاد عن محطّات الحوادث السيّئة واجتناب سبلها.

ويمكن أن يصدّق هذا التّفسير في قسم من هذه الرّوايات ولا يصدق على القسم الآخر منها، ذلك لأنّ المستفاد من البعض منها أنّ هنالك تأثيراً ملموساً في بعض الأيّام (إيجاباً وسلباً) وليس لنا تفسير أو علم لهذا التأثير.

ب - ممّا يجدر الانتباه إليه أنّ هنالك من يفرط في موضوع سعد ونحس الأيّام، بحيث إنّهم يمتنعون من الشروع بأي عمل إلاّ بالاعتماد على هذه الخلفية، وبذلك يفوّتون عليهم فرصاً كثيرة يمكن الاستفادة منها.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٨.
(٢) المصدر السابق، ص ٦١.
(٣) بحار الأنوار، ج٥٩، ص٩٢، وج١، (باب يوم النيروز و..).

وبدلاً من التعمّق في البحث الموضوعي الذي تحسب فيه حسابات الربح والخسارة والاستفادة من الفرص والتجارب الثرية... فإنّهم يرجعون كسب الأرباح إلى سعد الأيّام والانتكاسات والخسارة إلى شؤم الأيّام... وهذا المنهج يعبّر عن الانهزام من الواقع والهروب من الحقيقة والإفراط في التعليل الخرافي لحوادث الحياة الذي يجب أن نحذره ونتجنّبه بشدّة.

والجدير بنا في هذه المسائل أن لا نعطي آذاناً صاغية لأقوال المنجّمين والإشاعات المنتشرة في الأجواء الاجتماعية المتخلّفة، ولا لحديث أُولئك الذين يدّعون المعرفة المستقبلية لفأل الأشخاص، ونستمرّ في حياتنا العملية بجهد حثيث وخطى ثابتة وبالتوكّل على الله وبروح موضوعية بعيدة عن التأثّر بهذه الحكايات والأقاويل، ونستمدّ من الله وحده العون والرعاية.

ج - إنّ مسألة الاهتمام بموضوع (سعد ونحس) الأيّام بالإضافة إلى أنّها ترشدنا للكثير من الحوادث التأريخيّة ذات العظة والعبرة، فإنّها أيضاً عامل للتوسّل بالله والتوجّه إلى رحاب عظمته السامقة، واستمداد العون من ذاته القدسيّة، وهذا ما نلاحظه في روايات عديدة.

ففي الأيّام النحسة مثلاً نستطيع أن نطمئن نفسيّاً لممارستنا العملية وبكلّ تفاؤل وموفّقية، وذلك حينما ندعو الله ونطلب منه العون ونتصدّق على الفقراء، ونقرأ شيئاً من الآيات القرآنية ونتوكّل على الذات الإلهيّة المقدّسة.

روي عن علي بن عمر العطّار، أنّه قال: دخلت على أبي الحسن العسكري يوم الثلاثاء، فقال: لم أرك أمس؟ قال: كرهت الحركة في يوم الإثنين، قال: «يا علي من أحبّ أن يقيه الله شرّ يوم الإثنين، ليقرأ في أوّل ركعة من صلاة الغداة ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ...﴾[(١)] ثمّ قرأ أبو الحسن: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾»[(٢)] [(٣)].

وفي هذا الصدد نقرأ الرّواية التالية أيضاً عن الحلبي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، أيكره السفر في شيء من الأيّام المكروهة، الأربعاء وغيره؟ قال: «افتتح سفرك بالصدقة، واقرأ آية الكرسي إذا بدا لك»[(٤)].

وذكر أيضاً عن الحسن بن مسعود أحد أصحاب الإمام علي الهادي عليه السلام أنّه قال:

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ١.
(٢) سورة الإنسان، الآية: ١١.
(٣) بحار الأنوار، ج ٥٩، ص ٣٩، ح ٨.
(٤) بحار الأنوار، ج ٥٩، ص ٢٨، ح ١٢.

دخلت على أبي الحسن علي بن محمّد عليه السلام، وقد نكبت إصبعي، وتلقّاني راكب فصدم كتفي، ودخلت في زحمة فخرقوا عليّ بعض ثيابي. فقلت: كفانا الله شرّك من يوم فما أشأمك!، فقال عليه السلام لي: «ياحسن هذا وأنت تغشانا ترمي بذنبك من لا ذنب له».

قال الحسن: فأناب إليّ عقلي، وتبيّنت خطئي فقلت يا مولاي: استغفر لي.

فقال عليه السلام: «ياحسن، ما ذنب الأيّام حتى صرتم تتشاءمون منها إذا جوزيتم بأعمالكم؟».

قال الحسن: أنا أستغفر الله أبداً، وهي توبتي، يا بن رسول الله.

قال عليه السلام: «والله ما ينفعكم ولكنّ الله يعاقبكم بذمّها على ما لا ذمّ عليها فيه، أما علمت يا حسن أنّ الله هو المثيب والمعاقب والمجازي بالأعمال عاجلاً وآجلاً؟».

قلت: بلى يا مولاي.

قال عليه السلام: «لا تعد ولا تجعل للأيّام صنعاً في حكم الله».

قال الحسن: بلى يا بن رسول الله[(١)].

إنّ هذا الحديث الهامّ يشير إلى أنّ التأثير الممكن حصوله في الأيّام مردّه إلى أمر الله، وليس للأيّام تأثير مستقل على حياة الإنسان، ولابدّ من استشعار لطف الله دائماً، الذي لا غنى لنا عنه أبداً، وبذلك لا ينبغي أن نتصوّر الحوادث التي هي بمثابة كفّارة لأعمالنا وسيئاتنا غالباً على أنّها مرتبطة بتأثير الأيّام ونبرّئ أنفسنا منها، ولعلّ هذا البيان أفضل طريق للجمع بين الأخبار المختلفة في هذا الباب.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾

(١) تحف العقول، ص ٤٨٢، عن بحار الأنوار، ج ٥٩، ص ٢، ح ٦، باختصار.

التّفسير

العاقبة الأليمة لقوم ثمود

تكملة للأبحاث السابقة، تتحدّث الآيات الكريمة باختصار عن ثالث قوم ذكروا في هذه السورة، وهم (قوم ثمود) الذين عاشوا في (حجر) الواقعة في شمال الحجاز، ليستفاد من قصّتهم الدروس والعبر.

لقد بذل نبيّهم «صالح» عليه السلام أقصى الجهد من أجل هدايتهم وإرشادهم ولكن دون جدوى.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾.

قال بعض المفسّرين: أنّ كلمة (نذر) تعني (الأنبياء المنذرين) ولذا فإنّهم يرون بأنّ تكذيب قوم ثمود لنبيّهم صالح عليه السلام كان بمثابة تكذيب لكلّ الأنبياء، ذلك أنّ دعوة الأنبياء أجمع هي دعوة واحدة ومنسجمة، لكن الظاهر أنّ (نذر) جاءت هنا جمع (إنذار) وهو الكلام الذي يتضمّن التهديد، والذي هو الطابع العام لكلام الأنبياء جميعاً عليهم السلام.

ويستعرض سبحانه سبب تكذيبهم (الأنبياء) حيث يقول على لسان قوم ثمود: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾.

نعم، إنّ الكبرياء والغرور والنظرة المتعالية تجاه الآخرين، بالإضافة إلى حبّ الذات كانت حاجزاً عن الاستجابة لدعوة الأنبياء عليهم السلام، لقد قالوا: إنّ (صالحاً) شخص مثلنا وليست له أيّ امتيازات علينا ليصبح زعيماً وقائداً نطيعه ونتّبعه، كما لا يوجد سبب لاتّباعه.

وهذا هو الإشكال الذي تورده جميع الأقوام الضالّة على أنبيائها بأنّهم أشخاص مثلنا، ولذا لا يمكن أن يكونوا أنبياء إلهيين.

واستفاد قسم آخر من المفسّرين من تعبير ﴿وَٰحِدًا﴾ أنّ قوم صالح كانوا ينظرون إلى نبيّهم أنّه شخص (عادي) وليس له مال وفير ولا نسب رفيع يمتاز به عليهم.

كما يفسّر البعض كلمة ﴿وَٰحِدًا﴾ أنّه شخص واحد لا يمتلك العمق والامتداد الاجتماعي الذي يتطلّبه الموقع القيادي في ذلك العصر، حيث النصرة والمؤازرة.

وهنالك رأي ثالث يذهب إلى أنّ المقصود بكلمة ﴿وَٰحِدًا﴾ ليس هو الواحد العددي، بل مرادهم الواحد النوعي، أي انّه فرد من نوعنا وجنسنا ونوع البشر لا يستطيع أن يبلغ

رسالة سماوية حيث مقتضى ضرورة التبليغ للرسالات السماوية - حسب رأيهم - أن يكون النّبي أو الرّسول (ملكاً).

وطبعاً يمكن الجمع بين هذه التفاسير الثلاثة..

وعلى كلّ حال، فإنّ ادّعاءات قوم صالح كانت واهية وغير منطقية.

﴿وَسُعُرٍ﴾ على وزن (حُمُر) جمع سعير، وفي الأصل بمعنى اشتعال النار وهيجانها، وفي بعض الأحيان بمعنى (جنون) لأنّ الإنسان المجنون يكون في حالة هيجان خاصّة، لذا يقال في بعض الأحيان ناقة مسعورة.

ويحتمل أنّ قوم ثمود أخذوا هذا التعبير من نبيّهم (صالح) عليه السلام حيث كان يقول لهم: إذا لم تتخلّوا عن عبادة الأصنام وتستجيبون إلى دعوة الله فإنّكم في «ضلال وسعر»، وكان ردّهم: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ وعلى كلّ حال فإنّ ذكر كلمة ﴿وَسُعُرٍ﴾ بصيغة الجمع جاءت هنا للتأكيد والاستمرار، سواء كان معناها الجنون أو إشتعال النار.

وتزداد اللجاجة والعناد في قوم ثمود فيتساءلون: إذا أُريد نزول الوحي على إنسان، فلماذا اختّص بصالح من بيننا، مع وجود الشخصيات الأكثر مالاً والأقوى اعتباراً: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾.

وفي الحقيقة أنّ هذه الأقوال لها شبه كبير بأقوال مشركي مكّة، ذلك أنّهم شكّكوا برسالة النّبي بأقوال مماثلة: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾[1].

وتارةً يقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[2].

ثمّ تساءلوا: إذا قدّر لبشر أن يتصدّى لمهمّة الرسالة الإلهيّة، فلماذا كان الاختيار لأشخاص مغمورين ليس لهم ظهير من عشيرة ولا كثرة من مال...

هذه الإشكالات التي تحكي السطحية في التفكير كانت تتناقلها وتتداولها أجيال المشركين جيلاً بعد جيل للتشكيك في الرسالات الإلهية، وذلك لتصوّرهم أنّ من يتصدّى لهذه المهمّة لابدّ أن يكون ذا قوّة وقوم ومال ونسب وجاه ومنصب وشخصية مهمّة، وهذه الأُمور تدلّ على شخصية وكرامة الإنسان، في حين أنّ أكثر العناصر الظالمة والمتجبّرة هي المتّصفة بالصفات السابقة.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧. (٢) سورة الزخرف، الآية: ٣١.

ويمكن تفسير الآية أيضاً - كما اختاره بعض المفسّرين - على ضوء التساؤلات التي أطلقها قوم ثمود والتي تتركّز بما يلي: ما هي علّة نزول الوحي على صالح عليه السلام؟ ولماذا لم ينزل علينا جميعاً؟، وما هي المميّزات التي اختُص بها صالح عليه السلام ليتميّز علينا بهذا الخصوص!؟ وهذا المعنى ورد أيضاً في سورة المدثر، الآية (٥٢) حيث يقول سبحانه في ذلك: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾.

ثمّ تختتم الآية بقوله سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ وذلك اتّهاماً لصالح عليه السلام بالكذب فيما ادّعاه من اختصاص الوحي به وإنذار قومه وأنّه يريد أن يتحكّم علينا ويجعل كلّ أُمورنا تحت قبضته ويسيّرنا وفق هواه وإرادته..

﴿أَشِرٌ﴾ وصف من مادّة (أشر) على وزن (قمر) بمعنى بطر ومرح زائد عن الحدّ.

ويردّ البارئ عزّ وجلّ عليهم بصورة قاطعة بقوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾.

وعندما يدركهم العذاب الإلهي ويسوّيهم مع التراب ويحوّلهم رماداً، وبعد أن يجازيهم الله بأعمالهم في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون... عندئذ سيدركون حقيقة اتّهاماتهم الزائفة التي اتّهموا بها نبيّاً من أنبياء الله المقرّبين، وسيعلمون أيضاً أنّ هذه الافتراءات هي أحقّ بهم وألصق.

ومعلوم أنّ المراد من ﴿غَدًا﴾ هو المستقبل القريب، وإنّه حقّاً لتعبير رائع.

والسؤال المطروح هنا: في الوقت الذي نزلت هذه الآيات على قوم ثمود كان العذاب قد وقع عليهم مجازاة لأعمالهم، فما معنى ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ مع أنّهم قد هلكوا؟.

هنالك إجابتان على هذا السؤال:

الأُولى: إنّ حديث الآيات الكريمة كان موجّهاً للنّبي صالح عليه السلام، ومن المعلوم أنّ العذاب لم يكن قد نزل بهم حينئذ.

الثّانية: إنّ المقصود من ﴿غَدًا﴾ هو يوم القيامة الذي سيظهر فيه كلّ شيء بوضوح. (والتّفسير الأوّل هو الأنسب عند ملاحظة الآيات اللاحقة).

وهنا يطرح تساؤل آخر: لماذا قال تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾؟ في الوقت الذي لمس مشركو قوم ثمود صدق دعوة النّبي صالح عليه السلام لما شاهدوه من معجزاته غير القابلة للإنكار؟

ويتّضح الجواب على هذا التساؤل إذا علمنا أنّ للعلم مراتب، ويمكن إنكاره من قبل الآخرين في بعض مراتبه، وقد يصل العلم بهم إلى مرتبة، لا يمكن إنكارها لما تمثّله من

حقيقة صارخة متجسّدة للعيان، والمقصود هنا من جملة: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ هو العلم الحقيقي الذي لا يمكن إنكاره، والذي هو حقيقة العذاب الذي سيحلّ بقوم ثمود بصورة لا ريب فيها مطلقاً.

ثمّ يشير سبحانه إلى قصّة «الناقة» التي أُرسلت كمعجزة ودلالة على صدق دعوة صالح عليه السلام حيث يقول: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾.

﴿ٱلنَّاقَةِ﴾ أُنثى البعير، وهي ليست كبقيّة النوق لما تتّصف به من خصوصيات خارقة للعادة، وطبقاً للروايات المشهورة فإنّ هذه الناقة قد خرجت من بطن صخرة جبل حجّة دامغة للمنكرين والمعاندين.

معنى «الفتنة» - كما مرّ في بحث سابق - هو التمحيص والاختبار، واكتشاف مدى الإخلاص والصفاء والاستقامة عند الإنسان.

ومن الواضح أنّ قوم ثمود قد جُعلوا أمام امتحان عسير، حيث يستعرض سبحانه هذا الاختبار لهم بقوله: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾[1] يوم لهم ويوم للناقة.

ومع أنّ القرآن الكريم لم يوافنا بتفاصيل أكثر حول هذا الموضوع، ولكن كما يذكر الكثير من المفسّرين فإنّ ناقة صالح عليه السلام كانت تشرب كلّ الماء يوم يكون شربها، ويعتقد البعض الآخر أنّ هيئتها ووضعها كانا بشكل يدفع الحيوانات إلى الفرار من الماء عندما تقترب الناقة نحوه، ولذلك فإنّهم اقترحوا حلاً وهو: أن يكون الماء يوماً لهم وآخر للناقة.

وعلى كلّ حال فإنّ هؤلاء القوم وقعوا في مضيقة من ناحية الماء، ولم يطيقوا وجود الناقة ومشاطرتها لمائهم يوماً كاملاً خصوصاً ما يحتمله بعض المفسّرين من شحّة الماء في القرية (مع العلم أنّ هذا لا يتناسب مع ما ذكر في الآيات (١٤٦ - ١٤٨) من هذه السورة، حيث المستفاد من هذه الآيات أنّ هؤلاء القوم كانوا يعيشون في أرض مليئة بالبساتين والعيون).

وعلى كلّ حال فإنّ قوم ثمود المتمرّدين عقدوا العزم على قتل الناقة، في الوقت الذي حذّرهم نبيّهم صالح عليه السلام من مسّها بسوء، وأخبرهم بأنّ العذاب الإلهي سيقع عليهم بعد فترة وجيزة إن فعلوا ذلك.

---

(١) ﴿مُّحْتَضَرٌ﴾ اسم مفعول من مادّة (حضور) و﴿شِرْبٍ﴾ بمعنى السهم والنوبة الخاصّة بالماء، وبناءً على ذلك فإنّ مفهوم جملة ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ أي أنّ نوبة كلّ شخص من الماء حاضرة له، ولا يحقّ للآخرين الحضور والتزاحم عليها.

ونظراً لاستخفافهم بهذا التحذير (فقد نادوا أحد أصحابهم حيث تصدّى للناقة وقتلها) يقول الله سبحانه: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾.

ويمكن أن يكون المراد بـ(صاحب) أحد رؤساء ثمود، وكان أحد أشرارهم المعروفين ويعرف في التاريخ بـ(قدارة بن سالف)[1].

و(تعاطى) في الأصل بمعنى تناول الشيء، أو تبنّى الموضوع وتقال أيضاً عند إنجاز الأعمال المهمّة والخطيرة وكذلك الأعمال الشاقّة، أو العمل المقابل بعوض.

كلّ هذه التفاسير تجمع في الآية مورد البحث، لأنّ الإقدام على القتل يستدعي جرأة وخسارة كبيرة، كما أنّه عمل شاقّ، وكذلك يستلزم أُجرة في الغالب.

(عَقَرَ) من مادّة (عقر) على وزن (ظلم) وفي الأصل بمعنى الأساس والجذر، وإذا استعمل هذا المصطلح بخصوص الناقة فإنّه يعني القتل والنحر.

والجدير بالذكر أنّ قتل الناقة نسب لشخص واحد في هذه الآية، في الوقت الذي يلاحظ نسبة القتل في سورة (الشمس) لقوم ثمود جميعاً حيث يقول سبحانه: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾، ويمكن تعليل هذا الأمر بأنّ فعل الشخص القاتل كان نيابة عن الجميع وبرضاهم، وكما نعلم فإنّ الذي يرضى بفعل قوم يكون شريكاً لهم فيه[2].

وجاء في بعض الرّوايات أنّ (قدارة) كان قد شرب مسكراً، وقد أقدم على هذا العمل القبيح والجناية الكبيرة وهو في هذه الحالة.

وفي طريقة قتل الناقة أقوال كثيرة، حيث يذهب البعض إلى أنّ قتلها كان بالسيف، ويقول البعض الآخر: إنّ (قدارة) قد نصب لها كميناً وراء صخرة وضربها بالسهم أوّلاً ثمّ هجم عليها بالسيف.

وتأتي الآية الكريمة اللاحقة مؤكّدة إنذارهم قبل نزول العذاب الشديد عليهم، حيث يقول سبحانه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ ثمّ وقع العذاب والسخط الإلهي على هؤلاء المتمرّدين المعاندين حيث يضيف سبحانه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾.

«الصيحة» هنا تعني الصوت العظيم الذي يأتي من السماء، ويحتمل أن يكون إشارة

---

(١) قدارة على وزن (منارة) - كان رجلاً قبيح الشكل والسيرة، ومن أكثر الأشخاص شؤماً في التاريخ.

(٢) كما بيّنا شرح هذا الموضوع تحت عنوان (الارتباط الرسالي) في الآية ٦٥ سورة هود.

للصاعقة المخيفة التي ضربت قريتهم، حيث يقول سبحانه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾(١).

(الهشيم) من مادّة (هشم) على وزن «حسم» وفي الأصل بمعنى انكسار الأشياء الضعيفة كالنباتات، وتطلق عادة على النباتات اليابسة المتكسّرة التي يهيئُها الرعاة لمواشيهم بعد سحقها، كما تطلق أحياناً على النباتات اليابسة المسحوقة بأرجل الحيوانات في الحضيرة.

(محتظر) في الأصل من مادّة (حظر) على وزن (حفز) بمعنى المنع، ولذلك فإنّ إعداد الحظائر للحيوانات والمواشي تكون مانعة لها من الخروج ولدرء المخاطر عنها، ومفردها (الحظيرة)، و«محتظر» على وزن محتسب - هو الشخص الذي يملك مثل هذا المكان.

والاستعراض الذي ذكرته الآية الكريمة حول عذاب قوم ثمود عجيب جدّاً ومعبّر للغاية، حيث لم يرسل الله لهم جيوشاً من السماء أو الأرض للتنكيل بهم، وإنّما كان عذابهم بالصيحة السماوية العظيمة، فكانت صاعقة رهيبة، أخمدت الأنفاس، وكان انفجاراً هائلا حطّم كلّ شيء في قريتهم، فأصبحت بيوتهم وقصورهم كحظيرة المواشي، وأجسادهم المحطّمة كالنبات اليابس المرضوض المهشّم.

إنّ استيعاب هذا اللون من العذاب كان صعباً وعسيراً للأقوام السالفة، ولكنّه يسير بالنسبة لنا، وذلك من خلال معرفتنا لتأثير الأمواج الناتجة من الانفجارات، حيث إنّها تحطّم كلّ شيء يقع ضمن دائرة إشعاعاتها.

ومن الطبيعي أنّنا لا نستطيع المقارنة بين الانفجارات البشرية وصاعقة العذاب الإلهي التي أشاعت الدمار الرهيب في هؤلاء القوم الحمقى المستبدّين، وعلى بيوتهم وقصورهم، عسى أن يكون عبرة ودرساً للآخرين، حيث يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

وهكذا تنهي الآيات الكريمة هذا المشهد المثير بالتأكيد على ضرورة الاستفادة من هذه الدروس البليغة، حيث التعابير الحيوية الواضحة، والقصص المعبّرة، والإنذارات المحفّزة والتهديدات القويّة.

---

(١) سورة فصّلت، الآية: ١٣.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾

التّفسير

المصير الأكثر شؤماً

نلاحظ في هذه الآيات تعبيرات قصيرة وقويّة حول قصّة «قوم لوط» والعذاب الشديد الذي حلّ بهم، وهم المجموعة الرابعة من الأقوام التي اتّصفت بالقبح والضلال والتي استعرضتهم هذه السورة المباركة... حيث يبدأ الحديث عنهم بقوله سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾.

و«نذر» كما ذُكِرَ سابقاً جمع (إنذار) وتعني التهديد والتخويف، ومن المحتمل أن يكون المراد بها بعد ذكرها بصيغة الجمع هو الإنذارات المتعاقبة من النّبي لوط عليه السلام لقومه، والتي كُذّب بها أجمع، كما يمكن أن يكون المقصود منها هو إشارة إلى إنذار لوط عليه السلام والأنبياء الذين سبقوه في الدعوة إلى الله، ذلك أنّ جميع الأنبياء يسعون من أجل تثبيت حقيقة أساسية واحدة وهي العبودية لله.

وتستعرض الآيات التالية بجمل قصيرة مشاهد من العذاب الذي نزل بقوم لوط وكيفية نجاة عائلته حيث يقول سبحانه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾.

و«حاصب» تعني الريح الشديدة التي تأتي بالحجارة والحصباء، والحصباء هي الحصى، ويكون المقصود: إنّا أمطرناهم بالحجارة والحصباء حتى علت أجسادهم ودفنوا تحتها، ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾.

وتتحدّث الآيات القرآنية الأُخرى عن هول العذاب الذي حلّ بقوم لوط حيث الزلازل التي قلبت مدنهم فأصبح عاليها سافلها، وبذلك أُصيبت بكارثة الدمار الماحق... وتتحدّث عن مطر الحجارة والحصى الذي نزل عليهم بشدّة، فيقول سبحانه في ذلك:

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ﴾[١].

ويثار السؤال التالي وهو: هل أنّ العذاب الذي نزل بقوم لوط كان على نوعين: الأوّل: العاصفة التي حملت الحجارة وحصى الصحراء وقذفتهم بها. والثاني: الأحجار السماوية من السجّيل المنضود، أو أنّهما كانا نوعاً واحداً حيث العواصف العظيمة المحمّلة بالحصى والحجارة المأخوذة من الصحراء ترفعه العواصف العاتية نحو السماء ليعود مرّة أُخرى إلى الأرض بعد انخفاض العواصف باتّجاهها.

ولذا فليس من المستبعد أن تأخذ العاصفة قسماً من الحصى والحجارة وترفعها إلى السماء بأمر من الله تعالى لتسقط مرّة أُخرى على مدنهم بعد أن أصابها الزلزال العظيم، فتطمس معالمها المدمّرة، وتمحو آثار خرائبها من على وجه الأرض، وتدفن أجسادهم وتنهي كلّ أثر لهم، كي يكونوا إلى الأبد عبرة وعظة للآخرين[٢].

والذي يفهم من الآية السابقة أنّ نجاة آل لوط كان في وقت السحر، والسبب في ذلك أنّ الوعد بالانتقام الإلهي من قوم لوط كان وقت الصبح، لذلك - بأمر من الله - قد نجت هذه العائلة المؤمنة بخروجها من المدينة آخر الليل - باستثناء زوجته التي تنكّبت وأعرضت عن دعوته - حيث لم يمض وقت طويل حتى نزل العذاب عليهم زلزالاً وعاصفة عاتية تمطرهم بالحصى والحجارة، كما يتحدّث القرآن الكريم عن هذا المشهد المثير في سورة هود ويقول: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾[٣].

ومن هنا يتّضح عدم تناسب أقوال المفسّرين الذين اتّبعوا أقوال أئمّة اللغة وذلك باعتبارهم «السَّحَر» ما بين الطلوعين في الآية أعلاه[٤].

ويضيف الباريء عزّ وجلّ بقوله: ﴿نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾[٥].

إنّ لوطاً عليه السلام قد أتمّ الحجّة على قومه قبل أن ينزل البلاء عليهم، حيث يوضّح الله سبحانه هذه الحقيقة فيقول تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ﴾.

---

(١) سورة هود، الآية: ٨٢.

(٢) توجد أبحاث أُخرى حول هذا الموضوع في الآية (٨٢) من سورة هود.

(٣) سورة هود، الآية: ٨١.

(٤) يقول الراغب في المفردات: السحر اختلاط ظلام آخر الليل بضياء النهار.

(٥) نعمة مفعول به لفعل مقدّر من نفس جنسه، أو أنّه مفعول له لـ ﴿نَّجَّيۡنَٰهُم﴾ الذي ورد في الآية السابقة.

(بطش) على وزن (فرش) وتعني في الأصل أخذ الشيء بالقوّة، ولأنّ المجرم لا يؤخذ إلاّ بالقوّة ليلقي جزاءه، لذلك فإنّها تعني المجازاة.

(تماروا) من (تمارى) بمعنى محادثة طرفين لإيجاد الشكّ وإلقاء الشبهة مقابل الحقّ، فهؤلاء سعوا بطرق مختلفة إلى إلقاء الشكوك والشبهات بين الناس لإبطال تأثير إنذارات هذا النّبي العظيم «لوط» عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ولم يكتفِ هؤلاء المعاندون بإلقاء الشبهاتِ العقائدية بين الناس، بل بلغت بهم الوقاحة والصلف وعدم الحياء حدّاً أنّهم تجرّؤوا على ملائكة الرحمن وضيوف النّبي الكريم المأمورين بعذاب هؤلاء القوم حينما دخلوا بيت لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ بصورة شباب وسيمين، حيث يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ أي أنّهم طلبوا منه أن يضع ضيوفه تحت تصرّفهم.

لقد بلغ الألم الذي اعترى «لوطاً» عَلَيْهِ السَّلَامُ حدّاً لا يطاق نتيجة هذا التصرّف القبيح والمخجل لقومه، وطلب بإصرار أن يكفّوا عن هذا السلوك المشين المخجل البعيد عن الشرف والحياء. بل وأبدى استعداده عَلَيْهِ السَّلَامُ لتزويج بناته لهم - إن أعلنوا توبتهم - وهذه أعلى حالات المظلومية التي يتعرّض لها هذا النّبي الكريم من قبل قوم عديمي الحياء والإيمان والقيم الخيرة، كما في قوله سبحانه: ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾[(١)].

ولم يمض وقت طويل حتى واجهت هذه الفئة المجرمة الباغية الجزاء الأوّلي لعملهم الإجرامي حيث يقول في ذلك سبحانه: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾.

إنّ يد القدرة الإلهيّة امتدّت لتنتقم من هؤلاء القوم المجرمين، وذلك بأن طمست على أعينهم، حيث يقول البعض بأنّ جبرائيل قد أُمر أن يخفق بجناحهم على عيونهم حيث فقدوا بصرهم حالاً، وقيل إنّ بؤر أبصارهم قد أصبحت مستوية مع وجوههم.

ومع أنّ القرآن الكريم لم يبيّن من هم الأشخاص الذين راودوا (الملائكة) ضيوف النّبي الكريم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، إلاّ أنّ من الواضح أنّه لم يكن جميع القوم، بل أوباشهم الأكثر وقاحة وإجراماً الذين تسابقوا للقيام بهذا الجرم المشين، ولذا فإنّ العذاب الذي لحقهم في طمس عيونهم يفترض أن يكون عبرة للآخرين من قومهم، وللأسف الشديد

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٧١.

لم يكن هنالك من يتّعظ ويعتبر بهذا الدرس الإلهي البليغ، والذي كان مقدّمة للعذاب الإلهي المحتوم عليهم جميعاً.

ويقال: إنّ سبب تأخير العذاب على قوم لوط إلى الصبح، هو أنّ هذه الحادثة كانت قد وقعت قبل يوم، لذا فقد أُعطي لهؤلاء المعاندين مهلة ليلة أُخرى عسى أن يفكّروا في مصيرهم قبل نزول البلاء عليهم، ويعتبروا بهذه الثلّة السيّئة الحظّ ممّن فقدوا بصرهم.

وتذكر الرّواية أنّ الجناة الذين فقدوا بصرهم لم يتّعظوا أيضاً بما أصابهم، فقد توعّدوا آل لوط أن لا يبقوا منهم أحداً، وذلك في طريق عودتهم إلى بيوتهم وهم يتلمّسون الجدران ليهتدوا بواسطتها إلى أهليهم[1].

وجاءت الساعة المرتقبة حيث أمر الله بفنائهم وقلبت الزلزلة مدينتهم رأساً على عقب وصُبّ عليهم العذاب صبّاً مع أوّل خيط من أشعّة فجر ذلك اليوم، فتتمزّق أجسادهم وتتلاشى أبدانهم وتدمّر بيوتهم وتندثر قصورهم وتتحوّل إلى أنقاض وخرائب، وإذا بالمطر الحجري ينهمل عليهم ويطمس كلّ معالم الحياة لديهم حتى لم يبق أي أثر لهم.

وذلك ما تشير له الآية الكريمة حيث تعكس هذا المعنى باختصار وتركيز ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾.

نعم، وفي لحظات قصار انتهى كلّ شيء ولم يبق لهم أثر!!

كلمة ﴿بُكْرَةً﴾ تعني (أوّل اليوم) لأنّ ﴿صَبَّحَهُم﴾ واسع المعنى ويشمل كلّ الصباح، في الوقت الذي يقصد في الصباح هنا (أوّله).

وهل كان وقت العذاب الإلهي بداية طلوع الفجر، أو أنّه حصل في بداية طلوع الشمس؟ إنّ هذا الأمر لم يعرف بالضبط ولكن تعبير ﴿بُكْرَةً﴾ يتناسب أكثر مع بداية طلوع الشمس.

كلمة ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ تعني الثبوت والإحكام، أي بمعنى (ثابت الحكم) ويحتمل أن يكون المراد به هنا هو: أنّ العذاب الإلهي كان شديداً إلى حدّ أنّ أي قوّة لم تكن قادرة على مواجهته.

ويقال أنّ العذاب الدنيوي لهؤلاء القوم متّصل مع عذاب البرزخ، لذا أُطلق عليه أنّه ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص١٨٥.

ثمّ يضيف سبحانه مؤكّداً ومكرّراً مرّة أُخرى قوله: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ .

لكي لا يكون مجال للشكّ والتردّد في إنذار الأنبياء لكم بعد هذا، ورغم أنّ هذه الجملة ذكرت مرّتين في القصّة: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ إلاّ أنّه من الواضح هنا أنّ الجملة الأُولى تشير إلى العذاب الذي حلّ بالمجموعة التي اقتحمت بيت لوط عليه السلام وما نتج من إصابتهم بالعمى مقدّمة للعذاب العامّ، والثانية إشارة إلى العذاب الذي نزل بقوم لوط أجمع من الزلازل والدمار ومطر الحجارة.

وفي نهاية المطاف وفي آخر آية من بحثنا هذا تتكرّر جمل الموعظة والعبرة وللمرّة الرابعة في هذه السورة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ .

نعم، لم يتّعظ قوم لوط من النذر، ولم يتّعظوا من العذاب الأوّل الذي أعمى أبصار البعض منهم والذي كان بمثابة إنذار لهم فهل أنّ الآخرين الذين يرتكبون نفس الذنوب يتّعظون لدى سماع آيات القرآن هذه ويتوبوا إلى رشدهم ويندموا على ما فرط منهم؟! . .

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾

التّفسير

هل أنتم أفضل من الأقوام السابقة؟!

المجموعة الخامسة التي يتحدّث عنها القرآن في هذه السلسلة هم قوم فرعون، ولأنّ الحديث عن هؤلاء القوم قد طرح بصورة تفصيلية في السور القرآنية المختلفة، لذا فإنّ هذه السورة المباركة تستعرض هذه القصّة في مقاطع مختصرة ومركّزة حول ضرورة الاستفادة من العبر التي جاءت فيها والاتّعاظ منها. . .

يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾(١) .

---

(١) (نذر) بالإضافة إلى كونها جمع (نذير)، فإنّها تعطي أيضاً معنى المصدر أو اسم المصدر، ولكون المصدر يطلق على المعنى الوصفي أيضاً، لذا يمكن جمع الاثنين في مفهوم واحد.

المقصود من ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ ليسوا أهل بيته ومتعلّقيه فقط، بل يشمل كلّ أتباعه بصورة عامّة، لأنّ كلمة (آل) وبالرغم من أنّها تستعمل في الغالب لأهل البيت والعائلة، إلاّ أنّ معناها أوسع من ذلك، حيث تأتي بالمعنى الذي ذكر، والقرائن العامّة في هذا المورد تؤيّد هذا المعنى الواسع لها.

(نذر) على وزن (كتب) وهي جمع نذير، وبمعنى «المنذر» سواء كان هذا المنذر إنساناً أو حادثة من الحوادث التي تحذّر الإنسان من عاقبة أعماله، وفي الحالة الأُولى يمكن أن يكون المقصود في الآية أعلاه (موسى وهارون) عليهما السلام، وفي الصورة الثانية إشارة إلى المعجزات التسع لموسى عليه السلام. ومن خلال ملاحظة الآية التي بعدها تشير إلى أنّ المعنى الثاني هو الأنسب.

والآية اللاحقة تكشف عن ردّ الفعل لآل فرعون من دعوة النبيين الإلهيين عليهما السلام، والإنذارات التي وجّهوها لهم حيث يقول الله سبحانه: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾.

نعم إنّ هؤلاء المغرورين من الجبابرة والمعاندين قد أنكروا كلّ الآيات الإلهيّة وبدون استثناء، وحسبوها سحراً وكذباً وصدفة.

(آيات) لها معنى واسع تشمل الدلائل العقلية والمعجزات والدلائل النقلية، وعند ملاحظة قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾(١) يتبيّن لنا أنّ المقصود بـ(الآيات) هنا هي المعجزات التسع لموسى عليه السلام (٢).

إنّ الإنسان إذا كان صادقاً في البحث عن الحقيقة فإنّه يكفيه أن يرى واحدة منها، وخاصّة تلك التي يسبقها إنذار، ثمّ بلاء، ثمّ زوال هذا البلاء عند دعاء النّبي الإلهي، ولكن العناد والإصرار على الباطل والغرور إذا ركب الإنسان، فحتّى لو أصبحت جميع السماء والأرض آيات لله، فلن تكون ذات تأثير على أمثال هؤلاء، والجواب الحاسم المناسب لهم هو العذاب الإلهي الذي يقضي على النزعات الشريرة والنفوس المريضة

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٠١.

(٢) المعجزات التسع لموسى عليه السلام وبالنظر إلى الآيات القرآنية المختلفة فهي عبارة عن: «(١) تبديل العصا لثعبان عظيم» (طه / ٢٠) (٢) «يد بيضاء» ولمعان يد موسى عليه السلام كمصدر نور (طه / ٢٢) (٣) الطوفانات المحطّمة (الأعراف / ١٣٣) (٤) (الجراد) الذي سلّط على المزارع، (٥) (والقمل) (وهو نوع من الآفات الزراعية)، (٦) (الضفادع) التي خرجت من نهر النيل وبعد مدّة قصيرة غطّت سطحه (٧) (الدم) حيث أصبح لون نهر النيل بلون الدم (الأعراف / ١٣٣)، (٨)، (٩) عدم نزول الأمطار ونقص الثمرات (الأعراف / ١٣٠).

التي يملؤها الهوى والغرور. كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ تكملة للآية مورد البحث.

﴿أَخْذَ﴾ في الأصل بمعنى تناول الشيء وأخذه باليد، ولكون المجرم يؤخذ قبل أن يعاقب، لذا فإنّها تستعمل كناية عن المجازاة.

والتعبير الآخر الذي أتى في آخر هذه القصّة لا يوجد له شبه في التعابير المماثلة في القصص الأُخرى، وذلك لأنّ الفراعنة كانوا يتباهون بقوّتهم وسطوتهم وعزّهم أكثر من بقيّة الأُمم، والحديث عن قوّة سلطانهم كان في كلّ مكان، يقول الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ وذلك كي يكون واضحاً للجميع أنّ القوّة الحقيقة هي لله وحده، لأنّ كلّ قوّة وعزّة أُخرى غير قوّته وما يتّصل بذاته وهميّة لا تساوي شيئاً في قبال عزّته وقدرته... والعجيب أنّ نهر النيل العظيم الذي كان مصدر خير وثروة لهم، هو الذي أُمر بالانتقام منهم، والأعجب من ذلك أنّ أضعف المخلوقات سلّطت عليهم كالجراد والضفادع والقمل فجعلتهم في حالة عجز ومسكنة لا يقدرون على دفعها، وهم الذين كانوا من السطوة والقوّة موضع حديث أهل زمانهم.

وبعد بيان هذه المشاهد المؤثّرة من قصص الأقوام المنصرمة والعذاب الإلهي العظيم الذي حلّ بهؤلاء الجبابرة المتمردّين على الحقّ، يخاطب الله سبحانه في الآية اللاحقة مشركي مكّة بقوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾(١).

فما الفرق بينكم وبين قوم فرعون وقوم نوح ولوط وثمود؟ فكما أنّ أُولئك الأقوام قد عذّبوا بالطوفان تارةً والزلازل والصواعق أُخرى، اقتصاصاً منهم للكفر والظلم والطغيان والعصيان الذي كانوا عليه... فما المانع أن يصيبكم العذاب ويكون مصيركم نفس المصير... فهل أنتم أفضل منهم؟ وهل أنّ كفركم وعنادكم أخفّ حدة؟ وكيف ترون أنّكم مصونون من وقوع العذاب الإلهي؟ أألقي إليكم كتاب من السماء يعطيكم هذا الأمان؟

ومن الطبيعي أنّ مثل هذه الادّعاءات ادّعاءات كاذبة لا يقوم عليها أي دليل ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾(٢).

---

(١) الضمير في «كفّاركم» يرجع في الظاهر (لمشركي العرب) بقرينة الجملة ﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾.

(٢) بالرغم من أنّ ﴿نَحْنُ﴾ ضمير جمع فإنّ خبرها ﴿جَمِيعٌ﴾ قد جاء مفرداً، وكذلك منتصر والتي جاءت خبراً بعد خبر أو صفة لـ ﴿جَمِيعٌ﴾، والسبب في ذلك أنّ لفظ ﴿جَمِيعٌ﴾ وإن كانت مفردة إلاّ أنّ المعنى (جمع).

«جمع» بمعنى مجموع، والمقصود هنا هي الجماعة التي لها هدف وقدرة على إنجاز عمل، والتعبير هنا بـ ﴿مُّنتَصِرٌ﴾ تأكيد على هذا المعنى لأنّه من مادّة (انتصار) بمعنى الانتقام والغلبة.

والجدير بالذكر هنا أنّ الآية السابقة كانت بصورة خطاب، أمّا في الآية مورد البحث والآيات اللاحقة، فإنّ الحديث عن الكفّار بلغة الغائب، وهو نوع من أنواع التحقير، أي أنّهم غير مؤهّلين للخطاب الإلهي المباشر.

وعلى كلّ حال، فإنّ ادّعاءهم بالقوّة والقدرة ادّعاء فارغ وقول هراء، لأنّ الأقوام السابقة من أمثال قوم عاد وثمود وآل فرعون وأضرابهم كانوا أكثر قوّة وسطوة، ومع ذلك فلم تغن عنهم قوّتهم شيئاً حينما واجهوا العذاب، وكانوا من الضعف كالقشّة اليابسة تتقاذفها الأمواج من كلّ مكان، فكيف بمن هو أقل عدداً وأضعف حيلة وقوّة ومنعة؟

ويواجه القرآن الكريم هؤلاء السادرين في غيّهم بإخبار غيبي حاسم وقوي، حيث يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[1].

والظريف هنا أن ﴿سَيُهْزَمُ﴾ من مادّة (هزم) على وزن (جزم) وفي الأصل بمعنى الضغط على الجسم اليابس لحدّ التلاشي. ولهذا السبب استعملت هذه الكلمة (هزم) في حالة تدمير الجيوش وانكسارها.

وربّما أشار هذا التعبير إلى النقطة التالية وهي: رغم حالة الاتّحاد والانسجام لهؤلاء القوم ظاهراً، إلاّ أنّهم كالموجودات اليابسة والفاقدة للروح، فبمجرّد تعرّضها إلى ضغط قوي تتهشّم، ونرى عكس ذلك في المؤمنين المتّصفين بالقوّة المقترنة بالمرونة، حيث إنّهم إذا ثقلت عليهم المحن واشتدّت الأزمات وأجنتهم العاصفة فإنّهم سرعان ما يستعيدون قواهم مرّة أُخرى ليواجهوا مصاعب الحياة.

«دُبر» بمعنى «خلف» في مقابل (القُبل) بمعنى «أمام»، وسبب ذكر هذه الكلمة هنا لبيان حالة الفرار من ساحة المعركة بصورة كليّة.

لقد صدق هذا التنبّؤ في معركة بدر وسائر الحروب الأُخرى حيث كانت هزيمة الكفّار ساحقة، فإنّه رغم قدرتهم وقوّتهم فقد تلاشى جمعهم.

---

(١) مع العلم أنّ من المناسب أن يقال (يولّون الأدبار) إلاّ أنّه قيل هنا: ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، لأنّ لهذا المعنى (جنس) حيث تكون في حكم الجمع.

وفي آخر الآية مورد البحث يشير سبحانه إلى أنّ الهزيمة التي مُني بها المشركون سوف لن تكون في الدنيا فقط، وإنّما هي في الآخرة أشدّ وأدهى، حيث يقول الباريء عزّوجلّ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾.

وعلى هذا التصوّر، فما عليهم إلاّ أن ينتظروا هزيمة ماحقة في الدنيا، ومصيراً سيّئاً واندحاراً أمرّ وأكثر بؤساً في الآخرة.

﴿أَدْهَىٰ﴾ من مادّة (دَهْوَ) و(دهاء) بمعنى المصيبة والكارثة العظيمة والتي لا مخرج منها ولا نجاة، ولا علاج لها، وتأتي أيضاً بمعنى الذكاء الشديد، إلاّ أنّ المقصود منها في الآيه الكريمة هو المعنى الأوّل.

نعم إنّهم سيبتلون يوم القيامة بعذاب محتّم وعاقبة بائسة لا مفرّ منها.

ملاحظة

تنبّؤ إعجازي صريح

ممّا لا شكّ فيه أنّه عندما نزلت هذه الآيات في مكّة المكرّمة كان المسلمون أقليّة ضعيفة، وكان العدو في أوج القوّة والقدرة، ولم يكن أحد يتوقّع انتصار المسلمين بهذه السرعة، فهو أمر غير قابل للتصديق في تلك الظروف، ولا مجال للتنبّؤ به.

وكانت هجرة المسلمين بعد فترة وجيزة من هذا التاريخ حيث اكتسبوا خبرة وقوّة، ممّا جعلهم يحقّقون الانتصار والغلبة على المشركين في أوّل مواجهة عسكرية معهم، وذلك في معركة بدر، حيث وجّه المسلمون صفعة قويّة مفاجئة لمعسكر الكفر، ولم يمض وقت طويل إلاّ ونلاحظ أنّ الإيمان بالرسالة المحمديّة لم يقتصر على مشركي مكّة فحسب، بل شمل الجزيرة العربية أجمع، حيث استسلمت للدعوة الإلهيّة.

أليس هذا النبأ الغيبي الإلهي الذي واجهنا بهذه الصراحة والجديّة معجزة؟

ومن الواضح أنّ أحد عناصر الإعجاز في القرآن الكريم هو تضمّنه للأخبار الغيبية، وهذا ما نلاحظه في الآية مورد البحث.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ

﴿فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾

التفسير

المؤمنون في ضيافة الله

في الحقيقة إنّ هذه الآيات هي استمرار لبحث الآيات السابقة حول بيان أحوال المشركين والمجرمين في يوم القيامة، وآخر آية من تلك الآيات تعكس هذه الحقيقة بوضوح، وهو أنّ يوم القيامة هو الموعد المرتقب لهؤلاء الأشرار في الاقتصاص منهم، حيث يحمل المرارة والصعوبة والأهوال لهم، والتي هي أشدّ وأقسى ممّا أُصيبوا به في هذه الدنيا.

وتتحدّث الآية الأُولى - مورد البحث - عن ذلك حيث يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾(١).

يقول البارئ عزّوجلّ: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ حيث يبيّن الله سبحانه أنّ العذاب الإلهي واقع عليهم ولا ريب فيه، وسيواجهونه عمليّاً رغم استهزائهم وسخريتهم وادّعائهم أنّه من نسج الأساطير.

﴿سَقَرَ﴾ على وزن (سفر) وفي الأصل بمعنى تغيّر لون الجلد وتألّمه من أشعّة الشمس وما إلى ذلك. ولأنّ إمكانية تغيير لون الجلد وألمه الشديد من خصوصيات نار جهنّم، لذا أُطلق اسم ﴿سَقَرَ﴾ عليها. والمراد من ﴿مَسَّ﴾ هو حالة التماس واللمس، وبناءً على هذا فيقال في أهل النار: ذوقوا لمس نار جهنّم وحرارتها اللاذعة، ذوقوا طعمها، هل هي أكاذيب وخرافات وأساطير، أم أنّها الحقيقة الصارخة؟

ويعتقد البعض أنّ ﴿سَقَرَ﴾ ليس اسم كلّ النار، بل هو اسم مختّص بجانب منها تكون فيه النار حامية لدرجة مذهلة وخارقة.

---

(١) ﴿سُعُرٍ﴾ كما بيّنا سابقاً في آخر الآية (٢٤) من نفس السورة لها معنيان: الأوّل: انّها جمع سعير بمعنى إشتعال النار. والثّاني: بمعنى الجنون والهيجان الذي يلازمه اضطراب التوازن الفكري، وفي الآية مورد البحث يمكن أن يكون بالمعنيين معاً، وإذا قصدنا المعنى الثاني فيكون مفهوم الآية كذلك: أنّهم كانوا يقولون إذا اتّبعنا إنساناً مثلنا فإذاً نحن في ضلال وجنون، وهنا يردّ القرآن الكريم عليهم بقوله: ستعلمون يوم القيامة آثاركم وتكذيبكم للأنبياء هو الضلال والجنون.

وفي ثواب الأعمال عن الصادق عليه السلام: «إنّ في جهنّم لوادياً للمتكبّرين يقال له سقر شكا إلى الله شدّة حرّه، وسأله أن يأذن له أن يتنفّس فأحرق جهنّم»[1].

ولكي لا يتصوّر أنّ هذه الشدّة في العذاب لا تتناسب مع المعاصي، يقول سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾.

نعم إنّ عذابهم في هذه الدنيا كان بتقدير وحساب، وكذلك سيكون عقابهم المؤلم في الآخرة، وليس الجزاء فقط، ذلك أنّ الله سبحانه خلق كلّ شيء بحساب وتقدير، فالأرض والسماء والكائنات الحيّة والموجودات الجامدة وأعضاء الإنسان ومستلزمات الحياة كلّها خلقت بقدر معلوم، ولا يوجد شيء في هذا الوجود بدون حساب وتقدير، لأنّ الخلاّق عليم حكيم ومقدّر.

ثمّ يضيف تعالى أنّه ليست أعمالنا موافقة للحكمة فحسب، بل إنّها مقترنة مع القدرة والحسم، لأنّه: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾.

وتتجسّد الإرادة الربّانية والأوامر الإلهيّة من خلال كلمة «كن» فيترتّب على ذلك فوراً وجود الشيء. (حتى كلمة «كن» جاءت من باب ضيق البيان، وإلاّ فإنّ الإرادة الإلهيّة متحقّقة بمجرّد الإرادة).

ولذلك فإنّ اليوم الذي تقوم فيه الساعة يحدث بأمر الله بلمح البصر، وكلّ شيء يكون في مسار الآخرة حينئذ، وتبعث الحياة من جديد في الأبدان.

كما أنّ المشيئة الإلهية في مجازاة المجرمين بالصواعق والصيحات السماوية والزلازل والطوفان والرياح العاتية... كلّ ذلك يحدث بمجرّد الأمر الإلهي وبدون تأخير.

إنّ هذه الإنذارات الموجّهة للعصاة والمذنبين كلّها من أجل أن يعلموا أنّ الله، كما هو حكيم في أمره فإنّه حازم في فعله، فهو حكيم في عين الحزم، وحازم في عين الحكمة، فليحذروا مخالفة تعاليمه وأوامره.

وفي الآية اللاحقة يخاطب الكفّار والمجرمين مرّة أُخرى، ويلفت انتباههم إلى مصير الأقوام السابقة حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

«أشياع» جمع (شيعة) وتطلق على الأتباع الذين ينشرون ويشيعون ما يرتبط بالشخص

---

(١) تفسير الصافي، ذيل الآية مورد البحث.

المتّبع في كلّ الحالات ويسندونه ويناصرونه، وإذا استعملت بمعنى (تابع) فإنّها تكون بنفس القصد.

ومن الطبيعي فإنّ الأقوام السابقة لم يكونوا أتباعاً وشيعة لمشركي مكّة وأمثالهم، بل العكس هو الصحيح، ولكن بما أنّ المؤيّدين لشخص ما يشبّهونه في سلوكه، لذا فإنّ هذا المصطلح يطلق على الشبيه والمماثل أيضاً.

ويجدر بنا القول بأنّ هذه الطائفة من مشركي مكّة كانوا يستعينون ويستفيدون من الخطّ الفكري الذي كانت الأقوام السابقة عليه، ولهذا السبب فإنّ كلمة (أشياع) أُطلقت على الأقوام السابقة.

وعلى كلّ حال، فإنّ الآية الكريمة تؤكّد هذه الحقيقة مرّة أُخرى، وهي أنّ أعمال مشركي قريش وممارساتهم هي نفس أعمال وممارسات وعقائد الأقوام السابقة، لذا فلا يوجد دليل على أنّ مصيركم سوف يكون أفضل من مصيرهم، فاتّعظوا وعوا.

ثمّ يشير القرآن إلى هذا الأصل وهو أنّ صفحة أعمال الأقوام السابقة لم تنته بموتهم، بل هي باقية ومسجّلة عليهم، يقول سبحانه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ فكذلك أعمالكم مثبّتة ومحفوظة ليوم الحساب.

«زبر» جمع (زبور) بمعنى الكتاب، وهي تشير إلى صحيفة أعمال الإنسان، ويحتمل البعض أنّ المقصود هنا هو: «اللوح المحفوظ»، ولكن هذا المعنى لا يتناسب مع صيغة الجمع.

ثمّ يضيف سبحانه: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾.

وبناءً على هذا فحساب الأعمال في ذلك اليوم هو حساب شامل وتامّ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، حيث يستلم المجرمون صفحة أعمالهم كاملة، فيصعقون لهولها ويصطرخون لدقّتها ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾[1].

﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ من مادّة (سطر) في الأصل بمعنى (صفّ) سواء ما يتعلّق بالأفراد أو الأشجار أو الكلمات التي تصف على الأوراق، ولكون المعنى الأخير أكثر استعمالاً، لذا يتبادر إلى الذهن معناها الأخير.

وعلى كلّ حال فإنّه إنذار آخر لهؤلاء العاصين والمغفّلين والجهلة.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

ولمّا كانت السنّة المتّبعة في القرآن الكريم غالباً ما تعتمد المقارنة بين جبهة الصلاح والهدى من جهة، وجبهة الفساد والضلال من جهة أُخرى، لأنّ في المقارنة يبرز التفاوت والاختلاف بصورة أفضل، فهنا أيضاً بعد الحديث عن مصير الكفّار والمجرمين يشير سبحانه إشارة مختصرة إلى العاقبة السعيدة والحبور العظيم الذي يكون من نصيب المتّقين حيث يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ﴾.

﴿وَنَهَرٍ﴾ على وزن (قمر)، وكذلك ﴿وَنَهْرٍ﴾ على وزن (قهر) والاثنان يعنيان مجرى الماء الكثير، ولهذا يطلق على الفضاء الواسع كذلك، أو الفيض العظيم أو النور المنتشر﴿وَنَهَرٍ﴾ - على وزن قمر -.

وبغضّ النظر عن الحديث اللاحق، يمكن أن يكون هذا المصطلح في الآية أعلاه بنفس المعنى الأصلي، أي أنّ كلمة ﴿وَنَهَرٍ﴾ بمعنى نهر الماء، ولا إشكال في كون الكلمة بصيغة المفرد، لكونها تدلّ على معنى الجنس والجمع، فينسجم مع ﴿جَنَّـٰتٍ﴾ جمع «جنّة»، ويمكن أن يكون المراد منها هو اتّساع الفيض الإلهي والنور العظيم في ظلال الجنّة ورحابها الواسعة، وبذلك تشمل المعنيين.

ولكن نقرأ هنا في حديث للرسول الأعظم ﷺ والذي نقل عن الدرّ المنثور أنّه قال: «النهر: الفضاء والسعة، وليس بنهر جار»(١).

وفي آخر آية مورد البحث والتي هي آخر آية في سورة القمر يوضّح البارئ بصورة أكثر (مستقر المتّقين) حيث يقول سبحانه أنّهم: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

ويا له من وصف رائع وظريف! حيث إنّ هذا الوصف يتميّز بخصوصيتين تجمعان كلّ السمات الرائعة:

الأُولى: أنّ المكان هو (مستقرّ صدق) وليس فيه باطل، بل كلّه حقّ يجد فيه المتّقون كلّ ما وعدوا به كاملاً غير منقوص.

الثانية: أنّهم في جوار وقرب الله سبحانه، وهذا هو المستفاد من كلمة ﴿عِندَ﴾ والذي يشير إلى غاية القرب المعنوي، وهذا القرب هو من الله المالك القادر... ما أروعه عن قرب من الربّ الكريم الوهّاب والذي يمنح العطايا والهبات لضيوفه المتّقين بجميل لطفه وعظيم إحسانه وواسع كرمه، حيث جميع ما في الوجود تحت قبضته وإمرته ومالكيته،

(١) تفسير الدرّ المنثور، ج٦، ص١٣٩.

وهو المنّان الذي لا ينقصه شيء في السماوات والأرض، والذي وعد المتّقين بالخير العظيم وأعدّ لهم عظيم العطايا والإحسان.

والنقطة الجديرة بالذكر في هاتين الآيتين والتي تتحدّث فيها عن الهبات وجزاء أصحاب اليمين، حيث في البداية تتحدّث عن العطايا الماديّة التي تشمل البساتين الوارفة والحدائق الغنّاء والأنهار الجارية، ثمّ تتحدّث بعد ذلك عن الجزاء المعنوي العظيم، والذي يتجسّد بحضورهم من المليك المقتدر، وذلك تهيئة للإنسان من مرحلة إلى أخرى، يغمرها الشوق والحبور والرغبة في العمل الصالح، خصوصاً أنّ تعابير ﴿مَلِيكٍ﴾ و﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ و﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ تدلّ جميعها على دوام وبقاء هذا الحضور والقرب المعنوي من الذات الإلهيّة.

بحوث

١ - التقدير والحساب في كلّ شيء

تشير الآية الكريمة ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ رغم إيجازها إلى حقيقة مهمّة كامنة في جميع الكون وحاكمة عليه، وهي دقّة الخلق والتقدير في جميع الوجودات.

ومهما تطوّر العلم فإنّ الإنسان يطّلع على مزيد من هذه الحسابات والتقديرات الإلهيّة الدقيقة في عالم الوجود، والتي تشمل الكائنات المجهرية والأجرام السماوية العظيمة.

فمثلاً: نسمع عن روّاد الفضاء أنّهم طبقاً للحسابات العلمية الدقيقة التي أُنجزت بواسطة مئات الأفراد المتخصّصين المستخدمين العقول الإلكترونية، أنّهم سيهبطون بسفنهم الفضائية بنفس النقطة المحدّدة لهم على سطح القمر، مع العلم أنّ كلّ شيء سيتغيّر في الفترة الزمنية التي تسير فيها السفينة الفضائية بين الأرض والقمر، حيث يدور القمر حول نفسه وكذلك حول الأرض ويتغيّر مكانه بصورة كليّة، وتدور الأرض حول نفسها، وكذلك حول الشمس وبسرعة فائقة، ولأنّ جميع هذه التغييرات والحركات محسوبة ومقدّرة بصورة مضبوطة ودقيقة بحيث لا تتخلّف عن هذه الأنظمة، يستطيع الفضائيون الهبوط في النقطة المحدّدة لهم على سطح القمر نتيجة تلك الحسابات والتقديرات الدقيقة.

ويستطيع المنجّمون كذلك من التنبّؤ بالخسوف والكسوف الجزئي والكلّي، وقبل

عشرات السنين، وفي مختلف نقاط العالم، وتلك قرائن ودلائل على دقّة المقاييس في هذا الوجود العظيم.

وفي الكائنات الصغيرة والديدان الدقيقة نلاحظ دقّة المقاييس والحساب بصورة تدعو للظرافة والإعجاب والانبهار عندما نشاهد طبيعة العروق والأعصاب والأجهزة المختلفة لهذه الكائنات.

وعندما ندقّق في الكائنات المجهرية كالمكروبات والفيروسات والأميبيات يبلغ إعجابنا أوجه لما نلاحظه من الدقّة فيها، رغم أن حجمها يبلغ نسبة الواحد على الألف من المليم وأصغر من ذلك، والأعجب من ذلك حينما ندخل عالم الذرّة حيث تصل الدقّة فيها إلى حدّ لا يصدّق وخارج عن الحدود المتصوّرة.

إنّ هذه المقاييس ليست مختّصة بالمسائل الكميّة فقط، بل إنّ التركيبات الكيفية أيضاً تتمتّع بنفس الخصوصيات الحسابية، فالنظام المتحكّم على روح الإنسان وميوله وغرائزه، وكذلك المقاييس الدقيقة في مسير المتطلّبات الفردية والاجتماعية للإنسان إذا طرأ عليها أي تغيير فإنّ النظام الحياتي الفردي والاجتماعي سيتعرّض للتغيّر والانهيار.

وفي عالم الطبيعة هنالك موجودات يتغذّى بعضها على البعض الآخر، وكلّ منها يوقف حالة النمو والتكاثر لكلّ منها، فالطيور الجارحة تتغذّى على لحوم الطيور الصغيرة، وتمنع تزايدها بصورة أكثر من اللازم حتى لا تضرّ المحاصيل الزراعية، ولذا فإنّ الطيور الجارحة معمّرة، وهذه الطيور المعمّرة قليلة البيض والفراخ، وعدد محدود من هذه الأفراخ يستطيع العيش، حيث يستدعي نموّها وبقاؤها ظروفاً خاصّة، ولو قدّر لهذه الطيور أن يكون لها فراخ كثيرة وبهذا العمر الطويل لأدّى ذلك إلى انقراض الطيور الصغيرة.

إنّ لهذه الحالة أمثلة عديدة وواسعة في عالم الحيوان والنبات، والمطالعات المختلفة في هذا المجال تزيدنا وعياً في فهم الآية الكريمة: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾.

٢ - التقدير الإلهي وإرادة الإنسان

قد يتوهّم البعض من خلال ما طرحته الآية الكريمة من الاعتقاد بالتقدير والحساب الإلهي أنّ أعمالنا وممارساتنا التي نقوم بها لابدّ أن تكون واقعة ضمن هذا القانون فهي مخلوقة لله تعالى أيضاً وبالتالي فلسنا مسؤولين عنها ولا اختيار لنا فيها.

ولكن كما قلنا سابقاً فإنّ أعمالنا هي بتقدير ومشيئة البارئ عزّوجلّ، ولن تخرج عن

دائرة قدرته وإرادته أبداً، وقد جعلنا الله سبحانه مختارين فيها ضمن ما قدّر لنا، ولذلك عيّن لنا مسؤوليات وتكاليف فلو لم نكن مختارين فإنّ هذه المسؤوليات والتكاليف ستكون بلا معنى حيث إنّ فقدان الإرادة يجعلنا مجبورين في أعمالنا، وهذا خلاف التقدير الإلهي.

ونلاحظ في مقابل إفراط (الجبريين) تفريط جماعة (القدريين) أو المفوّضة الذين يذهبون صراحةً إلى القول بأنّ الله لا يتدخّل في أعمالنا وممارساتنا، حيث إنّهم يحدّون ويحجمون دائرة الهيمنة الإلهيّة على الإنسان ويعتقدون باستقلاليتهم تماماً عن المشيئة الإلهيّة، وبذلك سلكوا طريق الشرك من هذه الجهة.

والحقيقة أنّ الجمع بين أصلي (التوحيد والعدل) يحتاج إلى دقّة وضبط، فلو فسّرنا التوحيد بأنّ الله خالق كلّ شيء حتى أعمالنا بشكل لا نملك أي اختيار فيها فإنّنا نكون بذلك قد أنكرنا أصل العدل، لأنّ مقترفي الذنوب مجبرون على ارتكاب المعاصي ثمّ ينتظرهم الجزاء المتمثّل بالعقاب، وهذا خلاف العدالة.

وإذا فسّرنا «العدل» بأنّ الله تعالى ليس له أي لون من التدخّل في أعمالنا فإنّنا سنخرج الإرادة الإلهيّة من الهيمنة علينا، وعندئذ نقع في وادي الشرك.

ويمثّل مفهوم «الأمر بين الأمرين» الإيمان الخالص والصراط المستقيم وخطّ الوسط بين (الجبريين والقدريين) وهو أن نعتقد بأنّنا مختارين، واختيارنا هذا يكون ضمن الهيمنة الإلهيّة، حيث تستطيع الإرادة الإلهيّة في أي لحظة أن تسلب منّا هذا الاختيار، وهذا ما يذهب إليه أهل البيت عليهم السلام.

والنقطة الجديرة بالذكر أنّه وردت في نهاية الآيات مورد البحث روايات عديدة في ذمّ هاتين الجماعتين في كتب تفسير أهل السنّة والشيعة، ومن جملتها نقرأ في حديث النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم حيث يقول: «صنفان من أُمّتي ليس لهم في الإسلام نصيب المرجئة والقدرية، أُنزلت فيهم آية في كتاب الله: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾»(١).

«المرجئة» من مادّة (إرجاء) بمعنى تأخير الشيء، وهذا اصطلاح يستعمل للجبريين، لأنّهم لم يراعوا الأوامر الإلهيّة وارتكبوا المعاصي لظنّهم أنّهم مجبورون، أو لاعتقادهم

(١) تفسير روح المعاني نقل عن البخاري والترمذي وابن ماجة وابن عدي وابن مردويه وابن عبّاس، ج٢٧، ص٨١، وذكر القرطبي مثل هذا الحديث في تفسيره، ج٩، ص٦٣١٨.

أنّ مصير مرتكبي الذنوب الكبيرة غير معلوم لتصوّرهم أنّ البتّ فيها مؤجّل إلى يوم القيامة(١).

كما نقرأ في حديث للإمام الباقر عليه السلام: «نزلت هذه الآية في القدرية: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾(٢).

إشارة إلى أنّ المقصود من التقدير والحساب هنا أنّ الله سبحانه قد جعل لكلّ ذنب ما يناسبه من الحساب والجزاء الدقيق، وهذا تفسير آخر ممّا فسّرت به الآية، أو أنّ المقصود بها إلفات نظر الذين أنكروا التقدير الإلهي وظنّوا أنّ الله تعالى ليس له تدخّل في أعمالهم وأنّهم قادرون على كلّ شيء، ويأتي إليهم التنبيه الإلهي في ضرورة ملاحظة القدرة الإلهيّة العظيمة، وإلاّ فعليكم أن تذوقوا جزاء انحرافكم (وهو مسّ سقر).

٣ - الأمر الإلهي كلمة واحدة

من الواضح أن لا فاصلة زمانية بين العلّة التامّة والمعلول، لذلك ورد في اصطلاح الفلاسفة أن تقدّم العلّة على المعلول أمر رتبي. وبالنسبة إلى الإرادة الإلهيّة في أمر الإيجاد والخلق والذي هو أوضح مصداق للعلّة التامّة، أو أنّه مصداق وحيد للعلّة التامّة يتّضح هذا المعنى أكثر.

ولذلك فإذا فسّروا الآية: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ بكلمة (كن) فإنّها من ضيق البيان، وإلاّ فإنّ كلمة (كن) مركّبة من الكاف والنون، وهي أيضاً تحتاج إلى زمان، حتى (الفاء) في (فيكون) والتي توضّح نوعاً من الزمان فإنّها من ضيق البيان كذلك، بل حتى تشبيه ﴿كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾(٣) (٤).

وعندما يتحدّث عن الأمر الإلهي في يوم القيامة ويشبهه بـ (لمح بالبصر) يضيف ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾.

وعلى كلّ حال فإنّ الحديث هنا عن الزمان حسب التعبيرات اليومية لنا، وكذلك فإنّ القرآن الكريم يخاطبنا بلغتنا، وإلاّ فإنّ أوامر الله تعالى فوق الزمان.

وضمناً فإنّ التعبير بـ ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ يمكن أن يكون إشارة لهذا المعنى، وهو أنّ أمراً

---

(١) مجمع البحرين مادّة (رجا). (٢) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص١٨٦.

(٣) «لمح» على وزن (مسح) والأصل بمعنى لمعان البرق ثمّ جاءت بمعنى النظر السريع.

(٤) سورة النحل، الآية: ٧٧.

واحداً يكفي ولا يحتاج إلى تكرار، أو أنّها إشارة إلى أنّ أمره تعالى حول الصغير والكبير وحتى خلق السماوات الواسعة أجمع لا يختلف عن خلقه لذرّة التراب.

وفي الأصل فإنّ الكبير والصغير والسهل الصعب يكون في مقاييسنا الفكرية المحدودة وقدرتنا الضئيلة، أمّا عندما يكون الحديث عن القدرة الإلهيّة العظيمة فإنّ هذه المفاهيم تتلاشى تماماً، ويصبح الكلّ بلون واحد وشكل واحد، (فتدبّر).

ويطرح هنا «سؤال»: وهو إذا صحّ معنى الجملة أعلاه وهو أنّ كلّ شيء يوجد آناً (في الآن) فإنّ هذا الأمر لا يتناسب مع مشاهدة التدرّج في حوادث العالم.

ويتّضح «الجواب» عندما نلاحظ هذه النقطة، وهي أنّ أمره تعالى في كلّ مكان وكلّ شيء هو (كلمة واحدة) والتي تكون أسرع من لمح البصر، ولكن محتوى الأمر الإلهي متفاوت ومختلف، فإذا صدر الأمر الإلهي للجنين أن يكمل دورته تسعة أشهر، فلن تزيد وتنقص لحظة واحدة، والفورية هنا هي أن يكمل الجنين الدورة في نهاية المدّة المحدّدة، ولو أُعطي أمر للكرة الأرضية أن تدور في كلّ أربع وعشرين ساعة مرّة حول نفسها؟ فإنّ هذا الأمر غير قابل للتخلّف، وبتعبير آخر فإنّ تنفيذ أمره تعالى لا يحتاج إلى أيّ وقت زماني، والموجود هنا هو محتوى الأمر، ومن خلال معرفة السنّة التدريجية للعالم المادّي وخاصيّته وطبيعة الحركة - نلاحظ أنّها تتأثّر بالزمان.

٤ - بداية ونهاية سورة القمر

النقطة الجديرة بالذكر أنّ «سورة القمر» بدأت بإنذار وتخويف المشركين بقرب وقوع يوم القيامة، وانتهت بهدوء يطمئن المؤمنين الحقيقيين في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وهذا هو الطريق المرسوم للتربية، حيث يبدأ بالتحذير والتخويف وينتهي بطمأنة النفوس المضطربة وتقويم الأهواء المنحرفة ورفع الخوف والاضطراب وعندئذ تغمر الأرواح بالسكينة والهدوء بالقرب من الجوار الإلهي الأبدي.

والحقيقة أنّ الإيمان بأنّ الله هو المالك الذي ليس له منازع والحاكم الذي لا رادّ لحكمه في كلّ الوجود، واليقين بأنّ الله هو المقتدر، النافذة قدرته على كلّ شيء... يبعث في الإنسان هدوءاً منقطع النظير.

وقد نقل بعض المفسّرين أنّ هذين الاسمين المقدّسين (مليك ومقتدر) لهما تأثير عميق في استجابة الدعاء حتى نقل بعض الرواة: بِتّ يوماً في المسجد وظننت بأنّه الصبح ولكن تبيّن لي عدم انقضاء الليل وبقي قسط كبير منه، ولم يكن أحد غيري في

المسجد، وفجأة سمعت حركة من ورائي، فخفت ولكن سمعت شخصاً مجهولاً قد ناداني: أيّها الشخص المملوء قلبك خوفاً لا تخف وقل: «اللهم إنّك مليك مقتدر، ما تشاء من أمر يكون». ثمّ اطلب ما تريد، فيقول: إنّي قرأت هذا الدعاء المختصر ولم أطلب شيئاً إلاّ وأُجيب[1].

ربّنا، أنت المليك المقتدر فتفضّل علينا بالتوفيق في كلّ إيمان وعمل وتقوى، كي نكون في مقعد صدق وفي جوار قربك ورحمتك.

إلهنا، نحن نؤمن أنّ يوم القيامة يوم رهيب وصعب ومرّ للعاصين، أملنا في ذلك اليوم بلطفك وكرمك.

ربّاه، امنحنا روحاً يقظة وعقلاً واعياً لكي نتّعظ بمصير السابقين ولا نسير في مسارهم المهلك...

(١) تفسير روح المعاني، ج٢٧، ص٨٣.

سُورَةُ الرَّحمٰن

مكيّة وعدد آياتــها ثمان وسبعون

محتوى السورة

توضّح هذه السورة بصورة عامّة النعم الإلهيّة المختلفة، سواء كانت مادّيّة أو معنوية، والتي تفضّل بها البارئ عزّوجلّ على عباده وغمرهم بها، ويمكن تسميتها لهذا السبب بـ(سورة الرحمة) أو (سورة النعمة) ولهذا فإنّها بدأت بالاسم المبارك (الرحمن) الذي يشير إلى صنوف الرحمة الإلهية الواسعة، وتنهي هذه السورة آياتها بإجلال وإكرام البارئ سبحانه، وبإقرار عباده بالنعم التي تفضّل بها عليهم (إحدى وثلاثين مرّة) وذلك من خلال تكرار آية: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وبناءً على هذا فإنّ السياق العام للسورة يتعلّق بالحديث عن المنن والنعم الإلهيّة المختلفة والعظيمة، ومن جهة أُخرى فإنّنا نستطيع أن نقسّم محتويات السورة إلى عدّة أقسام:

القسم الأوّل: الذي يشمل أوّل آيات السورة حيث الحديث عن النعم الإلهيّة الكبيرة، سواء تلك التي تتعلّق بخلق الإنسان أو تربيته وتعليمه، أو الحساب والميزان، وكذلك سائر الأُمور الأُخرى التي يتجسّد فيها الخير للإنسان، إضافةً إلى الغذاء الروحي والجسمي له.

القسم الثّاني: يتناول توضيح مسألة خلق الإنس والجنّ.

القسم الثّالث: يتضمّن توضيح الآيات والدلائل الإلهيّة في الأرض والسماء.

القسم الرّابع: وفيه بعد تجاوز النعم الإلهيّة على الإنسان في الدنيا تتحدّث الآيات عن نعم الله في عالم الآخرة بدقّة وظرافة، خاصّة عن الجنّة، وبصورة أعمّ وأشمل عن البساتين والعيون والفاكهة والحور العين وأنواع الملابس من السندس والإستبرق...

وأخيراً في القسم الخامس نلاحظ الحديث باختصار عن مصير المجرمين وجزائهم المؤلم المحسوب... ولأنّ الأصل في هذه السورة أنّها مختصّة ببيان الرحمة الإلهيّة، لذا لم نلاحظ تفاصيل كثيرة حول مصيرهم، خلافاً لما نلاحظه في موضوع الحديث عن

النعم الأُخروية حيث التفصيل والشمول الذي يشرح قلوب المؤمنين ويغمرها بالسعادة والأمل، ويزيل عنها غبار الحزن والهمّ، ويغرس الشوق في نفوسهم. . .

إنّ تكرار آية: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وفي مقاطع قصيرة أعطت وزناً متميّزاً للسورة، وخاصّة إذا قرئ بالمعنى المعبّر الذي يستوحى منها. . . فإنّ حالة من الشوق والانبهار تحصل لدى الإنسان المؤمن.

ولذلك فلا نعجب عندما نقرأ في حديث للرسول ﷺ حيث يقول: «لكلّ شيء عروس، وعروس القرآن سورة الرحمن جلّ ذكره»[١].

والجدير بالذكر أنّ مصطلح «العروس» يطلق في اللسان العربي على المرأة والرجل ما داموا في مراسم الزواج[٢].

وبما أنّ المرأة والرجل في تلك المراسم في أفضل وأتمّ الحالات وأكمل الاحترامات، ومن هنا فإنّ هذا المصطلح يطلق على الموجودات اللطيفة جدّاً وموضع الاحترام.

إنّ سبب اختيار اسم (الرحمن) لهذه السورة لتتناسب التسمية مع المضمون، وهذا واضح.

فضل تلاوة سورة الرحمن

إنّ اتّصاف هذه السورة بما يثير الإحساس بالشكر على أفضل صورة، وكذلك توضيح وبيان النعم الإلهيّة (المادية والمعنوية) فيها والتي تزيد من شوق الطاعة والعبادة في قلوب المؤمنين كلّ ذلك أدّى إلى ورود روايات كثيرة في فضل تلاوة هذه السورة تلك التلاوة التي ينبغي أن تنفذ إلى أعماق النفس الإنسانية وتحركها باتّجاه الطاعات وبعيداً عن لقلقة اللسان.

ومن جملة ما نقرأ حديث الرّسول ﷺ حيث يقول: «من قرأ سورة الرحمن رحم الله ضعفه، وأدّى شكره، وأنعم الله عليه»[٣].

---

(١) تفسير مجمع البيان بداية سورة الرحمن، وجاء كذلك في الدرّ المنثور، ج٦، ص١٤٠، ومستدرك الوسائل، ج ٤، ص ٣٥١.

(٢) لسان العرب ومجمع البحرين وصحاح اللغة و. .

(٣) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص١٨٧.

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: «لا تَدعوا قراءة سورة الرحمن والقيام بها، فإنّها لا تقرّ في قلوب المنافقين، ويأتي بها ربّها يوم القيامة في صورة آدمي في أحسن صورة، وأطيب ريح حتى يقف من الله موقفاً لا يكون أحد أقرب إلى الله منها فيقول لها: من الذي كان يقوم بك في الحياة الدنيا ويدمن قراءتك؟ فيقول: ياربّ فلان وفلان، فتبيض وجوههم. فيقول لهم: اشفعوا فيمن أحببتم فيشفعون حتى لا يبقى لهم غاية ولا أحد يشفعون له، فيقول لهم: ادخلوا الجنّة واسكنوا فيها حيث شئتم»[١].

وفي حديث آخر عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: «من قرأ سورة الرحمن فقال عند كلّ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾: لا شيء من آلائك ربّي أكذّب، فإن قرأها ليلاً ثمّ مات مات شهيداً، وإن قرأها نهاراً فمات مات شهيداً»[٢].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾﴾

التّفسير

بداية النعم الإلهية

لمّا كانت هذه السورة - كما قلنا - تبيّن أنواع النعم والهبات الإلهيّة العظيمة، فإنّها تبدأ باسم (الرحمن) والذي يرمز إلى الرحمة الواسعة، ولو لم تكن (الرحمانية) من صفاته لم ينعم بهذا الخير العميم على عباده الصالحين والعاصين، لذلك يقول: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[٣].

﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ وبهذا فإنّ أوّل وأهمّ نعمة تفضّل بها الله سبحانه، هي نعمة «تعليم القرآن»، وما أروعه من تعبير! حيث إنّنا إذا تأمّلنا جيّداً فإنّنا ندرك أنّ هذا الكتاب العظيم هو مصدر كلّ الخير والنعم والعطايا الإلهيّة العظيمة، كما أنّه وسيلة للوصول إلى السعادة والخيرات المادية والمعنوية.

(١-٢) بحار الأنوار، ج٩٢، ص٣٠٦، ح ١ و ٢.

(٣) ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مبتدأ وخبرها ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، و﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ خبر بعد خبر. كما توجد احتمالات أخرى أيضاً لإعراب هذه الجملة لم تذكر هنا لعدم أهميّتها.

والظريف هنا أنّ بيان نعمة (تعليم القرآن) ذُكرت قبل ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ و﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ في الوقت الذي يفترض فيه أن تكون الإشارة أوّلاً إلى مسألة خلق الإنسان، ومن ثمّ نعمة تعليم البيان، ثمّ نعمة تعليم القرآن، وذلك استناداً للترتيب الطبيعي، إلاّ أنّ عظمة القرآن الكريم أوجبت أن نعمل خلافاً للترتيب المفترض.

وقد جاءت هذه الآية جواباً لمشركي العرب حينما طلب منهم الرّسول ﷺ السجود للرحمن، فسألوه «وما الرحمن»؟ (- الفرقان -) فأجابهم بتوضيح ذلك حيث يقول سبحانه: «الرحمن هو الذي علّم القرآن وخلق الإنسان وعلّمه البيان».

وعلى كلّ حال فإنّ لإسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أوسع المفاهيم بين أسماء البارئ عزّوجلّ بعد اسم الجلالة (الله) لأنّنا نعلم أنّ لله رحمتين: (الرحمة العامّة) و(الرحمة الخاصّة) واسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ يشير إلى رحمة الله العامّة التي تشمل الجميع، كما أنّ اسم «الرحيم» يشير إلى «الرحمة الخاصّة» بأهل الإيمان والطاعة، ولعلّه لهذا السبب لا يطلق اسم الرحمن على غير الله سبحانه (إلاّ إذا كانت كلمة عبد قبله)، أمّا وصف «الرحيم» فيقال لغير الله أيضاً، وذلك لأنّه لا أحد لديه الرحمة العامّة سوى الله تعالى، أمّا الرحمة الخاصّة فإنّها موجودة في المخلوقات وإن كانت بصورة محدودة.

وفي حديث للإمام الصادق عليه السلام نقرأ ما يلي: «الرحمن اسم خاصّ بصفة عامّة، والرحيم اسم عام بصفة خاصّة». (يعني أنّه اسم مخصوص لله، ورحمته تشمل جميع خلقه)، لكن الرحيم اسم عام لصفة خاصّة (يعني أنّه وصف يستعمل لله وللخلق)، وكما عرّف القرآن المجيد الرّسول الأكرم ﷺ بأنّه (رؤوف رحيم) حيث يقول سبحانه في الآية ١٢٨ من سورة التوبة: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

وهنا يطرح التساؤل التالي: من الذي علّمه الله سبحانه القرآن الكريم؟

ذكر المفسّرون في ذلك تفسيرات عديدة، فبعضهم قال: إنّ الله علّم القرآن لجبرئيل والملائكة، وقال آخرون: إنّ الله سبحانه علّمه للرسول، وذكر ثالث: أنه عُلِّمَ للإنس والجنّ.

ولكون هذه السورة تبيّن الرحمة الإلهيّة للإنس والجنّ ولذا أكّد سبحانه إقرارهم بنعمه إحدى وثلاثين مرّة، وذلك بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لهذا فإنّ التّفسير الأخير

---

(١) المصباح للكفعمي، ص ٣١٧.

هو الأنسب، أي أنّ الله علّم القرآن للإنس والجنّ بواسطة نبيّه الكريم محمّد ﷺ [(١)].

وبعد ذكره سبحانه لنعمة القرآن التي لا مثيل لها ينتقل إلى أهمّ نعمة في الترتيب المذكور ويقول: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾.

من الطبيعي أنّ المقصود هنا هو نوع الإنسان وليس آدم عليه السلام فقط، حيث سيتحدّث عنه سبحانه في الآيات اللاحقة بصورة مستقلّة، كما أنّه ليس المقصود بذلك النّبي محمّد ﷺ مع العلم أنّ الرّسول محمّد ﷺ هو أفضل وأعلى مصداق للإنسان.

وإطلاق كلمة ﴿ٱلْبَيَانَ﴾ التي تأتي بعد خلق الإنسان دليل آخر على عمومية كلمة الإنسان، وبناءً على هذا فإنّ التفاسير الأُخرى التي ذكرت لم تكن صحيحة.

والحقيقة أنّ خلق الإنسان هذا الكائن الذي تتجمّع فيه كلّ عجائب الوجود، هذا الموجود الذي هو خلاصة الموجودات الأُخرى، هذا العالم الصغير الذي اندرج فيه العالم الكبير، لهو نعمة منقطعة النظير حيث إنّ كلّ بعد من أبعاد وجوده المختلفة نعمة كبيرة.

وبالرغم من أنّ بداية الإنسان ليست أكثر من نطفة لا قيمة لها، بل الأصحّ أنّ بدايته عبارة عن موجود مجهري يسبح في نطفة لا وزن لها، إلاّ أنّه في ظلّ الرعاية الإلهيّة يسير في مراحل التكامل بصورة يرتقي فيها إلى مقام أشرف موجود في عالم الخلق.

أنّ ذكر اسم «الإنسان» بعد «القرآن» هو الآخر يستوجب التأمّل، ذلك لأنّ القرآن الكريم يمثّل مجموعة أسرار الكون بصورة مدوّنة «الكتاب التدويني»، والإنسان هو خلاصة هذه الأسرار بصورة تكوينية «الكتاب التكويني»، كما أنّ كلّ واحدة منها هو صورة من هذا العالم الكبير.

وتشير الآية اللاحقة إلى أهمّ النعم بعد نعمة خلق الإنسان حيث يقول البارئ عزّ وجلّ: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾.

كلمة ﴿ٱلْبَيَانَ﴾ لها معنى لغوي واسع، حيث تقال لكلّ شيء يوضّح ويبيّن شيئاً معيّناً، وبناءً على هذا فإنّها لا تشمل النطق والكلام فحسب، بل تجمع الكتابة والخطّ

---

(١) اختلف المفسّرون حول أنّ المفعول الأوّل لـ﴿عَلَّمَ﴾ هو المحذوف، أو أنّ المحذوف هو المفعول الثاني، والأنسب أنّ المفعول الأوّل هو المحذوف حيث في التقدير يكون: (علّم الإنس والجنّ القرآن).

كما يحتمل البعض أنّ ﴿عَلَّمَ﴾ لم تأخذ أكثر من مفعول واحد بمعنى موضع العلاقة وهذا مستبعد جدّاً.

وأنواع الاستدلالات العقليّة والمنطقية التي تبيّن المسائل المختلفة والمعقّدة أيضاً رغم أنّ معالم هذه المجموعة هي التكلّم والنطق.

ونظراً لتعوّدنا ممارسة الكلام، فقد نتصوّر أنّه أمر بسيط وسهل، والحقيقة أنّ التكلّم من أعقد وأظرف أعمال الإنسان، ويمكننا القول بعدم وجود عمل على شاكلته من ناحية التعقيد والظرافة.

فمن جهة نجد أنّ الأجهزة المختّصة لإصدار الصوت تتساعد وتتعاون مع بعضها لإيجاد الأصوات المختلفة، فالرئة تجمع الهواء لتخرجه من الحنجرة تدريجيّاً، والأوتار الصوتية تهتزّ لتولّد أصواتاً مختلفة تماماً، بعضها تعبّر عن حالة الرضى، والأُخرى عن الغضب، والثالثة تعبّر عن النجدة والاستغاثة وطلب العون، والرابعة عن المحبّة أو العداوة وهكذا. ثمّ إنّ هذه الأصوات - بمساعدة اللسان والشفتين والأسنان والحلق - تصنع الحروف الأبجدية بسرعة وظرافة خاصّة، وبتعبير آخر: إنّ الصوت الممتدّ والمتساوي الذي يخرج من الحنجرة يقطّع إلى أشكال وقياسات مختلفة حيث تتشكّل منه الحروف.

ومن جهة أُخرى فهناك مسألة اللغات، حيث إنّ الإنسان يبتدع لغات مختلفة حسب احتياجاته الماديّة والمعنوية، وذلك إثر تطوّره وتقدّمه الفكري، والعجيب هنا عدم وجود أي محدودية في وضع اللغات، حيث نلاحظ تعدّد الألسن في عالمنا هذا بصورة يصعب إحصاؤها بصورة دقيقة، كما أنّنا نلحظ أيضاً نشوء لغات جديدة وألسن جديدة بصورة تدريجيّة مع مرور الزمن، ويعتقد البعض أنّ عدد اللغات الموجودة في عالمنا اليوم يصل إلى ثلاثة آلاف لغة، ويذهب آخرون إلى أكثر من ذلك[1].

والظاهر أنّ ذلك يتعلّق باللغات والألسن الأصليّة، أمّا إذا أخذت اللهجات المحليّة بنظر الاعتبار فإنّها ستصبح أكثر من ذلك بكثير قطعاً، حيث لاحظ المتتبعون لأُمور اللهجات أنّ قريتين متجاورتين تتحدّثان بلسانين مختلفين أحياناً.

ومن جهة ثالثة هناك مسألة ترتيب الجمل والاستدلال وبيان العواطف عن طريق العقل والفكر، لأنّها تمثّل روح البيان والنطق... ولهذا الأمر فإنّ التكلّم أمر خاصّ بالإنسان فقط.

---

(١) دائرة المعارف لفريد وجدي، ج٨، ص٣٦٤ مادّة (لغة).

صحيح أنّ الكثير من الحيوانات تحدث أصواتاً مختلفة كي تعبّر عن احتياجاتها، إلاّ أنّ عدد هذه الأصوات محدود جدّاً ومبهم وغير معلوم، في حين أنّ البيان وضع في اختيار الإنسان بصورة واسعة وغير محدودة، لأنّ الله تعالى قد أعطاه القدرة الفكرية اللازمة للتكلّم.

وإذا تجاوزنا كلّ ذلك وأخذنا دور البيان في تكامل وتقدّم الحياة الإنسانية، فمن الواضح أنّ الإنسان لم يكن بمقدوره وإمكانه أن ينقل تجاربه وعلومه من جيل إلى آخر بهذه السهولة وبالتالي أدّى إلى التقدّم والعلم والدين والأخلاق... وإذا ما سلبت هذه النعمة العظيمة من الإنسان ليوم واحد فإنّ المجتمع الإنساني سوف يأخذ طريقه نحو التقهقر بسرعة، ولو أخذنا «البيان» بمعناه الواسع الذي يشمل الخطّ والكتابة والفنون المختلفة، فإنّه سيتّضح لدينا بصورة أكثر دوره الهامّ في الحياة الإنسانية.

ومن هنا ندرك لماذا جاءت عبارة: (تعليم البيان) بعد نعمة خلق الإنسان في سورة الرحمن التي هي مجموعة من هبات الله تعالى.

ويتطرّق بعد ذلك إلى النعمة الإلهيّة الرابعة والتي هي هبة من هبات الله العظيمة أيضاً، حيث يقول تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[1].

إنّ أصل وجود الشمس من أكبر النعم الإلهيّة للإنسان، لأنّ العيش في المنظومة الشمسية بدون نور وحرارة الشمس أمر غير ممكن، وكما بيّنا سابقاً فإنّ كلّ حركة في الكرة الأرضية مصدره حرارة الشمس، حيث إنّ نمو ونضج النبات والمواد الغذائية أجمع، بالإضافة إلى سقوط الأمطار وهبوب الرياح، كلّها ببركة هذه الهبة الإلهيّة.

كما أنّ للقمر دوراً هامّاً في حياة الإنسان، فبالإضافة إلى أنّه يضيء الليالي المعتمة، فإنّ جاذبيته هي علّة المدّ والجزر في البحار والمحيطات، وهي عامل لبقاء الحياة في البحار، كما أنّها تقوم بدورها في إرواء كثير من المناطق القريبة للسواحل والتي تصبّ الأنهار بالقرب منها.

وبالإضافة إلى ذلك فإنّ ثبات الانتظام لهاتين الحركتين (حركة القمر حول الأرض، وحركة الأرض حول الشمس) هو السبب في الظهور المنتظم لليل والنهار والسنين والشهور والفصول المختلفة، وبالتالي فإنّه سبب أساسي لانتظام الحياة الإنسانية

(١) «حسبان» على وزن (غفران) وهي مصدر بمعنى الحساب والنظم والترتيب، وللآية محذوف تقديره (والشمس والقمر تجريان بحسبان).

وبرمجة الأُمور التجارية والصناعية والزراعية، وإن فقد الانتظام فيها فسوف تضطرب الحياة البشرية وتختلّ الكثير من مرتكزاتها.

وليس لحركة هذين الكوكبين نظام دقيق جدّاً فحسب، بل إنّ مقدار كثافة وجاذبية ومسافة كلّ منهما عن الأرض هي الأُخرى محسوبة بدقّة وحساب ﴿بِحُسْبَانٍ﴾.

ومن المؤكّد أنّ اختلال كلّ واحدة من هذه الأُمور سيولّد اختلالات عظيمة في المنظومة الشمسية، ومن ثمّ في النظام الحياتي للبشر.

والعجيب هنا أنّ هذه الأجزاء عندما انفصلت من الشمس كانت في حالة من الاضطراب والفوضى، إلاّ أنّها ثبتت واستقرّت أخيراً بالشكل الحالي، حيث يقول في هذا المجال أحد علماء العلوم الطبيعيّة:

«وجدت منظومتنا الشمسية - في الظاهر - من مخلوط من مواد متنوّعة وعناصر مختلفة انفصلت عن الشمس بدرجة حرارية عالية تبلغ(١٢/٠٠٠) درجة وبسرعة فائقة تناثرت في الفضاء الواسع.

وبالرغم من هذا الاضطراب الظاهري فقد لوحظ الانتظام الدقيق والترتيب المنسّق بحيث إنّنا نستطيع أن نتنبّأ بالحوادث المستقبلة حتى بالدقائق واللحظات، ونتيجة لهذا النظام والترتيب نلاحظ أنّ الأوضاع الفلكية هذه باقية على هذا الحال مدّة ألف مليون سنة»[(١)].

والجدير بالذكر أنّ الشمس بالرغم من أنّها في وسط المنظومة الشمسية وتبدو ساكنة وثابتة، إلاّ أنّها مع جميع كواكبها وأقمارها تسير في وسط المجرّة المتعلّقة بها إلى نقطة معيّنة (تسمّى هذه النقطة بنجمة فيكا) وهذه الحركة لها أيضاً نظام وسرعة معينان.

ثمّ يتحوّل بنا الله إلى نعمة عظيمة أُخرى هي الخامسة في مسلسل ما ذكره سبحانه من النعم في هذه السورة المباركة، حيث يوجّه النظر إلى ألطافه في الأرض حيث يقول: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾.

﴿وَالنَّجْمُ﴾ يأتي أحياناً بمعنى كوكب، ويأتي أُخرى بمعنى النبات الذي لا ساق له، ولمّا جاءت الكلمة هنا بقرينة ﴿وَالشَّجَرُ﴾ فيكون المقصود هو المعنى الثاني، أي النباتات بدون سيقان[(٢)].

---

(١) سرّ خلق الإنسان، ص٢٨.

(٢) الراغب في مفرداته حيث يقول: النجم ما لا ساق له من النبات.

وهذا المصطلح معناه في الأصل (الطلوع) وإذا أطلق على النباتات (نجم) فلأنّها تخرج من الأرض، وإذا أطلق على النجمة فلأنّها تطلع.

ومن الواضح أنّ النبات مصدر جميع المواد الغذائية للإنسان، حيث يستهلك قسماً مباشراً منه، والقسم الآخر تستهلكه الحيوانات الأُخرى التي هي جزء أساسي من غذاء الإنسان، ومن هنا فإنّ النبات هو مصدر غذاء الإنسان بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

وهذا المعنى يصدق أيضاً في عالم الحيوانات البحرية، لأنّها تتغذّى على نباتات صغيرة جدّاً تنبت في البحر وتوجد بكثرة هائلة تقدّر بملّايين البليارات، وهي المصدر الغذائي لهذه الحيوانات البحرية، وتنمو هذه النباتات الصغيرة في البحر بتأثير الضوء (أشعّة الشمس) التي تتحرّك بين الأمواج.

وبهذا فإنّ «النجم» أنواع من النباتات الصغيرة الزاحفة (مثل اليقطين والخيار وأمثاله). أمّا ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾ فإنّه النوع الآخر من النباتات التي لها سيقان وتشمل أشجار الفاكهة ونباتات الغلاّت وغير ذلك.

وتعبير ﴿يَسۡجُدَانِ﴾ إشارة إلى التسليم والخضوع أمام القدرة الإلهيّة وقوانين الخلقة والإبداع الإلهي لأجل نفع الإنسان، هذا المسير الذي عيّنه الله لهم يسيرون فيه بدون أي تخلّف، وذلك بموجب الإرادة الإلهيّة.

وهنا إشارة إلى الأسرار التوحيدية أيضاً حيث توجد في كلّ ورقة وكلّ بذرة آيات عجيبة من عظمة وقدرة الله سبحانه(١).

كما يحتمل أن يكون المقصود من ﴿وَٱلنَّجۡمُ﴾ في الآية المذكورة هي «النجوم»، ولكن المعنى الأوّل طبقاً للقرائن الموجودة في الآية الكريمة هو الأنسب.

ملاحظة

تأمّلات في الرّوايات

نقلت المصادر الإسلامية في هامش الآيات أعلاه روايات من قبيل التّفسير بالمصداق الواضح، حيث إنّ كلّ واحدة منها تلقي الضوء على قسم من الآيات الكريمة.

---

(١) بحثنا تفصيلاً حول معنى (سجود الموجودات المختلفة في عالم الوجود) في هامش الآية رقم ١٨ سورة الحجّ. وكذلك في هامش الآية ٤٤ من سورة الإسراء.

ففي حديث للإمام الصادق عليه السلام في تفسير: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ يقول: «البيان الاسم الأعظم الذي به علم كلّ شيء»(١).

وحول «الاسم الأعظم» وتفسيره فقد أوردنا بحثاً في هامش الآية ١٨٠ من سورة الأعراف.

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام ذكر أنّ المقصود من ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾ أنّ الله تعالى قد علّم القرآن للرسول صلى الله عليه وآله وسلم. والمقصود من ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ هو خلق أمير المؤمنين عليه السلام، و﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ هو بيان كلّ الأمور التي يحتاجها الناس.

ومن الواضح أنّ الرّوايات أعلاه لا تحدّد عمومية مفهوم هذه الآيات، بل توضّح مصاديقها.

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾

التّفسير

السماء رفعها ووضع الميزان

هذه الآيات هي استمرار لبيان النعم الإلهيّة التي جاء ذكر خمس منها في الآيات السابقة، حيث تحدّثت عن أهمّ الهبات التي منحها الله سبحانه.

وفي الآية مورد البحث يتحدّث سبحانه عن النعمة السادسة، ألا وهي نعمة خلق السماء حيث يقول: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾.

﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ في هذه الآية سواء كانت بمعنى جهة العلو، أو الكواكب السماوية، أو جوّ الأرض (والذي يعني الطبقة العظيمة من الهواء والتي تحيط بالأرض كدرع يقيها من

(١) تفسير مجمع البيان، ج٩، ص١٩٧.

الأشعّة الضارّة والصخور السماوية وحرارة الشمس، والرطوبة المتصاعدة من مياه البحار لتتكوّن الغيوم وتنزل الأمطار)... إنّ كلّ واحدة من هذه المعاني هبة عظيمة ونعمة لا مثيل لها، وبدونها تستحيل الحياة أو تصبح ناقصة.

نعم إنّ النور الذي يمنحنا الدفء والحرارة والهداية والحياة والحركة يأتينا من السماء وكذلك الأمطار، والوحي أيضاً، وبذلك فإنّ للسماء مفهوماً عامّاً، ماديّاً ومعنوياً.

وإذا تجاوزنا كلّ هذه الأُمور، فإنّ هذه السماء الواسعة مع كلّ عوالمها هي آية عظيمة من آيات الله، وهي أفضل وسيلة لمعرفة الله سبحانه، وعندما يتفكّر أُولو الألباب في عظمتها فسوف يقولون دون اختيار ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾[1].

ثمّ يستعرض سبحانه النعمة السابعة حيث يقول تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾.

﴿ٱلْمِيزَانَ﴾ كلّ وسيلة تستعمل للقياس، سواء كان قياس الحقّ من الباطل، أو العدل من الظلم والجور، أو قياس القيم وقياس حقوق الإنسان في المراحل الاجتماعية المختلفة.

و﴿ٱلْمِيزَانَ﴾ يشمل كذلك كلّ نظام تكويني ودستور اجتماعي، لأنّه وسيلة لقياس جميع الأشياء.

و﴿ٱلْمِيزَانَ﴾ لغة: (المقياس) وهو وسيلة لوزن الأجسام الماديّة المختلفة، إلاّ أنّ المقصود في هذه الآية، - والذي ذكر بعد خلق السماء - أنّ لها مفهوماً واسعاً يشمل كلّ وسيلة للقياس بما في ذلك القوانين التشريعيّة والتكوينية، وليس وسيلة منحصرة بقياس الأوزان الماديّة فقط.

ومن هنا فلا يمكن أن تكون الأنظمة الدقيقة لهذا العالم، والتي تحكم ملايين الأجرام السماوية بدون ميزان وقوانين محسوبة.

وعندما نرى في بعض العبارات أنّ المقصود بالميزان هو «القرآن الكريم»، أو «العدل»، أو «الشريعة»، أو «المقياس». ففي الحقيقة إنّ كلّ واحدة من هذه المعاني مصداق لهذا المفهوم الواسع الشامل.

ونستنتج من الآية اللاحقة استنتاجاً رائعاً حول هذا الموضوع حيث يضيف بقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

حيث يوجّه الخطاب لبني الإنسان الذين يشكّلون جزءاً من هذا العالم العظيم ويلفت انتباههم إلى أنّهم لا يستطيعون العيش بشكل طبيعي في هذا العالم إلاّ إذا كان له نظم وموازين، ولذلك فلابدّ أن تكون للبشر نظم وموازين أيضاً حتى يتلاءموا في العيش مع هذا الوجود الكبير الذي تحكمه النواميس والقوانين الإلهيّة، خاصّة أنّ هذا العالم لو زالت عنه القوانين التي تسيّره فإنّه سوف يفنى، ولذا فإنّ حياتكم إذا فقدت النظم والموازين فإنّكم ستتجهون إلى طريق الفناء لا محالة.

يا له من تعبير رائع حيث يعتبر القوانين الحاكمة في هذا العالم الكبير منسجمة مع القوانين الحاكمة على حياة الإنسان (العالم الصغير) وبالتالي ينقلنا إلى حقيقة التوحيد، حيث مصدر جميع القوانين والموازين الحاكمة على العالم هي واحدة في جميع المفردات وفي كلّ مكان.

ويؤكّد مرّة أُخرى على مسألة العدالة والوزن حيث يقول سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾.

والنقطة الجديرة بالذكر هنا أنّ كلمة ﴿ٱلْمِيزَانَ﴾ ذكرت ثلاث مرّات في هذه الآيات، وكان بالإمكان الاستفادة من الضمير في المرحلة الثانية والثالثة، وهذا ما يدلّل على أنّ كلمة ﴿ٱلْمِيزَانَ﴾ هنا قد جاءت بمعان متعدّدة في الآيات الثلاث السابقة، لذا فإنّ الاستفادة من الضمير لا تفي بالغرض المطلوب، وضرورة التناسب للآيات يوجب تكرار كلمة ﴿ٱلْمِيزَانَ﴾ ثلاث مرّات، لأنّ الحديث في المرحلة الأُولى، كان عن الموازين والمعايير والقوانين التي وضعها الله تعالى لكلّ عالم الوجود.

وفي المرحلة الثانية يتحدّث سبحانه عن ضرورة عدم طغيان البشر في كلّ موازين الحياة، سواء كانت الفردية أو الاجتماعية.

وفي المرحلة الثالثة يؤكّد على مسألة الوزن بمعناها الخاصّ، ويأمر البشر أن يدقّقوا في قياس ووزن الأشياء في التعامل، وهذه أضيق الدوائر.

وبهذا الترتيب نلاحظ الروعة العظيمة للانسجام في الآيات المباركة، حيث تسلسل المراتب وحسب الأهمية في مسألة الميزان والمقياس، والانتقال بها من الدائرة الأوسع إلى الأقل فالأقل[1].

---

(١) يقول الفخر الرازي في تفسيره لكلمة ﴿ٱلْمِيزَانَ﴾ في الآية الأُولى: إنّها اسم (آلة) بمعنى وسيلة للقياس، وفي الآية الثانية جاء مصدراً (يعني الوزن)، وفي الآية الثالثة أتى مفعولاً بمعنى (جنس الموزون).

إنّ أهميّة الميزان في أي معنى كان عظيمة في حياة الإنسان بحيث إنّنا إذا حذفنا حتى مصداق الميزان المحدود والصغير والذي يعني (المقياس) فإنّ الفوضى والارتباك سوف تسود المجتمع البشري، فكيف بنا إذا ألغينا المفهوم الأوسع لهذه الكلمة، حيث ممّا لا شكّ فيه أنّ الاضطراب والفوضى ستكون بصورة أوسع وأشمل.

ويستفاد من بعض الرّوايات أنّ ﴿ٱلْمِيزَانَ﴾ قد فسّر بوجود (الإمام)، وذلك لكون الوجود المبارك للإمام المعصوم هو وسيلة لقياس الحقّ من الباطل، ومعيار لتشخيص الحقائق وعامل مؤثّر في الهداية[1]. وهكذا في تفسير «الميزان» بالقرآن الكريم ناظر إلى هذا المعنى.

ونظراً إلى أنّ هذه الآيات تتحدّث عن النعم الإلهيّة، فإنّ وجود الميزان سواء في نظم العالم أجمع أو المجتمع الإنساني أو الروابط الاجتماعية أو مجال العمل التجاري... فإنّها جميعاً نِعَم من قبل الله سبحانه.

ثمّ ينتقل سبحانه من السماء إلى الأرض فيقول عزّوجلّ: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾.

«الأنام» فسّرها البعض بمعنى (الناس)، وفسّرها آخرون بمعنى ﴿ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾، وفسّروها أيضاً بأنّها تشمل كلّ موجود (ذي روح).

إلاّ أنّ قسماً من أئمّة اللغة فسّرها بمطلق (الخلق) ولكن القرائن الموجودة في السورة وطبيعة النداءات الموجّهة للإنس والجنّ تدلّل على أنّها المقصود هنا ﴿ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾.

نعم، إنّ الكرة الأرضية التي ذكرت هنا بعنوان هبة إلهيّة مهمّة، وفي آيات أُخرى ذكرت بعنوان: (مهاد) مأوى ومستقرّ للإنسان الذي لا يدرك قدرها غالباً في الحالات الاعتيادية، إلاّ أنّه في حالة حدوث تغيّر بسيط كزلزلة مدمّرة أو بركان بإمكانه أن يدفن مدينة بأكملها تحت المواد المذابة وعتمة الدخان ولهيب النار، هنا ندرك كم أنّ هدوء الأرض نعمة عظيمة، خصوصاً إذا وضعنا الأرقام التي توصّل إليها العلماء أمامنا فيما يتعلّق بسرعة حركة الأرض حول نفسها وحول الشمس[2]، عند ذلك يتبيّن لنا أهميّة هذا الهدوء الكامن في أعماق هذه الحركة السريعة جدّاً والتي هي ليست نوعاً واحداً، بل أنواع مختلفة.

---

(١) رُوي هذا الحديث في تفسير علي بن إبراهيم عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام والحديث مفصّل وقد ذكر مضمونه هنا فقط (تفسير علي بن إبراهيم، ج٢، ص٣٤٣).

(٢) سرعة الأرض حول الشمس (الحركة الانتقالية) ٣٥ كم في الثانية، وسرعة سيرها حول نفسها بحدود (١٦٠٠) كم في الساعة (في المناطق الاستوائية).

التعبير بـ ﴿وَوَضَعَ﴾ عن الأرض في مقابل (رَفَعَ) عن السماء، إضافةً إلى الروعة البلاغية في هذا التقابل فهو إشارة إلى تسخير الأرض ومنابعها للإنسان حيث يقول سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾(١).

وبهذا الترتيب فقد ذكر لنا سبحانه النعمة العظيمة الثامنة في هذه السلسلة.

وفي الآية اللاحقة يستعرض ذكر النعمتين التاسعة والعاشرة من النعم الإلهيّة، والتي تتضمّن قسماً من المواد الغذائية التي وهبها الله سبحانه للإنسان حيث يقول تعالى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾.

«الفاكهة» تشمل كلّ نوع من الفاكهة كما يقول الراغب في المفردات، وفسّرها البعض بأنّها تشمل جميع أنواع الفاكهة باستثناء التمر، حيث ذكر «النخيل» في هذه السورة بصورة مستقلّة، ويمكن أن يكون ذكر النخيل بسبب أهميّة النخل والتمر لا استثناءً من عموم لفظ الفاكهة.

«وقد أوردنا بحثاً مفصّلاً حول فوائد التمر من الناحية الغذائية والمواد الحياتية المختلفة لدى تفسير الآية ١١ من سورة النحل، والآية ٢٥ من سورة مريم».

«أكمام» جمع (كِم) على وزن (جِن) تطلق على الغلاف الذي يغطّي الفاكهة. (كُمْ) على وزن (قُمْ) القسم الخاصّ باليدين من الثوب، و(كمة) على وزن (قبة) بمعنى القبعة التي تغطّي الرأس(٢).

إنّ اختيار هذا الوصف لفاكهة شجرة النخل - والتي تكون في البداية مختفية في غلاف ثمّ ينشقّ الغلاف عن ثمر منظود وبشكل جميل وجذّاب - يمكن أن يكون لهذا الجمال الأخّاذ، أو للمنافع الجمّة الكامنة في هذا الغلاف، فهو بالإضافة إلى كونه يقوم بمهمّة حفظ الثمرة من الآفات لحين النمو المناسب والقدرة الملائمة ويكون دوره كرحم الأُمّ الذي يحافظ على الجنين فترة زمنية مناسبة قبل خروجه إلى عالم الدنيا... فإنّه كذلك يحوي عصارة (الأسانس) الخاصّة والتي تتميّز بالمنافع الطبيّة والغذائية.

كما أنّ الروعة تكمن في الوضع الخاصّ لفاكهة هذه الشجرة أيضاً، حيث تتجمّع في كميّات كبيرة منها بصورة عناقيد لتسهّل عملية قطف ثمارها، ولو افترضنا أنّ ثمار هذه

---

(١) سورة الملك، الآية: ١٥.

(٢) لنا بحث مفصّل في هذا الموضوع في تفسيرنا هذا، ذيل الآية (٤٧) من سورة فصّلت.

الشجرة متناثرة كما في شجرة التفاح فإنّ عملية قطف الثمار ستكون صعبة للغاية قياساً لطول شجرة النخل.

ثمّ يتحدّث سبحانه عن النعمة الحادية عشرة والثانية عشرة حيث يقول سبحانه: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾.

الحبوب مصدر أساسي لغذاء الإنسان، وأوراقها الطازجة واليابسة هي غذاء للحيوانات التي هي لخدمة الإنسان، حيث يستفيد من حليبها ولحومها وجلودها وأصوافها، وبهذا الترتيب فلا يوجد شيء فيها غير ذي فائدة.

ومن جهة أُخرى، فإنّ الله تعالى خلق الأزاهير المعطّرة والورود التي تعطّر مسام الجسم والروح وتبعث الاطمئنان والنشاط، ولذا فإنّ الله سبحانه قد أتمّ نعمه على الإنسان.

﴿وَٱلْحَبُّ﴾ يقال لكلّ نوع من أنواع الحبوب.

(عَصْفْ) على وزن «حرب» بمعنى الأوراق والأجزاء التي تنفصل عن النبات وينشرها الهواء في جهات مختلفة، ويقال لها التبن أيضاً.

وذكروا أنّ «للريحان» معاني عديدة من جملتها النباتات المعطّرة، وكذلك كلّ رزق، والمعنى الأوّل هو الأنسب هنا.

وبعد ذكر هذه النعم العظيمة (المادية والمعنوية) ينقلنا في آخر آية من البحث مخاطباً الجنّ والإنس بقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ حيث يلفت نظرهم إلى كلّ هذه النعم الكبيرة التي شملت كلّ مجالات الحياة وكلّ واحدة منها أثمن وأعظم من الأُخرى... ألا يدلّ كلّ هذا على لطف وحنان الخالق... فكيف يمكن التكذيب بها إذاً؟

إنّ هذا الاستفهام استفهام تقريري جيء به في مقام أخذ الإقرار، وقد قرأنا في بداية السورة رواية تؤكّد على ضرورة تعقيبنا بهذه العبارة (لا شيء من آلائك ربّي أُكذّب) بعد كلّ مرّة نتلو فيها الآية الكريمة: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وبالرغم من أنّ الآيات السابقة تحدّثت عن الإنسان فقط، ولم يأت حديث عن طائفة (الجنّ) إلاّ أنّ الآيات اللاحقة تبيّن أنّ المخاطب في ضمير التثنية هم (الجنّ) كما سنرى ذلك.

وعلى كلّ حال، فإنّ الله تعالى يضع ﴿ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ في هذه الآية مقابل الحقيقة

التالية: وهي ضرورة التفكّر في النعم الإلهيّة السابقة التي منحها الله لكم وتسألون أنفسكم وعقولكم هذا السؤال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن لم تكذّبوا بهذه النعم، فلماذا تتنكّرون لوليّ نعمتكم؟ ولماذا لا تجعلون شكره وسيلة لمعرفته؟ ولماذا لا تعظّمون شأنه؟

إنّ التعبير بـ (أي) إشارة إلى أنّ كلّ واحدة من هذه النعم دليل على مقام ربوبية الله ولطفه وإحسانه، فكيف بها إذا كانت هذه النعم مجتمعة؟

تعقيب

١ - معرفة النعم طريق لمعرفة الله

إذا تأمّلنا قليلاً النعم التي سبق وأن تناولتها الآيات الكريمة: (نعمة القرآن، وخلق الإنسان، وتعليم البيان، والحساب المنظّم للزمان، خلق النباتات ومختلف الأشجار، وحاكمية السماء والسنن والقوانين، وخلق الأرض بخصوصياتها المتعدّدة، وخلق الفاكهة والنخل والحبوب والورود والنباتات المعطّرة. . .) مع جميع جزئياتها والأسرار الخفيّة في كلّ واحدة منها لكانت كافية لأن تبعث الإحساس بالشكر في الإنسان وتدفعه إلى معرفة مبدأ هذه النعم وهو الله سبحانه.

ولهذا السبب فإنّ الله تعالى يأخذ الإقرار من عباده بعد ذكر كلّ واحدة من هذه النعم، وتتكرّر الآية في الآيات اللاحقة أيضاً، وبعد ذكر نعم أُخرى، بحيث يصبح عددها ٣١ مرّة.

إنّ هذا التكرار ليس فقط لا يتنافى مع الفصاحة، بل إنّه فنّ من فنونها، ويشبه هذا الأمر التكرار الذي يؤكّده الأب لابنه الذي يغفل عن وصاياه بصورة مستمرّة، فيخاطبه بصيغ مختلفة تأكيداً لعدم الغفلة والنسيان حيث يقول له: أنسيت يا ولدي ضعفك وطفولتك؟ أتعرف كم من الجهد بذلت من أجل تنميتك وتربيتك؟

أنسيت يا ولدي كم أحضرت من الأطباء الأخصائيين يوم مرضك، وكم بذلت سعياً وجهداً في ذلك؟

أنسيت يا ولدي حينما بلغت سنّ الشباب ما بذلته من جهد في زواجك حيث انتخبت لك زوجة من أكثر النساء عفّة وطهراً؟

أنسيت يا ولدي جهدي في مسألة إعداد بيتك ومستلزماته؟. . . فإذا لم تنس كلّ هذا فلماذا العناد والطغيان والقسوة وعدم الوفاء إذاً؟

إنّ الله تعالى يذكّر عباده الغافلين بصورة مستمرّة بنعمه المختلفة، وهكذا يسألهم بعد

كلّ نعمة من هذه النعم ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فلماذا هذا العصيان والطغيان في حين أنّ طاعتي هي رمز لتكاملكم وتقدّمكم، وإنّ هذا ينفعكم ولن ينفع الله شيئاً؟!

٢ - مسألة النظم والحساب في الحياة

يوجد في جسم الإنسان أكثر من عشرين عنصراً معدنياً، وكلّ واحد منها بكيفية خاصّة وكمية معيّنة، وإذا ما حصل أقل تغيّر في مقاديرها ونسبها فإنّ حياتنا تكون في خطر، فمثلاً في فصل الصيف إذا تعرّق الإنسان أكثر من اللازم عندئذ يصاب بالصدمة التي قد تؤدّي إلى الموت والسبب في ذلك بسيط جدّاً، وهو نقص ماء الجسم وأملاح الدم وعلاجه لا يكون إلاّ بشرب الماء وتناول الأملاح الإضافية.

هذا نموذج بسيط من النظم والحساب في تركيب جسمنا، كما نلاحظ أحياناً أنّ دقّة المقاييس في تركيب مخلوقات أدقّ وأظرف كالخلايا، وأدقّ منها عالم الذرّات تكون إلى درجة من الدقّة بحيث تقاس بـ(واحد على الألف) وأحياناً بـ(واحد على المليون) من الملمتر أو الملغرام، حيث إنّ العلماء اضطرّوا لحساب هذه الموازين الدقيقة إلى الاستعانة بالعقول الألكترونية.

هذا في النظام الكوني، والأمر كذلك في الأُمور الاجتماعية، فأيّ انحراف في تطبيق قوانين العدل قد يؤدّي إلى فناء شعب.

وقد بيّن القرآن الكريم هذه الحقيقة قبل أربعة عشر قرناً وذكر كلّ ما يستحقّ الذكر بهذا الصدد حيث يقول سبحانه: ﴿وَالسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨﴾.

لقد جعل الله سبحانه الطغيان والتمرّد على القوانين الشرعية، مقارناً مع الطغيان والتمرّد على القوانين الكونية التي تحكم الوجود كلّه، إنّه تصوير رائع استعمله القرآن الكريم عن عالم الوجود تارةً، وعالم الإنسان أُخرى، كما ورد في الآيات الكريمة، وليس هذا فحسب، بل إنّه سبحانه شمل بوصفه هذا عالم الآخرة (يوم الحساب) ونصب الموازين، بل وحتى طبيعة الحساب والموازين حيث إنّها من الدقّة على قدر عجيب!... ولهذا السبب فقد أُمرنا - كما ورد ذلك في الرّوايات الإسلامية - أن نحاسب أنفسنا قبل أن نحاسب وأن نزنها قبل أن توزن.

«وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا»[١].

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ٩٩.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾

التّفسير

الصلصال وخلق الإنسان

إنّ الله تعالى بعد ذكره للنعم السابقة والتي من جملتها ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾، يتعرّض في الآيات مورد البحث إلى شرح خاص حول خلق الإنس والجنّ كدليل على قدرته العظيمة من جهة، وموضع درس وعبرة للجميع من جهة أُخرى، فيقول سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾.

﴿صَلْصَٰلٍ﴾ في الأصل معناه (ذهاب ورجوع أو تردّد الصوت في الأجسام الصلبة) ثمّ أُطلقت الكلمة على الطين اليابس الذي يخرج صوتاً، كما تطلق (الصلصلة) على الماء المتبقّي في الوعاء، لأنّه يخرج صوتاً عند حركته في الوعاء.

ويفسّر البعض كلمة ﴿صَلْصَٰلٍ﴾ بمعنى الطين الخبيث الرائحة، إلاّ أنّ المعنى الأوّل هو الأشهر والأعرف.

«فخار» من مادّة (فخر) بمعنى الشخص الذي يفخر كثيراً، ولكون الأشخاص الذين يعيشون الفراغ في شخصياتهم ومعنوياتهم يكثرون الثرثرة والإدّعاء عن أنفسهم، فإنّ هذه الكلمة تستعمل لكلّ إناء من الطين أو «الكوز»، وذلك بسبب الأصوات الكثيرة التي يولّدها[(١)].

ومن هنا يستفاد بوضوح من الآيات القرآنية المختلفة حول مبدأ خلق الإنسان، أنّه كان من التراب ابتداءً، قال تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾[(٢)]. ثمّ خرج مع الماء وأصبح طيناً. ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾[(٣)]. ثمّ أصبح بصورة طين خبيث الرائحة ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[(٤)]. ثمّ أصبح مادّة في حالة لاصقة، ﴿إِنَّا

---

(١) المفردات للراغب.
(٢) سورة الحجّ، الآية: ٥.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٢.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٢٨.

﴿خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾[1]. ومن ثمّ يتحوّل إلى حالة يابسة ويكون من ﴿صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ كما ذكر في الآية مورد البحث.

هذه المراحل كم تستغرق من الوقت؟ وكم هي المدّة التي يتوقّف فيها الإنسان في كلّ مرحلة من هذه المراحل؟، وفي أي ظروف تحدث هذه التطوّرات؟

هذه المسائل خفيت عن علمنا وإدراكنا، والله وحده هو العالم بها فقط.

ومن الواضح أنّ هذه التعابير تبيّن حقيقة ترتبط ارتباطاً وثيقاً مع الأُمور التربوية للإنسان، حيث إنّ المادّة الأوّلية في خلق الإنسان هي مادّة لا قيمة لها، ومن أحقر المواد على الأرض، إلاّ أنّ الله تعالى قد خلق من تلك المادّة الحقيرة مخلوقاً ذا شأن، بل يمثّل قمّة المخلوقات على وجه الأرض، حيث إنّ القيمة الواقعيّة للإنسان هي الروح الإلهيّة (النفخة الربّانية) فيه، والتي ذكرت في الآيات القرآنية الأُخرى (كما في سورة الحجر / ٢٩) وذلك ليعرف الإنسان قيمته الحقيقيّة في عالم الوجود ويسير في طريق التكامل على بيّنة من أمره.

ثمّ يتطرّق سبحانه لخلق الجنّ حيث يقول: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾.

«مارج» في الأصل من (مرج) على وزن (مرض) بمعنى الاختلاط والمزج، والمقصود هنا اختلاط شعل النيران المختلفة، وذلك لأنّ النيران أحياناً تكون بألوان مختلفة الأحمر، الأصفر، الأزرق، وأخيراً اللون الأبيض.

ويقول البعض: إنّ معنى التحرّك موجود فيها أيضاً، وذلك من (أمرجت الدابة) يعني (تركت الحيوان في المرتع) لأنّ أحد معاني «المرج» هو المرتع.

ولكن كيف خلق الجنّ من هذه النيران المتعدّدة الألوان؟ هذا ما لم يعرف بصورة دقيقة، كما أنّ الخصوصيات الأُخرى عن هذا المخلوق، قد بيّنت لنا عن طريق الوحي الربّاني وكتاب الله الكريم، ولكن محدودية معلوماتنا لا تعني السماح لنا أبداً بإنكار هذه الحقائق أو تجاوزها، خاصّة بعد ما ثبتت عن طريق الوحي الإلهي.

(وسيكون لنا إن شاء الله شرح مفصّل حول خلق الجنّ وخصوصيات هذا المخلوق في تفسير سورة الجنّ).

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١١.

وعلى كلّ حال، فإنّ أكثر الموجودات التي نتحدّث عنها هي: الماء والتراب والهواء والنار، سواء كانت هذه الموجودات عناصر بسيطة كما كان يعتقد القدماء، أو مركّبة كما يعتقد العلماء اليوم، ولكن على كلّ حال فإنّ مبدأ خلق الإنسان هو الماء والتراب، في حين أنّ مبدأ خلق الجنّ هو الهواء والنار، وهذا الاختلاف في مبدأ خلقة هذين الموجودين مصدر اختلافات كثيرة بين هذين المخلوقين.

وبعد أن تحدّث عن النعم التي كانت في بداية خلق الإنسان يكرّر تعالى قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

في الآية اللاحقة يستعرض نعمة أُخرى حيث يقول سبحانه: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾.

بما أنّ الشمس في كلّ يوم تشرق من نقطة وتغرب من أُخرى، وبعدد أيّام السنة لها شروق وغروب، ولكن نظراً للحدّ الأكثر من الميل الشمالي للشمس والميل الجنوبي لها، ففي الحقيقة أنّ للشمس مشرقين ومغربين والبقيّة بينهما(١).

إنّ هذا النظام الذي هو سبب وجود الفصول الأربعة له فوائد وبركات كثيرة، ويؤكّد ويكمّل ما مرّ بنا في الآيات السابقة، وذلك لأنّ الحديث كان عن حساب سير الشمس والقمر، وكذلك عن وجود الميزان في خلق السماوات، وإجمالاً فإنّه يبيّن النظام الدقيق للخلقة وحركة الأرض والقمر والشمس، وكذلك فإنّه يشير إلى النعم والبركات التي هي موضع استفادة الإنسان.

ويرى البعض أنّ المقصود بالمشرقين والمغربين هو طلوع وغروب الشمس، وطلوع وغروب القمر ويعتبرون هذا هو المناسب لتفسير الآية الكريمة ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ إلاّ أنّ المعنى الأوّل هو الأنسب، خصوصاً وأنّ الرّوايات الإسلامية قد أشارت إلى ذلك.

ومن جملة هذه الرّوايات حديث لأمير المؤمنين عليه السلام في تفسير هذه الآية حيث

---

(١) توضيح: لما كان محور الأرض مائلاً بالنسبة لسطح مدارها وبشكل زاوية بحدود (٢٣) درجة، والأرض بهذه الصورة تدور حول الشمس، لذا فإنّ شروق الشمس وغروبها متغيّر دائماً أيضاً كما يبدو من (٢٣) درجة والتي تمثّل أعظم الانحراف باتّجاه الشمال (في بداية الصيف) إلى (٢٣) درجة في قمّة الانحراف باتّجاه الجنوب (بداية الشتاء)، ويسمّى المدار الأوّل لها مدار «رأس السرطان» والمدار الثاني مدار «رأس الجدي»، وهذان هما مشرقا ومغربا الشمس، وبقيّة المدارات في داخل هذين المدارين.

يقول: «إنّ مشرق الشتاء على حدة، ومشرق الصيف على حدّه، أما تعرف ذلك من قرب الشمس وبعدها؟»(١).

ويتّضح بذلك معنى قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾(٢)، حيث يشير هنا إلى جميع مشارق ومغارب الشمس على طول أيّام السنة. في الوقت الذي تشير الآية مورد البحث إلى نهاية القوس الصعودي والنّزولي لها فقط.

وعلى كلّ حال فإنّ الله تعالى يؤكّد هذه النعمة بعد نعمة خلق الإنس والجنّ بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾

التّفسير

البحار وذخائرها الثمينة

استمراراً لشرح النعم الإلهيّة يأتي الحديث هنا عن البحار، ولكن ليس عن خصوصيات البحار بصورة عامّة، بل عن كيفية خاصّة ومقاطع معيّنة منها تمثّل ظواهر عجيبة وآية على القدرة اللامتناهية للحقّ، بالإضافة إلى ما فيها من النعم التي هي موضع استفادة البشرية.

يقول تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ﴾ ولكن بين هذين البحرين المتلاقيين فاصل يمنع من طغيان وغلبة أحدهما على الآخر: ﴿بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ﴾.

مادّة ﴿مَرَجَ﴾ على وزن (فلج) بمعنى الاختلاط، أو إرسال الشيء وتركه، وهنا وردت بمعنى إرسال الشيء ووضعه جنباً إلى جنب بقرينة الآية: ﴿بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ﴾.

المقصود من البحرين هما الماء العذب والماء المالح، وذلك بالاستدلال بقوله

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص١٩٠ (المقصود هو ارتفاع الشمس في السماء في فصل الصيف ونزولها في فصل الشتاء).

(٢) سورة المعارج، الآية: ٤٠.

تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾(١).

والتساؤل هنا عن مكان هذين البحرين اللذين لا يمتزجان مع بعضهما، وما هو البرزخ الموجود بينهما؟ هناك كلام كثير بين المفسّرين حول هذه المسألة، إلاّ أنّ بعض التّفسيرات تدلّل على عدم اطّلاعهم على أوضاع البحار في ذلك الزمان، منها أنّهم ذكروا أنّ المقصود من البحرين هما (بحر فارس وبحر الروم) في الوقت الذي نعلم أنّ ماء هذين البحرين مالح، ولا يوجد بينهما برزخ.

أو قولهم: إنّ المقصود بذلك هو بحر السماء وبحر الأرض، والذي يكون الأوّل عذباً والثاني مالحاً، في الوقت الذي نعلم أيضاً بعدم وجود بحر في السماء باستثناء الغيوم والبخار التي تتبخّر من المحيطات.

وقالوا أيضاً: إنّ المقصود من البحر العذب هو المياه التي تحت الأرض والتي لا تختلط مع مياه البحار، والبرزخ الموجود بينهما هي جدران هذه الآبار.

في الوقت الذي نعلم أيضاً أنّ الماء الموجود تحت الأرض أقلّ من أن يشكل بحراً.

نعم إنّ جزئيات الماء المخفية بين طبقات التراب والرمل تتجمّع تدريجيّاً، وتخرج عندما يحفر بئر في نقطة معيّنة. وهي كميّة محدودة بالإضافة إلى عدم وجود اللؤلؤ والمرجان فيها.

إذاً ما هو المقصود من هذين البحرين؟

لقد أشرنا سابقاً إلى هذه الحقيقة في تفسير سورة الفرقان، وهي أنّ الأنهار العظيمة ذات المياه العذبة عندما تصبّ في البحار والمحيطات فإنّها تشكّل بحراً من الماء الحلو إلى جنب الساحل وتطرد الماء المالح إلى الخلف، والعجيب أنّ هذين الماءين لا يمتزجان مع بعضهما لمدّة طويلة بسبب اختلاف درجة الكثافة. وتلاحظ هذه المناظر بوضوح عند السفر بالطائرة في المناطق التي تكون فيها هذه الظاهرة، حيث المياه العذبة تمثّل بحراً منفصلاً في داخل البحر المالح ومنفصلة عنها، وعندما تمتزج أطراف هذين البحرين فإنّ المياه العذبة الجديدة تأخذ مكانها بحيث إنّ هذين البحرين منفصلان على الدوام بشكل ملفت للنظر.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٥٣.

والظريف هنا ما يحصل في حالة (مدّ البحر) فبارتفاع سطح المحيط إلى الأعلى، فإنّ المياه العذبة ترجع إلى الداخل دون أن تختلط مع المياه المالحة - باستثناء سنوات الجدب التي تنعدم فيها الأمطار ويشحّ الماء - وتغطّي قسماً من اليابسة، لذلك فكثيراً ما تستثمر هذه الحالة بإيجاد أنهار وقنوات في المناطق الساحلية حيث تسقى بهذه الطريقة الكثير من الأراضي الزراعية.

إنّ هذه الأنهر توجد ببركة وحركة (المدّ والجزر) الساحليتين وتأثيرهما على مياه هذه الأنهار التي تمتلىء وتفرغ مرّتين في كلّ يوم بالماء العذب، ممّا يتيح فرصة طيّبة لسقي مناطق واسعة من الأراضي الزراعية.

ويوجد تفسير رائع آخر لهذين البحرين، حيث قالوا: إنّ المقصود منهما يحتمل أن يكون ظاهرة (كلف استريم) والذي سيأتي شرحها في آخر هذه الآيات إن شاء الله.

ومرّة أُخرى يخاطب الله تعالى عباده في معرض حديثه عن هذه النعم حيث يسألهم سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

واستمراراً لهذا الحديث يقول عزّوجلّ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾: وسيلتان للتجميل والزينة، ويستفاد منهما أيضاً في معالجة بعض الأمراض، كما أنّهما ثروة تجارية أيضاً ووسيلة جيّدة للربح الوفير، ولهذه الموارد أُشير إليهما كنعمتين إلهيتين للعباد.

أمّا ﴿ٱللُّؤْلُؤُ﴾ فهو حبّة شفّافة ثمينة تنمو في داخل الصدف في أعماق البحار، وكلّما كبر حجمها زاد ثمنها، ولها استعمالات واسعة في الطبّ، حيث كان الأطباء سابقاً يستحضرون منها بعض الأدوية التي تفيد في تقوية القلب والأعصاب، وعلاج أنواع الخفقان وتقوية الكبد وعلاج اليرقان، ومعالجة الخوف والوحشة، ورفع الرائحة النتنة من الفمّ، وكذلك الحصى في الكلية ولمثانة، ويستفاد منهما أيضاً في علاج بعض أمراض العين.

﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾: فسّر البعض المرجان بأنّه اللؤلؤ الصغير، إلاّ أنّه في الحقيقة شيء آخر، فهو كائن حيّ يشبه الغصن الصغير للشجرة، وينشأ في أعماق البحار، وكان العلماء يتصوّرون لفترة زمنية أنّ هذه الشجرة نوع من أنواع النباتات، إلاّ أنّه اتّضح فيما بعد أنّه نوع من الحيوانات، بالرغم من أنّه يلتصق بالصخور الموجودة في أعماق البحر

ويغطّي مساحات واسعة أحياناً وينمو تدريجيّاً بحيث يشكّل جزراً تعرف بالجزر المرجانية، وينمو المرجان غالباً في المياه الراكدة، ويصطاده الصيادون من سواحل البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسّط وفي مناطق أُخرى.

وأفضل أنواع المرجان الذي يستعمل للزينة هو المرجان ذو اللون الأحمر، وكلّما كان احمراره أشدّ كانت قيمته أغلى وأثمن، وهو مادّة خصبة لتشبيهات الشعراء، كما أنّ أردأ أنواع المرجان هو المرجان الأبيض ويوجد بكثرة، وما بين النوعين هو المرجان الأسود.

وإضافة إلى استعمال المرجان كحليّ وزينة، فإنّ له استعمالات طبيّة حيث ذكروا له خواصاً كثيرة منها أنّه يصنع منه بعض الأدوية الخاصّة بتقوية القلب، وكذلك دفع سمّ الأفعى، وتقوية الأعصاب، ومعالجة الاسهال، ونزيف الرحم، وعلاج الصرع[1].

والنقطة الأُخرى التي يجدر بنا ذكرها هنا أنّ بعض المفسّرين صرّحوا بأنّ اللؤلؤ والمرجان ينشآن فقط في المياه المالحة، ممّا أوقعهم في إشكال في تفسير الآية ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ فذهبوا إلى أنّ المقصود هو أحدهما كما في الآية (٣١) من سورة الزخرف.

إلاّ أنّ مثل هذا التّفسير لا يدعمه دليل، حيث صرّح البعض بأنّ اللؤلؤ والمرجان يعيشان في الماء العذب والمالح على السواء.

واستمراراً لهذا القسم من النعم الإلهيّة يشير سبحانه إلى موضوع (السفن) التي هي في الحقيقة أكبر وأهمّ وسيلة لنقل البشر وحمل الأمتعة في الماضي والحاضر، حيث يقول سبحانه: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَآتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾.

«جوار»: جمع جارية، وهي وصف للسفن، وحذفت للاختصار لأنّ التركيز الأكثر كان على سير وحركة السفن، لذا إعتمد هذا الوصف.

كما تطلق جارية على (الأمة)، وذلك بسبب حركتها وسعيها في إنجاز الأعمال والخدمات، وتطلق أيضاً على الفتيات الشابّات وذلك لجريان النشاط فيهنّ.

«منشآت»: جمع (منشأ) وهو اسم مفعول من (إنشاء) بمعنى إيجاد، والظريف هنا أنّه في الوقت الذي يعبّر عن السفن بأنها «منشآت» والتي تحكي أنّها مصنوعة بواسطة

---

(١) دائرة المعارف فريد وجدي وكتب أُخرى.

الإنسان، يقول سبحانه (وله) أي لله تعالى وهو إشارة إلى أنّ جميع الخواص التي يستفاد منها في صناعة السفن، والتي منحها الله للبشر المخترعين لهذه الصناعة هي لله، وكذلك فإنّه هو الذي أعطى خاصية السيولة لمياه البحر والقوّة للرياح، وأنّ الله تعالى هو الذي أوجد هذه الخواص في المواد المتعلّقة بالسفينة، وهذا ما عبّر عنه القرآن الكريم بالتسخير أيضاً، حيث يقول سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾(١).

وفسّر البعض «منشأ» من مادّة (إنشاء) بمعنى ارتفاع الشيء، واعتبروها إشارة إلى أشرعة السفن التي تستخدم كقوّة في حركة السفينة، وذلك بسبب دفع الرياح لها.

«أعلام»: جمع (علم) على وزن (قلم)، بمعنى (جبل) بالرغم من أنّها في الأصل بمعنى (علامة وأثر) والذي يخبر عن شيء معيّن، ولأنّ الجبال تكون واضحة من بُعد فإنّه يعبّر عنها بـ(العلم) كما أنّ لفظة (عَلَم) تطلق أيضاً على «الراية».

وبهذا فإنّ القرآن الكريم نوّه هنا بالسفن الكبيرة التي تتحرّك على سطح المحيطات والبحار، وعلى خلاف ما يتصوّره البعض فانّ السفن الكبيرة لا تختّص بعصر الماكنة والبخار، بل لقد استفاد اليونانيون وغيرهم من السفن الكبيرة في نقل قواتهم وجيوشهم.

ومرّة أُخرى يكرّر سبحانه هذا السؤال العميق المغزى بقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

بحوث

١ - البحر مركز النعم الإلهيّة

لاحظنا في هذا القسم من الآيات إشارة إلى البحر وأهميّته في الحياة البشرية، وكما نعلم فإنّ مياه البحار والمحيطات تشكّل ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية، وهي منبع عظيم للمواد الغذائية، والطبية، وأدوات الزينة، ووسيلة مهمّة لنقل البشر وحمل البضائع، والأهمّ من ذلك فإنّ نزول الأمطار واعتدال الهواء، وحتى قسم من هبوب الرياح هي من بركات البحار، فإذا كان سطح البحار أقلّ أو أكثر ممّا هو عليه، فإنّ الكرة الأرضية إمّا أن تصبح يابسة أو رطبة لدرجة لا يمكن العيش فيها.

لذلك نرى أنّ القرآن الكريم قد ذكّر الإنسان - لعدّة مرّات وبتعبيرات مختلفة بهذه

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٢.

النعمة العظيمة، ودعاه للتفكير بها، حيث يقول سبحانه: ﴿سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ الجاثية/ ١٢.

ويقول مرّة أُخرى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ إبراهيم / ٣٢.

وقال سبحانه: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الحجّ / ٦٥.

وإذا تجاوزنا كلّ ذلك فإنّ البحر هو دار العجائب حيث فيه أصغر النباتات المجهرية، وكذلك أطول أشجار العالم، وفيه أيضاً أصغر الحيوانات وكذلك أعظمها وأضخمها.

كما أنّ الحياة في أعماق البحار حيث لا ضوء ولا غذاء عجيبة إلى درجة أنّ الشخص لا يملّ من مطالعتها والاطلاع عليها، وكلّما تعرف الإنسان على شيء منها ازداد شغفاً بها، والعجيب أيضاً أنّ قسماً من الحيوانات هنالك تشعّ أضواءً وتُصنع مادّتها الغذائية على سطح البحر ومن ثمّ تترسّب، كما أنّ أطرافها محكمة ومقاومة إلى درجة أنّها تتحمّل ضغط الماء العظيم الذي إذا وضع الإنسان في حالته الطبيعيّة هناك فإنّ عظامه تتحوّل إلى طحين.

٢ - الأنهار البحرية العظيمة (والگلف استيرين)

من العجائب الموجودة في محيطات العالم هو وجود أنهار عظيمة وتيارات بحرية كبيرة، وأقوى هذه الأنهار يسمّى (گلف استيرين). إنّ هذا النهر العظيم يتحرّك من سواحل أمريكا المركزية ويسير في جميع المحيط الأطلسي حتى يصل إلى سواحل أوروبا الشمالية.

والمعروف أنّ مياهه التي تسير من مناطق قريبة من خطّ الاستواء تكون حارة بل حتى أنّ لونها يختلف عن لون المياه المجاورة، والعجيب أنّ عرض هذا النهر البحري العظيم (الگلف استيرين) بحدود ١٥٠ كم، كما أنّ أعمق نقطة فيه تبلغ مئات الأمتار، وسرعته في بعض المناطق شديدة بحيث تبلغ في اليوم الواحد بـ ١٦٠ كم.

إنّ اختلاف درجة حرارة هذا النهر مع المياه المجاورة بحدود(١٠ - ١٥) درجة مئوية، لذا فإنّ ساحله الغربي يسمّى بالجدار البارد.

(والگلف استيرين) يسبّب رياحاً حارّة ويدفع قسماً كبيراً من حرارته باتّجاه مدن أوروبا الشمالية، حيث يؤثّر على مناخ تلك البلدان بحيث يكون معتدلاً للغاية، ويحتمل أن يكون العيش صعباً للغاية في هذه المناطق لو لم يوجد هذا المجرى العظيم.

ونكرّر مرّة أُخرى أنّ (الكلف استيرين) هو أحد الأنهار في المحيطات، وهناك أنهار أُخرى كثيرة في بحار ومحيطات العالم.

إنّ السبب الأساس في تكوين هذه الأنهار البحرية هو اختلاف حرارة المنطقة الاستوائية والمناطق القطبية والتي توجد هذه الحركة في مياه البحار.

ويمكن استيعاب هذا الموضوع بتجربة بسيطة:

فإذا كان لدينا ماء في وعاء كبير، ووضعنا في جانب منه قطعة ثلجية، وفي الجهة الأُخرى قطعة حديدية حارّة، ووضعنا على سطح الماء قليلاً من التبن، فإنّنا سنلاحظ ظهور حركة على سطح الماء حيث يتحرّك الماء ببطء من المنطقة الحارّة باتّجاه المنطقة الباردة.

إنّ مثل هذه الحالة تحصل في كلّ بحار العالم، وهي مصدر ظهور هذه الأنهار البحرية.

والعجيب أنّ هذه الأنهار العظيمة لا تمتزج مع المياه حولها إلاّ قليلاً، وتسير آلاف الكيلومترات على هذه الصورة، وبذلك تعبّر عن مصداقية الآية الكريمة ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾.

والملفت للنظر أنّ في نقطة التقاء هذه المياه الحارّة مع المياه الباردة، تحدث ظاهرة مفيدة جدّاً للإنسان، وهي حدوث حالة من الإغماء أو الموت الجماعي للحيوانات المجهرية المعلّقة في الماء وذلك في نقطة التماس والالتقاء بين المياه الحارّة والمياه الباردة وبهذا تتوفّر في هذه المناطق مواد غذائية كثيرة لا حصر لها وتكون سبباً في جذب قطعان الأسماك الكبيرة، حيث يقصد الصيادون هذه المناطق للاستفادة من صيد هذه الحيوانات، وتعتبر هذه المنطقة من أفضل المناطق في العالم لصيد الأسماك[1].

وهذا يمثّل أحد التفاسير للآيات أعلاه، وهو لا يتنافى مع التفاسير الأُخرى، ولذا يمكن الجمع بينهما.

٣ - تفسير من أعماق الآيات

نقل في حديث للإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ أنّه

---

(١) دائرة المعارف (الثقافية) ج١٢ ص١٢٢٨، وكذلك مجلة الميناء والبحر عدد ٤ ص١٠٠ بالإضافة إلى مصادر أُخرى.

قال: «وعلي وفاطمة عليهما السلام بحران عميقان لا يبغي أحدهما على صاحبه. ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ قال: الحسن والحسين»(١).

ونقل هذا المعنى عن بعض أصحاب الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم في تفسير الدرّ المنثور(٢).

ونقله العلاّمة الطبرسي في مجمع البيان مع اختلاف يسير.

ومن هنا نعلم أنّ القرآن الكريم له بطون، وأنّ آية واحدة يمكن أن تكون لها معان متعدّدة بل عشرات المعاني، والتّفسير الأخير هو من بطون القرآن، ولا يتنافى مع المعاني الظاهرية له.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠)﴾

التّفسير

كلّ شيء هالك إلاّ وجهه

استمراراً لشرح النعم الإلهيّة، في هذه الآيات يضيف سبحانه قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ وهنا يتساءل كيف يكون الفناء نعمة إلهيّة؟

وللجواب على هذا السؤال نذكر ما يلي: يمكن ألاّ يكون المقصود بالفناء هنا هو الفناء المطلق، وإنّما هو الباب الذي يطلّ منه على عالم الآخرة، والجسر الذي لابدّ منه للوصول إلى دار الخلد، بلحاظ أنّ الدنيا بكلّ نعمها هي سجن المؤمن، والخروج منها هو التحرر من هذا السجن المظلم.

أو أنّ النعم الإلهيّة الكثيرة - المذكور سابقاً - يمكن أن تكون سبباً لغفلة البعض وإسرافهم فيها بأنواع الطعام والشراب والزينة والملابس والمراكب وغير ذلك، ممّا يستلزم تحذيراً إلهيّاً للإنسان، بأنّ هذه الدنيا ليست المستقرّ، فالحذر من التعلّق بها، ولابدّ من الاستفادة من هذه النعم في طاعة الله... إنّ هذا التنبيه والتذكير بالرحيل عن هذه الدنيا هو نعمة عظيمة.

(١) تفسير القمّي، ج٢، ص٣٤٤.
(٢) تفسير الدرّ المنثور، ج٦، ص١٤٢.

الضمير في ﴿عَلَيْهَا﴾ يرجع إلى الأرض التي ورد ذكرها في الآيات السابقة، بالإضافة إلى القرائن الأُخرى الموجودة، لذا فهو واضح.

كما أنّ المقصود ﴿مَنْ عَلَيْهَا﴾ هم الجنّ والإنس مع العلم أنّ بعض المفسّرين احتملوا أنّ الحيوانات والكائنات الحيّة جميعاً مشمولة بهذا المعنى.

وبما أنّ كلمة ﴿مَنْ﴾ تستعمل غالباً للعاقل، لذا فالمعنى الأوّل هو الأنسب.

صحيح أنّ مسألة الفناء لا تنحصر بالإنس والجنّ فقط، ولا تختّص بالكائنات الموجودة على الأرض فحسب، حيث يصرّح القرآن الكريم بأنّ أهل السماء والأرض جميعاً يفنون، وذلك في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(١)، ولكن لمّا كان الحديث يدور حول أهل الأرض، لذا فهم المقصودون.

ويضيف في الآية اللاحقة قوله سبحانه: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

﴿وَجْهَهُ﴾ معناه اللغوي معروف وهو القسم الأمامي للشيء بحيث يواجهه الإنسان في الطرف المقابل، وإستعمالها بخصوص لفظ الجلالة يقصد به (الذات المقدّسة).

فسّر البعض ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ بمعنى الصفات الإلهيّة المقدّسة، التي عن طريقها تنزل نعم وبركات الله على الإنسان كالرحمة والمغفرة والعمل والقدرة.

ويحتمل أن يكون المقصود هي الأعمال التي تنجز من أجل الله، وبناءً على هذا فالجميع يفنى، والشيء الباقي هي الأعمال التي تنجز بإخلاص ولرضى الله تعالى..

إلاّ أنّ المعنى الأوّل هو الأنسب.

أمّا ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ والذي هو وصف لـ (الوجه) فإنّه يشير إلى صفات الجمال والجلال لله سبحانه، لأنّ ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ تنبّئنا عن الصفات التي يكون الله أسمى وأجلّ منها (الصفات السلبية). وكلمة ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ تشير إلى الصفات التي تظهر حسن وقيمة الشيء، وهي الصفات الثبوتية لله سبحانه كعلمه وقدرته.

وبناءً على هذا فإنّ معنى الآية بصورة عامّة يصبح كالآتي: إنّ الباقي في هذا العالم هو الذات المقدّسة لله سبحانه، والتي تتّصف بالصفات الثبوتية والمنزّهة عن الصفات السلبية.

كما فسّر البعض أنّ (ذو الإكرام) هو إشارة إلى الألطاف والنعم الإلهية التي تفضّل الله

(١) سورة القصص، الآية: ٨٨.

بها وأكرمها لخاصّة أوليائه، ومن الممكن الجمع بين هذه المعاني المختلفة للآية أعلاه.

ونقرأ في حديث أنّ رجلاً كان يصلّي في محضر الرّسول ﷺ حيث دعا الله سبحانه كذلك: «اللهمّ إنّي أسألك بأنّ لك الحمد لا إله إلاّ أنت المنّان، بديع السماوات والأرض، ذو الجلال والإكرام، يا حيّ يا قيّوم».

فقال الرّسول ﷺ لأصحابه: «أتدرون بأي اسم دعا الله؟» فقالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «والذي نفسي بيده، لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى»[1].

ثمّ يخاطب الخلائق مرّة أُخرى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ومضمون الآية اللاحقة في الحقيقة هي نتيجة للآيات السابقة، حيث يقول سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ولماذا لا يكون كذلك في الوقت الذي يفنى الجميع ويبقى وحده سبحانه، وليس هذا في نهاية العالم فقط، وإنّما الآن أيضاً فإنّ الكائنات فانية في مقابله وبقاؤها مرتبط بمشيئته، وإذا أعرض بلطفه عنها فسيتلاشى الكون بأجمعه، وعلى هذا فهل يوجد أحد سواه يطلب منه أهل السماوات والأرض قضاء حوائجهم ويسألونه تدبير شؤونهم؟!

التعبير بـ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ﴾ جاء بصيغة المضارع، وهو دليل على أنّ السؤال والطلب في الكائنات مستمر من الذات الإلهيّة المقدّسة، والجميع يستلهمون من مبدأ فيضه، ولسان حالهم يطلب الوجود والبقاء وقضاء الحوائج، وهذا شأن الموجود الممكن الذي هو مرتبط بواجب الوجود ليس في الحدوث فقط، وإنّما في البقاء أيضاً.

ثمّ يضيف سبحانه: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾.

نعم إنّ خلقه مستمر، وإجاباته لحاجات السائلين والمحتاجين لا تنقطع، كما أنّ إبداعاته مستمرّة فيجعل الأقوام يوماً في قوّة وقدرة، وفي يوم آخر يهلكهم، ويوماً يعطي السلامة والشباب، وفي يوم آخر الضعف والوهن، ويوماً يذهب الحزن والهمّ من القلوب وآخر يكون باعثاً له، وخلاصة الأمر أنّه في كلّ يوم - وطبقاً لحكمته ونظامه الأكمل - يخلق ظاهرة جديدة وخلقاً وأحداثاً جديدة.

---

(١) تفسير روح المعاني، ج٢٧، ص٩٥.

والالتفات إلى هذه الحقيقة من جهة يوضّح احتياجاتنا المستمرّة لذاته المقدّسة، ومن جهة أُخرى فإنّه يذهب اليأس والقنوط من القلوب، ومن جهة ثالثة فإنّه يلوي الغرور ويكسر الغفلة في النفوس.

نعم، إنّه سبحانه له في كلّ يوم شأن وعمل.

وبالرغم من أنّ بعض المفسّرين ذكروا قسماً من هذا المعنى الواسع تفسيراً للآية، إلاّ أنّ البعض ذكر في تفسيرها، أنّها مغفرة الذنوب، وذهاب الحزن، وإعزاز أقوام وإذلال آخرين فقط.

والبعض الآخر قال: إنّها مسألة الخلق والرزق والحياة والموت والعزّة والذلّة فقط.

والبعض الآخر عنون مسألة الخلق والموت بالنسبة للإنسان وقال: إنّ الله جيوشاً ثلاثة: جيش ينتقل من أصلاب الآباء إلى أرحام الأُمّهات، وجيش يخرج إلى عالم الدنيا من أرحام الأُمّهات، وجيش يساق من عالم الدنيا إلى القبور.

وكما قلنا فإنّ للآية مفهوماً واسعاً يشمل كلّ خلق جديد وخلقة جديدة، ويشمل كلّ تغيير وتحوّل في هذا العالم.

ونقرأ في رواية لأمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال في أحد خطبه: «الحمد لله الذي لا يموت ولا تنقضي عجائبه لأنّه كلّ يوم هو في شأن، من إحداث بديع لم يكن»[١].

ونقرأ في حديث آخر للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في تفسيره الآية الكريمة: «من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرّج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين»[٢].

ولابدّ من الانتباه لهذه النقطة أيضاً: إنّ المقصود من (يوم) هو ليس (النهار) في مقابل (الليل) بل يشمل الأحقاب المتزامنة، وكذلك الساعات واللحظات، ومفهومه أنّ الله المتعال في كلّ زمان في شأن وعمل.

كما أنّ البعض ذكروا شأناً نزولياً للآية، وهو أنّها نزلت ردّاً على قول اليهود الذين يعتقدون أنّ الله عزّ وجلّ يعطّل كلّ الأعمال في يوم السبت، ولا يصدر أي حكم[٣]. فالقرآن الكريم يقول: إنّ خلق الله وتدبيره ليس له توقّف.

---

(١) أُصول الكافي، ج ١، ص ١٤١، مطابق نقل نور الثقلين، ج٥، ص١٩٣.

(٢) تفسير مجمع البيان نهاية الآية مورد البحث، ونقل هذا الحديث أيضاً في روح المعاني من صحيح البخاري.

(٣) تفسير مجمع البيان، ج٩، ص٢٠٢.

ومرّة أُخرى - بعد هذه النعم المستمرّة والإجابة لاحتياجات جميع خلقه من أهل السماوات والأرض يكرّر قوله سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

بحوث

١ - ما هي حقيقة الفناء؟

ما مرّ بنا في الآيات السابقة وهو أنّ «الكلّ يفنى إلاّ الله» ليس بمعنى الفناء المطلق، وأنّ روح الإنسان تفنى أيضاً أو أنّ التراب الناشئ من بدنه بعد الموت سينعدم أيضاً. إذ إنّ الآيات القرآنية صرّحت بوجود عالم البرزخ إلى يوم القيامة[١].

ومن جهة أُخرى فإنّ الله سبحانه يذكر لمرّات عدّة أنّ الموتى يخرجون من قبورهم يوم القيامة[٢].

ويذكر سبحانه في آية أُخرى أنّ رميم العظام يلبس الحياة مرّة أُخرى بأمر الله[٣].

وهذه الآيات كلّها شاهد على أنّ الفناء في الآية والآيات الأُخرى بمعنى اضطراب نظام الجسم والروح وقطع الارتباط بينهما واضطراب عالم الخلقة كذلك، وحلول عالم جديد محلّ العالم السابق.

٢ - استمرار الخلق والإبداع

قلنا: إنّ الآية الكريمة: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ تدلّ على دوام الخلقة واستمرار الخلق، وأنّها مبعث أمل من جهة، ونافية للغرور من جهة أُخرى، لذا فإنّ القادة الإسلاميين يعتمدون عليها كثيراً لبعث الأمل في النفوس، كما نقرأ ذلك في تبعيد الصحابي الجليل «أبي ذرّ الغفاري» إلى (الربذة) حيث يذكر التاريخ أنّ علياً عليه السلام جاء لتوديعه فواساه بكلمات مؤثّرة، ثمّ أعقبه ابنه الإمام الحسن عليه السلام حيث خاطب أبا ذر رضي الله عنه بقوله «يا عمّاه» تكريماً له وأعقبه أخوه سيّد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام بقوله لأبي ذرّ: «يا عمّاه إنّ الله تعالى قادر على أن يغيّر ما قد ترى، الله كلّ يوم في شأن، وقد منعك هؤلاء القوم دنياهم ومنعتهم دينك فاسأل الله الصبر والنصر»[٤].

ونقرأ أيضاً أنّ الإمام الحسين عليه السلام وهو في طريقه إلى كربلاء لقي الشاعر «الفرزدق»

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٠.
(٢) سورة يس، الآية: ٥١.
(٣) سورة يس، الآية: ٧٩.
(٤) الغدير، ج٨، ص٣٠١.

عند (صفاح) فسأله الإمام عليه السلام عن خبر الناس خلفه - إشارة إلى أهل العراق - فقال: الخبير سألت، قلوب الناس معك، وسيوفهم مع بني أُميّة، والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء. فقال الإمام الحسين عليه السلام: (صدقت لله الأمر يفعل ما يشاء وكلّ يوم ربّنا في شأن)[1].

وكلّ ذلك يرينا أنّ هذه الآية هي آية باعثة للأمل في نفوس المؤمنين.

وثمّة قصّة أُخرى في هذا الصدد حيث ذكروا أنّ أحد الأُمراء سأل وزيره عن تفسير هذه الآية، إلاّ أنّ الوزير أعلن عن عدم علمه بها وطلب مهلة ليوم غد، ورجع إلى البيت محزوناً، وكان لديه غلام أسود ذو علم ومعرفة، فسأله عمّا به، فحدّث غلامه بالقصّة، فأجابه: إذا ذهبت إلى الأمير فأخبره إذا كان يرغب في معرفة تفسير هذه الآية فأنا مستعدّ لذلك... فطلبه الأمير وسأله، فأجابه الغلام: يا أمير، شأنه يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، ويخرج الحيّ من الميّت، ويخرج الميّت من الحيّ، ويشفي سقيماً، ويسقم سليماً، ويبتلي معافى، ويعافي مبتلى، ويعزّ ذليلاً، ويذلّ عزيزاً، ويفقر غنيّاً، ويغني فقيراً..

فقال الأمير: «فرّجت عنّي فرّج الله عنك» ثمّ أكرمه وأنعمه[2].

٣ - الحركة الجوهرية

بعض المؤيدّين للحركة الجوهرية يستدلّون لإثبات مرادهم بالآيات القرآنية أو يعتبرونها إشارة لمقصودهم، ومن ضمن ما يستشهدون به الآية الكريمة: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

التوضيح: يعتقد الفلاسفة القدماء أنّ للحركة أربع مقولات عرضية هي: (أين، كيف، كم، وضع).

وبتعبير أوضح إنّ حركة الجسم تكون بتغيير مكانه وذلك بانتقاله، وهذه هي مقولة (الأين)، أو بنموّه أو زيادة كميته وهذه مقولة «الكم». أو تغيّر اللون والطعم والرائحة (كشجرة التفاح) وهذا المقصود من «الكيف»، أو أن يدور في مكانه حول نفسه كالحركة الوضعية للأرض وهذا ما يراد به من «الوضع».

وقد كان سائداً أنّ الحركة غير ممكنة في جوهر وذات الجسم أبداً، لأنّه في كلّ

---

(١) الكامل لابن الأثير، ج٤، ص٤٠.
(٢) تفسير القرطبي، ج٩، ص٦٣٣٧.

حركة يجب أن تكون ذات الجسم المتحرّك ثابتة، إلاّ أنّ عوارضه قد تتغيّر، فالحركة لا تتصوّر في ذات الشيء وجوهره، بل في أعراضه.

لكنّ الفلاسفة المتأخّرين رفضوا هذه النظرية واعتقدوا بالحركة الجوهرية، وقالوا: إنّ أساس الحركة هي الذات، الجوهر، والتي تظهر آثارها في العوارض.

وأوّل شخص طرح هذه النظرية بشكل تفصيلي استدلالي هو المولى صدر الدين الشيرازي حيث قال: إنّ كلّ ذرّات الكائنات وعالم المادّة في حركة دائبة، أو بتعبير آخر: إنّ مادّة الأجسام وجود سيّال متغيّر الذات دائماً، وفي كلّ لحظة له وجود جديد يختلف عن الوجود السابق له، ولكون هذه التغيّرات متّصلة مع بعضها فإنّها تحسب شيئاً واحداً، وبناءً على هذا فإنّ لنا في كلّ لحظة وجوداً جديداً، إلاّ أنّ هذه الوجودات متصلة ومستمرة ولها صورة واحدة، أو بتعبير آخر: إنّ المادة لها أربعة أبعاد (طول وعرض وعمق وأمّا البعد الآخر فهو ما نسمّيه (الزمان) وهذا الزمان ليس بشيء إلاّ مقدار الحركة في الجوهر) لاحظوا جيّداً.

وممّا يجدر ذكره أنّ الحركة الجوهرية لا ترتبط بمسألة الحركة في داخل الذرّة لأنّها حركة وضعية وعرضية، أمّا الحركة في الجوهر فلها مفهوم عميق جدّاً تشمل الذات والجوهر.

والعجيب هنا أنّ المتحرّك هو نفس الحركة.

ولإثبات هذا المقصود فإنّهم يستدلّون بدلائل عديدة لا مجال لذكرها هنا، إلاّ أنّه لا بأس بالإشارة إلى نتيجة هذا الرأي الفلسفي وهو أنّه ممّا لا شكّ فيه أنّ إدراكنا لمسألة معرفة الله أوضح من أي زمان، لأنّ الخلق والخلقة لم تكن في بداية الخلق فحسب، بل إنّها في كلّ ساعة وكلّ لحظة، وإنّ الله سبحانه مستمر في خلقه، ونحن مرتبطون به دائماً ومستفيضون من فيض ذاته وهذا معنى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

ومن الطبيعي أن لا مانع من أن يكون هذا المفهوم جزءاً من المفهوم الواسع للآية الكريمة.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ

إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾

التّفسير

التحدّي المشروط

النعم الإلهيّة التي استعرضتها الآيات السابقة كانت مرتبطة بهذا العالم، إلاّ أنّ الآيات مورد البحث تتحدّث عن أوضاع يوم القيامة، وخصوصيات المعاد، وفي الوقت الذي تحمل تهديداً للمجرمين، فإنّها وسيلة لتربية وتوعية وإيقاظ المؤمنين، بالإضافة إلى أنّها مشجّعة لهم للسير في طريق مرضاته سبحانه، ومن هنا فإنّنا نعتبرها نعمة، لذلك بعد ذكر كلّ واحدة من هذه النعم يتكرّر نفس السؤال الذي كان يعقّب ذكر كلّ نعمة من النعم السابقة.

يقول سبحانه في البداية: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾[1] [2].

نعم، إنّ الله العالم القادر سيحاسب في ذلك اليوم الإنس والجنّ حساباً دقيقاً على جميع أعمالهم وأقوالهم ونيّاتهم، ويعيّن لكلّ منهم الجزاء والعقاب.

ومع علمنا بأنّ الله سبحانه لا يشغله عمل عن عمل، وعلمه محيط بالجميع في آن واحد، ولا يشغله شيء عن شيء (ولا يشغله شأن عن شأن) ولكنّنا نواجه التعبير في ﴿سَنَفْرُغُ﴾ والتي تستعمل غالباً بالتوجّه الجادّ لعمل ما، والانصراف الكلّي له، وهذا من شأن المخلوقات بحكم محدوديتها.

إلاّ أنّه استعمل هنا لله سبحانه، تأكيداً على مسألة حساب الله تعالى لعباده بصورة لا يغادر فيها صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها، ولا يغفل عن مثقال ذرّة من أعمال الإنسان خيراً أو شرّاً، والأظرف من ذلك أنّ الله الكبير المتعال هو الذي يحاسب بنفسه عبده الصغير، وعلينا أن نتصوّر كم هي مرعبة ومخيفة تلك المحاسبة.

---

(١) يجب الالتفات إلى أنّ رسم الخطّ القديم في القرآن المجيد كتبت (أيّها) في موارد بصورة (أيّه) والتي هي في الآية مورد البحث وآيتين أخريين (النور الآية ٣١، والزخرف الآية ٤٩) في الوقت الذي تكتب (أيّها) في الحالات الأُخرى بالألف الممدودة، والملاحظ أنّها كانت على أساس قاعدة رسم الخطّ القديم.

(٢) مع كون «الثقلين» تثنية فالضمير في لكم أتى جمعاً وذلك إشارة إلى مجموعتين.

﴿ٱلثَّقَلَانِ﴾ من مادّة (ثقل) على وزن (كبر) بمعنى الحمل الثقيل وجاءت بمعنى الوزن أيضاً، إلاّ أنّ (ثقل) على وزن (خبر) تقال عادةً لمتاع وحمل المسافرين، وتطلق على جماعة الإنس والجنّ وذلك لثقلهم المعنوي، لأنّ الله تبارك وتعالى قد أعطاهم عقلاً وشعوراً وعلماً ووعياً له وزن وقيمة بالرغم من أنّ الثقل الجسدي لهم ملحوظ أيضاً كما قال تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾(١)، حيث ورد أنّ أحد معانيها هو خروج الناس من القبور في يوم القيامة، إلاّ أنّ التعبير في الآية مورد البحث جاء باللحاظ المعنوي، خاصّة وأنّ الجنّ ليس لهم ثقل مادّي.

التأكيد على هاتين الطائفتين بالخصوص لأنّ التكاليف الإلهيّة مختّصة بهما في الغالب.

وبعد هذا يكرّر الله سبحانه سؤاله مرّة أُخرى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وتعقيباً على الآية السابقة التي كانت تستعرض الحساب الإلهي الدقيق، يخاطب الجنّ والإنس مرّة أُخرى بقوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ للفرار من العقاب الإلهي ﴿فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي بقوّة إلهيّة، في حين أنّكم فاقدون لمثل هذه القوّة والقدرة.

وبهذه الصورة فإنّكم لن تستطيعوا أن تفرّوا من محكمة العدل الإلهي، فحيثما تذهبون فهو ملكه وتحت قبضته ومحلّ حكومته تعالى، ولا مناصّ لهذا المخلوق الصغير من الفرار من ميدان القدرة الإلهيّة؟ كما قال الإمام علي عليه السلام في دعاء كميل بن زياد المربي للروح: (ولا يمكن الفرار من حكومتك).

«مَعْشَرْ» في الأصل من (عشر) مأخوذ من عدد «عشرة»، ولأنّ العدد عشرة عدد كامل، فإنّ مصطلح (معشر) يقال: للمجموعة المتكاملة والتي تتكوّن من أصناف وطوائف مختلفة.

﴿أَقْطَارِ﴾ جمع (قُطر) بمعنى أطراف الشيء.

﴿تَنفُذُوا۟﴾ من مادّة (نفوذ)، وهي في الأصل بمعنى خرق وعبور من شيء، والتعبير ﴿مِنْ أَقْطَارِ﴾ إشارة إلى شقّ السماوات وتجاوزها إلى خارجها.

---

(١) سورة الزلزلة، الآية: ٢.

وبالمناسبة فإنّ تقديم «الجنّ» هنا جاء لاستعدادهم الأنسب للعبور من السماوات، وقد ورد اختلاف بين المفسّرين على أنّ الآية أعلاه هل تتحدّث عن القيامة، أو أنّ حديثها عن عالم الدنيا، أو كليهما؟

ولأنّ الآيات السابقة واللاحقة تتحدّث عن وقائع العالم الآخر، فإنّ المتبادر إلى الذهن أنّ الآية تتحدّث عن الهروب والفرار من يد العدالة الإلهيّة الذي يفكّر به العاصون في ذلك اليوم.

إلاّ أنّ البعض بلحاظ جملة: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ اعتبرها إشارة إلى الرحلات الفضائية للإنسانية، وقد ذكر القرآن شروطها من القدرة العلمية والصناعية.

ويحتمل أيضاً أن يكون المقصود منها هو عالم الدنيا وعالم القيامة، يعني أنّكم لن تتمكّنوا من النفوذ بدون قدرة الله في أقطار السماوات ليس في هذه الدنيا فحسب، بل في عالم الآخرة أيضاً، حيث وضعت في الدنيا وسيلة محدودة لاختباركم، أمّا في الآخرة فلا توجد أيّة وسيلة لكم.

وفسّرها البعض تفسيراً رابعاً حيث قالوا: إنّ المقصود بالنفوذ هو النفوذ الفكري والعلمي في أقطار السماوات، الذي يمكن للبشر إنجازه بواسطة القدرة الاستدلالية.

إلاّ أنّ التّفسير الأوّل مناسب أكثر، خاصّة وأنّ بعض الأخبار التي نقلت من المصادر الإسلامية تؤيّده، ومن جملتها حديث عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول:

«إذا كان يوم القيامة جمع الله العباد في صعيد واحد، وذلك أن يوحي إلى السماء الدنيا أن اهبطي بمن فيك، فيهبط أهل السماء الدنيا بمثلي من في الأرض من الجنّ والإنس والملائكة، ثمّ يهبط أهل السماء الثانية بمثل الجميع مرتين، فلا يزالون كذلك حتى يهبط أهل سبع سماوات فتصير الجنّ والإنس في سبعة سرادقات من الملائكة ثمّ ينادي مناد؛ ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ فينظرون فإذا قد أحاط بهم سبعة أطواق من الملائكة»(١).

كما أنّ الجمع بين التفاسير ممكن أيضاً.

ويخاطب سبحانه هاتين المجموعتين «الجنّ والإنس» بقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

---

(١) تفسير الصافي، ص٥١٧ وتفسير مجمع البيان، ج٩ ص٢٠٥.

والتهديد هنا لطف إلهي أيضاً، فالبرغم من أنّه يحمل تهديداً ظاهرياً، إلاّ أنّه عامل للتنبيه والإصلاح والتربية، حيث إنّ وجود المحاسبة في كلّ نظام هو نعمة كبيرة.

وما ورد في الآية اللاحقة تأكيد لما تقدّم ذكره في الآيات السابقة، والذي يتعلّق بعدم قدرة الجنّ والإنس من الفرار من يد العدالة الإلهية حيث يقول سبحانه: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾.

﴿شُوَاظٌ﴾ كما ذكر الراغب في المفردات، وابن منظور في لسان العرب، وكثير من المفسّرين أنّه بمعنى (الشعلة العديمة الدخان) وفسّرها آخرون بأنّها (ألسنة النار) التي تقتطع من النار نفسها حسب الظاهر، وتكون خضراء اللون. وعلى كلّ حال فإنّ هذا التعبير يشير إلى شدّة حرارة النار.

و﴿وَنُحَاسٌ﴾ بمعنى الدخان أو (الشعل ذات اللون الأحمر مصحوبة بالدخان) والتي تكون بلون النحاس، وفسّرها البعض بأنّها (النحاس المذاب) وهي لا تتناسب في الظاهر مع ما ورد في الآية مورد البحث، لأنّها تتحدّث عن موجود يحيط بالإنسان في يوم القيامة ويمنعه من الفرار من حكومة العدل الإلهي.

وكم هي عجيبة (محكمة القيامة) حين يحاط الإنسان إحاطة تامّة بالملائكة والنار الحارقة والدخان القاتل، ولا مناص إلاّ التسليم لحكم الواحد الأحد في ذلك اليوم الرهيب.

ثمّ يضيف سبحانه قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

والكلام هنا عن النعم والآلاء من أجل ما ذكرنا من اللطف في الآية السابقة.

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
(٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْئَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَٰصِى وَالْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ الَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ
حَمِيمٍ ءَانٍ (٤٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥)﴾

التّفسير

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾

تكملة للآيات السابقة يتحدّث القرآن الكريم عن بعض مشاهد يوم القيامة، والآيات أعلاه تذكر خصوصيات من مشاهد ذلك اليوم الموعود، وعن كيفية الحساب والجزاء والعقاب، يقول سبحانه في بداية الحديث: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾(١).

ويستفاد من مجموع آيات «القيامة» بصورة واضحة أنّ النظام الحالي للعالم سوف يتغيّر ويضطرب وتقع حوادث مرعبة جدّاً في كلّ الوجود، فتتغيّر الكواكب والسيّارات والأرض والسماء، وتحصل تغيّرات يصعب تصورها، ومن جملتها ما ذكر في الآية أعلاه؛ وهي انشقاق وتناثر الكرات السماوية، حيث يصبح لونها أحمر بصورة مذابة كالدهن.

﴿وَرْدَةً﴾ و(ورد) هو الورد المتعارف، ولأنّ لون الورد في الغالب يكون أحمر، فإنّ معنى الاحمرار يتداعى للذهن منها.

ويأتي هذا المصطلح أيضاً بمعنى «الخيل الحمر»، وبما أنّ لونها يتغيّر في فصول السنة حين يكون في الربيع مائلاً إلى الصفرة، وفي الشتاء يحمرّ، ويقتم لونها في البرد الشديد، فتشبيه السماء يوم القيامة بها هو بلحاظ التغيّرات التي تحصل في ألوانها فتارةً يكون لونها كالشعلة الوهاجة أحمر حارقاً، وأحياناً أصفر، وأُخرى أسود قاتم ومعتم.

«دهان» على وزن (كتاب)، بمعنى الدهن المذاب، وتطلق أحياناً على الرسوبات المتخلّفة للمادّة الدهنية، وغالباً ما تكون لها ألوان متعدّدة، ومن هنا ورد هذا التشبيه حيث يصبح لون السماء كالدهن المذاب بلون الورد الأحمر، أو إشارة إلى ذوبان الكرات السماوية أو اختلاف لونها.

وفسّر البعض «الدهان» بمعنى الجلد أو اللون الأحمر، وعلى كلّ حال فإنّ هذه التشبيهات تجسّد لنا صورة من مشهد ذلك اليوم العظيم، حيث إنّ حقيقة الحوادث في

---

(١) توجد احتمالات متعدّدة في أنّ (إذا) في الآية هل هي شرطية، أم فجائية، أم ظرفية، والظاهر أنّ الاحتمال الأوّل هو الأولى، وجزاء الشرط محذوف ويمكن تقديره هكذا: (فإذا انشقّت السماء فكانت وردةً كالدهان، كانت أهوال لا يطيقها البيان).

ذلك اليوم ليس لها شبيه مع أيّة حوادث أُخرى من حوادث عالمنا هذا، فهذه المشاهد لا نستطيع إدراكها إلاّ إذا رأيناها.

ولأنّ الإخبار بوقوع هذه الحوادث المرعبة في يوم القيامة - أو قبلها - تنبيه وإنذار للمؤمنين والمجرمين على السواء، ولطف من ألطاف الله سبحانه، يتكرّر هذا السؤال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وفي الآية اللاحقة ينتقل الحديث من الحوادث الكونية ليوم القيامة إلى حالة الإنسان المذنب في ذلك اليوم، حيث يقول سبحانه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾.

ولماذا هذا السؤال وكلّ شيء واضح في ذلك اليوم، فهو يوم البروز، وكلّ شيء يُقرأ في وجه الإنسان.

قد يتوهّم أنّ المعنى الوارد في هذه الآية يتنافى مع الآيات الأُخرى التي تصرّح وتؤكّد مسألة سؤال الله تعالى لعباده في يوم القيامة، كما ورد في الآية: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾[1]، وكما في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾[2].

ويحلّ هذا الإشكال إذا علمنا أنّ يوم القيامة يوم طويل جدّاً، وعلى الإنسان أن يجتاز محطّات ومواقف متعدّدة فيه، حيث لابدّ من التوقّف في كلّ محطّة مدّة زمنية، وطبقاً لبعض الرّوايات فإنّ عدد هذه المواقف خمسون موقفاً، وفي بعضها لا يسأل الإنسان إطلاقاً، إذ إنّ سيماء وجهه تحكي عمّا في داخله، كما ستبيّنه الآيات اللاحقة.

كما أنّ بعض المواقف الأُخرى لا يسمح له بالكلام، حيث تشهد عليه أعضاء بدنه قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[3].

كما أنّ في بعض المحطّات يُسأل الإنسان وبدقّة متناهية عن كافّة أعماله[4].

وفي بعض المواقف يسلك الإنسان سبيل الجدل والدفاع والمخاصمة[5].

وخلاصة القول: إنّ كلّ محطّة لها شروطها وخصوصياتها، وكلّ واحدة منها أشدّ رعباً من الأُخرى.

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٢٤. (٢) سورة الحجر، الآيتان: ٩٢ - ٩٣.

(٣) سورة يس، الآية: ٦٥.

(٤) كما ورد في الآية موضع البحث والآيتين المشار لهما أعلاه.

(٥) كما ورد في الآية في سورة النحل الآية (١١١).

ومرّة أُخرى يخاطب سبحانه عباده حيث يقول: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

نعم إنّه لا يسأل حيث ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾(١) فهناك وجوه تطفح بالبشر والنور وتعبّر عن الإيمان وصالح الأعمال، وأُخرى مسودّة قاتمة مكفهّرة غبراء تحكي قصّة كفرهم وعصيانهم قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾(٢).

ثمّ يضيف سبحانه: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾.

«النواصي»: جمع ناصية وكما يقول الراغب في المفردات أنّها قصاص الشعر وما يكون بمقدّمة الرأس، من مادّة (نصأ) على وزن (نصر) وتعني الاتّصال والارتباط، «وأخذ بناصيته» بمعنى أخذه من شعره الذي في مقدّمة رأسه، كما تأتي أحياناً كناية عن الغلبة الكاملة على الشيء.

﴿وَٱلْأَقْدَامِ﴾ جمع «قدم» بمعنى الأرجل.

والمعنى الحقيقي للآية المباركة هو أنّ الملائكة تأخذ المجرمين في يوم القيامة من نواصيهم وأرجلهم، ويرفعونهم من الأرض بمنتهى الذلّة ويلقونهم في جهنّم، أو أنّه كناية عن منتهى ضعف المجرمين وعجزهم أمام ملائكة الرحمن، حيث يقذفونهم في نار جهنّم بذلّة تامّة، فما أشدّ هذا المشهد وما أرعبه!!

ومرّة أُخرى يضيف سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لأنّ التذكير بيوم القيامة هو لطف منه تعالى.

ثمّ يقول سبحانه: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

وذكر المفسّرون تفاسير مختلفة حول المخاطبين المقصودين في هذه الآية الكريمة، وهل هم حضّار المحشر؟ أو أنّ المخاطب هو شخص الرّسول ﷺ فحسب، وقد ذكر له هذا المعنى في الدنيا؟ والمرجّح في رأينا هو المعنى الثاني خاصّة، لأنّ الفعل ﴿يُكَذِّبُ﴾ جاء بصيغة المضارع، واستفيد من ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ما يحمل على الغائب، وهذا يوضّح أنّ الله تعالى قال لرسوله ﷺ: هذه أوصاف جهنّم التي ينكرها المجرمون

---

(١) «سيما» في الأصل بمعنى العلامة، وتشمل كلّ علامة في الوجه وسائر مواضع البدن، ولأنّ علامة الرضا والغضب تبدو في الوجه أوّلاً، فإنّه يتداعى ذكر الوجه في ذكر هذه المفردات.

(٢) سورة عبس، الآيات: ٣٩ - ٤١.

باستمرار في هذه الدنيا. وقيل: إنّ المخاطب هو جميع الجنّ والإنس حيث يوجّه لهم إنذار يقول لهم فيه: هذه جهنّم التي ينكرها المجرمون، لها مثل هذه الأوصاف التي تسمعونها، لذلك يجب أن تنتبهوا وتحذروا أن يكون مصيركم هذا المصير.

ويضيف سبحانه في وصف جهنّم وعذابها المؤلم الشديد حيث يقول: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾.

«آن» و«آني» هنا بمعنى الماء المغلي وفي منتهى الحرارة والإحراق، وفي الأصل من مادّة (إنا) على وزن (رِضا) بمعنى الوقت لأنّ الماء الحارق وصل إلى وقت ومرحلة نهائية.

وبهذه الحالة فإنّ المجرمين يحترقون وسط هذا اللهيب الحارق لنار جهنّم، ويظمأون ويستغيثون للحصول على ماء يروي ظمأهم، حيث يعطى لهم ماء مغلي (أو يصبّ عليهم) ممّا يزيد ويضاعف عذابهم المؤلم.

ويستفاد من بعض الآيات القرآنية أنّ (عين حميم) الحارقة تكون بجنب جهنّم، ويلقى فيها من يستحقّ عذابها ثمّ في النار يسجرون، قال تعالى: ﴿يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾(١).

والتعبير بـ ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ في الآية مورد البحث، يتناسب أيضاً مع هذا المعنى.

ومرّة أُخرى بعد هذا التنبيه والتحذير الشديد الموقظ، الذي هو لطف من الله يقول الباريء عزّوجلّ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾﴾

(١) سورة المؤمن، الآيتان: ٧١ - ٧٢.

التّفسير

الجنّتان اللتان أُعدّتا للخائفين

يترك القرآن الكريم وصفه لأهل النار وحالاتهم البائسة لينقلنا إلى صفحة جديدة من صفحات يوم القيامة، ويحدّثنا فيها عن الجنّة وأهلها، وما أعدّ لهم من النعم فيها، والتي يصوّرها سبحانه بشكل مشوّق ومثير ينفذ إلى أعماق القلوب في عملية مقارنة لما عليه العاصون من عذاب شديد يحيط بهم والتي تحدّثت عنها الآيات السابقة، وما ينتظر المؤمنين من جنّات وعيون وقصور وحور في الآيات أعلاه، يقول سبحانه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾.

«الخوف» من مقام الله، جاء بمعنى الخوف من مواقف يوم القيامة والحضور أمام الله للحساب، أو أنّها بمعنى الخوف من المقام العلمي لله ومراقبته المستمرّة لكلّ البشر[1].

والتّفسير الثّاني يتناسب مع ما ذكر في الآية (٣٣) من سورة الرعد: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾.

ونقرأ في حديث للإمام الصادق عليه السلام في تفسيره لهذه الآية أنّه قال: «ومن علم أنّ الله يراه ويسمع ما يقول، ويعلم ما يعلمه من خير أو شرّ فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال، فذلك الذي خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى»[2].

ويوجد هنا تفسير ثالث، هو أنّ الخوف من الله تعالى لا يكون بسبب نار جهنّم، والطمع في نعيم الجنّة، بل هو الخوف من مقام الله وجلاله فقط.

وهنالك تفسير رابع أيضاً، وهو أنّ المقصود من (مقام الله) هو الخوف من مقام عدالته، لأنّ ذاته المقدّسة لا تستلزم الخوف، إنّما هو الخوف من عدالته، الذي مردّه هو خوف الإنسان من أعماله، والإنسان المنزّه لا يخشى الحساب.

ومن المعروف أنّ المجرمين إذا مرّوا بالمحكمة أو السجن ينتابهم شيء من الخوف بسبب جناياتهم على عكس الأبرار حيث يتعاملون بصورة طبيعيّة مع الأماكن المختلفة.

---

(١) في الصورة الأُولى يكون المقام اسم مكان، وفي الثانية يكون مصدراً (ميميّاً).

(٢) أصول الكافي، ج ٢، ص ٧٠، طبقاً لنقل نور الثقلين، ج٥، ص١٩٧ حيث يستفاد من ذيل الحديث أنّ الإمام عليه السلام ذكر هذا في تفسير الآية: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ سورة النازعات / ٤٠ بالرغم من كون محتوى الآيتين واحد.

وللخوف من الله أسباب مختلفة، فأحياناً يكون بسبب قبح الأعمال وانحراف الأفكار، وأخرى بسبب القرب من الذات الإلهيّة حيث الشعور بالخوف والقلق من الغفلة والتقصير في مجال طاعة الله، وأحياناً أُخرى لمجرّد تصوّرهم لعظمة الله اللامتناهية وذاته اللامحدودة فينتابهم الشعور بالخوف والضعة أمام قدسيته العظيمة. . . وهذا النوع من الخوف يحصل من غاية المعرفة لله سبحانه، ويكون خاصاً بالعارفين والمخلصين لحضرته.

ولا تضادّ بين هذه التفاسير فيمكن جمعها في مفهوم الآية.

وأمّا ﴿جَنَّتَانِ﴾ فيمكن أن تكون الأُولى ماديّة جسمية، والثانية معنوية روحية، كما في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾[1].

ففي هذه الآية مضافاً إلى الجنّة الماديّة حيث الأنهار تجري من تحت الأشجار والمطهّرات من الزوجات، هناك جنّة معنوية أيضاً حيث الحديث عن رضوان الله تعالى.

أو أنّ الجنّة الأُولى جزاء أعمالهم، والجنّة الثانية تفضل على العباد وزيادة في الخير لهم، يقول سبحانه: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾[2].

أو أنّ هناك جنّة للطاعة وأُخرى لترك المعصية.

أو أنّ أحدهما للإيمان، والثانية للأعمال الصالحة.

أو لأنّ المخاطبين من الجنّ والإنس، لذا فإنّ كلّ واحدة من هاتين الجنّتين تتعلّق بطائفة منهما.

ومن الطبيعي أن لا دليل على كلّ واحد من هذه التفاسير، ويمكن جمعها في مفهوم هذه الآية، إلاّ أنّ من الطبيعي أنّ الله تعالى هيّأ لعباده الصالحين نعماً عديدة لهم في الجنّة حيث مستقرّهم، ولأهل النار (مياه حارقة وسعير لا يطاق).

ومرّة أُخرى، وبعد ذكر هذه النعم العظيمة يخاطب الجميع بقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثمّ يضيف سبحانه في وصفه لهاتين الجنّتين بقوله: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾.

﴿ذَوَاتَا﴾ تثنية (ذات) بمعنى صاحب ومالك[3].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥. (٢) سورة النور، الآية: ٣٨.

(٣) يعتقد البعض أنّ أصل ذات والتي هي مفرد مؤنث كانت ذوات، والواو حذفت للتخفيف وأصبحت =

﴿أَفْنَانٍ﴾ جمع (فنن) على وزن (قلم) والكلمة في الأصل بمعنى الغصون الطريّة المملوءة من الأوراق، كما تأتي أحياناً بمعنى «النوع». ويمكن أن يستعمل المعنيان في الآية مورد البحث، حيث في الصورة الأُولى إشارة إلى الأغصان الطرية لأشجار الجنّة، على عكس أشجار الدنيا حيث غصونها هرمة ويابسة.

كما يشير في الصورة الثانية إلى تنوّع نعم الجنّة وأنواع الهبات فيها، لذا فلا مانع من استعمال المعنيين.

كما يحتمل أن يراد معنىً آخر وهو أنّ لكلّ شجرة عدّة غصون مختلفة وفي كلّ غصن نوع من الفاكهة.

وبعد ذكر هذه النعم يكرّر سبحانه السؤال مرّة أُخرى فيقول: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ولأنّ البساتين النضرة والأشجار الزاهية ينبغي أن تكون لها عيون، أضاف سبحانه في وصفه لهذه الجنّة بقوله: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾.

ثمّ يطرح مقابل هذه النعمة الإضافية قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وبالرغم من أنّ الآية أعلاه لم توضّح لنا شيئاً عن طبيعة هاتين العينين الجاريتين وعبّرت عنها بصيغة نكرة، فإنّ هذه الموارد عادةً تكون دليلاً على العظمة الإلهيّة، وقد ذكر بعض المفسّرين أنّ المقصود بهاتين العينين هما «سلسبيل» وتسنيم» قال تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾[(٢)].

وقيل أيضاً إنّ هاتين العينين هما، الأُولى: «الشراب الطهور»، والثانية: «العسل المصفّى». وقد جاءتا كليهما في سورة محمّد، الآية ١٥.

وإذا فسّرنا الـ ﴿جَنَّتَانِ﴾ في الآيات السابقة بـ (الجنّتين المعنوية والمادية) فإنّ (العينين) يمكن أن تكونا عين معنوية وهي (عين المعرفة) وعين مادّيّة (عيون الماء الزلال أو الحليب أو العسل أو الشراب الطهور) ولكن لا يوجد دليل خاصّ لأيّ من هذه التفاسير.

= ذات ولكون التثنية ترجع الكلمة إلى أصلها، لذا أصبحت (ذواتان) وقد حذفت النون عند الإضافة، وجاء في مجمع البحرين أنّ أصل (ذو) هو (ذوا) على وزن (عصا) ولذلك فلا عجب أنّ مؤنثها يصبح (ذوات).

(١) سورة الإنسان، الآية: ١٨. (٢) سورة المطففين، الآية: ٢٧.

وفي الآية اللاحقة ينتقل البحث إلى فاكهة هاتين الجنّتين حيث يقول سبحانه: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ قسم يشاهد مثيله في الدنيا، والآخر لا نظير له في هذا العالم أبداً، كما فسّرها البعض أنّهما نوعان من الفاكهة صيفي وشتوي، أو يابس وطري، أو صغير وكبير، إلاّ أنّه لا يوجد دليل واضح على أي من هذه الآراء.

إلاّ أنّ من المسلّم به، أنّ الفاكهة الموجودة في الجنّة متنوّعة ومختلفة تماماً عن فواكه الدنيا ولا يقاس طعم فواكه الجنّة بطعم فواكه الدنيا ومذاقها.

ثمّ يضيف سبحانه قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

لقد طرحت في الآيات السابقة ثلاث صفات لهاتين الجنّتين، وتستعرض الآية الكريمة التالية الصفة الرابعة حيث يقول تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾(١).

وفي الغالب أنّ الإنسان عندما يتكىء يكون في جوّ هادىء وفي أمان تامّ، وهذا التعبير يدلّل على الهدوء الكامل والاستقرار التامّ لدى أهل الجنّة.

﴿فُرُشٍ﴾ على وزن «حجب»، جمع فراش، وهو الفراش الذي يبسط.

و«بطائن» جمع بطانة، وهي القماش الداخلي للفرش.

و﴿إِسْتَبْرَقٍ﴾ بمعنى الحرير السميك.

والشيء الظريف هنا أنّ أثمن قماش يتصوّر في هذه الدنيا يكون بطانة لتلك الفرش، إشارة إلى أنّ القسم الظاهر لا يمكننا وصفه من حيث الجمال والجاذبية، حيث إنّ البطانة غالباً ما تستعمل من القماش الرديء قياساً للوجه الظاهري، وعلى هذا فإنّنا نلاحظ أنّ أردأ نوع من القماش في ذلك العالم يعتبر من أثمن وأرقى أنواع القماش في الدنيا، فكيف الحال بالثمين من متاع الجنّة؟

ومن المسلّم أنّ الهبات الإلهية في عالم الآخرة لا نستطيع وصفها بالألفاظ، ولا حتى تصوّرها، إلاّ أنّ الآيات الكريمة تعكس لنا شبحاً وظلالاً عنها من خلال ألفاظها المعبّرة.

ونقرأ أيضاً في وصف المتع لأهل الجنّة حيث يحدّثنا القرآن عنهم بأنّهم يتكئون على «الآرائك» - التخت الذي له متكأ - و«السرير» هو - التخت الذي ليس له متكأ - والاتّكاء هنا على فرش، وعلينا عندئذ أن نتصوّر كم هي اللذات المتنوّعة في الجنّة،

---

(١) متكئين حال لأهل الجنّة الذين ذكروا في الآيات السابقة بعنوان أنّهم ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾.

حيث تارةً يتكأ على الآرائك وأُخرى على السرر المفروشة بهذه الأفرشة الثمينة، وقد تكون أُمور أُخرى من هذه النعم لا نستطيع إدراكها نحن سكّان هذا العالم.

وأخيراً، وفي خامس نعمة يشير سبحانه إلى كيفية هذه النعم العظيمة حيث يقول: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾.

نعم لا توجد صعوبة في قطف ثمار الجنّة كالصعوبة التي نواجهها في عالمنا هذا.

﴿وَجَنَى﴾ على وزن (بقى) وتعني الفاكهة التي نضج قطفها، ﴿دَانٍ﴾ في الأصل (داني) بمعنى قريب.

ومرّة أُخرى يخاطب الجميع سبحانه بقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾

التّفسير

الجنّة والزوجات الحسان

في الآيات السابقة ذكرت خمسة أقسام من هبات وخصوصيات الجنّتين، وهنا نتطرّق لذكر النعمة السادسة وهي الزوجات الطاهرات، حيث يقول سبحانه: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾[1] قد قصرن نظرهنّ على أزواجهنّ، وليس لهنّ معشوق سواهم، ثمّ يضيف تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾[2].

وبناءً على هذا فإنّهن بواكر ولم يمسسهنّ أحد... طاهرات من كلّ الجوانب.

نقل عن (أبي ذرّ) أنّ (زوجة الجنّة تقول لزوجها... أُقسم بعزّة ربّي أنّي لم أجد شيئاً أفضل منك في الجنّة، فالشكر لله وحده، الذي جعلني زوجة لك وجعلك زوجاً لي)[3].

---

(١) إنّ ضمير الجمع في ﴿فِيهِنَّ﴾ يمكن أن يرجع إلى قصور الجنّة أو الحدائق المختلفة لتلك «الجنّتين» أو «نعمها وهباتها».

(٢) ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ من مادّة (طمث)، في الأصل بمعنى دم الدورة الشهرية، وجاءت بمعنى زوال البكارة، والمراد هنا أنّ النساء الباكرات في الجنّة لم يكن لهنّ أزواج قطّ.

(٣) تفسير مجمع البيان، ج٩، ص٢٠٨.

«طرف» على وزن (حرف) بمعنى جانب العين، وبما أنّ الإنسان عندما يريد النظر يحرّك أجفانه، لذا فقد استعمل هذا اللفظ كناية عن النظر، وبناءً على هذا فإنّ التعبير بقاصرات الطرف إشارة إلى النساء اللواتي يقصرن نظراتهنّ على أزواجهنّ، ويعني أنّهنّ يكننّ الحبّ والودّ لأزواجهنّ فقط، وهذه هي إحدى ميزات الزوجة التي لا تفكّر بغير زوجها ولا تضمر لسواه الودّ.

وفي التعقيب على نعمة الجنّة هذه يكرّر قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثمّ يتطرّق إلى المزيد من وصف الزوجات الموجودات في الجنّة حيث يقول: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ حيث تكون بشرتهنّ باحمرار وصفاء ولمعان الياقوت وبياض وجمال غصون المرجان، وعندما يختلط هذان الوصفان (الأبيض والأحمر الشفّاف) فإنّه يمنحهنّ روعة الجمال التي لا مثيل لها.

﴿ٱلْيَاقُوتُ﴾: حجر معدني ويكون غالباً أحمر اللون.

﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾ هو حيوان بحري يشبه أغصان الشجر، يكون أبيض اللون أحياناً وأُخرى أحمر وألوان أُخرى، والظاهر أنّ المقصود به هنا هو النوع الأبيض[١].

ومرّة أُخرى، وبعد ذكر هذه النعمة يقول سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وفي نهاية هذا البحث يقول عزّ وجلّ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾[٢].

وهل ينتظر أن يجازى من عمل عملاً صالحاً في الدنيا بغير الإحسان الإلهي؟

وبالرغم من أنّ بعض الرّوايات الإسلامية فسّرت ﴿ٱلْإِحْسَٰنِ﴾ في هذه الآية بالتوحيد فقط، أو التوحيد والمعرفة، أو الإسلام، إلاّ أنّ الظاهر أنّ كلّ واحد في هذه التفاسير هو مصداق لهذا المفهوم الواسع الذي يشمل كلّ إحسان في العقيدة والقول والعمل.

جاء في حديث للإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «آية في كتاب الله مسجّلة. قلت: وما هي؟ قال: قول الله عزّ وجلّ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ جرت في الكافر والمؤمن والبرّ والفاجر، من صنع إليه معروف فعليه أن يكافئ به، وليس المكافأة أن تصنع كما صنع حتى تربي، فإن صنعت كما صنع كان له الفضل في الابتداء»[٣].

---

(١) بيّنا شرحاً تفصيلياً حول المرجان في نهاية الآية (٢٢) من هذه السورة.

(٢) ورد السؤال «هل» هنا بصيغة الاستفهام الاستنكاري، وفي الحقيقة أنّ هذه الآية هي نتيجة للآيات السابقة والتي تحدّثت عن ستّ نعم من نعم الجنّة.

(٣) تفسير العياشي طبقاً لنقل نور الثقلين، ج٥، ص١٩٩. تفسير مجمع البيان، ج٩، ص٢٠٨.

وبناء على هذا فالجزاء الإلهي في يوم القيامة يكون أكثر من عمل الإنسان في هذه الدنيا، وذلك تماشياً مع الاستدلال المذكور في الحديث أعلاه.

يقول الراغب في المفردات: الإحسان فوق العدل، وذاك أنّ العدل هو أن يعطي ما عليه ويأخذ ماله، والإحسان أن يعطي أكثر ممّا عليه ويأخذ أقلّ ممّا له فالإحسان زائد على العدل..

ويتكرّر قوله سبحانه مرّة أخرى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وذلك لأنّ جزاء الإحسان بالإحسان نعمة كبيرة من قبل الله تعالى، حيث يؤكّد سبحانه أنّ جزاءه مقابل أعمال عباده مناسب لكرمه ولطفه وليس لأعمالهم، مضافاً إلى أنّ طاعاتهم وعباداتهم إنّما هي بتوفيق الله ولطفه، وبركاتها تعود عليهم.

بحث

جزاء الإحسان

ما قرأناه في الآية الكريمة: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ هو قانون عام في منطق القرآن الكريم، حيث يشمل الله سبحانه والخلق وكافّة العباد، والمسلمون جميعاً يعلمون بعمومية هذا القانون وعليهم مقابلة كلّ خير بزيادة، كما ذكر الإمام الصادق عليه السلام في حديثه أعلاه حيث يفترض أن يكون التعويض أفضل من العمل المنجز (المقدّم) وليس مساوياً له، وإلاّ فإنّ المبتدىء بالإحسان هو صاحب الفضل.

وحول أعمالنا في حضرة الباري عزّ وجلّ فإنّ المسألة تأخذ بعداً آخر، حيث إنّ أحد الطرفين هو الله العظيم الكريم الذي شملت رحمته وألطافه كلّ عالم الوجود، وإنّ عطاءه وكرمه يليق بذاته وليس على مستوى أعمال عباده، وبناءً على هذا فلا عجب أن نقرأ في تأريخ الأُمم بصورة متكرّرة أنّ أشخاصاً قد شملتهم العناية الإلهيّة الكبيرة بالرغم من إنجازهم لأعمال صغيرة، وذلك لخلوص نيّاتهم ومن ذلك القصّة التالية:

نقل بعض المفسّرين أنّ شخصاً مسلماً شاهد امرأة كافرة تنثر الحبّ للطيور في الشتاء فقال لها: لا يقبل هذا العمل من أمثالك، فأجابته: إنّي أعمل هذا سواء قبل أم لم يقبل، ولم يمض وقت طويل حتى رأى الرجل هذه المرأة في حرم الكعبة. فقالت له: يا هذا، إنّ الله تفضّل عليّ بنعمة الإسلام ببركة تلك الحبوب القليلة[1].

(١) تفسير روح البيان، ج٩، ص٣١٠.

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾﴾

التّفسير

جنّتان بأوصاف عجيبة

بعد بيان صفات جنّتي الخائفين وخصوصياتهما المتميّزة، واستمراراً للبحث ينتقل الحديث في الآيات التالية عن جنّتين بمرتبة أدنى من السابقتين يكونان لأشخاص أقلّ خوفاً وإيماناً بالله تعالى من الفئة الأُولى، حيث إنّ هدف العرض هو بيان سلسلة درجات ومراتب للجنان تتناسب مع الإيمان والعمل الصالح للأفراد.

يقول سبحانه في البداية: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾.

ذكر تفسير أنّ لهذه الآية الأوّل: أحدهما ما بيّناه أعلاه.

والتّفسير الآخر هو أنّه توجد جنّتان أُخريان غير تلكما الجنّتين لهؤلاء الأشخاص أنفسهم حيث يتجوّلون ويتنقّلون بين حدائق هذه الجنان، لأنّ طبع الإنسان ميّال للتنوّع والتبدّل.

وبالنظر إلى لحن هذه الآيات والرّوايات التي وردت في تفسيرها فانّ التّفسير الأوّل هو الأنسب.

ونقرأ حديثاً للرسول ﷺ في تفسير هذه الآية أنّه قال: «وجنّتان من فضّة آنيتهما وما فيهما، جنّتان من ذهب آنيتهما وما فيهما» (أنّ التعبير بالذهب والفضّة يمكن أن يكون كناية عن اختلاف مرتبة ودرجة كلّ من الجنّتين)[1].

ونقرأ في حديث للإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية قال: «لا تقولنّ الجنّة الواحدة، إنّ الله تعالى يقول: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾، ولا تقولنّ درجة واحدة، إنّ الله

(١) تفسير مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث.

تعالى يقول: «درجات بعضها فوق بعض» إنّما تفاضل القوم بالأعمال»[١].

وفي نفس الموضوع ورد حديث للرسول محمّد ﷺ: «جنّتان من ذهب للمقرّبين، وجنّتان من ورق لأصحاب اليمين»[٢] أي من فضّة.

ثمّ يضيف سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثمّ ذكر القرآن الخصوصيات الخمس لهاتين الجنّتين التي تشبه - إلى حدّ ما - ما ذكر حول الجنّتين السابقتين، كما أنّهما تختلفان في بعض الخصوصيات الأُخرى حيث يقول سبحانه: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾.

﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾: من مادّة (ادهيمام) ومن أصل (دهمه) على وزن (تهمه) ومعناها في الأصل السواد وظلمة الليل، ثمّ أُطلقت على الخضرة الغامقة المعتمة، ولأنّ مثل هذا اللون يحكي عن غاية النضرة للنباتات والأشجار، ممّا يعكس منتهى السرور والانشراح، لهذا فقد استعمل لهذا المعنى.

ويضيف سبحانه مرّة أُخرى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وفي الآية اللاحقة يصف الجنّة وصفاً إضافياً حيث يقول سبحانه: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾.

«نضّاختان» من مادّة (نضخ) بمعنى فوران الماء.

ومرّة أُخرى يسأل سبحانه عن الإنس والجنّ سؤالاً استنكارياً فيقول: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وتتحدّث الآية التالية حول فاكهة هاتين الجنّتين حيث تقول: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾.

لا شكّ أنّ للفاكهة مفهوماً واسعاً يشمل جميع أنواعها، إلاّ أنّ التمر والرمّان خصّا بالذكر هنا لأهميّتهما الخاصّة، لا كما يذهب بعض المفسّرين إلى أنّ ذكرهما هو لأنّهما لا يدخلان ضمن مفهوم الفاكهة، إذ إنّ هذا التصوّر خاطىء، لأنّ علماء اللغة أنكروا ذلك، بالإضافة إلى أنّ عطف الخاصّ على العام في الموارد التي لها امتيازات أمر

---

(١) تفسير مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث.

(٢) تفسير الدرّ المنثور، ج٦، ص١٤٦ وكما ذكرنا أنّ التعبير بالذهب والفضّة يمكن أن يكون إشارة إلى اختلاف درجة هاتين الجنّتين.

معمول به وطبيعي. قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾(١).

وهنا جاءت عبارة: ﴿وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ وهما من الملائكة العظام بعد ذكر لفظ الملائكة بصورة عامّة.

ويكرّر سبحانه السؤال مرّة أخرى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

بحث

قيمة الفاكهة

الشيء الجدير بالذكر أنّ الآيات أعلاه خصّت الفاكهة بالذكر من بين مختلف أنواع أغذية الجنّة كما خصّت فاكهتي (الرطب والرمّان) بالذكر من بين جميع فواكه الجنّة أيضاً.

والغريب هنا ذكر النخل بدلاً من الرطب، أمّا الرمّان فقد ذكر باسمه، ولابدّ أن يكون لكلّ واحد من هذه الفواكه خصوصية.

أمّا ذكر الفاكهة بالخصوص من بين عموم الأغذية الموجودة في الجنّة فذلك لأهميّة الفاكهة في تغذية الإنسان: حتى قيل: إنّ الإنسان موجود آكل للفاكهة، وللفاكهة دور مهمّ في وجود الإنسان ودوام حياته لا على الصعيد العلمي فقط، بل من الناحية التجريبيّة لعموم الناس أيضاً.

أمّا ذكر شجرة النخيل بدل فاكهتها فيمكن أن يكون للحاظ أنّ هذه الشجرة موضع استفادة من جهات عديدة، في حين أنّ شجرة الرمّان ليست كذلك.

فالنخلة يستفاد من ورقها في صنع وسائل عديدة من لوازم الحياة كالفرش والقبّعات والملابس ووسائل الحمل والنقل والأسرّة، ويستفاد من أليافها في أُمور شتّى كذلك، كما أنّ البعض منها له خواص طبية، وحتى أنّ جذعها يستخدم كأعمدة في البناء أو جسور لعبور الأنهار.

أمّا اختيار هاتين الفاكهتين من بين جميع فواكه الجنّة فهو بسبب تنوّعهما:

فأحدهما: ينمو في المناطق الحارّة (النخيل).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٨.

والأُخرى: تنمو في المناطق الباردة (الرمّان). أحدهما تتميّز بالمادّة السكرية، والأُخرى تتميّز بالمادّة الحامضية، واحدة حارّة من حيث طبيعتها والأُخرى باردة، إحداهما مغذّية والأُخرى مرويّة.

كما أنّ التمر يتمتّع بالكثير من المواد الحياتية وأنواع الفيتامينات، وقد اكتشفت ثلاث عشرة مادّة حياتية فيه، وخمسة أنواع من الفيتامينات بالإضافة إلى بقيّة خواصها الأُخرى، (وقد بحثناها في نهاية الآية رقم (٥) من سورة مريم في هذا التّفسير تحت عنوان: التمر غذاء مقوّ وباعث للنشاط).

وأمّا «الرمّان» الذي عرّف في بعض الرّوايات الإسلامية بأنّه سيّد الفواكه[١]، فقد ذكر العلماء تفاصيل كثيرة حول فوائد هذه الفاكهة ومنها تنقية الدم، واحتوائها على مقادير كبيرة من فيتامين (سي). كما ذكرت في الكتب فوائد كثيرة أُخرى للرمّان (الحلو والحامض) كتقوية المعدة، ودفع الحمى الصفراء، واليرقان، والجرب (مرض جلدي) وتقوية البصر، ورفع التقيّحات المزمنة، وتقوية اللثة، ودفع الإسهال... كما نقرأ في حديث للإمام الصادق عليه السلام في التأكيد على هذه الفاكهة: «أطعموا صبيانكم الرمّان فإنّه أسرع لشبابهم»[٢].

وجاء في حديث آخر: «فإنّه أسرع لألسنتهم»[٣].

وجاء في حديث آخر للإمام الصادق عليه السلام والإمام الباقر عليه السلام أنّهما قالا: «وما على وجه الأرض ثمرة كانت أحبّ إلى رسول الله من الرمّان»[٤].

﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾

(١) نقل هذا التعبير في حديث للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله (بحار الأنوار، ج٦٦، ص١٦٣).
(٢) بحار الأنوار، ج٦٦، ص١٦٤ حيث جاء في حديث آخر أنّه أسرع لألسنتهم.
(٣) المصدر السابق، ص١٦٥، ح ٥٠.
(٤) أصول الكافي، ج٦، ص٣٥٢، ح ٣، باب الرّمان.

التّفسير

زوجات الجنّة... مرّة أُخرى

استمرار لشرح نِعْم الجنّتين التي ذكرت في الآيات السابقة، تتحدّث هذه الآيات عن قسم آخر من هذه النعم التي تزخر بها جنان الله التي أعدّها للصالحين من عباده، حيث يقول سبحانه في البداية: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾[(١)].

تستعمل كلمة (خير) غالباً للصفات الجيّدة والجمال المعنوي، أمّا «حسن» فإنّها تستعمل للجمال الظاهر. لذا فإنّ المقصود بـ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ أُولئك النسوة اللواتي جمعن بين حسن السيرة، وحسن الظاهر.

وجاء في الرّوايات في تفسير هذه الآية أنّ الصفات الحسنة للزوجات في الجنّة كثيرة ومن جملتها طيب اللسان والنظافة والطهارة، وعدم الإيذاء، وعدم النظر للرجال الأجانب... والخلاصة أنّ جميع صفات الخير والجمال التي يجب أن تكون في الزوجة الصالحة موجودة فيهنّ، وهذه الصفات إشارة للصفات العالية التي يجب أن تكون في نساء هذه الدنيا ويجسّدن الأُسوة بذلك لجميع الناس والقرآن الكريم يعبّر عنهنّ باختصار رائع إنهنّ ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾[(٢)].

ثمّ يضيف مستمراً في وصف الزوجات في الجنّة: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾.

﴿حُورٌ﴾: جمع حوراء وأحور، وتطلق على الشخص الذي يكون سواد عينه قاتماً وبياضها ناصعاً، وأحياناً تطلق على النساء اللواتي يكون لون وجوههنّ أبيض.

والتعبير بـ﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾ إشارة إلى أنهنّ مرتبطات ومتعلّقات بأزواجهنّ ومحجوبات عن الآخرين.

«خيام»: جمع خيمة، وكما ورد في الرّوايات الإسلامية، فإنّ الخيم الموجودة في الجنّة لا تشبه خيم هذا العالم من حيث سعتها وجمالها.

---

(١) الضمير في ﴿فِيهِنَّ﴾ والذي هو جمع مؤنث يمكن أن يرجع إلى مجموع الجنّات الأربع، ويمكن أن يكون إشارة إلى الجنّتين اللتين ذكرتا أخيراً، بلحاظ ما فيهما من حدائق عديدة وقصور مختلفة، وهذا أنسب لأنّه في هذا فصل بين الجنّتين.

(٢) قال البعض: إنّ ﴿خَيْرَٰتٌ﴾ جمع (خيّرة) على وزن (سيّدة)، وقيل لها خيرات للتخفيف، واعتبرها آخرون أنّها جمع (خيرة) على وزن (حيرة) وعلى كلّ حال فإنّها تعطي معنى الوصف، وليس بمعنى (أفعل التفضيل) لأنّه لا يجمع.

و«الخيمة» كما ذكر علماء اللغة وبعض المفسّرين لا تطلق على الخيم المصنوعة من القماش المتعارف فحسب، بل تطلق أيضاً على البيوت الخشبية وكذلك كلّ بيت دائري، وقيل إنّها تطلق على كلّ بيت لم يكن من الحجر وأشباهه[(١)].

ومرّة أخرى يكرّر السؤال نفسه بقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ويضيف سبحانه وصفاً آخر لحوريات الجنّة حيث يقول: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾[(٢)].

ويستفاد من الآيات القرآنية أنّ الزوجين المؤمنين في هذه الدنيا سيلتحقان في الجنّة مع بعضهما ويعيشان في أفضل الحالات[(٣)].

ويستفاد أيضاً من الرّوايات أنّ درجة ومقام زوجات المؤمنين الصالحات أعلى وأفضل من حوريات الجنّة[(٤)] وذلك بما قمن به في الدنيا من صالح الأعمال وعبادة الله سبحانه.

ثمّ يضيف تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وفي آخر وصف للنعم الموجودة في هذه الجنّة يذكر سبحانه تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾.

﴿رَفْرَفٍ﴾ في الأصل بمعنى الأوراق الواسعة للأشجار، ثمّ أُطلقت على الأقمشة الملوّنة الزاهية التي تشبه مناظر الحدائق.

﴿وَعَبْقَرِيٍّ﴾ في الأصل بمعنى كلّ موجود قلّ نظيره، ولذا يقال للعلماء الذين يندر وجودهم بين الناس (عباقرة) ويعتقد الكثير أنّ كلمة (عبقر) كان في البداية اسماً لمدينة (بريان) انتخبه العرب لها، لأنّ هذه المدينة كانت في مكان غير معلوم ونادر، لذا فإنّ كلّ موضوع يقلّ نظيره ينسب لها ويقال ﴿وَعَبْقَرِيٍّ﴾. وذكر البعض أنّ «عبقر» كانت مدينة تحاك فيها أفضل المنسوجات الحريرية[(٥)].

والمعنى الأصلي لهذه الكلمة متروك في الوقت الحاضر وتستعمل كلمة ﴿وَعَبْقَرِيٍّ﴾

---

(١) لسان العرب ومجمع البحرين والمنجد.
(٢) حول معنى الطمث أعطينا توضيحاً كافياً في نهاية الآية رقم (٥٦) من نفس السورة.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٢٣؛ والمؤمن، ٨.
(٤) تفسير الدرّ المنثور، ج ٦، ص ١٥١.
(٥) تفسير أبي الفتوح الرازي ذيل لآية مورد البحث.

ككلمة مستقلّة بمعنى نادر الوجود، وتأتي جمعاً في بعض الأحيان، كما في الآية مورد البحث.

و﴿حِسَانٌ﴾ جمع (حسن) على وزن «نسب» بمعنى جيّد ولطيف.

وعلى كلّ حال فإنّ هذه التعابير حاكية جميعاً عن أنّ كلّ موجودات الجنّة رائعة: الفاكهة، الغذاء، القصور، الأفرشة... والخلاصة أنّ كلّ شيء فيها لا نظير له ولا شبيه في نوعه، ولابدّ من القول هنا أنّ هذه التعبيرات لا تستطيع أبداً أن تعكس تلك الإبداعات العظيمة بدقّة، وأنّها تستطيع - فقط - أن ترسم لنا صورة تقريبية من الصورة الحقيقيّة للموجودات في الجنّة.

وللمرّة الأخيرة وهي (الحادية والثلاثون) يسأل سبحانه جميع مخلوقاته من الجنّ والإنس هذا السؤال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

هل النعم المعنوية؟ أم النعم الماديّة؟ أم نعم هذا العالم؟ أم الموجودة في الجنّة؟ إنّ كلّ هذه النعم شملت وجودكم وغمرتكم... إلاّ أنّه - مع الأسف - قد أنساكم غروركم وغفلتكم هذه الألطاف العظيمة، ومصدر عطائها وهو الله سبحانه الذي أنتم بحاجة مستمرّة إلى نعمه في الحاضر والمستقبل... فأيّاً منها تنكرون وتكذّبون؟

ويختم السورة سبحانه بهذه الآية الكريمة: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾.

﴿تَبَٰرَكَ﴾ من أصل (برك) على وزن (درك) بمعنى صدر البعير، وذلك لأنّ الجمال حينما تبرك تضع صدرها على الأرض أوّلاً، ومن هنا استعمل هذا المصطلح بمعنى الثبات والدوام والاستقامة، لذا فإنّ كلمة (مبارك) تقال للموجودات الكثيرة الفائدة، وأكرم من تطلق عليه هذه الكلمة هي الذات الإلهيّة المقدّسة باعتبارها مصدراً لجميع الخيرات والبركات.

واستعملت هذه المفردة هنا لأنّ جميع النعم الإلهيّة - سواء كانت في الأرض والسماء في الدنيا والآخرة والكون والخلق - فهي من فيض الوجود الإلهي المبارك، لذا فإنّ هذا التعبير من أنسب التعابير المذكورة في الآية لهذا المعنى.

والمقصود من ﴿ٱسْمُ﴾ هنا هو صفات الله تعالى خصوصاً الرحمانية التي هي منشأ البركات، وبتعبير آخر فإنّ أفعال الله تعالى مصدرها من صفاته، وإذا خلق عالم الوجود فذلك من إبداعه ونظام خلقه، وإذا وضع كلّ شيء في ميزان فذلك ما أوجبته حكمته، وإذا وضع قانون العدالة حاكماً على كلّ شيء فإنّ (علمه وعدالته) توجبان ذلك، وإذا

عاقب المجرمين بأنواع العذاب الذي مرّ بنا في هذه السورة فإنّ انتقامه يقضي ذلك، وإذا شمل المؤمنين الصالحين بأنواع الهبات والنعم العظيمة الماديّة والمعنوية - في هذا العالم وفي الآخرة - فإنّ رحمته الواسعة أوجبت ذلك، وبناءً على هذا فإنّ اسمه يشير إلى صفاته وصفاته هي نفس ذاته المقدّسة.

والتعبير بـ ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ إشارة إلى كلّ صفات جماله وجلاله. ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ﴾ إشارة إلى الصفات السلبية، و(ذي الإكرام) إشارة إلى الصفات الثبوتية.

والملفت للنظر هنا أنّ هذه السورة بدأت باسم الله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ وانتهت باسم الله ذي الجلال والإكرام وكلاهما ينسجمان مع مجموعة مواضيع السورة.

ملاحظات

- في الآية رقم (٢٧) من هذه السورة بعد ذكر النعم الإلهيّة المختلفة المعنوية والماديّة في الدنيا يقول سبحانه: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾.

وفي نهاية السورة وبعد ذكر أنواع النعم الأُخروية يقول سبحانه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾.

إنّ هاتين الآيتين توضّحان حقيقة مهمّة وهي أنّ جميع الخطوط تنتهي إلى ذاته المقدّسة، وأنّ جميع ما في الوجود مصدره الله سبحانه، فالدنيا منه، والعقبى كذلك، وإنّ جلاله وإكرامه قد شمل كلّ شيء.

- ونقرأ في حديث للرسول الأعظم ﷺ أنّ رجلاً كان يدعو الله في حضرته حيث قال: «ياذا الجلال والإكرام فقال ﷺ: قد استجيب لك فسل»[1].

وجاء في حديث آخر أنّ الرّسول ﷺ شاهد رجلاً يقيم الصلاة حيث دعا بعد الركوع والسجود والتشهّد بهذا الدعاء: اللهمّ إنّي أسألك بأنّ لك الحمد، لا إله إلاّ أنت وحدك لا شريك لك، المنّان بديع السماوات والأرض ياذا الجلال والإكرام ياحي ياقيّوم انّي أسألك... فقال ﷺ: «لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى»[2].

- نقرأ في حديث للإمام الباقر عليه السلام في تفسير الآية: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أنّه قال: «نحن جلال الله وكرامته التي أكرم العباد بطاعتنا»[3].

(١-٢) تفسير الدرّ المنثور، ج ٦، ص ١٥٣. (٣) تفسير البرهان، ج٤، ص٢٧٢.

ومن الواضح أنّ أهل البيت عليهم السلام لا يدعون لغير الله، ولا يأمرون بغير طاعته وهم هداة الطريق إليه، وسفن النجاة في بحر الحياة المتلاطم. وبناءً على هذا، فإنّهم يمثّلون مصاديق جلال الله وإكرامه، لأنّ الله تعالى قد شمل الناس بنعمة الهداية بواسطة أوليائه.

- ذكر البعض أنّ أوّل آيات قرئت في مكّة على قريش علناً هي الآيات الأوائل لهذه السورة يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: اجتمع يوماً أصحاب رسول الله فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قطّ، فمن رجل يسمعهموه؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا، قالوا: إنّا نخشاهم عليك، إنّما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه، قال: دعوني فإنّ الله سيمنعني، قال: فغدا ابن مسعود حتى أتى المنام في الضحى، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام ثمّ قرأ: (بسم الله الرحمن الرحيم) رافعاً بها صوته: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾ قال: ثمّ استقبلها يقرؤها قال: فتأمّلوه فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أُمّ عبد؟ قال: ثمّ قالوا: إنّه ليتلو بعض ما جاء به محمّد فقاموا إليه فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ. ثمّ انصرف إلى أصحابه وقد أثّروا في وجهه. فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك، فقال: ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم الآن، ولئن شئتم لأُغادينّهم بمثلها غداً، قالوا: لا حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون(١).

ولهذا السبب فقد اعتبر ابن مسعود أوّل مسلم جهر بالقرآن في مكّة أمام المشركين(٢).

ربّنا، ياذا الجلال والإكرام، نقسم عليك بجلالك وإكرامك ألاّ تحرمنا من نعم وهبات الجنّة.

ربّاه، إنّ دائرة رحمتك واسعة جدّاً، وإنّنا لم نعمل عملاً يليق برحمتك، فعاملنا بما يليق بمقام رحمانيّتك.

إلهنا، نحن لا نكذّب أيّاً من نعمك، ونعتبر أنفسنا غارقين بإحسانك دائماً، فأدم نعمك علينا.

---

(١) سيرة ابن هشام، ج١، ص٣٣٦.
(٢) أُسد الغابة، ج٣، ص٢٥٧.

سُورَةِ الوَاقِعَةِ

مكّية وعدد آياتـها ست وتسعون

محتوى السورة

نقل في كتاب «تأريخ القرآن» عن ابن النديم أنّ سورة الواقعة هي السورة الرابعة والأربعين التي نزلت على رسول الله ﷺ [1]، وكانت قبلها سورة (طه) وبعدها ﴿وَالشُّعَرَاءُ﴾.

هذه السورة - كما هو واضح من لحنها، وذكره المفسّرون أيضاً - نزلت في مكّة، بالرغم من أنّ بعضهم قال: إنّ الآيتين(٨١ و٨٢) نزلتا في المدينة، إلاّ أنّ هذا الادّعاء ليس له دليل، كما أنّ محتوى الآيتين الكريمتين لا يساعدان على ذلك أيضاً.

وسورة الواقعة - كما هو واضح من اسمها - تتحدّث عن القيامة وخصوصياتها، وهذا المعنى واضح في جميع آيات السورة الستّ والتسعين. ولذا فإنّ هذا الموضوع هو الأساس في البحث.

إلاّ أنّنا نستطيع أن نلخّص موضوعات السورة في ثمانية أقسام:

١ - بداية ظهور القيامة والحوادث المرعبة المقترنة بها.

٢ - تقسيم أنواع الناس في ذلك اليوم إلى ثلاث طوائف: (أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، والمقرّبين).

٣ - بحث مفصّل حول مقام المقرّبين، وأنواع الجزاء لهم في الجنّة.

٤ - بحث مفصّل حول القسم الثاني في الناس وهم أصحاب اليمين، وأنواع الهبات الإلهيّة الممنوحة لهم.

٥ - بحث حول أصحاب الشمال وما ينتظرهم من جزاء مؤلم في نار جهنّم.

٦ - بيان أدلّة مختلفة حول مسألة المعاد من خلال بيان قدرة الله عزّوجلّ، وخلق الإنسان من نطفة حقيرة، وظهور الحياة في النباتات، ونزول المطر، اشتعال النار... والتي تدخل أيضاً ضمن أدلّة التوحيد.

---

(١) تاريخ القرآن لمؤلّفه أبي عبدالله الزنجاني، ص ٥٩.

٧ - وصف حالة الاحتضار والانتقال من هذا العالم إلى حيث العالم الأُخروي والتي تعتبر من مقدّمات يوم القيامة.

٨ - وأخيراً نظرة إجمالية كليّة حول جزاء المؤمنين وعقاب الكافرين.

وأخيراً تنهي السورة آياتها باسم الله العظيم.

فضل تلاوة هذه السورة

حول فضل تلاوة هذه السورة ذكرت روايات كثيرة في المصادر الإسلامية نقرأ منها حديثاً لرسول الله ﷺ حيث قال: «من قرأ سورة الواقعة لم يكتب من الغافلين»[١] وذلك لأنّ آيات هذه السورة تتّصف بالتحريك والإيقاظ بصورة لا تسمح للإنسان أن يبقى في جوّ الغفلة.

وحول هذا المعنى نقرأ حديثاً آخر لرسول الله ﷺ حيث يقول: «شيّبتني هود والواقعة والمرسلات وعمّ يتساءلون»[٢] وذلك لأنّ الأخبار التي وردت في هذه السورة أخبار مثيرة عن القيامة والحشر والحوادث المرعبة وعقاب المشركين، وذكر حالة الأقوام السابقة وما حلّ بهم من البلاء.

ونقرأ أيضاً في حديث للإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «من قرأ في كلّ ليلة جمعة الواقعة أحبّه الله وحبّبه إلى الناس أجمعين، ولم يرَ في الدنيا بؤساً أبداً ولا فقراً ولا فاقة، ولا آفة من آفات الدنيا، وكان في رفقاء أمير المؤمنين»[٣].

وجاء في حديث آخر أنّ عثمان بن عفّان عاد عبد الله بن مسعود في مرضه الذي توفّي فيه فقال له: ماذا تشتكي؟ قال: ذنوبي، قال: فيم ترغب؟ قال: في رحمة ربّي، قال: ألا ألتمس لك طبيباً؟ قال: أمرضني الطبيب؟ قال: ألا آمر لك بعطيّة؟ قال: لم تأمر لي بها إذ كنت أحوج إليها، وتأمر لي الآن وأنا مستغن عنها، قال: فلتكن هي لبناتك، قال: لا حاجة لهنّ بها فإنّي قد أمرتهنّ بقراءة سورة الواقعة، وإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كلّ ليلة لم تصبه فاقة أبداً»[٤].

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٩، ص٢١٢؛ وتفسير البرهان، ج٤، ص٢٧٣.

(٢) خصال الصدوق، ج ١، ص ١٩٩، الباب ٤، ح ١٠.

(٣) ثواب الأعمال، ص ١١٧، طبقاً لنقل نور الثقلين، ج٥، ص٢٠٣.

(٤) تفسير مجمع البيان، ج٩، ص٢١٢.

ولهذا السبب سمّيت سورة الواقعة حسب ما ورد في رواية أُخرى بسورة الغنى[(١)].

ومن الواضح أنّنا لا نستطيع الحصول على جميع البركات التي وردت لهذه السورة بالقراءة السطحية، بل ينبغي بعد تلاوتها التفكّر والتدبّر، ومن ثمّ الحركة والعمل.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

التّفسير

الواقعة العظيمة

إنّ الأحداث المرتبطة بالقيامة تذكر غالباً في القرآن الكريم مقترنة بحوادث أساسيّة عظيمة قاصمة ومدمّرة، وهذا ما يلاحظ في الكثير من السور القرآنية التي تتحدّث عن القيامة. وفي سورة الواقعة حيث يدور البحث حول محور المعاد، نجد هذا واضحاً في الآيات الأُولى منها، حيث يبدأ سبحانه بقوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾[(٢)].

﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ وذلك لأنّ الحوادث التي تسبقها عظيمة وشديدة بحيث تكون آثارها واضحة في كلّ ذرّات الوجود.

﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ تشير إشارة مختصرة إلى مسألة الحشر، ولأنّ وقوعها حتمي فقد عبّر عنها بـ ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ واعتبر البعض أنّها إحدى أسماء القيامة.

كلمة ﴿كَاذِبَةٌ﴾ هنا أخذت بمعناها المصدري، وهي إشارة إلى أنّ وقوع القيامة ظاهر وواضح إلى حدّ لا يوجد أي مجال لتكذيبه أو بحثه والنقاش فيه.

---

(١) تفسير روح المعاني، ج٢٧، ص١١١.

(٢) تعتبر ﴿إِذَا﴾ منصوبة على الظرفية والناصب له ﴿لَيْسَ﴾ الوارد في الآية الثانية مثل أن نقول «يوم الجمعة ليس لي شغل» ويحتمل أن تكون منصوبة بفعل مقدّر تقديره (ذكر) إلاّ أنّ الرأي الأوّل هو الأنسب.

كما أنّ البعض فسّرها بمعناها الظاهري الذي هو اسم الفاعل، حيث قالوا بعدم وجود من يكذّب هذا الأمر[١].

وعلى كلّ حال فإنّ الحشر لا يقترن بتغيير الكائنات فحسب، بل إنّ البشر يتغيّر كذلك كما يقول سبحانه في الآية اللاحقة ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾[٢].

أجل، إنّها تذلّ المستكبرين المتطاولين، وتعزّ المحرومين المؤمنين وترفع المستضعفين الصادقين بعض يسقط إلى قاع جهنّم، وبعض آخر إلى أعلى عليين في الجنّة.

وهذه هي خاصية المبادىء الإلهيّة العظيمة.

ولذلك نقرأ في رواية الإمام علي بن الحسين عليه السلام في تفسير هذه الآية أنّه قال: «خافضة خفضت والله أعداء الله في النار، رافعة رفعت والله أولياء الله إلى الجنّة»[٣].

ثمّ يستعرض القرآن الكريم وصفاً أوسع في هذا الجانب حيث يقول: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾.

يا له من زلزال عظيم وشديد إلى حدّ أنّ الجبال فيه تندكّ وتتلاشى، قال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾.

(رُجّت) من مادّة (رجّ) على وزن (حجّ) بمعنى التحرّك الشديد للشيء وتقال رجرجة للإضطراب.

﴿وَبُسَّتِ﴾ من مادّة (بسّ) على وزن (حجّ). والأصل بمعنى تليّن الطحين وتعجنه بواسطة الماء.

﴿هَبَآءً﴾ بمعنى غبار، و«منبث» بمعنى منتشر. قال البعض: إنّ ﴿هَبَآءً﴾ هو ذرّات الغبار الصغيرة المعلّقة بالفضاء ولا ترى في الحالة الاعتيادية، إلاّ إذا دخل نور الشمس من نافذة إلى مكان مظلم.

والآن يجب التفكير بهذه الزلزلة والانفجار، كم هو عظيم بحيث تتلاشى الجبال مع ما لها من القوّة والصلابة بحيث تتحوّل إلى غبار منتشر، والأعظم هو شدّة الصوت الذي ينتج من هذا الانفجار الرهيب.

---

(١) إنّ سبب كون الضمير مؤنثاً لتقديره (نفس كاذبة) أو (قضيّة كاذبة) واعتبر البعض أنّ (اللام) في ﴿لِوَقْعَتِهَا﴾ للتوقيت، إلاّ أنّ الظاهر أنّها للتعدية.

(٢) «خافضة رافعة» خبر لمبتدأ محذوف، وفي الأصل (هي خافضة رافعة).

(٣) الخصال، ج ١، ص ٦٤؛ وتفسير نور الثقلين، ج٥، ص٢٠٤.

وعلى كلّ حال فقد نلاحظ في الآيات القرآنية تعبيرات مختلفة حول وضع الجبال قبل يوم القيامة، وتكشف لنا المراحل المتعدّدة للانفجار العظيم الذي يطرأ على الجبال، حيث يقول عزّوجلّ في هذا الصدد:

﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ الطور / ١٠.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ المرسلات / ١٠.

﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ الحاقّة / ١٤.

﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ المزمل / ١٤ أي كالرمل المتراكم.

﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ الواقعة / ٦ الآية محلّ البحث.

وأخيراً ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ القارعة / ٢ أي كالصوف المنفوش حيث لا يرى منها إلاّ لونها.

ومن الواضح أن لا أحد يعلم إلاّ الله بحقيقة حصول هذه التغيّرات التي لا تحملها الألفاظ، ولا تجسّدها العبارات، اللهمّ إلاّ إشارات معبّرة تحكي عظمة وهول هذا الانفجار العظيم.

وبعد بيان وقوع هذه الظاهرة العظيمة والحشر الكبير يستعرض القرآن المجيد ذكر حالة الناس في ذلك اليوم، حيث قسّم الناس إلى ثلاثة أقسام بقوله سبحانه: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾.

لفظ (الزوج) لا يقال دائماً لجنس المؤنث والمذكّر، بل تطلق هذه اللفظة على الأُمور المتقارنة مع بعض، ولكون أصناف الناس في القيامة والحشر والنشر تكون متقارنة مع بعضها، لذا يطلق عليها لفظ أزواج.

وحول القسم الأوّل يحدّثنا القرآن الكريم بقوله: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾[1].

المقصود من أصحاب الميمنة هم الأشخاص الذين يعطون صحيفة أعمالهم بأيديهم اليمنى، وهذا الأمر رمز لأهل النجاة، ودليل الأمان للمؤمنين والصالحين في يوم القيامة، كما ذكر هذا مراراً في الآيات القرآنية.

---

(١) في تركيب هذه الجملة توجد احتمالات عديدة وأنسبها أن نقول: «أصحاب الميمنة» مبتدأ، و«ما» استفهامية مبتدأ ثان، وأصحاب الميمنة الثانية خبرها، والخلاصة أنّ جملة ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ خبر للمبتدأ الأوّل، والفاء في بداية الجملة تفريعيّة وتفسيرية.

أو أنّ كلمة (ميمنة) من مادّة (يمن) التي أخذت من معنى السعادة، وعلى هذا التّفسير فإنّ القسم الأوّل هم طائفة السعداء وأهل الحبور والسرور.

وبالنظر إلى أنّ الآية اللاحقة تعرّف المجموعة الثانية بـ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ والتي هي مأخوذة من مادّة (شؤم) فإنّ التّفسير الأخير هو الأنسب(١).

عبارة ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ هو بيان حقيقة السعادة التي ليس لها حدّ ولا يمكن تصوّرها لهؤلاء المؤمنين، وهذه قمّة الروعة في الوصف لمثل هذه الحالات، ويمكن تشبيه ذلك بقولنا: فلان إنسان يا له من إنسان!

ثمّ يستعرض الله تعالى المجموعة الثانية بقوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ حيث الشؤم والتعاسة، واستلام صحائف أعمالهم بأيديهم اليسرى التي هي رمز سوء عاقبتهم وعظيم جرمهم وجنايتهم، نتيجة عمى البصيرة والسقوط في وحل الضلال.

والتعبير بـ ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ هو الآخر يعكس نهاية سوء حظّهم وشقاوتهم.

وأخيراً يصف المجموعة الثالثة أيضاً بقوله سبحانه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ(٢) ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ ليسوا الذين سبقوا غيرهم بالإيمان فحسب، بل في أعمال الخير والأخلاق والإخلاص، فهم أُسوة وقدوة وقادة للناس، ولهذا السبب فهم من المقرّبين إلى الحضرة الإلهيّة.

وبناءً على هذا، فما نرى من تفسير أسبقية السابقين بالسبق في طاعة الله، أو أداء الصلوات الخمس، أو الجهاد والهجرة والتوبة فإنّ كلّ واحد من هذه التفاسير تمثّل جانباً من في تركيب هذه الآية والآيات اللاحقة احتمالات عديدة: الأوّل: أنّ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ الأولى مبتدأ، والثانية وصف أو تأكيد له، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ مبتدأ وخبر

---

(١) جاء في الآيات اللاحقة استعمال أصحاب الشمال بدلا من أصحاب المشئمة.

(٢) في تركيب هذه الآية والآيات اللاحقة احتمالات عديدة: الأوّل: أنّ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ الأولى مبتدأ، والثانية وصف أو تأكيد له، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ مبتدأ وخبر والتي هي في المجموع خبر لكلمة ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ الأُولى. ويحتمل البعض الآخر أنّ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ مبتدأ وخبر، وشبّه بشعر أبي النجم المعروف حين يقول: (أنا أبو النجم وشعري شعري) والذي هو في الواقع نوع من الوصف العالي.
وهناك احتمال آخر وهو أنّ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ الأُولى هي بمعنى السابقين في الإيمان، والسابقون الثانية بمعنى السابقين إلى الجنّة والتي ستكون كذلك مبتدأ وخبر.

والتي هي في المجموع خبر لكلمة ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ الأولى. ويحتمل البعض الآخر أنّ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ مبتدأ وخبر، وشبّه بشعر أبي النجم المعروف حين يقول: (أنا أبو النجم وشعري شعري) والذي هو في الواقع نوع من الوصف العالي.

هذا المفهوم الواسع، وإلاّ فإنّ هذه الكلمة ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ تشمل جميع هذه الأعمال، والطاعات وغيرها.

وإذا فسّرت ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ كما في بعض الرّوايات الإسلامية بأنّها تعني الأشخاص الأربعة وهم «هابيل»، و«مؤمن آل فرعون»، و«حبيب النجّار» الذين تميّز كلّ منهم بأسبقيته في قومه، وكذلك «أمير المؤمنين» عليه السلام الذي هو أوّل من دخل في الإسلام من الرجال، فإنّ هذا التّفسير في الحقيقة هو بيان للمصاديق الواضحة، وليس تحديداً لمفهوم الآية[١].

وجاء في حديث آخر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أتدرون من السابقون إلى ظلّ الله في يوم القيامة؟ فقال أصحابه: الله ورسوله أعلم، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «الذين إذا أعطوا الحقّ قبلوه، وإذا سألوه بذلوه، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم»[٢].

وجاء في بعض الرّوايات أيضاً أنّ المقصود بـ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ هم الأنبياء المرسلون وغير المرسلين[٣].

ونقرأ في حديث لابن عبّاس أنّه قال: «سألت رسول الله حول هذه الآية فقال: «هكذا أخبرني جبرائيل، ذلك علي وشيعته هم السابقون إلى الجنّة، المقرّبون من الله لكرامته لهم»[٤].

وكما تقدّم إنّه بيان للمصاديق الواضحة من المفهوم الذي ذكر أعلاه، الذي يشمل جميع (السابقين) في كلّ الأُمم والشعوب.

ثمّ يوضّح - في جملة قصيرة - المقام العالي للمقرّبين حيث يقول سبحانه: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[٥].

---

(١) نقل هذا الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام في مجمع البيان، ج٩، ص٢١٥.

(٢) تفسير المراغي، ج٢٧، ص١٣٤. (٣) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٢٠٦.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٠٩.

(٥) الجار والمجرور الموجود في الآية ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ ممكن أن يكون متعلّق بما قبله يعني (المقرّبين)، أو مرتبطة بحال محذوف جاء للمقرّبين وتقديره (كائنين في جنّات النعيم)، أو يكون خبراً بعد خبر.

التعبير بـ ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ يشمل أنواع النعم المادية والمعنوية، ويمكن اعتبار هذا التعبير إشارة إلى أنّ بساتين الجنّة هي وحدها مركز النعمة والراحة في مقابل بساتين الدنيا التي تحتاج إلى الجهد والتعب، كما أنّ حالة المقربين في الدنيا تختلف عن حالة المقرّبين في الآخرة، حيث إنّ مقامهم العالي في الدنيا كان توأماً مع المسؤوليات والطاعات في حين أنّ مقامهم في الآخرة سبب للنعمة فقط.

ومن البديهي أنّ المقصود من «القرب» ليس «القرب المكاني» لأنّ الله ليس له مكان، وهو أقرب إلينا من أنفسنا، والمقصود هنا هو «القرب المقامي».

ويشير في الآية اللاحقة إلى الحالة العددية في الأمم السابقة وفي هذه الأمّة أيضاً حيث يقول سبحانه:

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي أنّهم جماعة كثيرة في الأُمم السالفة والأقوام الأُولى.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾.

﴿ثُلَّةٌ﴾ كما يقول الراغب في المفردات تعني في الأصل قطعة مجتمعة من الصوف، ثمّ تحوّلت إلى معنى مجموعة من الأشخاص.

وأخذها البعض أيضاً من (ثلّ عرشه) بمعنى سقط وانهار، يقال (سقط عرشه وانقلعت حكومته) واعتبرها البعض (قطعة)، وذلك بقرينة المقابلة بـ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ يكون المعنى القطعة العظيمة.

وطبقاً لهاتين الآيتين فإنّ قسماً كبيراً من المقرّبين هم من الأُمم السابقة، وقسم قليل منهم فقط هم من أُمّة محمّد ﷺ.

ويثار سؤال هنا وهو: كيف يتناسب العدد القليل من مقرّبي أُمّة محمّد مع الأهميّة البالغة لهذه الأُمّة التي وصفها القرآن الكريم بأنّها من أفضل الأُمم؟ قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1].

وللجواب على هذا السؤال يجدر الالتفات إلى نقطتين:

الأُولى: إنّ المقصود من المقرّبين هم السابقون في الإيمان، ومن المسلّم أنّ السابقين لقبول الإسلام في الصدر الأوّل منه كانوا قلّة، أوّلهم من الرجال الإمام علي عليه السلام، ومن النساء خديجة رضي الله عنها، في الوقت الذي نعلم أنّ كثرة الأنبياء السابقين

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

وتعدّد أُممهم، ووجود السابقين في كلّ أُمّة يؤدّي إلى زيادتهم من الناحية العددية.

والنقطة الثانية: أنّ الكثرة العددية ليست دليلاً على الكثرة النوعية؛ حيث يمكن أن يكون عدد السابقين في هذه الأُمّة قليلاً، إلاّ أنّ مقامهم أفضل كثيراً، كما هو المعروف بين الأنبياء أنفسهم، إذ يختلفون باختلاف درجاتهم: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾(١).

وممّا يلزم ذكره أنّ قسماً من المؤمنين لم يندرجوا في زمرة السابقين في الإيمان، مع توفّر الصفات والخصوصيات فيهم والتي تجعلهم بنفس درجة السابقين من حيث الأجر والجزاء، لذلك فقد نقل في بعض الرّوايات عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «نحن السابقون السابقون ونحن الآخرون»(٢).

وجاء في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه خاطب مجموعة من أصحابه فقال لهم: «أنتم السابقون الأوّلون والسابقون الآخرون، والسابقون في الدنيا إلى ولايتنا، وفي الآخرة إلى الجنّة»(٣).

ومن الجدير بالملاحظة أنّ بعض المفسّرين فسّر «الأوّلين والآخرين» بـ(الأوّلين في الأُمّة الإسلامية والآخرين فيها) وانسجاماً مع هذا الرأي فإنّ جميع المقرّبين هم من الأُمّة الإسلامية.

إلاّ أنّ هذا التّفسير لا يتناسب مع ظاهر الآيات والرّوايات التي وردت في ذيل هذه الآيات، حيث إنّها عرّفت أشخاصاً من الأُمم السابقة بالخصوص بعنوان أنّهم من السابقين الأوّلين.

﴿عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.
(٢) تفسير الصافي نهاية الآية مورد البحث.
(٣) المصدر السابق.

التفسير

الجنّة بانتظار المقرّبين

هذه الآيات تتحدّث عن أنواع نعم الجنّة التي أعدّها الله سبحانه للقسم الثالث من عباده المقرّبين، والتي كلّ واحدة منها أعظم من أُختها وأكرم..

وقد لخّصت هذه النعم بسبعة أقسام:

يقول تعالى في البداية: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦﴾.

﴿سُرُرٍ﴾ جمع سرير من مادّة (سرور) بمعنى التخت الذي يجلس عليه المنعّمين في مجالس الأُنس والسرور[١].

(موضون) من مادّة (وضن) على وزن (وزن) وهي في الأصل بمعنى نسج الدرع، ثمّ أُطلقت على كلّ منسوج محكم الخيوط والنسيج، والمقصود هنا هي الأسرّة الموضوعة جنباً إلى جنب بصورة متراصّة، أو أنّ لهذه الأسرة حياكة مخصوصة من اللؤلؤ والياقوت وما إلى ذلك، كما قال بعض المفسّرين.

وعلى كلّ حال، فإنّ بناء هذه الأسرّة وكيفية وضعها، ومجلس الأُنس الذي يتشكّل عليها، وأجواء السرور والفرح التي تغمرها، لا نستطيع وصفه بأي بيان.

ونلاحظ استمرار الأوصاف الرائعة في القرآن الكريم لسرر الجنّة، ومجالس أهلها، ومنتديات أحبّتها ممّا يدلّ على أنّ من أهم نعم وملذّات هؤلاء هي جلسات الأُنس هذه..

أمّا أحاديثهم وما يدور في حفلاتهم فليس هنالك أحد يعلم حقيقتها، فهل هي عن أسرار الخلق وعجائب الكون؟ أو عن أُصول المعرفة وأسماء الله وصفاته الحسنى؟ أو عن الحوادث التي حدثت في هذا العالم؟ أو عن الراحة التي هم عليها بعد التعب والعناء؟ أو عن أُمور أُخرى لا نستطيع إدراكها...؟ هذا هو سرّ لا يعلمه إلاّ الله.

ثمّ يتحدث سبحانه عن نعمة أُخرى لهم حيث يقول: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾.

التعبير بـ ﴿يَطُوفُ﴾ من مادّة (طواف) إشارة إلى استمرار خدمة هؤلاء (الطوافين) لضيوفهم.

---

(١) مفردات الراغب مادّة (سر).

والتعبير بـ ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ إشارة إلى خلود شبابهم ونشاطهم وجمالهم وطراوتهم، والأصل أنّ جميع أهل الجنّة مخلّدون وباقون.

أمّا من هم هؤلاء الولدان؟

قال البعض: إنّهم أبناء البشر من هذه الدنيا الذين توفّوا قبل البلوغ، وصحيفة أعمالهم بيضاء لم تدنّس بعد، فقد بلغوا هذه المرتبة بلطف الله سبحانه، وخدمتهم للمقرّبين تقترن بارتياح عظيم ورغبة عميقة ولذّة من أفضل اللذّات، لأنّهم في خدمة المقرّبين من الحضرة الإلهيّة.

وقد ورد في هذا المعنى حديث للإمام علي عليه السلام.

إلاّ أنّنا نقرأ في تفسير آخر أنّهم أطفال المشركين ولأنّهم لم يرتكبوا ذنباً فقد حصلوا على هذه المرتبة؛ وأطفال المؤمنين يلتحقون بآبائهم وأُمّهاتهم.

ونقرأ في تفسير ثالث أنّهم خدّام الجنّة، حيث إنّ الله سبحانه قد أعدّهم لهذه المهمّة بشكل خاصّ.

ويضيف القرآن أنّ هؤلاء الولدان يقدّمون لأصحاب الجنّة أقداح الخمر وكؤوس الشراب المأخوذ من أنهار الجنّة ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾(١) وشرابهم هذا ليس من النوع الذي يأخذ لباب العقل والفكر، حيث يقول تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾(٢).

إنّ الحالة التي تنتابهم من النشوة الروحية حين تناولهم لهذا الشراب لا يمكن أن توصف، إذ تغمر كلّ وجودهم بلذّة ليس لها مثيل.

ثمّ يشير سبحانه إلى رابع وخامس قسم من النعم المادية التي وهبها الله للمقرّبين في الجنّة، حيث يقول سبحانه: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ (٣) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾.

---

(١) أكواب جمع كوب بمعنى القدح أو الإناء الذي لا عروة له، وأباريق جمع إبريق وهي في الأصل أُخذت من الفارسية (أبريز) بمعنى الأواني ذات اليد من جهة، ومن الأُخرى ذات أنبوب لصبّ السائل، وكلمة كأس تقال للإناء المملوء بالسائل لدرجة يفيض من جوانبه، ومعين من مادّة (معن) على وزن (صحن) بمعنى الجاري.

(٢) ﴿يُصَدَّعُونَ﴾ من مادّة (صداع) على وزن (حباب)، بمعنى وجع الرأس، وهذا المصطلح في الأصل من (صدع) بمعنى (الانفلاق) لأنّ الإنسان عندما يصاب بوجع رأس شديد فكأنّ رأسه يريد أن ينفلق من شدّة الألم، لذا فإنّ هذه الكلمة قد استعملت في هذا المعنى. (وينزفون) من أصل (نزف) على وزن (حذف) بمعنى سحب جميع مياه البئر بصورة تدريجيّة، وتستعمل أيضاً حول (السُّكْرُ) وفقدان العقل.

(٣) (فاكهة ولحم) كلاهما معطوف على أكواب وهذه الأشياء تهدى من قبل (الولدان المخلّدون) إلى المقرّبين.

إنّ تقديم الفاكهة على اللحم بلحاظ كون الفاكهة أفضل من الناحية الغذائية بالإضافة إلى نكهتها الخاصّة عند أكلها قبل الطعام.

والذي يستفاد من بعض الرّوايات أنّ غصون أشجار الجنّة تكون في متناول أيدي أهل الجنّة، بحيث يستطيعون بكلّ سهولة أن يتناولوا أي نوع من الفاكهة مباشرة، وهكذا الحال بالنسبة لبقيّة الأغذية الموجودة في الجنّة، إلاّ أنّ ممّا لا شكّ فيه أنّ تقديم الغذاء من قبل (الولدان المخلّدين) له صفاء خاصّ ولطف متميّز حيث إنّ تقديم الطعام يعبّر عن مزيد الاحترام والإكرام لأهل الجنّة، ويضفي رونقاً وبهاءً أكثر على مجالس أُنسهم، ومن المتعارف عليه اجتماعياً بيننا أنّ تقديم الفاكهة وتقريبها من الضيوف من قبل المضيف نفسه يعبّر عن التقدير والمحبّة والاحترام.

وخصّت لحوم الطيور بالذكر هنا لفضلها على بقيّة أنواع اللحوم، لذا فقد تكرّر ذكرها.

إنّ استعمال تعبير ﴿يَتَخَيَّرُونَ﴾ بالنسبة لـ (الفاكهة) ويشتهون بالنسبة لـ (اللحوم) لا يدلّل على وجود اختلاف بين التعبيرين كما ذهب إليه بعض المفسّرين، بل هما بمعنى واحد بعبارتين مختلفتين، والمقصود بهما أنّ أي غذاء يشتهيه أهل الجنّة يوضع باختيارهم من قبل (الولدان المخلّدين).

ثمّ يشير سبحانه إلى سادس نعمة وهي الزوجات الطاهرات الجميلات حيث يقول سبحانه: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ (١) كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣﴾.

﴿وَحُورٌ﴾ كما قلنا سابقاً جمع حوراء وأحور، ويقال للشخص الذي يكون سواد عينه شديداً وبياضها شفافاً، و﴿عِينٌ﴾ جمع (عيناء) وأعين، بمعنى العين الواسعة، لأنّ أكثر جمال الإنسان في عيونه، فقد ذكر هذا الوصف خصوصاً.

وقال البعض: إنّ ﴿وَحُورٌ﴾ أُخذت من مادّة (حيرة) يعني أنّهنّ جميلات إلى حدّ تصاب العيون بالحيرة عند رؤيتهنّ(٢).

«مكنون» بمعنى مستور، والمقصود هنا الاستتار في الصدف، لأنّ اللؤلؤ عندما يكون

---

(١) بالرغم من تصوّر البعض أنّ ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ عطف على (الولدان المخلّدون) وعلى هذا الرأي فإنّ الـ ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ يطفن أيضاً حول أصحاب الجنّة، ونظراً لعدم تناسب هذا المعنى خصوصاً في المجالس الجماعية لأهل الجنّة، لذا فالظاهر أنّه مبتدأ لخبر محذوف، والتقدير هكذا (ولهم حور عين).

(٢) أبو الفتوح الرازي، ج١١ ذيل الآية مورد البحث.

مختفياً في الصدف وبعيداً عن لمس الأيدي يكون شفّافاً وناصعاً أكثر من أي وقت، وبالإضافة إلى ذلك قد يكون المقصود أنهنّ مستورات عن أعين الآخرين بصورة تامّة، لا يد تصل إليهنّ ولا عين تقع عليهنّ.

وبعد الحديث عن هذه المنح، والعطايا المادية الست، يضيف سبحانه: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ كي لا يتصوّر أحد أنّ هذه النعم تعطى جزافاً، بل إنّ الإيمان والعمل الصالح هو السبيل لنيلها والحصول عليها، حيث يلزم للإنسان العمل المستمرّ الخالص حتى تكون هذه الألطاف الإلهيّة من نصيبه.

«ويلاحظ بأنّ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ فعل مضارع يعطي معنى الاستمرار».

ويتحدّث القرآن الكريم عن سابع نعمة من نعم أهل الجنّة، وهي التي تتسّم بالطابع الروحي المعنوي حيث يقول تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا﴾.

فالجوّ هناك جوّ نزيه خالص بعيد عن الدنس، فلا كذب، ولا تهم، ولا افتراءات، ولا استهزاء ولا غيبة ولا ألفاظ نابية وعبارات لاذعة... وليس هنالك لغو ولا كلام فارغ... بل الموجود هناك هو اللطف والصفاء والجمال والمتعة والأدب والطهارة، وكم هو طاهر ذلك المحيط البعيد عن الأحاديث المدنّسة التي هي السبب في أكثر انزعاجنا وعدم ارتياحنا في هذه الدنيا، حيث اللغو والثرثرة والكلام اللامسؤول والتعبيرات الجارحة!

ثمّ يضيف سبحانه: ﴿إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾(١).

ويسأل هنا: هل أنّ هذا السلام من قبل الله تعالى؟ أو أنّه من قبل الملائكة؟ أو هو سلام متبادل بين أهل الجنّة، أو كلّ هذه الأمور؟

الظاهر أنّ الرأي الأخير هو الأنسب، كما أشارت الآيات القرآنية الأُخرى إلى ذلك(٢).

نعم إنّهم لا يسمعون شيئاً إلاّ السلام، سلام وتحيّة من الله، ومن الملائكة المقرّبين،

---

(١) ﴿سَلَٰمٗا﴾ مفعول به لـ ﴿قِيلٗا﴾ والذي هو مصدر، والمقصود أنّ كلامهم هنالك هو (السلام) ويحتمل أن تكون ﴿سَلَٰمٗا﴾ صفة لـ ﴿قِيلٗا﴾ أو مفعول به (أو مفعول مطلق) لفعل محذوف تقديره؛ (يسلّمون سلاماً) إلاّ أنّ المعنى الأوّل هو الأرجح، وسلاماً (الثانية) للتأكيد.

(٢) سورة يس، الآية: ٥٨ - والرعد ٢٤ - ويونس ١٠.

وسلامهم وتحيّتهم لبعضهم البعض في تلك المجالس العامرة المملوءة بالصفاء والتي تفيض بالودّ والأُخوّة والصدق.

إنّ محيطهم وأجواءهم المغمورة بالسلام والسلامة تسيطر على وجودهم، وإنّ أحاديثهم وحواراتهم المختلفة تنتهي إلى السلام والأُخوّة والصفاء، وأساساً فإنّ الجنّة هي دار السلام وبيت السلامة والأمن والأمان، كما نقرأ في قوله تعالى في الآية ١٢٧ من سورة الإنعام: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾(١).

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾

التّفسير

أصحاب اليمين وهباتهم

بعد بيان الهبات والنعم الماديّة والمعنوية (للمقرّبين) يأتي الدور في الحديث عن ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ تلك الجماعة السعيدة التي تستلم صفحة أعمالها في (اليد اليمنى) إشارة لنيل الفوز والنجاح في الامتحان الربّاني.

ويشير سبحانه إلى نعم ستّ، ممّا أنعم به عليهم تمثّل مرحلة أدنى في مقابل سبع نِعم منحها سبحانه إلى المقرّبين من عباده.

تبدأ الآيات في الحديث عنهم أوّلاً من حيث مقامهم العالي، حيث يقول عزّوجلّ: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾(٢).

إنّ هذا الوصف هو أروع وصف لهؤلاء، لأنّ هذا التعبير يستعمل في موارد لا تستطيع الألفاظ التعبير عنه، وهو تعبير عن المقام العالي لأصحاب اليمين.

---

(١) يجب الانتباه إلى أنّ الاستثناء في الآية ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ هو استثناء منقطع ويفيد للتأكيد.

(٢) إنّ الحديث عن تركيب هذه الجملة جاء في نهاية الآية (٨) من نفس هذه السورة.

وتشير الآية اللاحقة إلى أوّل نعمة منحت لهذه الجماعة حيث تقول: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾[(١)]، وفي الحقيقة أنّ هذا أنسب وأليق وصف توصف به أشجار الجنّة في دائرة ألفاظنا الدنيوية، لأنّ (السدر) كما يقول أئمّة اللغة: شجر قوي معمّر يصل طوله إلى أربعين متراً أحياناً وعمره يقرب من ألفي سنة، ولها ظلّ ظليل ولطيف، والسلبية الموجودة في هذا الشجر أنّه ذو شوك، إلاّ أنّ وصفه بـ(مخضود) من مادّة (خضد) - على وزن (مجد) - بمعنى (إزالة الشوك) تنهي آثار هذه السلبية في شجر سدر الجنّة.

وجاء في حديث: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إنّ الله ينفعنا بالأعراب ومسائلهم، أقبل أعرابي يوماً، فقال: يارسول الله لقد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية وما كنت أرى أنّ في الجنّة شجرة تؤذي صاحبها؟

فقال رسول الله ﷺ: «وما هي»؟ قال: السدر، فإنّ لها شوكاً.

قال رسول الله ﷺ: «أليس يقول الله: في سدر مخضود، يخضده الله من شوكه فيجعل مكان كلّ شوكة ثمرة، إنّها تنبت ثمراً يفتق الثمر منها عن اثنين وسبعين لوناً من الطعام ما فيها لون يشبه الآخر»[(٢)].

ثمّ يأتي الحديث عن ثاني هبة لهم حيث يقول سبحانه: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾.

«الطلح»: شجرة خضراء لطيفة اللون والرائحة، وذكر البعض أنّها شجرة الموز التي تتميّز بأوراق عريضة جدّاً وخضراء وجميلة، وفاكهتها حلوة ولذيذة.

و﴿مَّنضُودٍ﴾: من مادّة (نضد) بمعنى متراكم.

وممكن أن يشير هذا التعبير إلى تراكم الأوراق أو تراكم الفاكهة أو كليهما، حتى أنّ البعض قال: إنّ هذه الأشجار مليئة بالفاكهة إلى حدّ أنّها تغطّي سيقان وأوراق الأشجار.

وقال بعض المفسّرين: بالنظر إلى أنّ أوراق شجر السدر صغيرة جدّاً، وأوراق شجر الموز كبيرة جدّاً، فإنّ ذكر هاتين الشجرتين إشارة جميلة إلى جميع أشجار الجنّة التي تكون صفاتها بين صفات هاتين الشجرتين[(٣)].

ثمّ يستعرض سبحانه ذكر النعمة الثالثة من نعم أهل اليمين بقوله: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾.

---

(١) الجار والمجرور متعلّق بعامل مقدّر والخلاصة أنّها خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هم في سدر مخضود).

(٢) تفسير روح المعاني، ج ٢٧، ص ١٢٠، وتفسير الدرّ المنثور، ج ٦، ص ١٥٦.

(٣) الفخر الرازي في التّفسير الكبير نهاية الآية مورد البحث، ج٢٩، ص١٦٢.

فسّر البعض هذا (الظلّ الواسع) بحالة شبيهة للظلّ الذي يكون بين الطلوعين من حيث انتشاره في كلّ مكان، وقد نقل حديث للرسول ﷺ بهذا المعنى في روضة الكافي(١).

والمقصود هنا أن لا حَرَّ في الجنّة، وأنّ أهلها في ظلال لطيفة واسعة تلطّف الروح.

وينتقل الحديث إلى مياه الجنّة حيث يقول سبحانه: ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾.

﴿مَّسْكُوبٍ﴾ من مادّة (سكب) على وزن «حرب» وتعني في الأصل الصبّ، ولأنّ صبّ الماء يكون من الأعلى إلى الأسفل بصورة تيّار أو شلاّل فإنّه بذلك يصوّر لنا مشهداً رائعاً حيث إنّ خرير المياه ينعش الروح. ويبهر العيون، وهذه هي إحدى الهبات التي منحها الله لأهل الجنّة، ومن الطبيعي أنّ هذه الجنّة المليئة بالأشجار العظيمة، والمياه الجارية، لابدّ أن تكون فيها فواكه كثيرة، وهذا ما ذكرته الآية الكريمة، حيث يقول سبحانه في ذكر خامس نعمة: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾.

نعم، ليست كفواكه الدنيا من حيث محدوديتها في فصول معيّنة من أسابيع أو شهور، أو يصعب قطفها بلحاظ الأشواك، أو العلو مثل النخيل، أو مانع ذاتي في نفس الإنسان، أو أنّ المضيف الأصلي الذي هو الله والملائكة الموكّلين بخدمة أهل الجنّة يبخلون عليهم... كلاّ، لا يوجد شيء من هذا القبيل، فالمقتضي موجود بشكل كامل، والمانع بكلّ أشكاله مفقود.

ثمّ يشير سبحانه إلى نعمة أُخرى حيث يقول: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ أي الزوجات الرفيعات القدر والشأن.

﴿وَفُرُشٍ﴾: جمع فراش وتعني في الأصل كلّ فراش يفرش ولهذا التناسب فإنّها تستعمل في بعض الأحيان كناية عن الزوج (سواء كان رجلاً أو امرأة) لذا جاء في الحديث عن الرّسول ﷺ أنّه قال: (الولد للفراش وللعاهر الحجر)(٢).

وفسّر البعض الفرش بمعناها الحقيقي وليس كناية، واعتبرها إشارة إلى الفرش الثمينة والتي لها قيمة عظيمة في الجنّة، ولكن إذا فسّرت بهذه الصورة، فسيقطع ارتباط هذه الآية مع الآيات اللاحقة التي تتحدّث عن حوريات وزوجات الجنّة.

---

(١) روضة الكافي، مطابق نقل نور الثقلين، ج٥، ص٢١٦.
(٢) أصول الكافي، ج ٥، ص ٤٩١، ح ٣.

ويصف القرآن الكريم زوجات الجنّة بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾.

وهذه الآية لعلّها تشير إلى الزوجات المؤمنات في هذه الدنيا حيث يمنحهنّ الله سبحانه خلقاً جديداً في يوم القيامة، ويدخلن الجنّة وهنّ في قمّة الحيوية والشباب والجمال والكمال الظاهر والباطن، وبشكل يتناسب مع كمال الجنّة وخلوّها من كلّ نقص وعيب.

وإذا كان المقصود بذلك (الحوريات) فإنّ الله تعالى خلقهنّ بصورة لا يعتريهنّ فيها غبار العجز والضعف، ويمكن أن يكون التعبير بالإنشاء إشارة إلى المعنيين أيضاً.

ثمّ يضيف تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾.

واحتمال أن يكون الوصف مستمرّاً، كما صرّح كثير من المفسّرين بذلك، وأُشير له في الرّوايات الإسلامية أيضاً، حيث الزواج لا يغيّر وضعهنّ ويبقين أبكاراً[1].

ويضيف في وصفهنّ بوصف آخر فيقول تعالى: ﴿عُرُبًا﴾.

﴿عُرُبًا﴾ جمع (عروبة) على وزن (ضرورة) بمعنى المرأة التي يحكي وضع حالها عن مقام عفّتها وطهارتها، وعمّا تكنّه من المحبّة لزوجها، (إعراب): على وزن (إظهار) معناه هو نفس مدلول الإظهار، ويأتي هذا المصطلح أيضاً بمعنى الفصاحة ولطافة الكلام، ويمكن جمع المعنيين في هذه الآية.

والوصف الآخر لهن ﴿أَتْرَابًا﴾ أي أنّها متماثلات في الجمال وأتراب في الظاهر والباطن، ومتماثلات في العمر مع أزواجهنّ.

﴿أَتْرَابٌ﴾ جمع (ترب) على وزن (ذهن) بمعنى المثل والشبيه، وقال البعض: إنّ هذا المعنى أخذ من الترائب وهي عظام قفص الصدر، لأنّها تتشابه الواحدة مع الأُخرى.

إنّ هذا الشبه والتماثل يمكن أن يكون في أعمار الزوجات بالنسبة لأزواجهنّ، كي يدركن إحساسات ومشاعر أزواجهنّ كاملة، وبذلك تصبح الحياة أكثر سعادة وانسجاماً، بالرغم من أنّ السعادة تحصل مع اختلاف العمر أحياناً، إلاّ أنّ الغالب ليس كذلك، كما يمكن أن يكون المقصود بالتشابه والتساوي في الصفات الجمالية والنفسية وحسن الظاهر والباطن.

---

(١) تفسير روح المعاني، ج٢٧، ص١٢٣ وبالضمن يجدر الانتباه إلى أنّ هذه الحالة، مع فاء التفريع عطفت على الآية السابقة.

ثمّ يضيف تعالى: ﴿لِأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾.

وهذا تأكيد جديد على اختصاص هذه الصفات والنعم الإلهيّة بهم.

ويحتمل أيضاً أن تكون هذه الجملة مكمّلة لجملة ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾[(١)].

وفي نهاية هذا العرض يقول سبحانه: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَثُلَّةٌ﴾: في الأصل بمعنى قطعة مجتمعة من الصوف، ثمّ أُطلقت على كلّ مجموعة من الناس عظيمة ومتماسكة، وبهذا الترتيب فإنّ مجموعة عظيمة من أصحاب اليمين هم من الأمم السابقة، ومجموعة عظيمة من الأُمّة الإسلامية، لأنّ بين المجموعتين كثير من الصالحين والمؤمنين، بالرغم من أنّ السابقين للإيمان في الأُمّة الإسلامية أقلّ من السابقين للإيمان في الأُمم السابقة، وذلك لكثرة تلك الأُمم وكثرة أنبيائها.

وقال البعض: إنّ هاتين المجموعتين كلاهما من الأُمّة الإسلامية، قسم من أوّلهم وقسم من آخرهم، إلاّ أنّ التّفسير الأوّل أصحّ.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾

التّفسير

العقوبات المؤلمة لأصحاب الشمال

بعد الاستعراض الذي مرّ بنا حول النعم والهبات العظيمة التي منحها الله سبحانه للمقرّبين من عباده ولأصحاب اليمين من أوليائه، يتطرّق الآن إلى ذكر المجموعة الثالثة ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ والعذاب المؤلم والعاقبة السيّئة التي حلّت بهم، في عملية مقارنة لوضع

---

(١) في الصورة الأولى عبارة ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، وفي التقدير تصبح هكذا: (هذه كلّها لأصحاب اليمين) وفي الصورة الثانية جار ومجرور متعلّق بأنشأناهنّ، والتفسير الأوّل أصحّ.

المجموعات الثلاث حيث يقول البارئ: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ هم الذين يستلمون صحائف أعمالهم بأيديهم اليسرى إشارة إلى سوء عاقبتهم، وأنّهم من أهل المعاصي والذنوب، وممّن تكون النار مصيراً لهم، ويستعمل هذا التعبير عادةً لبيان (حسن) أو (سوء) نهاية الإنسان كما في قولنا: السعادة أقبلت علينا يا لها من سعادة!. أو المصيبة داهمتنا يا لها من مصيبة. وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾.

ثمّ يشير سبحانه إلى ثلاثة أنواع من العقوبات التي يواجهونها، الهواء الحارق القاتل من جهة ﴿سَمُومٍ﴾ والماء المغلي المهلك من جهة أُخرى ﴿وَحَمِيمٍ﴾، وظلّ الدخان الخانق الحارّ من جهة ثالثة ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ هذه الألوان من العذاب تحاصرهم وتطوقهم وتسلب منهم الصبر والقدرة... إنّها آلام وعذاب لا يطاق، ولو لم يكن غيره من جزاء لكفاهم.

﴿سَمُومٍ﴾: من مادّة (سمّ) بمعنى الهواء الحارق الذي يدخل في مسام الجلد فتهلكهم، (ويقال للسمّ سمّاً لأنّه ينفذ في جميع خلايا الجسم).

و﴿وَحَمِيمٍ﴾: بمعنى الشيء الحارّ، وهنا جاء بمعنى الماء الحارق والذي أُشير له في آيات قرآنية سابقة كما في قوله تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾[1].

﴿يَحْمُومٍ﴾: من نفس المادّة أيضاً، وهنا بمناسبة الظلّ فسّرت الكلمة بمعنى الظلّ الغليظ الأسود والحارّ.

ثمّ يضيف الباريء مؤكّداً فيقول: ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾.

المظلّة عادةً تحمي الإنسان من الشمس والمطر والهواء ولها منافع أُخرى، والظلّ المشار إليه في الآية الكريمة ليس له من هذه الفوائد شيء يذكر.

والتعبير بـ﴿كَرِيمٍ﴾ من مادّة (كرامة) بمعنى مفيد فائدة، ولذلك فإنّ المتعارف بين العرب إذا أرادوا أن يعرفوا شيئاً أو شخصاً بانّه غير مفيد يقولون (لا كرامة فيه).

ومن الطبيعي أنّ مظلّة من الدخان الأسود الخانق لا ينتظر منها إلاّ الشرّ والضرر (لا كرامة).

وبالرغم من أنّ جزاء أهل النار له أنواع مختلفة مرعبة من العذاب، إلاّ أنّ ذكر الأقسام الثلاثة يكفي لإعطاء فكرة عن بقيّة الأهوال.

(١) سورة الحجّ، الآية: ١٩.

وفي الآيات اللاحقة يذكر الأسباب التي أدّت بأصحاب الشمال إلى هذا المصير المخيف والمشؤوم، وذلك بثلاث جمل، يقول في البداية: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾.

«مترف»: كما ورد في لسان العرب من مادّة ترف - على وزن (سبب) - بمعنى التنعّم، وتطلق على الشخص الذي ملكته الغفلة وجعلته مغروراً سكراناً، وجرّته إلى الطغيان(١).

صحيح أنّ أصحاب الشمال ليسوا جميعاً من زمرة المترفين، إلاّ أنّ المقصودين في القرآن الكريم هم أربابهم وأكابرهم.

والملاحظ في عصرنا الحاضر أنّ فساد المجتمعات وعوامل الانحراف ورأس الحروب والدمار ونزيف الدم وأنواع الظلم ومركز الشهوات والفساد في العالم أجمع بيد «الزمرة» المترفة المغرورة، ولهذا فالقرآن الكريم قد شخصّهم وحدّد موقفه منهم إبتداءً.

وهنالك رأي ثان وهو: إنّ نعم الله سبحانه واسعة وعديدة ولا تنحصر بالأموال فقط، بل تشمل الصحّة والشباب والعمر... فإذا كانت هذه النعم أو بعضها مبعثاً للغرور والغفلة، فإنّها ستكون مصدراً أساسياً للذنوب، وهذا المفهوم يسري على أصحاب الشمال.

ثمّ يشير سبحانه إلى العامل الثاني الذي كان مصدراً وسبباً لعذاب أصحاب الشمال، فيقول سبحانه: ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾.

«الحنث» في الأصل يعني كلّ نوع من الذنوب، وقد استعمل هذا المصطلح في كثير من الموارد بمعنى نقض العهد ومخالفة القسم، لكونه مصداقاً واضحاً للذنب، وبناءً على هذا فإنّ خصوصية أصحاب الشمال ليس فقط في ارتكاب الذنوب ولكن في الإصرار عليها، لأنّ الذنب يمكن صدوره من أصحاب اليمين أيضاً، إلاّ أنّهم لا يصرّون عليه أبداً، ويستغفرون ربّهم ويعلنون التوبة إليه عند تذكّره.

وفسّر البعض ﴿الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ بمعنى الشرك، لأنّه لا ذنب أعظم من الشرك. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾(٢).

---

(١) لسان العرب، ج٩، ص١٧.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٨.

وفسّر ﴿الْحِنثِ﴾ بالكذب، لأنّه أعظم الذنوب، ومفتاح المعاصي، خصوصاً حينما يكون الكذب توأماً لتكذيب للأنبياء عليهم السلام والمعاد.

والظاهر أنّ هذه جميعاً تعتبر مصاديق للحنث العظيم.

وثالث عمل سبب لهم هذا الويل والعذاب، هو أنّهم قالوا: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾.

وعلى هذا فإنّ إنكار القيامة والذي هو بحدّ ذاته مصدر للكثير من الذنوب، هو وصف آخر لأصحاب الشمال، ومصدر لشقائهم، وتعبير ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ﴾ يوضّح لنا أنّهم كانوا يصرّون ويعاندون في إنكار يوم القيامة أيضاً.

وهنا مطلبان جديران بالملاحظة وهما:

الأوّل: أنّ القرآن الكريم في معرض حديثه عن ﴿الْمُقَرَّبِينَ﴾ و ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ لم يعط توضيحاً عن أعمالهم التي سبّبت لهم تلك النعم وذلك الجزاء، إلاّ ضمن إشارة عابرة، أمّا عندما جاء دور الحديث عن أصحاب الشمال فقد وضّحت أفعالهم بصورة كافية، وذلك

ليكون إتماماً للحجّة عليهم من جهة، وإظهار أنّ جزاءهم هذا كان انسجاماً مع مبادىء العدالة تماماً من جهة أُخرى.

والمسألة الأُخرى: أنّ الذنوب الثلاثة التي أُشير إليها في الآيات الثلاث السابقة كانت بمثابة نفي أُصول الدين الثلاثة من قبل أصحاب الشمال.

ففي آخر آية تحدّث القرآن الكريم عن تكذيبهم ليوم القيامة، وفي الآية الثانية عن إنكار التوحيد، وفي الآية الأُولى كان الحديث عن المترفين وهي إشارة إلى تكذيب الأنبياء كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾(١).

والتعبير بـ ﴿تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ لعلّه إشارة إلى أنّ لحومنا تتحوّل إلى تراب، وعظامنا إلى رميم، ومع ذلك فكيف نكون خلقاً جديد؟

ولمّا كانت عودة الحياة إلى التراب أبعد من عودتها إلى العظام لذا ذكر في البداية حيث يقول تعالى: ﴿تُرَابًا وَعِظَامًا﴾.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٣.

والعجيب أنّ هؤلاء يرون مشاهد المعاد بأعينهم في هذه الدنيا ومع ذلك فإنّهم ينكرونها[١]، ألم يروا إلى الكثير من الموجودات الحيّة كالنباتات تموت وتجفّ وتصبح تراباً ثمّ تلبس لباس الحياة مرّة أُخرى، وأساساً فإنّ الذي خلق الخلق أوّل مرّة لن يعييه إعادة الخلق ثانية، ولن يكون عليه ذلك صعباً وعسيراً ولكنّهم مع ذلك يصرّون على إنكار المعاد.

إنّهم لم يكتفوا بما ذكروا وذهبوا إلى أكثر من ذلك حيث قالوا بتعجّب: ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾[٢] الذين لم يبق منهم أثر وتناثرت كلّ ذرّة من تراب أجسادهم في جهة، أو أصبحت جزءاً من بدن كائن آخر؟

ولكن، كما قيل مفصّلاً في نهاية سورة ياسين، فإنّ هذه التساؤلات وغيرها ليست سوى حجج واهية أمام الدلائل القويّة المتوفّرة حول مسألة المعاد.

ثمّ إنّ القرآن الكريم يأمر الرّسول الأكرم ﷺ أن يجيبهم: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠﴾[٣].

﴿مِيقَٰتِ﴾ من مادّة (وقت) بمعنى الزمان الذي يحدّد لعمل ما أو موعد. والمقصود من الميقات هنا هو نفس الوقت المقرّر للقيامة، حيث يجتمع كلّ البشر للحساب، ويأتي أحياناً كناية عن المكان الذي عين لإنجاز عمل معيّن، مثل مواقيت الحجّ، التي هي أسماء أماكن خاصّة للشروع بالإحرام.

ويستفاد من التعابير المختلفة التي وردت في الآية السابقة والتأكيدات العديدة حول مسألة الحشر، مثل: (إنّ، اللام، «مجموعون» التي جاءت بصيغة اسم مفعول، ووصف ﴿يَوْمٍ﴾ بأنّه معلوم) ممّا يكون واضحاً ومؤكّداً أنّ حشر جميع الناس ينجز في يوم واحد، وجاء هذا المعنى في آيات قرآنية أُخرى أيضاً[٤].

ومن هنا يتّضح جيّداً أنّ الذين كانوا يتصوّرون أنّ القيامة تقع في أزمنة متعدّدة حيث إنّ لكلّ أُمّة قيامة، هم غرباء عن آيات الله تماماً.

---

(١) يجب الانتباه هنا إلى تكرار حرف الاستفهام والتعبير بـ(أنّ) كلّها للتأكيد.

(٢) الهمزة في ﴿ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ استفهامية، والواو واو عطف وهنا قدّمت الهمزة الاستفهامية عليها.

(٣) استعملت (إلى) في هذه الجملة إشارة إلى أنّ القيامة تكون في نهاية هذا العالم، ويمكن أن تكون هنا بمعنى بـ«لام» كما هو في الكثير من الآيات القرآنية وردت (لميقات).

(٤) سورة هود، الآية: ١٠٣؛ وسورة مريم، الآية: ٩٥.

ولابدّ من الإشارة هنا إلى أنّ معلومية يوم القيامة هي عند الله فقط، وإلاّ فإنّ جميع البشر بما فيهم الأنبياء والمرسلون والمقرّبون والملائكة ليس لهم علم بتوقيتها.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦)﴾

التّفسير

عقوبات جديدة للمجرمين

هذه الآيات استمرار للأبحاث المرتبطة بعقوبات أصحاب الشمال، حيث يخاطبهم بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢)﴾(١).

كان الحديث في الآيات السابقة حول الأجواء التي تحيط بـ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ وينتقل الحديث في الآيات أعلاه إلى مشربهم ومأكلهم مقارناً بمأكل ومشرب المقرّبين وأصحاب اليمين.

والجدير بالذكر أنّ المخاطبين في هذه الآيات هم ﴿الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ الذين يتّسمون مضافاً إلى الضلال والانحراف بأنّ لديهم روح العناد والإصرار على الباطل في مقابل الحقّ.

﴿زَقُّومٍ﴾ كما ذكرنا سابقاً: نبات مرّ نتن الرائحة وطعمه غير مستساغ، وفيه عصارة إذا دخلت جسم الإنسان يصاب بالتورّم، وتقال أحياناً لكلّ نوع من الغذاء المنفّر لأهل النار(٢).

وللمزيد حول (الزقّوم) يراجع نهاية الآية (٦٢) سورة الصافات، وكذلك نهاية الآية (٤٣) سورة الدخان.

والتعبير بـ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ إشارة إلى الجوع الشديد الذي يصيبهم بحيث إنّهم يأكلون بنهم وشره من هذا الغذاء النتن وغير المستساغ جدّاً فيملؤون بطونهم.

---

(١) ﴿مِن﴾ في ﴿مِن شَجَرٍ﴾ تبعيضية، و﴿مِن﴾ في ﴿زَقُّومٍ﴾ بيانية.

(٢) مجمع البحرين ومفردات الراغب، ولسان العرب، وتفسير روح المعاني.

وعند تناولهم لهذا الغذاء السيّئ يعطشون. ولكن ما هو شرابهم؟!

يتبيّن ذلك في قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ[1] مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾.

إنّ البعير الذي يبتلى بداء العطش فإنّ شدّة عطشه تجعله يشرب الماء باستمرار حتى يهلك، وهذا هو نفس مصير ﴿ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ﴾ في يوم القيامة.

«حميم»: بمعنى الماء الحارّ جدّاً والحارق، وتطلق عبارة ﴿وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ على طبيعة العلاقة الصادقة الوديّة الحارّة، و«حمّام» مشتقّ من نفس المادّة أيضاً.

(هيم) على وزن (ميم) جمع هائم، واعتبرها البعض جمع أهيم وهيماء، وهي في الأصل من (هيام) على وزن (فرات) بمعنى مرض العطش الذي يصيب البعير، ويستعمل هذا التعبير للعشق الحادّ أو للعشّاق الذين لا يقرّ لهم قرار.

ويعتبر بعض المفسّرين أنّ معنى (هيم) هي الأراضي الرملية والتي كلّما سقيت بماء تسرّب منها فتظهر الظمأ دائماً.

وفي آخر آية - مورد البحث - يشير سبحانه إلى طبيعة مأكلهم ومشربهم في ذلك اليوم حيث يقول: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾.

فأين نزلهم ونزل أصحاب اليمين الذين ينعمون بالاستقرار في ظلال الأشجار الوارفة، ويتناولون ألذّ الفواكه وأطيب الأطعمة، وأعذب الشراب الطهور، ويطوف حولهم الولدان المخلّدون والحور العين، وهم سكارى من عشق البارئ عزّوجلّ؟

أين أُولئك؟ وأين هؤلاء؟

مصطلح (نزل) كما قلنا سابقاً بمعنى الوسيلة التي يكرمون بها الضيف العزيز، وتطلق أحياناً على أوّل طعام أو شراب يؤتى به للضيوف، ومن الطبيعي أنّ أهل النار ليسوا ضيوفاً، وأنّ الزقّوم والحميم ليس وسيلة لضيافتهم بل هو نوع من الطعن فيهم، وأنّه إذا كان كلّ هذا العذاب هو مجرّد استقبال لهم، فكيف بعد ذلك سيكون حالهم؟

﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ

---

(١) الجدير بالذكر أنّ في الآية السابقة كان الضمير مؤنثاً (منها) يعود على ﴿شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ﴾ وفي هذه الآية كان الضمير مذكراً ﴿عَلَيۡهِ﴾ يعود على الشجر، وذلك لأنّ الشجر اسم جنس يستعمل للذكر والمؤنث، وكذلك ثمر، (مجمع البيان نهاية الآية مورد البحث).

أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

التّفسير

سبعة أدلّة على المعاد

بما أنّ الآيات السابقة تحدّثت عن تكذيب الضالّين ليوم المعاد، فإنّ الآيات اللاحقة استعرضت سبعة أدلّة على هذه المسألة المهمّة، كي يتركّز الإيمان وتطمئن القلوب بالوعود الإلهيّة التي وردت في الآيات السابقة حول «المقرّبين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال»، وأساساً فإنّ أبحاث هذه السورة تتركّز على بحث المعاد بشكل عامّ.

يقول سبحانه في المرحلة الأُولى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي لِمَ لا تصدّقون بالمعاد[1]؟!

لماذا تتعجّبون من الحشر والمعاد الجسمي بعد أن تصبح أجسامكم تراباً؟ ألم نخلقكم من التراب أوّل مرّة؟ أليس حكم الأمثال واحداً؟

هذه الاستدلالات في الحقيقة شبيهة بما جاء في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾[2].

وفي الآية اللاحقة يشير البارىء إلى دليل ثان حول هذه المسألة فيقول: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ[3] ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

من الذي يجعل من هذه النطفة الحقيرة التي لا قيمة لها في كلّ يوم بخلق جديد وشكل جديد، وخلق بعد خلق؟! هذه التطورات العجيبة التي بهرت العقول وأُولي

---

(١) (لولا) في الاصطلاح تستعمل للحضّ والتحريك لإنجاز عمل ما، وكما يقول البعض فإنّها في الأصل مركّبة من (لِمَ) و(لا) والتي تعطي معنى السؤال والنفي ثمّ تبدّلت الميم إلى واو، ويستعمل هذا المصطلح في مكان يتسامح فيه فرد أو أفراد في إنجاز عمل ما، ويقال لهم: لماذا لا تعملون هكذا وهكذا؟

(٢) سورة يس، الآيتان: ٧٨ - ٧٩.

(٣) جاءت «رأيتم» هنا من الرؤية بمعنى العلم وليست المشاهدة بالعين المجرّدة.

الألباب من المفكّرين، هل كانت من خلقكم أم من خلق الله تعالى؟

وهل أنّ القادر على الخلق المتكرّر يعجز عن إحياء الموتى في يوم القيامة؟

إنّ المفاهيم التي وردت في هذه الآية تحكي نفس المفاهيم التي جاءت في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾(١).

وإذا تجاوزنا ذلك وأخذنا بنظر الاعتبار ما يقوله علماء اليوم حول قطرة الماء هذه (النطفة) التي في ظاهر الأمر لا قيمة لها، سوف يتّضح لنا الحال أكثر، حيث يقولون: إنّ الحيمن (الأسبر) هو حيوان مجهري صغير جدّاً وإنّ منيّ الرجل يحتوي على عدد هائل من الحيامن في كلّ إنزال تقدّر بين(٢ - ٥) مليون حيمن وهذا يمثّل مقدار مجموع سكّان عدّة (بلدان في العالم)(٢) هذا الحيوان المنوي يتّحد مع بويضة المرأة (أوول)، فتتكوّن البيضة المخصّبة التي تنمو بسرعة وتتكاثر بصورة عجيبة، حيث تصنع خلايا جسم الإنسان، ومع أنّ الخلايا متشابهة في الظاهر، إلاّ أنّها تتوزّع بسرعة إلى مجاميع عديدة، فقسم منها يختص بالقلب، والآخر بالأطراف، والثالث بالأذن والحنجرة، وكلّ مجموعة مستقرّة في مكانها المحدّد له، فلا خلايا الكلية تنتقل إلى خلايا القلب، ولا خلايا القلب تتحوّل إلى خلايا العين، ولا العكس.

والخلاصة أنّ «النطفة المخصّبة» في المرحلة الجنينيّة تمرّ بعوالم عديدة مختلفة حتى تصبح جنيناً، وكلّ هذا في ظلّ خالقية إلهيّة مستمرّة، في حين أنّ دور الإنسان في هذه العملية بسيط جدّاً، ويقتصر على وضع النطفة في الرحم، والذي ينجز بلحظة واحدة.

أليست هذه المسألة دليلاً حيّاً على مسألة المعاد؟

أو ليست هذه القدرة العظيمة تدلّل على قدرة إحياء الموتى أيضاً(٣).

ثمّ يستعرض ذكر الدليل الثالث حيث يقول سبحانه: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾.

نعم، إنّنا لن نغلب أبداً، وإذا قدّرنا الموت فلا يعني ذلك أنّنا لا نستطيع أن نمنح

---

(١) سورة الحجّ، الآية: ٥.

(٢) كتاب أوّل جامعة، ج١ (بحث معرفة الجنين)، ص٢٤١.

(٣) في هذا الموضوع ذكرنا توضيحات أُخرى في نهاية الآية (٥) من سورة الحجّ.

العمر السرمدي، بل إنّ الهدف هو أن نذهب بقسم من الناس ونأتي بآخرين محلّهم، وأخيراً نعيدكم خلقاً جديداً في عالم لا تعلمون عنه شيئاً ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وفي تفسير هاتين الآيتين هناك وجهة نظر أُخرى وهي: أنّ الآية الثانية لم تأت لبيان هدف الآية الأُولى ولكن تكملة لها، حيث يريد سبحانه أن يبيّن المعنى التالي وهو: أنّنا لسنا بعاجزين ومغلوبين على أن نذهب بقسم ونأتي بآخرين مكانهم(١).

ويوجد تفسيران لجملة ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾.

الأوّل: هو نفس التّفسير المذكور أعلاه، والذي هو المشهور بين المفسّرين، وطبقاً لهذا الرأي تكون عملية تبديل الأقوام في هذه الدنيا.

والثاني: هو: أنّ المقصود من (أمثال) هم نفس البشر الذين يبعثون في يوم القيامة، والتعبير بـ(مثل) لأنّ الإنسان لا يبعث مرّة أُخرى بكلّ خصوصياته التي كان عليها، إذ إنّه سيكون في وقت جديد وكيفيات جديدة من حيث الروح والجسم.

إلاّ أنّ التّفسير الأوّل هو الأنسب حسب الظاهر.

وعلى كلّ حال، فإنّ الهدف هو الاستدلال على المعاد من خلال مسألة الموت، ويمكن توضيح الدليل بالصورة التالية: إنّ الله الحكيم الذي خلق الإنسان وقدّر له الموت فطائفة يموتون وآخرين يولدون باستمرار، من البديهي أنّ له هدف.

فإذا كانت الحياة الدنيا هي الهدف فالمناسب أن يكون عمر الإنسان خالداً وليس بهذا المقدار القصير المقترن مع ألوان الآلام والمشاكل.

وسنّة الموت تشهد أنّ الدنيا معبر وليست منزلاً وأنّها جسر وليست مقصداً، لأنّها لو كانت مستقرّاً ومقصداً للزم أن تدوم الحياة فيها.

جملة ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ظاهراً إشارة إلى خلق الإنسان يوم القيامة، والتي هي الهدف لحياة وفناء هذه الدنيا، ومن البديهي لأي شخص لم يرَ الدار الآخرة أنّه لن يستطيع إدراكها ومعرفة قوانينها والأنظمة المسيطرة عليها من خلال الألفاظ والصور التي تنقل لنا عنها، نعم إنّنا نستطيع أن نرى شبحها وظلالها فقط من التصوير اللفظي

---

(١) طبقاً للتفسير الأوّل فإنّ الجار والمجرور في ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ﴾ متعلّق بـ﴿قَدَّرْنَا﴾ والذي جاء في الآية السابقة. طبقاً للتفسير الثاني فإنّها متعلّقة بـ(مسبوقين) (يرجى الانتباه).

لها، ولذا فإنّ الآية أعلاه تعكس هذه الحقيقة، حيث تذكر أنّ الله سيخلقنا في عالم جديد وبأشكال وظروف جديدة لا ندرك أسرارها[١].

وفي آخر آية - مورد البحث - يتحدّث سبحانه عن رابع دليل للمعاد حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

هذا الدليل نستطيع بيانه بصورتين:

الأولى: في المثال التالي: إذا كنا نسير في صحراء وشاهدنا قصراً مهيباً عظيماً مثيراً للإعجاب في محتوياته ومواد بنائه وهندسته، وقيل لنا: إنّ الهدف من هذا القصر هو استعماله كمحطّة للراحة والهدوء لعدّة ساعات فقط لقافلة صغيرة... فإنّنا سنحكم في أنفسنا بصورة قاطعة على عدم الحكمة في هذا العمل، إذ من المناسب لمثل الهدف المتقدّم ذكره أن تُعد خيمة صغيرة فقط.

وعلى هذا فإنّ خلق هذه الدنيا العظيمة وما فيها من أجرام سماوية وشمس وقمر وأنواع المخلوقات الأرضية الأُخرى، هل يمكن أن يكون لهدف صغير محدود، كأن يعيش الإنسان فيها بضعة أيّام؟ كلاّ ليس كذلك، وإلاّ فإنّه يعني أنّ خلق العالم سيكون بدون هدف، ولكن ممّا لا شكّ فيه أنّ هذه المخلوقات العظيمة قد خلقت لموجود شريف - مثل الإنسان - ليعرف الله سبحانه من خلالها، معرفة تكون رأسماله الوحيد في الدار الآخرة، فالهدف إذن هو الدار الآخرة، وهذا دليل آخر على المعاد.

وهذا البيان هو ما نجده في الآية الشريفة: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[٢].

الثانية: هو أنّنا نلاحظ مشاهد المعاد في هذا العالم تتكرّر أمامنا في كلّ سنة وفي كلّ زاوية وكلّ مكان، حيث مشهد القيامة والحشر في عالم النبات، فتحيى الأرض الميتة بهطول الأمطار الباعثة للحياة قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾[٣]، وقد أُشير إلى هذا المعنى كذلك في الآية ٦ من سورة الحجّ.

---

(١) اعتبر البعض أنّ الآية هي إشارة إلى مسخ الأقوام السابقين في هذا العالم، حيث إنّ الله سبحانه قد مسخهم بأشكال لا يعلمونها، إلاّ أنّ هذا المعنى لا ينسجم مع ظاهر الآية.

(٢) سورة ص، الآية: ٢٧.

(٣) سورة فصّلت، الآية: ٣٩.

ملاحظة

حجيّة القياس

إنّ هذه المسألة تطرح عادةً في أُصول الفقه، وهي أنّنا لا نستطيع إثبات الحكم الشرعي عن طريق القياس كقولنا مثلاً: (إنّ المرأة الحائض التي يجب أن تقضي صومها يجب أن تقضي صلاتها كذلك) - أي يجب أن تكون استنتاجاتنا من الكلّي إلى الجزئي، وليس العكس - وبالرغم من أنّ علماء أهل السنّة قد قبلوا القياس في الغالب كأحد مصادر التشريع في الفقه الإسلامي، فإنّ قسماً منهم يوافقوننا في مسألة (نفي حجيّة القياس).

والظريف هنا أنّ بعض مؤيّدي القياس أرادوا أن يستدلّوا بمقصودهم بالآية التالية: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي قيسوا النشأة الأُخرى (القيامة) على النشأة الأُولى (الدنيا).

إلاّ أنّ هذا الاستدلال عجيب، لأنّه أوّلاً: إنّ المذكور في الآية هو استدلال عقلي وقياس منطقي، ذلك أنّ منكري المعاد كانوا يقولون: كيف تكون لله القدرة على إحياء العظام النخرة؟ فيجيبهم القرآن الكريم بالمفهوم التالي: إنّ القوّة التي كانت لها القدرة على خلقكم في البداية هي نفسها ستكون لها القدرة لخلقكم مرّة ثانية، في الوقت الذي لا يكون القياس الظنّي بالأحكام الشرعية بهذه الصورة أبداً، لأنّنا لا نحيط بمصالح ومفاسد كلّ الأحكام الشرعية.

وثانياً: إنّ من يقول ببطلان القياس يستثني قياس الأولوية، فمثلاً يقول تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾[1] ونفهم بطريق أولى ألاّ نؤذيهما من الناحية البدنية. والآية مورد البحث من قبيل قياس الأولوية وليس لها ربط بالقياس الظنّي مورد الخلاف والنزاع، لأنّه لم يكن شيء من المخلوقات في البداية، والله عزّوجلّ خلق الوجود من العدم وخلق الإنسان من التراب، ولذا فإنّ إعادة الإنسان إلى الوجود مرّة أُخرى أيسر من خلقه ابتداءً، وتعكس الآية الكريمة التالية هذا المفهوم حيث يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[2].

ونهي حديثنا هذا بالحديث التالي: «عجباً كلّ العجب للمكذّب بالنشأة الأُخرى وهو

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٣. (٢) سورة الروم، الآية: ٢٧.

يرى النشأة الأولى، وعجباً للمصدّق بالنشأة الأُخرى وهو يسعى لدار الغرور»[١].

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾

التّفسير

هل أنتم الزارعون أم الله؟

استعرضنا لحدّ الآن أربعة أدلّة من الأدلّة السبعة التي جاء ذكرها في هذه السورة حول المعاد، والآيات - مورد البحث واللاحقة لها - تستعرض الأدلّة الأُخرى المتبقّية والتي كلّ منها مصداق لقدرة الله اللا متناهية.

فالدليل الأوّل يرتبط بخلق الحبوب الغذائية، والثاني يرتبط بخلق الماء، والثالث يتعلّق بالنار، وهذه المحاور تشكّل الأركان الأساسيّة في الحياة الإنسانية، فالحبوب النباتية أهمّ مادّة غذائية للإنسان، والماء أهمّ عنصر للحياة، والنار أهمّ وسيلة لإصلاح المواد الغذائية وسائر أُمور الحياة الأُخرى.

يقول سبحانه في البداية: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

الملفت للنظر هنا أنّ الآية استعملت تعبير ﴿تَحْرُثُونَ﴾ من مادّة (حرث) على وزن (درس) وهو يعني الزراعة ونشر الحبوب وتهيئتها للإنبات، وفي الآية الثانية كان التعبير بـ ﴿تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ من مادّة «زراعة» بمعنى النمو والنضج.

ومن البديهي أنّ عمل الإنسان هو الحرث فقط، أمّا النمو فهو من عمل الله سبحانه فقط، ولذا نقل في حديث عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «لا يقولنّ أحدكم زرعت وليقل حرثت، فإنّ الزارع هو الله»[٢].

---

(١) ذكر هذا الحديث في تفسير روح البيان وروح المعاني والقرطبي والمراغي باختلاف مختصر بعنوان خبر، وبدون تصريح باسم الرّسول الأعظم ﷺ إلاّ أنّ ظاهر تعبيراتهم أنّ الحديث للرسول ﷺ، وفي كتاب الكافي أيضاً نقل القسم الأوّل من هذا الحديث عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام.

(٢) القسم الأوّل من الحديث جاء في تفسير مجمع البيان نهاية الآية مورد البحث، ونقل القسم الثاني في روح البيان كإضافة عليه.

شرح هذا الدليل هو أنّ عمل الإنسان في الزرع كعمله في الإنجاب حيث ينثر البذرة ويتركها، والله سبحانه هو الذي يخلق في وسط هذه البذرة الحياة، فعندما توضع البذرة في محيط مهيّأ من حيث التربة والضوء والماء، فإنّها تستفيد ابتداءً من المواد الغذائية المخزونة فيها إلى أن تصبح برعماً وتولّد جذراً، ثمّ تنمو بسرعة عجيبة مستفيدة من المواد الغذائية الموجودة في الأرض حيث تعمل أجهزة عظيمة وتحدث تغييرات عميقة في داخل النبات، تتمخّض عن أغصان وسيقان وأوراق وثمار. . . وأحياناً تنتج البذرة الواحدة عدّة آلاف من البذور[١].

يقول العلماء: إنّ التركيبات الموجودة في بناء نبات واحد أعجب وأعقد بمراتب من التشكيلات الموجودة في مدينة صناعية عظيمة مع معاملها المتعدّدة.

هل أنّ القوّة التي لها مثل هذه القدرة تعجز عن إحياء الموتى مرّة أُخرى؟

وفي الآية اللاحقة يؤكّد الدور الهامشي للإنسان في نمو ورشد النباتات فيقول: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾.

نعم، يستطيع البارئ أن يرسل رياحاً سامّة تقتل البّذور قبل الإنبات وتحطّمها، أو يسلّط عليها آفة تتلفها بعد الإنبات كالجراد، أو تنزل عليها صاعقة كبيرة بحيث لا تبقي ولا تذر إلاّ شيئاً من التبن اليابس، وعند ذلك تضطربون وتندمون عند مشاهدتكم لمنظرها.

هل كان بالإمكان حدوث مثل هذه الأُمور إذا كنتم أنتم الزارعون الحقيقيون؟ إذاً فاعلموا أنّ كلّ هذه البركات من مصدر آخر.

«حطام»: من مادّة (حطم) على وزن (حتم) تعني في الأصل كسر الشيء، وغالباً ما تطلق على كسر الأشياء اليابسة كالعظام النخرة وسيقان النباتات الجافّة، والمقصود هنا هو التبن.

ويحتمل أيضاً أنّ المقصود بالحطام هنا هو فساد البذور في التربة وعدم نموّها[٢].

﴿تَفَكَّهُونَ﴾: من مادّة (فاكهة) بمعناها المتعارف، كما تطلق فكاهة على المزاح وذكر

(١) بالرغم من أنّ الحبّة الواحدة من الحنطة لا تنبت سوى عدّة مئات من الحبوب، إلاّ أنّه كما قلنا في ج٢ من هذا التّفسير: أنّه قد وجد في بعض مزارع القمح في إحدى المحافظات الجنوبية لإيران أنّ سنبلة واحدة تحوي على أربعة آلاف حبّة وذلك طبقاً لما أعلنته منشورات صحفية.

(٢) تفسير أبي الفتوح الرازي نهاية الآية مورد البحث.

الطرائف التي هي فاكهة جلسات الأُنس، ويأتي هذا المصطلح أحياناً للتعجّب والحيرة، والآية مورد البحث من هذا القبيل.

في بعض الأحيان يضحك الإنسان في الحالة العصبية وتسمّى هذه الضحكة بـ(ضحكة الغضب) كما في المزاح الذي يكون عند الظروف الصعبة والمصائب الثقيلة، وبناءً على هذا فالمقصود: بالفكاهة - أحياناً - هو المزاح المقترن بالألم.

نعم تتعجّبون وتغمركم الحيرة وتقولون: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ[(١)] [(٢)] (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧)﴾.

وإذا كنتم أنتم الزارعون الحقيقيون، فهل بإمكانكم أن تمنعوا وتدفعوا عن زرعكم الأضرار والمصير المدمّر والنتيجة البائسة؟ وهذا التحدّي يؤكّد لنا أنّ جميع أُمور الخلق من الله سبحانه، وكذلك فإنّه هو الذي ينبت من بذرة لا قيمة لها نباتات طريّة وأحياناً مئات أو آلاف البذور منها، تلك النباتات التي يتغذّى عليها الإنسان بشكل أساسي ويستفيد من أغصانها وأوراقها وأحياناً جذورها وبقيّة أجزائها غذاء للحيوان ودواء للأمراض والأسقام.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ (٦٨) ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ (٧١) ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٧٤)﴾

التّفسير

من الذي خلق الماء والنار؟

يشير سبحانه في هذه الآيات إلى سادس وسابع دليل للمعاد في هذا القسم من آيات سورة الواقعة، التي تبيّن قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، بل في كلّ شيء.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾.

﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾.

(١) لجملة ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ محذوف، تقديره (وتقولون إنّا لمغرمون).

(٢) ﴿لَمُغْرَمُونَ﴾ من مادّة (غرامة) بمعنى الضرر وفقدان الوقت والمال.

«مزن»: على وزن (حزن) كما يقول الراغب في المفردات تعني (الغيوم البيضاء) وفسّرها البعض بأنّها (الغيوم الممطرة)(١).

إنّ هذه الآيات تجعل الوجدان الإنساني أمام استفسارات عدّة كي تأخذ إقراراً منه، حيث يسأل الله سبحانه: هل فكّرتم بالماء الذي تشربونه باستمرار والذي هو سرّ حياتكم؟

وهل تدبّرتم من الذي يأمر الشمس بالشروق على صفحات المحيط حيث تفصل جزئيات الماء الخالص الحلو والطاهر من بين المياه المالحة؟

وهل علمتم من الذي يحمل هذا البخار نحو السماء؟

ومن الذي يأمر البخار بالتجمّع وتشكيل غيوم الأمطار؟

ومن الذي يأمر الرياح بالتحرّك وحمل الغيوم إلى الأراضي القاحلة والميتة؟

ومن الذي يمنح للطبقات العليا في الجوّ هذه الخاصيّة من البرودة بحيث تمنح استمرار صعود البخار نحو الأعلى، كي يتحوّل البخار إلى قطرات صغيرة وملائمة تسقط على الأرض بهدوء وتعاقب؟

وهل نعلم ماذا سيحدث لو انقطعت الشمس عن الشروق لمدّة سنة واحدة؟

أو توقّفت الرياح عن التحرّك؟

أو رفضت الطبقات العليا حفظ البخار من الصعود إلى الأعلى؟

أو حبسته من النّزول إلى الأرض؟

لا شكّ أنّ الذي سيحدث يمثّل كارثة، حيث يموت الزرع والنخيل وتهلك مزارعكم وحدائقكم وحيواناتكم، بل ستهلكون أنتم من الظمأ أيضاً.

إنّ القوّة التي أعطت هذه القدرة ومنحت كلّ هذه النعم والبركات العظيمة، بما أودعته من قوانين ونظم في عالم الخلق، أتظنّون أنّها غير قادرة على إحياء الموتى؟

وهل أنّ إحياء الموتى غير هذا؟

أليس إحياء الأراضي الميتة نوعاً من أنواع إحياء الموتى؟

نعم، إنّه دليل على ذلك، وهو دليل على التوحيد وعظمة القدرة الإلهيّة، ودليل أيضاً على الحشر والمعاد.

---

(١) لسان العرب مادّة مزن.

وإذا لاحظنا في الآيات أعلاه عملية استعراض لماء الشرب - فقط - وعدم التحدّث عن تأثيره في حياة الحيوانات أو النباتات فإنّ السبب هو الأهميّة البالغة للماء في حياة الإنسان نفسه، بالإضافة إلى أنّه قد أُشير له في الآيات السابقة في حديث الزرع، لذا لا حاجة لتكرار ذلك.

والطريف هنا أنّ أهميّة الماء وتأثيره في حياة الإنسان تزداد مع مرور الزمن وتقدّم الصناعة والعلم والمعرفة الإنسانية، فالإنسان الصناعي يحتاج إلى الماء بصورة متزايدة، لذلك فإنّ كثيراً من المؤسسات الصناعية العظيمة لا تكون لها القدرة على الفاعلية إلاّ حينما تكون على ضفاف الأنهار العظيمة.

وأخيراً - ولإكمال البحث في الآية اللاحقة - يقول سبحانه: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾[1].

نعم، لو أراد الله تعالى، للأملاح المذابة في مياه البحار أن تتبخّر مع ذرّات الماء، وتصعد إلى السماء معها وتشكّل غيوماً مالحة ومرّة، وتنزل قطرات المطر مالحة مرّة أيضاً كمياه البحر، فهل هنالك من قوّة تمنعه؟ ولكنّه بقدرته الكاملة لم يسمح للأملاح بذلك، ولا للمكروبات - أيضاً - أن تصعد إلى السماء مع بخار الماء، ولهذا فإنّ قطرات المطر عندما يكون الجوّ غير ملوّث تعتبر أنقى وأطهر وأعذب المياه.

«أُجاج»: من مادّة (أجّ) على وزن (حجّ) وقد أخذت في الأصل من «أجيج النار» يعني اشتعالها واحتراقها، ويقال «أُجاج» للمياه التي تحرق الفمّ عند شربها لشدّة ملوحتها ومرارتها وحرارتها.

نختتم حديثنا هذا بحديث لرسول الله ﷺ حيث ذكر الرواة أنّ النّبي كان إذا شرب الماء قال: «الحمد لله الذي سقانا عذباً فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أُجاجاً بذنوبنا»[2].

وأخيراً نصل إلى سابع - وآخر - دليل للمعاد في هذه السلسلة من الآيات الكريمة، وهو خلق النار التي هي أهمّ وسيلة لحياة الإنسان وأكثرها أهميّة له في المجالات الصناعية المختلفة، حيث يقول سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾.

---

(١) في هذه الجملة حذفت اللام وفي التقدير هكذا «لو نشاء لجعلناه».

(٢) تفسير المراغي، ج٢٧، ص١٤٨؛ وتفسير روح المعاني، ج٢٧، ص١٢٩.

﴿تُورُونَ﴾: من مادّة (ورى) على وزن (نفى) بمعنى الستر، ويقال للنار التي تكون مخفية في الوسائل التي لها القابلية على الاشتعال والتي تظهر بشرارة، ويقال «ورى» و«إيراء».

وتوضيح ذلك: إنّ لإشعال النار وإيجاد الشرارة الأُولى، والتي تستحصل اليوم بواسطة الكبريت والقداحات وما إلى ذلك، فإنّهم كانوا يحصلون عليها من الحديد والحجر المخصّص للقدح، حيث تظهر الشرارة بضرب الواحد بالآخر، أمّا أعراب الحجاز فكانوا يستفيدون من نوعين من الشجر الخاصّ الذي ينمو في الصحراء وهما (المرخ) و(العفار) حيث يأخذون قطعتي خشب ويضعون الأُولى أسفل والعفار فوقه فتتولّد الشرارة منها كما تتولّد من الحجر المستعمل للقدح.

وفسّر أغلب المفسّرين الآية بأنّها دليل آخر على قدرة الله البالغة في النار المخفية في خشب الأشجار الخضراء كمولّد للشرر والنار، في الوقت الذي تكون فيه الأشجار الخضراء مشبّعة بالماء، فأين الماء؟ وأين النار؟

هذا الخالق العظيم الذي يتميّز بهذه القدرة، الذي وضع الماء والنار جنباً إلى جنب، الواحد داخل الآخر، كيف لا يستطيع أن يلبس الموتى لباس الحياة، ويحييهم في الحشر.

وقد ورد دليل شبيه بهذا حول المعاد في آخر آيات سورة «يس» أيضاً يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾(١).

ولكن كما ذكرنا في تفسير الآية أعلاه فإنّ تعبير القرآن يمكن أن يكون إشارة إلى دليل أظرف، وهو حشر وتحرّر الطاقات وإنطلاقها.

وبتعبير آخر: فإنّ الحديث هنا ليس فقط عن (القادحات) بل عن المواد التي لديها قابلية الاشتعال - كالخشب والحطب - حيث تولّد عند احتراقها كلّ هذه الحرارة والطاقة.

وتوضيح ذلك: أنّه ثبت من الناحية العلمية أنّ النار التي نشاهدها اليوم عند احتراق الأخشاب هي نفس الحرارة التي أخذتها الأشجار من الشمس على مرّ السنين وادّخرتها في داخلها، فنحن نتصوّر أنّ أشعّة الشمس طيلة إشراقها على الشجر خلال خمسين سنة

---

(١) سورة يس، الآية: ٨٠.

قد ذهبت آثارها غافلين عن أنّ حرارتها قد ادّخرت في الشجرة، وعندما تصل شرارة النار إلى الأخشاب اليابسة تبدأ بالاحتراق وتطلق الحرارة الكامنة فيها.

وبذلك يكون هنا أيضاً معاد ومحشر وتحيا الطاقات من جديد مرّة أُخرى، ولسان حال الأشجار يقول: إنّ الخالق الذي هيّأ لنا الحشر قادر أن يُهيّئ لكم حشراً يابني البشر، (ولمزيد من الاطلاع في هذا المجال راجعوا البحث المفصّل الذي بيّناه في الآية من سورة يس).

جملة ﴿تُورُونَ﴾ - بمعنى إشعال النار - بالرغم من أنّها فسّرت هنا بما يستفاد منه توليد النار، إلاّ أنّه لا مانع من أن تشمل الأشياء المشتعلة أيضاً كالحطب باعتباره ناراً خفيّة تظهر وقت توفّر الشروط المناسبة لها.

ولا تنافي بين المعنيين، حيث المعنى الأوّل يفهمه العامّة من الناس، والثاني أدقّ، يتوضّح مع مرور الزمن وتقدّم العلم والمعرفة.

وفي الآية اللاحقة يضيف مؤكّداً الأبحاث أعلاه بقوله سبحانه: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾.

إنّ عودة النار من داخل الأشجار الخضراء تذكّرنا برجوع الأرواح إلى الأبدان في الحشر من جهة، ومن جهة أُخرى تذكّرنا هذه النار بنار جهنّم.

يقول الرّسول الأكرم ﷺ: «ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنّم»[(١)].

أمّا تعبير ﴿وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ فإنّه إشارة قصيرة ومعبّرة للفوائد الدنيوية لهذه النار، وقد ورد تفسيران لمعنى المقوين:

الأوّل: أنّ (مقوين) من مادّة (قواء) على وزن (كتاب) بمعنى الصحراء اليابسة المقفرة، ولهذا أُطلقت كلمة (المقوين) على الأشخاص الذين يسيرون في الصحاري، ولأنّ أفراد البادية فقراء، لذا فقد جاء هذا التعبير بمعنى «الفقير» أيضاً.

والتّفسير الثاني: أنّ (مقوين) من مادّة (قوّة) بمعنى أصحاب القوّة، وبناءً على هذا فإنّ المصطلح المذكور هو من الكلمات التي تستعمل بمعنيين متضادّين[(٢)].

---

(١) تفسير القرطبي، ج٩، ص٦٣٩٢؛ وتفسير روح المعاني، ج٢٧، ص١٣١.

(٢) من الجدير بالملاحظة أنّ كلمة (متاع) تطلق على كلّ وسيلة يستفيد منها الإنسان في حياته.

صحيح أنّ النار هي مورد استفادة الجميع - ولكن المسافرين يستفيدون منها ويعتمدون عليها في الدفء والطهي وخاصّة في أسفارهم في الأزمنة القديمة أكثر من الآخرين.

واستفادة «الأقوياء» من النار واضحة أيضاً، وذلك لاتّساع المجالات التي يستعملون النار فيها في أُمور حياتهم المختلفة، خصوصاً مع اتّساع دائرة البحث العلمي كما في عالمنا المعاصر، حيث إنّ الحرارة الناشئة من أنواع النار تحرّك عجلة المصانع العظيمة، وإذا ما تعطّلت هذه الوسيلة المهمّة وانطفأت شعلتها العظيمة - والتي جميعها من الشجر - بما في ذلك النار المأخوذة من الفحم الحجري أو المواد النفطية حيث ترجع إلى النباتات بصورة مباشرة أو غير مباشرة - فإنّها ستعطّل الحياة المدنية، بل وستطفئ حياة الإنسان أيضاً.

وبدون شكّ فإنّ النار من أهمّ اكتشافات البشر، في حين أنّ الله تعالى هو الذي أوجدها ودور الإنسان فيها بسيط وعادي جدّاً.

لقد قفز اكتشاف النار بالإنسانية مرحلة مهمّة حيث بدأت تسير من ذلك الوقت في مراحل جديدة من التمدّن والرقي.

نعم هذه الحقائق جميعاً عبّر عنها القرآن الكريم بجملة قصيرة: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾.

وممّا يجدر ذكره أنّ الآية أعلاه استعرضت في البداية الفوائد المعنوية للنار، والتي تذكّرنا بيوم القيامة، والتي هي محور الحديث في هذا البحث، ثمّ انتقلت إلى ذكر تفاصيل الفوائد الدنيوية لها، لأنّ للناحية الأُولى أهميّة أكثر، بل تمثّل الأصل والأساس في البحث.

بعد ذكر النعم الثلاث (الحبوب الغذائية، والماء، والنار) والتي روعي ترتيب أهميّتها وفق تسلسل طبيعي - لأنّ اهتمام الإنسان يبدأ أوّلاً بالحبوب الغذائية ثمّ يمزجها بالماء ومن ثمّ يطهوها ويهيئها للغذاء بواسطة النار - يستنتج سبحانه نتيجة مهمّة بعد ما ركّز على أهميّة هذه النعم للإنسان وذلك بتسبيحه والشكر له تعالى باعتباره المصدر الوحيد لهذه النعم... فيقول سبحانه في آخر آية مورد البحث: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾[1].

---

(١) الباء في ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ يمكن أن تكون للتعدية (حيث إنّ الفعل المتعدّي سبّح يؤخذ بمنزلة اللازم) واحتمل البعض أيضاً أنّ الباء هنا جاءت للاستعانة أو زائدة أو ملابسة، إلاّ أنّ المعنى الأوّل هو الأنسب.

نعم، إنّ الله الذي خلق كلّ هذه النعم، والتي كلّ منها تذكّرنا بقدرته وتوحيده وعظمته ومعاده، لائق للتسبيح والتنزيه من كلّ عيب ونقص.

إنّه ربّ، وكذلك فإنّه «عظيم» وقادر ومقتدر، وبالرغم من أنّ المخاطب في هذه الآية هو الرّسول الأعظم ﷺ إلاّ أنّ من الواضح أنّ جميع البشر هم المقصودون.

تعقيب:

من المناسب هنا الإشارة إلى بعض الأحاديث الشريفة - حول الآيات أعلاه - عن الرّسول الأعظم ﷺ وكذلك عن الإمام علي عليه السلام.

أوّلاً: نقرأ في تفسير روح المعاني حديثاً للإمام علي عليه السلام أنّه في إحدى الليالي كان الإمام يصلّي ويقرأ سورة الواقعة - ولمّا وصل إلى الآية: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾ قال ثلاث مرّات: - بعد انتهاء صلاته «بل أنت ياربّ» وعندما وصل إلى الآية: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ قال ثلاث مرّات «بل أنت ياربّ» وعندما وصل إلى قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ قال ثلاث مرّات أيضاً «بل أنت ياربّ» ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ قل ثلاث مرّات «بل أنت ياربّ»[(١)].

وموضع العبرة في هذا الحديث هي ضرورة ملاحظة هذه الآيات التي وردت في القرآن الكريم بعنوان استفهام تقريري وأن يعطي الإنسان جواباً إيجابياً لله سبحانه الذي يتحدّث معه لتركيز هذه الحقائق في روحه ونفسه، وعليه أن يتعمّق في ذلك من خلال القراءة المتدبّرة الواعية، ولا يقتنع بالتلاوة الفارغة.

ثانياً: جاء في حديث رسول الله ﷺ أنّه قال: «لا تمنعوا عباد الله فضل ماء ولا كلأ ولا نار فإنّ الله تعالى جعلها متاعاً للمقوين، وقوّة للمستضعفين»[(٢)].

ثالثاً: ونقرأ في حديث آخر أنّ الرّسول ﷺ قال حينما نزلت الآية الكريمة: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾: «اجعلوها في ركوعكم»[(٣)]، أي قولوا في ركوعكم: سبحان ربّي العظيم وبحمده.

---

(١) تفسير روح المعاني، ج٢٧، ص١٣٠. (٢) تفسير الدرّ المنثور، ج٦، ص١٦١.

(٣) ذكر هذا الحديث المرحوم الطبرسي في مجمع البيان بكونه حديثاً صحيحاً، ج٩، ص٢٢٤، وجاء أيضاً في كتاب (من لا يحضره الفقيه) مطابقاً لنقل نور الثقلين، ج٥، ص٢٢٥، وكذلك في تفسير الدرّ المنثور، ج٦، ص١٦٨.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾
إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾
تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ
أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

التّفسير

المطهّرون ومعرفة أسرار القرآن

استمراراً للأبحاث التي جاءت في الآيات السابقة، والتي تركّز الحديث فيها حول الأدلّة السبعة الخاصّة بالمعاد، ينتقل الحديث الآن عن أهميّة القرآن الكريم باعتباره يشكّل مع موضوع النبوّة ركنين أساسيين بعد مسألة المبدأ والمعاد والتي بمجموعها تمثّل أهمّ الأركان العقائدية، فبالإضافة إلى أنّ للقرآن الكريم أبحاثاً عميقة حول أصلي التوحيد والمعاد، فإنّه يعتبر تحكيماً لهذين الأصلين.

يبدأ الحديث بقسم عظيم، حيث يقول سبحانه: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾.

يعتقد الكثير من المفسّرين أن (لا) التي جاءت هنا ليست بمعنى النفي حيث إنّها زائدة وللتأكيد، كما جاء نفس هذا التعبير في الآيات القرآنية الأُخرى حول القسم بيوم القيامة والنفس اللوامة وربّ المشارق والمغارب والشفق، وما إلى ذلك.

في الوقت الذي اعتبر البعض الآخر أنّ (لا) هنا جاءت للنفي، حيث قالوا: إنّ المطلب (مورد القسم) أهمّ من أن يقسم به، كما نقول في تعبيراتنا اليوميّة: نحن لا نقسم بالموضوع الفلاني، أي نفي القسم وأنّ (لا) هنا جاءت إشارة لذلك.

إلاّ أنّ التّفسير الأوّل هو الأنسب حسب الظاهر، لأنّه قد ورد في القرآن الكريم القسم بالله صراحة، فهل أنّ النجوم أفضل من الذات الإلهيّة حتى لا يقسم بها؟

وحول (مواقع النجوم) فقد ذكر المفسّرون تفسيرات عديدة لها:

الأوّل: هو المعنى المتعارف عليه من حيث مداراتها وأبراجها ومسيرها.

والآخر: هو أنّ المقصود بذلك مواقع طلوعها وغروبها.

والثّالث: هو سقوط النجوم في الحشر والقيامة.

وفسّرها آخرون: بأنّ معناه هو غروب النجوم فقط.

واعتبرها آخرون إشارة وانسجاماً مع قسم من الرّوايات حول نزول آيات وسور القرآن الكريم في فواصل زمنية مختلفة، وذلك لأنّ «النجوم» جمع نجمة تستعمل للأعمال التي تنجز بصورة تدريجيّة.

وبالرغم من أنّ المعاني لا تتنافى حيث يمكن جمعها في الآية أعلاه، إلاّ أنّ التّفسير الأوّل هو الأنسب حسب الظاهر، وذلك لأنّ أكثر الناس كانوا لا يعلمون أهميّة هذا القسم عند نزول الآيات، بعكس الحالة اليوم، والتي توضّح لنا أنّ لكلّ نجمة من النجوم مكانها المخصّص ومدارها ومسارها المحدّد لها بدقّة وحساب، وذلك طبقاً لقانون الجاذبية، وإنّ سرعة السير لكلّ منها محدّدة أيضاً وفق قانون معيّن وثابت.

وهذه المسألة بالرغم من أنّها غير قابلة للحساب بصورة دقيقة في الأجرام السماوية البعيدة، إلاّ أنّ المجاميع الموجودة في المنظومة الشمسية التي تشكّل النجوم القريبة لنا، قد درست بدقّة وتبيّن أنّ نظام مداراتها دقيق إلى حدّ مدهش.

وعندما يلاحظ الإنسان - طبقاً لتصريحات العلماء - أنّ في (مجرّتنا) فقط ألف مليون نجمة، وتوجد في الكون مجرّات كثيرة، وكلّ واحدة منها لها مسار خاصّ، عندئذ ستتوضّح لنا أهميّة هذا القسم القرآني.

ونقرأ في كتاب (الله والعلم الحديث) ما يلي:

«يعتقد العلماء الفلكيون أنّ هذه النجوم التي تتجاوز الملياردات، والتي نرى قسماً منها بالعين المجرّدة، والقسم الكثير منها لا يمكن رؤيته إلاّ بالتلسكوبات بل إنّ قسماً منها لا نستطيع مشاهدته حتى بالتلسكوبات، اللهمّ إلاّ بوسائل خاصّة نستطيع أن نصوّرها بها.

كلّ من هذه النجوم تدور في مدارها الخاصّ، ولا يوجد أي احتمال أنّ واحدة منها تكون في حقل الجاذبية لنجمة أُخرى، أو أنّ بعضها يصطدم بالبعض الآخر، وفي الواقع أنّ حالة التصادم المفترضة مثل ما لو افترضنا أنّ سفينة في المحيط الهادئ تصطدم مع سفينة أُخرى تجري في البحر الأبيض المتوسّط وكلّ منها سائرة بموازاة الأُخرى وبسرعة واحدة... إنّ هذا الأمر لو لم يكن محالاً فهو بعيد جدّاً، كذلك الأمر بالنسبة للنجوم حيث إنّ كلاًّ منها لها مدارها الخاصّ بها ولن تصطدم بالأُخرى رغم السرعة الهائلة لكلّ منها»[1].

---

(١) الله والعلم الحديث، ص٣٣.

وبالنظر إلى هذه الاكتشافات العلمية عن وضع النجوم، تتوضّح أهميّة القسم أعلاه، ولهذا السبب فإنّه تعالى يضيف في الآية اللاحقة: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

التعبير بـ ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ يوضّح وبشكل جليّ أنّ معرفة البشر في ذلك الزمان لم تدرك هذه الحقيقة بصورة كاملة، وهذه بحدّ ذاتها تعتبر إعجازاً علمياً للقرآن الكريم، حيث في الوقت الذي كانت تعتبر النجوم عبارة عن مسامير فضائية رصّعت السماء بها فإنّ مثل هذا البيان القرآني الرائع في ظلّ ظروف وأوضاع يخيّم عليها الجهل، محال أن يصدر من بشر عادي.

وتوضّح الآية اللاحقة ما هو المقصود من ذكر هذا القسم؟ حيث يقول سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾.

وبهذه الصورة فإنّه يردّ على المشركين المعاندين الذين يصرّون باستمرار على أنّ هذه الآيات المباركة هي نوع من التكهّن - والعياذ بالله - أو أنّه حديث جنوني أو شعر، أو أنّه من قبل الشيطان... فيردّ عليهم سبحانه بأنّه وحي سماوي وحديث بيّن وعظمته وأصالته لا غبار عليها، ومحتواه يعبّر عن مبدأ نزوله، وأنّ هذا الموضوع واضح بحيث لا يحتاج لبيان المزيد.

إنّ وصف القرآن بـ «الكريم» (بما أنّ الكرم بالنسبة لله هو: الإحسان والإنعام، ويستعمل للبشر بمعنى اتّصاف الشخص بالأخلاق والإحسان، وبصورة عامّة فهو إشارة إلى المحاسن العظيمة)[1] إشارة للجمال الظاهري للقرآن من حيث الفصاحة وبلاغة الألفاظ والجمل، وكذلك فإنّها إشارة لمحتواه الرائع، لأنّه نزل من قبل مبدأ ومنشأ كلّه كمال وجمال ولطف.

نعم، إنّ القرآن كريم وقائله كريم ومن جاء به كذلك، وأهدافه كريمة أيضاً.

ثمّ يستعرض الوصف الثاني لهذا الكتاب السماوي العظيم حيث يقول تعالى: ﴿فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾.

إنّه في «لوح محفوظ» في علم الله، محفوظ من كلّ خطأ وتغيير وتبديل، وطبيعي أنّ الكتاب الذي يستلهم مفاهيمه وأفكاره من المبدأ الأعلى وأصله عند الله، فإنّه مصون من كلّ تحريف وخطأ واشتباه.

---

(١) الراغب في المفردات مادّة (كريم).

وفي ثالث وصف له يقول سبحانه: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[١].

ذكر الكثير من المفسّرين - تماشياً مع بعض الرّوايات الواردة عن الأئمّة المعصومين - بعدم جواز مسّ (كتابة) القرآن الكريم بدون غسل أو وضوء.

في الوقت الذي اعتبر بعض آخر أنّها إشارة إلى الملائكة المطهّرين الذين لهم علم بالقرآن، ونزلت بالوحي على قلب الرّسول ﷺ في مقابل قول المشركين الذين كانوا يقولون: إنّ هذه الكلمات قد نزلت بها الشياطين على محمّد ﷺ.

كما اعتبر بعضهم أنّها إشارة إلى أنّ الحقائق والمفاهيم العالية في القرآن الكريم لا يدركها إلاّ المطهّرون، كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٢].

وبتعبير آخر فإنّ طهارة الروح في طلب الحقيقة تمثّل حدّاً أدنى من مستلزمات إدراك الإنسان لحقائق القرآن، وكلّما كانت الطهارة والقداسة أكثر كان الإدراك لمفاهيم القرآن ومحتوياته بصورة أفضل.

إنّ التفاسير الثلاثة المارّة الذكر لا تتنافى مع بعضها البعض أبداً ويمكن جمعها في مفهوم الآية مورد البحث.

وفي رابع وآخر وصف للقرآن الكريم يقول تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣] إنّ الله المالك والبارئ لجميع الخلق، قد نزّل هذا القرآن لهداية البشر، وقد أنزله سبحانه على قلب النّبي الطاهر، وكما أنّ العالم التكويني صادر منه وهو تعالى ربّ العالمين فكذلك الحال في المجال التشريعي، فكلّ نعمة وهداية فمن ناحيته ومن عطائه.

ثمّ يضيف سبحانه: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ هل أنتم بهذا القرآن وبتلك الأوصاف المتقدّمة تتساهلون، بل تنكرونه وتستصغرونه في حين تشاهدون الأدلّة الصادقة والحقّة بوضوح، وينبغي لكم التسليم والقبول بكلام الله سبحانه بكلّ جديّة، والتعامل مع هذا الأمر كحقيقة لا مجال للشكّ فيها.

عبارة «هذا الحديث» في الآية الكريمة إشارة للقرآن الكريم، و﴿مُّدْهِنُونَ﴾ في الأصل

(١) ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ جملة خبرية يمكن أن تكون بمعنى النهي أو النفي.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢.
(٣) تنزيل هنا مصدر بمعنى اسم مفعول أي (منزل) وهو خبر لمبتدأ محذوف، أو أنّه خبر بعد خبر.

من مادّة (دهن) بالمعنى المتعارف عليه، ولأنّ الدهن يستعمل للبشرة وأمور أُخرى، فإنّ كلمة (أدهان) جاءت بمعنى المداراة والمرونة، وفي بعض الأحيان بمعنى الضعف وعدم التعامل بجدية. . . ولأنّ المنافقين والكاذبين غالباً ما يتّصفون بالمداراة والمصانعة، لذا استعمل هذا المصطلح أحياناً بمعنى التكذيب والإنكار، ويحتمل أن يكون المعنيان مقصودين في الآية.

والأصل في الإنسان أن يتعامل بجديّة مع الشيء الذي يؤمن به، وإذا لم يتعامل معه بجديّة فهذا دليل على ضعف إيمانه به أو عدم تصديقه.

وفي آخر آية - مورد البحث - يقول سبحانه إنّكم بدلاً من أن تشكروا الله تعالى على نعمه ورزقه وخاصّة نعمة القرآن الكبيرة، فإنّكم تكذّبون به: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[1].

قال البعض: إنّ المقصود أنّ استفادتكم من القرآن هي تكذيبكم فقط، أو أن التكذيب تجعلونه وسيلة لرزقكم ومعاشكم[2].

إلاّ أنّ التّفسير الأوّل مناسب للآيات السابقة ولسبب النّزول أكثر من التّفسيرين الأخيرين.

وانسجاماً مع هذا الرأي فقد نقل كثير من المفسّرين عن ابن عبّاس قوله: أصاب الناس عطش في بعض أسفاره ﷺ فسقوا، فسمع رجلاً يقول: مطرنا بنوء كذا، فنزلت الآية (لأنّ العرب كانوا يعتقدون في الجاهلية بالأنواء وأنّ لها الأثر في نزول المطر، ويقصد بها النجوم التي تظهر بين آونة وأُخرى في السماء، وأنّ ظهورها يصاحبه نزول المطر، كما يعتقدون، ولهذا يقولون: مطرنا بنوء كذا، أي ببركة طلوع النجم الفلاني، وهذا بذاته أحد مظاهر الشرك الجاهلي وعبادة النجوم)[3].

والنقطة الجديرة بالملاحظة هنا أنّه جاء في بعض الرّوايات عن رسول الله ﷺ أنّه قلّما كان يفسّر الآيات، وإجمالاً كان يتصدّى للتفسير عندما تستلزم الضرورة، كما في

---

(١) طبقاً لهذا التّفسير فإنّ كلمة (شكر) هنا محذوفة وتقديرها كالتالي: «وتجعلون شكر رزقكم أنّكم تكذّبون»، أو أنّ الرزق كناية عن (شكر الرزق).

(٢) طبقاً لهذين التّفسيرين فلا يوجد شيء مقدّر.

(٣) نقل هذا الحديث الطبرسي في مجمع البيان ونقل أيضاً في الدرّ المنثور، ج٦، ص١٦٣؛ والقرطبي، ج٩، ص٦٣٩٨؛ والمراغي، ج٢٧، ص١٥٢؛ وروح المعاني، ج٢٧، ص١٥٣ في نهاية الآيات مورد البحث باختلاف يسير.

هذا المورد حيث أخبر ﷺ أنّ المقصود من ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ «وتجعلون شكركم أنّكم تكذّبون»(١).

تعقيب:

أوّلاً: خصوصية القرآن الكريم

يستنتج من الأوصاف الأربعة - التي ذكرت في الآيات أعلاه - حول القرآن، أنّ عظمة القرآن هي في عظمة محتواه من جهة، وعمق معناه من جهة أُخرى، ومن جهة ثالثة فإنّ القداسة القرآنية لا يستوعبها إلاّ الطاهرون والمؤمنون، ومن جهة رابعة: في الجانب التربوي المتميّز فيه، لأنّه نزل من ربّ العالمين، وكلّ واحدة من هذه الصفات تحتاج إلى بحث مفصّل أوضحناه في نهاية الآيات المناسبة لكلّ موضوع.

ثانياً: القرآن والطهارة

نقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ وقلنا: إنّ المسّ يفسّر بالمسّ الظاهري وبالمعنوي كذلك، ولا تضادّ بينهما، وهما مجموعان في المفهوم الكلّي للآية.

وفي القسم الأوّل نقلت روايات لأهل البيت عليهم السلام عن أبي الحسن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال: (المصحف لا تمسّه على غير طهر ولا جنب ولا تمسّ خطّه ولا تعلّقه إنّ الله تعالى يقول: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾(٢).

ونقل نفس المعنى في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام مع اختلاف مختصر(٣).

وجاء في مصادر أهل البيت عليهم السلام من طرق مختلفة أنّ الرّسول الأعظم ﷺ قال: «لا يمسّ القرآن إلاّ الطاهر»(٤).

وحول اللمس المعنوي نقل عن ابن عبّاس عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «إنّه لقرآن

---

(١) تفسير الدرّ المنثور، ج٦، ص١٦٣؛ ونور الثقلين، ج٥، ص٢٢٧.

(٢) وسائل الشيعة، ج١، ص ٢٦٩، ح ٣، وطبقاً لهذا الحديث فإنّ النفي في الآية أعلاه كناية عن النهي.

(٣) وسائل الشيعة، ج ١، ص ٢٧٠، ح ٥.

(٤) نقل هذا الحديث في الدرّ المنثور عن عبد الله بن عمر ومعاذ بن جبل وابن حزم الأنصاري عن رسول الله ﷺ: ج ٩، ص ١٦٢.

كريم في كتاب مكنون» قال: «عند الله في صحف مطهّرة» ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ قال: «المقرّبون»[1].

وهذا المعنى يمكن الاستدلال عليه بواسطة العقل أيضاً، لأنّه رغم أنّ القرآن الكريم هو كتاب هداية لعموم الناس، ولكنّنا نعلم أنّ الكثير ممّن سمعوا القرآن من فم النّبي الأكرم، ورأوا هذا الماء الزلال في عين الوحي الصافية، إلاّ أنّهم بسبب تلوّثهم بالعصبية والعناد والغرور لم يؤثّر فيهم أي تأثير ولم ينتفعوا به أقلّ انتفاع، وهناك أشخاص اهتدوا به لمجرّد أنّهم سعوا ولو قليلاً لتطهير أنفسهم وتهذيبها وجاؤوا إلى القرآن بروح باحثة عن الحقّ والحقيقة، فعلى هذا كلّما ازدادت طهارة وتقوى الإنسان فإنّه مرشّح لاستيعاب المفاهيم القرآنية بصورة أعمق، ومن هنا فإنّ الآية تصدق في البعدين (المادّي والمعنوي) و(الجسمي والروحي).

وممّا لا شكّ فيه أنّ شخص الرّسول ﷺ والأئمّة المعصومين عليهم السلام والملائكة المقرّبين هم أوضح مصداق للمقرّبين الذين أدركوا حقائق القرآن الكريم بصورة متميّزة عن الجميع.

﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾

التّفسير

عندما تصل الروح إلى الحلقوم

من اللحظات الحسّاسة التي تقلق الإنسان دائماً هي لحظة الاحتضار ونهاية العمر، في تلك اللحظة يكون كلّ شيء قد انتهى، وقد جلس أهله وأحبّاؤه ينظرون إليه بيأس كشمعة قد انتهى أمدها وستنطفىء رويداً رويداً، حيث يودّع الحياة دون أن يستطيع أحد أن يمدّ إليه يد العون.

نعم، إنّ الضعف التامّ للإنسان يتجسّد في تلك اللحظات الحسّاسة ليس في العصور

(١) تفسير الدرّ المنثور، ج٦، ص١٦٢.

القديمة فحسب بل حتى في عالمنا المعاصر، فمع توفّر جميع الإمكانات الطبيّة والفنيّة والوسائل العلاجية فإنّ الضعف يتجلّى في ساعة الاحتضار.

وتكملة لأبحاث المعاد والردّ على المنكرين والمكذّبين فإنّ القرآن الكريم يرسم لنا صورة معبّرة ومجسّدة لهذه اللحظات حيث يقول سبحانه: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾ ولا تستطيعون عمل شيء من أجله[1].

والمخاطبون هنا هم أقارب المحتضر الذين ينظرون إلى حالته في ساعة الاحتضار من جهة، ويلاحظون ضعفه وعجزه من جهة ثانية، وتتجلّى لهم قدرة الله تعالى على كلّ شيء، حيث إنّ الموت والحياة بيده، وأنّهم - أي أقاربه - سيلاقون نفس المصير[2].

ثمّ يضيف سبحانه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾.

نعم، نحن الذين نعلم بصورة جيّدة ما الذي يجول في خواطر المحتضر؟ وما هي الإزعاجات التي تعتريه؟ نحن الذين أصدرنا أمرنا بقبض روحه في وقت معيّن، إنّكم تلاحظون ظاهر حاله فقط، ولا تعلمون كيفية انتقال روحه من هذه الدار إلى الدار الآخرة، وطبيعة المخاضات الصعبة التي يعيشها في هذه اللحظة.

وبناءً على هذا فالمقصود من الآية هو: قرب الله عزّوجلّ من الشخص المحتضر، بالرغم من أنّ البعض احتمل المقصود بالقرب (ملائكة قبض الروح) إلاّ أنّ التّفسير الأوّل منسجم مع ظاهر الآية أكثر.

وعلى كلّ حال فإنّ الله سبحانه ليس في هذه اللحظات أقرب إلينا من كلّ أحد، بل هو في كلّ وقت كذلك، بل هو أقرب إلينا حتى من أنفسنا، بالرغم من أنّنا بعيدون عنه نتيجة غفلتنا وعدم وعينا، ولكن هذا المعنى في لحظة الاحتضار يتجلّى أكثر من أي وقت آخر.

ثمّ للتأكيد الأشدّ في توضيح هذه الحقيقة يضيف تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

إنّ ضعفكم هذا دليل أيضاً على أنّ مالك الموت والحياة واحد، وأنّ الجزاء بيده، وهو الذي يحيي ويميت.

---

(١) للآية محذوف تقديره (فلولا إذا بلغت الحلقوم لا ترجعونها ولا تملكون شيئاً) وهذا ما يستفاد من الآيات اللاحقة وقد لحقت تاء التأنيث بالفعل لأنّها متعلّقة بالنفس.

(٢) احتمل البعض أنّ المخاطب هنا هو الشخص المحتضر، وهذا بعيد جدّاً حسب الظاهر، لأنّ الآية اللاحقة توضّح بصورة جيّدة أنّ المخاطب هم متعلّقو المحتضر.

﴿مَدِينِينَ﴾: جمع (مدين) من مادّة (دَين) بمعنى الجزاء، وفسّرها البعض بمعنى المربوبين. والمعنى هو: يا أيّها العباد، إن كنتم تحت ربوبية موجود آخر، ومالكي نواصي أُموركم، فارجعوا أرواحكم التي قبضناها، وهيهات تقدرون! وهذا دليل آخر على أنّكم في قبضة الحكومة الإلهيّة.

تعقيب:

١ - لحظة ضعف الجبّارين

إنّ الهدف من هذه الآيات - في الحقيقة - هو بيان قدرة الله عَزَّوَجَلَّ على مسألة الموت والحياة، كي ينتقل منها إلى مسألة المعاد واختيار لحظات الاحتضار والموت هنا لظهور غاية الضعف الإنساني بالرغم من كلّ القوّة التي يتصوّرها لنفسه.

ومن المفيد أن نستعرض بعض حالات الجبّارين لحظة احتضارهم بالرغم من أنّهم كانوا في أوج القدرة حتى يتّضح المعنى العميق لهذه الآية بصورة أفضل.

حكى المسعودي في مروج الذهب في أخبار المأمون وغزاته أرض الروم ما هذا ملخّصه: وانصرف من غزاته إلى منزل على (عين البديدون) المعروفة بالقشيرة فأقام هنالك، فوقف على العين فأعجبه برد مائها وصفاؤه وبياضه وطيب حسن الموضع، وكثرة الخضرة فأمر بقطع خشب طويل منبسط على العين كالجسر، وجعل فوقه كالأزج من الخشب وورق الشجر، وجلس تحت الكنسية التي عقدت له، والماء تحته، وطرح في الماء درهماً صحيحاً، فقرأ كتابته وهو في قرار الماء لصفاء الماء، ولم يقدر أحد أن يدخل يده من شدّة برده.

فبينما هو كذلك إذ لاحت سمكة نحو الذراع كأنّها سبيكة فضّة، فجعل لمن يخرجها سيفاً فبدر بعض الفراشين فأخذها وصعد فلمّا صارت على جرف العين أو على الخشب الذي عليه المأمون اضطربت وانفلتت من يد الفراش فوقعت في الماء كالحجر، فنضح من الماء على صدر المأمون ونحره وترقوته فبلّت ثوبه، ثمّ انحدر الفرّاش ثانية فأخذها ووضعها بين يدي المأمون في منديل تضطرب، فقال المأمون: تقلى الساعة ثمّ أخذته رعدة من ساعته، فلم يقدر أن يتحرّك من مكانه، فغطّي باللحف والدواويج وهو يرتعد كالسعفة ويصيح: البرد البرد، ثمّ حوّل إلى المغرب ودثّر وأُوقدت النيران حوله وهو يصيح: البرد البرد، ثمّ أُتي بالسمكة وقد فرغ من قليها فلم يقدر على الذوق منها وشغله ما هو فيه عن تناول شيء منها.

ولمّا اشتدّ به الأمر سأل المعتصم بختيشوع وابن ماسويه في ذلك الوقت عن المأمون وهو في سكرات الموت، وما الذي يدلّ عليه علم الطبّ من أمره، وهل يمكن برؤه وشفاؤه، فتقدّم ابن ماسويه وأخذ إحدى يديه وبختيشوع الأُخرى، وأخذا يجسّان كلتا يديه فوجدا نبضه خارجاً عن الاعتدال منذراً بالفناء والانحلال، والتزقت أيديهما ببشرته لعرق كان يظهر منه من سائر جسده كالزيت أو كلعاب بعض الأفاعي، فأخبر المعتصم بذلك، فسألهما عن ذلك فأنكرا معرفته، وأنّهما لم يجداه في شيء من الكتب وأنّه دالّ على انحلال الجسد، فأحضر المعتصم الأطباء حوله وهو يأمل خلاصه ممّا هو فيه، فلمّا ثقل قال: أخرجوني أشرف على عسكري وأنظر إلى رحالي وأتبيّن ملكي، وذلك في الليل، فأُخرج فأشرف على الخيم والجيش وانتشاره وكثرته وما قد وقد من النيران، فقال: يا من لا يزول ملكه، ارحم من زال ملكه، ثمّ ردّ إلى مرقده وأجلس المعتصم رجلاً يشهّده.

ولمّا ثقل رفع الرجل صوته ليقولها (أي الشهادة) فقال له ابن ماسويه: لا تصح فوالله ما يفرّق بين ربّه وبين ماني في هذا الوقت، ففتح عينيه من ساعته وبهما من العظمة والكبر والاحمرار ما لم ير مثله قطّ، وأقبل يحاول البطش بيديه بابن ماسويه، ورام مخاطبته فعجز عن ذلك، وقضى عن ساعته وذلك لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثمان عشرة ومائتين وحمل إلى طرطوس فدفن بها(١).

ويحتمل أن يكون لمرضه سابقة، ويقول بعض المؤرخّين: إنّ كلّ شخص شرب من ماء تلك العين مرض، أو أنّ السمكة كانت تحتوي على رشح سامّ، وكيفما كان فإنّ الحكومة بتلك العظمة قد انهارت في بضع لحظات، وانحنى بطل ميادين الحرب أمام شراع الموت، ولم تكن القدرة لأي شخص أن يصنع شيئاً للمأمون، أو على الأقل ليوصله إلى مقرّه ومسكنه.

وللتاريخ خواطر وقصص كثيرة فيها دروس وعبر من هذا القبيل.

٢ - هل أنّ قبض الروح يكون تدريجيّاً؟

إنّ التعبير بوصول الروح إلى الحلقوم كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ كناية عن آخر لحظات الحياة، كما أنّه من المحتمل أن يكون منشؤها هو أنّ غالبية

---

(١) مروج الذهب، طبقاً لنقل سفينة البحار، ج١، ص٤٤.

أعضاء جسم الإنسان كالأيدي والأرجل تتعطّل عند الموت قبل بعض الأعضاء الأُخرى، والحلقوم هو العضو الأخير الذي يتوقّف عن العمل، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾(١)، (والترقوة) هي العظام التي تحيط بأطراف الحلق.

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

التّفسير

مصير الصالحين والطالحين

هذه الآيات في الحقيقة نوع من الخلاصة للآيات الأُولى والأخيرة من هذه السورة، كما أنّها تجسّد حالة التفاوت بين البشر في حالة الاحتضار، وكيف أنّ قسماً منهم يلفظون أنفاسهم بهدوء وراحة في تلك اللحظات الصعبة، وآخرين تلوح لهم من بعيد النار الحامية، ويسيطر عليهم الخوف والاضطراب والهلع فيلفظون أنفاسهم بصعوبة بالغة.

يقول سبحانه في البداية: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

«روح»: على وزن (قول) - كما ذكر ذلك أئمّة اللغة - في الأصل بمعنى التنفّس.

«الريحان»: بمعنى النبات أو الشيء ذي العطر، ثمّ اصطلح على كلّ شيء باعث للحياة والراحة، كما أنّ الريحان يطلق على كلّ نعمة ورزق كريم.

وبناءً على هذا فإنّ الروح والريحان الإلهيين يشملان كلّ وسائل الراحة والطمأنينة للإنسان، وكلّ نعمة وبركة إلهيّة.

وبتعبير آخر: يمكن القول أنّ الروح إشارة إلى كلّ الأُمور التي تخلّص الإنسان من الصعوبات ليتنفّس براحة، وأمّا الريحان فإنّه إشارة إلى الهبات والنعم التي تعود إلى الإنسان بعد إزالة العوائق.

---

(١) سورة القيامة، الآية: ٢٦.

وقد ذكر المفسّرون الإسلاميون تفاسير متعدّدة لهذين المصطلحين قد تصل إلى عشرة تفاسير:

فقالوا: «الروح» بمعنى الرحمة، و«الريحان» يشمل كلّ فضيلة وشرف.

وقالوا: إنّ الروح هي النجاة من نار جهنّم، والريحان دخول الجنّة.

وذكروا أيضاً أنّ الروح بمعنى الهدوء في القبر، والريحان دخول الجنّة.

وفسّر آخرون الروح بمعنى كشف الكروب، والريحان بمعنى غفران الذنوب.

وقال آخرون: الروح بمعنى النظر إلى وجه الله سبحانه، والريحان الاستماع إلى كلام الله. وما إلى ذلك.

ويمكن القول أنّ جميع هذه التفاسير مصاديق لهذا المفهوم الكلّي والجامع، والذي ذكر في تفسير الآية أعلاه.

والجدير بالملاحظة أنّ الحديث عن «جنّة النعيم» جاء بعد ذكر الروح والريحان وقد يستفاد من هذا أنّ الروح والريحان يكون من نصيب المؤمنين في الاحتضار والقبر والبرزخ، وأمّا الجنّة ففي الآخرة، كما نقرأ في حديث للإمام الصادق عليه السلام في تفسيره لهذه الآية حيث قال: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴿٨٩﴾﴾ يعني في قبره ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ يعني في الآخرة[1] [2].

ثمّ يضيف سبحانه: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ وهم تلك الثلّة الصالحة من الرجال والنساء الذين يستلمون صحيفة أعمالهم بيدهم اليمنى كعلامة للفوز والنصر والنجاح ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾.

وبهذا الترتيب فإنّ ملائكة الله المختصّين بقبض الروح في لحظات الانتقال من هذه الدنيا يوصلون سلام أصحاب اليمين إلى المحتضر. كما قال تعالى في وصف أهل الجنّة وكلامهم: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾[3].

ويوجد احتمال آخر أيضاً في تفسير هذه الآية وهو أنّ السلام يكون من قبل الملائكة

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٢٨، ح ١٠٣، ١٠٤.

(٢) «روح» من الممكن أن تكون خبراً لمبتدأ محذوف تقديره (فجزاؤه روح)، أو مبتدأ لخبر محذوف تقديره (فله روح)، وجملة ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ تكون جزاء (أمّا) وانّ الشرطية مع وجود هذا الجزاء مستغنية من الجزاء الآخر (يرجى الانتباه).

(٣) سورة الواقعة، الآية: ٢٦.

حين يقولون له: سلام عليك أيّها العبد الصالح، يامن هو من أصحاب اليمين، أي يكفيك من الافتخار والوصف أن تكون في صفّ هؤلاء[(١)].

وتبيّن بعض الآيات القرآنية الأُخرى أيضاً أنّ المؤمنين وهم في حالة الاحتضار يتلقّون سلاماً من الملائكة كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٢)].

وعلى كلّ حال فإنّ تعبير (سلام) تعبير ذو معنى، سواء كان من الملائكة أو من أصحاب اليمين، فالسلام يعبّر عن الروح والريحان وكلّ أنواع الهدوء والنعمة والسلامة[(٣)].

وينبغي الانتباه إلى أنّ التعبير بـ﴿أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ سببه أنّ الإنسان في الغالب يتصدّى لإنجاز أعماله الأساسية والمهمّة بيده اليمنى، لذلك فإنّ اليد اليمنى دلالة القدرة، والمهارة والقابلية والنجاح.

ونقرأ في حديث للإمام الباقر عليه السلام في تعقيبه على نهاية هذه الآية أنّه قال: «هم شيعتنا ومحبّونا»[(٤)].

ثمّ تستعرض الآيات الكريمة القسم الثالث الذين مرّ ذكرهم في أوائل هذه السورة عبر التصنيف الذي ذكر واصطلح عليهم بـ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ حيث يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾[(٥)].

نعم، إنّهم على مشارف الموت حيث يذوقون أوّل عذاب إلهي، ويتجرّعون مرارة عقاب يوم القيامة في القبر والبرزخ، ولأنّ الحديث عن حال المحتضر فإنّ جملة ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ من الأنسب أن يكون المراد منها هو عذاب البرزخ، ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ إشارة إلى عذاب يوم القيامة.

---

(١) وبناءً على هذا فللآية تقديران: الأوّل بلحاظ أنّ (من) بيانية، وعندئذ تكون الصورة كما يلي: يقال له: سلام لك من أصحاب اليمين. أمّا الصورة الثانية فبلحاظ أنّ (من) ابتدائية فتكون بالشكل التالي: سلام لك إنّك كنت من أصحاب اليمين. إلاّ أنّه بملاحظة التفسير الأوّل فإنّ له تقديراً واحداً وهو: (يقال له..).

(٢) سورة النحل، الآية: ٣٢.

(٣) حول التحيّات التي تقدّم لأصحاب الجنّة، جاء بحث مفصّل عنها في نهاية الآية (٥٨) من سورة يونس.

(٤) تفسير البرهان، ج٤، ص٢٨٥.

(٥) نُزل خبر لمبتدأ محذوف تقديره فجزاؤه نزل من حميم، أو مبتدأ لخبر محذوف تقديره: فله نزل من حميم.

ونقل في هذا المعنى روايات عديدة لأئمّة أهل البيت عليهم السلام [١].

والنقطة الجديرة بالذكر هنا أنّ كلمتي ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ ذكرت الواحدة تلو الأُخرى، حيث إنّ الأُولى تشير إلى تكذيب القيامة ووحدانية الله سبحانه ونبوّة الرّسول، والثانية تشير إلى الأشخاص الذين انحرفوا عن طريق الحقّ.

وهذا التعبير بالإضافة إلى أنّه يؤدّي معنى التأكيد، فإنّه يمكن أن يكون إشارة إلى أنّ قسماً من الأشخاص الضالّين من فصيلة الأفراد المستضعفين أو الجهلة القاصرين الذين ليس لديهم إصرار وعناد على الباطل، يمكن أن تشملهم الألطاف الإلهيّة، أمّا المكذّبون المعاندون فإنّهم سيبتلون بالمصير البائس والعاقبة السيّئة التي تقدّم ذكرها.

﴿حَمِيمٍ﴾: بمعنى الماء الحارق أو الرياح الحارة والسموم، و﴿وَتَصْلِيَةُ﴾ مأخوذة من مادّة (صلى) على وزن (سعى) بمعنى الاحتراق والدخول في النار.

أمّا ﴿وَتَصْلِيَةُ﴾ المتعدية فتأتي بمعنى الإحراق فقط.

وفي نهاية هذا الحديث يضيف سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

والمعروف بين المفسّرين أنّ ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ من قبيل الإضافة البيانية، يعني أنّ الذي تقدّم ذكره حول الأقسام الثلاثة وهم (المقرّبون وأصحاب اليمين والمكذّبون) فهو عين الحقيقة والحقّ واليقين.

وهنا يوجد احتمال أيضاً وهو: بما أنّ لليقين درجات متعدّدة، فإنّ أعلى مرحلة له هي ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي يقين واقعي كامل وخال من كلّ شكّ وشبهة وريب[٢].

وممّا قلنا يتّضح أنّ ﴿هَٰذَا﴾ في هذه الآية إشارة إلى أحوال الأقسام الثلاثة الآنفة الذكر، كما احتمل البعض أيضاً أنّها إشارة إلى كلّ محتويات سورة الواقعة أو القرآن أجمع، إلاّ أنّ التّفسير الأوّل هو الأنسب.

وهنا نقطة جديرة بالذكر أيضاً وهي أنّ التعبير بـ ﴿فَسَبِّحْ﴾ - الفاء تفريعيّة - هو إشارة إلى أنّ ما قيل حول الأقسام الثلاثة هو عين العدالة، وبناءً على هذا اعتبر ﴿رَبِّكَ﴾ منزّهاً

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٢٢٩.

(٢) طبقاً لهذا التّفسير فإنّ إضافة حقّ إلى كلمة (يقين) جاءت للاختصاص والتقييد، واعتبرها البعض - أيضاً - من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة وقالوا بمعنى (اليقين) الحقّ.

من كلّ ظلم، وإذا ما أُريد الابتعاد عن مصير أصحاب الشمال فعلينا أن نتنزّه من كلّ شرك وظلم متلازمين مع إنكار القيامة.

ونقل كثير من المفسّرين حول نهاية آخر الآية بعد ما نزلت على الرّسول ﷺ أنّه قال: «اجعلوها في ركوعكم» (أي قولوا: سبحان ربّي العظيم) وعندما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾[1] قال ﷺ: «اجعلوها في سجودكم»، أي قولوا: سبحان ربّي الأعلى[2].

وفي تفسير الآية ٧٤ من نفس السورة نقلنا ما هو شبيه بهذه الرّواية عن بعض المفسّرين.

تعقيب

عالم البرزخ

أشارت الآيات أعلاه إلى عالم البرزخ، وقد بيّنا عند تفسيرها أنّ الإنسان - في حالة احتضاره وهو على مشارف الموت يتهيّأ للانتقال من دار الدنيا إلى عالم الآخرة - سيواجه واحدة من هذه الحالات، إمّا النعم والهبات الإلهيّة والجزاء الربّاني بـ الروح والريحان، أو العقاب والجزاء المؤلم، والعاقبة البائسة.

كما أنّ القرائن الموجودة في الآيات ترينا أنّ قسماً ممّا يثاب به أو يعاقب عليه مرتبط بيوم القيامة، والقسم الآخر مرتبط بالقبر والبرزخ، ويعدّ هذا دليلاً على وجود عالم البرزخ.

وفي حديث لرسول الله ﷺ نقرأ ما يلي: «إنّ أوّل ما يبشّر به المؤمن عند الوفاة بروح وريحان وجنّة نعيم، وإنّ أوّل ما يبشّر به المؤمن في قبره أن يقال له: أبشر برضا الله تعالى والجنّة قدمت خير مقدم، وقد غفر الله لمن يشيّعك إلى قبرك، وصدّق من شهد لك، واستجاب لمن استغفر لك»[3].

وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين أنّه قال: «إنّ ابن آدم إذا كان في آخر يوم من أيّام

---

(١) سورة الأعلى، الآية: ١.

(٢) تفسير أبي الفتوح الرازي، وروح المعاني، وروح البيان، القرطبي، والدرّ المنثور، وتفسير المراغي، في نهاية الآيات مصدر البحث.

(٣) تفسير الدرّ المنثور، ج٦، ص١٦٦.

الدنيا وأوّل يوم من أيّام الآخرة، مَثُلَ له ماله وولده وعمله فيلتفت إلى عمله فيقول: والله إنّي كنت فيك لزاهد، وإن كنت عليّ لثقيلاً، فماذا عندك؟ فيقول: أنا قرينك في قبرك، ويوم نشرك حتى أعرض أنا وأنت على ربّك، قال: فإن كان لله وليّاً أتاه أطيب الناس ريحاً، وأحسنهم منظراً، وأحسنهم رياشاً، فيقول: أبشر بروح وريحان، وجنّة نعيم، ومقدمك خير مقدم، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح، ارتحل من الدنيا إلى الجنّة»(١).

وقد سبق لنا بحث مفصّل حول عالم البرزخ في نهاية الآية (١٠٠) من سورة (المؤمنون).

اللهمّ، اجعلنا في صفّ المقرّبين وأصحاب اليمين، وخاصّة أوليائك وأحبّتك، واشملنا بروح وريحان وجنّة نعيم عند مشارف الموت.

اللهمّ، إنّ عذاب الحشر عذاب أليم لا يطيقه أحد، وثوابك الأُخروي عظيم لا يستوجبه أي شخص بأعماله، وإنّ رأسمالنا في ذلك اليوم هو لطفك وكرمك يا كريم.

إلهي، أيقظنا قبل وصول القيامة الكبرى والقيامة الصغرى - والذي هو الموت - لنعدّ أنفسنا للسفر العظيم الذي يواجهنا . . .

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٢٢٨، حديث ١٠٦.

سورة الحديد

مدنيّة وعدد آياتـها تسع وعشرون

محتوى السورة

نزلت هذه السورة في المدينة، وادّعى البعض الإجماع على ذلك، لذا فإنّ خصائصها هي نفس خصائص السور المدنية، فإنّها بالإضافة إلى تحكيم الضوابط العقائدية فإنّها تستعرض تعليمات عملية عديدة خصوصاً في المجالات الاجتماعية والحكومية، كما نشاهد نماذج لذلك في الآيات (١٠، ١١، ٢٥) من هذه السورة.

ونستطيع أن نقسّم موضوعات هذه السورة إلى سبعة أقسام:

الأوّل: الآيات الأُولى من هذه السورة لها بحث جامع ولطيف حول التوحيد وصفات الله تعالى، وتذكر ما يقرب من عشرين صفة من الصفات الإلهيّة، حيث تجعل الإنسان المدرك لها في مستوى عال من المعرفة الإلهيّة.

الثاني: يتحدّث عن عظمة القرآن، هذا النور الإلهي الذي أشرق في ظلمات الشرك.

الثالث: يستعرض وضع المؤمنين والمنافقين في يوم القيامة، حيث إنّ القسم الأوّل يأخذ طريقه إلى الجنّة في ظلّ نور إيمانهم، والقسم الثاني يبقى في ظلمات الشرك والكفر، وبهذا تعكس السورة في أبحاثها الأُصول الإسلامية الثلاثة: التوحيد والنبوّة والمعاد.

الرابع: تتحدّث الآيات فيه عن الدعوى إلى الإيمان والخروج من الشرك، وعن مصير الأقوام الضالّة من الأُمم السابقة.

الخامس: جزء مهمّ من هذه السورة يتحدّث حول الإنفاق في سبيل الله، وخصوصاً في تقوية أُسس الجهاد في سبيل الله، وأنّ مال الدنيا ليس له وزن وقيمة.

السادس: في قسم قصير من الآيات - إلاّ أنّه واف ومستدلّ - يأتي الحديث عن العدالة الاجتماعية والتي هي إحدى الأهداف الأساسية للأنبياء.

السابع: وفيه تتحدّث الآيات عن سلبية الرهبانية والانزواء الاجتماعي وأنّ ذلك يمثّل ابتعاداً عن الخطّ الإسلامي.

ومن الطبيعي أنّ بين ثنايا هذه البحوث وردت نقاط أُخرى متناسبة شكلت في النهاية مجموعة اتّجاهات بنّاءة في مجال الإيقاظ والهداية.

وبالضمن فإنّ تسمية هذه السورة بـ(سورة الحديد) هو لما جاء في الآية (٢٥) من السورة من ذكر كلمة الحديد.

فضل تلاوة سورة الحديد

وردت في الروايات الإسلامية نقاط جديرة بالملاحظة حول فضل تلاوة سورة الحديد، وممّا لا شكّ فيه أنّ المقصود في التلاوة هي تلاوة التدبّر والتفكّر الذي يكون توأماً، مع العمل.

قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الحديد كُتب من الذين آمنوا بالله ورسوله»(١).

ونقل في حديث آخر عن الرّسول الأكرم ﷺ أنّه كان يتلو (المسبّحات) قبل النوم (والمسبّحات هي السور التي تبدأ بـ(سبّح لله، أو يسبّح لله. وهي خمس سور: سورة الحديد والحشر والصفّ والجمعة والتغابن) ويقول: «إنّ فيهنّ آية أفضل من ألف آية»(٢).

وطبيعي أنّ الرّسول الأعظم ﷺ لم يعيّن هذه الآية، إلاّ أنّ بعض المفسّرين احتمل أن تكون آخر آية في سورة الحشر، بالرغم من عدم وجود دليل واضح على هذا المعنى(٣).

ونقرأ حديثاً عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «من قرأ المسبّحات كلّها قبل أن ينام لم يمت حتى يرى القائم، وإن مات كان في جوار رسول الله»(٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣)﴾

---

(١) تفسير مجمع البيان، بداية سورة الحديد.
(٢) المصدر السابق إضافة إلى الدرّ المنثور، ج ٦، ص ١٧.
(٣) تفسير مجمع البيان، بداية سورة الحديد.
(٤) أُصول الكافي، ج ٢، ص ٦٢٠، ح ٣.

التفسير

آيات للمتفكّرين

قلنا: إنّ هذه السورة بدأت بقسم التوحيد، الذي يشتمل على عشرين صفة من صفات الله سبحانه، تلك الصفات التي بمعرفتها يصل الإنسان إلى مستوى عال من المعرفة الإنسانية بالله، وتعمّق معرفته بذاته المقدّسة، وهذه الأوصاف والتي تشير إلى جانب من صفات جلاله وجماله، كلّما تعمّق العلماء وأهل الفكر فيها توصّلوا إلى حقائق جديدة عن الذات الإلهيّة المقدّسة.

عندما سئل الإمام علي بن الحسين عليه السلام عن التوحيد أجاب: «إنّ الله عزّوجلّ علم أنّه يكون في آخر الزمان أقوام متعمّقون فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، والآيات في سورة الحديد إلى قوله: ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ومن رام وراء ذلك فقد هلك»[١].

يستفاد من هذا الحديث أنّ هذه الآيات تعطي للظمأى من طلاّب الحقيقة أقصى حدّ للمعرفة الممكنة.

وعلى كلّ حال فإنّ أوّل آية من هذه السورة بدأت بتسبيح وتنزيه الله عزّوجلّ حيث يقول سبحانه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

لقد انتهت السورة السابقة بأمر التسبيح، وابتدأت هذه السورة المباركة بالتسبيح الإلهي أيضاً، والجدير بالملاحظة أنّ في سور المسبّحات الخمس جاءت كلمة التسبيح ثلاث مرّات بصيغة الماضي ﴿سَبَّحَ﴾ في سور الحديد والحشر والصفّ، وفي موردين جاءت بصيغة المضارع ﴿يُسَبِّحُ﴾ في سورتي الجمعة والتغابن، وهذا الاختلاف في التعبير قد يكون إشارة إلى أنّ جميع الكائنات في العالم قد سبّحت وتسبّح لذاته المقدّسة في الماضي والمستقبل.

وحقيقة «التسبيح» عبارة عن نفي كلّ عيب ونقص[٢] عن الذات الإلهيّة، وشهادة جميع الكائنات في هذا العالم بطهارة ذاته من كلّ عيب، حيث إنّ النظم والحساب والحكمة والعجائب في نظام الكائنات... هذه جميعها تذكر (الله) بلسان حالها وتسبّحه وتحمده وتنزّهه وتؤكّد أنّ لخالقها قدرة لا متناهية، وحكمة لا محدودة.

---

(١) أُصول الكافي طبقاً لنقل تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٢٣١.

(٢) «التسبيح» في الأصل من مادّة (سبح) على وزن (مسح) بمعنى الحركة السريعة في الماء والهواء. والتسبيح أيضاً هو الحركة السريعة في مسير عبادة الله عزّوجلّ (الراغب في المفردات).

ولذا جاء في نهاية هذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

كما يحتمل أن تتمتّع جميع ذرّات الوجود بنوع من الإدراك والشعور بحيث تسبّح وتحمد الله عزّوجلّ في عالمها الخاصّ، بالرغم من عدم معرفتنا لذلك بسبب محدودية علمنا واطّلاعنا.

من أجل تفصيل أكثر حول حمد وتسبيح الكائنات أجمع يراجع نهاية الآية (٤٤) من سورة الإسراء.

ويجدر الانتباه إلى أنّ (ما) في جملة ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لها معنى واسع بحيث تشمل كلّ موجودات العالم، أعمّ من ذوي العقول والأحياء والجمادات[1].

وبعد ذكر صفتين من صفات الذات الإلهيّة يعني (العزّة والحكمة) يتطرّق إلى (مالكيّته وتدبيره، وقدرته في عالم الوجود) والتي هي من مستلزمات القدرة والحكمة، حيث يقول تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

إنّ مالكية الله عزّوجلّ لعالم الوجود ليست مالكية اعتبارية وتشريعية، إذ إنّها مالكية حقيقيّة وتكوينيّة. وهذا يعني أنّ الله سبحانه محيط بكلّ شيء، وأنّ جميع العالم في قبضته وقدرته وتحت إرادته وأوامره، لذا فقد جاء الحديث بعد هذا الكلام عن (الإحياء والإفناء) والقدرة على كلّ شيء.

إلى هنا ذُكرت في الآيتين الآنفتين ستّة أوصاف من صفاته الكريمة.

الاختلاف بين «العزّة» و«القدرة» هو أنّ العزّة أكثر دلالة على تحطيم المقابل والقدرة تعني توفير الأسباب وإيجادها، وبناءً على هذا فإنّهما يعدّان وصفين مختلفين بالرغم من أنّهما مشتركان في أصل القدرة (يرجى ملاحظة ذلك).

مسألة (الإحياء والإماتة) قد ذكرت في آيات عديدة في القرآن الكريم، وفي الواقع أنّهما من الموضوعات التي لم تتوضّح أسرارهما المعقّدة لأي شخص، كما لا يوجد شخص يعلم - بوضوح - حقيقة الحياة ولا حقيقة الموت، إلاّ أنّ الذي نعلمه عنهما هو آثارهما، والعجيب أنّ الحياة أقرب شيء لنا ولكنّنا لا نعرف أي شيء عن حقيقتها وأسرارها.

---

(١) بالرغم من أنّ ﴿سَبَّحَ﴾ فعل متعدٍّ بدون حرف جرّ حيث يقال مثلاً سبّحوه إلاّ أنّه هنا قد عُدي باللام، ومن المحتمل أن يكون ذلك للتأكيد.

والنقطة الجديرة بالملاحظة هنا أنّ جملة ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ جاءت بصورة فعل مضارع ممّا يدلّل على استمرار مسألة الحياة والموت على طول الأزمنة، وإطلاق هذين المعنيين لا يشمل حياة وموت الإنسان في هذا العالم فقط، بل يشمل كلّ حياة وممات بدءاً من الملائكة وانتهاءً بكلّ موجود حيّ من الحيوانات والنباتات المختلفة، كما أنّها لا تقتصر على الحياة الدنيا فقط، بل تشمل حياة البرزخ والقيامة أيضاً.

نعم، إنّ الموت والحياة بكلّ أشكالها بيد القدرة الإلهيّة المتعالية.

ثمّ يتطرّق سبحانه إلى ذكر خمس صفات أُخرى حيث يقول: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

الوصف هنا بـ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ﴾ تعبير رائع عن أزليّته وأبديّته تعالى، لأنّنا نعلم أنّه وجود لا متناهي وأنّه (واجب الوجود) أي أنّ وجوده من نفس ذاته، وليس خارجاً عنه حتى تكون له بداية ونهاية، وبناءً على هذا فإنّه كان من الأزل وسيبقى إلى الأبد.

إنّه بداية عالم الوجود، وهو الذي سيبقى بعد فناء العالم أيضاً.

وبناءً على هذا فإنّ التعبير بـ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ﴾ ليس له زمان خاصّ أبداً، وليس فيه إشارة إلى مدّة زمنية معيّنة.

والوصف بـ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ هو تعبير آخر عن الإحاطة الوجودية - أي وجود الله - بالنسبة لجميع الموجودات، أي إنّه أظهر من كلّ شيء لأنّ آثاره شملت جميع مخلوقاته في كلّ مكان، وهو خفيّ أكثر من كلّ شيء أيضاً لأنّ كنه ذاته لم يتّضح لأحد.

ولقد عبّر بعض المفسّرين عن ذلك بأنّه: الأوّل بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء، والظاهر بلا اقتراب، والباطن بلا احتجاب.

وعبّر البعض الآخر عنه تعبيراً رائعاً آخر: الأوّل ببرّه، والآخر بعفوه، والظاهر بإحسانه وتوفيقه إذا أطعته، والباطن بستره إذا عصيته.

وباختصار فإنّه محيط بكلّ شيء، وإنّه (بداية ونهاية، وظاهر وباطن) عالم الوجود.

وفسّر بعض المفسّرين (الظاهر) هنا بمعنى «الغالب» (من الظهور بمعنى الغلبة) ونلاحظ في بعض خطب نهج البلاغة قرينة على هذا المعنى حيث يقول عليه السلام حول خلق الأرض: «هو الظاهر عليها بسلطانه وعظمته، وهو الباطن لها بعلمه ومعرفته»[١].

ولا مانع من جمع هذين التّفسيرين.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٦.

وعلى كلّ حال فإنّ أحد نتائج هذه الصفات المتقدّمة هو ما جاء في نهاية الآية الكريمة: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ إذ إنّ من كان في البداية ويبقى في النهاية، وموجود في ظاهر وباطن العالم... سيكون عالماً بكلّ شيء قطعاً.

بحث

جمع الأضداد في صفات الله

من الواضح أنّ الكثير من الصفات لا يمكن جمعها فينا نحن البشر، وكذا الأمر بالنسبة للموجودات الأُخرى. فمثلاً: من كان في أوّل الصفّ لا يمكن أن يكون في نفس الوقت في آخره، وكذلك إذا كنت ظاهراً فليس بالمقدور أن تكون في نفس الوقت باطناً والعكس صحيح أيضاً. والسبب في ذلك هو محدودية وجودنا، فالوجود المحدود لا يستطيع أن يكون غير ذلك، إلاّ أنّ الحديث عندما يكون عن صفات الله فسيتغيّر الأمر، حيث يمكن الجمع في هذه الحالة بين الظاهر والباطن، وبين البداية والنهاية، وذلك لطبيعة صفات الذات الإلهيّة المقدّسة اللامتناهية، ولذلك فلا عجب هنا.

-وقد وردت أحاديث عن رسول الله ﷺ وأئمّة أهل البيت عليهم السلام فيها توضيحات رائعة تساعد على تفسير هذه الآيات ذات المحتوى العميق، ومن جملتها ما ورد في صحيح مسلم عن الرّسول الأكرم ﷺ أنّه قال: «اللهمّ أنت الأوّل فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»(١).

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «ليس لأوّليّته ابتداء، ولا لأزليّته انقضاء، هو الأوّل لم يزل، والباقي بلا أجل... الظاهر لا يقال ممّ؟ والباطن لا يقال فيم؟»(٢).

ويقول الإمام الحسن المجتبى عليه السلام في خطبة له: «الحمد لله الذي لم يكن فيه أوّل معلوم، ولا آخر متناه... فلا تدرك العقول وأوهامها، ولا الفِكَرُ وخطراتها. ولا الألباب وأذهانها صفته، فتقول متى ولا بدع ممّا؟ ولا ظاهر على ما؟ ولا باطن فيما؟»(٣).

---

(١) تفسير القرطبي، ج٩، ص٦٤٠٦.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٦٣.

(٣) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٢٣٦.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾

التّفسير

على عرش القدرة دائماً

تحدّثت الآيات السابقة عن إحدى عشرة صفة للذات الإلهيّة المقدّسة، وتبيّن الآيات أعلاه أوصافاً أُخرى حيث أُشير في الآية الأُولى مورد البحث إلى خمسة أوصاف أُخرى من صفات جلاله وجماله.

ويبدأ الحديث عن مسألة الخلقة حيث يقول سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

لقد ذكرت مسألة الخلقة في ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ سبع مرّات في القرآن الكريم، المرّة الأُولى في الآية (٥٤) من سورة الأعراف، والأخيرة هي هذه الآية مورد البحث (الحديد - الآية ٤).

وكما قلنا سابقاً فإنّ المقصود من (اليوم) في هذه الآيات ليس المعنى المتعارف (لليوم)، بل المقصود هو (الزمان) سواء كان هذا الزمان قصيراً أو طويلاً حتى لو بلغ ملايين السنين، وهذا التعبير يستعمل أيضاً في لغة العرب واللغات المختلفة، كما يقال مثلاً: اليوم يحكم فلان، وغداً سيكون لغيره، بمعنى الدورة الزمنية.

وقد بيّنا هذا المعنى مع شرح وأمثلة في نهاية الآية (٥٤) من سورة الأعراف.

وطبيعي أنّه لا يوجد أي مانع لله عزّوجلّ من خلق جميع العالم في لحظة واحدة، ولكن في هذه الحالة سوف لا تتجلّى عظمة الله وقدرته وعلمه بشكل جيّد، وبعكس ذلك خلق هذه العوالم خلال مليارات السنين وفي أزمنة وحالات مختلفة ووفقاً لبرامج منظّمة ومحسوبة سيدلل أكثر على قدرته وحكمته، بالإضافة إلى أنّ التدرّج في الخلق سيكون

نموذجاً للسير التكاملي للإنسان، وعدم السرعة والاستعجال في الوصول إلى الأهداف المختلفة.

ثمّ تتطرّق الآيات إلى مسألة الحكومة وتدبير العالم حيث يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

إنّ زمام حكومة وتدبير العالم كانت دائماً بيده ولا زالت، وبدون شكّ فإنّ الله تعالى ليس جسماً، ولذا فليس معنى «العرش» هنا هو عرش السلطة، والتعبير كناية لطيفة عن الحاكمية المطلقة لله سبحانه ونفوذ تدبيره في عالم الوجود.

«عرش» في اللغة بمعنى الشيء المسقوف، وتطلق أحياناً للسقف نفسه، ويعني أيضاً التخوت العالية (عرش السلاطين).

وتستعمل هذه اللفظة كناية عن القدرة أيضاً كما يقال في اللغة العربية: (فلان ثلّ عرشه)[١].

وعلى كلّ حال - وخلافاً لما يتصوّره البعض ممّن أعمى الله بصيرتهم أنّه سبحانه وتعالى قد خلق العالم وتركه وشأنه - فإنّ زمام تدبير العالم وتسيير حكومته في كفّ قدرته، وارتباط أنظمة العالم، بل كلّ فرد من أفراد الوجود بذاته المقدّسة، بحيث إذا أعرض لحظة واحدة عن الكائنات وقطع فيضه عنهم فإنّ الوجود سينتهي.

والتوجّه إلى هذه الحقيقة يعطي للإنسان إدراكاً وبصيرة، وهي أنّ الله تعالى في كلّ مكان ومع كلّ شيء، وهو يرى ويسمع ويراقب ويدير الوجود بحكمته ولطفه.

ثمّ يستعرض نوعاً آخر من علمه اللامتناهي بقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾.

وبالرغم من أنّ جميع هذه الأُمور التي ذكرت في الآيات السابقة قد جمعت في تعبير ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ إلاّ أنّ توضيح هذه الأُمور يعطي للإنسان توجّهاً أكثر في مجال سعة علم الله.

نعم، إنّ جميع ما ينفذ في الأرض يعلم به الله، سواء قطرات المطر والسيول.

ومن بذور النبات التي تنتشر في الأرض بمساعدة الهواء والحشرات.

---

(١) لقد ذكرنا توضيحات أكثر حول حقيقة العرش في نهاية الآية (٥٤) من سورة الأعراف، وفي نهاية الآية (٢٥٥) من سورة البقرة.

ومن جذور الأشجار التي تنفذ - بحثاً عن الماء والغذاء - إلى أعماق الأرض.
ومن أنواع المعادن والذخائر التي كانت يوماً على سطح الأرض ثمّ دفنت فيها.
من أجساد الموتى وأنواع الحشرات... نعم إنّه يعلم بكلّ ذلك.
ثمّ إنّه يعلم بالنباتات التي تخرج من الأرض.
وبالعيون التي تفور من أعماق التراب والصخور.
وبالمعادن والكنوز التي تظهر.
وبالبشر الذين ظهروا ثمّ ماتوا.
وبالبراكين التي تخرج من أعماقها.
وبالحشرات التي تخرج من بيوتها وجحورها.
وبالغازات التي تتصاعد منها.
وبأمواج الجاذبية التي تصدر منها الجاذبية... الله تعالى يعلم بذلك جزءاً جزءاً وذرّة ذرّة.
وكذلك ما ينزل من السماء من قطرات المطر إلى أشعّة الشمس الباعثة للحياة.
ومن الأعداد العظيمة من الملائكة إلى أنوار الوحي والكتب السماوية.
ومن الأشعّة الكونية إلى الشهب والنيازك المنجذبة نحو الأرض، إنّه عالم بأجزاء كلّ ذلك.

وكذلك ما يصعد إلى السماء، أعمّ من الملائكة، وأرواح البشر، وأعمال العباد، وأنواع الأدعية، وأقسام الطيور، والأبخرة، والغيوم وغير ذلك، ممّا نعلمه وممّا لا نعلمه، فإنّه واضح عند الله وفي دائرة علمه.

وإذا فكّرنا قليلاً بأنّ في كلّ لحظة تدخل الأرض ملايين الملايين من الموجودات المختلفة، وملايين الملايين من الموجودات تخرج منها، وملايين الملايين تنزل من السماء أو تصعد إليها، حيث تخرج عن العدّ والحصر والحدّ، ولا يستطيع أي مخلوق أن يحصيها... إذا فكّرنا بهذا الموضوع قليلاً فسنعرف مدى اتّساع علمه سبحانه.

وأخيراً في رابع وخامس صفة له سبحانه يركّز حول نقطة مهمّة حيث يقول: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وكيف لا يكون معنا في الوقت الذي نعتمد عليه، ليس في إيجادنا فحسب، بل في

البقاء لحظة بلحظة - أيضاً - ونستمدّ منه العون، إنّه روح عالم الوجود، بل هو أعلى من ذلك وأسمى.

فالله معنا في كلّ الحالات وفي كلّ الأوقات، فهو معنا يوم كنّا ذرّة تراب مهملة، وهو معنا يوم كنّا أجنّة في بطون أُمّهاتنا، وهو معنا طيلة عمرنا، وفي عالم البرزخ. . . فهل بالإمكان - مع هذا - ألاّ يكون مطّلعاً علينا؟

الحقيقة أنّ الاحساس بأنّ الله معنا في كلّ مكان يعطي للإنسان عظمة وجلالاً من جهة، ومن جهة أُخرى يخلق فيه اعتماداً على النفس وشجاعة وشهامة، ومن جهة ثالثة فإنّه يثير إحساساً شديداً بالمسؤولية، لأنّ الله حاضر معنا في كلّ مكان، وناظر ومراقب لأعمالنا، وهذا أكبر درس تربوي لنا. وهذا الاعتقاد يمثّل دافعاً جدّياً للتقوى والطهارة والعمل الصالح في الإنسان، ويعتبر رمز عظمته وعزّته.

أجل: إنّ مسألة أنّ الله تعالى معنا دائماً وفي كلّ مكان هي حقيقة وليست كناية ومجازاً، حقيقة مقبولة للنفس ومربّية للروح، ومولّدة للخوف والمسؤولية.

ولذا ورد عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «إنّ من أفضل إيمان المرء أن يعلم أنّ الله تعالى معه حيث كان»(١).

ونقرأ في حديث آخر أنّ موسى عليه السلام قال: «أين أجدك ياربّ؟ قال عزّ وجلّ : ياموسى إذا قصدت إليّ فقد وصلت إليّ»(٢).

وفي الأساس فإنّ هذه (المعيّة) أي كون الله عزّ وجلّ مع عباده، ظريفة ودقيقة بحيث إنّ كلّ إنسان مؤمن متفكّر يدركها بقدر فكره وإيمانه.

وبعد مسألة الحاكمية والتدبير يأتي الحديث عن مسألة مالكيته سبحانه في كلّ عالم الوجود، حيث يقول: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وأخيراً يشير إلى مسألة مرجعيّته فيقول تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

نعم، عندما يكون الخالق والمالك والمدبّر معنا في كلّ مكان، فمن البديهي أن يكون رجوعنا ورجوع أعمالنا إليه كذلك.

نحن سلكنا طريق عشقه ومحبّته، وبدأنا المسير حاملين معنا الأمل من نقطة العدم باتّجاهه، وقد سلكنا شوطاً طويلاً إلى أن وصلنا إلى مرتبة الوجود نحن من الله سبحانه، وإليه نرجع، لماذا؟ لأنّه هو المبدىء وإليه المنتهى.

---

(١) تفسير الدرّ المنثور، ج٦، ص١٧١. (٢) تفسير روح البيان، ج٩، ص٣٥١.

والجدير بالذكر أنّ الآيات الثلاث الآنفة الذكر قد جاء فيها مثل هذا الوصف أيضاً: ﴿لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ويمكن أن يكون التكرار هنا بلحاظ أنّ الحديث كان - فقط - عن مسألة حياة وموت الموجودات الحيّة، وهنا نلاحظ توسّع البحث وشموليّته في رجوع كلّ شيء لله سبحانه.

وفي تلك الآيات مقدّمة عن بيان قدرة الله عزّوجلّ على كلّ شيء، وهنا مقدّمة لرجوع كلّ شيء إليه، وهاتان القضيّتان تستلزمان مالكيّة الله عزّوجلّ للأرض والسماء.

التعبير بـ«الأُمور» جاء - هنا - بصيغة الجمع، أي: أنّ جميع الموجودات - وليس الإنسان فحسب - تتحرّك باتّجاه حركة دائمة وغير قابلة للتوقّف.

وبناءً على هذا فإنّ معنى الآية لا ينحصر - فقط - برجوع البشر إليه في الآخرة، بالرغم من أنّ موضوع المعاد من المصاديق البارزة لذلك الرجوع العامّ.

وفي آخر مورد للبحث يشير إلى صفتين أُخريين بقوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾(١).

نعم، بالتدريج ينقص أحد الوقتين ﴿ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ ليضيف للآخر، وتبعاً لذلك يتغيّر طول النهار والليل في السنة، وهذا التغيّر يكون مصحوباً بالفصول الأربعة في السنة مع كلّ البركات التي تكون مختّصة في هذه الفصول لبني الإنسان.

وهناك تفسير آخر لهذه الآية وهو: إنّ شروق وغروب الشمس لن يحدثا فجأة ودون مقدّمات حتى لا تجلب هذه الحالة المشاكل للإنسان والموجودات الحيّة الأُخرى، بل يتمّ هذا التغيير بصورة تدريجيّة، وتنتقل الموجودات رويداً رويداً من عالم الضوء في النهار إلى ظلمة الليل، ومن ظلمة الليل إلى ضوء النهار، ويعلن كلّ منهما وصولهما قبل مدّة حتى يتهيّأ الجميع لذلك.

والجمع بين التّفسيرين لمفهوم الآية ممكن أيضاً.

ويضيف سبحانه في النهاية: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

فكما أنّ أشعّة الشمس الباعثة للحياة تنفذ في أعماق ظلمات الليل، وتضيء كلّ مكان، فإنّ الله عزّوجلّ ينفذ كذلك في كلّ زوايا قلب وروح الإنسان، ويطّلع على كلّ أسراره.

---

(١) ﴿يُولِجُ﴾ من مادّة (إيلاج) وهي الأُخرى مأخوذة من مادّة (ولوج) والولوج بمعنى الدخول والنفوذ، والإيلاج بمعنى الإدخال والإنفاذ.

والنقطة الجديرة بالملاحظة في الآيات السابقة أنّ الحديث كان عن علم الله سبحانه بأعمالنا ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وهنا الكلام عن علم الله عزّوجلّ بأفكارنا وعقائدنا وما تكنّه صدورنا، ﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

كلمة (ذات) في الاصطلاح الفلسفي تعني (عين الشيء وحقيقته) إلاّ أنّها في اللغة بمعنى (صاحب الشيء) وبناءً على هذا فإنّ (ذات الصدور) إشارة إلى النيّات والاعتقادات التي استولت على قلوب البشر.

وكم هو رائع أن يؤمن الإنسان بكلّ هذه الصفات الإلهيّة من أعماق نفسه، ويحسّ حضوره سبحانه في كلّ أعماله ونيّاته وعقائده، احساساً لا يخرجه عن جادّة الطاعة وطريق العبودية، إحساساً يبعده عن طريق العصيان والسوء والانحراف. . .

تعقيب

آيات الاسم الأعظم

قسّم الفلاسفة والمتكلّمون الصفات الإلهيّة إلى قسمين:

أحدهما: «صفات الذات» والتي تبيّن أوصاف جلاله وجماله. والأُخرى: «صفات الفعل» التي تبيّن الأفعال الصادرة من ذاته المباركة، كما جاء في الآيات الستّ في بداية هذه السورة المباركة، والتي يجدر أن تسمّى: بـ(آيات المتعمّقين) تماشياً مع حديث في هذا الصدد.

وقد وردت عشرون صفة من أوصاف الذات الإلهيّة والأفعال بدءاً من علمه وقدرته وحكمته وأزليّته وأبديّته سبحانه، إلى خلقه وتدبيره ومالكيّته وإحاطته عزّوجلّ بكلّ الموجودات وحضوره في كلّ مكان، هذه الأوصاف والتعابير تعطينا عمقاً أكثر في التوجّه إلى الإيمان والسعي لإضاءة مشعل وجودنا وأفكارنا المحدودة ليكون عوناً أفضل في إمدادنا بما يجعلنا في المسير التكاملي نحو الله سبحانه.

وجاء في حديث «براءة بن عازب» أنّه قال: قلت لعلي عليه السلام: يا أمير المؤمنين، أسألك بالله ورسوله ألا خصّصتني بأعظم ما خصّك به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واختصّه به جبرائيل، وأرسله به الرحمن، فقال عليه السلام: «إذا أردت أن تدعو باسمه الأعظم، فاقرأ من أوّل سورة الحديد إلى آخر ستّ آيات منها عليم بذات الصدور، وآخر سورة الحشر يعني أربع آيات ثمّ ارفع يديك فقل: يا من هو هكذا أسألك بحقّ هذه الأسماء أن تصلّي

على محمّد وأن تفعل بي كذا وكذا - ممّا تريد - فوالله الذي لا إله غيره لتنقلبنّ بحاجتك إن شاء الله»[١].

وفي عظمة هذه الآيات وأهميّة محتواها نكتفي بهذا الحديث، ويجب ألاّ ننسى أنّ اسم الله العظيم ليس بالألفاظ فقط، إذ يجب التخلّق بمعانيه أيضاً.

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾

التّفسير

الإيمان والإنفاق أساسان للنجاة

بعد البيان الذي تقدّم حول دلائل عظمة الله في عالم الوجود وأوصاف جماله وجلاله، تلك الصفات المحفّزة للحركة باتّجاه الله تعالى، ننتقل الآن إلى جوّ هذه الآيات المفعم بالدعوة للإيمان والعمل..

يقول سبحانه في البداية ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إنّ هذه الدعوة دعوة عامّة لجميع البشر، فهي تدعو المؤمنين إلى إيمان أكمل وأرسخ، وتدعو - أيضاً - غير المؤمنين إلى التصديق والإيمان بما جاء به الرّسول ﷺ، وهذه الدعوة إلى الإيمان جاءت توأماً مع أدلّة التوحيد التي تناولتها الآيات التوحيدية السابقة.

(١) تفسير الدرّ المنثور، ج٦، ص١٧١.

ثمّ يدعو إلى أحد الالتزامات المهمّة للإيمان وهي: (الإنفاق في سبيل الله) حيث يقول تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾.

إنّها دعوة إلى الإيثار والتضحية، وذلك بالإنفاق والعطاء ممّا منّ الله به على الإنسان، ولكن هذه الدعوة مصحوبة بملاحظة، وهي أنّ المالك الحقيقي هو الله عزّوجلّ ، وهذه الأموال والممتلكات قد وضعها الله عند الإنسان بعنوان أمانة لفترة محدودة، كما وضعت كذلك باختيار الأقوام السابقة.

والحقيقة أنّها كذلك، إذ مرّ بنا في الآيات السابقة أنّ المالك الحقيقي لكلّ العالم هو الله سبحانه، وأنّ الإيمان بهذه الحقيقة والعمل بها تبيّن أنّنا أُمناء على ما استخلفنا به من قبل الله تعالى، ولابدّ للمؤمن من أن يأخذ بنظر الاعتبار أمر صاحب الأمانة.

الإيمان بهذه الحقيقة يمنح الإنسان روح السخاء والإيثار ويفتح قلبه ويديه على الإنفاق.

عبارة: ﴿مُّسْتَخْلَفِينَ﴾ قد تكون إشارة إلى أنّ الإنسان خليفة الله تعالى على الأرض، أو أنّه مستخلف عن الأقوام السابقة أو كلا المعنيين.

وتعبير ﴿مِمَّا﴾ تعبير عام ولا يشمل الأموال فحسب بل كلّ الممتلكات والهبات الإلهيّة، وهنا يعني أنّ للإنفاق مفهوماً واسعاً ولا ينحصر بالمال فقط، بل يشمل - أيضاً - العلم والهداية والسمعة الاجتماعية ورؤوس الأموال المعنوية والمادية.

ثمّ يقول تعالى في الحثّ على الإنفاق: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

إنّ وصف الأجر بأنّه «كبير» إشارة إلى عظمة الألطاف الإلهيّة والهبات الإلهيّة، وأبديّتها وخلوصها ودوامها ليس في الآخرة فحسب، بل في عالم الدنيا أيضاً حيث إنّ قسماً من الأجر سوف يكون من نصيب الإنسان في الدنيا.

وبعد الأمر بالإيمان والإنفاق يعطي بياناً لكلّ منهما، وهو بمثابة الاستدلال والبرهان، وذلك بصورة استفهام توبيخي ابتداءً، حيث يستفسر عن علّة عدم قبول دعوة الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم حول الإيمان بالله فيقول سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني أنّكم إذا كنتم مستعدّين حقيقة وصدقاً لقبول الحقّ، فإنّ دلائله واضحة عن طريق الفطرة والعقل، وكذلك عن طريق النقل.

وهذا رسول الله قد أتى لكم بدلائل واضحة وآيات ومعجزات باهرة، وهذه آثار الله سبحانه في عالم الخلق وفي أنفسكم وقد أخذ نوعاً من العهد التكويني منكم، فآمنوا به،

إلاّ أنّكم - مع الأسف - لا تقيمون وزناً لعقلكم وفطرتكم، وكذلك لا تعيرون اهتماماً لتوجيهات الوحي، ويبدو أنّكم غير مستعدّين ومهيّئين للإيمان أصلاً، وقد غلب الجهل والتعصّب والتقليد الأعمى على أفكاركم ونفوسكم.

ويتوضّح ممّا قلناه أنّ المقصود من جملة ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ هو أنّكم إذا كنتم مستعدّين للإيمان بشيء وتقبلون أدلّته فهذا هو محلّه، لأنّ دلائله واضحة من كلّ جهة.

والنقطة الجديرة بالملاحظة هنا هي معرفة السبب الذي يمنع هؤلاء الذين شاهدوا الرّسول الأكرم ﷺ وسمعوا دعوته مباشرةً وبلا واسطة، وشاهدوا معجزاته بأعينهم، من الإيمان بدعوته.

في هذا الصدد نقرأ الحديث التالي: أنّ الرّسول الأكرم ﷺ قال لأصحابه يوماً: «أيّ المؤمنين أعجب إليكم إيماناً؟» قالوا: الملائكة. قال: «وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربّهم؟» قالوا: الأنبياء. قال: «وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟» قالوا: نحن. قال: «وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟ ولكن أعجب المؤمنين إيماناً قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بها»[(١)].

وهذه حقيقة لا غبار عليها، وهي أنّ الأشخاص الذين يطلّون على عالم الوجود بعد سنوات طويلة من رحلة الرّسول ﷺ ويشاهدون آثاره في الكتب - فقط - ويؤمنون بأحقيّة دعوته، فإنّ لهم ميزة كبيرة على الآخرين.

إنّ التعبير بـ «الميثاق» يمكن أن يكون إشارة إلى الفطرة التوحيدية أو الدلائل العقلية التي بمعرفتها يتبيّن للإنسان (نظام الخلقة)، وعبارة ﴿بِرَبِّكُمْ﴾ إشارة إلى التدبير الإلهي في عالم الخلقة، وهو شاهد على هذا المعنى أيضاً.

واعتبر البعض كلمة (ميثاق) إشارة إلى (عالم الذرّ) إلاّ أنّ هذا المعنى مستبعد إلاّ أن يراد به التّفسير الذي ذكرناه سابقاً لعالم الذرّ[(٢)].

وجاءت الآية اللاحقة لتأكيد وتوضيح نفس هذا المعنى حيث تقول: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

فسّر البعض ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ هنا بكلّ المعجزات، وقال قسم آخر: إنّه (القرآن الكريم) إلاّ أنّ مفهوم الآية واسع يستوعب كلّ ذلك، بالرغم من أنّ التعبير ﴿يُنَزِّلُ﴾ يناسب (القرآن)

---

(١) صحيح البخاري طبقاً لنقل تفسير المراغي تفسير ظلال القرآن في نهاية الآيات مورد البحث.

(٢) راجع هذا التّفسير، نهاية الآية (١٧٢) من سورة الأعراف.

أكثر، هذا الكتاب العظيم الذي يمزّق حجب ظلام الكفر والجهل والضلال ويشرق شمس الوعي والإيمان في النفوس، والذي هو رحمة ونعمة إلهيّة عظيمة.

أمّا التعبير بـ ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فهو إشارة لطيفة إلى حقيقة أنّ هذه الدعوة الإلهيّة العظيمة إلى الإيمان والإنفاق تمثّل مظهراً من مظاهر الرحمة الإلهيّة التي جاءت إليكم جميعاً، كما أنّ جميع بركاتها في هذا العالم والعالم الآخر ترجع إليكم.

وسؤال يثار هنا وهو: هل يوجد اختلاف بين (الرؤوف) وبين (الرحيم)؟ وما هي خصوصيات كلّ منهما؟

ذكر المفسّرون في ذلك آراء، والمناسب من بين كلّ الآراء التي ذكرت هو: أنّ كلمة ﴿رَءُوفٌ﴾ جاءت هنا إشارة إلى محبّته ولطفه الخاص بالنسبة إلى المطيعين، في حين أنّ كلمة ﴿رَّحِيمٌ﴾ إشارة إلى رحمته بخصوص العاصين.

قال البعض: إنّ «الرأفة» تقال للرحمة قبل ظهورها، و«الرحمة» تعبير يطلق على الحالة بعد ظهورها.

ثمّ يأتي استدلال آخر على ضرورة الإنفاق حيث يقول تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي أنّكم سترحلون عن هذه الدنيا وتتركون كلّ ما منحكم الله فيها، وتذهبون إلى عالم آخر، فلماذا لا تستفيدون من هذه الأموال التي جعلها الله تحت تصرفكم بتنفيذ أمره بالإنفاق؟.

﴿مِيرَاثُ﴾ في الأصل - كما قال الراغب في المفردات - هي الأموال التي تنتقل للإنسان بدون اتّفاق مسبق، وما ينتقل من الميّت إلى ورثته هو أحد مصاديق ذلك، ولكن لكثرة استعمالها بهذا المعنى يتداعى لسامعها هذا المعنى عند إطلاقها.

وجملة ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بمعنى ليست جميع الأموال والثروات الموجودة فوق الأرض، بل كلّ ما هو في السماء والأرض وعالم الوجود يرجع إليه، حيث تموت جميع الخلائق والله سبحانه هو الوارث لها جميعاً.

ولأنّ للإنفاق قيماً مختلفة وأحوالاً متفاوتة الشرائط والظروف، يضيف سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾(١).

(١) للآية محذوف يستفاد من المذكور، وتقديره (لا يستوي من أنفق من قبل الفتح وقاتل والذين أنفقوا بعد الفتح وقاتلوا).

هناك اختلاف بين المفسّرين حول المقصود من كلمة «الفتح» التي وردت في الآية، فقد اعتبرها البعض إشارة لفتح مكّة في السنة الثامنة للهجرة، واعتبرها آخرون إشارة إلى فتح الحديبية في السنة السادسة للهجرة.

وبالنظر إلى أنّ كلمة «الفتح» فسّرت (بفتح الحديبية) في سورة: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ فالمناسب هنا أن يكون المقصود بها فتح الحديبية أيضاً، إلاّ أنّ كلمة ﴿وَقَٰتَلَ﴾ تناسب فتح مكّة، لأنّه لم يحصل قتال في صلح الحديبية، بعكس فتح مكّة الذي حصل فيه قتال سريع وقصير، إذ لم يواجه بمقاومة شديدة.

ويحتمل أيضاً أن يكون المراد من «الفتح» في هذه الآية هو جنس الفتح، والذي يمثّل انتصار كلّ المسلمين في الحروب الإسلامية، والمقصود إجمالاً أنّ الذين بذلوا المال والنفس في الظروف الحرجة مفضّلون على الذين ساعدوا الإسلام بعد سكون الموج وهدوء العاصفة، لذلك وللتأكيد أكثر يضيف تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ﴾.

والعجيب هنا أنّ بعض المفسّرين الذين اعتبروا مقصود الآية هو فتح مكّة، أو فتح الحديبية، اعتبروا مصداق المنفق في هذه الآية هو «أبو بكر». في حين أنّه ممّا لا شكّ فيه أنّ عدّة حروب وغزوات حصلت بين هجرة الرّسول ﷺ ونزول آية الفتح والذي استغرق من(٦ - ٨) سنوات، وفي هذه الفترة قاتل وأنفق الآلاف من الأشخاص في طريق الإسلام، إذ شارك في فتح مكّة فقط عشرة آلاف شخص، طبقاً لما ورد في كتب التاريخ، ومن الواضح أنّ أعداداً كبيرة في هذه المجموعة قدّمت الكثير من الأموال في سبيل الله وأعانت الإسلام في المجهود الحربي، وواضح أنّ كلمة (قبل) تعني الإنفاق في مشارف هذا الفتح وليس في بداية الإسلام وقبل إحدى وعشرين سنة.

يجدر الانتباه إلى أنّ بعض المفسّرين يصرّون على أنّ الإنفاق أفضل من الجهاد، وذلك انسجاماً مع رأيهم السابق، ويدلّلون على صحّته من خلال ما ورد في الآية أعلاه من تقديم الإنفاق المالي على الجهاد باعتبار أنّ الوسائل والمقدّمات والآلات الحربية، تتهيّأ بواسطته. إلاّ أنّ ممّا لا شكّ فيه أنّ بذل النفس والتهيّؤ للشهادة أعلى وأفضل من الإنفاق المالي.

وعلى كلّ حال، بما أنّ القسمين (الإنفاق والجهاد) مشمولان بعناية الحقّ تعالى مع اختلاف الدرجة، فيضيف في النهاية ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

وهذا تقدير لعموم الأشخاص الذين ساهموا في هذا الطريق.

وكلمة (حسنى) لها مفهوم واسع، حيث تشمل كلّ ثواب وجزاء وخير في الدنيا والآخرة.

ولكون قيمة العمل بإخلاصه لله سبحانه فيضيف في نهاية الآية: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

نعم، إنّه يعلم بكيفية وكميّة أعمالكم. وكذلك نيّاتكم ومقدار خلوصكم، ولغرض الحثّ على ضرورة الإنفاق في سبيل الله، ومن خلال تعبير رائع يؤكّد سبحانه ذلك في الآية مورد البحث بقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فينفق ممّا آتاه الله في سبيل الله ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

إنّه تعبير عجيب حقّاً، حيث إنّ الله الواهب لكلّ النعم وجميع ذرّات وجودنا - هي من بحر فيضه اللامتناهي. وبالإضافة إلى أنّنا عبيد له يعبّر عنّا بأنّنا أصحاب الأموال، ويدعونا لإقراضه ضمن شروط مغرية، حيث إنّ السائد أنّ الديون العادية تسترجع بنفس مقاديرها، إلاّ أنّه سبحانه - بفضل منه - يضاعفها لنا بالمئات أحياناً وبالآلاف أحياناً أُخرى.

وإضافة إلى ذلك فإنّه قد وعدنا بأجر كريم أيضاً، وهو جزاء عظيم لا يعلمه إلاّ هو.

بحوث

١ - بواعث الإنفاق

الشيء الجدير بالانتباه أنّنا نلاحظ في الآيات السابقة تعبيرات مختلفة للحثّ على الإنفاق، أعمّ من المساعدة والمساهمة في موضوع الجهاد أو أنواع الإنفاق الأُخرى للمحتاجين، والتي يعتبر كلّ منها عاملاً أساسيّاً ومحرّكاً باتّجاه تحقيق الهدف.

وتشير الآية السابعة لمسألة استخلاف الناس بعضهم لبعض أو عن الله تعالى في هذه الثروة، وبما أنّ المالكية الحقيقية لله تعالى، والجميع نواباً له في هذه الأموال، فهذا الفهم يستطيع أن يفتح في الحقيقة يد الإنسان وقلبه للإنفاق ويكون عاملاً للحركة في هذا المجال.

أمّا في الآية العاشرة فقد ورد مفهوم آخر يتحدّث فيه عن حالة عدم استقرار الأموال والممتلكات وبقائها بعد فناء الناس جميعاً، لذا يعبّر عنها بـ﴿مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وأنّها لله تعالى.

وفي الآية الحادية عشرة ورد تعبير مرهف بالحساسية، حيث يعتبر الله سبحانه الإنسان هو المقرض وأنّه تعالى هو المستقرض، وليس في هذا القرض رباً، بل فيه أرباح مضاعفة، وأحياناً مضاعفة بالآلاف عوض هذا القرض، بالإضافة إلى الجزاء العظيم الذي لا نستطيع تصوّره.

إنّ هذا كلّه لإزالة النظرات الخاطئة والمنحرفة ودوافع الحرص والحسد وحبّ الذات وطول الأمل التي تمنع من الإنفاق، لتكوين مجتمع على أُسس ودّية وتعاون عميق وروح اجتماعية بنّاءة.

٢ - شروط الإنفاق في سبيل الله!

إنّ التعبير بـ ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ في الآية أعلاه يشير إلى هذه الحقيقة وهي أنّ إعطاء القرض بحدّ ذاته (أقسام وأنواع) فبعضها يعتبر قرضاً حسناً، والآخر قرضاً قليل الفائدة، أو حتى عديم الفائدة أيضاً.

والقرآن الكريم يبيّن شروط القرض الحسن لله سبحانه كما وضّح ذلك في الآيات المختلفة، وبعض المفسّرين استنتجوا عشرة شروط في مجموع الآيات القرآنية التي تتحدّث عن الإنفاق، وهي كما يلي:

الشرط الأوّل: انتخاب أجود الأموال للإنفاق وليس من أرخصها شأناً وقيمة، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[1].

ثانياً: يجدر أن يكون الإنفاق والإقراض من الأموال التي هي موضع حاجة الشخص المنفق، حيث يقول سبحانه: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[2].

ثالثاً: يجب أن يكون الإنفاق للأشخاص الذين هم موضع حاجة شديدة إليه، وتؤخذ بنظر الاعتبار الأولويات في إنفاقه، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[3].

رابعاً: الأفضل والأولى في الإنفاق أن يكون محاطاً بالسّرية والكتمان قال تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[4].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٧.
(٢) سورة الحشر، الآية: ٩.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٧٣.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٧١.

خامساً: أن لا يقترن الإنفاق منّ ولا أذى أبداً، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾[1].

سادساً: أن يكون توأماً مع خلوص النيّة قال تعالى: ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[2].

سابعاً: الشعور بضآلة العطاء وأنّه صغير لا قيمة له حتى وإن كان كثيراً ومهمّاً، وذلك تلبية لأمر الله وانتظاراً للجزاء الذي أعدّه للمنفقين. قال تعالى في الآية ٦ من سورة المدثر: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾[3].

ثامناً: أن يكون الإنفاق ممّا تعلّق قلبه به من الأموال، وخاصّة تلك التي تكون موضع تعلّق وشغف، قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[4].

تاسعاً: أن لا يرى المنفق أنّه هو المالك للأموال، حيث إنّ المالك الحقيقي هو الله سبحانه، ويعتبر المنفق نفسه واسطة بين الخالق والمخلوق، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[5].

عاشراً: أن يكون الإنفاق من المال الحلال، لأنّه هو الذي يقبل فقط من قبل الله سبحانه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[6].

وجاء في حديث أنّ الرّسول ﷺ قال: «لا يقبل الله صدقة من غلول»[7].

والذي ذكرناه أعلاه هو قسم مهمّ من الضوابط والشروط اللازمة للإنفاق، ولا تنحصر به، ونستطيع من خلال التدقيق والتأمّل في الآيات الكريمة والروايات الإسلامية أن نتعرّف على شروط أُخرى أيضاً.

ثمّ إنّ ما قيل من الشروط بعضها واجب كـ(عدم الأذى والمنّ والإعلان في العطاء) والبعض الآخر مستحبّ ومن شروط الكمال كـ(الإيثار على النفس) حيث إنّ عدمه لا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤. (٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٥.
(٣) لهذه الآية تفاسير متعدّدة، أحدها ما ذكر أعلاه وستطالعون بعون الله شرحاً أكثر في تفسير سورة المدثر إن شاء الله.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٩٢. (٥) سورة الحديد، الآية: ٧.
(٦) سورة المائدة، الآية: ٢٧.
(٧) ذكر الطبرسي (قدس سره) هذه الشروط العشرة في مجمع البيان والفخر الرازي في التفسير الكبير والآلوسي في روح المعاني وقد أدرجناها باختصار.

يقلّل من قيمة الإنفاق، بالرغم من أنّ الإنفاق في هذه الحالة لا يرتقي إلى مستوى الإنفاق العالي من حيث الدرجة.

ومع أنّ ما قيل هنا خاصّ في الإنفاق في سبيل الله (الإقراض لله) إلاّ أنّه أيضاً يصدق في كثير من القروض العادية، لأنّ هذه الشروط من الأُمور اللازمة أو من شروط الكمال للقرض الحسن.

وحول أهميّة الإنفاق في سبيل الله فقد ذكرنا شرحاً مفصّلاً تفسير الآيات من(٢٦١ - ٢٦٧) من سورة البقرة.

٣ - السابقون في الإيمان والجهاد والإنفاق

الأشخاص الذين يتقدّمون على غيرهم بالإيمان والعمل الصالح فهم ذوو وعي وشجاعة وإيثار وتضحية أكثر من الآخرين بلا شكّ، ولذا فإنّ درجات المؤمنين غير متساوية عند الله، والآية الكريمة اعتمدت هذا المفهوم وميّزت بين الأشخاص الذين أنفقوا قبل الفتح: (سواء كان فتح مكّة أو الحديبية أو مطلق الفتوحات الإسلامية) وجاهدوا أيضاً، وبين الذين أنفقوا وقاتلوا من بعد.

نقل في حديث عن (أبي سعيد الخدري) أنّه قال: «خرجنا مع رسول الله في عام الحديبية (السنة السادسة للهجرة) حتى إذا كان بعسفان - مكان قريب من مكّة - قال رسول الله: «يوشك أن يأتي قوم تحقّرون أعمالكم مع أعمالهم» قلنا: من يا رسول الله؟ أقريش؟ قال: «لا، ولكنّهم أهل اليمن، هم أرقّ أفئدة وألين قلوباً» قلنا: أهم خير منّا يا رسول الله؟ قال: «لو كان لأحدهم جبل ذهب فأنفقه ما أدرك مُدّ[١] أحدكم ولا نصفيه، ألا إنّ هذا فصل ما بيننا وبين الناس لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل»[٢].

والنقطة التالية جديرة بالملاحظة أيضاً وهي: إنّ الإقراض لله تعالى هو كلّ إنفاق في سبيله، وأحد مصاديقه المهمّة الدعم الذي يقدّم للرسول ﷺ وأئمّة المسلمين من بعده، كي يستعمل في الموارد اللازمة لإدارة الحكومة الإسلامية.

لذا نقل في الكافي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ الله لم يسأل خلقه

---

(١) الظاهر أنّ المقصود من (المدّ الواحد من الطعام) هو أقلّ من الكيلو.

(٢) تفسير الدرّ المنثور، ج٦، ص١٧٢.

ممّا في أيديهم قرضاً من حاجة به إلى ذلك، وما كان الله من حقّ فإنّما هو لوليّه»[١].

وجاء في حديث آخر عن الإمام الكاظم عليه السلام حول نهاية الآية مورد البحث: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا. . .﴾ أنّه قال: «نزلت في صلة الإمام»[٢].

﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِىَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

التّفسير

انظرونا نقتبس من نوركم

لقد بشّر الله المنفقين في آخر آية من الآيات السابقة بالأجر الكريم، واستمراراً للبحث فالآيات أعلاه تتحدّث عن هذا الأجر، وتبيّن مدى قيمته وعظمته في اليوم الآخر، يقول سبحانه: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾.

وبالرغم من أنّ المخاطب هنا هو الرّسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم إلاّ أنّ من الواضح أنّ الآخرين يرقبون هذا المشهد أيضاً، ولكن بما أنّ تشخيص المؤمنين من الأُمور اللازمة للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليتفقدهم فكانت هذه العلامة: (نورهم الذي يسعى بين أيديهم. . .) دالّة عليهم، وبذلك تكون معرفتهم أيسر.

وبالرغم من أنّ المفسّرين ذكروا احتمالات متعدّدة لهذا «النور إلاّ أنّ المقصود منه - في الواقع - تجسيم نور الإيمان، لأنّه سبحانه عبّر بـ﴿نُورُهُم﴾ ولا عجب، لأنّ في ذلك اليوم تتجسّد أعمال البشر، فيتجسّد الإيمان الذي هو نور هدايتهم بصورة نور ظاهري،

(١-٢) تفسير الصافي، ص٥٢٢.

ويتجسّد الكفر الذي هو الظلام المطلق بصورة ظلمة ظاهرية، كما نقرأ في الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾(١).

وجاء في الآيات القرآنية الأُخرى أنّ الله تعالى يهدي المؤمنين من الظلام إلى النور: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

التعبير بـ ﴿يَسْعَىٰ﴾ من مادّة (سعى) - بمعنى الحركة السريعة - دليل على أنّ المؤمنين أنفسهم يسيرون بسرعة في طريق المحشر باتّجاه الجنّة حيث مركز السعادة السرمدية، ذلك لأنّ الحركة السريعة لنورهم ليست منفصلة عن حركتهم السريعة.

والجدير بالملاحظة هنا أنّ الحديث جاء عن (نورين) (النور الذي يتحرّك أمامهم، والنور الذي يكون عن يمينهم) وهذا التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى قسمين مختلفين من المؤمنين:

قسم المقرّبين وأصحاب الوجوه النورانية، وهؤلاء نورهم يتحرّك أمامهم.

والقسم الثاني وهم أصحاب اليمين ويكون نورهم عن أيمانهم، وذلك كناية عن صحيفة أعمالهم التي تعطى بأيديهم اليمنى ويخرج النور منها.

كما يوجد احتمال آخر أيضاً وهو أنّ النورين إشارة إلى مجموعة واحدة، وما يقصد بنور اليمين هو كناية عن النور الذي يصدر عن أعمالهم الصالحة ويضيء جميع أطرافهم.

وعلى كلّ حال فإنّ هذا النور هو دليلهم إلى الجنّة، وعلى ضوئه يسيرون بسرعة إليها.

ومن جهة ثالثة بما أنّ مصدر هذا النور الإلهي هو الإيمان والعمل الصالح فلا شكّ أنّه يختلف باختلاف درجات الإيمان ومستوى الأعمال الصالحة للبشر، فالأشخاص ذوو الإيمان الأقوى فإنّ نورهم يضيء مسافة أطول، والذين لهم مرتبة أقل يتمتّعون بنور يناسب مرتبتهم، حتى أنّ نور بعضهم لا يضيء موضع أقدامهم، كما ورد في تفسير علي ابن إبراهيم في نهاية الآية مورد البحث: «يقسّم النور بين الناس يوم القيامة على قدر إيمانهم»(٢).

وهنا يصدر هذا النداء الملائكي باحترام للمؤمنين: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٨.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٤١، ح ٦٠.

أمّا المنافقون الذين سلكوا طريق الظلام والكفر والذنوب والمعصية، فإنّ صراخهم يعلو في مثل تلك الساعة ويلتمسون من المؤمنين شيئاً من النور، لكنّهم يواجهون بالردّ والنفي، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾(١).

«اقتباس» في الأصل من مادّة (قبس) بمعنى أخذ شعلة من النار، ثمّ استعملت على أخذ نماذج أُخرى أيضاً.

المقصود من جملة ﴿انْظُرُونَا﴾ هو أن انظروا لنا كي نستفيد من نور وجوهكم لنجد طريقنا، أو انظروا لنا نظر لطف ومحبّة واعطونا سهماً من نوركم، كما يحتمل أنّ المقصود هو أنّ ﴿انْظُرُونَا﴾ مشتقة من (الانتظار) بمعنى أعطونا مهلة قليلة حتى نصل إليكم وفي ظلّ نوركم نجد الطريق.

وعلى كلّ حال يأتي الجواب على طلبهم بقوله تعالى: ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾.

كان من الممكن أن تحصلوا على النور من الدنيا التي تركتموها وراءكم، وذلك بإيمانكم وأعمالكم الصالحة، إلاّ أنّ الوقت انتهى، وفاتت الفرصة عليكم ولا أمل هنا في حصولكم على النور.

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ﴾ وهذا الباب أو هذا الجدار من نوع خاص وأمره فريد، حيث إنّ كلاً من طرفيه مختلف عن الآخر تماماً، حيث: ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾.

«السور» في اللغة هو الحائط الذي يحيط بالمدن - كما كان في السابق - للمحافظة عليها، وفيه نقاط مراقبة عديدة يستقرّ بها الحرّاس للمحافظة ورصد الأعداء تسمّى بالبرج والأبراج.

والنقطة الجديرة بالملاحظة هنا حيث يقول تعالى: ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ حيث إنّ المؤمنين كسكّان المدينة داخل البستان، والمنافقين كالغرباء القسم

---

(١) ﴿انْظُرُونَا﴾ من مادّة (نظر) في الأصل بمعنى الفكر أو النظر لمشاهدة إدراك شيء، وتأتي أحياناً بمعنى التأمّل والبحث، وكلّما تعدّت بـ (إلى) فإنّها تأتي بمعنى النظر إلى شيء، وكلّما تعدّت بـ (في) فإنّها تأتي بمعنى التأمّل والتدبّر، وعندما لا تتعدّى بدون حرف جرّ كأن نقول: (نظرته وأنظرته وانتظرته) فإنّها تأتي بمعنى التأخير أو الانتظار (من المفردات للراغب).

الصحراوي، فهم في جوّين مختلفين وعالمين متفاوتين، ويحكي ذلك عن كون هؤلاء كانوا في مجتمع واحد جنباً إلى جنب ولكن يفصل بينهم حاجز عظيم من الاعتقادات والأعمال المختلفة، ففي يوم القيامة يتجسّد نفس المعنى أيضاً.

ولماذا هذا «الباب»، ولأي الأهداف؟

للجواب على هذا التساؤل نقول: من الممكن أن يكون هذا الباب من أجل أن يرى المنافقون من خلاله نعم الجنّة ويتحسّرون عليها، أو أنّ من كان قليل التلوّث بالذنوب وقد نال جزاءه من العذاب بإمكانه أن يدخل منها ويكون مع المؤمنين في نعيمهم.

غير أنّ هذا الحائط ليس من النوع الذي يمنع عبور الصوت حيث يضيف سبحانه: أنّ المنافقين ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ لقد كنّا نعيش معكم في هذه الدنيا فما الذي حدث وانفصلتم عنّا وذهبتم إلى الروح والرحمة الإلهيّة وتركتمونا في قبضة العذاب؟

(قالوا: بلى) كنّا معكم في أماكن كثيرة في الأزقّة والأسواق، في السفر والحضر، وكنّا أحياناً جيراناً أو في بيت واحد. . . نعم كنّا معاً، إلاّ أنّ اختلافاتنا في العقيدة والعمل كانت هي الفواصل بيننا، لقد كنتم تسيرون في خطّ منفصل عن خطّنا وكنتم غرباء عن الله في الأُصول والفروع، لذا فأنتم بعيدون عنّا، ثمّ يضيفون: لقد ابتليتم بخطايا وذنوب كثيرة من جملتها:

- ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ وخدعتموها بسلوك طريق الكفر والضلال.

- ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ وانتظرتم موت النّبي وهلاك المسلمين وانهدام أساس الإسلام، بالإضافة إلى التهرّب من إنجاز كلّ عمل إيجابي وكلّ حركة صحيحة، حيث تتعلّلون وتماطلون وتسوّفون إنجازها.

- ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ في المعاد وحقّانية دعوة النّبي والقرآن. .

- وخدعتكم الآمال ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾.

نعم هذه الأماني لم تعطكم مجالاً - حتى لحظة واحدة - للتفكّر الصحيح، لقد كنتم مغمورين في تصوّراتكم وتعيشون في عالم الوهم والخيال، واستولت عليكم أُمنية الوصول إلى الشهوات والأهداف المادية.

- ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ إنّ الشيطان غرّكم بوساوسه في مقابل وعد الله عزّوجلّ ، فتارةً صوّر لكم الدنيا خالدة باقية وأُخرى صوّر لكم القيامة بعيدة الوقوع، وفي بعض الأحيان

غرّكم بلطف الله والرحمة الإلهية، وأحياناً جعلكم تشكّون في أصل وجود الله العظيم الخالق.

هذه العوامل الخمسة هي التي فصلت خطّكم عنّا بصورة كليّة وأبعدتنا عنكم وأبعدتكم عنّا.

﴿فَتَنتُمْ﴾ من مادّة (فتنة) جاءت بمعاني مختلفة كـ(الامتحان والانخداع، والبلاء والعذاب، والضلالة والانحراف، والشرك وعبادة الأصنام) والمعنيان الأخيران هنا أنسب أي الضلال والشرك.

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ من مادّة (تربّص) في الأصل بمعنى الانتظار، سواء كان إنتظار البلاء والمصيبة أو الكثرة والنعمة، والمناسب الأكثر هنا هو إنتظار موت الرّسول ﷺ وانتكاسة الإسلام، أو أنّ الانتظار بمعنى التعلّل في التوبة من الذنوب وإنجاز كلّ عمل من أعمال الخير.

«وارتبتم» من مادّة (ريب) تطلق على كلّ شكّ وترديد وما سيتوقّع فيما بعد، والمعنى الأنسب هنا هو الشكّ بالقيامة أو حقّانية القرآن الكريم.

وبالرغم من أنّ مفهوم الكلمات المستعملة في الآية واسع، إلاّ أنّ من الممكن أن تكون لبيان المسائل المذكورة بالترتيب، من مسألة «الشرك» وانتظار «نهاية عمر الإسلام والرّسول» ومن ثمّ «الشكّ في المعاد» الذي يؤدّي إلى «التلوّث العملي» عن طريق «الانخداع بالأماني» والشيطان، وبناءً على هذا فالجمل الثلاث الأُولى من الآية ناظرة إلى الأُصول الثلاثة للدين، والجملتان الأُخريتان بعدهما ناظرتان إلى فروع الدين.

وأخيراً فإنّ المؤمنين - بلحاظ ما تقدّم - يخاطبون المنافقين بقولهم: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وبهذا الترتيب يواجه المنافقون نفس مصير الكفّار أيضاً، وكلّهم رهينة ذنوبهم وأعمالهم القبيحة، ولا يوجد لهم أي طريق للخلاص.

ثمّ يضيف سبحانه: ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ(١) وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

الإنسان - عادةً - لكي ينجو من العقوبة المتوقّعة في الدنيا، يتوسّل للخلاص منها إمّا بالغرامة المالية أو طلب العون والمساعدة من قوّة شفيعة، إلاّ أنّه هناك - في يوم

(١) «مولى» هنا من الممكن أن تكون بمعنى الولي، أو بمعنى الشخص أو الشيء الذي تكون له الأولوية للإنسان.

القيامة - لا يوجد أي منهما ينقذ الكفّار والمنافقين من العذاب المحتوم عليهم.

وفي يوم القيامة - عادةً - تنقطع كلّ الأسباب والوسائل المادية المتعارف عليها في هذا العالم للوصول إلى المقاصد المرجوة، كما تنفصم الروابط حيث يقول سبحانه: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾[1].

﴿يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾[2].

﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾[3]

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا﴾[4].

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾[5].

﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾[6].

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[7].

وبهذه الصورة يوضّح القرآن الكريم أنّ الوسيلة الوحيدة للنجاة في ذلك اليوم هي الإيمان والعمل الصالح في الدنيا، حتى أنّ دائرة الشفاعة محدودة للأشخاص الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً وليسوا من الغرباء مطلقاً عن الإيمان والذين قطعوا ارتباطهم بصورة كليّة من الله وأوليائه وعصوا أوامره.

ملاحظة

الاستغاثة العقيمة للمجرمين

نظراً إلى أنّ الكثير من الناس في يوم القيامة يجهلون طبيعة النظام المهيمن هنالك ويتصوّرون أنّ نفس أنظمة الدنيا تحكم هناك أيضاً، فيحاولون استخدامها، إلاّ أنّه سرعان ما يتبيّن الخطأ الكبير الذي وقعوا فيه.

فأحياناً يتوسّل المجرمون بالمؤمنين بقولهم لهم: ﴿انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ . . .﴾ إلاّ أنّه بسرعة يواجهون الردّ الحاسم، وهو أنّ منبع النور ليس هنا، إنّما في دار الدنيا حيث تخلّفتم عنه بالغفلة وعدم المعرفة.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٤٨.
(٤) سورة الدخان، الآية: ٤١.
(٥) سورة الطور، الآية: ٤٦.
(٦) سورة المؤمنون، الآية: ١٠١.
(٧) سورة المدثر، الآية: ٣٨.

وأحياناً يطلب كلّ منهم العون من الآخر (الأتباع من قائدهم) فيقولون: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾(١).

وهنا يواجهون الردّ المخيّب لآمالهم أيضاً.

ثمّ إنّهم يستنجدون ويلتمسون العون من خزنة جهنّم حيث يقولون: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾(٢).

وأحياناً يتجاوزن ذلك ويلتمسون من الله أن يخفّف عنهم حيث يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾(٣).

ولكن هذا الطريق هو الآخر مغلق عليهم أيضاً، لأنّ عهد التكليف قد انقضى وهذه دار الجزاء والعقاب.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

سبب النّزول

وردت لنزول الآية الأُولى أعلاه عدّة أسباب: منها أنّ الآية المذكورة نزلت - بعد سنة من هجرة الرّسول ﷺ - تتحدّث عن المنافقين، وذلك أنّهم سألوا سلمان الفارسي: حدّثنا عمّا في التوراة، فخبّرهم أنّ القرآن أحسن القصص كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ . . .﴾(٤) وعاودوا بعدها سؤال سلمان فجاءهم هذا التوبيخ والعتاب.

وقيل: كان الصحابة بمكّة مجدبين، فلمّا هاجروا أصابوا الخير والنعمة، فتغيّروا عمّا

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢١.
(٢) سورة المؤمن، الآية: ٤٩.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٧.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

كانوا عليه، فقست قلوبهم فعوتبوا من ذلك[١].

كما نلاحظ أسباب نزول أُخرى للآية، وبما أنّها تتحدّث عن نزول هذه الآية في مكّة، لذا فإنّها غير قابلة للاعتماد، لأنّ المشهور أنّ جميع هذه السورة قد نزلت في المدينة.

التفسير

إلى متى هذه الغفلة؟

بعد ما وجّهت الآيات السابقة مجموعة من الإنذارات الصارمة والتنبّهات الموقظة، وبيّنت المصير المؤلم للكفّار والمنافقين في يوم القيامة، جاءت الآية الأُولى مورد البحث بشكل استخلاص نتيجة كليّة من ذلك، فتقول: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾[٢].

﴿تَخْشَعَ﴾ من مادّة «خشوع» بمعنى حالة التواضع مقترنة بالأدب الجسمي والروحي، حيث تنتاب الإنسان هذه الحالة - عادةً - مقابل حقيقة مهمّة أو شخصية كبيرة.

ومن الواضح أنّ ذكر الله عزّوجلّ إذا دخل أعماق روح الإنسان، وسمع الآيات القرآنية بتدبّر فإنّها تكون سبباً للخشوع، والقرآن الكريم هنا يلوم بشدّة قسماً من المؤمنين لعدم خشوعهم أمام هذه الأُمور، لأنّه قد ابتلي كثير من الأُمم السابقة بمثل هذا من الغفلة والجهل. وهذه الغفلة تؤدّي إلى قساوة القلب وبالتالي إلى الفسق والعصيان.

ولهذا هل نقتنع بادّعاء الإيمان، والعيش في رفاه والانشغال بالأكل والشرب ونمرّ أمام هذه المسائل المهمّة ببساطة؟ وهل أنّ أعمالنا ومسؤولياتنا تتناسب مع الإيمان الذي ندّعيه؟

هذه التساؤلات لابدّ من الإجابة عنها مع أنفسنا بهدوء وموضوعية.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٣، ص٢٣٧ كما جاء في تفسير الدرّ المنثور أيضاً أسباب نزول كثيرة للآية من جملتها سبب النزول الثاني (الدرّ المنثور، ج ٦، ص ١٧٥) وأتى البيضاوي أيضاً في تفسير (أنوار التنزيل) بنفس سبب النزول المذكور.

(٢) (يأن) من مادّة (إنا) على وزن (ندا) ومن مادّة (أناء) على وزن جفاء بمعنى الاقتراب وحضور وقت الشيء.

جملة: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ قد تكون إشارة إلى الفاصلة الزمنية بينهم وبين أنبيائهم، ويحتمل أن يكون المقصود بها طول العمر، أو طول الأمانيّ، أو عدم نزول العذاب الإلهي منذ مدّة طويلة، أو كلّ ذلك، لأنّ كلّ واحدة من هذه الأسباب يمكن أن تكون عاملاً للغفلة والقساوة، وهي بدورها تسبّب الذنب والإثم.

جاء في حديث للإمام علي عليه السلام: «لا تعالجوا الأمر قبل بلوغه فتندموا، ولا يطولنّ عليكم الأمد فتقسو قلوبكم»(١).

ونقرأ في حديث آخر عن لسان عيسى المسيح عليه السلام: «لا تكثروا بالكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم، فإنّ القلب القاسي بعيد من الله، ولا تنظروا في ذنوب العباد كأنّكم أرباب، وانظروا في ذنوبكم كأنّكم عبيد، والناس رجلان: مبتلى ومعافى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية»(٢).

ولأنّ إحياء القلوب الميتة لا يكون إلاّ بالذكر الإلهي، الحياة الروحية التي لن تكون إلاّ بظلّ الخشوع والخضوع وخاصّة في أجواء القرآن الكريم... لذا فإنّ القرآن يشبّه عملية إحياء القلوب الميتة بإحياء الأراضي الميتة، فكما أنّ هذه تحيا ببركة نزول الأمطار كذلك فإنّ القلوب تحيا بذكر الله سبحانه... حيث يضيف سبحانه في الآية اللاحقة: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

هذه الآية تشير إلى إحياء الأراضي بوسيلة المطر، كذلك فإنّ إحياء القلوب الميتة يكون بواسطة ذكر الله وقراءة القرآن المجيد الذي نزل من سماء الوحي على القلب الطاهر للنّبي محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وكلاهما جديران بالتدبّر والتعقّل، لذا أُشير في الروايات السابقة إلى كليهما.

ونقرأ في حديث للإمام الصادق عليه السلام في تفسيره لهذه الآية أنّه قال: «العدل بعد الجور»(٣).

كما نقرأ في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسيره للآية: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ﴾ قال: «يحيي الله تعالى الأرض بالقائم بعد موتها، يعني بموتها كفر أهلها، والكافر ميّت»(٤).

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٨٣، ح ٨٥. (٢) تفسير مجمع البيان، ج٩، ص٢٣٨.

(٣) روضة الكافي مطابق لنقل الثقلين، ج٥، ص٢٤٣.

(٤) كمال الدين مطابق لنقل نور الثقلين، ج٥، ص٢٤٢.

ومن الواضح أنّ هذه التفاسير في الحقيقة هي بيان لمصاديقها البارزة، ولا تحدّ من مفهوم الآية أبداً.

وجاء في حديث آخر عن الإمام الكاظم عليه السلام: «فإنّ الله يحيي القلوب الميتة بنور الحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل المطر»(١).

ويرجع مرّة أُخرى في الآية اللاحقة إلى مسألة الإنفاق، والتي هي إحدى ثمار شجرة الإيمان والخشوع، حيث يتكرّر نفس التعبير الذي قرأناه في الآيات السابقة مع إضافة، حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾(٢).

أمّا لماذا طرحت مسألة الإنفاق بعنوان القرض الحسن لله سبحانه؟ ولماذا كان الجزاء المضاعف الأجر الكريم؟

يمكن معرفة الإجابة على هذه التساؤلات في البحث الذي بيّناه في نهاية الآية (١١) من نفس هذه السورة.

احتمل البعض أنّ المقصود من القرض الحسن لله في هذه الآيات والآيات المشابهة(٣) بمعنى الإقراض للعباد، لأنّ الله تعالى ليس بحاجة للقرض، بل إنّ العباد المؤمنين هم الذين بحاجة إلى القرض، ولكن بملاحظة سياق الآيات يفهم أنّ المقصود من «القرض الحسن» في كلّ هذه الآيات هو الإنفاق في سبيل الله، بالرغم من أنّ القرض لعباد الله هو من أفضل الأعمال أيضاً.

ويرى «الفاضل المقداد» أيضاً في كنز العرفان في تفسير القرض الحسن بأنّه كلّ الأعمال الصالحة(٤).

موعظة وتوبة

إنّ آية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ...﴾ من الآيات المثيرة في القرآن الكريم، حيث تليّن القلب، وترطّب الروح وتمزّق حجب الغفلة وتعلن منبّهة: ألم

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٨، ص٣٠٨.

(٢) ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾، بمعنى «المتصدقين والمتصدقات» وعطف ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الذي هو «جملة فعلية» على «الجملة الإسمية» السابقة، لأنّ معنى هذه الجملة هو «الذين أقرضوا الله».

(٣) تراجع الآية (٢٤٥ من سورة البقرة) و(الحديد الآية ١١) و(التغابن الآية ١٧) و(المزمل الآية ٢٠).

(٤) كنز العرفان، ج٢، ص٥٨.

يأن للقلوب المؤمنة أن تخشع مقابل ذكر الله وما نزّل من الحقّ! وتحذّر من الوقوع في شراك الغفلة كما كان بالنسبة لمن سبق حيث آمنوا وتقبّلوا آيات الكتاب الإلهي، ولكن بمرور الزمن قست قلوبهم.

لذلك نلاحظ بصورة مستمرة أنّ أفراداً مذنبين جدّاً قد هداهم الله إلى طاعته بعد سماعهم هذه الآية التي وقعت في نفوسهم كالصاعقة، وأيقظتهم من سباتهم وغفلتهم التي كانوا فيها، ولهذا شواهد عديدة حيث تنقل لنا كتب التاريخ العديد منها، حتى أنّ البعض منهم أصبح في صفّ الزهّاد والعبّاد، ومن جملتهم العابد المعروف «فضيل بن عيّاض» الزاهد.

حيث يحكى عنه أنّه كان في أوّل أمره يقطع الطريق بين «أبيورد» و«سرخس»، وعشق جارية، فبينما هو يرتقي الجدران إليها سمع تالياً يتلو: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ قال: (بلى والله قد آن) فرجع وأوى إلى خربة فإذا فيها رفقة، فقال بعضهم: نرتحل، وقال بعضهم: حتى نصبح، فإنّ فضيلاً قد قطع الطريق علينا. فتاب الفضيل وأمّنهم.

وحكي أنّه جاور الحرم حتى مات(١).

ونقل بعض المفسّرين أنّ أحد رجال البصرة المعروفين قال: بينما كنت أسير في طريق فسمعت فجأة صيحة، فذهبت متتبعاً آثارها، فشاهدت رجلاً مغمى عليه على الأرض، قلت: ما هذا! قالوا: رجل واعي القلب سمع آية من القرآن واندهش، قلت: أي آية؟ قالوا: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ...﴾ وفجأة أفاق الرجل عند سماع صوتنا وبدأ بقراءة هذا الشعر المؤثّر:

أما آن للهجران أن يتصرما ... وللغصن غصن البان أن يتبسّما

وللعاشق الصبّ الذي ذاب وانحنى ... ألم يأن أن يبكى عليه ويرحما

كتبت بماء الشوق بين جوانحي ... كتاباً حكى نقش الوشي المنمنما

قال ذلك ثمّ سقط على الأرض. مدهوشاً مرّة أُخرى، فحرّكناه وإذا به قد سلّم روحه إلى بارئه وربّه(٢).

---

(١) سفينة البحار، ج٢، ص٣٦٩. وروح البيان، ج٩، ص٣٦٥. وتفسير القرطبي، ج٩، ص٦٤٢.

(٢) تفسير نور المعاني، ج٢٧، ص١٥٦.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ
أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ
(١٩) اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي
الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ
يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠)﴾

التّفسير

الدنيا متاع الغرور

استمراراً للبحث الذي تناولته الآيات السابقة في بيان حال المؤمنين وأجرهم عند الله تعالى، تضيف الآيات التالية بهذا الصدد قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

«الصدّيق» صيغة مبالغة من (الصدق) بمعنى الشخص الذي يستوعب الصدق جميع وجوده، حيث يصدّق عمله قوله، وهو النموذج التامّ للصدق.

«شهداء» جمع «شهيد» من مادّة (شهود) بمعنى الحضور مع المشاهدة سواء كانت بالعين المجرّدة أو البصيرة، وإذا أُطلقت على «الشاهد» كلمة شاهد وشهيد، فالسبب هو حضوره ومشاهدته في المكان، كما يطلق هذا المصطلح على «الشهداء في سبيل الله» بسبب حضورهم في ميدان الجهاد.

إلاّ أنّ المراد من ﴿وَالشُّهَدَاءُ﴾ في الآية مورد البحث قد يكون الشهادة على الأعمال، كما يستفاد من الآيات القرآنية الأخرى، فالأنبياء شهداء على أعمال أُممهم، ورسول الإسلام شاهد عليهم وعلى الأُمّة الإسلامية، والمسلمون أيضاً شهداء على أعمال الناس(١).

وبناءً على هذا، فإنّ الشهادة على الأعمال مقام عال، والذي يكون من نصيب المؤمنين.

---

(١) يراجع التّفسير الأمثل، تفسير الآية (٧٨) من سورة الحجّ، وتفسير الآية (٤١) من سورة النساء.

واحتمل البعض أنّ (شهداء) هنا هو الشهداء في سبيل الله، أي الأشخاص المؤمنون الذين لهم أجر وثواب الشهادة، يحسبون بمنزلة الشهداء، لذا ذكر في حديث أنّ شخصاً ذهب إلى الإمام الصادق عليه السلام، فقال له: ادع الله أن يرزقني الشهادة. فقال الإمام عليه السلام: «إنّ المؤمن شهيد، ثمّ قرأ هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ. . .﴾»[1].

ومن الطبيعي أنّه يمكن الجمع بين المعنيين، خصوصاً وأنّ القرآن الكريم أطلق مصطلح «شهيد وشهداء» في الغالب على الأعمال وما إلى ذلك.

وعلى كلّ حال، فإنّ الله تعالى يصف المؤمنين الحقيقيين هنا بوصفين: الأوّل: «الصدّيق» والآخر: «الشهيد»، وهذا يرينا أنّ المقصود من المؤمنين في الآية مورد البحث هم أصحاب الدرجات العالية في الإيمان لا المؤمن العادي[2].

ثمّ يضيف تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾.

إنّ هذا التعبير المختصر يشير إلى عظيم الأجر والنور الذي ينتظرهم.

وفي النهاية يضيف تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا أُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ الْجَحِيمِ﴾ وذلك كي تتوضّح بهذه المقارنة والنتيجة التي آلت إليها المجموعتان، والتي تتدرّج بين القمّة والقاع، حيث إنّ القسم الأوّل في المقام العالي من دار الخلد، والقسم الثاني في الدرك الأسفل من النار يندبون سوء حظّهم وانحطاط مصيرهم.

وبما أنّ المجموعة الأُولى كانت في أعلى مستويات الإيمان، ففي المقابل أيضاً ذكرت الآية أيضاً الكفر بأسوأ صوره في الجماعة الثانية المقارن للتكذيب بآيات الله.

ولأنّ حبّ الدنيا مصدر كلّ رذيلة، ورأس كلّ خطيئة، فالآية اللاحقة ترسم بوضوح وضع الحياة الدنيا والمراحل المختلفة والمحفّزات والظروف والأجواء التي تحكم كلّ مرحلة من هذه المراحل، حيث يقول سبحانه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَـٰدِ﴾.

---

(١) تفسير العياشي طبقاً لنقل نور الثقلين، ج٥، ص٢٤٤.

(٢) طبقاً للتفسير أعلاه فإنّ جملة ﴿أُولَـٰٓئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ليس لها أي تقدير، إذ إنّ هؤلاء الجماعة من المؤمنين اعتبروا مصداقاً للصدّيقين والشهداء، إلاّ أنّ بعض المفسّرين يعتقد أنّ هؤلاء بمنزلة الصدّيقين والشهداء، ولهم نفس الأجر، ولكن ليس لهم كامل مميّزاتهم ومفاخرهم. ويقولون: إنّ الآية تقديرها (أولئك لهم مثل أجر الصدّيقين والشهداء).
تفسير روح المعاني، الميزان نهاية الآيات مورد البحث، وطبعاً فإنّ مرجع الضمائر (لهم، وأجرهم) يختلف أيضاً. إلاّ أنّ هذا التّفسير لا يتناسب مع ظاهر الآية (يرجى الانتباه)

وبهذه الصورة فإنّ «الغفلة» و«اللهو» و«الزينة» و«التفاخر» و«التكاثر» تشكّل المراحل الخمس لعمر الإنسان.

ففي البداية مرحلة الطفولة، والحياة في هذه المرحلة عادةً مقترنة بحالة من الغفلة والجهل واللعب.

ثمّ مرحلة المراهقة حيث يأخذ اللهو مكان اللعب، وفي هذه المرحلة يكون الإنسان لاهثاً وراء الوسائل والأُمور التي تلهيه وتبعده عن الأعمال الجدّية.

والمرحلة الثالثة هي مرحلة الشباب والحيوية والعشق وحبّ الزينة.

وإذا ما تجاوز الإنسان هذه المرحلة فإنّه يصل إلى المرحلة الرابعة حيث تتولّد في نفسه دوافع العلو والتفاخر.

وأخيراً يصل إلى المرحلة الخامسة حيث يفكّر فيها بزيادة المال والأولاد وما إلى ذلك.

والمراحل الأُولى تشخّص حسب العمر تقريباً، إلاّ أنّ المراحل اللاحقة تختلف عند الأشخاص تماماً، والبعض من هذه المراحل تستمر مع الإنسان إلى نهاية عمره، كمرحلة جمع المال، وبالرغم من أنّ البعض يعتقد أنّ كلّ مرحلة من هذه المراحل الخمس تأخذ سنين من عمر الإنسان مجموعها أربعون سنة، حيث تتثبّت شخصية الإنسان عند وصوله إلى هذا العمر.

كما أنّ بعض الأشخاص يمكن أن تتوقّف شخصيتهم في المرحلة الأُولى والثانية حتى مرحلة الهرم، ولذا فإنّ سمات هذه المرحلة تبقى هي الشاخصة في سلوكهم وتكوين شخصياتهم، حيث اللعب والشجار واللهو هو الطابع العامّ لهم، وتفكيرهم منهمك للغاية في تهيئة البيت الأنيق والملابس الفاخرة وغير ذلك من متع الحياة الدنيا حتى الموت... إنّهم أطفال في سنّ الكهولة، وشيوخ في روحية الأطفال.

ويذكر سبحانه مثالاً لبداية ونهاية الحياة ويجسّد الدنيا أمام أعين الناس بهذه الصورة حيث يقول سبحانه: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾(١).

---

(١) ﴿يَهِيجُ﴾ من مادّة هيجان جاءت هنا بمعنيين الأوّل: جفاف النبات، والآخر: التحرّك والحيوية، وقد يرجع هذان المعنيان إلى أصل واحد، لأنّ النبات عند جفافه يكون مهيّأ للاندثار والانتشار بحركة الرياح.

«كفّار» هنا ليس بمعنى الأشخاص غير المؤمنين، ولكن بمعنى ﴿ٱلزُّرَّاعَ﴾ لأنّ أصل الكفر هو التغطية، وبما أنّ الزارع عندما ينثر البذور يغطّيها بالتراب، فقد قيل له كافر، ويقال إنّ «الكفر» جاء بمعنى القبر أحياناً، لأنّه يغطّي جسم الميّت كما ورد في (سورة الفتح الآية / ٢٩).

وفي الحديث عن النمو السريع للنبات يقول تعالى: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾[١] إذ وردت هنا كلمة ﴿ٱلزُّرَّاعَ﴾ بدلاً من الكفّار.

ويحتمل بعض المفسّرين أيضاً أنّ المقصود من «الكفّار» هنا هو نفس الكفر بالله تعالى وذكروا عدّة توجيهات لهذا، والظاهر أنّ هذا التّفسير لا يتناسب وسياق الآية، إذ إنّ المؤمن والكافر شريكان في هذا التعجّب.

(حطام) من مادّة (حطم) بمعنى التكسير والتفتيت، ويطلق على الأجزاء المتناثرة للتبن (حطام) وهي التي تأخذها الرياح باتّجاهات مختلفة.

إنّ المراحل التي يمرّ بها الإنسان مدّة سبعين سنة أو أكثر تظهر في النبات بعدّة أشهر، ويستطيع الإنسان أن يسكن بجوار المزرعة ويراقب بداية ونهاية العمر في وقت قصير.

ثمّ يتطرّق القرآن الكريم إلى حصيلة العمر ونتيجته النهائية حيث يقول سبحانه: ﴿وَفِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾.

وأخيراً تنهي الآية حديثها بهذه الجملة: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾.

«غرور» في الأصل من مادّة (غرّ) على وزن «حرّ» بمعنى الأثر الظاهر للشيء، ويقال (غُرّة) للأثر الظاهر في جبهة الحصان، ثمّ أُطلقت الكلمة على حالة الغفلة، حيث إنّ ظاهر الإنسان واع، ولكنّه غافل في الحقيقة، وتستعمل أيضاً بمعنى الخدعة والحيلة.

«المتاع» بمعنى كلّ نوع ووسيلة يستفاد منها، وبناءً على هذا فإنّ جملة (الدنيا متاع الغرور) كما جاءت في قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ تعني أنّها وسيلة وأداة للحيلة والخدعة للفرد وللآخرين.

وطبيعي أنّ هذا المعنى وارد في الأشخاص الذين يعتبرون الدنيا هدفهم النهائي، وتكون منتهى غاياتهم، ولكن إذا كانت الهبات المادية في هذا العالم وسيلة للوصول

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

بالإنسان للسعادة الأبدية، فذلك لا يعدّ من الدنيا، بل ستكون جسراً وقنطرة ومزرعة للآخرة التي ستتحقّق فيها تلك الأهداف الكبيرة حقّاً.

من البديهي أنّ النظر إلى الدنيا باعتبار أنّها «مقرّ» أو «جسر» سوف يعطي للإنسان توجّهين مختلفين، الأوّل: يكون سبباً للنزاع والفساد والتجاوز والظلم، والطغيان والغفلة، والثاني: وسيلة للوعي والتضحية والأُخوّة والإيثار.

تعقيب:

١ - مقام الصدّيقين والشهداء

وصف القرآن الكريم الأنبياء العظام وأمثالهم بأنّهم (صدّيقون) ومن جملتهم إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾(١).

ووصف إدريس عليه السلام بنفس الوصف قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾(٢).

وحول أُمّ المسيح السيّدة مريم عليها السلام نقرأ قوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ﴾(٣).

كما جاء ذكر ﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ على مستوى الأنبياء أو من معهم في بعض الآيات القرآنية، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾(٤).

وكما قلنا فإنّ هذا المصطلح صيغة مبالغة من مادّة (صدق) تقال للشخص الذي يحيط الصدق كلّ وجوده، وينعكس الصدق في أفكاره وأقواله وأعماله وكلّ حياته، وهذا يعكس لنا أهميّة مقام الصدق.

أمّا (الشهداء) فكما قلنا يمكن أن يقصد بهم الشهداء على الأعمال أو بمعنى الشهداء في سبيل الله، وفي الآية مورد البحث يمكن الجمع بين الرأيين.

ومن الطبيعي أنّ «الشهيد» في الفكر الإسلامي لا ينحصر بالشخص الذي يقتل في ميدان الجهاد، بالرغم من أنّه أوضح مصداق لمفهوم الشهيد، بل ينطبق على كلّ الأشخاص الذين يؤمنون بالعقيدة الإلهيّة ويسيرون في طريق الحقّ حتى رحيلهم من الدنيا، وذلك تماشياً مع الروايات الإسلامية فإنّها تعدّ هؤلاء في زمرة الشهداء.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٤١.
(٢) سورة مريم، الآية: ٥٦.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٧٥.
(٤) سورة النساء، الآية: ٦٩.

جاء في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «العارف منكم هذا الأمر المنتظر له المحتسب فيه الخير، كمن جاهد والله مع قائم آل محمّد بسيفه. ثمّ قال: بل والله كمن جاهد مع رسول بسيفه. ثمّ قال الثالثة: بل والله كمن استشهد مع رسول الله في فسطاطه، وفيكم آية من كتاب الله، قلت: وأي آية جعلت فداك؟ قال: قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ. . .﴾ ثمّ قال: «صرتم والله صادقين شهداء عند ربّكم»[1].

وننهي هذا الموضوع بحديث لأمير المؤمنين[2] عندما كان بعض أصحابه يستعجلون في أمر الجهاد ونيل الشهادة. . . حيث قال: «لا تستعجلوا ما لم يعجله الله لكم، فإنّه من مات منكم على فراشه وهو على معرفة حقّ ربّه وحقّ رسوله وأهل بيته مات شهيداً»[3].

٢ - الحياة الدنيا... لهو ولعب

يصف القرآن الكريم - أحياناً - الحياة الدنيا بأنّها لهو ولعب، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[4].

ويصفها أحياناً باللهو واللعب والزينة والتفاخر والتكاثر، كما في الآيات مورد البحث.

ويصفها أحياناً بأنّها ﴿مَتَٰعُ الْغُرُورِ﴾ كما في قوله تعالى ﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ﴾[5].

ويصفها أحياناً بأنّها ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ كما جاء في: (الآية ٧٧ من سورة النساء).

وأحياناً يصفها بأنّها عارض ظاهري سريع الزوال. (النساء/ ٩٤).

ومجموع هذه التعبيرات والآيات القرآنية توضّح لنا وجهة نظر الإسلام حول الحياة المادية ونعمها، حيث إنّه يعطيها القيمة المحدودة التي تتناسب مع شأنها، ويعتبر الميل إليها والانشداد لها ناشئاً من توجّه غير هادف (لعب) و(لهو) وتجمّل و(زينة) وحبّ المقام والرئاسة والأفضلية على الآخرين (تفاخر) والحرص وطلب المال والأولاد بكثرة

(١) تفسير مجمع البيان، ج٩، ص٢٣٨.
(٢) نهج البلاغة، خطبة ١٩٠.
(٣) المصدر السابق.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٣٢.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

(التكاثر) ويعتبر التعلّق بها مصدراً للذنوب والآثام والمظالم.

أمّا إذا تحوّلت النظرة إلى هذه النعم الإلهيّة، وأصبحت سلّماً للوصول إلى الأهداف الإلهيّة، عندئذ تصبح رأسمال يشتريها الله من المؤمنين ويعطيهم عوضها جنّة خالدة وسعادة أبديّة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ...﴾(١).

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾

التّفسير

المسابقة المعنوية الكبرى!!

بعد ما بيّنت الآيات السابقة قيمة هذه الدنيا المتواضعة الفانية، وكيف أنّ الناس فيها منهمكون في اللذات والتكاثر والتفاخر وجمع الأموال... تأتي الآيات مورد البحث لتدعو الناس إلى العمل للحصول على موقع في الدار الآخرة، ذلك الموقع المتّسم بالثبات والبقاء والخلود، وتدعوهم إلى السباق في هذا المجال وبذل الجهد فيه، حيث يقول سبحانه: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾.

وفي الحقيقة أنّ مغفرة الله هي مفتاح الجنّة، تلك الجنّة التي عرضها السماوات والأرض وقد أُعدّت من الآن لضيافة المؤمنين، حتى لا يقول أحد إنّ الجنّة نسيئة ودين

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

ولا أمل في النسيئة، فعلى فرض أنّها نسيئة فإنّها أقوى من كلّ نقد، لأنّها ضمن وعد الله القادر على كلّ شيء وأصدق من كلّ وعد، فكيف الحال وهي موجودة الآن وبصورة نقد؟!

وقد ورد نفس هذا المعنى في سورة آل عمران (الآية رقم ١٣٣) مع اختلاف بسيط، حيث إنّ في الآية مورد البحث جاءت كلمة ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ من مادّة (المسابقة) وهنالك وردت كلمة ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ من مادّة (المسارعة)، وكلاهما قريب من الآخر بالنظر إلى مفهوم باب «المفاعلة» حيث تتجسّد غلبة شخصين أحدهما على الآخر.

والاختلاف الآخر هو أنّها هنالك قد جاءت بوصف: ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾[1] وهنا جاءت: (عرضها كعرض السماء والأرض) وإذا دقّقنا قليلاً يتّضح أنّ هذين التعبيرين يوضّحان حقيقة واحدة أيضاً.

ويقول سبحانه هناك: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2] وهنا يقول: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

ولأنّ المتّقين ثمرة شجرة الإيمان الحقيقي، فإنّ هذين التعبيرين في الواقع كلّ منها لازم وملزوم للآخر.

وبهذه الصورة فإنّ الاثنين يتحدّثان عن حقيقة واحدة ببيانين مختلفين، ولهذا فما ذكره البعض من أنّ الآية سورة آل عمران تشير إلى «جنّة المقرّبين»، وآية مورد البحث تشير إلى «جنّة المؤمنين»، صحيح حسب الظاهر.

وعلى كل حال فالتعبير بـ(عرض) هنا ليس في مقابل (الطول) كما قال بعض المفسّرين حيث كانوا يبحثون عن طول تلك الجنّة التي عرضها مثل السماء والأرض، ولهذا السبب فإنّهم واجهوا صعوبة في توجيه ذلك، حيث إنّ العرض في مثل هذه الاستعمالات بمعنى «السعة».

والتعبير بـ«المغفرة» قبل البشارة بالجنّة - الذي ورد في الآيتين - هو إشارة لطيفة إلى أنّه ليس من اللائق الدخول إلى الجنّة والقرب من الله قبل المغفرة والتطهير.

وممّا ينبغي ملاحظته أنّ المسارعة لمغفرة الله لابدّ أن تكون عن طريق أسبابها كالتوبة والتعويض عن الطاعات الفائتة، وأساساً فإنّ طاعة الله عزّوجلّ يعني تجنّب المعاصي، ولكنّنا نجد في بعض الأحاديث تأكيداً على القيام بالواجبات وبعض المستحبّات كالتقدّم

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

للصفّ الأوّل في الجماعة، أو الصفّ الأوّل في الجهاد، أو تكبيرة الإحرام مع إمام الجماعة، أو الصلاة في أوّل وقتها، فهذه من قبيل بيان المصداق ولا يقلّل شيئاً من المفهوم الواسع للآية.

ويضيف تعالى في نهاية الآية: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

ومن المؤكّد أنّ جنّة بذلك الاتّساع وبهذه النعم، ليس من السهل للإنسان أن يصل إليها بأعماله المحدودة، لذا فإنّ الفضل واللطف والرحمة الإلهيّة - فقط - هي التي تستطيع أن تمنحه ذلك الجزاء العظيم في مقابل اليسير من أعماله، إذ إنّ الجزاء الإلهي لا يكون دائماً بمقياس العمل، بل إنّه بمقياس الكرم الإلهي.

وعلى كلّ حال فإنّ هذا التعبير يرينا بوضوح أنّ الثواب والجزاء لا يتناسب مع طبيعة العمل، حيث إنّه نوع من التفضل والرحمة.

ولمزيد من التأكيد على عدم التعلّق بالدنيا، وعدم الفرح والغرور عند إقبالها، أو الحزن عند إدبارها، يضيف سبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾(١).

نعم، إنّ المصائب التي تحدث في الطبيعة كالزلازل والسيول والفيضانات والآفات المختلفة، وكذلك المصائب التي تقع على البشر كالموت وأنواع الحوادث المؤلمة التي تشمل الإنسان، فإنّها مقدّرة من قبل ومسجّلة في لوح محفوظ.

والجدير بالانتباه أنّ المصائب المشار إليها في الآية هي المصائب التي لا يمكن التخلّص منها، وليست ناتجة عن أعمال الإنسان. (بتعبير آخر الحصر هنا حصر إضافي).

والشاهد في هذا الكلام قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾(٢).

وبملاحظة أنّ الآيات يفسّر بعضها البعض الآخر يتبيّن لنا عندما نضع هاتين الآيتين جنباً إلى جنب أنّ المصائب التي يبتلى بها الإنسان على نوعين:

---

(١) بالنسبة لعود الضمير في ﴿نَّبْرَأَهَآ﴾ فقد ذكروا احتمالات متعدّدة حيث اعتبر البعض أنّ مرجعها للأرض والأنفس، والبعض الآخر اعتبرها للمصيبة، وبعض جميعها، إلاّ أنّه بالنظر إلى ذيل الآية فإنّ المعنى الأوّل هو الأنسب لأنّه يريد أن يقول: حتى قبل خلق السماء والأرض وخلقكم فإنّ هذه المصائب مقدّرة.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

الأوّل: المصائب التي تكون مجازاة وكفّارة للذنوب، كالظلم والجور والخيانة والانحراف وأمثالها، فإنّها تكون مصدراً للكثير من مصائب الإنسان.

الثاني: من المصائب هو ما لا تكون للإنسان يد فيه، وتكون مقدّرة وحتمية وغير قابلة للاجتناب حيث يبتلى فيها الفرد والمجتمع، لذا فإنّ الكثير من الأنبياء والأولياء والصالحين يبتلون بمثل هذه المصائب.

إنّ هذه المصائب لها فلسفة دقيقة حيث أشرنا إليها في أبحاث معرفة الله والعدل الإلهي ومسألة الآفات والبلايا.

ونقرأ في هذا الصدد القصّة التالية: عندما أُدخل الإمام علي بن الحسين عليه السلام مغلولاً مكبّلاً في مجلس يزيد بن معاوية، التفت يزيد إلى الإمام؛ وقرأ آية سورة الشورى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ وكان يريد أن يظهر أنّ مصائبكم كانت نتيجة أعمالكم، وبهذا أراد الطعن بالإمام عليه السلام بهذا الكلام، إلاّ أنّ الإمام ردّ عليه فوراً وقال: كلاّ، ما نزلت هذه فينا، إنّما نزلت فينا: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾[1].

ولنا بحث مفصّل في هذا المجال في تفسير الآية رقم (٣٠) من سورة الشورى[2].

أتباع أهل البيت أيضاً عرفوا نفس المعنى، في هذه الآية، إذ نقل أنّ الحجّاج عندما جيء له بسعيد بن جبير وصمّم على قتله، بكى رجل من الحاضرين. قال سعيد: وما يبكيك؟ فأجاب: للمصاب الذي حلّ بك، قال: لا تبكِ فقد كان في علم الله أن يكون ذلك، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾[3].

ومن الطبيعي أنّ كلّ الحوادث التي تحدث في هذا العالم مسجّلة في لوح محفوظ وفي علم الله عزّ وجلّ اللاّمحدود، وإذا أشرنا هنا إلى المصائب التي تقع في الأرض وفي الأنفس فقط، فلأنّ موضوع الحديث بهذا الاتّجاه، كما سنرى في الآية اللاحقة التي يستنتج منها الموضوع نفسه.

---

(١) تفسير علي بن إبراهيم مطابق لنقل نور الثقلين، ج٥، ص٢٤٧.

(٢) كان لدينا بحث آخر في نهاية الآيتين (٧٨)، (٧٩) من سورة النساء والتي تتناسب مع الآيات مورد البحث.

(٣) تفسير روح البيان ج٩، ص٣٧٥.

وبالضمن فإنّ جملة: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ تشير إلى تسجيل وحفظ كلّ هذه الحوادث في لوح محفوظ مع كثرتها البالغة، وذلك سهل يسير على الله تعالى.

والمقصود من «اللوح المحفوظ» هو: العلم اللا متناهي لله سبحانه، أو صحيفة عالم الخلقة ونظام العلّة والمعلول، والتي هي مصداق العلم الفعلي لله سبحانه «فتدبّر».

ولنلاحظ الآن ما هي فلسفة تقدير المصائب في اللوح المحفوظ، ومن ثمّ بيان هذه الحقيقة في القرآن الكريم؟

الآية اللاحقة تزيح هذا الحجاب عن هذا السرّ المهمّ حيث يقول تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

هاتان الجملتان القصيرتان تحلاّن - في الحقيقة - إحدى المسائل المعقّدة لفلسفة الخلقة، لأنّ الإنسان يواجه دائماً مشاكل وصعوبات وحوادث مؤسفة في عالم الوجود، ويسأل دائماً نفسه هذا السؤال وهو: رغم أنّ الله رحمن رحيم وكريم. . ، فلماذا هذه الحوادث المؤلمة؟!

ويجيب سبحانه أنّ هدف ذلك هو: ألا تأسركم مغريات هذه الدنيا وتنشدّوا إليها وتغفلوا عن أمر الآخرة. . . كما ورد في الآية أعلاه.

والمطلوب أن تتعاملوا مع هذا المعبر والجسر الذي اسمه الدنيا بشكل لا تستولي على لباب قلوبكم، وتفقدوا معها شخصيّتكم وكيانكم وتحسبون أنّها خالدة وباقية، حيث إنّ هذا الانشداد هو أكبر عدوٍّ لسعادتكم الحقيقية، حيث يجعلكم في غفلة عن ذكر الله ويمنعكم من مسيرة التكامل.

هذه المصائب هي إنذار للغافلين وسوط على الأرواح التي تعيش الغفلة والسبات، ودلالة على قصر عمر الدنيا وعدم خلودها وبقائها.

والحقيقة أنّ المظاهر البرّاقة لدار الغرور تبهر الإنسان وتلهيه بسرعة عن ذكر الحقّ سبحانه، وقد يستيقظ فجأةً ويرى أنّ الوقت قد فات وقد تخلّف عن الركب.

هذه الحوادث كانت ولا تزال في الحياة، وستبقى بالرغم من التقدّم العلمي العظيم، ولن يستطيع العلم أن يمنع حدوثها ونتائجها المؤلمة، كالزلازل والطوفان والسيول والأمطار وما إلى ذلك. . . وهي درس من قسوة الحياة وصرخة مدوّية فيها. . .

وهذا لا يعني أن يعرض الإنسان عن الهبات الإلهيّة في هذا العالم أو يمتنع من الاستفادة منها، ولكن المهمّ ألاّ يصبح أسيراً فيها، وألاّ يجعلها هي الهدف والنقطة المركزية في حياته.

والجدير بالملاحظة هنا أنّ القرآن الكريم استعمل لفظ ﴿فَاتَكُمْ﴾ للدلالة على ما فقده الإنسان من أشياء، أمّا ما يخصّ الهبات والنعم التي حصل عليها فإنّه ينسبها لله، ﴿بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾، وحيث إنّ الفوت والفناء يكمن في ذات الأشياء، وهذا الوجود هو من الفيض الإلهي.

نعم، إنّ هذه المصائب تكسر حدّة الغرور والتفاخر وحيث يقول سبحانه في نهاية الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

﴿مُخْتَالٍ﴾ من مادّة (خيال) بمعنى متكبّر، لأنّ التكبّر من التخيّل، أي من تخيّل الإنسان الفضل لنفسه، وتصوّره أنّه أعلى من الآخرين، و﴿فَخُورٍ﴾ صيغة مبالغة من مادّة (فخر) بمعنى الشخص الذي يفتخر كثيراً على الآخرين.

والشخص الوحيد الذي يبتلى بهذه الحالات هو المغرور الذي أسكرته النعم، وهذه المصائب والآفات بإمكانها أن توقظه عن هذا السكر والغفلة وتهديه إلى سير التكامل.

ومن ملاحظة ما تقدّم أعلاه فإنّ المؤمنين عندما يرزقون النعم من قبل الله سبحانه فإنّهم يعتبرون أنفسهم مؤتمنين عليها، ولا يأسفون على فقدانها وفواتها، ولا يغفلون ويسكرون بوجودها، إذ يعتبرون أنفسهم كالأشخاص المسؤولين عن بيت المال إذ يستلمون في يوم أموالاً كثيرة ويدفعونها في اليوم الثاني، وعندئذ لا يفرحون باستلامها، ولا يحزنون على إعطائها.

وكم هو تعبير رائع ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام حول هذه الآية: «الزهد كلّه بين كلمتين في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾، ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه»(١).

والنقطة الأُخرى الجديرة بالملاحظة هي أنّ هذا الأصل - وجود المصائب - في حياة الإنسان أمر قدّر عليه طبقاً لسنّة حكيمة، حيث إنّ الدنيا في حالة غير مستقرّة، وهذا الأصل يعطي للإنسان الشجاعة لتحمّل المصائب ويمنحه الصبر والسكينة أمام الحوادث ويكون مانعاً له من الجزع والضجر..

ونؤكّد مرّة أُخرى أنّ هذا يتعلّق - فقط - بالمصائب المقدّرة وغير القابلة للردّ، وإلاّ فإنّ المصائب والمصاعب التي تكون بسبب ذنوب الإنسان وتسامحه في الطاعات

---

(١) نهج البلاغة، كلمات قصار، الكلمة ٤٣٩.

والالتزامات الإلهيّة، فإنّها خارجة عن هذا البحث، ولمواجهتها لابدّ من وضع برنامج صحيح في حياة الإنسان.

وننهي هذا البحث بما ذكر في التاريخ حيث نقل عن بعض المفسّرين ما يلي:

قال «قتيبة بن سعيد»(١): دخلت على إحدى قبائل العرب فرأيت صحراء مملوءة بجمال ميّتة لا تعدّ، وكانت بقربي امرأة عجوز فسألتها: لمن هذه الجمال؟ قالت: لذلك الرجل الجالس فوق التل الذي تراه يغزل، فذهبت إليه وقلت: هل هذا كلّه لك؟ قال: كانت باسمي، قلت: ما الذي جرى وأصبحن بهذا الحال؟ فأجابني - دون الإشارة إلى علّة موتهنّ - إنّ المعطي قد أخذ. قلت: هل ضجرت لما أصابك؟ وهل قلت شيئاً بعد مصابك؟ قال: بلى. وأنشد هذين البيتين:

لا والذي أنا عبد من خلائقه والمرء في الدهر نصب الرزء والمحن

ما سرّني أنّ إبلي في مباركها وما جرى من قضاء الله لم يكن

أنا راض برضى الله تعالى فقط وكل ما يقدّر فأنا أقبله(٢).

وفي آخر آية مورد البحث نلاحظ توضيحاً وتفسيراً لما جاء في الآيات السابقة، والذي يوضّح حقيقة الإنسان المختال الفخور حيث يقول عنه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾(٣).

نعم، إنّ الانشداد العميق لزخارف الدنيا ينتج التكبّر والغرور، ولازم التكبّر والغرور هو البخل ودعوة الآخرين للبخل، أمّا البخل فلأنّ التكبّر والغرور كثيراً ما يكون بسبب ثراء الإنسان الذي يدفعه إلى أن يحرص عليه، وبالتالي يبخل في إنفاقه، ومن هنا فإنّ لازمة الغرور والتكبّر هو البخل.

أمّا دعوة الآخرين إلى البخل، فلأنّ سخاء الآخرين سيفضح غيرهم من البخلاء، هذا أوّلاً، والثاني أنّ البخيل يحبّ البخل، لذا فإنّه يدعو للشيء الذي يرغب فيه.

ولكي لا يتصوّر أنّ تأكيد الله سبحانه على الإنفاق وترك البخل، أو كما عبّرت عنه

---

(١) قتيبة بن سعيد أحد المحدّثين الذي يروي عن مالك بن أنس (منتهى الأرب).

(٢) تفسير أبي الفتوح الرازي، ج١١، ص٥٣ وجاء نظير هذا المعنى في تفسير روح البيان، ج٩، ص٣٧٦.

(٣) ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل من ﴿كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ وتفسير الكشّاف ذيل الآية مورد البحث) وبالضمن يجدر الانتباه إلى أنّ البدل والمبدّل منه ليس بالضرورة أن يتطابقا في المعرفة والنكرة.

الآيات السابقة بـ (القرض لله) مصدره احتياج ذاته المقدّسة، فإنّه يقول في نهاية الآية: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

بل نحن كلّنا محتاجون إليه وهو الغني عنّا جميعاً، لأنّ جميع خزائن الوجود عنده وتحت قبضته، ولأنّه جامع لصفات الكمال فإنّه يستحقّ كلّ شكر وثناء.

وبالرغم من أنّ الآية أعلاه تتحدّث عن البخل المالي، إلاّ أنّه لا ينحصر عليه، لأنّ مفهوم البخل واسع يستوعب في دائرته البخل في العلم وأداء الحقوق وما إلى ذلك أيضاً.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ (٢٥)﴾

التّفسير

الهدف الأساس من بعثة الأنبياء:

ابتدأ الله سبحانه وتعالى عباده بالنعم فكانت رحمته ولطفه ومغفرته، ونعمه الكثيرة التي لا تحصى والتي أُشير إليها في الآيات السابقة... ولأنّ هذه النعم تحتاج إلى تقنين في استعمالها، ونظم وشرائط لنيل نتائجها المرجوّة، لذا فإنّه يحتاج إلى قيادة تقوم بمباشرتها والإشراف عليها وإعطاء التوجيهات الإلهية بشأنها، وهؤلاء القادة يجب أن يكونوا (قادة إلهيين) والآية مورد البحث - التي تعتبر من أكثر الآيات القرآنية محتوى - تشير إلى هذا المعنى، وتبيّن هدف إرسال الأنبياء ومناهجهم بصورة دقيقة، حيث يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾.

«البيّنات» هي الدلائل الواضحة، ولها معنى واسع يشمل المعجزات والدلائل العقليّة التي تسلّح بها الأنبياء والرسل الإلهيّون.

المقصود من (كتاب) هو نفس الكتب السماوية، ولأنّ روح وحقيقة الجميع شيء واحد، لذا فإنّ التعبير بـ (كتاب) جاء بصيغة مفرد.

وأمّا ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ فيعني وسيلة للوزن والقياس، ومصداقها الحسّي هو الميزان الذي

يقاس به وزن البضائع، ومن الواضح أنّ المقصود هو المصداق المعنوي، أي الشيء الذي نستطيع أن نقيس به كلّ أعمال الإنسان، وهي الأحكام والقوانين الإلهيّة أو الأفكار والمفاهيم الربّانية، أو جميع هذه الأُمور التي هي معيار لقياس الأعمال الصالحة والسيّئة.

وبهذه الصورة فإنّ الأنبياء كانوا مسلّحين بثلاث وسائل وهي: «الدلائل الواضحة»، و«الكتب السماوية»، و«معيار قياس الحقّ من الباطل» والجيّد من الرديء. ولا يوجد مانع من أن يكون القرآن (بيّنة) أي معجزة، وهو كذلك كتاب سماوي ومبيّن للأحكام والقوانين، أي أنّ الأبعاد الثلاثة تصبّ في محتوى واحد وهي موجودة في القرآن الكريم.

وعلى كلّ حال، فإنّ الهدف من تعبئة هؤلاء الرجال العظام بهذه الأسلحة الأساسية، هو إقامة القسط والعدل.

وفي الحقيقة أنّ هذه الآية تشير إلى أحد الأهداف العديدة لإرسال الرسل، لأنّنا نعلم أنّ بعث الأنبياء وسعيهم كان من أجل أهداف عدّة:

منها: التعليم والتربية، كما جاء في الآية التالية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ...﴾(١).

والهدف الآخر كسر الأغلال والقيود التي أسّرت الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾(٢).

والهدف الثالث إكمال القيم الأخلاقية، كما جاء في الحديث المشهور: «بعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق»(٣).

والهدف الرابع إقامة القسط والعدل، الذي أُشير إليه في الآية مورد البحث.

وبهذا الترتيب نستطيع تلخيص بعثة الأنبياء في الأهداف التالية: (الثقافية، الأخلاقية، السياسية، الاجتماعية).

ومن الواضح أنّ المقصود من الرسل في الآية مورد البحث، وبقرينة إنزال الكتب، هم الأنبياء أُولي العزم ومن يمثّلهم.

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٢. (٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

(٣) بحار الأنوار، ج٧١، ص٣٧٢ باب حسن الخُلق نهاية الحديث الأوّل.

وممّا يجدر ذكره أنّ المقصود من التعبير القرآني: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي أن يتحرّك الناس أنفسهم لتحقيق القسط، وليس المقصود أن يلزم الأنبياء على إقامة القسط، ولهذا يمكن القول بأنّ المراد من الآية وهدفها هو أن يعمل الناس بمفاهيم القسط ويتحرّكوا لتطبيقها.

والمهمّ أن يتربّى الناس على العدل والقسط بحيث يصبحون واعين له داعين إليه، منفّذين لبرامجه وسائرين في هذا الاتّجاه بأنفسهم.

ثمّ إنّ أي مجتمع إنساني مهما كان مستواه الأخلاقي والاجتماعي والعقائدي والروحي عالياً، فإنّ ذلك لا يمنع من وجود أشخاص يسلكون طريق العتو والطغيان، ويقفون في طريق القسط والعدل، واستمراراً لمنهج الآية هذه يقول سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾.

نعم، إنّ هذه الأسلحة الثلاثة التي وضعت تحت تصرّف الأنبياء هي بهدف أن تكون الأفكار والمفاهيم التي جاء بها الأنبياء فاعلة ومؤثّرة، وتحقّق أهدافها المنشودة، فقد وضع الحديد والبأس الشديد في خدمة رسل الله.

وبالرغم من أنّ البعض يتصوّر أنّ تعبير ﴿أَنزَلْنَآ﴾ يعكس لنا أنّ الحديد جاء من كرات سماوية إلى الأرض، إلاّ أنّ الصحيح أنّ التعبير بـ(الإنزال) في مثل هذه الحالات هو إشارة إلى الهبات التي تعطى من المقام الأعلى إلى المستوى الأدنى، ولأنّ خزائن كلّ شيء عند الله تعالى فهو الذي خلق الحديد لمنافع مختلفة، فعبّر عنه بالإنزال، وهنا حديث لأمير المؤمنين عليه السلام في تفسيره لهذا القسم من الآية حيث قال: «إنزاله ذلك خلقه إيّاه»[1].

كما نقرأ في الآية (٦) من سورة الزمر حول الحيوانات حيث يقول سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾.

وفسّر البعض ﴿أَنزَلْنَآ﴾ بأنّها من مادّة (نزل) على وزن (شبر) بمعنى الشيء الذي يهيّأ لاستقبال الضيوف، ولكن الظاهر أنّ المعنى الأوّل هو الأنسب.

«البأس» في اللغة بمعنى الشدّة والقسوة والقدرة، ويقال للحرب والمبارزة (بأس) أيضاً، ولذا فإنّ المفسّرين فسّروها بأنّها الوسائل الحربية، أعمّ من الدفاعية والهجومية،

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٥٠، ح ١٠٠.

ونقل في رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير هذه الآية أنّه قال: «يعني السلاح وغير ذلك»[١].

والواضح أنّ هذا من قبيل بيان المصداق.

والمقصود من «المنافع» هنا هو كلّ ما يفيد الإنسان من الحديد، وتتبيّن الأهميّة البالغة للحديد في حياة الإنسان أنّ البشرية قد بدأت عصراً جديداً بعد اكتشافه، سمّي بعصر الحديد، لأنّ هذا الاكتشاف قد غيّر الكثير من معالم الحياة في أغلب المجالات، وهذا يمثّل أبعاد كلمة (المنافع) في الآية الكريمة أعلاه.

وقد أُشير إلى هذا المعنى بآيات مختلفة في القرآن، منها قوله تعالى بشأن تصميم ذي القرنين على صنع سدّه العظيم: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾[٢].

وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ ﴿١١﴾﴾[٣] وذلك عندما شمل لطفه عزّ وجلّ داود عليه السلام بتليين الحديد له ليستطيع أن يصنع دروعاً منه يقلّل فيها أخطار الحروب وهجمات العدو.

ثمّ يشير سبحانه إلى هدف آخر من أهداف ارسال الأنبياء وإنزال الكتب السماوية، وخلقه وتسخيره الوسائل المفيدة للإنسان كالحديد مثلاً، حيث يقول تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾.

المقصود من (علم الله) هنا هو التحقّق العيني ليتوضّح من هم الأشخاص الذين يقومون بنصرة الله ومبدئه، ويقومون بالقسط؟ ومن هم الأشخاص الذين يتخلّفون عن القيام بهذه المسؤولية العظيمة؟

ومفهوم هذه الآية يشبه ما ورد في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[٤].

وبهذه الصورة نلاحظ أنّ المسألة هنا مسألة اختبار وتمحيص واستخراج الصفوة التي استجابت لمسؤوليتها والقيام بواجبها الإلهي، وهذا هو هدف آخر من الأهداف الأساسية في هذا البرنامج.

ومن الطبيعي أنّ المقصود بـ(نصرة الله) أنّها نصرة الدين والمبدأ والحاملين وحي

---

(١) المصدر السابق، ح ١٠١.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٩٦.
(٣) سورة سبأ، الآيتان: ١٠ - ١١.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٧٩.

الرسالة، وإقامة الحقّ والقسط. . . وإلاّ فإنّ الله ليس بحاجة إلى نصرة أحد، بل الكلّ محتاج إليه، ولتأكيد هذا المعنى تنتهي الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ .

حيث بإمكانه سبحانه أن يغيّر ما يشاء من العالم، بل يقلبه رأساً على عقب بإشارة واحدة، ويهلك أعداءه، وينصر أولياءه. . . وبما أنّ الهدف الأساس له سبحانه هو التربية وتكامل البشر، لذا فقد دعاهم عزّوجلّ إلى نصرة مبدأ الحقّ.

تعقيب:

١ - الحدود بين القوّة والمنطق

رسمت الآية أعلاه صورة وافية ومفصّلة من وجهة النظر الإسلامية في مجال التربية والتعليم، وتوسعة دائرة العدل وإقامة القسط في المجتمع الإنساني.

ففي البداية أكّدت الآية على ضرورة الاستفادة من الدلائل والبيّنات والكتب السماوية، وضوابط القيم، وبيان الأحكام والقوانين. . . وذلك لترسي أساساً لثورة فكرية وثقافية متينة مرتكزة على قاعدة من العقل والمنطق.

إلاّ أنّه في حالة عدم جدوى تلك الوسائل والأساليب، وحين الوصول إلى طريق مغلق في الاستفادة من الأُسلوب المتقدّم بسبب تعنّت الطواغيت، ومواجهة الاستكبار لرسل الحقّ والقسط، والإعراض عن قيم وضوابط وأحكام (الكتاب والميزان). . . فهنا يأتي دور «الحديد»، الذي فيه «بأس شديد» حين يوجّه صفعة قويّة على رؤوس الجبابرة بهذا السلاح كي يستسلموا للقسط والعدل ودعوة الحقّ التي جاء بها الأنبياء عليهم السلام ، ومن الطبيعي أنّ نصرة المؤمنين أساسيّة في هذا المجال.

وورد حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الصدد حيث قال: «بعثت بالسيف بين يديّ الساعة، حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظلّ رمحي»(١) .

وهذا الحديث إشارة إلى أنّ الرّسول صلى الله عليه وآله مأمور بحمل السلاح أمام الكفر والاستكبار، ولكن لا بلحاظ أنّ هذا هو الأصل والأساس في المنهج الإسلامي كما جاء ذلك صراحة في الآية الكريمة أعلاه.

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «الخير كلّه في السيف، وتحت السيف، وفي ظلّ السيف»(٢) .

---

(١) تفسير المراغي، ج٢٧، ص١٨٣.

(٢) فروع الكافي، ج ٥، ص ٨، ح ١١، ١٥.

وجاء عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال في هذا الصدد: «إنّ الله عزّ وجلّ فرض الجهاد وعظّمه وجعله نصره وناصره، والله ما صلحت دنيا ولا دين إلاّ به»(١).

ونختم حديثنا بقول آخر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يقيم الناس إلاّ بالسيف، والسيوف مقاليد الجنّة والنار»(٢).

وبناءً على هذا فإنّ القادة الإلهيين يحملون في يد الكتب السماوية وهي مشعل الحقّ، وباليد الأُخرى السيف، يدعون الناس أوّلاً بالعقل والمنطق إلى الحقّ والعدل، فإن أعرض الطواغيت عن المنطق، ورفض المستكبرون الاستجابة لنهج الحقّ والعقل عندئذ يأتي دور السيف والقوّة لتحقيق أهدافهم الإلهيّة.

٢ - الحديد واحتياجات الحياة الأساسية

بعض المفسّرين شرح هدف الآية أعلاه بما يلي:

إنّ الحياة الإنسانية بصورة عامّة تتقوّم بأربعة مرتكزات (الزراعة، والحياكة، أي الصناعة، والسكن، والسلطة)، ولهذا السبب فإنّ الحاجات الأساسية للإنسان باعتباره موجوداً اجتماعياً تتركّز بـ(الغذاء والسكن واللباس) والتي لا يستطيع أن يوفّرها لنفسه بصورة فردية، ومسألة تأمينها بشكل عام لابدّ أن تكون بواسطة المجتمع ولأنّ كلّ مجتمع لا يخلو من تزاحم المصالح، وكذلك العديد من المشاكل والتعقيدات، لهذا، فإنّه بحاجة إلى (سلطة) تجري العدل فيه وترعى الحقوق وتنظّم الحياة... والملفت للنظر هنا أنّ هذه الأُسس الأربعة المتقدّمة الذكر تعتمد جميعها بشكل أساسي على الحديد، وعلينا أن نتصوّر كم ستكون حياة الإنسان صعبة لو لم يكن هذا المعدن (الحديد) في خدمتها.

ولأنّ الحاجة إليه ماسّة ومتزايدة، فإنّ الله سبحانه قد وفّره بحيث سهّل ويسّر عملية الحصول عليه، وبالرغم من عدم إغفال الدور المفيد لكلّ من الفلزّات الأُخرى، إلاّ أنّ الحديد يبقى له دور أساس في حياة الإنسان.

ومن هنا يتوضّح مقصود قول الله عزّ وجلّ: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾(٣).

---

(١) فروع الكافي، ج ٥، ص ٨، ح ١١، ١٥.
(٢) المصدر السابق، ص ٢، ح ١.
(٣) مقتبس من التفسير الكبير للفخر الرازي، ج٢٩، ص٢٤٢.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

التّفسير

تعاقب الرسل واحداً بعد الآخر

للقرآن الكريم منهجه المتميّز، ومن خصوصياته أنّه بعد بيان سلسلة من الأُصول العامّة يشير ويذكّر بمصير الأقوام السابقة، لكي يكون ذلك شاهداً وحجّة.

وهنا أيضاً يتجسّد هذا المنهج: حيث يشير في المقدّمة إلى إرسال الرسل مع البيّنات والكتاب والميزان والدعوة إلى الإيمان بالحقّ، لنيل مرضاته سبحانه والفوز بالسعادة الأبديّة... ثمّ يتحدّث عن بعض الأُمم السابقة وأنبيائهم ويعكس هذه الأُسس في منهج دعوتهم.

ويبدأ بشيوخ الأنبياء وبداية سلسلة رسل الحقّ، نوح وإبراهيم عليهما السلام، حيث يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾.

وممّا يؤسف له أنّ الكثيرين لم يستفيدوا من هذا الميراث العظيم، والنعم الإلهيّة الفيّاضة، والهبات والألطاف العميمة، حيث يقول عزّوجلّ: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

نعم، لقد بدأت النبوّة بنوح عليه السلام توأماً مع الشريعة والمبدأ، ومن ثمّ إبراهيم عليه السلام من الأنبياء أُولي العزم في امتداد خطّ الرسالة، وهكذا حلقات متواصلة على مرّ العصور والقرون، فإنّ القادة الإلهيين من ذريّة إبراهيم عليه السلام يتصدّون للقيام بمسؤولية الرسالة، إلاّ أنّ المستفيد من هذا النور الإلهي العظيم هم القلّة أيضاً، في حين أنّ الغالبية سلكت طريق الانحراف.

ثمّ يشير إشارة مختصرة إلى قسم آخر من سلسلة الأنبياء الكرام التي تختتم بعيسى عليه السلام آخر رسول قبل نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله حيث يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾.

حيث حملوا نور الهداية للناس ليضيئوا لهم الطريق، وتعاقبوا في حملها الواحد بعد الآخر، حتى وصل الدور إلى السيّد المسيح عليه السلام: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾.

﴿قَفَّيْنَا﴾ من (قفا) بمعنى الظهر، ويقال للقافية قافية بسبب أنّ بعضها يتبع بعضاً، وتطلق عادةً على الحروف المتشابهة في آخر كلّ بيت من بيوت الشعر، والمقصود في الجملة من الآية أعلاه أنّ الأنبياء جاؤوا بلحن واحد وأهداف منسجمة، الواحد تلو الآخر، وبدأوا وأكملوا التعليمات التي حملوها من الله إلى أقوامهم..

وهذا التعبير جميل جدّاً، وهو إشارة لطيفة إلى مبدأ وحدة الرسالات وتوحيد النبوّة.

ثمّ يشير هنا إلى الكتاب السماوي للسيّد المسيح عليه السلام حيث يقول: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ ويستمرّ متحدّثاً عن خصوصيات أتباعه فيقول سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾.

ويرى بعض المفسّرين أنّ مصطلحي «الرأفة» و«الرحمة» بمعنى واحد، إلاّ أنّ قسماً آخر اعتبرهما مختلفين وقالوا: إنّ «الرأفة» تعني الرغبة في دفع الضرر، و«الرحمة» تعني الرغبة في جلب المنفعة.

ولهذا تذكر الرأفة قبل الرحمة غالباً، لأنّ قصد الإنسان ابتداءً هو دفع الضرر ومن ثمّ يفكّر في جلب المنفعة.

وممّا يدلّل به على هذا الرأي ما استفيد من آية حدّ الزاني والزانية حيث يقول سبحانه: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾(١).

إنّ موضوع الرأفة والرحمة بالنسبة للأتباع الحقيقيين للسيّد المسيح عليه السلام لم يذكر في هذه الآية فقط، بل ورد هذا المعنى أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾(٢).

وبالرغم من أنّ الآية الكريمة أخذت بنظر الاعتبار مسيحيي الحبشة وشخص

---

(١) سورة النور، الآية: ٢.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٨٢.

«النجاشي» بالذات، حيث آوى المسلمين وعاملهم بإحسان ومحبّة خاصّة، إلاّ أنّها بشكل عام تشير إلى الرأفة والرحمة والعواطف الإيجابية للمسيحيين الحقيقيين.

ومن الطبيعي ألاّ يكون المقصود هنا المسيحيون الذين يمارسون أقذر الأعمال وأكثرها إجراماً وانحطاطاً بحقّ الشعوب المستضعفة، هؤلاء الذين تلبّسوا بلباس الإنسانية، وهم في الحقيقة ذئاب مفترسة تصبغ حياة المحرومين بلون الدم والظلام...

ثمّ يضيف سبحانه: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾(١).

وممّا تقدّم يتّضح لنا أنّ هؤلاء ليسوا ممّن لم يراعوا مبدأ التوحيد للسيّد المسيح عليه السلام فقط، بل دنسوه بأنواع الشرك، ولم يراعوا أيضاً حتى حقّ الرهبانية التي ابتدعوها باسم الزهد، حيث وضعوا مكائد في طريق خلق الله، وجعلوا من الأديرة والكنائس مراكز لأنواع الفساد، وأوجدوا انحرافاً خطيراً في رسالة السيّد المسيح عليه السلام.

ومن مفهوم الآية يتّضح لنا أنّ الرهبانية لم تكن جزءاً من رسالة السيّد المسيح عليه السلام، إلاّ أنّ أتباعه هم الذين ابتدعوها من بعده، حيث بدأت بشكل معتدل ثمّ مالت نحو الانحراف.

وطبقاً لتفسير آخر فإنّ نوعاً من الرهبانية والزهد كان من مبدأ السيّد المسيح عليه السلام، إلاّ أنّ أتباعه وأصحابه ابتدعوا نوعاً آخر من الرهبانية لم يقرّرها الله لهم(٢).

---

(١) حول تركيب ومعنى هذه الآية يوجد اختلاف كثير بين المفسّرين، حيث اعتبرها البعض عطفاً على الرأفة والرحمة، وأخذوا بنظر الاعتبار (حبّ) قبل الرهبانية تقديراً، لأنّ الرهبانية ليست شيئاً يكون في القلب، بل إنّ حبّها والتعلّق بها يكون في القلب، واعتبرها آخرون منصوبة بفعل مضمر حيث إنّ ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ تفسّر ذلك في تقدير: ابتدعوا رهبانية، ابتدعوها.

وبالنسبة لـ ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ توجد وجهتا نظر: الأولى: أنّها استثناء منقطع، ومفهومه هو: (ولكنّهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله). والأُخرى: أنّها استثناء متّصل ومفهومها أنّنا قرّرنا ووضعنا نوعاً من الرهبانية عليهم، والهدف من ذلك هو جلب رضى الله تعالى، ولكنّهم حرّفوا الرهبانية إلى نوع آخر كان خلافاً لرضى الله، والظاهر أنّ التفسير الأوّل في كلا الموردين مناسب أكثر، لذا يرجى الانتباه هنا.

(٢) طبقاً للتفسير الأوّل حسب الرأي الذي يقول بأنّه استثناء منقطع، والتفسير الثاني يقول بالاستثناء المتّصل.

وهذه النقطة أيضاً جديرة بالملاحظة وهي: إذا كانت الرهبانية عطف على الرأفة والرحمة كما اخترناه في المتن، فإنّ المقصود من جعلها في القلوب هو نفس الميل القلبي لهم إلى هذه المسألة، في حين أنّ=

والتّفسير الأوّل هو الأكثر شهرةً، والمناسب أكثر من بعض الجهات.

وعلى كلّ حال، فالمستفاد من الآية أعلاه إجمالاً هو أنّ الرهبانية لم تكن في شريعة السيّد المسيح عليه السلام، وأنّ أصحابه ابتدعوها من بعده، وكان ينظر إليها في البداية على أنّها نوع من أنواع الزهد والإبداعات الخيّرة لكثير من السنن الحسنة التي تشيع بين الناس. ولا تتّخذ عنوان التشريع أو الدستور الشرعي، إلاّ أنّ هذه السنّة تعرّضت إلى الانحراف - فيما بعد - وتحريف التعاليم الإلهية، بل اقترنت بممارسات قبيحة على مرّ الزمن.

والتعبير القرآني بجملة: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ دليل على أنّه لو أُعطي حقّها لكانت سنّة حسنة.

وما ورد في الآية التالية التي تتحدّث عن الرهبان والقساوسة يتناول هذا المعنى حيث يقول تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾(١) (يرجى ملاحظة ذلك).

وهكذا يتبيّن أنّ كلمة «الرهبانية» كلّما كانت بمعنى الرأفة والرحمة فإنّها تشكّل دليلاً إضافياً على صحّة الادّعاء أعلاه، لأنّها ستكون بمعنى مستوى الرأفة والرحمة التي وضعها الله في قلوبهم بعنوان أنّها صفة حميدة.

ومختصر الكلام هو: إذا وجدت سنّة حسنة بين الناس تكون أُصولها الكليّة وخطوطها العريضة في دائرة المبدأ الحقّ كالزهد، مثلاً، فإنّ ذلك ليس عملاً قبيحاً، بل يعتبر مصداقاً من مصاديق الخطّ العام للمبدأ، خاصّة إذا لم تنسب هذه السنّة إلى المبدأ الإلهي... ولسوء الحظّ فإنّ جملة من الإفراطات والتفريطات وجدت بين ظهرانينا تحت قناع الدين وتحوّلت إلى سنّة سيّئة.

إنّ مراسم الأعياد والتعازي والوفيّات الخاصّة بعظماء الإسلام وما يتعلّق بإحياء ذكرى الشهداء والأحبّة الراحلين - سواء في يوم استشهادهم، أو اليوم السابع، أو بعد مرور أربعين يوماً من الشهادة أو الوفاة، وكذا ما يتعلّق بذكراهم السنوية - هو مصداق

= المقصود من ﴿مَا كَتَبْنَاهَا﴾ هو أنّ مسألة الرهبانية لم تكن حكم الله في دين السيّد المسيح، بالرغم من أنّ الله تعالى قد وضع حبّها في قلوبهم، وبناءً على هذا فلا تتنافى مع جملة ﴿ابْتَدَعُوهَا﴾.

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٢.

للمفاهيم الكليّة في الإسلام حول تعظيم شعائر الله تعالى، وإحياء ذكر قادة الإسلام وعموم شهداء المسلمين، وبغضّ النظر عن الجزئيات والتفاصيل فإنّ هذه المراسم مصداق من الأصل الكلّي فقط، ولا يمكن اعتبارها مبادىء شرعية.

وكلّما أنجزت هذه المراسم بدون تجاوز للحدود الشرعية وعدم تدنيسها بالخرافات والممارسات اللا شرعيّة، فإنّها - من المسلّم - مصداق لابتغاء رضوان الله، ومصداق سنّة حسنة، وفي غير هذه الصورة فإنّها ستكون بدعة الشؤم والسنّة السيّئة.

«الرهبانية» من مادّة (رهب) مأخوذة من معنى الخوف من الله، ويفهم أنّها كانت في البداية مصداقاً للزهد وعدم الاهتمام بشؤون الدنيا، إلاّ أنّها تعرّضت فيما بعد لانحرافات واسعة، وإذا ما لاحظنا موقف الإسلام المناهض والمقاوم للرهبانية بشدّة فمن هذا الباب وبهذا اللحاظ. كما سنستعرض ذلك فيما يلي:

بحوث

١ - الإسلام والرهبانية

ذكرنا أنّ الرهبانية أخذت من «الرهبة» التي جاءت بمعنى الخوف من الله، وكما يقول الراغب في المفردات، الخوف الذي يكون ممزوجاً بالزهد والاضطراب والترهّب يعني: (التعبّد والعبادة)... والرهبانية بمعنى: (شدّة التعبّد).

وإذا فسّرنا الآية أعلاه بأي شكل، فإنّها ترينا أنّها كانت نوعاً من الرهبانية الممدوحة بين المسيحيين، بالرغم من أنّها لم تكن أصلاً وإلزاماً فيما جاء به السيّد المسيح من عند الله تعالى، إلاّ أنّ أتباع السيّد المسيح عليه السلام أخرجوا (الرهبانية) من حدودها وجرّوها إلى الانحراف والتحريف، ولهذا فإنّ الإسلام ندّد فيها بشدّة، حتى أنّ الكثير من المصادر الإسلامية أوردت الحديث المعروف: «لا رهبانية في الإسلام»(١).

ومن جملة الممارسات القبيحة للمسيحيين في مجال الرهبانية تحريم الزواج للنساء والرجال بالنسبة لمن يتفرّغ (للرهبنة) والانزواء الاجتماعي، وإهمال كافّة المسؤوليات الإنسانية في المجتمع، والركون إلى الصوامع والأديرة البعيدة، والعيش في محيط منزو

(١) جاء هذا الحديث في مجمع البحرين في مادّة (رهب) كما ذكر ذلك في النهاية لابن الأثير.

عن المجتمع. . . بالإضافة إلى جملة من المفاسد التي حصلت في الأديرة ومراكز الرهبان، كما سنشير إلى جوانب منها في هذا البحث إن شاء الله.

وبالرغم من أنّ هؤلاء الرجال البعيدين عن الدنيا (الرهبان والراهبات) قد أدّوا خدمات إيجابية كثيرة كتمريض المصابين بأمراض خطرة كالجذام وما شابهه، بالإضافة إلى القيام بالتبليغ والإرشاد بين أقوام بدائية متوحّشة، وقيامهم ببرامج للدراسة والتحقيق. . . إلاّ أنّ هذه الأُمور تعتبر قليلة الأهميّة قياساً إلى المفاسد التي اقترنت معها.

وأساساً فإنّ الإنسان مخلوق اجتماعي، وتكامله المادّي والمعنوي مبتن على هذا الأساس، وما جاءت به الأديان السماوية لا ينفي دور الإنسان في المجتمع، بل يحكم قواعده وأُسسه بصورة أفضل.

إنّ الله سبحانه أوجد الغريزة الجنسية في الإنسان لحفظ النسل، وكلّ مذهب أو قانون يتعارض مع هذه الغريزة فإنّه باطل.

الزهد الإسلامي الذي يعني البساطة في الحياة والابتعاد عن الكماليات، وعدم الوقوع في أسر المال والموقع - لا يرتبط أصلاً بمسألة الرهبانية، لأنّ الرهبانية تعني الانفصال والغربة عن المجتمع، والزهد يعني التحرّر من الماديّات والترفّع عن المغريات لكي تتمّ المعايشة بصورة اجتماعية أفضل.

ونقرأ في قصّة «عثمان بن مظعون» في موت ولده أنّه لم يعد يخرج للعمل حزناً عليه، وانشغل في العبادة وترك كلّ عمل سواها وجعل من بيته مسجداً. . . فعندما وصل خبره للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، أحضره وقال له: «يا عثمان، إنّ الله تبارك وتعالى لم يكتب علينا الرهبانية، إنّما رهبانية أُمّتي الجهاد في سبيل الله»[1].

وذلك إشارة إلى أنّ الإعراض عن الحياة الماديّة والانزواء الاجتماعي، وتعطيل الأعمال بصورة سلبية، يجب أن يصبّ في مسير إيجابي، وذلك بالجهاد في سبيل الله، ثمّ إنّ الرّسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بيّن له بعض فضائل صلاة الجماعة، والتي هي تأكيد على نفي الرهبانية في الشرع الإسلامي.

وفي حديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عندما سأله أخوه علي بن جعفر:

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٠، ص١١٤ باب النهي عن الرهبانية، ح ١.

الرجل المسلم هل يصلح أن يسيح في الأرض أو يترهّب في بيت لا يخرج منه قال عليه السلام: «لا»[١].

وتوضيح ذلك: إنّ السياحة التي نهي عنها في هذه الرواية، هي تلك الممارسة التي تكون على مستوى الرهبانية ويمكن أن نطلق عليها (الرهبانية السيّارة) وذلك أنّ بعض الأفراد قبل أن يوفّروا لأنفسهم المستلزمات الأساسية لحياتهم من سكن أو عمل أو مصدر عيش... فإنّهم يقومون بالسياحة والتجوّل في ربوع الدنيا وبدون تهيئة مستلزمات الطريق من الزاد والمال... بل يعتمدون على أخذ المساعدات من الناس عند كلّ نقطة يصلون إليها، ظانّين أنّ ذلك نوعاً من الزهد وترك الانشغال بالدنيا.

إلاّ أنّ الإسلام كما نفى الرهبانية الثابتة، فإنّه قد نفى الرهبانية السيّارة أيضاً انسجاماً مع التعاليم الإسلامية، فإنّ الزهد والصلاح مهمّ للإنسان المسلم، شريطة أن يكون في قلب المجتمع وليس في الانزواء والغربة عنه والبعد منه.

٢ - المصدر التأريخي للرهبانية

لم تكن الرهبانية موجودة بشكلها الحالي في القرون الأُولى للتاريخ المسيحي، وقد ظهرت بعد القرن الميلادي الثالث في حكم الإمبراطور الروماني (ديسيوس) - وقتاله الشديد لأتباع السيّد المسيح عليه السلام، ونتيجة لما لحق بهم من الأذى من قبل هذا الإمبراطور المتعطّش للدماء، فإنّهم لجأوا إلى الجبال والصحاري[٢].

وجاء هذا المعنى بصورة أدقّ في الروايات الإسلامية حيث نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال لابن مسعود: «هل تدري من أين أحدثت بنو إسرائيل الرهبانية؟

فقلت: الله ورسوله أعلم.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بمعاصي الله، فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم، فهُزم أهل الإيمان ثلاث مرّات، فلم يبق منهم إلاّ القليل، فقالوا: إن ظهرنا لهؤلاء أفنونا ولم يبق للدين أحد يدعو إليه، فتعالوا نتفرّق في الأرض إلى أن يبعث الله النّبي الذي وعدنا به عيسى عليه السلام (يعنون محمّداً) - فتفرّقوا في غيران الجبال وأحدثوا رهبانية، فمنهم من تمسّك بدينه، ومنهم من كفر».

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ١٩٩، ح ١٠.

(٢) دائرة المعارف القرن العشرين مادّة (رهب).

ثمّ قال: «أتدري ما رهبانية أُمّتي؟».

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «الهجرة والجهاد والصلاة والصوم والحجّ والعمرة»[١].

والمؤرّخ المسيحي المشهور (ويل ديورانت) ينقل في تأريخه المعروف في ج١٣ بحثاً مفصّلاً حول الرهبانية، حيث يعتقد أنّ ارتباط الراهبات (النساء التاركات للدنيا) بالرهبان بدأ منذ القرن العاشر الميلادي[٢].

وبدون شكّ فإنّ هذه الظاهرة الاجتماعية - كما هو شأن كلّ ظاهرة أُخرى لها أسسٌ روحية بالإضافة إلى الأُسس التاريخية، حيث يمكن الإشارة إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ مسألة ردّ الفعل الروحي للأشخاص والأقوام تختلف فيما بينها مقابل الاندحارات والمصاعب التي يواجهوها، حيث يميل البعض نتيجة لذلك إلى الانزواء والانشغال بالأُمور الشخصية فقط، ويبعدون أنفسهم بصورة كاملة عن المجتمع والنشاطات الاجتماعية، في الوقت الذي يتعلّم آخرون من الانتكاسات والمصاعب دروس الاستقامة والصلابة والقدرة على تحدّي المشاكل ومقاومتها.

ومن هنا فإنّ القسم الأوّل يلتمس طريق الرهبانية أو أي سلوك مشابه له، بعكس القسم الثاني الذي يصبح أكثر تماساً بالمجتمع وأقوى في مواجهة تحديّاته.

٣ - المفاسد الأخلاقية والاجتماعية الناشئة من الرهبانية

إنّ الانحراف عن قوانين الخلقة غالباً ما يكون مصحوباً بانفعالات سلبية، وبناءً على هذا فلا عجب فيمن يبتعد عن الحياة الاجتماعية التي هي جزء من فطرته أن يصاب بردود فعل شديدة، لذلك فإنّ الرهبانية - لأنّ منهجها خلافاً لطبيعة الإنسان وفطرته - فإنّها استبطنت مفاسد كثيرة من جملتها:

أوّلاً: أنّ الرهبانية تتعارض مع طبيعة الإنسان المدنية وبالتالي فإنّها تؤدّي بالمجتمعات الإنسانية إلى الانحطاط والتخلّف.

ثانياً: ليست الرهبانية عائقاً عن كمال النفس وتهذيب الروح والأخلاق فقط، بل تجرّ إلى الانحرافات الأخلاقية والكسل وسوء الظنّ والغرور والعجب والتشاؤم وما إلى

(١) تفسير مجمع البيان، ج٩، ص٢٤٣ بتلخيص قليل، ونقل حديث آخر شبيه بهذا في الدرّ المنثور، ج٦، ص١٧٧.

(٢) قصّة الحضارة، ويل ديورانت، ج١٣، ص٤٤٣.

ذلك، وعلى فرض أنّ الإنسان استطاع أن يصل إلى فضيلة أخلاقية في حالة الانزواء، فإنّها في الواقع لا تعدّ كذلك، إذ إنّ الفضيلة أن يحرّر الإنسان نفسه من التلوث الأخلاقي في قلب المجتمع.

ثالثاً: إنّ ترك الزواج والإعراض عنه، والذي هو من مبادىء الرهبانية، ليس فقط يعوق عن الكمال، بل هو سبب لظهور العقد والأمراض النفسية وما إلى ذلك.

ونقرأ في دائرة المعارف أنّ بعض الرهبان كانوا يعتبرون الاهتمام بجنس المرأة عمل شيطاني، لحدّ أنّهم منعوا وجود أُنثى أي حيوان في الدير خوفاً من الروح الشيطانية لهذه الأُنثى التي قد تدنّس روحانيّتهم وتسبّب لها انتكاسة.

ومع هذه الحالة فإنّ التاريخ يذكر لنا فضائح عديدة من الأديرة إلى حدّ أن وصفها (ويل ديورانت) بأنّها بيوت للفحشاء والدعارة، ومراكز لتجمّع عبّاد البطون وطلاّب الدنيا واللاهين، بحيث إنّ أفضل المشروبات كانت توجد في الأديرة.

وطبقاً لشهادة التاريخ فإنّ السيّد المسيح عليه السلام لم يتزوّج أبداً، وهذا لم يكن بسبب موقف له من سنّة الزواج، بل لقصر عمره، وانشغاله المستمر في مسؤولياته الرسالية التي كانت تستدعي منه السفر والتجوّل والتبليغ في المناطق النائية في العالم، وهي التي لم تسمح له بالزواج.

إنّ البحث حول الرهبانية يستحقّ كتاباً مستقلاً، وإذا أردنا أن نستفيض في هذا البحث فإنّنا سنخرج عن بحث التّفسير.

وننهي بحثنا هذا بحديث للإمام علي عليه السلام تعقيباً على المفهوم الذي طرحته الآية التالية حيث تقول الآية: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[1]

فقد قال عليه السلام في تفسيرها: «هم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في السواري»[2].

٤ - إنجيل أم أناجيل!

«الإنجيل» في الأصل مصطلح يوناني بمعنى البشارة أو تعليم جديد، وهو اسم الكتاب الذي نزّل على السيّد المسيح عليه السلام، وجاء هذا المصطلح اثنتي عشرة مرّة في القرآن الكريم، وقد استعمل بهذا المعنى.

---

(١) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣ - ١٠٤. (٢) كنز العمّال، ج ٢، ح ٤٤٩٦.

والجدير بالملاحظة هنا أنّ ما يعرف باسم الإنجيل اليوم كتب كثيرة يعبّر عنها بالأناجيل، والمشهور منها أربعة وهي «لوقا» و«مرقس» و«متّى» «يوحنّا» ويعتقد المسيحيون أنّ هذه الأناجيل كتبت بواسطة أربعة من أصحاب السيّد المسيح عليه السلام أو طلاّبه، وتأريخ تأليفها يرجع إلى ثمان وثلاثين سنة بعد السيّد المسيح عليه السلام إلى غاية قرن بعده، وبناءً على هذا فإنّ الكتاب الأصلي للسيّد المسيح - الذي هو كتاب سماوي مستقل - قد اندثر، وبقي بعضه في ذاكرة طلاّبه الأربعة، حيث مزج مع أفكارهم وحرّرت هذه الأناجيل.

ولدينا بحث مفصّل أكثر في هذا المجال في نهاية الآية (٣) من سورة آل عمران.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

سبب النزول

نقل كثير من المفسّرين أنّ للآيات أعلاه سبباً للنزول خلاصته ما يلي:

بعث رسول الله صلى الله عليه وآله جعفراً في سبعين راكباً إلى النجاشي يدعوه، فقدم عليه ودعاه فاستجاب له، وآمن به، فلمّا كان عند انصرافه، قال ناس ممّن آمن به من أهل مملكته، وهم أربعون رجلاً: ائذن لنا فنأتي هذا النبي فنسلم به، فقدموا مع جعفر، فلمّا رأوا ما بالمسلمين من الخصاصة، استأذنوا وقالوا: يانبي الله إنّ لنا أموالاً ونحن نرى ما بالمسلمين من الخصاصة، فإن أذنت لنا انصرفنا، فجئنا بأموالنا فواسينا المسلمين بها، فأذن لهم فانصرفوا، فأتوا بأموالهم فواسوا بها المسلمين، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾(١)

فكانت النفقة التي واسوا بها المسلمين.

فلمّا سمع أهل الكتاب ممّن يؤمن به قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ فخروا

(١) سورة القصص، الآيات: ٥٢ - ٥٤.

على المسلمين فقالوا: يا معشر المسلمين: أمّا من آمن بكتابكم وكتابنا فله أجر كأجوركم فما فضلكم علينا، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ الآية، فجعل لهم أجرين وزادهم النور والمغفرة[1].

التّفسير

الذين لهم سهمان من الرحمة الإلهيّة

بما أنّ الحديث في الآيات السابقة كان عن أهل الكتاب والمسيحيين، فإنّ الآيات مورد البحث مكمّلة لما جاء في الآيات السابقة؛ يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾.

وللمفسّرين رأيان حول طبيعة المخاطب في هذه الآية:

الأوّل: إنّ المخاطب هم المؤمنون، حيث يبيّن لهم سبحانه أنّ الإيمان الظاهري غير كاف للفرد، ولابدّ أن يكون الإيمان عميقاً توأماً مع التقوى والعمل، كي ينالوا الأجر العظيم والذي ستتعرّض له الآية الكريمة.

الثاني: إنّ المخاطب هنا هم مؤمنو أهل الكتاب، ويعني: يا من آمنتم بالأنبياء والكتب السابقة آمنوا برسول الإسلام، ولتكن تقوى الله نصب أعينكم كي يشملكم سبحانه بأنواع أجره وجزائه.

والذي يؤيّد الرأي الثاني هو ذكر (الأجر المضاعف) والذي ورد في نهاية الآية والمقصود به جزاء الإيمان بالأنبياء السابقين، وجزاء الإيمان برسول الإسلام.

إلاّ أنّ هذا التّفسير إضافة إلى أنّه لا يتناسب مع الآية اللاحقة - كما سنوضّح - فإنّه كذلك لا ينسجم مع سبب نزول الآية وطبيعة الإطلاق الذي ورد فيها بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

وبناءً على هذا فلابدّ من تبنّي الرأي القائل بأنّ المقصود بالمخاطب هم جميع المؤمنين الذين قبلوا - بالظاهر - دعوة الرّسول ﷺ ولكنّهم لم يؤمنوا بها الإيمان الراسخ الذي يضيء أعماق النفوس ويتجسّد في أعمالهم وممارساتهم.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٩، ص٢٤٤، ونقل نفس المعنى في تفسير أبي الفتوح الرازي وروح المعاني مع بعض الاختلاف في نهاية الآيات مورد البحث.

وتكملة للآية الكريمة يشير القرآن الكريم إلى ثلاث نعم عظيمة تحصل في ظلّ الإيمان العميق والتقوى حيث يقول تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

«كفل» على وزن (طفل) بمعنى الحصّة التي توفّر للإنسان حاجته، ويقال للضامن «كفيل» أيضاً بهذا اللحاظ، حيث يكفل الطرف المقابل ويضمنه بنفسه(١).

والمقصود من هاتين الحصّتين أو النصيبين هو ما جاء في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾(٢).

واحتمل أيضاً أنّ هذين النصيبين يمكن أن يكون أحدهما الإيمان برسول الإسلام ﷺ والآخر الإيمان بالأنبياء السابقين، لأنّ كلّ مسلم ملزم بموجب اعتقاده أن يؤمن بكلّ الأنبياء السابقين والكتب السماوية ويحترمها.

وذكر البعض أنّ المقصود هو الأجر المستمر والمتعاقب والمضاعف.

إلاّ أنّ الجمع بين جميع هذه المعاني ممكن أيضاً.

وحول القسم الثاني من الجزاء والأجر يقول تعالى: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ قال بعض المفسّرين: إنّ المقصود بذلك هو نور الإيمان الذي يسبق المؤمنين في سيرهم يوم القيامة، ويبدّد ظلمات الحشر، حيث يتقدّمون إلى الجنّة والسعادة الأبديّة. كما جاء في الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾(٣).

في الوقت الذي اعتبرها البعض الآخر إشارة إلى نور القرآن الذي يشعّ على المؤمنين في الدنيا، كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾(٤).

إلاّ أنّ للآية مفهوماً مطلقاً واسعاً حسب الظاهر ولا يختص بالدنيا فقط ولا بالآخرة

---

(١) يعتقد البعض أنّ هذا المصطلح مأخوذ من (كفل) على وزن «عسل» والمقصود به هو ما يضعونه على كفل - القسم الأخير من الظهر - الحيوانات كي لا يسقط الراكب، ولذلك فإنّه يقال لكلّ شيء يسبّب الحفظ (كفل)، ومن هنا أطلق على الضامن اسم «الكفيل» بسبب هذا المعنى. (أبو الفتوح الرازي نهاية الآية مورد البحث).

ويستفاد من الراغب أنّ لهذا المصطلح معنيين: الأوّل هو المعنى أعلاه، والمعنى الثاني يطلق على الشيء الرديء الذي لا قيمة له، والتشبيه بكفل الحيوانات يكون بلحاظ أنّ كلّ شخص يركب على كفلها فاحتمال سقوطه وارد (يرجى ملاحظة ذلك).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠١.

(٣) سورة الحديد، الآية: ١٢.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١٥.

فحسب، وبتعبير آخر فإنّ الإيمان والتقوى هي التي تسبّب زوال الحجب عن قلوب المؤمنين، حيث يتبيّن لهم وجه الحقيقة واضحاً وبدون حجاب، وفي ظلّ الإيمان والتقوى هذين سيكون للإنسان وعي وبصيرة حرم غير المؤمنين منها.

جاء في روايات أهل البيت عليهم السلام أنّ المقصود بالنور في الآية أعلاه هو: «إمام تأتمون به»، وهو في الحقيقة بيان واحد من المصاديق الواضحة(١).

وأخيراً فإنّ ثالث جزاء للمؤمنين المتّقين هو (غفران الذنوب) لأنّ بدونه لا يكون للإنسان هناء بأي نعمة من الله عليه، حيث يجب أن يكون في البداية في مأمن من العذاب الإلهي ثمّ ينتقل إلى المسير في طريق النور والتقوى لينال الرحمة الإلهيّة المضاعفة.

وفي الآية اللاحقة - والتي هي آخر آيات هذه السورة - بيان ودليل لما جاء في الآية الآنفة الذكر حيث يقول تعالى: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(٢).

إنّه جواب لهؤلاء الكتابيّين الذين زعم قسم منهم: أنّ لهم أجراً واحداً كبقيّة المسلمين حينما رفضوا الإيمان بالرّسول صلى الله عليه وآله وسلم وأمّا الذين آمنوا بالرّسول صلى الله عليه وآله وسلم منهم فلهم أجران: أجر الإيمان بالرسل السابقين، وأجر الإيمان بمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم، حيث يجيبهم القرآن ويردّ عليهم بأنّ المقصود بالآية هم المسلمون.

فهؤلاء هم الذين لهم أجران، لأنّهم آمنوا جميعاً برسول الله بالإضافة إلى إيمانهم

(١) نقلت هذه الروايات في تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٢٥٢، ٢٥٣.

(٢) في (لا) في (لئلاّ) يعلم أهل الكتاب زائدة أو أصلية، يوجد نقاش بين المفسّرين حول هذه المسألة، حيث اعتبر الكثيرون أنّ (لا) زائدة وتفيد التأكيد (كما ذكرنا أعلاه) وبناءً على أنّ (لا) أصلية، فقد وردت معاني مختلفة للآية من جملتها أنّ المقصود سيكون كالتالي وهو: أن يعلم أهل الكتاب بأنّه إذا قبلوا الإيمان والإسلام فإنّهم يستطيعون أن يُهيئوا الفضل الإلهي لهم. وبتعبير آخر فإنّ نفي النفي هنا بمعنى (الإثبات) أو يكون المقصود كالتالي: نحن الذين أعطينا كلّ هذه الهبات للمسلمين حتى لا يتصوّر أهل الكتاب أن لا نصيب للمسلمين في الفضل الإلهي.

إلاّ أنّه بملاحظة نهاية الآية التي تقول: ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ وكذلك بملاحظة سبب نزولها الذي مرّ بنا سابقاً فإنّ كون (لا) زائدة هو الأنسب ظاهراً، بل وحسب اعتقاد البعض أنّه في الكثير من الموارد التي تشتمل الجملة على نفي، فإنّ: (لا) تكون زائدة كما في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ الأعراف/ ١٢. وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام، الآية ١٠٩ (يرجى ملاحظة ذلك).

بكلّ الأنبياء السابقين، أمّا أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا برسول الله فليس لهم أي نصيب أو سهم من الأجر، ذلك ليعلموا أنّ الرحمة الإلهيّة ليست في اختيارهم حتى يهبوا ما يشاؤون منها وفق مشتهياتهم، ويمنعوها عن الآخرين.

وهذه الآية تتضمّن كذلك جواباً لما ورد من ادّعاءات واهية من بعض اليهود والنصارى الذين اعتبروا الجنّة والرحمة الإلهية منحصرة بهم، ظانّين أنّ غيرهم محروم منها، حيث يقول سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(١).

بحث

التقوى والوعي

لقد بيّن القرآن الكريم آثاراً كثيرة للتقوى، ومن جملتها إزالة الحجب عن فكر الإنسان وقلبه.

وقد أشار القرآن الكريم إلى ارتباط «الإيمان والتقوى» مع «البصيرة» منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾(٢).

ومنها قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾(٣).

وجاء هذا المعنى صراحةً في الآيات مورد البحث حيث قال تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ على ضوئه تستطيعون السير.

والعلاقة بين هاتين الآيتين - بالإضافة إلى الجوانب المعنوية التي بقيت مجهولة لنا - قابلة للإدراك العقلي أيضاً، لأنّ أكبر حاجز عن المعرفة وأهمّ مانع لها هو الحجاب الذي يغطّي قلب الإنسان، والذي هو هوى النفس والنزعات الذاتية والأماني الفارغة، والآمال البعيدة، والوقوع في أسر المادّة ومغريات الدنيا، حيث لا تسمح للإنسان أن يرى الحقائق بصورتها الطبيعية، وبالتالي فإنّ الحكم على الأشياء يكون بعيداً في منطق العقل والصواب.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١١.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

إلاّ أنّ استقرار الإيمان والتقوى في القلوب يبدّد هذه الحجب ويزيل عتمتها وظلامها عن صفحة القلب، ويجعل الروح الإنسانية تفيض بشمس الحقيقة وتتعرّف على الحقائق بصورتها الناصعة وتشعر باللذّة والنشوة من هذا الإدراك الصحيح والعميق للأشياء، وتتفتّح أمامه السبل السليمة للأهداف المقدّسة التي يسعى نحوها ويتقدّم باتّجاهها.

نعم إنّ التقوى هي التي تعطي للإنسان الوعي والوضوح، كما أنّ الوعي يعطي للإنسان التقوى، أي أنّ لكلّ من التقوى والوعي تأثير متبادل بعضهما على البعض الآخر.

ونقرأ هنا في حديث معروف يقول: «لولا أنّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات».

ولإدراك هذا الحديث نصغي لما قاله الإمام علي عليه السلام: «لا دين مع هوى، لا عقل مع هوى، من اتّبع هواه أعماه وأصمّه، وأذلّه وأضلّه»[1].

ربّاه، احفظنا من هوى النفس وتفضّل علينا بالتقوى والبصيرة.

إلهنا، كلّ الفضل والرحمة بيدك، فلا تحرمنا من فضلك العظيم.

ربّنا، وفّقنا لإقامة الحقّ والعدل والقسط وحراسة حدود الكتاب والميزان والوقوف بوجه الظالمين.

---

(١) كان لنا بحث مفصّل في هذا المجال في نهاية الآية (٢٩) من سورة الأنفال.

فهرس الجزء الخامس والعشرون

سورة الفتح

محتوى السورة ٥
فضل تلاوة سورة الفتح ٧
الفتح المبين ٨
قصّة «صلح الحديبية» ٨
نتائج الفتح المبين الكبرى ١٤
بحثان: ٢ - المراد من ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ و﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ١٧
نزول السكينة على قلوب المؤمنين ... ١٨
ماذا كانت هذه السكينة؟! ١٩
١ - السكينة التي لا نظير لها! ٢٠
٢ - سلسلة مراتب الإيمان ٢١
٣ - ركنا السكينة ٢٢
نتيجة أخرى من الفتح المبين ٢٢
ما المراد من ﴿جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟! ٢٥
من هم الظانون بالله ظن السوء؟! ٢٥
مكانة النبي وواجب الناس تجاهه! ... ٢٧
اعتذار المخلفين ٣٢
تعليل الذنب وتوجيهه مرض عام ٣٤
المخلّفون الانتهازيّون ٣٧
رضي الله عن المشتركين في بيعة الرضوان ٤١
بحث: البيعة وخصوصياتها! ٤٣
من بركات صلح الحديبية مرة أخرى! .. ٤٩
قصة غزوة خيبر ٥١
لو حدثت الحرب في الحديبية!؟ ٥٣
التعصب «وحمية الجاهلية» أكبر سد في طريق الكفار ٥٨
ما هي حمية الجاهلية؟! ٦٠
رؤيا النبي الصادقة ٦٢
عمرة القضاء ٦٤
﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ .. ٦٦
بحثان: ١ - قصة تنزيه الصحابة! ٧٢
٢ - المحبة الإسلامية المتبادلة ٧٥

سورة الحجرات

محتوى السورة ٧٧
فضل تلاوة هذه السورة! ٧٨
آداب الحضور عند النبي ٨٠
بحوث: ١ - الأدب أغلى القيم ٨٤
٢ - رفع الصوت عند قبر الرسول ٨٦
٣ - الانضباط الإسلامي في كل شيء وفي كل مكان! ٨٧
لا تكترث بأخبار الفاسقين ٩١

١ - هداية الله وحرية الإرادة ٩٦
٢ - القيادة والطاعة ٩٦
٣ - الإيمان نوع من العشق لا إدراك العقل فحسب... .... ٩٦
المؤمنون إخوة ٩٧
بحثان: الأول: شروط قتال أهل البغي «البغاة» ٩٩
الثّاني: أهمية الأخوة الإسلامية ١٠١
الاستهزاء وسوء الظن والغيبة والتجسس والألقاب السيئة حرام! ١٠٤
بحوث: ١ - الأمن الاجتماعي الكامل! ١٠٩
٢ - لا تجسسوا! ١١١
٣ - الغيبة من أعظم الذنوب وأكبرها! . ١١٢
٤ - مفهوم الاغتياب؟ ١١٣
٥ - علاج الغيبة والتوبة منها! ١١٤
٦ - موارد الاستثناء! ١١٥
التقوى أغلى القيم الإنسانية ١١٦
بحثان: ١ - القيم الحقّة والقيم الباطلة . ١١٧
٢ - حقيقة التقوى ١٢٠
الفرق بين الإسلام والإيمان ١٢٣
لا تمنوا علي إسلامكم ١٢٦

سورة ق

محتوى السورة ١٣٠
فضل تلاوة سورة «ق» ١٣٠
المنكرون المعاندون في أمر مريج! ... ١٣١
انظروا إلى السماء لحظة! ١٣٥
لست وحدك المبتلى بالعدو ١٣٨
كتابه جميع الأقوال ١٤٠
بحث: الحبيب أقرب إلى الإنسان من نفسه!! ١٤٥
القيامة، والبصر الحديد ١٤٦
بحوث: ١ - حقيقة الموت ١٥٠
٢ - سكرات الموت ١٥١
٣ - الموت حق ١٥٢
قرناء الإنسان من الملائكة والشياطين . ١٥٣
ادخلوا الجنة... أيها المتقون! ١٥٩
خالق السماوات والأرض قادر على إحياء الموتى ١٦٤
بحث: الصبر مفتاح لكل فلاح ١٦٨
يخرج الجميع أحياءً عند صيحة القيامة . ١٦٩

سورة الذاريات

محتوى السورة ١٧٢
فضل تلاوة هذه السورة ١٧٢
قسماً بالأعاصير والسحب الذاريات .. ١٧٣
﴿وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ ١٧٦
ثواب المستغفرين بالأسحار ١٨٠
بحوث: ١ - التوجّه نحو الله وخلق الله . ١٨٤
٢ - السهر ديدن العشاق ١٨٥
حق السائل والمحروم! ١٨٦
آيات الله وآثاره في أنفسكم ١٨٦
بحوث: قصة الأصمعي المثيرة ١٩١
أين الجنة؟! ١٩٢

الاستفادة من آيات الله تحتاج إلى قابلية! ١٩٢
الرزق حق ١٩٣
ضيوف إبراهيم عليه السلام ١٩٤
كرم الأنبياء ١٩٨
مدن قوم لوط المدمرة آية وعبرة ١٩٩
بحث: أين تقع مدن قوم لوط؟ ٢٠٢
دروس العبرة من الأقوام السالفة ٢٠٣
أوجه عذاب الله! ٢٠٧
الرياح اللواقح والرياح العقيم! ٢٠٨
﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ٢٠٨
إن الذكرى تنفع المؤمنين ٢١٣
لابد من قلوب مهيأة لقبول الحق ٢١٥
هدف خلق الإنسان من وجهة نظر القرآن ٢١٦
بحوث: ١ - الله غني على الإطلاق ... ٢١٨
٢ - الله ذو القوة المتين ٢١٨
٣ - لم قدم ذكر الجن؟ ٢١٩
٤ - الحكمة من الخلق في نظر الفلسفة ٢١٩
٥ - الروايات الإسلامية وفلسفة خلق الإنسان ٢٢٣
٦ - الإجابة على سؤال ٢٢٤
هؤلاء يشاركون أصحابهم في العذاب . ٢٢٥

سورة الطور

محتوى السورة ٢٢٩
فضل تلاوة هذه السورة ٢٣٠
كيف يساق المجرمون إلى جهنم؟ ٢٣٦
الخائضون في الأباطيل! ٢٣٧
مواهب الله للمتقين ٢٣٨
مواهب أخرى لأهل الجنة ٢٤٣
- ارتباط الآيات ومضامينها ٢٤٦
أمنيات المشركين وتحدي القرآن ٢٤٧
ما هو كلامكم الحق؟ ٢٥٢
إنك بأعيننا! ٢٥٨

فهرس الجزء السادس والعشرون

سورة النجم

محتوى السورة ٢٦٣
فضل تلاوة هذه السورة ٢٦٤
أول لقاء مع الحبيب ٢٦٨
الرؤية الثانية ٢٧٤
بحوث: ١ - المعراج حقيقة مقطوع بها . ٢٧٨
٢ - ما هو الهدف من المعراج؟ ٢٧٨
٣ - المعراج والجنة ٢٧٩
٤ - المعراج في الروايات الإسلامية .. ٢٧٩
٥ - جانب من إيحاءات الله وكلماته لرسوله في ليلة المعراج ٢٨٢
هذه الأصنام وليدة أهوائكم ٢٨٤
بحوث: ١ - أصنام العرب الثلاثة المشهورة ٢٨٦
٢ - أسماء دون مسمّيات ٢٨٧

٣ - الدافع النفسي لعبادة الأصنام ... ٢٨٨
٤ - أسطورة الغرانيق مرة أخرى ٢٨٩
الشفاعة أيضاً بإذنه ٢٩٠
١ - سعة الأماني ٢٩٢
كلام في شأن الشفاعة ٢٩٣
﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ ٢٩٣
رأس مال عبدة الدنيا ٢٩٦
لا تزكوا أنفسكم ٢٩٧
بحوث: ١ - علم الله المطلق ٢٩٩
٢ - ما هي كبائر الإثم؟ ٣٠٠
٣ - تزكية النفس ٣٠١
كلٌ يتحمل مسؤولية أعماله ٣٠٣
بحوث: ١ - ثلاثة أصول إسلامية مهمّة ٣٠٥
٢ - سوء الاستفادة من مفاد الآية ٣٠٦
٣ - الجواب على سؤالين ٣٠٧
٤ - صحف إبراهيم وموسى ٣٠٨
٥ - المسؤولية عن الأعمال في كتب السابقين ٣٠٩
كل شيء ينتهي إليه ٣٠٩
بحوث: ١ - كل الدلائل تشير إليه ٣١٢
٢ - عجائب نجم الشعرى ٣١٣
٣ - حديث عميق المحتوى عن النبي ﷺ ٣١٤
ألا تكفي دروس العبرة هذه؟! ٣١٥
اسجدوا له جميعاً ٣١٨

سورة القمر

محتوى السورة ٣٢٢
فضل تلاوة سورة القمر ٣٢٣
شق القمر!! ٣٢٣
بحوث: ١ - شق القمر معجزة كبيرة للرسول ﷺ ٣٢٦
٢ - مسألة شق القمر والعلم الحديث .. ٣٢٨
٣ - شق القمر تاريخيا ٣٣٠
تأريخ وقوع هذه المعجزة ٣٣٢
يوم البعث والنشور ٣٣٣
لماذا كان يوم القيامة يوماً عسيراً؟ ٣٣٥
قصة قوم نوح عبرة وعظة ٣٣٧
مصير قوم عاد ٣٤٢
بحث: سعد الأيام ونحسها ٣٤٤
العاقبة الأليمة لقوم ثمود ٣٤٩
المصير الأكثر شؤماً ٣٥٥
هل أنتم أفضل من الأقوام السابقة؟! .. ٣٥٩
تنبؤ إعجازي صريح ٣٦٣
المؤمنون في ضيافة الله ٣٦٤
بحوث: ١ - التقدير والحساب في كل شيء ٣٦٨
٢ - التقدير الإلهي وإرادة الإنسان ٣٦٩
٣ - الأمر الإلهي كلمة واحدة ٣٧١
٤ - بداية ونهاية سورة القمر ٣٧٢

سورة الرحمن

محتوى السورة ٣٧٤
فضل تلاوة سورة الرحمن ٣٧٥
بداية النعم الإلهية ٣٧٦
تأمّلات في الرّوايات ٣٨٢
السماء رفعها ووضع الميزان ٣٨٣
١ - معرفة النعم طريق لمعرفة الله ٣٨٩
٢ - مسألة النظم والحساب في الحياة ٣٩٠
الصلصال وخلق الإنسان ٣٩١
البحار وذخائرها الثمينة ٣٩٤
إذاً ما هو المقصود من هذين البحرين؟ ٣٩٥
بحوث: ١ - البحر مركز النعم الإلهية ٣٩٨
٢ - الأنهار البحرية العظيمة (والگلف استيرين) ٣٩٩
٣ - تفسير من أعماق الآيات ٤٠٠
كل شيء هالك إلا وجهه ٤٠١
بحوث: ١ - ما هي حقيقة الفناء؟ ٤٠٥
٢ - استمرار الخلق والإبداع ٤٠٥
٣ - الحركة الجوهرية ٤٠٦
التحدي المشروط ٤٠٨
﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ ٤١٢
الجنتان اللتان أُعدّتا للخائفين ٤١٦
الجنة والزوجات الحسان ٤٢٠
بحث: جزاء الإحسان ٤٢٢
جنتان بأوصاف عجيبة ٤٢٣
بحث: قيمة الفاكهة ٤٢٥
زوجات الجنة... مرة أخرى ٤٢٧

سورة الواقعة

محتوى السورة ٤٣٢
فضل تلاوة هذه السورة ٤٣٣
الواقعة العظيمة ٤٣٤
الجنّة بانتظار المقربين ٤٤١
أصحاب اليمين وهباتهم ٤٤٥
العقوبات المؤلمة لأصحاب الشمال ٤٤٩
عقوبات جديدة للمجرمين ٤٥٤
سبعة أدلة على المعاد ٤٥٦
حجيّة القياس ٤٦٠
هل أنتم الزارعون أم الله؟ ٤٦١
من الذي خلق الماء والنار؟ ٤٦٣
المطهرون ومعرفة أسرار القرآن ٤٧٠
أولاً: خصوصية القرآن الكريم ٤٧٥
ثانياً: القرآن والطهارة ٤٧٥
عندما تصل الروح إلى الحلقوم ٤٧٦
١ - لحظة ضعف الجبارين ٤٧٨
٢ - هل أن قبض الروح يكون تدريجياً؟ ٤٧٩
مصير الصالحين والطالحين ٤٨٠
عالم البرزخ ٤٨٤

سورة الحديد

محتوى السورة ٤٨٦
فضل تلاوة سورة الحديد ٤٨٧
آيات للمتفكرين ٤٨٨

بحث: جمع الأضداد في صفات الله .. ٤٩١
على عرش القدرة دائماً ٤٩٢
آيات الاسم الأعظم ٤٩٧
الإيمان والإنفاق أساسان للنجاة ٤٩٨
بحوث: ١ - بواعث الإنفاق ٥٠٣
٢ - شروط الإنفاق في سبيل الله! ٥٠٤
٣ - السابقون في الإيمان والجهاد والإنفاق ٥٠٦
انظرونا نقتبس من نوركم ٥٠٧
الاستغاثة العقيمة للمجرمين ٥١٢
إلى متى هذه الغفلة؟ ٥١٤
الدنيا متاع الغرور ٥١٨
١ - مقام الصديقين والشهداء ٥٢٢
٢ - الحياة الدنيا... لهو ولعب ٥٢٣
المسابقة المعنوية الكبرى!! ٥٢٤
الهدف الأساس من بعثة الأنبياء ٥٣١
١ - الحدود بين القوّة والمنطق ٥٣٥
٢ - الحديد واحتياجات الحياة الأساسية ٥٣٦
تعاقب الرسل واحداً بعد الآخر ٥٣٧
بحوث: ١ - الإسلام والرهبانية ٥٤١
٢ - المصدر التأريخي للرهبانية ٥٤٣
٣ - المفاسد الأخلاقية والاجتماعية الناشئة من الرهبانية ٥٤٤
٤ - إنجيل أم أناجيل! ٥٤٥
الذين لهم سهمان من الرحمة الإلهيّة .. ٥٤٧
بحث: التقوى والوعي ٥٥٠
الفهرس ٥٥٣